والنص القرآني جاء بقول الحق : « لا يؤمنون » وجاء العلماء عند هذه المسألة واختلفوا ، وجزى الله الجميع خيرا ؛ لأنها أفهام تتصارع لتخدم الإيمان . ونسأل : ما الذي يجعل الأسلوب يجيء بهذا الشكل ؟ ونقول : إنها مقصودات الإله حتى نعيش في القرآن . لا أن نمر عليه المرور السريع . والأسلوب في قوله : « وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون » هو دليل على أنه ليس لكم علم . وقلنا : إن الشعور يحتاج إلى إدراك ومواجيد ونزوع ، فعلى أي أساس بنيتم شعوركم هذا ؟ أنتم أخذتم ظاهر كلامهم ، ولكن الحق يعلم ويحيط بما يخفون ويبطنون . وكأنه سبحانه يوضح أن طلب الآية إنما هو تحيك . وأنتم لا تعلمون أن الله إن جاء لهم بالآية فلن يؤمنوا .

وبعض من المفسرين قال : إن (لا) زائدة ومنهم من كان أكثر تأدبا فقال : (لا) صلة لأنهم خافوا أن يقولوا : (لا) زائدة وقد يأخذ البعض بمثل هذا القول فيحذفها ، لذلك أحسنوا الأدب ؛ لأن الذي يتكلم هو الإله وليس في كلامه حرف زائد بحيث لو حذفته يصح الكلام ، لا . إنك إذا حذفت شيئا فالكلام يفسد ولا يؤدي المراد منه ؛ لأن لله مرادات في كلامه ، وهذه المرادات لابد أن يحققها أسلوبه . والمثال في حياتنا أن يقول لك واحد : « ما عندي مال » أو ما عندي من مال ؟ إن « من مال » هنا ابتدائية أي ما عندي من بداية ما يقال : إنه مال ، أما من يقول : « ما عندي مال » أي ليس عنده ما يعتد به من المال الذي له خطر وقيمة ، بل عنده قروش مما لا يقال له : مال . إن في جيبه القليل من القروش .

و « لا » في هذه الآية جاءت لأن الحق يريد أن يقول للمؤمنين : ما يعلمكم يا مؤمنون أنني إذا جئت لهم بالآية يؤمنون ، فكأنه سبحانه ينكر على المؤمنين تأييد مطلب الكافرين . وقد تلطف الحق مع المؤمنين وكرم حسن ظنهم في التأييد لأنهم لا يؤيدون الطلب حبا في الكفار ، بل حبا في النبي والمنهج ، وكأن الحق يقول لهم : أنا أعذركم لأنكم تأخذون بظاهر جهد اليمين « وأقسموا بالله جهد أيمانهم » ومبالغتهم فيه . ولا أنكر عليكم تصديقكم لظاهر قولهم ؛ لأن هذا هو مدى علمكم ، وما أدراكم أنني إذا جئت بالآية أنهم أيضا لن يعلنوا الإيمان . ولو كنتم تعلمون ما أعلم لعرفتم أنهم لن يؤمنوا . إذن حين جاء الأسلوب بـ « لا يؤمنون » فـ « لا » حقيقية وليست زائدة . ومن أجل أن يطمئن الحق المؤمنين أظهر لهم أن علمه الواسع يعلم حقيقة أمرهم بقول :

﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾ ﴾

وحين تقول : أنا أقلب السلعة فهذا يعنى أنك تفحصها . والحق يبلغنا هنا : أنا قلبت قلوبهم على كل لون ولن آخذ بظاهر الفؤاد ، بل بلطفى وعظيم خبرتى أعلم الباطن منهم فاطمئنوا إلى أن حكمى هو الحكم الحق الناتج من تقليب لطيف خبير .

وقد يكون هنا معنى آخر ، أى أن يكون التقليب لونا من التغيير ؛ فمن الجائز أنهم حينما أقسموا بالله جهد أيمانهم كانوا فى هذا الوقت قد اقتربوا من الإيمان ولكن قلوبهم لا تثبت على عقيدة . بل تتقلب دائما . ومادامت قلوبهم لا تثبت فأنّى لنا بتصديقهم لحظة أن أقسموا بالله جهد أيمانهم على إعلان الإيمان إن جاءت اية ؟ وهل فيهم من يملك نفسه بعد مجىء الآية أيظل أمره كذلك لم يتغير ؟ . لأن ربنا مقلب القلوب وما كنت تستحسنه أولا قد لا تستحسنه ثانيا . حين « نقلب أفئدتهم وأبصارهم » أى أن الحكم قد جاء عن خبرة وإحاطة علم (ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة) .

إن الإيمان يحتاج إلى استقبال آيات كونية بالبصر ، وبعد أن تستقبل الآيات الدالة على عظمة الإله تؤمن به ويستقر الإيمان فى فؤادك . وسبحانه يوضح لنا أنه يقلب أفئدتهم وأبصارهم ، هل يبصرون باعتبار واقتناع ؟ أو هى رؤية سطحية لا فهم لهم فيها ولا قدرة منهم على الاستنباط ؟ وهل أفئدتهم قد استقرت على الإيمان أو أن أبصارهم قاصرة وقلوبهم قاصرة ؟

﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

إذن فهم لا يؤمنون ويسيرون إلى ضلالهم . فإن جاءت آية فلن يؤمنوا ، وفى هذا عذر للمؤمنين فى أنهم يرجون ويأملون أن تنزل آية تجعل من أقسموا جهد الإيمان أن يؤمنوا .

لماذا؟ لأن الحق قال : «كما لم يؤمنوا به أول مرة» ، أى أنهم لم يتغيروا ولذلك يصدر ضدهم الحكم «ونذرهم فى طغيانهم يعمهون» والطغيان هو تجاوز الحد ، وهم قد تجاوزوا الحد هنا فى استقبال الآيات ، فقد جاءتهم آيات القرآن وعجزوا عن أن يأتوا بمثلها ، وعجزوا عن أن يأتوا بعشر سور ، وعجزوا عن أن يأتوا بسورة ، وكان يجب الا يطغوا ، والا يتجاوزوا الحد فى طلب الاقتناع بصدق الرسول .

«ونذرهم فى طغيانهم يعمهون» و«العمه» هو التردد والحيرة ، وهم فى طغيانهم يترددون ، لأن فيهم فطرة تستيقظ ، وكفرا بلح ، يقولون لأنفسهم : أنؤمن أو لا نؤمن؟ والفطرة التى تستيقظ فيهم تلمع كومضات البرق ، وكان يجب ألا يترددوا : أو «ونقلب أفئدتهم وأبصارهم» فى النار ، لأن البصر لم يؤد مهمته فى الاعتبار ، والقلب لم يؤد مهمته فى الفقه عن الله ، فيجازيهم الله من جنس ما عملوا بأن يقلب أبصارهم وقلوبهم فى النار .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾ ﴾

هنا يوسع الحق المسألة . فلم يقل : إنهم سوف يؤمنون ، بل قال : «ولو أننا نزلنا اليهم الملائكة» مثلما اقترحوا ، أو حتى لو كلمهم الموتى ، كما قالوا من قبل :

﴿ فَأْتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [سورة الدخان]

ويأتى القول : «وحشرنا عليهم كل شىء» و«الحشر» يدل على سوق بضغط مثلما نضع بعضا من الكتب فى صندوق من الورق المقوى ونضطر إلى أن نحشر كتابا لا مكان له ، إذن : الحشر هو سوق فيه ضغط ، وهنا يوضح الحق : لو أننى

أحضرت لهم الآيات يزاحم بعضها بعضا وقدرتى صالحة أن آتى بالآيات التى طلبوها جميعا لوجدت قلوبهم مع هذا الحشر والحشد تضن بالإيمان.

«وحشرنا عليهم كل شىء قبلا» و«قبلا» هى جمع «قبيل»، مثل سرير وسرر.

«وحشرنا عليهم كل شىء قبلا». وهذا يعنى أن الحق إن جاء لهم بكل ما طلبوا من آيات، وكأن كل آية تمثل قبيلة والآية الأخرى تمثل قبيلة ثانية، وهكذا. فلن يؤمنوا، أو «قبلا» تعنى معاينة أى أنهم يرونها بأعينهم، لأن فى كل شىء دبرا وقبلا؛ والقبل هو الذى أمام عينيك، والدبر هو من خلفك. فإن حشرنا عليهم كل شىء مقابلا. ومعاينا لهم فلن يؤمنوا. وإن أخذتها على المعنى الأول أى أنه سبحانه إن حشد الآيات حشدا وصار المعطى أكثر من المطلوب فلن يؤمنوا. وإن أردت أن تجعلها مواجهة، أى أنهم لو رأوا بعيونهم مواجهة من أمامهم فلن يؤمنوا.

﴿ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ .. (١١١) ﴾ [سورة الأنعام]

وجاء الحق هنا بمشيئته لأن له طلاقة القدرة التى إن رغب أن يرغمهم على الإيمان فلن يستطيعوا رد ذلك، ولكن الإرغام على الإيمان لا يعطى الاختيار فى التكليف ولذلك قال سبحانه:

﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٣) إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ (٤) ﴾ [سورة الشعراء]

والله لا يريد أعناقا تخضع، وإنما يريد قلوبا تخشع. لذلك يذيل الحق الآية بقوله: «ولكن أكثرهم يجهلون». والجهل يختلف عن عدم العلم، بل الجهل هو علم المخالف، أى أن هناك قضية والجاهل يعلم ما يخالفها، أما إن كان لا يعلم القضية فهذه أمية ويكفى أن نقولها حتى يفهمها فورا. لكن مع الجاهل هناك مسألتان: الأولى أن نزيل من ادراكه هذا الجهل الكاذب، والأخرى أن نقنع فى

إدراكه القضية الصحيحة ، وما دام أكثرهم يجهلون . فهذا يعنى أنهم قد اتبعوا الضلال .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾

« و كذلك » إشارة من الحق سبحانه وتعالى إلى الرسل والأنبياء ليعطى الأسوة للرسول بإخوانه السابقين له فى موكب الرسالات ، فلست بدعا - يا محمد - فى أنك رسول يُواجَه بأعداء ، فكل رسول من الرسل ووجه وقوبل بهؤلاء الأعداء .

وهل فَتّ أعداء الرسل فى عضد مَن أرسل إليهم وأضعفوا قوتهم وأوهنوا عزائمهم وأثنوهم عن دعوتهم ؟ أو ظل الرسل أيضا صامدين ؟ . . إنهم صمدوا وأيدهم الله ونصرهم وإذا كنت أنت خاتم الرسل ، وسيد المرسلين ، والمعقب على رسالات سيقتك ولا معقب على رسالتك فلابد أن يكون الأعداء الذين يواجهونك مناسبين للمهمة التى تؤديها . وإياك أن تظن أن المقصد فى هذه العداوة أننا تركناهم أعداء لمجرد العداء ، لا ، بل نحن قد أردنا هذه العداوة لصالح الدعوة ؛ لأن الإنسان إذا ما كان فى منهج خير وأهاجه الشر يتحمس لمزيد من الخير . ولذلك لا تجد الصحوات الإيمانية إلا حين يجد المؤمنون تحديا من خصومهم ، هنا تجد الصحوة الإيمانية قد استيقظت لأن هناك خصوما يتحدونها ، ولو لم يكن هناك خصوم لبقيت الصحوة فاترة . وهذا ما نراه حين يوجد من خصوم الإسلام من أى لون من ألوانهم مَن يتحدى أى قضية من قضايا الدين . فى هذه الحالة نجد حتى غير الملتزم بمنهج الإسلام يغار على الدين .

إذن فالعداوة لها فائدة ، وإياك أن تظن أن في أي مظهر في الوجود يُغلب الله على مراداته في كونه ، والشر له رسالة لأنه لولا أن الشر موجود ويصاب الناس من أذاه لما تحمس الناس للخير ، فالذي يجعلنا نتحمس للخير هو وجود الشر ، وأوضحنا من قبل أن الباطل جندي من جنود الحق ؛ لأن الباطل حين يعض ويعربد في الناس يتساءل الناس متى يأتي الحق لينقذنا ، وأنك ساعة ترى مريضا يتألم إياك أن تظن أن الألم قد جاءه دون سبب ، بل الألم جندي من جند الشفاء . وكأن الألم يقول لمن يصيبه : يا إنسان تنبه أن عطبا في هذا المكان فسارع إلى علاجه . ولذلك نجد أعنف الأمراض وأشرسها وأخبثها ، هي الأمراض التي تأتي بلا ألم يسبقها ، ولا تظهر أعراضها إلا بعد أن يستعصى شفاؤها ، وهكذا نرى أن الألم جندي من جنود العافية .

وحين يكون لك عدو في الحارة أو في البلدة وعيونه مركزة عليك فأنت تخاف أن تقع منك هنة وعيب حتى لا يشنّع عليك ؛ لذلك تسير على الصراط المستقيم لأنك لا تريد أن تنتصر على نفسك .

والشاعر القديم ، الذي أعجبه الشعر فشطره . يقول لك :

عداي لهم فضل عليّ ومنة ... فعندي لهم شكر على نفعهم ليا
فهم كدواء والشفاء بمره ... فلا أبعد الرحمن عني الأعاديا
هم بحثوا عن زلتي فاجتنبتها ... فأصبحت مما دنس العرض خاليا
وهم أججوا جهدي ولكن ببغضهم ... وهم نافسوني فاكتسبت المعاليا

لذلك لابد أن تنظر إلى كل شيء بحكمة إيجاد الحكيم له فقد شاء الحق أن يوجد الأعداء للدعوة الإسلامية حتى تنتصر وتقوى .

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

وجعل الحق سبحانه وتعالى الأعداء للأنبياء ، مهيِّجين ومثيرين للنبي ولأتباعه ، لأن الأمر إذا حصلت فيه معارضة من مخالف أججت في نفس المقابل قوة حتى لا يهزم

أمامه ولا يغلب أمام منطقه. ولذلك قال الحق: «وكذلك جعلنا» أي أنهم لم يتطوعوا بالعداوة إنما هو تسخير للعداوة «جعلنا لكل نبي عدوا».

وكيف يجعل الله لكل نبي عدوا؟ إنه يفعل ذلك بما أودع في الناس من الاختيار، وما داموا مختارين فالذي اختار الهدى يكون نصيراً للنبي، والذي اختار الضلال يكون عدوا للنبي.

إذن فهم لم يكونوا أعداء بطبيعتهم، وإنما بما أودع الله فيهم من الاختيار.

وإذا كان الله هو الذي أودع الاختيار فقد أراد أن يحقق مشيئته في قوله:

﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ.. ﴿٤٢﴾﴾ [سورة الأنفال]

ولو شاء الله الا يكون للنبوة أعداء لفعل ذلك؛ لأن له طلاقة القدرة، ولكن ذلك سيكون بالقهر، والله لا يريد قهراً للعقلاء، وإنما يريد أن يذهبوا إليه بمحض اختيارهم؛ أي وهم قادرون على الا يذهبوا. وكلمة «عدو» في ظاهرها أنها مفرد، ولكنها تطلق على الواحد، وتطلق على الاثنين، وتطلق على الجماعة، فتقول: «هذا عدو لي»؛ و«هذه عدو لي»؛ ولا تقل «عدوة»، وتقول: وهذان عدو لي، وهاتان عدو لي، وهؤلاء عدو لي، لأن كلمة «عدو» تطلق على الذكر والأنثى وتقال للمفرد وللمثنى، وللجمع.

اقرأوا قول الحق:

﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [سورة الشعراء]

واقرأوا قول الحق:

﴿قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ.. ﴿١٢٣﴾﴾ [سورة طه]

ولم يقل أعداء، إذن فكلمة «عدو» تطلق على المفرد والمفردة، والمثنى والمثناة،

وعلى جمع المذكر ولجمع المؤنث . لكن بعض الذين يحبون أن يكونوا مستدركين على كلام الله . يقول الواحد منهم : كيف يقول : « فإنهم عدو لي » ، أو « اهبطوا بعضكم لبعض عدو » ؟! ويقول سبحانه وتعالى :

﴿ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ..﴿٢٢﴾ ﴾

[سورة الأعراف]

والشيطان عدو ، وهم عدو . وبعد ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا ..﴿١٠٣﴾ ﴾

[سورة آل عمران]

ونقول له : أنت قد فاتك أن الذى يتكلم هو الرب الأعلى . والعداوة نوعان ، فإذا تعدد العدو ، وجمعته مصلحة واحدة فى معاداة المعادى يكونون وحدة فى العداوة فهم عدو واحد لاجتماعهم على سبب واحد فى العداوة . لكن إذا تعددت أسباب العداوة فالأمر يختلف ، فقد يكون لك عدو لأن مظهرك أحسن منه ، وعدو آخر لأنك أذكى منه ، وعدو ثالث لأنك أغنى منه . فلتعدد الأسباب صار كل واحد منهم عدواً برأسه وجمع على أعداء لتعدد سبب العداوة .

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ..﴿١١٢﴾ ﴾

[سورة الأنعام]

وشياطين الإنس والجن كما يقول النجاة بدل من عدو و « شياطين » جمع شيطان وهو اللعين المطرود ، البغيض ، سواء أكان من الإنس أم من الجن .

« يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً » والوحى - كما نعرف - هو إعلام بخفاء ، ولماذا يوحى بعضهم إلى بعض ؟ لأن غلبة الحق لا تجعلهم قادرين على أن يتجاهروا ؛ لذلك يتآمرون مع بعضهم البعض ، لكن الناس المحقين فى قضية يتحركون فى علانية . ولا يستخفون من الناس .

« يوحى بعضهم إلى بعض » ومن الذى يوحى ؟ ومن الذى يوحى إليه ؟ ليس لنا دخل بهذا الموضوع ، إنما الوحى : هو إعلام بخفاء ، إن كان إلهاماً فى النفس ، أو إن كان بالإشارة أو بالدس ، أو إن كان بالوسوسة ، أو إن كان بواسطة رسول نحن لا نراه ، كل ذلك أساليب الوحى الشامل للخير والشر .

وإذا كان الوحى من شياطين الجن فهل يوحون إلا بشرّ ؟ نعم . وكذلك هناك شياطين من الإنس يوحون أيضاً بشرّ . مصداقاً لقوله الحق : « يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول » وزخرف القول ، المقصود به أنهم يدخلون على المسائل بالتزيين ، فيزينون للناس الشهوة ، ولذلك سماها ربنا « وسوسة » ، وتعلم أن المعانى حين يؤخذ لها ألفاظ تؤخذ من الأشياء الحسيّة ، والوسوسة هى صوت الحلى ، وقد اختار الله لما يفعله الشياطين من الإنس والجن للفظ الموحى بالمعنى المراد لأن وسوسة الحلى تغرى بالنفاسة وعظم القيمة ، والوسوسة طريقها هو الخفاء .

« يوحى بعضهم إلى بعض » وهم شياطين من الإنس والجن ، إنس يوحى لإنس بأن يزين له المعصية والشهوة ، وكثيراً ما يقع ذلك .

وجنّى يوحى لجنّى ؛ لأن الجن مكلّف أيضاً . وكذلك يوحى الجن للإنس .

« يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول » الزخرف . هو الشىء المزين ظاهره لكن باطنه فاسد ، ولذلك قال عز وجل :

﴿ وَزُخْرُفًا وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا .. ﴿٣٥﴾ ﴾ [سورة الزخرف]

أى أموراً مزخرفة ظاهراً ، لكن ليس لها عمق أو عمر أو نفاسة .

﴿ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا .. ﴿١١٢﴾ ﴾ [سورة الأنعام]

وذلك ليغروهم ويخدعوهم ليفعلوا ويقترفوا المعصية ، وإن لم يأتوا للمعصية بكلمات تزخرفها وتزينها فلن يستطيعوا أن يدخلوا بها على الناس ؛ لذلك يعرضون ويبدون محاسن المعصية فى ظاهر الأمر ، مثال ذلك أنك لا تجد من يقول لآخر :

اشرب الخمر لتصاب بتليف الكبد مثلا !! ولكن هناك من يقول : احتس الخمر ليذهب همك وتنشط نفسك ويكثر فرحك .

« زخرف القول غروراً » أى ليغروهم ؛ بإظهار فائدة موهومة فيه ، ويسترون عن الناس مضرّة هذا الشيء ومهالكه .

ويتابع سبحانه : « ولو شاء ربك ما فعلوه » إنّ الحق سبحانه وتعالى هو الذى أعطى خلقه اختياراً فى أن يكونوا مؤمنين أو أن يكونوا كافرين ، مهديين أو ضالين ، فى نور أو فى ظلمة . ويأتى الوقت الذى يثيب فيه سبحانه أو يعاقب ؛ لذلك فهو - جل شأنه - لا يرغمهم على فعل ثم يعاقبهم عليه ؛ لأنه هو العدل . ولذلك نجد من يقول : لماذا العقاب ولا شيء فى الكون يقع على غير مشيئة الله ؟ ونقول : نعم كل شيء من فعل الله ؛ لأن سبب الاختيار من الله . وسبحانه هو الذى خلق الاختيار . فالكافر لا يقدر أن يؤمن إلا إن شاء الله ، لكن المطلوب منه أن يؤمن لأن طبيعته صالحة للكفر وصالحة للإيمان .

إذن خلق الله الإنسان مختاراً فى أن يفعل أو لا يفعل فى بعض الأمور ، فالذى ينظر إلى أن كل فعل من الله أى ليس بطاقة من عبد ، نقول له : صح رأيك . ومن يقول : إن هذا الأمر من العباد نقول له أيضاً : صح موقفك ؛ لأن ربنا خلق الإنسان صالحاً لأن يحصل منه كذا ويحصل منه كذا . فإن أردت الحقيقة تجد كل فعل يأتى من الله ، فأنت - على سبيل المثال - لم تخلق القوة التى لليد لترتفع ، ولا خلقت القوة للأصابع لتنقبض . وإذا أردت أن تقبض يدك . فما هى العضلات التى تتحرك لتفعل الانقباض ؟ أنت لا تعرف . إنّك تقبض يدك بمجرد إرادة منك أن تقبضها ، والذى خلق لك هذه القوة يأمرك ألا تستعملها فى قهر الآخرين ، ولكن عليك أن تستعملها فيما يفيد الناس . واليد صالحة للضرب وللعمل الطيب وأنت لم تخلق الطاقة التى فى اليد ، ولا خلقت الانفعال فيها لإرادتك .

« ولو شاء ربك ما فعلوه » أى لو شاء عدم فعله لفعل ؛ لأن له طلاقة القدرة فلا يقدر أحد أن يخرج عن مراده أبداً . ونحن نرى السماء والأرض وكل ما دون الإنسان مسخراً ، ثم لماذا نأخذ أمثلة من السماء والأرض والنبات والجماد والحيوان؟ خذ المثال من نفسك . أنت فيك أشياء ليس لك سيطرة عليها، ولا اختيار لك عليها ، ألك اختيار أن تمرض ؟ . لا .

ألك اختيار أن يقع عليك حجر وأنت تمشي؟ لا

ألك اختيار في أن يصيبك سائق سكران؟ لا.

ألك اختيار في أن تموت أو لا تموت؟ لا. لقد جعل الله فيك الأمرين الأثنين:

قهرك في أمور والقهرية تثبت له - سبحانه - القدرة وطلاقتها، وجعلك مختارا في أشياء، والاختيار يثبت صحة التكليف

ويتابع الحق مذيلاً الآية: «فذرهم وما يفترون» لأن افتراءهم وكذبهم وزعمهم الباطل لن يغير من حقيقة الأمر شيئاً، وهم يرون أن افتراءهم يعرق الدعوة، لا، فقد صار افتراؤهم وكيدهم وعداوتهم للنبي وقوداً مهيّجاً للدعوة، لأن يخلص الدعوة من الشوائب ويصهر المؤمنين بها ويخرج منهم خصال الشر ويملأهم بخلال الخير

﴿ فأما الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ .. (٧) ﴾

[سورة الرعد]

ولو لم يكن هناك مهيّجات لهذه المسائل لدخل الدعوة العاطل والباطل ولاندس فينا من لايعرف قيمة الإيمان، لذلك يمحص الله الدعوة بالأعداء وبالقوم الذين يقفون أمامها حتى لايكون في حملة الدعوة أحد من ضعاف العقائد وضعاف الإيمان، وهم الذين يخرجون هرباً من مسئوليات الإيمان ولايبقى إلا أصحاب الرسالة الذين يخلصون الصدق مع الله وينقيهم الله بواسطة الأعداء، ولذلك قال

﴿ لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا .. (٤٧) ﴾ [سورة التوبة]

فمن الحكمة أنه سبحانه - ثبط عزيمتهم وضعف رغبتهم في الانبعاث والخروج معكم

﴿ وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ (٤٦) ﴾ [سورة التوبة]

وهنا يقول الحق « يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول » وزخرف القول هو لون من الأداء له سُمّاع ، ومن يسمعونه قد لا يؤثر فى قلوبهم ولا فى نفوسهم . ومرة أخرى يسمعونه ويكون عندهم ميل وليس عندهم عقيدة ثابتة راسخة إلى هذا القول .

وكيف يسلك هؤلاء الناس :

﴿ وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾ ﴾

كأن من يؤمن بالآخرة لا يقرب منه الزخرف أبداً ولا يميل إليه . وإن زُينت له معصية فإنه يتساءل : كم ستدوم لذة هذه المعصية ؟ دقيقتين ، ساعة ، شهراً ، وماذا أفعل يوم القيامة الذى يكون فيه الإنسان إمّا إلى دخول الجنة وإمّا إلى دخول النار . إذن فمن يؤمن بالآخرة لا تثقل أذنه ولا فؤاده هذا الزخرف من القول ، ولا يتقبله إلا من لا يؤمن بالآخرة ، وهو لا يعرف إلا الدنيا ، فيقول لنفسه : فلتتمتع فى الدنيا فقط ، ولذلك لو استحضر كل مؤمن العقوبة على المعصية ما فعلها ، وهو لا يفعلها إلا حين يغفل عن العقوبة . وإذا كنا فى هذه الدنيا نخاف من عقوبة بعضنا بعضاً ، وقدراتنا فى العقوبة محدودة ، فما بالنا بقدرة الرب القهرة فى العقوبة ؟! ولذلك نجد الذين يجعلون الآخرة على ذكر من أنفسهم وبالهم إذا عرضت لهم أى معصية ، يقارنوها بالعقاب ، فلا يقتربون منها . (ولتصغى إليه أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة وليرضوه وليقترفوا ما هم مقترفون) .

والإصغاء هو ميل الأذن إلى المتكلم ، لأنك قد لا تسمع من يتكلم بغير إصغاء ، وحين يسير الإنسان مثلا فى الطريق فهو يسمع الكثير ، لكن أذنه لا تتوقف عند كل ما يسمع ، بل قد تقف الأذن عندما يظن الإنسان أنه كلام مهم . ولذلك يسمونه التسمع لا السمع ، وهذا هو الإصغاء . ولذلك يقول النبى عليه الصلاة والسلام . من تسمع غانية أى امرأة تغنى بخلاعة - ولم يقل « من سمع » ، والإنسان ما قد يسير ويذهب إلى أى مكان والمذياع يذيع الأغانى ، ويسمعها الإنسان ، وآلة إدراك

السمع منطقة وليست مفتوحة ؛ فهو لا يتصنت ، وآلة إدراك الانطباقية أو الانفتاحية مثل العين ؛ فالعين لا ترى وهي مغمضة ، إنها ترى وهي مفتوحة ، والعين تغمض بالجفون أما الأذن فليس لها جفون يقول لها : لا تسمعي هذه ، وهذه اسمعيها .

إذن فالسمع ليس للإنسان فيه اختيار ، لكن التسمع هو الذي له فيه اختيار

﴿ ولتصغى إليه أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة وليرضوه وليقترفوا ما هم مقترفون ﴿١١٣﴾ ﴾

[سورة الأنعام]

كأن فيه شيئا يسبق طلب السمع فيه من الفؤاد ، أي يوافق ما في الأعماق ، وشيئا آخر يمر عليه الإنسان مر الكرام غير ملتفت إليه . والأفئدة هي القلوب ، صحيح أن الآذان هي التي تصغي ، لكن القلوب قد تتسمع ما يقال ، وكأن النفس مستعدة لهذه العملية ؛ لأنها لا تؤمن بأن هناك آخرة وعندما استعداد لأن تأخذ لذة الدنيا دون التفات للآخرة . ولذلك يلفت الحق سبحانه الإصغاء من الأذن إلى الفؤاد وهذا إدراك .

﴿ ولتصغى إليه أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة .. ﴿١١٣﴾ ﴾ [سورة الأنعام]

ثم تأتي المرحلة الثانية والمرحلة الثالثة :

﴿ .. وليرضوه وليقترفوا ما هم مقترفون ﴿١١٣﴾ ﴾ [سورة الأنعام]

وقد يصغي إنسان ، ثم تثبته نفسه اللوامة ، ويمتنع عن الاستجابة لكن هناك من يصغي ويرضى وجدانه ويستريح لما يسمع ، ثم ينزع للعمل ليقترف الإثم . وهذه ثلاث مراحل : الأولى هي : « ولتصغى إليه أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة » . ثم المرحلة الثانية : « وليرضوه » ، ثم المرحلة الأخيرة : « وليقترفوا » أي يرتكبوا الإثم ، وهذه المسألة حددت لنا المظاهر الشعورية التي درسها علماء النفس فالإدراك « التصغي » ، والوجدان « ليرضوه » ، والنزوع « ليقترفوا » .

وقبل أن يولد علم النفس جاء القرآن بوصف الطبيعة البشرية بمراحلها المختلفة من إدراك ووجدان ، ونزوع ، والشرع لا يتدخل عند أي مظهر من مظاهر شعور المرء إلا عند النزوع إلا في حالة واحدة حيث لا يمكن فصل النزوع عن الوجدان وعن الإدراك ؛ لذلك يتدخل الشرع من أول الأمر ، وهو ما يكون في عملية نظر الرجل إلى المرأة ؛ لأنك حين تنظر تجد في نفسك . تحبها وتعشقها تمتن بها ، ومحرم عليك النزوع ، فحين تتقدم ناحيتها يقول لك الشرع : لا . ولأن هذا أمر شاق على النفس البشرية ، ولا يمكن فصل هذه العمليات ، لأنه إن أدرك وَجِد ، وإن وَجِد نزع ، فأمر الحق بالامتناع من أول الأمر .

﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ .. ﴿٣٠﴾ ﴾ [سورة النور]

﴿ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَـٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَـٰرِهِنَّ .. ﴿٣١﴾ ﴾ [سورة النور]

إذن فقد منع الإدراك من بدايته ولم ينتظر حتى النزوع ، لماذا ؟ لأن الإدراك الجمالي في كل شيء يختلف عن الإدراك الجمالي في المرأة . الإدراك الجمالي في المرأة يُحدث عملية كيمياوية في الجسم تسبب النزوع ، ولا يمكن فصلها أبدا . (وتصغى إليه أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة وليرضوه وليقترفوا ما هم مقترفون) .

وساعة ما نقرأ « ما » ويأتي الإبهام فهذا دليل على أن هناك أموراً كثيرة جداً ولذلك يقول الحق :

﴿ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾ ﴾ [سورة طه]

أي أنه أمر لا يمكن أن تحدده الألفاظ ، مثله مثل قوله : (وليقترفوا ما هم مقترفون) .

أي أن كل واحد يقترف ويكتسب ويعمل ويرتكب ما يميل إليه ؛ فهناك من يعتاب أو يحسد أو يسرق وغير ذلك من شهوات النفس التي لا تحدد ؛ لذلك جاء لها باللفظ الذي يعطي العموم .

وما دامت المسألة في نبوّة واتباع نبوّة ، وفي أعداء شياطين من الإنس والجن

ويوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً إذن فهذه معركة ، وحتى يتم الفصل فيها لابد من حاكم يحكم . فأوضح الحق : يا محمد أنا أرسلتك ، ولك أعداء وسيكيدون لك بكذا وكذا ويبذلون قصارى جهدهم فى إيذائك ومن اتبعك ، فإياك أن تبتغى حكما غيرى ؛ لأنى أنا المشرع وأنا من أحكم ، وأنا الذى سوف أجازى

لماذا ؟ لأن الخلاف على ما شرع الله ، ولا يستقيم ولا يصح أن يأتى من يقول مراد المقنن كذا ، أو المفسر الفرنسى قال كذ ، والمفسر الإنجليزى قال كذ ، لا ، إن الذى يحكم هو من وضع القانون ، ومراداته هو أعلم بها ، والحق الواضح هو أعلم به ، وسبحانه هو من يحكم ، ولرسول صلى الله عليه وسلم يقول :

(إنما أنا بشر وإنكم تختصمون إلى فلعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فأقضى له على نحو ما أسمع ، فمن قضيت له بحق مسلم فإنما هى قطعة من النار فليأخذها أو ليتركها)[1] .

أى إياك أن يقول واحد . إن النبى قد حكم ؛ لأن النبى صلى الله عليه وسلم قد حكم بظاهر الحجة ، وقد يكون واحد من المختصمين قوى الحجة ، والآخر لا يجيد التعبير عن نفسه . إذن فالحكم هو الله لأنه هو الذى قص ، وما دام هو الذى قص وهو الذى يحكم بينكم ، فليطمئن كل إنسان يتخاصم مع غيره ؛ لأن القضية بفصل فيها أعدل العادلين وأحكم الحاكمين

ولذلك يقول الحق سبحانه .

﴿ أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا ۚ وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾ ﴾

فسبحانه هو من يحكم وهو من قص ، وهو من يعلم القانون ويعلم من يتبع

(١) رواه مالك وأحمد والبخارى ومسلم وأبو داود والنسائى والترمذى وابن ماجه

القانون ، ومن يخالف القانون ، الساعة تقول « أفغير الله أبتغي حكماً » فهذا دليل على أنك واثق أن نجيبك بل نقول لك إلا : لا تبتغي حكماً إلا الله ، ولذلك يطرح المسألة في صيغة استفهام ، ويقول صلى الله عليه وسلم مبلغاً عن ربه : « وهو الذي أنزل إليكم الكتاب مفصلاً » ، ولم يقل رسول الله : وهو الذي أنزل علي الكتاب ، بل قال مبلغاً عن رب العزة : « وهو الذي أنزل إليكم الكتاب » كأن العداوة ليست لمحمد وحده ، لكنها العداوة لأمة الإيمان كلها ، والحكم لأمة الإيمان كلها ، ومع أن القرآن نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم أولاً ، ولكن مهمته البلاغ إلى الناس والغاية منه للمؤمنين كلهم ، وهكذا تكون العداوة للنبي عداوة للمؤمنين كلهم ، ولذلك نزل عليه الحق هذا التساؤل : « أفغير الله أبتغي حكماً » كما أنزل عليه من قبل القول الحق

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ ﴾

(من الآية ١١٢ سورة الأنعام)

إذن فعدو النبي هو عدو للمؤمنين به والمتبعين له ، لكن قمة العداوة تكون للنبي المرسل من الحق .

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴾

(من الآية ١١٤ سورة الأنعام)

وكلمة « من ربك بالحق » فيها إغراء للمؤمنين بأن كل الأمر يعود عليكم أنتم بالفائدة ، لأن غاية إنزال الكتاب لكم أنتم ، والكتاب جاء بهذا المنهج لصالحكم ولن يزيد في صفات الله صفة ، ولن يزيد في ملك الله ملكاً ، بل الغاية أنتم

﴿ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ ﴾

(من الآية ١١٤ سورة الأنعام)

وسبحانه لم ينزل الكتاب إلا بتفصيل لا تلتبس فيه مسألة بأخرى

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴾

(من الآية ١١٤ سورة الأنعام)

والمقصود هنا بالذين آتيناهم الكتاب اليهود والنصارى ؛ لأنهم يعلمون صفاتك يا رسول الله ويعلمون نعتك ويعلمون الكثير من كتبك فكل ما يتعلق بك موجود عندهم لكن الآفة أنهم عتموا دينهم . فيما يعلن يبدونه ويظهرونه ، ودينا يسر به ، فما يسر به لا يعلنونه ويحرمون السؤال فيه ، ولا يقبلون فيه نقاشاً ، وعندما تصل إلى الحقيقة وتعرضها عليهم لا يقبلونها ، وما الذي جعلهم يقولون هكذا ؟ لأن لهم حالين اثنين . حال أيام أن كانوا يعاديهم من لا يؤمن بالسماء ومنهج السماء كعبدة الأوثان والمشركين . وقال فيه الحق :

(وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا)

(من الآية ٨٩ سورة البقرة)

لقد كانوا من قبل أعداء لذين كفروا وأشركوا فكان همهم وشغلهم الشاغل أن ينتصروا على هؤلاء الكافرين ، وقالوا :

(أظل زمان نبي نتبعه ونقتلكم معه قتل عاد وإرم)

وحينما جاءهم ما عرفوا كفروا به لأنهم :

(اشتروا بآيات الله ثمنا قليلا)

(من الآية ٩ سورة التوبة)

وكان الثمن هو بقاء السلطة في أيديهم ، وعندما تأتي النبوة تنزع منهم السلطة ، فليس في الإسلام سيطرة لرجال الدين ولا كهنوت . وكانوا يريدون أن تستمر سيادتهم ، فاشتروا بآيات الله ثمنا قليلا .

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴾

(من الآية ١١٤ سورة الأنعام)

وهم يعلمون أنه منزل من ربك بالحق ، وهم يعلمون أن الذي يشيعونه هو باطل إذن فهناك علم بينهم وبين نفوسهم ، وعلم آخر يقولونه للآخرين . وقوله الحق « فلا تكونن من الممترين » أي الشاكين في أن أهل الكتاب يعلمون أن القرآن منزل من عند ربك بالحق هذا خطاب للنبي ﷺ ، ونعلم أنه إذا طلب المتكلم من المخاطب أمرا هو فيه فالمراد المداومة عليه والزيادة ؛ لأن هناك أموراً قد تزلزل الإيمان ؛ لذلك يأتي الأمر بالثبات ، أو هو إهاجة له ، أو هو تسلية للمؤمنين إذ قال لهم لا تمتروا ولا تشكوا .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾ ﴾

وكلمة « تمت » تدل على أن المسألة لها بداية ولها خاتمة ، فما المراد بالكلمة التي تمت ؟ . أهي كلمة الله العليا بنصر الإسلام وانتهاء الأمر إليه ؟ أو هو تمام أمر الرسالة حيث قال الحق :

﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا .. ﴿٣﴾ ﴾

[سورة المائدة]

أو « كلمة ربك » المقصود بها قرآنه ؟ ونرى أن معنى « تمت » استوعبت كل أقضية الحياة إلى أن تقوم الساعة ، فليس لأحد أن يستدرك على ما جاء في كتاب الله حكماً من الأحكام ، لأن الأحكام عطت كل الأقضية . ولفظ « كلمة » مفردة لكنها تعطي معنى الجمع وأنت تسمع في الحياة اليومية من يقول : ألقى فلان كلمة طيبة فوبلت بالاستحسان والتصفيق هو قال كلمات لكن التعبير عنها جاء بـ « كلمة » إذن « تمت كلمة ربك » المقصود بها المنهج الذي يشمل كل الحياة ، واقرأ قوله الحق :

﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ .. ﴿٥﴾ ﴾ [سورة الكهف]

أهي كلمة أو كلمات؟ أنها كلمة ولكن فيها كلمات إذن لفظ «كلمة» تطلق ويراد بها اللفظ المفرد، وتطلق ويراد به الكلام. و لكلمة في الأصل لفظ مفرد، أي لا يكون معها لفظ اخر، ولكنها تدل على معنى، فإذ كان المعنى غير مستقل بالفهم؛ ويحتاج إلى ضميمة شيء إليه لتفهمه فهذا حرف، وأنت تقول: «في» وهو لفظ يدل على الظرفية، إلا أنه غير مستقل بالفهم؛ لأن الظرف يقتضي مظروفاً ومظروفاً فيه، فتقول «الماء في الكوب» لتؤدي المعنى المستقل بالفهم وكذلك ساعة تسمع كلمة «من» تفهم أن هناك ابتداء، وساعة تسمع كلمة «إلى» تعلم أن هناك انتهاء وإن كان يدل على معنى في نفسه وهو غير مرتبط بزمن فهو الأسم. وإن كان الزمن جزءاً منه فهو «الفعل» أما «الكلام» فهو الألفاظ المفيدة.

وحين تسمع «سماء» تفهم المعنى، وكذلك حين تسمع كلمة «أرض» وهو معنى مستقل بالفهم وحين تسمع كلمة «كتب» فهي تدل على معنى مستقل بالفهم، وازمن جزء من الفعل، فكتب تدل على الزمن الماضي و«يكتب» تدل على الحاضر و«سيكتب» تدل على الكتابة في المستقبل إذن «الكلمة» لفظ يدل على معنى فإن كان غير مستقل بالفهم فهو حرف. و«الكلمة» قد يقصد بها الكلام.

وقوله الحق. «تمت كلمة ربك» تعني الكثير فإن أريد بها القرآن فالمقصود هو كلمة الله. وكلام الله نسميه «كلمة» لأن مدلوله كلمة واحدة. انتهت وليس فيها تضارب، هذا إن أردنا بها القرآن، ولتفهم أن القرآن قد استوعب كل شيء، وكل قصة في الوجود وأيضاً لم يمس أو يدل فيه حرف؛ بل بقي وسيبقى كما أنزل؛ لأن الآفة في الكتب التي نزلت أنهم كتموا بعضها ونسوا بعضها، وحرفوا بعضها، وكان حفظها موكولاً إلى المكلفين، ومن طبيعة الأمر التكليفي أنه يطيع مرة، ويعصي مرة أخرى. وإن أطاعوا حافظوا على الكتب، وإن عصوا حرفوها بدليل قوله الحق:

﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللَّهِ .. ﴿٤٤﴾ ﴾ [سورة المائدة]

وا استحفظوا» أى طلب منهم أن يحافظوا عليه ، وهذا أمر تكليفى عرضة أن يطيع ، وعرضة أن يعصى ، لكن الأمر اختلف بالنسبة للقرآن فقد قال الحق :

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [سورة الحجر]

فسبحانه هو من يحافظ على القرآن ، وليس ذلك للبشر لأن القرآن معجزة ، والمعجزة لا يكون للمكلَّف عمل فيها أبداً

إذن مقوله الحق : « تمت كلمة ربك» المقصود بها أن نَطْمَئِن على أن القرآن الذى بين يديك إلى أن تقوم الساعة هو هو لن تتغير فيه كلمة ، بدليل أنك تتعجب فى بعض نصوص القرآن ، فتجد نصّاً مساويا لنص ، ثم يختلف السياق ، فيقول الحق

﴿ كَلَّا إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ ﴿٥٤﴾ فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ ﴿٥٥﴾ ﴾ [سورة المدثر]

ومرة أخرى يقول سبحانه .

﴿ كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾ فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ ﴿١٢﴾ ﴾ [سورة عبس]

ومرة أخرى يقول :

﴿ إِنَّ هَـٰذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾ ﴾ [سورة الإنسان]

فهذا لون ونوع من المتشابه من الآيات ليقول لنا الحق :

﴿ فَإِذَا قَرَأْنَـٰهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ﴿١٨﴾ ﴾ [سورة القيامة]

والحق يقول .

﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ① الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ② وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ③ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ④ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ⑤ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ⑥ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ⑦ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ⑧ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ⑨ ﴾ [سورة المؤمنون]

وفي آية أخرى يقول :

﴿ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ㉞ ﴾ [سورة المعارج]

وكل ذلك يدلك على أن كل كلمة وصلتك كما أنزلت ، وبذلك تكون كلمة ربك قد تمت . أو تقول الله : « وتمت كلمة ربك » ليدل على أن كلمة الله هي العليا ، ولذلك تلاحظ أن « كلمة الله هي العليا » لم يجعلها الحق جعلاً ، وإنما جاءت ثبوتاً ، وسبحانه القائل :

﴿ وجعلَ كلمة الذين كفروا السفلى .. ㊵ ﴾ [سورة التوبة]

هذ السياق الإعرابي حصل فيه كسر مقصود ، والسياق في غير القرآن أن يقول . وجعل كلمة الله هي العليا ، ولكنه سبحانه يقول :

(وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هي العليا)

وسبحانه أراد بذلك أن نفهم أن كلمة الله هي العليا دائماً وليست جعلاً . وهذا دليل على أن كلمته قد تمت

ونلحظ أن قول الحق : « وتمت كلمة ربك » تأتي بعد « أفغير الله أبتغي حكماً » ، واستقرىء موكب الرسالات من لدن آدم ، وانظر إلى حكم الله بين المبطلين

والمحقين ، وبين المهتدين والضالين ، إنه الحق القائل :

﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا ﴾

(من الآية ٤٠ سورة العنكبوت)

والحاصب هو الريح التي تهب محملة بالحصى وكانت عقوبة لقوم عاد .

﴿ وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ ﴾

(من الآية ٤٠ سورة العنكبوت)

وهم قوم ثمود ، يسميها مرة الصيحة ، وأخرى يسميها الطاغية :

﴿ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ ﴿٥﴾ ﴾

(سورة الحاقة)

ومرة يخسف بهم الأرض مثلما فعل مع قارون : (فخسفنا به وبداره الأرض) .

وكذلك : (ومنهم من أغرقنا) .

وقد أغرق الله قوم فرعون وكذلك أغرق ـ من قبلهم ـ المكذبين لنوح . إذن كل قوم اخذوا حكم الله عليهم ، لكنك يا محمد تختلف عنهم وكذلك أمة محمد التي أصبحت مأمونة على الوصية ، وعلى المنهج ، ولذلك قال الحق :

﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾

(من الآية ١٥ سورة الإسراء)

وبعد أن بعث الحق رسوله صلى الله عليه وسلم قال :

﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ﴾

(من الآية ٣٣ سورة الأنفال)

إذن « تمت كلمة ربك » ، وهي الفصل النهائي :

﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا

لَهُمُ الْغَالِبُونَ (١٧٣) ﴾ [سورة الصافات]

وأنتم المنصورون لأنكم منسوبون إلى منهج غالب ، والنصر للمنهج الغالب يقتضي الإخلاص ، فإن تنصروا المنهج باتباعه ينصركم من أنزل المنهج ، فهو القائل

﴿ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي .. (٢١) ﴾ [سورة المجادلة]

وما قاله كان هو الواقع وما جاء به الواقع كان مطابقاً للكلام

﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا .. (١١٥) ﴾ [سورة الأنعام]

أي وافق الواقع الكوني ما قال الله به . وكيف كان الواقع صادقاً وعدلاً في آن واحد ؟ لنفرض أنك أحضرت مدرساً خصوصيًا لولدك ، وصادف أنه هو الذي يدرس في المدرسة وهو الذي يدرس لابنك ثم قلت له : أريد أن ينجح الولد في الامتحان ووعد المدرس بذلك ثم جاء الامتحان ونجح الولد ، فتكون كلمة المدرس قد صدقت . لكن هل هذا عدل ؟ قد يكون المدرس هو واضع الأسئلة ولمح للولد بالأسئلة ، ويكون النجاح حينئذ غير عادل ، لكن كلمة الله تجيء مطابقة لما قال ، موقعها مطابق لما قال ، وهي كذلك عدل ؛ لأنه سبحانه أوضح الثواب والعقاب : (وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلا) . لأنه لا مبدل لكلمات الله ، ولا يوجد إله آخر يعارضه فله سبحانه طلاقة القدرة .

أما بالنسبة للبشر فقد علَّم الله عباده احتياط الصدق في كلامهم ؛ فأوصاهم .

﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا (٢٣) إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ . (٢٤) ﴾ [سورة الكهف]

لأن فعل ذلك غداً والإتيان به وإحداثه هو أمر يتعلق بالمستقبل الذي لا نتحكم فيه ، فاحكم نفسك وقل : « إن شاء الله » ، فإن لم يحدث يمكنك أن تقول : لم يشأ

ربنا حدوث ما وعدت به ، وبذلك يحمى الإنسان نفسه من أن يكون كاذباً ويجعل نفسه صادقاً فلا يتكلم إلا على وفق ما عنده من قوانين الفعل وعدم الفعل ؛ لأنه عندما تقول « أفعل ذلك غداً » ماذا ستفعل غداً وأنت لا تضمن نفسك وحياتك وظروفك ؟! لكن الله إذا قال : « سأفعل » فله طلاقة القدرة

﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾ ﴾

[سورة الأنعام]

ومادامت الكلمات ستتحقق والحكم سيصدر فهذا دليل على أنه سبحانه سميع لما قالوه فى عداوتهم ، وعليم بما دبروه من مكائدهم ، وهو القائل من قبل :

﴿ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ .. ﴿١٢١﴾ ﴾ [سورة الأنعام]

أى ليعلموهم بخفاء ، فإن كان كلامهم ظاهراً فهو مسموع ، وإن كان بحقد فهو معلوم .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾ ﴾

و« من فى الأرض » المقصود بهم المكلفون ؛ لأنهم هم من يتميزون بالاختيار ولهم أوامر ونواه ، وما دون الإنسان لا أمر له ، و« أكثر » لا يقابلها بالضرورة كلمة « قليل » أو « أقل » ، وما دام القول هو « أكثر » فقد يكون الباقون كثيراً أيضاً ، وأما كثير فإنها ، تعطى له كميته فى ذاته وليست منسوبة إلى غيره ، ولذلك كنا نسمع من يقول : مكتوب على محطة مصر أو على « المطار » أو على « الميناء » ، يا داخل

مصر منك كثير ، أي إن كنت رجلاً طيباً فستجد مثلك الكثير ، وإن كنت شريرا فستجد مثلك الكثير أيضاً .

ويقول الحق :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ .. ﴿١٨﴾ ﴾ [سورة الحج]

فكل الكائنات مقهورة مسخرة ، وعند الناس انقسم الأمر ؛ لأن بهم اختياراً ، فراح أناس للطاعة وذهب أناس للمعصية ، فلم يقل الحق : والناس بل قال «وكثير من الناس» ، ولم يقل الحق وقليل حق عليه العذاب ، لكنه قال : «وكثير حق عليه العذاب» فهؤلاء كثير وهؤلاء كثير ، وإن نظرت إليهم في ذاتهم فهم كثير ، والآخرون أيضاً إذا نظرت إليهم تجدهم كثيراً . ولماذا يقول الحق : «وإن تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله»؟

« الطاعة» - كما نعرف - مستجابة للأمر في « افعل» ، والنهي في « لا تفعل» إذا قال الحق للإنسان افعل كذا ؛ فالإنسان صالح لأن يفعل وأن لا يفعل ، وإن قال «لا تفعل» فالإنسان صالح أن يفعل ، وأن لا يفعل ، وإن كان هناك شيء لا تقدر عليه فلن يقول لك : افعله والإنسان عدة حين يؤمر أو يُنهى إنما يؤمر وينهى لمصلحته ، فإن لم يوجد أمام مصلحة معارض من منهج إلهي فهذا من مصلحته أيضاً ؛ لأن الله أجبر له حرية الفعل والترك . ويوضح الحق : من رحمتي أن جعلت لكم تشريعاً ؛ لأنك لو تركنا الناس إلى أهوائهم فسيأمر كل واحد من الذين لهم السيطرة على الناس بما يوافق هواه ، وسينهى كل واحد من الناس عما يخالف هواه ؛ لذلك تعصم هذا الأمر بالمنهج . حتى لا يتضارب الخلق ولا يتعاكس هواك مع هوى أخيك ومن المصلحة أن يوجد مطاع واحد لا هوى له ، ويوجد منهج يقول للجميع « افعلوا كذا» و « لا تفعلوا كذا» وبذلك يأتي الاستطراق لنفعهم جميعاً . ولذلك يقول الحق :

﴿ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ .﴿١١٦﴾ ﴾ [سورة الأنعام]

فهناك أناس مؤمنون وهم أصحاب الفطرة السليمة بطبيعتهم ؛ لأن الخير هو الفطرة في الإنسان ، وقد جاء التشريع ينمي في صاحب الفطرة السليمة فطرته أو يؤكدها له ، ويعدل في صاحب النزعة السيئة ليعود به إلى الفطرة الحسنة .

والذين يضلون عن سبيل الله ماذا يتبعون ؟ يقول الحق : ﴿ إن يتبعون إلا الظن ﴾ .

كل واحد منهم يظن أن هذا الضلال ينفعه الآن ، ويغيب عنه ما يجر عليه من الوبال فيما بعد ذلك .

و« الظن » - كما نعلم - هو إدراك الطرف الراجح ويقابله الوهم وهو إدراك الطرف المرجوح والظن هنا ، هو ما يرجحه الهوى :

﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾ ﴾ [سورة الأنعام]

و« إن » - كما نعرف - تأتي مرة جازمة : إن تفعلْ كذا تجدْ كذا ، وتأتي مرة نافية ، مثل قوله الحق :

﴿ مَّا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ ۚ ﴿٢﴾ ﴾ [سورة المجادلة]

أي : ما أمهاتهم ؛ فـ« إن » هنا نافية . وقوله الحق : « إن يتبعون إلا الظن » أي ما يتبعون إلا الظن ، هم إما أن يتبعوا الظن وإما أن يخرصوا (فالخارص) هو من يتكلم بغير الحقيقة ، بل يخمن تخميناً ، كأن ينظر إنسان إلى آخر في سوق الغلال ويسأله : كم يبلغ مقدار هذا الكوم من القمح ؟ . فيرد : حوالي عشرة أرادب أو اثني عشر أردباً ، وهو يخمن تخميناً بلا دليل يقيني أو بلا مقاييس ثابتة ، أو يقول كلاماً ليس له معنى دقيق .

فإذا اتبعت الناس فسوف يضلونك . لأنهم لا يملكون دليلاً علمياً ، ولا حقاً يقينياً ، بل يتبعون الظن إن كان الأمر راجحاً ، ويخرصون ويخمنون حتى ولو كان الأمر مرجوحاً

ويقول سبحانه بعد ذلك :

﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١١٧﴾ ﴾

ومع هذه ترى «هو» هذه فاعرف أنها تَرُدُّ وتجيب على مايمكن أن يقال، فهناك من يقول : أنا سوف أرى تصرفات فلان، ولأنك من البشر فمهما عدت عنه فأنت محدود الإدراك؛ لأنك سترى تصرفات فقط، ولن ترى انفعالات قلبه وتقلبات عقله، ولكن الحق سبحانه وتعالى هو الأعلم؛ لأن الميزان كله عنده، إنه يدرك الظاهر والباطن، وهو سبحانه يقول هنا : «أعلم» ومرة « عليم» ، و«العليم» هو من يرى ظاهر الأمر ويحيط به، لا الخافق منه، أما الذي يرى الظاهر والخفي فهو أعلم .

ولذلك كان لنبي ﷺ في مسائل كثيرة يحاسب الناس بعلانيتهم، ويترك سرائرهم إلى الله وعندما قتل مسلم رجلاً أعلن الإسلام، سأله ﷺ لماذا؟ ، قال . لأنه أعلن الإسلام نفاقاً. فقال ﷺ. أشققت عن قلبه؟! .

وسبحانه وتعالى « أعلم» ؛ لأنه يعلم الظاهر والباطن، ويعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور

ويقول الحق

﴿ فَكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِـَٔايَـٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ ﴾

﴿ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا لَيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ ﴿١١٩﴾ ﴾

ما الذى أدخل هذه المسألة فى هذا السياق ؟ لقد تكلم الحق عن أن هناك أعداء لكل نبى يلتمسون ثغرة فى منهجه ليتكلموا فيها ، وهذه هى مهمتهم التى هيأها الله لهم ، فحين يقولون الاعتراضات نجد المنهج يرد عليهم وبذلك تنتفع الدعوة إلى أن تقوم الساعة .

مثال ذلك نجد الجماعة الذين عارضوا رسول الله ﷺ فى الإسراء والمعراج ، فحين قال لهم : إننى أسرى بى إلى المسجد الأقصى وعرج بى إلى السماء فى ليلة واحدة ، التمسوا له ثغرة ليصدوا منها ويضللوا غيرهم وقالوا له . أتدّعى أنك أتيتها فى ليلة ونحن نضرب إليها أكباد الإبل شهراً ؟!! لكنّ أبو بكر الصديق قال : إن كان قال فقد صدق ، وهذا هو الإيمان الذى يحسن استقبال الأمر المخالف للنواميس ، ويجادلون أبا بكر ، فيقول : أنا صدقته فى خبر السماء فكيف أكذبه فى ذلك ، ما دام قال فقد صدق ، وهذا كلام منطقى

لكنّ المعارضين لرسول الله ﷺ قالوا : أتدّعى أنك أتيتها فى ليلة ، ونحن نضرب إليها أكباد الإبل شهراً ! فأعطى ﷺ لهم الأمارات ووصف لهم العير التى فى الطريق ، وغير ذلك من العلامات التى تجعل من الأمر حجة إلى يوم القيامة ، ولو مرت مسألة الإسراء والمعراج من غير أن يعترض أحد من الأعداء ، لما وجدنا الحرارة فى تصديقها .

إننا نجد حاليًا من يقول وهل من المعقول أنه ﷺ راح إلى بيت المقدس وجاء فى ليلة ؟ لا بد أن ذلك كان حلماً لو لم يقولوا هم هذا ما كنا عرفنا الرد ؛ إنما هم قالوها حتى نعرف الرد ويظل الرد رادعاً إلى أن تقوم الساعة ، وهذه هى المهمة التى جعلها الله للأعداء ؛ لأنه ﷺ لو قال

لهم : إنني حلمت أني دخلت بيت المقدس . أكان هناك من يعترض على أن يحلم النبي حتى ولو قال : إنه ذهب إلى آخر المعمورة إنه لا يجرؤ واحد أن يكذبه ، لكنهم ما دامرا قد كذبوه ، ورفضوا تصديق الإسراء فهذا دليل على أنهم فهموا من الذهاب أنه ليس ذهاب رؤيا ولم ذهاب قالب ، لقد فهموا عنه أنه قد انتقل بجسده من مكة إلى بيت المقدس ، ولذلك كذبوه ، وهذا التكذيب منهم ينفعنا الآن ، لنردّ به على المكذبين المعاصرين .

إذن فوجود الأعداء يهيج القرائح التي يمكن أن نرد على أية شبهة يثيرها أي إنسان سواء أكان ماضياً أم معاصراً .

والحق هنا يقول .

﴿ فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ ﴾ [سورة الأنعام]

هذه الآية لها قصة توضح كيف يحاول الأعداء اصطياد الثغرات لينفذوا منها ، وقالوا : يقول النبي لكم : إن الميتة لا يحل لكم أن تأكلوا منها ، وما تذبحونه بأيديكم كلوا منه ، والذبح لون من الموت ، هذه هي الشبهة التي قالوها ، وهي أولاً مغالطة في الأساليب ؛ لأن الميتة غير المذبوحة وغير المقتولة . فالمذبوحة إنما ذبحناها لنطهرها من الدم ؛ لذلك فالمناقشة الفقهية أو العلمية تهزم قولهم ؛ لأن هناك فرقاً بين الموت والقتل . فالموت هو أخذ للحياة بدون سبب للنبية ، إنما القتل هو سلب للنبية أولاً فتزهق الروح ويبقى الدم في الجسم . ثم هل يأخذ المشرع وهو الرب الأعلى الحكمة منا أو أن الحكمة عنده هو وحده ؟ .

وقد تبين لنا في عصرنا أن غير المؤمنين بدأوا في الاهتداء إلى أن الميتة فيها كل الفضلات الضارة ، واهتدوا إلى إزالة كل الفضلات الضارة من الحيوانات التي يريدون أكلها ؛ لأن تكوين جسم الحيوان يتشابه مع تكوين جسم الإنسان ، فهو يأكل ويهضم ويمتص العناصر الغذائية لينتج الدم والطاقة ، وفي الجسد أجهزة تصفي وتنقي الجسم من السموم الضارة ، فالكُلْية مثلاً تصفّي الدم من البولينا وغيرها ، ويسير الدم ليمر على الرئة ليأخذ الأوكسيجين ، وكل ذلك لتخليص الجسد من الفضلات الضارة ، وأوعية الدم في الإنسان والحيوان فيها الدم الصالح والدم

الفاسد ، والدم الفسد هو الذى لم تتم تنقيته ، وعندما نذبح الذبيحة ينزل منها الدم الفاسد وغيره ، أى أننا ضحينا بالدم الصالح فى سبيل وقايتنا من الدم الفاسد . لكنها إن ماتت دون ذبح ؛ فآثار الدمين الاثنين موجودة . وكذلك آثار الفضلات التى كان يجب أن يتخلص منها ، وهذا ما نفعله فى هذا الأمر ، لكن هل لنا مع الحق سبحانه وتعالى تعقل فى شىء إلا فى توثيق الحكم والاطمئنان إلى مجيئه منه جلت قدرته ؟

كان جدلهم أنهم قالوا : أنتم تأكلون ما قتلتم ولا تأكلون ما قتل الله ، فأنتم تظنون أنفسكم أحسن من الله ، وهذا افتراء منهم ثم إن الحيوان حين يموت لم يذكر عليه اسم الله ، لكن الذبيحة التى نذبحها نذكر عليها اسم الله ، فكأن الحق سبحانه وتعالى يوضح : فكلوا مما ذكر اسم الله عليه . أى غير الميتة وغير ما يذبح للأصنام .

﴿ فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ (١١٨) ﴾ [سورة الأنعام]

إنَّ تلقى أى حكم من الحق ، لا يصح أبداً أن تبحث عن علته أولاً ثم تؤمن به ، بل علينا بعد أن نثق بأنه من الله الذى آمنا به علينا إذن أن نأخذ الحكم الذى أمر به الله .

﴿ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ (١١٩) ﴾ [سورة الأنعام]

وللآيتين - كما علمنا - سبب نزلنا من أجله وهو أن بعض المعارضين لرسول الله الذين يقفون من الدعوة موقف التكذيب والعمل على إبطالها والقضاء عليها ، كانوا يُشيعون عند المؤمنين إشاعات قد تفت فى عضدهم العقدى فعرضوا هذه المسألة وهى فى ظاهرها تشكيك . وهم قد عرضوا القضية بهذا الشكل غير المتسق ؛ لأن من الذى قتل ؟ لقد قالوا : إن الميتة قتلها الله . فهل الله هو الذى قطع رقبتها ؟ وهل

ضربها الله على رأسها فأماتت أصل إدارة الحياة وهو المخ ؟ هل صوّب شيئاً إلى قلبها؟ سبحانه جل وعلا منزه عن مثل هذه الأفعال البشرية ، فكيف يسمون الموت قتلاً ؟ إن تسمية الموت قتلاً هو الخطأ ، فقولهم : كيف تبيحون لأنفسكم ما قتلتموه أي بالذبح . ولا تبيحون ما قتله الله أي أماته ، فيه مغالطة في عرض القضية ، ويريد الله سبحانه وتعالى أن يصنع عند المؤمنين مناعة من هذه الهواجس التي يثيرونها ؛ فقال ﴿فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾﴾

وما معنى الذكر ؟ إنّ عدم تحديد العلماء المعنى المقصود بالذكر ، هو الذي أوجد بينهم خلافاً كبيراً . فسيدنا الإمام مالك يرى أنك إذا ذبحت ولم تذكر اسم الله سواء أكنت ناسياً أم عامداً فلا يصح لك أن تأكل من الذبيحة . ويرى الإمام أبو حنيفة : إذا كنت لم تسم ناسياً فكل مما ذبحت ، لكن إن كنت عامداً فلا تأكل ، والإمام الشافعي رضي الله عنه يرى : ما دمت مؤمناً ومقبلاً على الذبح وأنت مؤمن فكُلْ مما لم تذكر اسم الله ناسياً أو عامداً لأن إيمانك ذكر لله .

ونقول . ما هو الذكر ؟ هل الذكر أن تقول باللسان ؟ أو الذكر أن يمر الشيء بالخاطر ؟ إن كنتم تقولون إنّ الذكر باللسان فلنبحث في الحديث القدسي الذي قاله الله تعالى : « أنا عند ظن عبدي ، وأنا معه إذا ذكرني ، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي ، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم »[1] .

إذن فقد سمّى ربنا الخاطر في النفس ذكراً وبذلك يصح من حق الإمام الشافعي أن يقول ما قال

لذلك أقول : يجب أن نحدد معنى الذكر أولاً حتى تنتهي الخلاف حول هذه المسألة ، فليس من المعقول أن نقيم معركة حول معنى « الذكر » ؛ لأن الذكر وهو خطور الأمر على البال قد يصحبه أن يخطر الأمر على اللسان مع الخطور على البال ، وقد يظل خطوراً على البال فقط ، بدليل ما جاء في الحديث السابق .

(١) رواه البخاري ، ومسلم ، والترمذي

والمؤمن حين يجد أمامه أشياء كثيرة ، قد يوجد شيء جميل وآخر ليس له من الجمال شيء ؛ فالجاموسة أقل في الجمال من بعض الحيوانات التي حرم الله أكلها ، وأقبل المؤمنون على ذبح الجاموسة ليأكلوا منها ، ولم نسمع عن مسلم تقدم إلى حيوان حرم الله أكله ليذبحه ، لماذا ؟ لأن المؤمن يقبل على ما أحل الله، وهذا الإقبال دليل على أنه ذكر في نفسه المحلل والمحرم وهو الله ، إذن اختياره حيواناً لذبح دليل على أنه ذكر الله في النفس أو في القول ، وبهذا نتفق على أن ذكر المؤمن يكون في قلبه قال أو لم يقل ، وينتهي الخلاف في هذه المسألة . إذن الإمام الشافعي أخذ بهذه المسألة ؛ لأن النبي عليه الصلاة والسلام حينما سئل عن أكل المسلم من ذبيحة لا يعرف من ذبحها وهل سمّى أو لم يسمّ ، أوضح لمن سأله . سمّ وكُلْ

فالإنسان منا لا يحضر وقت الذبح دائماً ، ويكفيه أن يستحضر المحلل والمحرم ساعة الأكل . والحق سبحانه وتعالى يوضح لنا : اذكروا اسم الله ، وسبحانه يعلم أنك تقبل على أشياء لتفعلها . وهذه الأشياء تنقسم إلى قسمين : قسم يمر على بالك قبل أن تفعله ، وقسم لا يمر على بالك ، بل تفعله تلقائيًا بدون ما يمر على البال ، ومثال ذلك الأفعال العكسية كلها التي يفعلها الإنسان إنها لا تمر على باله . فلو حدث أن حاول واحد أن يضع إصبعه في عين آخر ، فهذا الآخر يغمض عينيه تلقائيًا . ويختلف ذلك عن الفعل الذي تفكر فيه قبل أن تفعله . فالذي يفعل الفعل بعد أن يمر بخاطره هو فعل ذو بال . ولذلك أراد الرسول عليه الصلاة والسلام ألا يكلفنا عناء أو مشقة ؛ فقال :

« كل أمر ذي بال لا يبدأ فيه ببسم الله الرحمن الرحيم أقطع »[1]

والأمر ذو بال هو الأمر الذي يكون قد خطر على بالك أن تفعله أو لا تفعله . إذن فالله سبحانه وتعالى لا يكلفنا إلا عند الأمر الذي يمر على الخاطر ؛ لأنك حين تقبل على أي فعل سينفعل لك كما تريد ، إن هذا من عطاء الله لك ، وأنت حين تذبح خروفاً ، أو خروفاً ، وتتأمل أنت كيف يُمدك الله على هذا الكائن الحي . وإنك لم تفعل ذلك إلا لتسخير الله كُلَّ الكائنات لك . فباسم الله تذبحه

إذن هناك أمور كثيرة وأفعال ذات بال تمر عليك ومن حسن الأدب والإيمان أن

(١) رواه عبد القادر الرهاوي في الأربعين عن أبي هريرة

تقبل عليها باسم الله ولذلك تحطىء بعض الناس حين يظنون أن الإنسان عندما يذبح حيواناً فهو يؤذيه . لا ، بل ذبح هذا الحيوان هو تكملة مهمته في الحياة ؛ لأنه مخلوق لهذا الهدف ومذلل له .

لقد قلت سابقاً : إن هناك عجيبة من عجائب المراولات الفعلية ، هذه العجيبة أنك حين تأتي إلى الحيوانات التي لم يحلها الله للإنسان ، كالحمار مثلا إذا ما تعرضت هذه الحيوانات إلى ما يميتها ، كأن التف حول عنقه حبل ، واختنق فهو يموت دون أن يمد رقبته إلى الأمام ، بكس الحيوان الذي أحله الله للأكل ؛ مثل الجاموسة أو الخروف أو العجل ، تجد الحيوان من هذه الحيوانات إن اختنق يمد رأسه إلى الأمام ، فيقول أهل الريف في مصر : إنه يطلب الحلال . أي الذبح فلا يسمى ذبح الحيوان اعتداء عليه ؛ لأن الحيوان مخلوق لهذه المهمة .

إذن معنى كلمة « باسم الله » أي أنني لم أجترىء على هذا العمل إلا في إطار اسم الله الذي أحل لي هذا .

بعد ذلك يقول الحق للمؤمنين . لا تسمعوا كلام الكافرين ، ويأتي السؤال الاستنكاري : « ومالكم ألا تأكلوا مما ذكر اسم الله عليه » والمعنى : أي سبب يمنعكم من أن تأكلوا مما ذكر اسم الله عليه ؟ وقد فصل لكم ما حرم عليكم ، مما ذكر اسم الله عليه ليس من ضمن المحرمات التي نص الله عليها ، فربنا سبحانه هو من حلل وحرم . وإن قيل : ما دام قد حرم علينا بعض الأشياء فلماذا خلقت هذه الأشياء ؟

ونقول . إن من يفكر بمثل هذا الأسلوب يتناسى أن كل مخلوق من الحيوانات ليس مخلوقاً للأكل ، بل لكل حيوان مهمة . وإن ذبحت محرما ، فقد يناقض هذا العمل مهمته فالخنزير ـ مثلا ـ حرّمه ربنا ؛ لأنك إن ذبحته فستذهب به بعيداً عن مهمته ؛ لأنه مخلوق كي يلم جراثيم الأشياء التي لا تراها العين ، فأنت حين تذبحه تخرجه عن مهمته . والحق سبحانه وتعالى هو الذي خلق الإنسان ، ويعلم ما يناسبه من غذاء يولد الطاقة ولا يهدر الصحة ؛ لذلك حرم وحلل له ، وياك أن تقول : إن الله سبحانه وتعالى لم يحرم إلا الشيء الضار ؛ فقد حرم شيئ غير ضار لأنه يريد بذلك الأدب في « فعل هذا ، و « لا تفعل هذا » وبذلك قال الحق سبحانه :

﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ ﴾

(من الآية ١٦٠ سورة النساء)

وفى حياتنا اليومية هل تقول : إن الذين يربون أبناءهم فى الجيش بالشدة ، يقسون على الأبناء ؟ لا ، بل إنهم يعدّونهم لمواجهة المهام الشاقة . وأن يتعوّدوا التزام الأدب وانطاعه والانضباط ، فكذلك حلل الحق ما أراد وحرم ما شاء ليجعل الكون منضبطاً بقدرة الحكيم القادر ، فسبحانه يحرم أشياء مثل المخدرات ، ونحن فى بعض الأحيان نتناولها لنداوى بها الأمراض . فلو أخذها الإنسان من غير مرض أو داع فإنها تسرق الصحة من بنية الإنسان ، وإن أخذها من بعد ذلك للعلاج لا تأتى بالمفعول المطلوب منها . ولذلك نجد من الأطباء من يسأل الإنسان قبل إجراء الجراحات الدقيقة إن كان المريض قد تناول المخدرات أولا ، وذلك حتى يتعرف الأطباء على حقيقة ما يصلح له من ألوان التخدير

وسبحانه وتعالى قد منع عنا تلك الألوان من مغيبات العقول ، لعلنا نحتاج إليها فى لحظة الشدة والمرض

إذن فالحق سبحانه وتعالى قد ربط كل حكم من الأحكام التحليلية والتحريمية بـ « إن كنتم مؤمنين » ، ومعنى « إن كنتم مؤمنين » أى يا من آمنتم بالإله الحكيم الذى لا يأمر إلا بما فيه مصلحتكم ، امتنعوا عن مثل تلك الأفعال ، وإذا أقبلت على أى شىء مما أحله الله لك فأتبل عليه باسم الله ، وسبحانه وتعالى له أسماء علمها لنا ، وأنزلها فى كتابه ، وأسماء علمها لأحد من خلقه ، وأسماء استأثر بها فى علم الغيب عنده ، وهذه الأسماء هى صفات الكمال لله ، التى لا توجد فى غيره . وحين نستحضر الاسم الجامع لكل صفات الكمال نقول . باسم الله . وتنتهى المسألة . وحين ناقش العلماء مسألة التحريم والتحليل ، قال بعضهم . إن الحق سبحانه وتعالى قال فى أول سورة المائدة :

﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ ﴾

(من الآية ٣ سورة المائدة)

وهنا فى سورة الأنعام يقول :

﴿ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ ﴾

(من الآية ١١٩ سورة الأنعام)

والمشبهون من العلماء قالوا : إن سورة المائدة مدنية ، ومعنى كونها مدنية أنها نزلت

بعد السور المكية ، وسورة الأنعام مكية ، وهل يقول الحق فى السورة المكية « وقد فصل لكم ما حرم عليكم » فى السورة المدنية ؟ وبعض العلماء الذين أعطاهم ربنا نور بصيرة قال : لقد فصل لكم فى سورة المائدة وجاء أيضاً فى سورة الأنعام فقال :

﴿ قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٤٥) ﴾ [سورة الأنعام]

أى فصل لك فى هذه السورة المكية . وقد يأتى واحد من المولعين بالاعتراض أو من خصوم الإسلام ويقول : لم تذكر الآية كل الأشياء المحرمة لماذا ؟

ونقول : القرآن هو الخطوط الأساسية فى المنهج ، وتأتى السنة بالتفصيل فى إطار :

﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا .. (٧) ﴾ [سورة الحشر]

والحق يقول هنا :

﴿ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ .. (١١٩) ﴾ [سورة الأنعام]

والاضطرار هو أمر ملجىء إلى شىء غير الأسباب الكونية المشروعة . ومعنى كونه مضطراً أنه يلجأ إلى شىء فقد أسبابه المشروعة كالذى يريد أن يأكل ليستبقى الحياة ، فإذا لم يجد من الحل ما يستبقى به الحياة فهو مضطر . ونقول له خذ من غير ما أحل الله بالقدر الذى يدفع عنك الضرورة ، فكل من الميتة بقدر الضرورة ولا تشبع .

والحق يقول :

﴿ فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ .. (٣) ﴾ [سورة المائدة]

والمخمصة هى المجاعة . إذن فالاضطرار هو شىء فوق الأسباب المشروعة

للعمل . والله سبحانه وتعالى يعطى الإنسان الرخصة فى أن يتناول ما حرمه إذا كان مضطراً .

﴿ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيرًا لَيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ .. (١١٩) ﴾

[سورة الأنعام]

والذين يضلون بأهوائهم بغير علم هم من أرادوا زراعة الشك فى نفوس المسلمين . ومعنى الضلال بالهوى أن تكون عالما بالقضية ، ولكن هواك يعدل بك عن مراد الحق من القضية ولذلك يصف الحق رسوله ﷺ -

﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ (٣) ﴾ [سورة النجم]

وحين يقول الحق : « وإن كثيراً ليضلون بأهوائهم » فمعنى ذلك أنه يوجد ضلال بغير هوى ، وهو عدم وصول الإنسان إلى الحقيقة ؛ لأنه لا يعرف الطريق إليها ، والضلال بالهوى أى أن تكون عندك الحقيقة وأنت عارف مدركها ولكنك تعدل عنها -

﴿ وَإِنَّ كَثِيرًا لَيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ .. (١١٩) ﴾ [سورة الأنعام]

وساعة ترى مجىء متعلق بعد « يضلون » وهو قوله : (بأهوائهم) تقول كأن هناك ضلالاً بغير علم ، وهو غير مذموم ؛ لأن صاحبه لا يعرف الحكم فى القضية ، وهذا يختلف عن الذى يضل وهو يعرف الحكم ، فهذا ضلال بالهوى ، وهذا الفهم يحل لنا إشكالات كثيرة أيضاً . و« بغير علم » أى ليس عندهم علم بالقضية وأحكامها

ويذيل الحق الآية بقوله .

﴿ .. إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ (١١٩) ﴾ [سورة الأنعام]

وقد أفسح الله فى النص القرآنى لبعض خلقه الذين يعرفون المهتدى من غير المهتدى ، والكثير من الناس لا يعلمون المهتدى من غير المهتدى ولكن إن علموا فالله أعلم .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ ﴿١٢٠﴾ ﴾

هذه تقييدات السماء التي تحمي المجتمع من بعضه وذلك في ألا تقع عين أحد على مخالفة من أحد ، وإذا وقعت عينك على مخالفه من غيرك تكون المخالفة مما تدرك لكنها ليست كل الفساد في المجتمع ، فساد المجتمع يأتي من أشياء كثيرة لا تقع تحت دائرة الإدراكات وهناك أشياء تكون في منابع النفس البشرية التي تصدر عنها عوامل النزوع ؛ فقبل أن يوجد إثم ظاهر يوجد إثم باطن ، والإثم الباطن سابق على الإثم الظاهر . والتقنينات البشرية كلها تحمينا من ظاهر الإثم ، ولكن منهج السماء يحمينا من فساد ظاهر الإثم وباطن الإثم

ويوضح لنا الحق الفرق بين تقنين البشر للبشر وتقنين الإله ، فسبحانه رقيب على مواجيدكم ووجداناتكم وسرائركم ، فإياكم أن تفعلوا باطن الإثم ، ولا يكفي أن تحمي نفسك من أن يراك القانون ؛ لأن قصارى ما يعمل القانون أن يمنع الناس من أن يتظاهروا بالجريمة ويقترفوها علانية ، والفرق بين تشريع السماء وتشريع الأرض أن تشريع الأرض يحمي الناس من ظاهر الإثم ، ولكن تشريع السماء يحمي الناس من ظاهر الإثم وباطن الإثم ، وباطن الإثم هو أعنف أنواع الإثم في الأرض .

وبعض أهل الاكتساب في الشر برياستهم على الشر يسهل عليهم فعل الشر وكأنهم يفعلون أمراً قد تعودوا عليه بلا افتعال .

و « كسب » ـ كي تعلم ـ تأتي بالاستعمال العام للخير ، و« اكتسب » تأتي للشر لأن الخير يكون في العمل العمل رتيباً مع كل الملكات ، ولا افتعال فيها ، فمن يريد ـ مثلاً ـ أن يشتري من محل ما فهو يذهب إلى المحل في وضح النهار ويشتري . لكن من يريد أن يسرق فهو يرتب للسرقة ترتيباً آخر ، وهذا افتعال ، لكن الافتعال قد يصبح بكثرة المران والدربة عليه لا يتطلب افتعالاً ، لأنه قد أضحى لوناً من

الكسب . و« يكسبون» تدل على الربح ؛ لأن « كسب» تدل على أنك أحدثت الأصل والزيادة على الأصل ، والإنسان حين يصنع الخير إنما يعطى لنفسه مقومات الحياة ويأخذ أجر الآخرة زائداً ، وهذا هو قمة الكسب .

ويريد الحق سبحانه وتعالى من العبد في حركته أن يحقق لذاته نفعاً هو بصدد الحاجة إليه ، ولكن الإنسان قد يحقق ما ينفعه وهو بصدد الحاجة إليه ، ثم ينشأ من ذلك لفعل ضرر بعد ذلك ؛ لذلك يحمى الله الإنسان المؤمن بالمنهج حتى يميز بين ما يحقق له الغرض الحالي ويحقق نفعاً ممداً ولا يأتي له بالشر وما يحقق له نفعاً عاجلاً ولكن عاقبته وخيمة ونهايته أليمة ، إننا نجد الذين يصنعون السيئات ويميلون للشهوات – مثلاً – يحققون لأنفسهم نفعاً مؤقتاً ، مثل التلميذ الذي لا يلتفت إلى دروسه ، والذي ينام ولا يستيقظ ، والذي إن أيقظوه وأخرجوه من البيت ذهب ليتسكع في الشوارع ، هو في ظاهر الأمر يحقق لنفسه راحة ، لكن مآله إلى الفشل . بينما نجد أن من اجتهد وجدَّ وتعب قد حقق لنفسه لنفع المستمر الذي لا تعقبه ندامة

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ ﴿١٢٠﴾ ﴾ [سورة الأنعام]

ففي الدنيا نجد أن الجزاء من بشر لبشر ، ولكن ماذا عن لحظة العرض أمام الله وهو العليم بظاهر الإثم وباطن الإثم ؟

فالذي يصون المجتمع – إذن – هو التقنين السماوي ، فالمنهج لا يحمي الإنسان ممن حوله فحسب ولكنه يقنن لحركة الإنسان لتكون صحيحة .

ويعود الحق بعد ذلك إلى قضية الطعام فيقول :

﴿ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾ ﴾

وهنا يسمى الحق ما لم يذكر اسم الله عليه بـ « لفسق » وهو ما تشرحه الآية الأخرى وتبرره باسم مخصوص

﴿ قُل لَّا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ ۚ ﴿١٤٥﴾ ﴾ [سورة الأنعام]

إذن « فسقاً » معطوفة على الميتة والدم المسفوح ولحم الخنزير، لكنه سبحانه فصل بين المعطوف وهو (فسقا) ، والمعطوف عليه بحكم يختص بالمعطوف عليه . وهذا الحكم هو الرجس وهكذا أخذت الثلاثة المحرمات حكم الرجس وعطف عليها ما ذبح وذكر عليه اسم غير الله كالأصنام وهو قد جمع بين الرجس و الفسق

ويقول الحق « وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم » وسبحانه يريد أن يبين لنا أن الفطرة السليمة التي لا يميلها هوى تصل إلى حقائق الخير ، ولذلك نجد أن الدين يحثون ويحض بعضهم بعضا على الشر ويعلم بعضهم بعضاً بحقد إنما يأخذون مقام الشيطان بالوسوسة والتحريض على العصيان والكفر ، لأن المسألة الفطرية تأبى هذا ، وحين يرتكب إنسان موبقة من الموبقات ، إنما يلف له ويتحيل ليصل إلى ارتكاب الموبقة ، وقد يوحي ذلك إلى غيره ، فيدله على الفساد ويكون بذلك في مقام الشياطين الذين يوحون إلى أوليائهم بإعلام خفي ، لأن الفطرة السليمة تأبى الأشياء الشريرة وتقف أيضاً فيها ، ولا يجعلها تتقدم إلى الشر إلا الهوى . فإذا ما أراد شيطان من الإنس أو شيطان من الجن أن يزين لإنسان فعلاً فهو لا يعلن ذلك مباشرة . إنما يلف ويدور بكلام منمق مزين .

« وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم وإن أطعتموهم إنكم لمشركون » وفي ذلك إشارة إلى قول المشركين : تأكلون ما قتلتم أنتم ولا تأكلون ما قتل الله وأنتم أولى أن تأكلوا مما قتل الله .

﴿ .. وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾ ﴾ [سورة الأنعام]

وكأن مجرد الطاعة لهؤلاء المشركين لون من الشرك ؛ لأن معنى العبادة امتثال وائتمار عابد لمعبود أمراً ونهياً ، فإذا أخذت أمراً من غير الله فإنه يخرج بك عن صلب وقلب منهجه سبحانه وبذلك تكون قد أشركت به .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾ ﴾

والحق سبحانه وتعالى - كما عرفنا - يعرض بعض القضايا لا عرضاً إخبارياً منه ، ولكن يعرضها باستفهام ؛ لأنه - جل وعلا - عليم بأنه حين يأتي لك الاستفهام ، ثم يدير دهنك لتجيب فلن تجد إلا جواباً واحداً هو ما يريده الحق . إذن فالأسلوب أحياناً يكون أسلوباً خبرياً أو يكون استفهاماً بالإثبات أو استفهاماً بالنفي وأقواها الاستفهام بالنفي . وحين يعرض سبحانه القضية التي نحن بصددها يوضح وهو العليم أنك إذ أحببت أن تجيب فلن تجد إلا الجواب الذي يريده الحق .

إننا نجد في الآية الكريمة موتاً وحياة ، وظلاماً ونوراً .

وما هي الحياة ؟ . الحياة هي وجود الكائن على حالة تمكنه من أداء مهمته المطلوبة منه ، وما دام الشيء يكون على حالة يؤدي بها مهمته ففيه حياة ، وأرقى مستوى للحياة هو ما تجتمع فيه الحركة والحس والفكر ، وهذه الأمور توجد كلها في الإنسان. أمّا الحيوان ففيه حس وحركة وليس عنده فكر . غير أن الحيوان له غريزة أقوى من فكر الإنسان ، فهو محكوم بالغريزة في أشياء وبالاختيار في أشياء ، وليس لك في الغريزة عمل . لكن في مجال الاختيار لك عمل ، تستطيع أن تعمله وتستطيع ألا تعمله

إذن فالحياة هي أن يكون الكائن على حال يؤدي به مهمته المطلوبة منه . وعلى هذا الاعتبار فهي الإنسان حياة ، وفي الحياة حياة ، وفي النبات حياة ، وفي الجماد حياة ، وكلما تقدم العلم ينبت لنا حيوانات أشياء كثيرة جداً كنا نظن ألا حياة فيها ، وإن ظهر لنا في التفاعلات أن بعض الأشياء تتحول إلى أشياء أخرى ، فعلى سبيل المثال الحيوان فيه حياة فوذا ذبحناه وأكلناه ، ورمينا عظامه ، كانت فيها حياة من نوع ثم صارت أجزاؤه إلى جمادية لها حياة من نوعها ، بدليل أنه حين يمر بعض من الزمن يتفتت العظم .

وكنا قديماً في الريف نحلب اللبن في أوعية من الفخار وتوضع في مراقد ، ويستمر اللبن أسبوعاً في المرقد ، ويكون أحلى في يومه عن أمسه . ويزداد اللبن حلاوة كل يوم ، ثم تأخذ زوجة الفلاح قطعة الفسطة الأخيرة وتصنع منها الجبن الجميل الطعم . أو الزبد لكن بعد أن غلينا اللبن نجده يفسد بعد عدة ساعات ؛ لأنك حين وضعته في المرقد ، أخذته بالحياة فيه فطلت فيه حيوية حياته ، لكن حين غليته فقد قتلت ما فيه من الحياة ، فإن لم تضعه في ثلاجة لا بد من أن يتعفن ، ومعنى التعفن أنه لم يعد يؤدي مهمته كلبن ، إنما انتقل إلى حياة أخرى بفعل البكتريا وغيرها ، ولا يُذهب الحياة إلا الهلاك وهو ما قاله الحق :

﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ .. ﴿٨٨﴾ ﴾ [سورة القصص]

إذن ، لا تأخذ الميت على أنه شيء ليس فيه حياة ، ولكنه انتقل إلى حياة ثانية .

﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ .. ﴿١٢٢﴾ ﴾

[سورة الأنعام]

كأن للإنسان حياة في ذاته ، ثم جعل الحق له نوراً يمشي به . كأن الحياة منتقلة في أشياء ، ويحتاج الإنسان إلى حياة ، ويحتاج إلى نور تتضح به مرائي الأشياء . وكانوا قديماً يعتقدون أن الإنسان يرى حين ينتقل شعاع من عينه إلى المرئي فيراه ، إلى أن جاء لعربي المسلم ابن الهيثم وقال هذا رأي جانبه الصواب في قانون الضوء ، وقال : إن الإنسان يرى ؛ لأن شعاعاً من المرئي يمس إلى عين الرائي . بدليل أن المرئي إن كان في ضوء يدركه الإنسان ، وإن كان في ظلمة لا يدركه الإنسان ،

ولو كانت الأشعة تخرج من عين الإنسان لرأى الأشياء سواء أكانت في نور أم في ظلمة، وتعذلت كل النظريات في الضوء على يد العالم المسلم، وجاءت من بعد ذلك الصور الفوتوجرافية والسينما. إذن فالنور وسيلة إلى المرئيات.

ويترك الحق سبحانه وتعالى في أقضية الكون الحسية أدلة على الأقضية المعنوية؛ فالنور الحسي الذي نراه إما ضوء الشمس وإما ضوء القمر، وإما ضوء المصباح، وإما غير ذلك. وهذا ما يجعل الإنسان يرى الأشياء، ومعنى رؤية الإنسان للأشياء أن يتعامل معها تعاملاً نفعياً غير ضار. ونحن نضيء المصباح بالكهرباء حين يغيب النور الطبيعي - نور الشمس - وعندما نضيء مصابيحنا نرى الأشياء ونتعامل معها ولا تحطمنا ولا تحطمها، وكل واحد منا يأخذ من النور على قدر إمكاناته. إذن كل واحد يضيء المكان المظلم الذي اضطر إليه بغيبة المنير الطبيعي على حسب استطاعته، فإذا ظهرت الشمس أطفأنا جميعاً مصابيحنا؛ هذا دليل من أدلة الكون الحسية الملموسة لنأخذ منها دليلاً على أن الله إن فعل لقيمنا نورا فلا نأتي بقيم من عندنا، مادامت قيمةُ موجودة.

ويوضح الله أن الإنسان بدون قيم هو ميت متحرك، ويأتيه المنهج ليحيا حياة راقية. ويوضح سبحانه لكل إنسان: احرص على الحياة الثانية الخالدة التي لا تنتهي وذلك لا يتأتى إلا باتباع المنهج، وإياك أن تظن أن الحياة فقط هي ما تراه في هذا الوجود لأنه إن كانت هذه هي غاية الحياة لما أحس الإنسان بالسعادة؛ لأنه لو كانت الدنيا هي غايتنا لالتزم أن يكون حظنا من الدنيا جميعاً واحداً وأعمارنا واحدة، وحالاتنا واحدة، والاختلاف فيها طولاً وقصراً وحالاً دليل على أنها ليست الغاية؛ لأن غاية المتساوي لابد أن تكون متساوية.

إذن فقول الله هو القول الفصل:

﴿وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ .. ﴿٦٤﴾﴾ [سورة العنكبوت]

فهذه هي الحياة التي لا تضيع منك ولا تضيع منها، ولا يفوتك خيرها ولا تفوته. إذن فالذي يحيا الحياة الحسية الأولى وهي الحركة بالنفخ في الروح هو ميت متحرك.

﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ ﴾

(من الآية ١٢٢ سورة الأنعام)

أى انه سبحانه قد أعطى لمثل هذا العبد حياة خالدة ونوراً يمشى به ، لا يحطم ولا يتحطم .

أما من يقول : إن الحياة بمعناها الدنيوى ، لا تختلف عن الحياة فى ضوء الإيمان ، لمثل هذا نقول : لا ، ليس بينهما تساوٍ فهى مختلفتان بدليل أن الحق يقول :

﴿ اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾

(من الآية ٢٤ سورة الأنفال)

فسبحانه يخاطبهم ، ومعلوم بحاسبهم فهم أحياء بالقانون العادى ، لكنه سبحانه أنزل لرسوله المنهج الذى يحيا به المؤمن حياة راقية ، وافطنوا إلى أن الحق سبحانه وتعالى أعطى ومنح الروح الأولى التى ينفخها فى المادة فتتحرك وتحس بالحياة الدنيا ، إنه أعطاها المؤمن والكافر . ثم يأتى بروح ثانية تعطى حياة أبدية . ولذلك سمّى منهج الله لخلقه روحاً

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ﴾

(من الآية ٥٢ سورة الشورى)

فالمنهج يعطى حياة خالدة .

إذن فقوله الحق : « أو من كان ميتاً فأحييناه » أى أو من كان ضالاً فهديناه ، أو من كان كافراً فجعلناه مؤمناً ولنلحظ أن فيه « ميتاً » بالتخفيف ، وفيه ميّت بالتشديد . والميّت هو من يكون مآله الموت وإن كان حيًا ، فكلنا ميّت وإن كان حيًا . ولكن الميت هو من مات بالفعل وسلبت وأزهقت روحه ولذلك يخاطب الحق نبيه صلى الله عليه وسلم فيقول له : (إنك ميّت) .

أى تؤول إلى الموت وإن كنت حيًا الآن لأن كُلًّا منا مستمر فى الحياة إلى أن يتلبس بصفة الفناء ، ويقول الحق « فأحييناه » أى بالمنهج الذى يعطيه حياة ثانية ، ولذلك سمّى القرآن روحاً ،وسمّى من نزل بالقرآن روحاً أيضاً

« وجعلنا له نورا يمشى به فى الناس » والمراد يمشى به فى الناس فقط ، وليس بين كل الأشياء ؟ ؛ لأن الأشياء الأخرى من الممكن أن تحتاط أنت منها ، ولكن كلمة الناس تعبر عن التفاعل الصعب لأنهم أصحاب أغيار ويتابع الحق : « كمن مثله فى الظلمات ليس بخارج منها » وهنا تساؤل حوليه : لا ، أى ليس كل منهما مساويا للآخر ، مثلما نقول : هل يستوى الأعمى والبصير ؟ والفطرة هنا تقول : لا ، مثلما تؤكد الفطرة عدم استواء الظلمات والنور ، أو الظل والحرور ، وهنا يأمننا الله على الجواب ؛ لأنه سبحانه ـ يعلم أن الأمر إذا طرح كسؤال وكاستفهام فلن نجد إلا جواباً واحداً هو ما يريد الحق أن يقوله خبراً

ويذيل الحق الآية :

﴿ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾

(من الآية ١٢٢ سورة الأنعام)

والمعنى هنا أى تركناهم عرضة لأن يفعلوا للتزيين ، ولم يحصنهم الحق بالعصمة فى اختيارهم ؛ لأنه سبحانه قد ترك الاختيار حراً للإنسان :

﴿ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾

(من الآية ٢٩ سورة الكهف)

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا۟ فِيهَا ۚ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢٣﴾ ﴾

وقول الحق سبحانه . « وكذلك » تدل على أن شيئاً شبّه بشىء ، فكما وُجد فى مكة من يناصبك العداء ويناهضك ويقاومك فى أمر الدعوة إلى الله ، ويصدّ عن

سبيل الحق؛ إن تلك قصية ليست فيها بدعاً من الرسل؛ لأن هذه المسألة قضية سائدة مع كل رسول في موكب الإيمان، و«كذلك» أي كما جعلنا في مكة مجرمين يمكرون جعلنا في كل قرية سبقت مع رسول سنق هذه المسألة، فلم تكن بدعاً من الرسل. وحيث إنك لم تكن بدعاً من الرسل فتصبر على ذلك كما صبر أولو العزم من الرسل. وأنت أولى منهم بالصبر؛ لأن مشقة تلك على قدر مهمتك الرسالية في الكون كله، فكل رسول إنما جاء لأمة محدودة لمعالج داءً محدوداً في زمان محدود. وأنت قد جئت للأمر العام زماناً ومكاناً إلى أن تقوم الساعة، فلابد أن تتناسب المشقات التي تواجهك مع عموم رسالتك التي خصك الله بها

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا .. (١٢٣) ﴾ [سورة الأنعام]

والإجرام هو مأخوذ من مادة «الجيم» و«الراء» و«الميم»، اجترم واجترم والجريمة فيها معنى القطع. و«مجرميها» جمع مجرم، ومجرم من أجرم، وأجرم أي ارتكب الجرم والجريمة، ومعنى ذلك أنه قطع نفسه بالجريمة عن مجتمعه الذي يعيشه، فهو يعزل نفسه لا لمصلحة لأحد إلا لمصلحته هو، فكأنه قام بعملية انعزال اجتماعي، وجعل كل شيء لنفسه، ولم يجعل نفسه لأحد؛ لأنه يريد أن يحقق مرادات نفسه غير مهتم بالنتائج التي تترتب على ذلك.

إذن فالإجرام هو الإقدام على القبائح إقداماً يجعل الإنسان عازلاً نفسه عن خير مجتمعه؛ لأنه يريد كل شيء لنفسه ومادام يريد كل شيء لنفسه فهو من التسلط موجود فيه، ويرتكب الرذائل ولأنه يرتكب الرذائل فهو يريد من كل المجتمع أن تنتشر فيه مثل هذه الرذائل؛ كي لا يشعر أن هناك واحداً أحسن منه.

﴿ .. لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (١٢٣) ﴾ [سورة الأنعام]

والمكر كما نعرف - مأخوذ من التفاف الأعصان بعضها على بعض التفافاً بحيث لا تستطيع إذا أمسكت ورقة من أعلى أن تقول هذه الورقة من هذا الفرع؛ لأن الأعصان والفروع متموجة ومتشابكة ومجدولة بعضها مع بعض والماكر يصنع ذلك

لأنه يريد أن يلف تبييته حتى لا يُكشف عنه، ومادام يفعل ذلك فاعلم من أول الأمر أنه ضعيف التكوين؛ لأنه لو لم يعلم ضعف تكوينه لما مكر لأن القوى لا يمكر أبداً، بل يواجه، ولذلك يقول الشاعر:

وضعيفة إذ أصبحت فرصة ... قتلت كذلك قدرة الضعفاء

والضعيف عندما يملك فهو يحدث لنفسه بأن هذه فرصة لن تتكرر، فيجهز على خصمه خوفاً من ألا تأتي له فرصة أخرى، لكن القوى حين يأتي لخصمه فيمسكه ثم قد يحدث نفسه بأن يتركه، وعندما يرتكب هذا الخصم حماقة جديدة فيعاقبه إذن فلا يمكر لا الضعيف. والحق سبحانه وتعالى في هذه المسألة يتكلم عن المجرمين من أكابر الناس، أي الذين يتحكمون في مصائر الناس، ويفسدون فيها ولا يقدر أحد أن يقف في مواجهتهم وهناك كثير من الآيات تتعلق بهذه المسألة، وبعضها وقع فيه الجدل والخلاف، ومن العجيب أن الخلاف لم يُصفِّ، وكل جماعة من العلماء يمسكون برأيهم. وهذه الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها تلتقي مع القول الحق.

﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾﴾ [سورة الإسراء]

وهذه الآية فيها إشكال، وقامت بسببها معركة بين العلماء؛ فنجد منهم من يقول: وكيف يأمر الله أناساً بالفسق؟. وحاولوا أن يجدوا تأويلا لذلك فقالوا: إن الحق قد قسر وأجبر أكابر هؤلاء الناس على الفسق. والجانب الثاني من العلماء قالوا: لا، إن الحق لا يقسر الشر على الفسق، بل على الإنسان حين يقرأ كلمة أمر الله في المنهج فلابد أن يعرف أن هذا الأمر عرضة لأن يطاع وعرضة لأن يعصى؛ لأن المأمور- وهو المكلف- صالح أن يفعل، وصالح ألا يفعل، وأن الآمر قد أمر بشيء، والمأمور له حق الاختيار؛ وبذلك تجد أكابر القوم إنما استقبلوا أمر الله بالعصيان؛ لأن الحق هو القائل:

﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ ..(٥)﴾ [سورة البينة]

والفسق - إذن - مترتب على اختيار المأمور .

وحين نتأمل نحن بالخواطر معنى « أمر الله » نجد أن أمر الله يتمثل في التكوينات الطبيعية الكونية ولا يوجد لأحد قدرة على مخالفة الله في ذلك ، فهو الفاعل . (وما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون)

ويتمثل أيضاً أمر الله في التشريعات ، ولبشر الذين نزلت لهم هذه التشريعات أن يختاروا بين طاعته أو العصيان ، وسبحانه لقنا عن الأمر بالتشريع (وما أمروا إلا ليعبدوا الله) .

وحين يقول الحق (وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها)

فسبحانه لا يهلك هذه القرية ظلماً ، وإنما يرسل إليهم المنهج ، فإن أطاعوه فأهلاً وسهلاً ، وإن عصوا فلابد لهم من العقاب بالدمار

وهكذا نرى أن العلماء الذين ظنوا أن الفسق مترتب على الأمر من الله لم يلتفتوا إلى أن ورود الأمر في القرآن جاء على لونين . أولا أمر التكوين بالقهريات فلا يستطيع مأمور أن يتخلف عنه ، ويمثل الأمر القهري قوله الحق :

﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ ﴾

(سورة يس)

فالأمر جهز في عالم الأزل ليبرز حين يشاء الحق . والأمر الثاني . هو الأمر التشريعي وهو صالح لأن يختار المكلف بين أن يطيع أو يعصى ، وفي هذا الإطار نفهم قوله الحق :

﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾ ﴾

(سورة الإسراء)

فلا نقل : إن الله يأمر بالفسق ، فالحق قد أمر المؤمنين بالمنهج لأنه سبحانه لا يأمر بالمحشاء ، بل جاء الأمر لكل البشر أن يعبدوا الله مخلصين له الدين ، لكن كبار

أهل هذه القرية أخذوا البديل للطاعة وهو الفسق والمعصية ، فلما أمرهم فسقوا ماذا يصنع بهم ؟ ، هو سبحانه يدمرهم تدميرا . فإن كان فى الكونيات فلا أحد من خلق الله مكلف فى الكونيات ، أما أمره الثانى فى اتباع المنهج فلنا أن نفهم أنه الاختيار

وهكذا نعلم ونفهم معنى هذه الآية لتتفق مع الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها : أى وإذا أردنا أن نهلك قرية أرسلنا منهجا فأكابرها كانوا أسوة سيئة فسقوا فيها بعدم إطاعة منهج الله فحق عليها القول فدمرناها تدميرا وكذلك - أيضاً - نفهم قوله الحق : « وما يمكرون إلا بأنفسهم وما يشعرون » لأن المكر إنما يريد به الماكر أن يحقق شيئاً من طريق ملتوٍ لأنه ضعيف لا يمكن أن يواجه الحقائق ، وهذه الحقائق تستقبلها الفطرة السليمة ، وهو يريد تزييف المسألة على هذه الفطرة لذلك يلتوى ولكل هذ الماكر نقول : أنت تريد أن تحقق لنفسك خيراً عاجلاً وشهوة موقوتة ، ولكنك إن استحضرت العقوبة التى تنشأ من هذ الأمر بالنسبة لك ، وكذلك عقوبتك على أنك أضللت الآخرين لرأيت كيف يأتى الشر .

﴿ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾

(من الآية ١٢٣ سورة الأنعام)

أى لا يعلمون ، لأنهم لا يوازنون الأمور بدقة تؤدى إلى النفع الحقيقى.

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَإِذَا جَاءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ
مِثْلَ مَا أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ
رِسَالَتَهُۥ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ صَغَارٌ عِندَ
ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَمْكُرُونَ ﴿١٢٤﴾ ﴾

وكأن الآية التى أرسلها الله مع رسوله وهى القرآن لتثبت لهم صدقه فى البلاغ عن

الله لم تقنعهم ، ولم يكتفوا بها ، بل طلبوا بآيات أخرى ، فهم قد قالوا :

﴿ وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا ﴿٩٠﴾ أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا ﴿٩١﴾ أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا أو تأتي بالله والملائكة قبيلا ﴿٩٢﴾ ﴾ [سورة الإسراء]

هم لا يريدون أن يؤمنوا من إنهم يدخلون في الحجاج ، والتماس سبل الفرار من الإيمان ، لذلك نجد أن كل الحجج التي وقعوا بها أمام دعوة الرسول هي أكاذيب ؛ فقالوا : إنه ساحر يفرق بين المرء وزوجه ، وبين الولد وأبيه ، ويدخل بما جاء به - ويزعم أنه من عند الله - الفتنة في الأسرة الواحدة

لكن لماذا لم يتساءلوا : متى قد سحر غيرنا فلماذا لم يسحره ؟ . وهل تأبو هم على السحر ؟ وهل للمسحور رغبة أو خيار مع الساحر ؟ إنهم في ذلك كاذبون .

ثم قالوا : إن الرسول ﷺ شاعر . ولو أن أحداً غيرهم قد قال هذا الكلام لكان مقبولاً لأنه يجهل رسول الله ، ولأنه ليس من قوم هم أهل فصاحة وأهل بلاغة وأهل بيان ، إنهم يعرفون الشعر ، والنثر ، والخطابة والكتابة فلو كان هذا الأمر من غيرهم لكان القول مقبولاً ، ولذلك نجد منهم من تصفو نفسه يقول : والله ما هو بقول كاهن ولا بقول شاعر . ويطلب لحق منهم ألا يقولوا رأيا جماهيريا ؛ ففي الرأي الجماهيري يختلط ويلتبس الحق بالباطل بل كان يطلب منهم أن يكون الكلام محدداً بحيث تنسب كل كلمة إلى قائلها فيقول الحق :

﴿ قل إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا ما بصاحبكم من جنة .. ﴿٤٦﴾ ﴾ [سورة سبأ]

أي لا تأتوا في أثناء هياج النفس وتتهموا الرسول ﷺ بالجنون ؛ لأن قولكم في الهياج الجماهيري غير محسوب على أحد لكن المطلوب أن تقوموا لله

مثنى أى اثنين اثنين ، وكل اثنين يقولان : هيا بنا نستعرض أمر هذا الرسول ونرى قضاياه : أهو كاهن ؟ أهو ساحر ؟ أهو شاعر ؟ فبين الاثنين لا يضيع الحق أبدا لأن كلاً منهما يناقش الآخر ، وحين يجلس اثنان لمناقشة ، إذا اتهم منهما واحد أمام الآخر لا يفصح أمام الغير ، لكن حين يتناقش ثلاثة أو أربعة فكل منهم يخاف أن يهزم أمام غيره ، ونجد كل واحد يدافع عن نفسه ولذلك حين يجلس اثنان معاً ليتناقشا ، ويبحثا أى أمر لا يخشى أحدهما الهزيمة ، لذلك يأمل الأمر من الله أن يقوموا لله مثنى أو فرادى ، ويتذكر كل واحد منهم أمر هذا الرسول أهو مجنون ؟

إن أفعال المجنون وأعماله تكون متقطعة غير مستقيمة . ومحمد على خلق عظيم ، وهل يقال للمجنون : إنه على خلق عظيم ؟ ، لأن الإنسان منا لا يعرف كيف سيقابله المجنون ، أيضربه ، أيشتمه ، أيقطع له ملابسه ؟ أما الخلق العظيم فمعناه الخلق المضبوط بالقيم ، وخلق رسول الله صلى الله عليه وسلم مضبوط بالقيم حتى صار ملكة وليس أمراً افتعاليًا وحين يقول الناس عن إنسان إن خلقه الكرم أى قد تأصلت فيه صفة الكرم تأصلاً بحيث أصبحت تصدر عنه أفعال البذل بيسر وسهولة ، والصفة حين ترسخ فى النفس تصير هى الخلق وتصدر عن النفس الأفعال بيسر وسهولة وفى أعمال المكان نسميها حفلاً ، وفى أعمال المادة نسميها آلية .

وكنا يعرف أن الإنسان إن أراد أن يتعلم قيادة سيارة فهو يتعلم الأفعال التى تؤدى إلى سير السيارة حتى يكتسب المهارة ويؤديها بيسر وبدون صعوبة ، وكذلك الشأن فى الخلق حين تصدر عنه الأفعال بدُربة ومهارة ، ونجد ـ على سبيل المثال ـ من يتعلم الفقه ، فيسأله إنسان عن الحكم فى الأمر المعين ، فيستعرض الأمر من كل أوجهه فى وقت طويل ، لكن من يتدرب يصبح الفقه بالنسبة إليه ملكة ، فلا يتعب فى استنباط الحكم . كذلك الخلق .

ويوضح لهم الحق . أنتم تقولون عن الرسول : إنه مجنون ، فاجلسوا مثنى مثنى أو فرادى وادرسوا تصرفاته ستجدون أنها تصرفات منطقية مبنية على خلق كامل مكتمل ، وهو سلوك يختلف بالتأكيد عن سلوك المجنون ؛ لأن المجنون لا ضابط له فى حركاته ولا فى سكناته ولا فيما يأتى ولا فيما يدع . وكذلك لا يمكن أن يكون شاعراً ؛ لأنكم أنتم أهل شعر ، وكذلك ليس بكاهن ؛ فالكهنة قد يستدلون بآيات

الله ثمنا قليلا، وهو الذى أعلى لكم رفعة الملك والثروة والجاه. لكنهم قالوا

﴿ وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ .. ﴿١٢٤﴾ ﴾

[سورة الأنعام]

وقد حدث الوليد بن المغيرة نفسه بذلك، وكان من ناحية السن أسنّ من رسول الله، ومن ناحية المال كان غنيًا، ومن ناحية الأولاد عنده العزوة والولد، وقال: لو كانت الرسالة بكل هذه الأمور لكنت أنا أولى بها. لأنني أسنّ ولأنني أكثر مالاً ولأنني أكثر ولداً. وهو قد قاسها بمقاييس البشر، وكأن الوليد لم يكن يعلم أن الرسالة ليست رئاسة، فإذا كنت أنت دون غيرك عندك المال وعندك الأولاد وعندك الزروع وغير ذلك لكنك لست على خلق محمد ﷺ، الذى فطره الله عليه وأعده واصطفاه ليكون رسولا، ولكن مع هذا قال بعضهم:

﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ ﴾[سورة الزخرف]

ولنسمع رد القرآن:

﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ . ﴿٣٢﴾ ﴾ [سورة الزخرف]

ويوضح لهم الحق: نحن قسمنا بينهم الأمور الحياتية، لكنكم تريدون تقسيم رحمة الله، وفرق بين الرحمة فى الرسالات وبين امتداد الحياة بالأقوات والمال؛ لأن هذه عطاءات ربوبية. لكن الرحمة هى عطاءات ألوهية، انكم تميزونهم فى دنياكم بالمال والبنين والبساتين لا لخصوصية فيكم ولكن لأن نظام الكون كله إنما يحتاج إلى مواهب متكاملة لا إلى مواهب متكررة، ولو امتلك كل الناس مثل ما عندك يا وليد من أرض ومال ما وجدت من يفلح لك الأرض، ولما كان عندك من يسرج لك الفرس. ولهذا جعل الحق مسألة الثروة دولاً، أى يقلب سبحانه هذه الأمور لتكون متداولة بين الناس؛ تكون لهذا فى زمن ولآخر فى وقت، ولزمن آخر ولا تدوم لأحد.

وحين جاء الناس إلى أبى جهل يحدثونه فى الرسالة قال: زاحمنا بنى عبد مناف فى

الشرف؛ أطعموا فأطعموا، كسوا فكسوا، ذبحوا فذبحوا. حتى صرت كفرسي رهان، قالوا. ما بين يوحي إليه والله لا نرضى به ولا نتبعه أبداً إلا أن يأتينا بوحي كما يأتيه، ومعنى كفرسي رهان، أي فحلين تنطلق الخيل في السباق في وقت واحد كانوا يدفنون عوداً في الأرض عند نهاية السباق ومن يجذبه من الأرض يقال له حاز قصب السبق، وعود القصبة هو غاية المشوار، حتى لا يقولن أحد لقد سبقني بخطوة أو غير ذلك.

وهنا يقول الحق: ﴿وإذا جاءتهم آية﴾

وانظر إلى كلمة «جاءتهم آية»، فمرة يقول: (قد جئتك بآية من ربك)، ومرة يقول «جاءتهم آية»، فكأن الآية بلغت من وضوحها ومن استقلالها ومن ذاتيتها وخصوصيتها أنها تجيء.

﴿قالوا لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتي رسل الله .. (١٢٤)﴾ [سورة الأنعام]

ويقول الله لهم رداً عليهم. لا تقترحوا ذلك على الله؛ لأن «الله أعلم حيث يجعل رسالته»؛ لأن الرسالة إنما تجيء لتنشر خيراً في الجميع، ولكنها تعف نفسها عن آثار الانتفاع من ذلك الخير والغير يريد أن يأتي له الخير ثم يترك بعضاً من الخير للناس. والرسول قد جاء ليبشر بخيره للآخرين، وهو نفسه لا ينال من هذا الخير إلا البلاغ به. ويأمر سيدنا رسول الله ﷺ قبل أن يموت ألا يأخذ أهله الزكاة، أما ما تركه فقد صار صدقة للناس، أي أنه لم ينتفع به في الدنيا؛ لذلك هو مأمون على الرسالة، ولم يرد أن يأخذ الدنيا ليورث أهله من بعده. وقد أراده الله كذلك ليكون خيره لكل الناس فالرسالة تكليف، والنبوة ليس حواؤها هنا، بل من عطفه الجزاء له في الآخرة، ولذلك حينما جاء رسول الله ﷺ في بيعة العقبة وقالوا: اشترط لنفسك. قال تمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وتعملون كذا وتعملون كذا.

قالوا له: فما لنا؟ أنت اشترطت لنفسك، فما لنا إن نحن وفينا؟. ماذا قال الرسول ﷺ؟. قال لكم الجنة هذا هو الثمن الذي عنده،

فمن يريد الجنة يأتي إلى الإيمان، ومن يريد ما هو دون الجنة فليس مكانه مع أهل الإيمان. مع أنه قال لهم فيما بعد ستتركون السمن وتعرشون الزرابي والوسائد وتجلسون عليها، ويشرهم بالكثير، لكنه لم يقل لهم ذلك من البداية لأن من هؤلاء من لا يدرك خيراً في الدنيا مع الإسلام؛ بل يموت والإسلام ضعيف واتباعه في قلة، لذلك أعطاهم الخراء المضمون لهم جميعاً حين قالوا له. ماذا إن نحن وفّينا؟. قال. لكم الجنة. وكأنه ﷺ يعلمهم أن الدنيا أهون من أن تكون جزاءً على العمل الصالح، فجزاء العمل الصالح خالد لا يفوته ولا تفوته.

﴿وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَن نُّؤْمِنَ .. ﴿١٢٤﴾﴾ [سورة الأنعام]

وحين نتأمل قولهم: (لن نؤمن) نجد أن في هذا القول إصراراً على عدم الإيمان، أي لن نؤمن حتى في المستقبل إنهم تحكموا في المستقبل. ثم يفضحهم الله فيموت بعضهم على الكفر، ومن بقي منهم يأتون مؤمنين بعد الفتح. ومن العجيب أن العبارة التي يطلقونها هي عبارة مهزورة لاتستقيم مع منطق الكفر منهم، قالوا: لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتي رسل الله، كأنهم قد عرفوا أن هناك رسلا من الله، والأصل في الآية أن يؤمنوا برسل الله ورسول الله ﷺ خاتم الرسل، وهذا القول يدل على مجرد المعارضة المقترنة بالغباء، فما دمتم تعرفون أن لله رسلاً يصطفيهم، فكيف تحاولون أنتم تحديد إرادة الله في الاختيار؟.

إن رسل الله كانت لهم آيات كونية، حسية مرئية، وهي وإن كانت فيها قوة المشهد الملزم، إلا إنه لا ديمومة لها، فمن رأى سيدنا موسى وهو يضرب البحر فينفلق لن يكذب هذه الآية الكونية، إلا أنها أصبحت خبراً والخبر مناسب لمحدودية رسالة موسى، وكذلك رسالة عيسى ﷺ حيث أبرأ الأكمة والأبرص بإذن الله. وهذه رسالات لرهط محدود وفي قوم محدودين، لكن الرسول ﷺ جاء ومعه المنهج المعجزة الباقي إلى قيام الساعة، فإن كانت المعجزة حسيّة فلن يراها إلا قوم مخصوصون لأن الأمر الحسي لايتكرر، بل ينتهي، وسيدنا محمد رسول إلى أن تقوم الساعة. فلا بد له من آية باقية إلى قيام الساعة؛ لذلك كانت الآية في المعنويات والعقليات التي لاتختلف فيها الأمم ولا تختلف فيها الأزمان،

لكنهم أرادو معجزة حسية، وأخرى عقلية، حتى إذا جاءت واحدة فقط أنكروا الثانية، فحسم الحق الأمر وقال: «الله أعلم حيث يجعل رسالته»

ولو نظروا إلى كلمة «الله أعلم حيث يجعل رسالته»، فكلمة «أعلم» تدل على أنه قد يمكّن الله بعضاً من خلقه ليعلموا لماذا اختار الله محمداً ﷺ؛ لأن الذين واجههم ﷺ بأمر الدعوة، هل انتظروا منه أن تكون له آية أو معجزة، أو آمنو به بمجرد الإخبار؟ لقد آمنوا بمجرد الإخبار؛ لأن تجربتهم معه أكدت أنه صادق وأمين على خبر الأرض، ولابد أن يكون مأمونا على خبر السماء؛ لأنه لم يكذب عليهم في أمر الأرض، فكيف يكذب في أمر السماء؟

إننا نجد أن سيدنا أبا بكر، بمجرد أن علم بأمر الرسالة قال. صدقت، وسيدتنا خديجة صدقته من فور أن قال، وأخذت صدق بلاغه من مقدمات حياته، وقالت أول استنباط فقهي في الأسلام. وكان ذلك لسيدتنا أم المؤمنين خديجة قبل أن يعرف الفقه بمعناه الإصطلاحي الحديث، مما يدل على أن الاستنباطات للأدلة هي استنباطات للعقل الفطري السليم البعيد عن الأهواء إنه يقدر أن يستقرىء الأمر ولابد أن يهتدي، فحين أعلن لها أنه خائف أن يكون الذي أصابه مرض أو مسّ من الجن رفضت ذلك لأنه يصل الرحم، ويحمل الكلّ، ويعين على نوائب الدهر، وقالت له: والله لايخزيك الله أبداً.

إذن فقد جاءت بالمقدمات التي ترشح أن ربنا لا يمكن أن يخذله، وكل المقدمات مفاخر، كلها خلق عظيم، وكلها الثقافات إنسانية قبل أن يأتي منهج السماء، الثقافات إنسانية بالفطرة دون تقعير أو تدبير، وكان هذا أول استنباط فقهي في الإسلام. ولذلك نعرف السر لماذا جعل الله لرسوله أم المؤمنين خديجة أول زوجة له؟ لأنه ستمر به فترة لايحتاج فيها إلى زوجة فقط، بل إلى ناصحة، ذلك النصح الكامل الذي تستقبل به مسائل النبوة، ولذلك حين يخرج إلى الغار تأتي له حكمة خديجة في الاستنباط قبل أن يوجد فقه الإسلام؟

«الله أعلم حيث يجعل رسالته»؟، وهم قد أصروا على ألا يعلموا على الرغم من أنهم وجدوا منه خصالاً وأشياءً حكموا بوجودها فيه وأنها صفات رسول

﴿ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِندَ اللَّهِ ﴾

(من الآية ١٢٤ سورة الأنعام)

هنا نجد فجوة انتقالية فى الأداء ، فمن قبل يتحدث سبحانه عمن يظنون أنهم كبار ، فيأتى ليقول : إن الصَّغار سيصيبهم ، وليس معنى الصغار الذل والهوان لدى الناس ، لا ، بل صغار وذل وهوان عند نفس كل منهم دائما ، فكل منهم سيشعر بالذل أمام نفسه ويستصغر نفسه . كأن الصغار سيصيب الإنسان فى نفسه ، ويكون هذا الصغار من عند الله ، وما دام الصغار منسوباً إلى عندية الله فهو لا يزول أبداً ؛ لأنه لا توجد قوة ثانية تقول لله إن قدرك لن يتحقق فالصغار والذل والهوان سيظل بهم وهم مع كونهم أكابر المجرمين فلن يستطيعوا دفعه عن أنفسهم ، وسيصيبهم مع ذلك عذاب شديد

لماذا العذاب الشديد ؟

لقد قلنا من قبل : إن العذاب يوصف مرة بأنه أليم ، ويوصف مرة أخرى بأنه مهين ، ويوصف هنا بأنه شديد والعذاب المهين الذى تكون فيه ذلة النفس والعذاب الأليم الذى يكون فى البنية ؛ لأن الإنسان له بنية وله معنويات قيمية ، فمن ناحية البنية يصيبه العذاب ، ومن ناحية المعانى النفسية تصيبه الإهانة ، فهناك من يتعذب لكنك لا تملك أن تهينه ويتحمل المشقة برجولة ، ومنها تنفى من الإهانة فلا تزال نفسه كريمة عليه ، مصداقاً لقول الشاعر :

وتجلدى للشامتين أريهمو أنى لريب الدهر لا أتضعضعُ

لذلك يرسل قدر الله بالعذاب على نوعين عذاب بنية وعذاب قيم ، وهذا هو الصغار ، والعذاب الشديد ، وهو الذى لا يقوى الإنسان على تحمله ، ولم يُنزل الحق العذاب بهؤلاء جزافاً ، لكنه بسبب ما كانوا يكذبون ، فسبحانه هو القائل :

﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾

(من الآية ١١٨ سورة النحل)

والحق سبحانه وتعالى حينما عرض هذه القضية عرضها ليبين لنا أنه لم يرغم بقدره خلقاً من خلقه على مسائل الاختيار فى التكليف بل أوجد ذلك فى إطار

﴿فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر .. ﴿٢٩﴾﴾ [سورة الكهف]

ولكن الإرغام من الحق جاء للأمور القهرية القدرية الكونية الخارجة عن نطاق التكليف، أما أمر التكليف فالله سبحانه وتعالى قال فيمن يرفضون الطاعة: «يصيب الذين أجرموا صغار عند الله وعذاب شديد» وسبحانه قد أوضح لنا: نحن لم نجعل ذلك قهراً منا لهم دون عمل عملوه باختيارهم بل إن العذاب والصغار كانا جزاءً لمكرهم

ثم يأتي الحق سبحانه وتعالى لنا بقضية يقع فيها الجدل البريري لبعض الناس الذين أسرفوا على أنفسهم، ويريدون أن يجعلوا إسرافهم على أنفسهم في الذنوب خاضعا لأن الله أراد منهم ذلك؛ فيقول سبحانه

﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾﴾

نجد من يقول إن ربنا حين يريد لإنسان أن يشرح صدره للإسلام فذلك من إرادة الله ومادمت المكلف دون؟.

وللرد على هذا نقول: لقد عرفنا من قبل أن الهداية لها معنيان. المعنى الأول الدلالة وهي أمر وارد وواجب حتى للكافر فإن هُدى الله للكافر أن يدله إلى طريق الخير، ولكن هناك هداية من نوع آخر وهي للذي آمن، ويصبح أهلاً لمعونة الله بأن يخفف عنه أعباء التكاليف ويسرها له ويجعله يعشق كل الأوامر ويعشق الفضل والتجافي عن كل النواهي

يقول بعض الصالحين: «اللهم إني أخاف ألا تتيسى على طاعة، لأني أصبحت أشتهيها» كأنه عشق الطاعة بحيث لم يعد فيها مشقة أو تكليفاً، لذلك فهو خائف، وكأنه قد فهم أنه لابد أن توجد مشقة، ولمثل هذا الإنسان الصالح نقول: لقد فقدت الإحساس بمشقة التكليف لأنك عشقته فألفت العبادة كما ألفتك وعشقتك، وحدث الانجذاب بينك وبين الطاعة، وجعلت رسول الله مثلاً لك وقدوة، فقد كان ﷺ يرى أنه إذا نودي إلى الصلاة يقوم الناس إليها كسالى لكنه ﷺ يقول لبلال حينما يأتي وقت الصلاة: «أرحنا بها يابلال».

وهذا عين مايقوله بعض من يؤدون الصلاة الآن حيث يقول الواحد منهم. هيا نصل لنريحها من على ظهورنا، وهؤلاء يؤدونها بالتكليف لا بالمحبة والعشق أما الذين ألفوا الراحة بالصلاة حينما يحزبهم ويشتد عليهم أمر خارج عن نطاق أسبابهم، يقول الواحد منهم. مادامت الصلاة تريح القلب، فلأذهب إليها وألقى ربي زائداً على أمر تكليفه لي متقربا إليه بالنوافل، ولذلك كان رسول الله ﷺ إذا حزبه أمر قام إلى الصلاة. ومعنى حزبه أن الأسباب البشرية لاتنهض به. فيقوم إلى الصلاة، وهذا أمر منطقي، ولله المثل الأعلى.

كان الإنسان منا وهو طفل إذا ما ضايقه أمر يذهب إلى أبيه، فما بالنا إذا ما ضايقنا أمر فوق الأسباب المعطاة لنا من الله فممن نروح؟ إنما ملجأ لربنا ولقد كان ﷺ إذا حزبه أمر قام إلى الصلاة.

إذن فمشقة التكليف شيء يدل على أنك ذقت حلاوة الطاعة، وقد يجوز أنه شاق عليك؛ لأنه يخرجك أولاً عما ألفت من الاعتياد. فعندما يأتيك أمر فيه مشقة تقول: إن هذه المشقة إنما يريد بها لي حسن الجزاء، فإذا ما عشقت الصلاة صارت حبّ لك، وكان واحد من الصالحين كما قلت- يخاف ألا يثاب على الصلاة لأنها أصبحت شهوة نفس، والإنسان مطالب بأن يحارب نفسه في شهواتها لكن رسول الله ﷺ وضع لنا المثل فقال «لا يؤمن أحدكم حتى يصبح هواه تبعاً لما جئت به» أي يصبح ما يشتهيه موافقا لمنهج الله، فإذا وصل وانتهى المؤمن إلى هذه المرتبة فهو نعم العبد السوي.

وهكذا عرفنا أن الهداية قسمان. هداية بمعنى الدلالة، وهداية بمعنى المعونة.

فإذا ما اقتنعت بهداية الدلالة وآمنت بالحق فسبحانه يخفف عليك أمور التكليف، ويجعلك عاشقاً لها، ولذلك يقول أهل الصلاح: ربنا قد فرض علينا خمس صلوات، وسبحانه يستحق منا الوقوف بين يديه أكثر من خمس مرات، وفرض علينا ربع نصاب لزكاة وهو اثنان ونصف بالمائة، وسبحانه يستحق منا أكثر من ذلك لأنه واهب كل شيء، وهذا عشق لتكليف، وهذا هو معنى قوله (فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام).

«فمن يرد الله أن يهديه» أي يدلّه سبحانه كما دل كل العباد إلى المنهج، لكن الذي اقتنع بالدلالة وآمن يسهل عليه تبعات التكليف مصداقاً لقوله الحق.

﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ﴿٧٦﴾﴾

(سورة مريم)

فهذه هداية المعونة، وفيه فرق هنا بين الإسلام والإيمان لأن الإيمان لا يحتاج فقط إلى الاعتقاد؛ إنما هو حمل النفس على مطلوبات الإيمان. ولذلك نجد أن كبار رجال قريش رفضوا أن يقولوا: «لا إله إلا الله»؛ لأنهم علموا أنها ليست مجرد كلمة تقال، ولكن لها مطلوبات تنتج في التكليف الناتجة عنها بـ«افعل» و«لا تفعل». فالتكليف يقول لك: «افعل» لشيء هو صعب عليك، ويقول لك: «لا تفعل» في شيء من الصعب أن تتركه، لذلك يقول سبحانه:

﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾

(من الآية ١٢٥ سورة الأنعام)

وسبحانه يشرح صدره للإسلام بعد أن علم أنه قد اعتقد شريعة التوحيد ورضيها واطمأن بها، فيأتي إلى فهم التكاليف؛ لأن صحيح الإسلام يقتضي الانقياد لأمور التكاليف، فمن أخذ الهداية الأولى وآمن بربه، يوضح له سبحانه آمنت بي وجئتني؛ لذلك أخفف عنك تبعات العمل، ويشرح صدره بالإسلام، وشرح الصدر قد يكون جزاءً. فسبحانه هو القائل:

﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝ ﴾

(سورة الشرح)

فقد جازاه ربنا بذلك ، لأنه أتى ما عليه وصمد . كأن الله يريد بالإيمان من المؤمن أن يقبل على الحق ، وحينما يقبل على الحق . يبحث العبد ليتعرف على المراد والمطلوب منه فيعلم أنها لتكاليف ، فإذا رأى الله منك الاستعداد للتيسير لقبول التكاليف ، فإنه يحملها عنك لا بالتقليل منها ، ولكن بأن يجعلك تشتهيها . وقد تلزم نفسك بأشياء فوق ما كلفك الله ؛ لتكون من أهل المودة ومن أهل التجديات ومن الذين يدخلون مع الله في ود ، وتلتفت لنفسك وأنت تقول لقد كلفني الله بالقليل وسبحانه يستحق الكثير فتزيد من طاعتك وتجد أمامك دائماً الحديث القدسي

« من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب ، وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إليّ مما افترضته عليه ، ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها »[1] .

أي بالأمور التي تزيد على ما كلفه في الصلاة والزكاة والصيام والحج .

إذن فمعنى « فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام » أي يجعل الأمور التي يظن بعض من الناس أنها متعبة فإنه بإقباله عليها وعشقه لها يجدها مريحة ويقبل عليها بشوق وخشوع ولذلك فالحق سبحانه وتعالى يترك في خلقه مُثُلاً للناس . فنجد المال عزيزاً على النفس حريصة عليه لأنه إن كان المال قد جاء بطريق شرعه الله وأحله فهو يأتي بتعب وبكدّ ؛ لذلك يحرص عليه الإنسان ، فيحث الله العبد من أجل البذل والعطاء .

إننا نجد المؤمن يعطي للسائل لأن السائل هو الجسر الذي يسير عليه المسلم إلى الثواب من الله ، فيقول العبد المؤمن للسائل : مرحبا بمن جاء ليحمل زادي إلى الآخرة بغير أجرة ، ولذلك عندما جاء مسلم إلى الإمام عليّ - رضي الله عنه وكرّم الله وجهه - ، قال المسلم : أن أريد أن أعرف أأنا من أهل الدنيا أم من أهل الآخرة ؟

---

(١) رواه البخاري

واختار الإمام عليّ مقياساً للإيمان في نفس كل مؤمن، وقال له. إن جاءك من يطلب منك، وجاء من يعطيك، فإن كنت تهش لمن يعطيك فأنت من أهل الدنيا، وإن كنت تهش لمن يأخذ منك فأنت من أهل الآخرة؛ لأن الإنسان يحب من يعمر له ما يحب

إذن فـ «يشرح صدره للإسلام» أي يخفف عنه متاعب التكليف بحيث لا توجد مشقة، ثم يرتقي بعد ذلك ارتقاءً آخر بأن يعشقه في التكليف ويهديه الله إلى طريق الجنة، لأن هناك هداية إلى المنهج وهداية إلى الجزاء على المنهج، ولذلك نجد القرآن يقول: عمن ضلوا:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا (١٦٨) إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ .. (١٦٩) ﴾ [سورة النساء]

كأن هناك هداية إلى العمل وهداية إلى الجزاء، ونجد الحق يقول:

﴿ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ (٤) سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ (٥) وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ (٦) ﴾ [سورة محمد]

وقد يتساءل إنسان كيف يهدي الله من قتل، وهل هناك تكليف بعد القتل؟. نقول انظر إلى الهداية، إنها هداية الجزاء «سيهديهم ويصلح بالهم ويدخلهم الجنة عرفها لهم».

وهكذا نعرف أن هناك هداية الجزاء، من يحسن العمل يُجزه الله الجنة، أما من يسيء فله عذاب في الدنيا والآخرة

﴿ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ (١٢٥) ﴾ [سورة الأنعام]

وهل هذا تحن من الله على خلقه؟ لا، لأنه مادام دعاهم للإيمان وآمن بعضهم وصاروا أهلاً للتحليات، وكفر بعضهم فلم يؤمنوا، فصاروا أهلاً للحرج وضيق الصدر. ومعنى الضيق أن الشيء يكون حجمه أقل مما يؤدى به مهمته، فحين يقال ضاق البيت بي وبعيالي، فهذا يعني أن الرجل وزوجه في البداية عاش في غرفتين، وكان البيت متسعاً ثم أنجبا عيالاً كثيرة فضاق بهم البيت وهكذا نعلم أنه لم يطرأ شيء على الجدران ومساحة البيت، لكن حين زاد عدد الأفراد شعروا بالأسرة بضيق المنزل ويقال. صدره ضيّق أو ضيْق فقد ورد في القرآن لفظ ضيق على نعتين: فالحق يقول:

﴿ .. ولا تَكُ فى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ (١٢٧) ﴾ [سورة النحل]

وهناك في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها توجد كلمة ضَيّق، والحق يقول:

﴿ فلعلَّكَ تاركٌ بعضَ ما يُوحى إليْكَ وضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ .. (١٢) ﴾ [سورة هود]

فما المراد من «ضائق»، و«ضيّق»، و«ضيْق»؟. نعرف أن الصدر هو مكان الجارحتين الأساسيتين في التكوين القلب والرئة. والرئة هي الجارحة التي لا تستمر الحياة الا بعملها، فقد تبطىء الأمعاء مثلاً، أو تتوقف قليلا عن عملها، ويمكن للإنسان عيش خريفه من الدهن أو اللحم ولذلك يصبر الإنسان على الجوع مدة طويلة، ويصبر على الماء مدة أقل، لكنه لا يصبر على فقد الهواء لدقائق، ولا صبر لأحد على ترك الشهيق والزفير

ولقد قلنا من قبل: إن الحق سبحانه وتعالى قد يملك بعضاً قوت بعض وأقل منه أن يملك بعضا ماء بعض، لكن أيملك أحداً هواء أحد؟ لا، لأن الرضا والغضب أغيار في النفس البشرية. فإذا غضب إنسان على إنسان، وكان يملك الهواء وحبسه عنه فالإنسان يموت قبل أن يرضى عنه هذا الآخر، ولذلك لم يملك الله الهواء لأحد من خلقه أبداً.

إذن كل المسألة المتعلقة بقوله: «يجعل صدره ضيقاً حرجاً» نعلم عنها أن الصدر

هو محل التنفس، والرئة تأخذ الأوكسجين وتطرد ثاني أوكسيد الكربون، وعندما يصاب الإنسان بنوبة برد نراه وهو يجد صعوبة في التنفس، كأن حيّز الصدر صار ضيقاً، فلا يدخل الهواء الكافي لتشغيل لرئتين، ويحاول الإنسان أن يعرض بالحركة ما فاته فيهيج. ويشخص الأطباء ذلك بأن المريض يريد أن يأخذ ما يحتاجه إليه من الهواء، فيهيج؛ لأن الحيّز قد ضاق، وكذلك عندما يصعد الإنسان سلماً، ينهج أيضاً؛ لأن الصعود يحتاج إلى مجهود، لمعاندة جاذبية الأرض، فالأرض لها جاذبية تشد الإنسان، ومن يصعد إذن يحتاج إلى قوة ليحرك إلى أعلى ويقاوم الجاذبية.

إننا نجد نزول السلم مريحاً؛ لأن في النزول مساعدة للجاذبية، لكن الصعود يحتاج إلى جهد أكثر، فإذا ضاق الصدر فمعنى ذلك أن حيز الصدر لم يعد قادراً على أن يأخذ الهواء بالتنفس بطريقة تريح الجسم، ولذلك يقال: «فلان صدره ضيق» أي أن التنفس يجهده إجهاداً بحيث يحتاج إلى هواء أكثر من الحجم الذي يسعه صدره.

«ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً» والحرج معناه الحجز عن الفعل، كأن نقول حرّجت على فلان أن يعمل كذا، أي ضيقت عليه ومنعته من أن يؤدي هذا العمل. (كأنما يصّعد في السماء)

وعلمنا أن الصعود لأعلى هو امتداد لفعل الجسم إلى جهة من جهاته. فالجهات التي تحيط بأي شيء ست: هي فوق وتحت، ويمين، شمال، وأمام، وخلف، وعرفنا أن الهبوط سهل؛ لأن الجاذبية تساعد عليه، والمشي ماذا يعني؟ المشي إلى يمين أو إلى شمال أو إلى أمام أو إلى خلف، فهو فعل في الاستواء العادي الظاهر، والذي يتعب هو أن يصعد الإنسان، لأنه سيعاند الجاذبية، وهو بذلك يحتاج إلى قوتين قوة للفعل في ذاته، والقوة الثانية لمعاندة الجاذبية.

«ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصّعد في السماء» وذلك بسبب مشقات التكليف؛ لأنه لم يدخلها بعشق، فلا يدخل إلى مشقات التكليف بعشق إلا المؤمن فهو الذي يستقبل هذه التكاليف بشرح صدر وانبساط نفس وتذكر بما يكون له من الجزاء على هذا العمل، والذي يسهل مشقة الأعمال حلاوة تصور الجزاء عليها؛ فالذي يجتهد في دروسه إنما يستحضر في ذهنه لذة النجاح وآثار هذا النجاح

في نفسه مستقبلاً وفي أهله . أما الذي لا يستحضر نتائج مايفعل فيكون العمل شاقاً عليه

﴿ ومن يُرِدْ أن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ .. (١٢٥) ﴾

[سورة الأنعام]

والسماء هي كل ماعلاك فأظلك ، فالجو الذي يعلوك هو سماء ، وكذلك السحابة ، وأوضح لنا ربنا أنه أقام السموات السبع ، وهنا أورد بعض العلماء الذين يحبون أن يظهروا آيات القرآن كمعجزات كونية إلى أن تقوم الساعة ، أرادوا أن يأخذوا من هذا القول دليلاً جديداً على صدق القرآن ، وتساءلوا : من الذي كان يدرك أن الذي يصعد في الجو يتعب ويحتاج إلى مجهودين : الأول للعمل والثاني لمعاضدة الجاذبية ولذلك يضيق صدره لأنه لا يجد الهواء الكافي لإمداده بطاقة تولد وقوداً .

ونقول لهؤلاء العلماء . لا يوجد مايمنع استنباط مايتفق في القضية الكونية مع القضية القرآنية بصدق ، ولكن لنحبس شهوتنا في أن نربط القرآن بكل أحداث الكون حتى لانتهافت فنجعل من تفسيرنا لآية من آيات القرآن دليلاً على تصديق نظرية قائمة ، وقد يجد من بعد ذلك من يثبت خطأ النظرية .

إنه يجب على المخلصين الذين يريدون أن يربطوا بين القرآن ومافيه من معجزات قرآنية مع معجزات الكون أن يمتلكوا اليقظة فلا يربطوا آيات القرآن إلا بالحقائق العلمية ، وهناك فرق بين النظرية وبين الحقيقة ؛ فالنظرية افتراضية وقد تخيب

لذلك نقول أبعد القرآن عن هذه حتى لاتعرضه للدبدبة . ولا تربطوا القرآن إلا بالحقائق العلمية التي أثبتت التجارب صدقها

وقائل القرآن هو خالق الكون ، لذلك لاتتناقض الحقيقة القرآنية مع الحقيقة الكونية ؛ لذلك لاتحدد أنت الحقيقة القرآنية وتحصرها في شيء وهي غير محصورة فيه . وتنبه جيداً إلى أن تكون الحقيقة القرآنية حقيقة قرآنية صافية ، وكذلك الحقيقة الكونية

﴿ .. كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ (١٢٥) ﴾

[سورة الأنعام]

والرجس وهو العذاب ، إنما يأتيهم بسبب كفرهم وعدم إقبالهم على التكليف

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَهَٰذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ ﴾

و « هذا » مقصود به ما تقدم من آيات من كتاب الإسلام وهو القرآن ، وذلك ما يشرح الصدر القابل للإيمان . والقرآن هو الحامل لمنهج الإسلام ، فمرة تعود الإشارة إلى القرآن أو إلى الإسلام وليس هناك خلاف بين القرآن والإسلام

(وهذا صراط ربك مستقيماً) و « الصراط » هو الطريق السَّوى ، والطريق السَّوى قد يكون مع ستوته معوجاً لكن هذا الطريق مستوٍ ومستقيم ، ونعلم أن الطريق المستقيم هو أقصر الطرق الموصلة للغاية وعن هذا فصراط لا تعنى عن مستقيم ، ومستقيم لا يغنى عن صراط . بل لابد من صراط معبد ومستقيم ليكون أقصر طريق إلى الغاية وبلا متاعب ، إننا ـ نحن البشر نرى المهندسين وهم يقيسون الأبعاد والمسافات والغايات والبدايات والنهايات ، وبعد ذلك يربطون البدايات بالغايات .

إنهم يحضرون آلات معينة ليرصدوا استقامة الطريق وكيفية تمهيده وقد يعترض استقامة الطريق عقبات صعبة شديدة كأن يكون جبل مثلاً ، فيقوم المهندسون إما بنحت نفق فى الجبل ليضمنوا له الاستقامة ، وإما بأن يجعل الطريق ليضمنو جودة تعبيد الطريق فإن جاء المهندسون وقالوا نمشى من هنا لنضمن استقامة الطريق فإننا نفعل ذلك وإلاّ جعلوا الطريق متعرجاً أو حلزونياً ؛ وذلك ليتفادى السائر العقبات التى ليس له قدرة عليها

لكن إذا كان الصراط قد مهده رب ، أتوجد له عقبة ؟ طبعاً لا ، إذن فهو طريق مستقيم . ولنلحظ أنه سبحانه قال . « صراط ربك » أى أنه جاء بها من ناحية

الربوبية ، والربوبية عطاء الرب ، إنه سيد ، ومربٍ ، وخالق الخلق وتضمن هم ما يعينهم على مهمتهم في الوجود معونة ميسرة سهلة ، وهكذا نعرف أن طريق الحق هو الصراط المعبد المستقيم ، أي الذي يصل بين البداية والنهاية . فإذا كان الطريق الذي نتبعه مستقيماً ومعبداً ، وسهلاً ، فلماذا لا نتبعه ؟

« وهذا صراط ربك » . ونلحظ أنه سبحانه قد أسند الرب لمحمد ، أي من أجل خاطره جعل الصراط مستقيماً ؛ لأنه سبحانه هو المتولي لربوبيتك يا محمد ، وسبحانه رب الكون كله ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم عين أعيان الكون

﴿ وَهَٰذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا ۗ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

« فصّلنا » أي أنّ كل شيء في هذا الكون مخلوق لما يناسبه ، وكل قضية من قضايا الكون خلقها ربنا لتحقق الفائدة منها بدون مشقة ، وبدون عنت والمنهج الذي أنزله الله إنما يصلح الكون ويجعل كل شيء فيه مناسباً لمهمته ؛ لأن الله إله كل الناس وهم بالنسبة إليه سواء لأنه لم يتخذ لا صاحبة ولا ولداً . ولا يعطي سبحانه الحياة لمخلوق ويوجده في الكون ، ثم يعرّيه من أسلحة الحركة في الحياة ، ولكل إنسان سلاح من موهبة أو قدرة وبذلك تتعدد الأسلحة والمواهب والقدرات ، فمن يريد أن يبني بيتاً ، أنقول له . اذهب إلى كلية الهندسة لتتعلم كيف ترسم البيت وتخططه ؟ أنقول له تعلم كيف تكون فنياً وكهربائياً ونقاشاً ؟ إن الفرد الواحد لا يمكن أن يتعلم كل هذه التخصصات ، لذلك وزّع الله المواهب على خلقه ؛ هذا عنده موهبة ليعمل لنفسه ، ويعمل لغيره . وبعد ذلك يأتي غيره ليؤدي له عملاً ليس له فيه موهبة بحيث يتكامل المجتمع كله ولا يتكرر أفراده .

ولو كنا نخرجنا جميعاً كأطباء أو مهندسين لما نفعت الدنيا ، ومن نقول عليهم : إنهم فشلوا في التعليم يقومون بأعمال في الحياة ما كنا نستطيع الحياة بدونها ؛ فقد خلقهم الله بقدرات عقلية محدودة ليهبهم قدرات أخرى تصلح في مهمات أخرى . وإن تعلم المجتمع كله تعليماً عالياً لصار المجرم مقلوباً وإن انقلب المجرم فمعنى هذا أن أجراءً منه ستكون بغير دعائم في الأرض . لذلك نجد أن هناك إعداداً عقلياً أراده الحق لكل واحد من الخلق ، ولا نستطيع أن نقول لكل إنسان : تعلم وتخرج في

الجامعة ثم اكنس الشارع وكن في العد حداداً . لذلك ربط الحق كل عمل بالحاجة إليه ، ومن يحس استقلال قدر الله في نفسه يُعطِ الله له من العمل كل الخير

ونلحظ الآن أن من يعمل موظفاً في الدولة يجيا في راتب محدود ، بينما نجد السباك يقدر عمله بأجر يحدده هو ، ويبقى الويل والتعب لمن كان تقدير عمله في يد غيره . (وهذا صراط ربك مستقيماً قد فصلنا الآيات لقوم يذكرون) .

وانظر كل قضية في الكون ، لم يُدخل ابن آدم فيها أنفه نجدها مستقيمة ، ولا يأتي لفساد إلا في القضايا التي أدخل ابن آدم أنفه فيها بدون منهج الله . فإن دخلت في كل مسألة بمنهج الله يستقيم الكون تماماً ولذلك يلفتنا الحق سبحانه وتعالى إلى النظام الأعلى في كونه والذي لا تدخل لنا فيه . ولا سيطرة عليه : السموات ، والكواكب ، والشمس ، والقمر ، وحركة الأرض ، كل تلك الكائنات نجد أمورها تسير بانتظام ، ولذلك يقول لنا الحق سبحانه :

﴿ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ۝ أَلَّا تَطْغَوْا فِى ٱلْمِيزَانِ ۝ ﴾

(سورة الرحمن)

فإن أردتم أن تستقيم أموركم في شئونكم وأحوالكم الاختيارية فادخلوا فيها بمنهج الله ؛ لأن الأشياء التي تدار بمنهج الله بدون أن يتدخل فيها البشر تؤدي مهمتها كما ينبغي .

فعلى الإنسان ـ إذن ـ أن يتذكر كيف يأخذ من المقدمات التي أمامه ما يوصل إلى النتائج ، ولابد أن يأخذ المقدمات السليمة ليصل إلى الغايات الفطرية . وأقصر الأمور أن تسأل نفسك . أنت صنعة من ؟ صنعة نفسك ؟ ! لا . هل أنت من صنعة واحد مثلك ؟ لا . وهل ادّعى واحد في كون الله ـ وما أكثر ما يُدّعى ـ أنه خلقك أو خلق نفسه ؟ لا . بل أنت وهو وكل الكون من صنعة الله ، فدعوا الله يقرر قانون صيانتكم ، وسيظل الناس متعبين إلى أن يسلموا المصنعة إلى خالقها (وهذا صراط ربك مستقيماً قد فصلنا الآيات لقوم يذكرون) .

ولم يقل فصلنا الآيات لواحد ، بل قال « لقوم » حتى إذا ما مال أو عقل واحد في الفكر يعدله غيره . وكلنا متكافلون في التذكير ، وهذا التكافل في التذكير يعصم كل

مؤمن من نفسه ؛ فإن حصل عندى قصور من سهو أو من غفلة أو من هوى يعدله غيرى وهذه قضية كونية لو استقرأت الوجود كله وجدتها لا تتخلف أبدا، ولابد من تذكر الغاية التى جاء بها فى قوله الحق :

﴿ لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِندَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢٧﴾ ﴾

أى أن لهؤلاء المتقدمين الذين صبروا وصابروا ورابطوا، لهم دار السلام، وهو أسلوب مكون - كما يقال - من مبتدأ وخبر، الا أن المبتدأ أخرّ ت، والخبر تقدّم، وكان المطلق أن يقال : «دار السلام لهؤلاء» ولكن الأسلوب القرآنى جاء ليقدم الخبر المكون من الجار والمجرور ومتعلقه، ويؤخر المبتدأ وذلك لخصوصية أرادها الحق، وهى أن هذه الدار لهم وحدهم دون غيرهم فهى خالصة لهم يوم القيامة و«دار السلام» مكونة من كلمتين، «دار» ومعناها ما يستقر فيه الإنسان، ويجمع هذا المكان كل ما تتطلبه حياة الإنسان، وهى أوسع قيلاً من كلمة «بيت»؛ لأن البيت مكان يعد للبيتوتة، لكن كلمة «دار» تعد للحياة وما يتعلق بالحياة من مقوماتها

و«دار» هنا مضافة إلى السلام، وهو - كما نعلم - اسم من أسماء الله ، إذن فالحق هنا يوضح لهم دار مسوبة للسلام وهو الله ، وهم مستحقون لها جزاءً منه، فإذا كانت الدار التى وعدها الله هى دار السلام وهو الله ، فلا بد أن فيها متعاً وإمكانات على قدر فضل المضاف إليه وهو الله ، ولماذا لم يقل الله : «دار الله »؟ ؛ لأن الله أراد أن يأتى بوصف آخر من أوصافه ؛ ليعطيهم السلام والأمن والاطمئنان .

وهناك فرق بين دور الدنيا، وهذه الدار ؛ فدور الدنيا فيها متع، ولكنك فيها بين أمرين : إما أن تموت أنت عما هى فيه، وإما أن يموتك ما فيها، ولذلك لا يوجد فى الدنيا أمن؛ لأن غيرك قد ينازعك فيها ويعاديك، وقد تأتى لك مكدرات المرض، وقد تأتى لك معكرات الأعداء، كل ذلك ينغص عيشك الأمن والسلام فى الدنيا، ولذلك أراد الحق أن تكون لك الآخرة دار سلام مادمت قد آمنت، وأن تأمن فيها

من كل الآفات التى كانت فى دار الدنيا.

﴿ لَهُمْ دَارُ السَّلَـٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ .. ﴿١٢٧﴾ ﴾ [سورة الأنعام]

وكأن دار السلام ليست وعداً من الله بأن تكون، ولكنها جاهزة معدة عند الله ومحفوظة لديه تنتظر المؤمنين، وسبحانه قد خلق جناناً تتسع لكل خلقه على فرض أنهم آمنوا، وجعل من النار مثل ذلك على قدر خلقه، على فرض وتقدير أنهم كفروا. وسيأخذ المؤمنون ما أعد لهم من دور الإيمان ويرثون ما أعد للكافرين من دور الإيمان على فرض أنهم آمنوا فى الدنيا

﴿ أُولَـٰٓئِكَ هُمُ الْوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿١١﴾ ﴾

[سورة المؤمنون]

فلم يخلق الخالق جناناً محدودة. لا، بل أعد وهباً من الجنان ما يتسع لكل الخلق إن آمنوا، ومن النيران ما يتسع لكل الخلق إن كفروا ومادامت العندية منسوبة إلى الله فهى عندية مأمونة.

وبعد ذلك أيتخلى الله عنهم ويكلهم إلى ما أعدّ لهم ؟. لا، بل قال :

﴿ .. وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢٧﴾ ﴾ [سورة الأنعام]

فهناك إعداد، ثم قيومية ولاية الله، وهذه القيومية لله، هى للمؤمنين فى الدنيا. لكن فلنلاحظ أن الولاية فى الدنيا قد تكون فيها أسباب مخلوقة لله، لكن فى الآخرة هناك الخراء الذى لا يكله الله للأسباب، فتكون الولاية مباشرة له، لأنه سيعطيك فوراً، وإذا خطر أى شىء ببالك تجده حاضراً ! فهى متعة على غير ما ألف الناس، لأن الناس يتمتعون فى الدنيا بواسطة الأسباب المخلوقة لله. ولكن فى الآخرة فلا ملكية لأحد حتى فى الأسباب، لذلك يقول سبحانه :

﴿ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ .. ﴿١٦﴾ ﴾ [سورة غافر]

وستجد الإجابة هي قوله ـ سبحانه ـ :

﴿ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾

(من الآية ١٦ سورة غافر)

والحق هو الولي الذي يليك ، قرباً ينتفع به ، فلا تضطر حتى أن تتأذى عليه ليأتي لك بالمنافع ويدفع عنك المضار كما عمل لك في الدنيا ووفقك للعمل وهو وليك في الآخرة بحسن الجزاء لك بسبب ما كنت تعمل ، فالعمل في الدنيا هو الزرع وهو الحرث لثمرة الآخرة . ولكن أيعطينا الله على قدر أعمالنا ؟ لا ، بل يعطينا على قدر صبرنا ؛ لأنه إن كان العطاء على قدر الأعمال ، إننا لو حسبناها لما أدينا ثمن عشر معشار نعم الله علينا في الدنيا . فكأنك تعمل في الدنيا لتؤدي شكر ما أفاء علينا وأعطانا من النعم ، فإذا جاء الحق سبحانه وتعالى وأعطانا بعد ذلك ثواباً فهو الفضل منه . ولذلك يوضح الحق لنا إياكم حين توقفون في العمل أن تفتتنوا بأعمالكم ، بل عليكم أن تتذكروا أن ذلك فضل من الله :

﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾

(سورة يونس)

وقد شرح النبي عليه الصلاة والسلام هذا الأمر وقال :

« لن يُدخل أحداً منكم عملُه الجنة ، قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : ولا أنا إلا أن يتغمدني الله منه بفضل ورحمة »[1]

إذن المسألة كلها بالفضل من الله ، ولكن فضل الله شرطه العمل الصالح ، فأنت تعمل العمل الصالح ، ويعطيك ربنا أضعافه ، وبطبيعة الحال فعملك لن ينفع جلاله أو جماله أو كماله أو يزيده صفة أو يزيده ملكاً ، لكنه يعطيك على ما عملته لنفعك ولنفع بني جنسك .

ولذلك نجد الإمام الرازي ـ رضي الله عنه ـ يقول : إن العمل في ذاته يورث

(١) رواه مسلم في المنافقين واللفظ له ، ورواه البخاري في الرقاق والمرضى ، وابن ماجه في الزهد والدارمي في الرقاق ، ورواه أحمد في المسند ٢/٢٣٥ ، ٢٥٦

الذات شيئا من الصفاء الذى ترتاح له وتسعد به ، حتى تجد الجزاء فى الراحة ، والراحه النفسية هى الأمر المعنوى الذى يوجد فى بنية مادية هى قالبك . فساعة يوجد شىء فى النفس فهو يؤثر فى القالب أغياراً ، فإذا غضب الإنسان فهذا الغضب يظهر أثره فى البنية نفسها فيحمر الوجه ، ويرتعش الإنسان للانفعال بالغضب ، والغضب أمر معنوى لكنه أثر فى البنية ، وكذلك إذا ما حدث ما يسرّك ، يظهر ذلك فى البنية أيضاً ؛ فتشرق وتتهلل أساريرك . إذن فالعمل يؤثر فى البنية ، والبنية تؤثر فى العمل

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾ ﴾

وساعة تسمع « يوم » اعرف أنها « ظرف زمان » ، أى أن هناك حدثاً ، وقوله الحق : « ويوم يحشرهم جميعاً » أى اليوم الذى يقف فيه الجميع ويحشدون ، وحين ننظر إلى ما بعدها نجد أن الحدث لم يأت ، ولكن حاء « يا معشر الجن » وهذا « نداء » . فكأن الحدث هو النداء نفسه ، والنداء يقتضى منادياً ، وهو الحق سبحانه ، ومنادى وهو معشر الجن والإنس ،وقولاً يبرز صورة النداء . فكأن العبارة هى : يوم يحشرهم جميعاً فيقول يا معشر الجن والإنس ، و« الحشر » هو الجمع ، و« المعشر » هم الجماعة المختلطة اختلاط تعايش ، بمعنى أن يكون فيهم كل عناصر ومقومات الحياة ، وقد يضاف المعشر إلى أهل حرفة بخصوصها ؛ يا معشر التجار ، يامعشر العلماء ، يا معشر الوزراء . لكن إن قلت : يا معشر المصريين فهى جماعة مختلطة اختلاط تعايش ومعاشرة .

﴿ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ .. ﴿١٢٨﴾ ﴾ [سورة الأنعام]

و«استكثر» أي أخذ منه كثيراً ، كما استكثر من جمع المال ، أو استكثر من الأصدقاء ؛ فمادة «استكثر» تدل على أنه أخذ كثرة . وماذا يعني استكثارهم من الإنس؟ . نحن نعلم أن من الجن طائعين ، ومنهم عاصون ، والأصل في العصيان في الجن «إبليس» الذي أقسم :

﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ ﴾ [سورة ص]

فكأن الحق يوضح : أنكم معشر الجن قد حاولتم جاهدين أن تأخذوا الإنس إلى جانبكم واستكثرتم بهم ، فبعد أن كان العاصون فقط من شياطين الجن وجد عصاة من الإنس أيضاً ، واستكثرتم منهم ، بأن ظننتم أن لكم غلبة وكثرة وعزاً ، لأنهم إذا أطاعوكم في الوسوسة أصبحت لكم السيادة ، وذلك ماكان يحدث ، فكان الإنسان إذا ماتزل وادياً مثلاً قال : أعوذ بسيد هذا الوادي - من الجن - ويطلب أن يحفظه ويحفظ متاعه ، وحيما يوسوس له شيء يسارع إلى تنفيذه ، وهذا استكثار .

﴿ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ ﴿١٢٨﴾ ﴾ [سورة الأنعام]

وكذلك لم يستمتع الجن والإنس فقط ، بل استمتع أيضاً بالجن ، وهكذا نجد تبادل استمتاع من خلف منهج الله ، لهؤلاء إغواءً وسيادة ، يأمرونهم بعمل الأشياء المخالفة لمنهج الله ، وهؤلاء يستمتعون بهم يحققون لهم شهواتهم في صورة تدين ، فيقولون لهم : اعبدوا الأصنام ، واعبدوا الشمس ، واعبدوا القمر ، فيفعلون . وذلك يرضي فيهم غريزة الانقياد التديني ؛ لأن كل نفس مفطورة على أن ترتبط بقوة أعلى منها ؛ لأن الإنسان إذا نظر لنفسه وإلى قرنائه وجدهم أبناء أغيار ؛ الواحد منهم يكون اليوم صحيحاً وغداً مريضاً ، ويكون اليوم غنياً وغداً فقيراً ، فما الذي يضمن للنفس البشرية حماية من هذه الأغيار؟ .

إن الإنسان يحب أن يلجأ ويرتبط بقوى ؛ حتى إذا جاءت هذه الأغيار كانت

سنداً له. إلا أن هناك من يصعدها في التدين وهؤلاء هم الذين يركنون إلى الإيمانية لله ويعتمدون عليه سبحانه ويقبلون على الإيمان بالله بمعلومات هذا الإيمان في «افعل» و«لا تفعل». لكن الأشياء التي يعبدونها من دون الله ليس لها مطلوبات أو تكليف إلا أن تكون موافقة لأهواء النفس، وهذا الإكذاب للنفس أي حمل النفس على الكذب لا يدوم طويلاً؛ لأن الإنسان لا يغش نفسه، فالإيمان يحمي النفس إذا جاء أمر فوق أسبابك، وليس هناك من يقول: يا شمس أو يا قمر، يا شيطان أو يا صخرا لا يمكن؛ لأنك لن تكذب على نفسك أبداً. ومثال ذلك قول الحق:

﴿ وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُ .. (١٢) ﴾ [سورة يونس]

وها يقول الحق عن الإنس:

﴿ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُم مِّنَ الإِنسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا .. (١٢٨) ﴾ [سورة الأنعام]

أي أن هذا الاستمتاع أمداً، هو أمد الأجل أي ساعة تنقضي وتنتهي الحياة، ثم يبدأ الحساب فيسمعون قول الحق.

﴿ .. قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (١٢٨) ﴾ [سورة الأنعام]

و«الثواء» هو الإقامة، و«مثواكم» أي إقامتكم، «إلا ما شاء الله» وهذا الاستثناء كان محل نقاش بين العلماء، دار فيه كلام طويل؛ فهناك من قال: إن الحق سبحانه وتعالى قال: «إلا ما شاء الله» أي أن له طلاقة القدرة والمشيئة؛ فيفعل ما يريد لكنه حسم الأمر وحدد هو «ما شاء» فقال:

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ .. (٤٨) ﴾ [سورة النساء]

وهنا حدد «ماشاء» ، أي أن ماشاء يكون في غير الشرك به فإن الشرك لايكون محل غفران منه سبحانه . أو يجوز «إلا ماشاء الله» أن بعضاً يفهم أنه بمجرد البعث والحشر ستكون النار مثواهم ، ولكن المثوى في النار لن يكون إلا بعد الحساب ، وهذا استثناء من الرمن الخلودي ، قبل يحدث دخول للجنة أو للنار إلا بعد الحساب فزمن الحساب والحشر مستثنى وخارج عن زمن الخلود في الجنة أو النار .

ونحن نجد أيضاً «إلا ماشاء ربك» في سورة هود حيث يقول الحق

﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ (١٠٦) خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ (١٠٧) وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ (١٠٨) ﴾ [سورة هود]

إذن فهناك الاستثناء في النار والاستثناء في الجنة ، فقول الحق . «خالدين فيها مادامت السموات والأرض «إلا ماشاء ربك» فمجيء الاستثناء بعد الوصف بالخلود ، يدل على إن الخلود ينقطع مع أنه قد ثبت خلود أهل الجنة في الجنة وخلود أهل النار في النار للأبد من غير استثناء فكيف ذلك؟

والرد على هذا أن أهل النار لايخلدون في عذاب النار ،وحده بل يعذبون بالزمهرير وبأنواع من العذاب سوى عذاب النار بماهو أغلظ منها كلها وهو سخط الله عليهم ولعنهم وطردهم وهانته إياهم . وكذلك أهل الجنة لهم سوى الجنة ماهو أكبر منها وأجل موقعا ، وهو رضوان الله كما قال . (وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ومساكن طيبة في جنات عدن ورضوان من الله أكبر) فلهم ماينعضل الله به عليهم سوى ثواب الجنة مما لايعرف كنهه إلا هو ، فهذا هو المراد بالاستثناء ، والدليل عليه قوله . (عطاء غير مجذوذ) ومعنى قوله في مقابلته . (إن ربك فعال لمايريد) أن ربك يفعل بأهل النار مايريد من العذاب ، كما يعطي أهل الجنة الذي لا انقطاع له .

ويذيل الحق الآية بقوله: «إن ربك حكيم عليم». حكيم في أن يعذب، عليم بمن يستحق أن يعذب، ومقدار عذابه، وعليم بمن يستحق أن يثاب وينعم، وبمقدار ثوابه ونعيمه، وحكيم في أن يرحم. ويقول الحق بعد ذلك.

﴿ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾ ﴾

«وكذلك» تشير إلى ما حدث من الجن والإنس من الجدل، فقد احق على ألسنة الإنس

﴿ ربنا استمتع بعضنا ببعض .. ﴿١٢٨﴾ ﴾ [سورة الأنعام]

ولم يأت بكلام الجن؛ لأن كلامهم جاء في آيات أخرى؛ فالحق هو القائل:

﴿ وقال الشيطان لما قضي الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي فلا تلوموني ولوموا أنفسكم ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخي .. ﴿٢٢﴾ ﴾ [سورة إبراهيم]

وكذلك أورد الله مجيء على لسان الشيطان في سورة أخرى.

﴿ كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر فلما كفر قال إني بريء منك . ﴿١٦﴾ ﴾

[سورة الحشر]

وكذلك جاء الحق في آيات أخرى بأقوال الإنس الذين ضلوا:

﴿ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴾

(من الآية ٢٩ سورة فصلت)

وقوله الحق هنا في سورة الأنعام:

﴿ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّى بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًا ﴾

(من الآية ١٢٩ سورة الأنعام)

أي كما صنعنا مع الجن والإنس، باستكثار الجن من الإنس واستمتاع بعضهم ببعض إضلالا وإغواء، وطاعة وانقيادا، نجعل من بينهم ولاية ظالم على ظالم، ولا نولي عليهم واحدا من أهل الخير، لأن أهل الخير قلوبهم مملوءة بالرحمة، لا يقوون على أن يؤدبوا الظالم، فهم قد ورثوا النبوة المحمدية في قوله يوم فتح مكة «اذهبوا فأنتم الطلقاء»، وبذلك إذا أراد الله أن يؤدب ظالما لا يأتي له بواحد من أهل الخير ليؤدبه، إنه - سبحانه - بتكريمه لأهل الخير لم يجعل منهم من يكون في مقام من يؤدب الظالم، إنه - سبحانه - يجعل أهل الخير في موقف المتفرج على تأديب الظالمين بعضهم بعضا.

والتاريخ أراد ذلك، فقد صنع الظالمون بعضهم في بعض الكثير، بينما لو تمكن منهم أعداؤهم الحقيقيون لرحموهم؛ لأن قلوبهم مملوءة بالرحمة.

وبذلك بلغنا عن سيدنا مالك بن دينار وهو من أهل الخير، يقول: قرأت في بعض الآثار حديثا قدسيا يقول فيه الحق:

«أنا ملك الملوك قلوب الملوك بيدي»[1]

فإياكم أن يظن الطاغية أو الحاكم أو المستبد أنه أخذ الحكم بذكائه أو بقوته، بل جاء به الحق ليؤدب به الظلمة، بدليل أنه ساعة يريد الله أن تنتهي هذه المسألة فهو

(١) تذكرة الموضوعات لابن القيسراني

بجلاله ينزع المهابة من قلوب حرّاسه ، وبدلاً من أن يدفع عنه بالبندقية ، يصوّب البندقية إليه .

فإياكم أن تظنوا أن ملكا يأخذ الملك قهراً عن الله ، ولكن إذا العباد ظلموا وطغوا يسلط الحق عليهم من يظلمهم ، ولذلك يقال : « الظالم سيف الله في الأرض ينتقم به وينتقم منه »

﴿ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

فكان ما سلّط على الناس من شرّ عاتٍ هو نتيجة لأعمالهم ، ولذلك كان أحد الصالحين يقول : أنا أعرف منزلتي من ربي من خُلُق دابتي ، إن جمحت بي أقول ماذا صنعتُ حتى جمحت بي الدابة ؟! وكان المسألة محسوبة . وهذه معاملة للأخيار ، عندما يرتكب ذنباً يؤاخذ به على الفور حتى تصير صفحته نظيفة دائماً . قال عليه الصلاة والسلام : « ما من مصيبة تصيب المسلم إلا كفر الله بها عنه ، حتى الشوكة يُشاكها »(١) .

فإذا فعل العبد من أهل الخير بعضاً من السيئات ، يوفّيه الحق جزاءه من مرض في جسمه أو خسارة في ماله ، وكذلك المسيء الذي لا يريد له الله الكمال في الآخرة . يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « ما من مسلم يصيبه أذى شوكة فما فوقها إلا حط الله تعالى له به سيئاته كما تحط الشجرة ورقها »(٢) .

﴿ وكذلك نولي بعض الظالمين بعضاً بما كانوا يكسبون) هم اعتقدوا أنهم أخذوا شيئاً من وراء الله وخلصوا به يقول . لا ، فربك سيحاسبك ثواباً أو عقاباً وذلك بما قدمت يداك وما عملت من سيئات أو حسنات .

ويقول الحق بعد ذلك :

---

(١) رواه البخاري ومسلم واحمد .
(٢) رواه البخاري ومسلم عن ابن مسعود .

﴿ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ
يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ
هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا ۖ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا
وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ ﴿١٣٠﴾ ﴾

ويلاحظ أنه قال هنا: «يامعشر الجن الإنس» لأنه يريد أن يقيم عليهم الحُجة بأنه سبحانه لم يجرم أعمالهم ولم يصح لهم العقوبات إلا بعد بلغهم بواسطة الرسل؛ فقد أعطاهم بلاغاً بواسطة الرسل عما يجب أن يفعل، ومايجب أن يترك. فلم يأخذهم - سبحانه - ظلماً.

وهنا وقفة؛ فالخطاب للجن والإنس: ألم يأتكم رسل منكم؟ فقال بعض العلماء: إن الجن لهم رسل، والإنس لهم رسل، وقال آخرون: الرسل من الإنس خاصة؛ لأن القرآن جاء فيه على لسانهم: (إن سمعنا كتاباً أنزل من بعد موسى).

إذن فقد احتج الجن بكتاب أنزل من بعد موسى عليه السلام وعندهم خبر عن الكتاب الذى جاء بعده، كأن الجن يأخذون رسالتهم من الإنس؛ فكأن الله قد ارسل رسلاً من الإنس فقط وبلغ الجن ماتاله الرسول، وهو هنا يقول سبحانه:

﴿ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ .. ﴿١٣٠﴾ ﴾ [سورة الأنعام]

وأنت حين تأتى إلى اثنين، أولهما معه مائة جنيه، والثانى يسير معه وليس معه شيء وتقول: «هذان معهما مائة جنيه» فهذا قول صحيح. فقوله سبحانه: «ألم يأتكم رسل منكم» أى من مجموعكم أو أن الرسل تأتى للإنس، وبعد ذلك من الجن من يأخذ عن الرسول ليكون رسولاً مبلغاً إلى إخوانه من الجن:

﴿ وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [سورة الأحقاف]

فكان المنذرين من الجن يأخذون من الرسل من الأنس وبعد ذلك يتوجهون إلى الجن.

﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي ... ﴿١٣٠﴾ ﴾ [سورة الأنعام]

والآيات تطلق على المعجزات التي تثبت صدق الرسل، ومايكون من شرح الأدلة الكونية الدالة على صدق الرسل وكلمة «يقصون عليكم آياتي» أي يروون لهم الموكب الرسالي من أول «آدم» إلى أن انتهى إلى «محمد» ﷺ. و«يقصون عليكم آياتي» قول يدل على دقة الأداء التاريخي؛ لأن «قص» مأخوذ من قص الأثر، ومعناها تتبع القدم بدون انحراف عن كذا وكذا؛ وهكذا نجد أن المفروض في القصة أن تكون مستلهمة واقع التاريخ

﴿ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ... ﴿١٣٠﴾ ﴾ [سورة الأنعام]

وهو اليوم المخزي حيث سيقفون أمام الله ويذكرهم الحق أنه قد نبههم وقد أعذر من أنذر

﴿ ... قَالُوا شَهِدْنَا عَلَىٰ أَنفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴿١٣٠﴾ ﴾ [سورة الأنعام]

وقولهم «شهدنا على أنفسنا» إقرار منهم على أنفسهم «فقد شهدوا على أنفسهم، ولكن ما الذي معهم أن ينضموا إلى الإيمان بمواكب النبوة؟ تأتي الإجابة من الحق. (وغرتهم الحياة الدنيا).

والذى يغرّ هو الشىء الذى يكون له تأثير ، وهو موصوف بأنه « دنيا » !! لذلك فالغرور الذى يأتى بالدنيا هو قلة تبصّر . (وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين) . ومن يستقرىء آيات القرآن يجد آية تقول :

﴿ وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾

(من الآية ٢٣ سورة الأنعام)

مرة ينفون عن أنفسهم أنهم كفروا ، ومرة يثبتون أنهم كافرون ، وهذا لاضطراب المواقف أو اختلافها . أو أنهم « شهدوا على أنفسهم » ، بمعنى أن أبعاضهم شهدت عليهم ؛ لأن الإنسان فى الدنيا له إرادة ، وهذه الإرادة مسيطرة على ما له من جوارح ومخلوقات مخلوقة له ؛ لأن الله جعل للإرادة فى الإنسان ولاية على الأبعاض التى تقوم بالأعمال الاختيارية . لكن الأعمال الاضطرارية القهرية ليس للإنسان إرادة فيها ؛ فلا أحد يملك أن يقول للقلب انبض كذا دقة فى الساعة ، ولا أن يقول للأمعاء . تحركى الحركة الدودية هكذا لكنه يقدر أن يمشى برجليه إلى المسجد ، أو يمشى إلى الحمّارة ويستطيع أن يقرأ القرآن أو يقرأ فى كتاب يضره لا يفيد .

إذن فإرادة الإنسان مسيطرة على الأبعاض لتحقق الاختيار المصحح للتكليف . لكن يوم القيامة تسلب الإرادة التى للإنسان على أبعاضه ، وتبقى الأبعاض كلها حُرّة ، وحين تصير الأبعاض حُرّة فالأشياء التى كانت تقبلها فى الدنيا بقانون تسخيرها / لإرادتك قد زالت وانتهت ، فهى فى الآخرة تشهد على صاحبها ؛ تشهد الجلود والأيدى والأرجل :

﴿ وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾

(من الآية ٢١ سورة فصلت)

وحين يقولون لربنا : ما كنا مشركين ، فهذا كلامهم هم ، لكن جوارحهم تقول لهم : يا كذابون ، أنتم عملتم كذا .

ويقول الحق بعد ذلك .

﴿ ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ ﴿١٣١﴾ ﴾

« ذلك » إشارة إلى ما تقدم ، وهو إرسال الرسل مبلغين عن الله ، حتى لا يكون لأحد حجة بعد الرسل ، وقد أقروا بأن الله أرسل إليهم رسلاً ، وشهدوا على أنفسهم ، وماداموا قد أقرّوا على أنفسهم بأن الله أرسل لهم رسلاً وشهدوا على أنفسهم بذلك ، إذن فهذ إقرار جديد بأن الله لم يكن مهلك القرى بظلم وأهلها غافلون ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى قبل أن يعاقب على جُرم ، وقبل أن يجرّم ينزل النص بواسطة الرسل . أى أن الله لا يهلكهم بسبب ظلم وقع منهم إلا بعد ذلك البلاغ

« وأهلها غافلون » ، و « الغفلة » ضد اليقظة . فاليقظة هى تلّه الذهن الدائم ، و « الغفلة » أن تغيب بعض الحقائق عن الذهن ، ومعنى أن ربنا لا يهلك القرى بظلم وأهلها غافلون أى غير يقظين ؛ فلو أنهم كانوا يقظين ومتنبهين لما حتاجوا إلى الرسل ؛ لأن الله عندما خلق الخلق أرسل آدم إلى ذريته . وكان المفروض كما يلقن الآباء الأبناء وسائل حياتهم أن يلقنوهم مع ذلك قيم دينهم فكما أن الآباء يعلمون ذريتهم وسائل حياتهم ، ثم يقدمونها ويزيدون عليها بابتكاراتهم ، كان من الواجب على الآباء أن يقوموا بهذا العمل بالنسبة للقيم فتعيش القيم فى الناس كما عاشت وسائل حياتهم

ولماذا ـ إذن ـ عاشت وسائل حياتهم وتوارثوها وزادوا عليها أشياء ؟! لأن زاوية الدين هى التى يغفل الناس عنه ، بسبب أنها تقيد حركتهم فى « افعل » و « لا تفعل » ، ولكنهم يريدون الترف فى وسائل حياتهم لماذا إذن أيها الإنسان تحرص على الترقى فى ترف الحياة ولا تحرص على الترقى فى القيم ؟ . لقد كنت ـ على سبيل المثال ـ تشرب من الماء أو النبع بيدك ثم صنعت كوبا لتشرب منه ، وبقيت المدة من لشوشب وهلته من المنابع فى صهاريج أنت ترقه حياتك المادية والمعيشية فأين إذن الاهتمام بقيم الدين ؟!!

راجع أصله وخرج أحاديثه الدكتور/ أحمد عمر هاشم نائب رئيس جامعة الأزهر

ولو كانوا متيقظين لكان كل أب قد علم ابنه ما ورثه من آبائه من القيم ، وعلى الرغم من ذلك رحم الحق سبحانه وتعالى هذه الغفلة ، وكرّر التنبيه بواسطة الرسل . وكلما انطمست معالم القيم التى يحملها المنهج فهو - جل وعلا - يرسل رسولاً رحمة منه وفضلاً وعدالة ، ولم يكن يهلك القرى بظلم وأهلها غافلون ، والغفلة ضد اليقظة

إذن لو كانوا متيقظين لما كانت هناك ضرورة للرسل ؛ لأن الآباء كانوا سينقلون لأبنائهم القيم كما يتغلون إليهم وسائل حياتهم ، وهذا الأمر مستمر معنا حتى الآن ؛ إن الأب - مثلاً - إن غاب ابنه عن المدرسة يوماً يلوم الابن ، وإن أهمل فى دروسه أو رسب فهو يعاقب الابن ، وهذه هى العبرة على المستقبل المدنى للابن ، ولا عبرة عن أدائه لفروض الدين ، لماذا ؟ . إن الناس لو عنوا بمسائل قيمهم كما يعنون دائماً بمسائل حياتهم لاستقام منهج الخير فى الناس وأصبح أمراً ربانياً

ونعرفنا أن الغفلة ضدها اليقظة ، كما أن السهو ضده التذكر . والغروب ضده الشروق ، والغياب ضده الحضور

ويقول الحق بعد ذلك

﴿ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٢﴾ ﴾

« ولكلٍّ » ، وجاءت بالتنوين أي لكلٍّ من الإنس والجن درجات مما عملوا ، فكأن الأعمال تتفاوت ؛ فقد تكون فى ظاهرها قوالب متحدة ، لكن التفاوت إنما ينشأ بكثرة العمل ، أو بإخلاص المقارف للعمل والمكتسب والفاعل له ، فهناك من يحمص بكل طاقته ، وهناك من يؤدى عمله بنصف إخلاص ، ومسألة الإخلاص هذه لا تحددها لوائح ولا قوانين إنما يحددها الحق سبحانه وتعالى ، ولذلك يقول محمد صلى الله عليه وسلم مبلغاً عن رب العزة هذا الحديث القدسى :

« الإخلاصُ سر من سرى استودعته قلب من أحببت من عبادى »[1] .

إذن فمقاييس الإخلاص لا يعرفها إلا ربنا سبحانه وتعالى ، وعلى مقدار ذلك تكون الدرجات . وتكون الدرجات على مقدار ما يزيده العبد من جنس ما فرضه الله عليه ؛ فالحق قد فرض صلوات خمساً ، فيزيد العبد عشر ركعات فى الليلة مثلاً . والله قد فرض الصيام شهراً ، فيصوم العبد يومى الاثنين والخميس .

والذى يقف عند ما فرض الله يجازيه الله على إخلاصه فى أداء ما عليه ، وحينما سأل أعرابى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن موقف الذى لا يؤدى إلا الفروض فقط ، قال له . (أفلح إن صدق)[2] ، فالذى يزيد عما فرض الله من جنس ما فرض الله أشد فلاحا . ولا يصل الإنسان إلى المرتبة التى هى أشد فلاحاً إلا إذا كان فى درجة أعلى ، وكلمة « درجات » تفيد العلو ، وكلمه « دركات » تفيد الهبوط ،والحق لا يغفل عن ظاهر وباطن كل عمل لأى عبد .

ويقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿ وَرَبُّكَ ٱلْغَنِىُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ ﴿١٣٣﴾ ﴾

وهنا يحنن الله سبحانه وتعالى إلى عبادته ، وإلى تكاليفه ؛ بحثنا إلى فضيلة الطاعة ، وكل ذلك لمصلحتنا وهذا مطلق الربوبية الرحيمة ، فيحسن لنا الجزاء ، ويمحض لنا فيه لنعمل لصالحنا نحن ؛ لأن كل أعمالنا ـ كما قلنا ـ لا تزيد فى ملك الله قدر جناح بعوضة ، وكل معصياتنا لا تنتقص من ملك الله قدر جناح بعوضة ؛ لأن الله بكل صفات الكمال خلقنا ، ولم نرده نحن شيئاً . لقد أوجد الدنيا من عدم ،

---

(١) رواه أبوالقاسم القشيرى فى الرسالة من حديث على بن أبى طالب

(٢) رواه النسائى والبيهقى فى السنن الكبرى

وفرق بين الصفة القائمة بذات الله ، وبين إيجاد متعلق الصفة . فالله خالق ؛ والله رحمن ، والله رحيم ، والله قهار ، وسبحانه رحمن ورحيم وقهار وخالق حتى قبل أن يبرز ويظهر ما يخلقه ؛ لأنه بصفة الخالق فيه خلق ، وهو رزاق قبل أن يخلق المرزوق ، فالصفة موجودة فيه قائمة به ، ويهذه الصفة رزق ، وبوجود هذه الصفات فيه يقول للشيء كن فيكون ، وله هذا الكون كله ، وهو غني عن العبد وله كل الملك ، وكذلك خلق التوبة ، والرسول ﷺ يقول.

«لَلَّهُ أفرح بتوبة عبده من أحدكم سقط على بعيرة وقد أضله في أرض فلاة»[1]

﴿ وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِن بَعْدِكُم مَّا يَشَاءُ كَمَا أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ (١٣٣) ﴾ [سورة الأنعام]

إذن فالخالق مستمر الإيجاد من العدميات وهو دليل على أن صفة الخالقية موجودة .

وما آدم في منطق العقل واحد ولكنه عند القياس أو آدم

فالكون كله من أول آدم موجود ، وكل الكون المسخر لآدم كخليفة في الأرض خاضع لله ، فإن شاء أذهب الخلق وأتى بخلق جديد .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ (١٣٤) ﴾

والحق سبحانه وتعالى لأنه لا إله إلا هو ، إذا وعد فلا بد أن يتحقق وعده ، وإذا أوعد فلابد أن يأتي وعيده . والوعد إذا أطلق فهو في الخير ، والوعيد يكون في الشر والذي يخلف الوعد أو الوعيد من الخلق فهذا أمر متوقع لأنه من الأغيار ، فيتغير رأيه

(١) رواه البخاري في الدعوات ، ومسلم في التوبة ، والترمذي في الدعوات
سقط على بعيره : أي صادفه وعثر عليه من غير قصد فظفر به

فلم يعد أهلاً لهذا الوعد ؛ لأنه ربما يكون قد وعد بشيء كان يظن أنه في مكنته ، وبعد ذلك خرج عن مكنته ، فليس له سيطرة على الأشياء ، لكن إذا كان من وعد قادراً ، ولا يوجد له آخر يناقضه فيما وعد أو أوعد به فلا بد أن يتحقق الوعد أو يأتي الوعيد . ولذلك حينما يحكم الله حكماً فالمؤمن يأخذ هذا الحكم قضية مسلمة ؛ لأنه لا إله مع الله سيغير الحكم ، وسبحانه ليس من الأغيار ، والمثال أنه قال :

﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ۝٤ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ۝٥ ﴾ [سورة المسد]

وهذا وعيد في أمر لهم فيه اختيار ، ومع ذلك لم يسلموا . وجاء بعدها مايؤكد لكل مسلم : إياك أن تأخذ هذه القضية مأخذ الشك ، وتقول : قد يتوب أبو لهب هذا وزوجه ويسلمان ، ألم تتب هند؟! ألم يسلم أبو سفيان؟! لكنه سبحانه عالم بمايصير إليه اختيار أبي لهب واختيار زوجه ، وإن كان كل منهما مختاراً ، ولا يوجد إله سواه ليغير الأمر عما قال

﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١ .. ﴾ [سورة الإخلاص]

أي لايوجد إله آخر ليعدل هذا الأمر

﴿ إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ۝١٣٤ ﴾ [سورة الأنعام]

قد يظن بعض الناس أن الله قد يأتي بما وعد به لكنهم قد يهربون منه ، ولكن ليس الأمر كما يظنون ؛ فالموعد آت وأنتم لاتستطيعون الهرب منه ، ولا أحد يقدر على أن يمنع الله عن تحقيق ماوعد أو أوعد ، ولن تفروا من وعده أو وعيده ، ولن تعلموا الله أو تفوتوه وتعجزوه ؛ فالله غالب على أمره .

ويقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿ قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١٣٥﴾ ﴾

والقوم هم الجماعة ، وعادة يطلق على الرجال لأنهم أهل القيام للمهمات ؛ لأن الشأن والأصل في المرأة الستر والبيوتة والاستقرار في البيت للقيام على أمره ورعايته . وحين تقرأ القرآن تجد كلمة « قوم » وتفهم أن المقصود منها الجماعة التي تجمعهم رابطة ، وأنها للرجال خاصة ، والمثال هو قول الحق :

﴿ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ﴾

(من الآية ١١ سورة الحجرات)

ومادام قد جاء بمقابل « قوم » : « ولا نساء » ، فـ « قوم » هذه للرجال ومأخوذ منها « القيام للمهمات » ، ومأخوذ منها « القوامة » . ولذلك الشاعر يقول :

ولا أدري ولست أحال أدري أقوم آل حصن أم نساء

يعني أرجال أم نساء .

﴿ قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ ﴾

(من الآية ١٣٥ سورة الأنعام)

و « المكان » هو الحيز الذي يأخذه جسم الإنسان ؛ فكل كائن له مكان ، إن وقف له مكان ، إن قعد له مكان ، والمكان هو المملوك والمخصص لك من الأرض ، فحين تقف في مكان لا يقدر آخر أن يقف فيه وأنت واقف ، بل يجب أن يزحزحك عنه ، وحين تزحزح من هو واقف ، فهو يروح إلى مكان ثانٍ ، ويمتنع التداخل بين اثنين في حيز لا يسع إلا واحداً ، وهذا أمر فطري ؛ فتجد الولد الصغير الذي لم يدرك أي شيء يقدر أن يقف فقط ، ثم يريد أن يقعد على الكرسي الذي تجلس عليه

أخته أو أخوه ، فقبل أن يقعد عن الكرسي يشد من يجلس عليه ؛ لأنه يعرف بالفطرة أن اثنين لا يوجدان في حيز واحد

وترى ذلك أيضاً في غير الجرم المرئي ، فأنت حين تأتي بقارورة وتضعها في ماء لتمتلىء تسمع صوت الهواء الخارج منها في بقبقة ؛ لأن الماء لا يمكن أن يدخل إلا إن خرج الهواء ، ولأن الماء أكثف فهي تصعد ليخرج الهواء ، وهذا ما يؤكد عدم التداخل أي لا يوجد شيئان اثنان في حيز واحد ومكانتك هي الموقع الذي تستولي عليه ، ولذلك حتى في الجيوش وفي الحرب توضع الخطط من أسلحة مختلفة ، لتستولي على الأماكن .

« اعملوا على مكانتكم » هو قول موجه إلى الجماعة الذين عارضوا الدعوة ووقفوا منها هذه المواقف ، فيقول لهم الحق تهديدا لهم وتيئيسا من أنهم لن يصلوا إلى النيل من رسول الله : اعملوا على قدر استطاعتكم من التمكن ، أو أثبتوا على ما أنتم عليه من الخلاف والمناهضة ، لماذا ؟ ، لأنه صلى الله عليه وسلم عامل أيضاً : فلن يكون ثباتكم مانعاً لي من العمل ؛ أنتم تعملون وأنا أعمل ، أنتم تعملون على طاقاتكم ، وأنا أعمل على طاقاتي الإيمانية ومدد ربي الأعلى من الطاقة

﴿ قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١٣٥﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

« فسوف تعلمون من تكون له عاقبة الدار » و« له » تعطي دلالة إلى أن الإيمان ستكون عاقبة الدار لصالحه ؛ لأن الآخرين لن تكون لهم بل عليهم ، وساعة ترى « اللام » اعرف أن الأمر لهم لا عليهم . فكأن الظالمين إن تنالهم عاقبة فهي ليست لهم ، وإنما عاقبتهم عليهم ، ولن يفلح الظالمون

ويقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ

﴿ نَصِيبًا فَقَالُوا هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَائِنَا ۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ ۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَائِهِمْ ۗ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾ ﴾

وهنا رجوع إلى كلام عن الذين يناهضون منهج الله.

و«ذرأ» أي خلق ، وبث ، وبشر ، والحرث يراد به الزرع ، وسمي الزرع حرثاً ؛ لأنه يأتي بالحرث ، و«الأنعام» وهي تتمثل في ثمانية أزواج في آية تأتي بعد ذلك ، وهي الإبل ، والبقر ، والضأن والمعز .

«وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً» أي مما خلق ، وهم قد حرثوا فقط ؛ لأن الذي يزرع هو الله ، فسبحانه الذي أعطى للبذرة قوتها لتربي لها جذراً ، وتمتص عناصر الغذاء من الأرض ، وهو الذي جاء بعناصر الأرض كلها ، وهو الذي جعل البذرة تتوجه إلى العناصر الصالحة لها ، وتترك غير صالح بقانون« الذي خلق فسوّى والذي قدّر فهدى» والذي منعه الله الحرث وفي الأنعام تتخيلون أنكم تتصرفون فيه على رغم أنه هو الذي ذرأ وخلق . إنه- سبحانه- هو المتصرف .

هم جعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً فقالوا: هذا لله «بزعمهم» وهذا لشركائنا ، أي جاءوا بالحرث وقسموه قسمين. وقالوا هذا لله ، وهذا للأصنام وكذلك قسموا الأنعام وجعلوا منها قسماً لله ، وقسماً لهم ، ألم يكن من العدل أن يقسم الذي خلق بالا من هذا الزعم منكم لأنكم أخذتم غير حقكم ، وباليتكم أنصفتم ورضي بقسمتكم فيذهب القسم الذي لله للصدقات على الفقراء ، والذي للشركاء يذهب للأصنام وللسدنة الحجاب عليها والخادمين والذين يضربون لكم بالأقداح ، وباليتكم عرفتم العدل في القسمة بل أن ما صنعتموه هو قسمة ضيزى جائرة وظالمة ، لماذا؟ . تأتي الإجابة من الحق .

﴿فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم.. (١٣٦)﴾ [سورة الأنعام]

أنتم قسمتم وقلتم: هذا لله وهذا لشركائنا فاصدقوا مع أنفسكم في هذه النسبة، لكنهم كانوا يسرقون حق الله، وكان لهم في الهلاك تقسيم معين، وفي الزيادة لهم تقسيم آخر فإذا ما جاءت آفة للزرع وأهلكته أخذوا ما خصصوه لله وأعطوه للشركاء وقالوا: إن ربنا غني! وبرغم أنكم قسمتم ولكنكم لم توفوا بالقسمة التي فرضتموها ورضيتم بها.

وكذلك في الأنعام يقدرون عدداً من الأنعام ويقولون: هذه لله، وتلك للشركاء، فإن ماتت بهيمة من المنذور لله لم يعوضوها، وإذا ماتت بهيمة منذورة للأصنام يعوضونها ويأخذوا بدلاً منها من القسم الذي نذروه لله. وأيضاً لعترض أن عيناً جاريه ساحت فيها المياه لتروى الزرع المقسوم لله، فيأخذوا منها للأرض المزروعة للأصنام. إذن هي قسمة ضيزى من البداية، وليتهم وفوا بهذه القسمة، وهكذا ساء حكمهم وفسد.

ويقول الحق بعد ذلك:

﴿وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ ۖ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ (١٣٧)﴾

وأيضاً نقلوا تلك القسمة الضيزى إلى ما يتعلق بذواتهم في الإنجاب والإنسال؛ فشركاؤهم زينوا لهم قتل أولادهم، و«التزيين» هو إدخال عنصر التحسين على

التزيين أمراً عرضياً طارئاً ، ووجه التزيين أنهم كانوا إما أغنياء ، وإما فقراء ، فإن كانوا فقراء يقل الواحد منهم إذا أجاب نفسي همّاً على همّ ، وإن كانوا أغنياء يقل الواحد منهم إن الأبناء سيأخذون منك ويفقرونك إذن فعليه أمران : إما فقر موجود بالفعل ، وإما فقر محوّف منه ، ولذلك تجد الآيات التي تعرضت لهذا المعنى ، تأتي على أسلوبين اثنين ؛ فالعُجْز مختلف باختلاف الصدر ، والذين يحبون أن يستدركوا على أساليب القرآن لأنه مرة يقول :

﴿ ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم .. ﴿٣١﴾ ﴾ [سورة الإسراء]

ومرة ثانية يقول :

﴿ نحن نرزقكم وإياهم .. ﴿١٥١﴾ ﴾ [سورة الأنعام]

فما الفرق بين العبارتين ؟

ونقول لمثل هذا القائل : أنت تقارن بين التذييل « نحن نرزقكم وإياهم » ، و« نحن نرزقهم وإياكم » هذه تذييل لآية ، وهذه تذييل لآية ثانية جاءت ذيل الآية مع صدرها نجد أن ذيل كل آية مناسب لصدرها . ولما كان قد اختلف في الصدر فلابد أن يختلف في الختام ، ففي الآية الأولى يقول الحق سبحانه « ولا تقتلوا أولادكم من إملاق » الإملاق وهو الفقر واقع موجود إذن فشمول الإنسان برزقه أولى من شموله برزق من يعوله من الأولاد ، فيقول الحق لهؤلاء :

﴿ ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم . ﴿١٥١﴾ ﴾ [سورة الأنعام]

فالإملاق موجود ، وشغلهم برزق أنفسهم يملأ نفوسهم . لذلك يقول لهم « نرزقكم وإياهم » فيطمئنهم سبحانه نحن نرزقكم ثم نرزقهم . أما إن كان الإملاق غير موجود فالحق يقول :

﴿ ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم .. ﴿٣١﴾ ﴾ [سورة الإسراء]

أي لاتقتلوا أولادكم خوفاً من فقر ، فأنتم تملكون رزقكم ، وحين يأتي الأولاد يرزقهم ومرزقكم معهم . وهكذا نرى أن العصر مختلف في الآيتين ، وكذلك العجز ، والشركاء كانوا يزينون قتل الأولاد ، وهذه مسألة تحتاج إلى تزيين قاس ؛ لأن حب الأبناء غريزة في النفس البشرية ، والنفس تحب أن يكون لها ذرية ؛ لأن الإنسان يفهم أنه مهما طال عمره فسوف يموت فيحب أن يظل اسمه في الأجيال المتتابعة . ونجد الإنسان وهو ممتلىء بالسعادة حين يأتيه حفيد ، ويقول: لقد ضمنت ذكرى لجيلين قادمين ، وينسى أن الذكر الحقيقي هو الذي يقدمه الإنسان من عمل ، لاذكرى الأبناء وحب امتداد الذات . وقتل الأبناء يحتاج إلى تزيين شديد ، كأن يقال : إن أنجبت أبناء فسيفقرونك ويذلونك ، فأنتم أمة غارات وأمة حروب وكم يوم يدحث أباؤك في قتال وزال فتكون بين فقد لأبنائك أو انتهاب لمالك ، وإن كانوا بنات فسيتم سبيهن من بعدك ، وهكذا تكون المبالغة في الإغراء لعملية تناقض الفطرة السليمة في إمتداد النسل .

﴿ وكذلك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركاؤهم ليردوهم .. (١٣٧) ﴾

[سورة الأنعام]

و«لكثير من المشركين» تفيد أن بعضهم كان يرفض قتل الأولاد ، و«يردوهم» من الردى ، وهو الهلاك ، والموت

﴿ وليلبسوا عليهم دينهم .. (١٣٧) ﴾ [سورة الأنعام]

أي يخلطو عليهم الدين ، فهل كان عندهم دين؟ لقد ورث هؤلاء من أمر قيم الدين ماكان سابقاً وهو ماكانوا عليه من دين إسماعيل عليه السلام حتى مالوا وزالوا عنه إلى الشرك ، إنهم زينوا لهم أعمالا ليوردوهم موارد الهلكة . وحاولوا أن يخلطوا عليهم مابقي لهم من دين .

﴿ .. ولو شاء الله ما فعلوه فذرهم وما يفترون (١٣٧) ﴾ [سورة الأنعام]

لأن وأد الأولاد وقتلهم إنما يأتي فكرة خلق الله ، فهل يخلق الله لتقتل أنت؟!

كأنهم يصادمون إرادة الإيجاد من الحق سبحانه وتعالى ، لكنّه ـ سبحانه ـ لو شاء ما فعلوا ذلك ، فهو قد أعطاهم الاختيار ، ومن باب الاختيار ينفذون إلى كل مراد لهم ، ولو لم يخلق الله فيهم اختياراً ما فعلوا ذلك ؛ لأنه لو أراد ألا يصلوا لما فعلوا ، وقد أراد الله أن يوجد خلقاً لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون وهم الملائكة .

إذن فهذه المسألة ليست عزيزة على الله ، وسبحانه ساعة يقهر على مراد له ، إنما يكون ذلك لمصلحة المخلوق ، وساعة يتركه مختاراً فمن إمداد الخالق له بالاختيار ولا يفعل المختار شيئاً غصباً عن الله ؛ لأن الألوهية تقتضي أمرين اثنين : تقتضي قدرة تتجلى في الأشياء القهرية التي لا يستطيع العباد أن يقفوا أمامها ، والإنسان هو الكائن الوحيد الذي له حق الاختيار بين البديلات في مراداته ، أما بقية الكون فسائر بقانون التسخير وليس له اختيار .

والكائنات المسخرة أثبتت لله طلاقة القدرة ، ولكنها لا تثبت لله محبوبية المخلوق ؛ لأن المحبوبية تنشأ من أنك تكون حرًّا في أن تفعل ، ولكنك تؤثر فعلا مراد الله على مرادك . (ولو شاء الله ما فعلوه فذرهم وما يفترون) .

و « الافتراء » هو الاختلاق والكذب المتعمد ، وهم مفترون ، لأنهم أرادوا أن يغيروا صدق الواقع في الإنجاب ، فقد خلق الله الزوجين ـ الذكر والأنثى ـ من أجل الإنجاب .

ويقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿ وَقَالُوا هَٰذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَن نَّشَاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لَّا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٨﴾ ﴾

وهذا تمادٍ في الشرك ؛ لأنهم قسموا الحيوانات والحرث وجعلوا قسماً للأصنام، وهذه الأنعام المرصودة للأصنام لا يتصرف فيها أحد ، فلا يؤخذ لبنها ولا يستخدمها أحد كمطايا ، ولا يتعدى نفعها للناس . ولم يتنبهوا إلى أن هذه الأنعام نعمة من الله ، ولا بد من الانتفاع بها ، وليس من حسن التعقل أن تترك حيواناً تستطيع أن تستفيد من تسخيره لك ولا تفعل ، هم قد فعلوا ذلك وحكى الحق عنهم فقال :

﴿ وَقَالُوا هَـٰذِهِ أَنْعَـٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ .. ﴿١٣٨﴾ ﴾

[سورة الأنعام]

أي هي أنعام محرم استخدامها ، وحرموا أيضاً ركوبها .

﴿ وَأَنْعَـٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا .. ﴿١٣٨﴾ ﴾ [سورة الأنعام]

وتمادوا في الكفر فذكروا أسماء الأصنام عليها :

﴿ وَأَنْعَـٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ . ﴿١٣٨﴾ ﴾ [سورة الأنعام]

وهذا لون من الافتراءات قد فعلوه ونسبوه إلى أنه متلقًى من الله ، ومأمور به منه- سبحانه - ولو قالوا إن هذه الأمور من عندهم لكان وقع الافتراء أقل حدة ، لكنه افتراء شديد لأنهم جاءوا بهذه الأشياء ونسبوها إلى الله ، وهم قد انحلوا عن الدين وقالوا على بعض من سلوكهم إنه من الدين ، ولذلك يجازيهم الله بما افتروا مصداقاً لقوله .

﴿ .. سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٨﴾ ﴾ [سورة الأنعام]

ويقول الحق بعد ذلك .

﴿ وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَـٰذِهِ ٱلْأَنْعَـٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا ۖ وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُ ۚ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٣٩﴾ ﴾

وبعودهم لباطل إلى باطل آخر فادعوا أن مافي بطون هذه الأنعام من اللبن ومن الأجنة إذا نزلت حيّة فهي للذكور منهم فقط ، ولا تأكل النساء من ذلك شيئاً ، وإن مات منه شيء أكله الرجال والنساء وهذا يدل على التشقيق في القسمة

ويذيل الحق الآية بالقول الكريم .

﴿ .. سيجزيهم وصفهم إنه حكيم عليم (١٣٩) ﴾ [سورة الأنعام]

أي سيجزيهم على كذبهم وافترائهم بما يليق عقاباً للكاذبين ؛ لأنه -سبحانه- (حكيم) في أفعاله وأقواله وشرعه وقدره (عليم) بما يفعلونه من خير وشر ، وإنه سيجازيهم على ما فعلوه أتم الجزاء وأكمله .

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ (١٤٠) ﴾

وجه الخسران أنهم لم يلتفتوا إلى أن الله يرزقهم ويرزق أبناءهم أيضاً ، ولعلك أيها الأب لمست ولداً ، كنت ستعيش أنت في رحاب رزقه ، وكثيراً مايكون ابعض من الأولاد صاحب رزق وخير . ويقال عن مثل هذا الابن : إن وجهه وجه الخير و لسعد والبركة ، فمن يوم أن وُلد ولد معه الخير ، وذلك حتى لايتأبى الإنسان على عطاء الله ، لأنك حين تتأبى على عطاء الله تحرم نفسك العطاء فيما تظنه غير عطاء ، وهذا حسران كبير .

إنا نلحظ أن العرب كانوا في بيئة تستجيب وتلبي الصريخ ، فساعد يصرخ من في شدة نزلت به واستنجد ، يجد من ينقذه ، والأولى بالنجدة أهل الرجل وأولاده والمثال على ذلك ماحدث من جد رسول الله ﷺ حينما ذهب ليحفر البئر ، وجاءت قريش ووقفت له حتى لايحفر ، فقال . لو أن لي عشرة أبناء سأضحي بواحد منهم إذن فكثرة الأولاد في هذه المسائل تعطي العزوة وتكثر الصريخ ، ولايفعل ذلك إلا المضطر على النجدة .

وإن قتلت ابناً خوفاً من الفقر فقد تحسر رزقاً قد يكون في طي من تقتل من الذرية ، وفوق ذلك تفقد ملامح الشأن أو العزوة أو الآل . أو على الأقل أنهم قد خسروا لأنهم عاكسوا مرادات الله في الإيجاد بالإنجاب .

﴿ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ .. ﴿١٤٠﴾ ﴾ [سورة الأنعام]

والسفه أتعني طيشاً ، وحمقاً ، وجهلاً

﴿ .. وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾ ﴾

[سورة الأنعام]

وهم حين يحرمون على أنفسهم مارزقهم الله من الأنعام ، فهم أهل حمق وضلال وخسران فلو تركوها لانتفعوا منها في حمل أثقالهم أو فيما تدره من لبن ، أو في أكل لحمها . إنهم بحمقهم وجهلهم قد خسروا كثيراً ، وهم مع ذلك فعلوا مافعلوا بكذب متعمد على الله ، وهم قد ضلوا ولم يكونوا أهلاً للهداية . وكان يكفي أن يصفهم بقوله : «قد ضلوا» ؛ لكنه أضاف . «وماكانوا مهتدين» لأن الضلال هو عدم الذهاب إلى المقصد الموصل للغاية ، وقد يكون ذلك عن جهل بالطريق ، لكن الحق سبحانه رسم لهم طريق الحق فآثروا الذهاب إلى الضلال مع وجود طريق الحق

ويقول سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِن ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾ ﴾

وقول الحق : « أنشأ » أي أوجد على إبداع لم يسبق له مثيل فلم يكن هناك نموذج توضيحية تدل الله سبحانه ، وإنما ابتدأها على غير مثال سابق ؛ لأنه لا يوجد خالق سواه . والخالق إذا لم يكن هناك سواه من شريك أو ند فإنه حين يخلق إنما ينشىء خلقاً على غير نظام أو مثال كان قد سبقه .

وكلمة « جنات » تؤدي ما نعرفه من المكان المحدد الذي يجمع صنوف الزروع والثمار مما نفتات ، ومما نتفكه به ، وتسمى جَنَّة وتسمى جَنَّات ؛ لأن المادة كلها تدل على الستر وعلى التغطية ، ومنه الجنون لأن فيه ستراً للعقل ، ومنها الجِنّ لأنهم مستورون عن رؤية العين ، وكذلك « المِجَنّ » لأنه الذي يستر عن الإنسان ضربات الخصم .

والجَنَّة هي المكان الممتلىء بالزرع والشجر وتعلو الأشجار فيه وتكثف وتلتف أغصانها وفروعها بحيث تستر من يكون بداخلها وتستره أيضاً عن بقية الأمكنة ؛ لأنه لا حاجة له إلى الأمكنة الأخرى ؛ ففي الجنة كل مقومات الحياة من غذاء وفاكهة ومرعى ، وماء وخضرة ومتعة ، وفيها كل شيء . كما تسمى البيت العظيم المكتمل الذي يضم ويشتمل على كل المرافق « قصراً » لأنه قَصَرَكَ عن أي مكان سواه ؛ لأن فيه الأشياء التي تحتاج إليها كلها ، فلا تحتاج إلى شيء بعده .

﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ .. (١٤١)﴾ [سورة الأنعام]

ومادة العرش تدل على العلو ، ومنه قيل للسقف «عرش» ويطلق العرش أيضاً على السرير ؛ مثل قوله الحق: (ورفع أبويه على العرش).

ويطلق العرش على الملك مثل قوله الحق (ولها عرش عظيم).

كل ذلك يدل على «العلو» وقوله الحق هنا: «معروشات وغير معروشات» ، أي أن الزرع من نوع العنب ، حسن معنى به فجعل له القوائم والقواعد التي يقوم عليها ؛ لأن امتداد أغصانه اللينة لا تسمح أن تقوم وحدها ، ولكن هناك نوع أيضاً يقوم وحده تسميه العرب الأرض ، وكأن الكلام مما يختص بالكَرْم. أي: أنك إذا ما نظرت إلى الزرع الذي لا ساق له كالبطيخ ، وكالشمام ، وكالكوسة ، وكل الزروع التي ليس لها ساق تجدها مبسوطة في الأرض أي غير قائمة على قواعد وقوائم وعروش وإن كنا الآن نحاول أن نرفعها لنعطي لها قوة الإنتاج. والكلام جاء على ما كان موجوداً عند العرب أيام بعثة النبي ﷺ (وهو الذي أنشأ جنات معروشات والنخل والزرع). والزرع يطلق ويراد به ما نقتات به من الحبوب.

﴿مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ .. (١٤١)﴾ [سورة الأنعام]

وحين ننظر إلى هذه الآية نجد أنه قد سبقتها آية فيها كل هذه المعاني يقول سبحانه:

﴿وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٩٩)﴾ [سورة الأنعام]

وبعض الناس يحاولون نقد القرآن فيقولون : إنه يكرر المعانى الواحدة ؛ لأنهم لا يتدبرون بعلة أن المتكلم هو الله ، وسبحانه يتكلم فى كل شىء لأمر حكيم ، فهو هنا يتكلم عن هذه الأشياء كدليل على الخالق ووحدانيته بدليل أنه ذيل الآية بقوله . (إن فى ذلكم لآيات لقوم يؤمنون) ، ولكن الكلام فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها قد جاء بقصد الحديث عن الانتفاع بها فيقول :

﴿ كُلُوا مِن ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ ﴾

(من الآية ١٤١ سورة الأنعام)

ولاشك أن استقامة العقيدة بالإيمان بالإله الواحد تحتاج إلى الدليل أولاً ؛ لأن فائدتها أشمل ، وأعم ، وأعمق ، وأخلد من الأكل ، لأن الأكل فضارى ما فيه أنه يقوتنا هذه الحياة ، ولكن الأدلة الأولى تعطينا الثواب الباقى والنعيم المقيم ؛ لذلك فالآيه الأولى متعلقة بالدليل ، وهذه الآية متعلقة بالانتفاع ، وهنا نلاحظ أنه قال . « كلوا من ثمره إذ أثمر » ، وفى هذا إباحة لتناول الأشياء منه قبل أن تنضج دون أن يترتب على ذلك لون من الضرر وإلا عالجناها بما يزيل وينفى عنا الضرر ، فإذا ما وجدت ثمار لم تنضج بك أن تأكل منها ، ولم يجعل الحق لنا حرجاً فيما نحرث ونبذر ونروى ولكن الله سبحانه هو الذى يزرع ونحن نأكل منه ، ونجد أهل الريف يشوون الذرة قبل أن تنضج ويقول سبحانه : (وآتوا حقه يوم حصاده) .

لقد قالوا إن الآية مختصة بما يُحصد وهى الزروع ، أما الأشياء التى لا يقال فيها : حصد فهى خارجة عن ذلك مثل الفواكه ، لكن الإمام أبا حنيفة يرفض ذلك ويرى : أن كل ما تنبته الأرض ينطبق عليه هذا النص ؛ لأنه لا يصح أن تأخذ معنى الحصاد على العرف ، ولكن بمفهم اللغة .

ما معنى الحصد فى اللغة ؟ . الحصاد فى اللغة القطع ، فحينما تفصل الثمرة المطلوبة فهذا هو الحصاد . ولكن يوم الحصاد للحبوب ؛ تكون العلال فى السابل ، ويرى الإمام أبو حنيفة أن تعطى من البداية لمن حضر القسمة ، وكذلك حينما تدرسه وتذريه تعطى . وعندما تعزل الحبوب أعط أيضاً ، ويبتدىء الحصاد من ساعة أن تُكيل ، وما تقدم غير محسوب ، ما تأتيه من الحق يوم حصاده هو غير المفروض ؛ لأنه لم يقل الحق المعلوم ، وفى هذا اتساع لدائرة امتداد الخير إلى غير الزارعين .

﴿ وَلَا تُسْرِفُوٓا ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾

(من الآية ١١ سورة الأنعام)

والإسراف هو مجاوزة الحد ، والبعض قد فسّر الإسراف بالزيادة فقط ، ولكن الحقيقة أن أى تجاوز للحد زيادة أو نقصاً يسمى إسرافاً ؛ لأنه مأخوذ من « سرف الماء » ، وهو أن يُطلق الماء ويذهب فى غير نفع ، وسيدنا مجاهد يقول : لو أن للإنسان مثل جبل أبى قبيس ذهباً ثم أنفقه فى حلّ ما عُدَّ سرفاً ، ولو صرف درهماً واحداً فى معصية يعد سرفاً

إذن فمعنى : « ولا تسرفوا » أمران اثنان بمعنى لا تتجاوزوا الحدود التى شرعها الحق فتستعملوا هذا فى معصيته ، أو لا تسرفوا فى أن تعطوا للفقير أقل مما يستحق

وكان حاتم الطائى كريماً جداً ، وقعدوا يلومونه على هذا الكرم ، فقال واحد له لا خير فى السرف فرد عليه فقال له : ولا سرف فى الخير . أى أنه مادام فى الخير فلا يكون سرفاً.

وإذا كنا سنأخذ الأمر على المعنيين الاثنين النقص والزيادة ، فيا المانع أن نعطى للفقير أكثر ؟ ويحكى الأثر أن أناساً قد تأخذهم الأريحية والنشاط للبذل والعطاء ساعة يرون كثرة غلتهم ، وما أفاء الله عليهم من ريع أرضهم . إنهم يعطون الكثير مثلما عمل ثابت بن قيس ، وكان عنده خمسون نخلة وجزء وأعطاها كلها للفقراء ، ولم يترك لأولاده شيئاً . فلما رُفع الأمر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له : أعط ولا تسرف ، لماذا ؟ مخافة أن تحتاج بعد ذلك إلى ما أعطيت فتندم على أنك أعطيت .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا ۚ كُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٤٢﴾ ﴾

وبعد أن تكلم سبحانه عن نعمه علينا فى الزراعة ونعمه علينا فى الماشية قال:
«ومن الأنعام» وهى الإبل والبقر والغنم ، «حمولة» والحمولة هى التى تحمل ، فيقال: «فلان حَمول» أى يتحمل كثيراً والحق يقول:

﴿ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنفُسِ .. ﴿٧﴾ ﴾

[سورة النحل]

والذى تحمله فوق ظهرها يسمى «حُمُولة». ولذلك نقول عن السيارة التى تنتقل «حمولة كذا طن» (ومن الأنعام حمولة وفرشاً).

و لإبل تحمل عليها الرحال ، وكل متطلباتنا ، و«فرشا» معناها: مقابل الحمولة . فالحمولة هى المشتدة التى تقوى على أن تحمل . وكل ما لا يستطيع الحمل لصغره ، أو لأنه لم يعد لذلك ، إذا ما نظرت إليه نظرة سطحية تجده وكأنه فارش للأرض أو «ومن الأنعام حمولة» ؛ وهى التى تحمل متاعكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس « وفرشا » أى ومن ما تتخذون منه فرشاً بأن تنسج من وبره وصوفه وشعره ما تفرشه .

﴿ وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشًا كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٤٢﴾ ﴾ [سورة الأنعام]

وفى الحديث عن الأنعام ، جاء بالحموله والفرش ويأتى أيضاً بسيره الأكل ؛ لأننا نأكل لحمها وألبانها ومشتقات الألبان كلها ، وهكذا تتعدد المنافع ، فهى تحملنا ونأخذ من أصوافها وأوبارها وشعورها الفرش ، والوبر وهو شعر الجمال ، والصوف وهو شعر الغنم ، وشعر الماعز يتميز بلمعة وانفصالية بين شعيراته

ونلحظ أنه سبحانه قال فى الآية الأولى «كلوا» وفى الثانية : «كلوا» ؛ لأن ثلث جاء بعد الكلام عما حرموه على أنفسهم من أرزاق الله فى الأرض . فكان ولابد أن يؤكد هذ المعنى ، ويوضح : إن الذى خلق هو الله ، والذى كلف هو الله ، فلا تأخذوا تحليلاً لشىء ولا تحريماً لشىء إلا عن خلق وعن كلف .

(كلوا مما رزقكم الله ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين)

الشيطان هو الذى يوسوس لهم بالمخالفة لمنهج الله ، وعداوة الشيطان ظاهرة فإذا ماكانت العداوة سابقة ، فقد أنزل آدم وحواء من رتبة الطاعة إلى رتبة المعصية وجرأهما على المخالفة فخرجا من الجنة ، كان من الواجب أن نحتاط فى قبول هذه الوسوسة .

ثم يفصل الحق لنا الأنعام التى نتخذها حمولة ، أو نأخذ منها فرشاً فقال :

﴿ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۖ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٤٣﴾ ﴾

وكلمة «أزواج» ، جمع زوج ، و«الزوج» يطلق على الشىء معه مايقارنه مثل «زوج النعل» ، ونحن فى أعرافنا نأخذها على الاثنين ، لكنها فى الأصل تطلق على الواحد ومعه مايقارنه ، إلا أنه إذا لم يكن هناك فارق بين الاثنين بحيث لايتم الانتفاع بأحدهما إلا مع الآخر ولكن لاتميز لأحدهما على الآخر كالجورب مثلا ، ففى مثل هذا تستسيغ اللغة فى أن تسمى الاثنين زوجا ، لكن إذا كان هناك خلاف بين الاثنين لانقول على الاثنين : زوج .

والذكر والأنثى من البشر ، صحيح أنهما يقترنان فى أن كل واحد منهما إنسان ، لكن للذكر مهمة وللأنثى مهمة مختلفة . أما الجوارب فكل «فردة» منها نضعها فى أى قدم لأنه لا فارق بينهما ، إذن كلمة «زوج» تطلق ويراد بها الشىء الواحد الذى معه ما يقارنه . والحق يقول :

﴿ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ . ﴿٣٥﴾ ﴾ [سورة البقرة]

وكلمة «زوج» هنا أطلقت على حواء ؛ فآدم زوج وحواء زوج ، والحق هو القائل :

﴿ وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ ﴾ [سورة النجم]

ولم يقل عن الاثنين إنهما «زوج» وإلا لقال : خلق الزوج الذكر والأنثى . إذن فكلمة «زوج» تطلق على واحد معه مثيل قارنه ، مثلها كمثل كلمة «توأم» وهي لا تقال للاثنين ، بل تقال لواحد معه آخر . لكن الاثنين يقال لهما : توأمان .

﴿ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِّنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ ... ﴿١٤٣﴾ ﴾ [سورة الأنعام]

و«من الضأن اثنين» أي ذكره وأنثاها مثل الذكر كبش والأنثى نعجة ، ومن المعز اثنين ، والذكر سميه «تيساً» ، والأنثى نسميها «عنزة» ، وبذلك يكون معنا أربعة ، ومن هنا نفهم أن الزوج مدلوله فرد ومعه مثيل قارنه

﴿ ... قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ ۖ نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٤٣﴾ ﴾ [سورة الأنعام]

ومادمتم أنتم تحرمون وتحللون ، وتقولون : إن هذا من عند الله فقولوا لنا أحرم الذكرين أم حرم الأنثيين؟ ولا يجدون جواباً ؛ لأن سبحانه لا حرم هذا ولا حرم ذاك ، ولذلك أبرزت المسألة إبراز الاستفهام ، والشيء إذا أبرز الاستفهام فمعناه أنه أمر مقرر بحيث إذا سئلت الخصم لا يقول إلا ما تتوقعه ، واسمه السؤال أو الاستفهام التقريري ويقول الحق : « نبئوني بعلم إن كنتم صادقين » أي أخبروني بعلم ذلك في التحريم إن كنتم أهل صدق ؛ لأنكم لستم أهلاً للتحريم ، إنما يحرم ويحلل من خلق وشرع فإن كان عندكم علم فقولوا لنا هذا العلم .

ثم يأتي الحق بحصر الأربعة الباقية من الأنعام فيقول :

﴿ وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ قُلْ
ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ
عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ
وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ
عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ ٱللَّهَ
لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٤﴾ ﴾

ومن البقر اثنين : ذكر وأنثى أيضاً . والذكر من البقر تسميه ثوراً ، ويخطئ بعض الناس فى تسمية الأنثى من البقر « بقرة » ، إن البقرة اسم لكل واحد منهما : للذكر والأنثى ، والتاء فى بقرة للوحدة ، واسم الأنثى « ثورة » .لأومن الإبل اثنين ومن البقر اثنين قل آلذكرين حرم أم الانثيين ؟ أنتم تقولون : إنكم لم تتبعوا رسولاً ، وكنتم على فترة من الرسل ، ولم يأت لكم رسول ، إذن فلا تحريم إلا من الله ، ولا يبلغكم تحريم الله إلا عن طريق رسول . بل أكنتم شهداء مسألة التحريم ، أى أشاهدتم ربكم ورأيتموه حين أمركم بهذا التحريم ، أم أنتم الأنبياء ؟ . إنكم تتعمدون الكذب على الله لإضلال الناس . إذن ، فالحق لا يهدى من يظلم نفسه ويظلم الناس .

ويقول سبحانه بعد ذلك :

﴿ قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ
يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا

﴿ أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ ۚ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٥﴾ ﴾

والحق سبحانه وتعالى قد تكلم عن التحريم فى آيات كثيرة ؛ فهناك الآية التى قال فيها:

﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ .. ﴿٣﴾ ﴾ [سورة المائدة]

وهنا فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها لحد الحصر فى أربعة فقط ، فيقول سبحانه:

﴿ قُل لَّا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ .. ﴿١٤٥﴾ ﴾ [سورة الأنعام]

فكيف يتفق هذا النص مع النص الآخر؟!

من يقول ذلك نقول له: أنت لاتفرق بين إيجاز وإطناب ، ولاتفرق بين إجمال وتفصيل ؛ فالذى تُرك فى هذه الآية داخل فى الميتة ؛ لأن المخنقة والمتردية والنطيحة وماأكل السبع ، والذى ذُبح على النصب وما أهلّ به لغير الله موجود وداخل فى كلمة «الميتة»

ثم: من قال: إن القرآن هو المصدر الوحيد للتشريع ؟ التشريع أيضاً لرسول الله ﷺ ، بتعويض من الله فى قوله تعالى:

﴿ وَمَا آتَـٰكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَـٰكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا .. ﴿٧﴾ ﴾ [سورة الحشر]

فلا تقل إن المحرمات فقط محصورة في هذه الآية لأن فيه محرمات كثيرة ، بدليل أن الله مرّة يُجْملها ، فيحرّم علينا الخبائث ؛ فكل خبيث مُحرّم . وقلنا من قبل : إن الدم المسفوح مُحرّم ، والدم المسفوح هو السائل الذي ينهال ويجري وينصب ساعة الذبح ، وهل هناك دم غير مسفوح ؟ نعم ، وهو الدم الذي بلغ من قوة تماسكه أن كون عضواً في الجسم كالكبد أو الطحال ولذلك يقول الرسول ﷺ «أحلت لنا ميتتان ودمان : فأما الميتتان فالحوت والجراد ، وأما الدمان فالكبد والطحال»[1] وفي رواية أخرى : السمك والجراد

وعلى منطق التحريم للميتة والدم كان لابد ألا نأكل الميتة من السمك . ولا الكبد والطحال ، ولكن الله أحل لنا السمك والجراد والكبد والطحال لأنها لا تضر الجسم ، فالسمك والجراد ليس لهما نفسٌ سائلة أي دم يجري ؛ فإذا ما ذبحنا أحدهما لا يسيل له دم ، أما الكبد والطحال فهما من دم وصل من الصلاحية أنه يكوّن عضواً في الجسم ، ولا يتكوّن عضو في الجسم يؤدي مهمة من دم فاسد ، بل لا بد أن يكون من دمٍ نقي .

والحق الذي شرّع يقدر الظروف المواتية للمكلّفين ، وقد تمر بهم ظروف وحالات لا يجدون فيها إلا الميتة ، وهنا يأكلون أكل ضرورة على قدر دفع الضر والجوع . لكن على المسلم ألا يملأ بطنه من تلك الأشياء

﴿ .. فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٥﴾ ﴾ [سورة الأنعام]

وأنواع الاضطرار : ألا تجد ما يؤكل من الحلال ، أو أن يكون ما يؤكل من الحلال موجوداً إلا أن هناك من يكرهك على أن تأكل هذا المحرم ، فالإكراه داخل في الاضطرار ، والاضطرار يحملك ويدفعك إلى أن تمنع عن نفسك الهلاك ؛

(١) رواه ابن ماجه والحاكم والبيهقي عن ابن عمر .

فتأخذ من طعام حتى تقتات فلا تموت من الجوع ، فإذا كان الله قد أباح لك أن تأكل من الميتة في حال مظنة أن تموت من الجوع فمالك من الإكراه بالموت العاجل ؛ إنه أولى بذلك ؛ لأنه سبحانه هو الذي رخّص ، وهو الذي شرع الرخصة ، ومعنى ذلك أنها دخلت التكليف ؛ لأن الله يحب أن تؤتى رخصة كما يحب أن تؤتى عزائمه ، ومادامت قد دخلت في دائرة التكليف فهي يكون الغفران والرحمة .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ ۖ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ۚ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿١٤٦﴾ ﴾

هنا يأتي الحق بالتحريم الذي ، وهو التحريم لتهذيب والتأديب ، مثلما قال من قبل :

﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ .. ﴿١٦٠﴾ ﴾ [سورة النساء]

و « لِذِي ظُفُرٍ » هو ما يظهر عندما ينظر إلى أقدام بعض الحيوانات أو الطيور ، فهناك حيوانات نجد تشقق إصبعها ظاهراً والأصابع منفصلة ومنفرجة بعضها عن بعض ، فهذه ليست حراما عليهم ، ونوع آخر نجد أصابعها غير مفصولة وغير منفرجة مثل الإبل ، والنعام ، والبط ، والأوز وهي ذو الظفر . فكل ذي ظُفُر حرم على اليهود ، وقد حرم عليهم لا لخبث وضرر في المأكول ، ولكن تأديبا لهم لأنهم ظلموا في أخذ غير حقوقهم ؛ لذلك يحرمهم الله من بعض ما كان حلالا لهم ؛ فالأب يعاقب ابنه الذي أخذ حاجة أخيه اعتداء ؛ فيمنع عنه المصروف ،

والمصروف في ذاته ليس حراماً ، ولكن المنع هنا للتأديب . والحق هو القائل .

﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا (١٦٠) وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ (١٦١) ﴾

[سورة النساء]

ولأنهم فعلوا كل ذلك يأتي لهم التحريم عقاباً وتأديباً

﴿ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (١٤٦) ﴾

[سورة الأنعام]

وأنت حينما تذبح الذبيحة تجد بعضاً من الدهن على الكلى ، وتجد في داخلها ما يسمونه «منديل الدهن» وكذلك «ألية الخروف» ، وحين تقطع الرأس تجد فيها نوعاً من الدهون ، وقد حرّم الحق عليهم في البقر والغنم شحومهما . وكذلك «كل ذي ظفر» محرم كله . وهناك استثناء في البقر والغنم هو ﴿ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا ﴾ .

أي أحل لهم ما هو فوق الظهر من الشحم ، وأحل لهم ما حملته الحوايا من الشحوم و« الحوايا » جمع حوية أو حاوية أو حاوياء وهي ما تحوّى من الأمعاء أي تجمع واستدار ، وفي الريف تقول المرأة عن قصعة القماش التي تبرمها وتلفها وتصنع منها دائرة مستديرة تضعها على رأسها لتحميه عندما تحمل فوقه الأشياء ؛ تقول . صنعت «حواية» والحواية هنا هي الأمعاء الملتفة ، وطولها كذا متر ، ومن حكمة تكوينها الربانية نجدها تلتف على بعضها ، ولذلك اسمها « الحوايا » ، وهي ما يسميه «المعبار» . وكذلك حلل لهم ما اختلط بعظم في القوائم والجنب والرأس والعين ، وكذلك أحل لهم شحما اختلط بعظم منه الألية ، لأن الألية تمسك بعَصَب الذنب . أي أصله ، وهو الجُرَيْء في أصل الذنب عند رأس العُصْعُص ولأنه رحيم فهو ينزل عقوبة فيها الرحمة فيبيح له شيئا ويحرم شيئا آخر .

ويذيل الحق الآية بقوله : ﴿ ذلك جزيناهم ببغيهم وإنا لصادقون ﴾ .

وليس هذا التحريم تعذيباً عليهم ، أو تعنتاً فى معاملتهم ، بل لأنهم بَغَوْا ، والباغى يجب أن يأخذ حقه من الجزاء ؛ حتى يفكر ماذا يحقق له البغى من النفع ، وماذا يمنع عنه من النفع أيضاً ، وحين يقارن بين الاثنين قد يعدل عن بغيه ، وهم قد صدّوا عن سبيل الله ، وأخذوا ربا ليمّوا أموالهم وأكلوا أموال الناس بالباطل ، لذلك حرّم عليهم الحق بعض الحلال . وسبحانه صادق فى كل بلاغ عنه ، ونعرف بذلك أن علة التحريم لبعض الحلال كانت بسبب ظلمهم وما بدر منهم من المعاصى فكان لتحريم عقوبة لهم .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٤٧﴾ ﴾

وكان مقتضى أنهم يكذبونك فيما أخبرت به عن الله ، أن يعجل الله لهم بالعذاب ؛ لكن الحق لم يعجل لهم بالعذاب لأنه ذو رحمة واسعة

﴿ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ ﴾

(من الآية ١٤٧ سورة الأنعام)

ولكن إياكم أن تتمسحوا فى الرحمة الدائمة ؛ إنها رحمة تأجيل فقط . ولن يفوتكم عذابه ، وهنا يحنثهم أيضاً فيقول سبحانه : « ربكم ذو رحمة واسعة » وكأنه يقول لهم : راجعوا أنفسكم واستحوا من الله ولا يغرنّكم أنه ربّ ، خلق من عَدَم وأمدّ من عُدْم ، وتولّى التربية ، لكنه لن يرد ويمنع بأسه وعذابه عن القوم المجرمين منكم .

ويقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿ سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ ﴾

وكلما تقرأ آية فيها « سيقول » فاعلم أنها تنطوى على سرّ إعجازى للقرآن ، والذى يعطى هذا السرّ هو الخصم حتى نعرف كيف يؤدى عدوّ الله الدليل على صدق الله ، مما يدل على أنه فى غفلة . ومن قبل قال الحق سبحانه :

﴿ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ ﴾

(من الآية ١٤٢ سورة البقرة)

و « سيقول » معناها أنهم لم يقولوا الآن ، ويخبر القرآن أنهم سيقولون ، ولم يخبئ ويستر القرآن هذه الآية ، بل قالها رسول الله صلى الله عليه وسلم قرآناً يُقرأ ويُصلى به . ولو أن عندهم شيئاً من الفكر لكانوا يسترون القول حتى يُظهروا المتكلم بالقرآن بمظهر أنه لا يقول الكلام الصحيح ، أو على الأقل يقولون إنه يقول : « سيقول السفهاء » ، ونحن لسنا بسفهاء فلا نقول هذا القول . لكنهم يقولون القول السفيه برغم أن الآية قد سبقتهم بالتنبؤ بما سوف يقولون ؛ لأن الذى أخبر هو الله ، ولا يمكن أن يجئ احتياط من خلق الله ليستدرك به على صدق الله . هم سمعوا الكلمة ، ومع ذلك لم يسكتوا بل سبقتهم ألسنتهم إليها ليزيدوا القرآن .

وكل مسرف على نفسه فى عدم اتباع منهج الله يقول : إن ربنا هو الذى يهدى وهو الذى يضلّ ، ويقول ذلك بتبجح ووقاحة لتبرير ما يفعل من سفه . وسيظل المسرفون على أنفسهم وكذلك المشركون يقولون ذلك وسيحاولون تحليل ما حرّم الله . وقد جاء المشركون بقضيتين : قضية فى العقيدة ، وقضية فى التكليف ؛ قالوا

في قضية العقيدة: « لو شاء الله ما أشركنا » ، وكأنهم أشركوا بمشيئة الله. وجاءوا إلى ما حرموا من حلال الله وقالوا إنهم قد فعلوا ذلك بمشيئة الله أيضاً ؛ ليوجدوا لأنفسهم مبرراً ، وهذا القول ليس قضية عملية ؛ لأنها لو كانت وقفة عقلية لكانت في الملاحظين: الخير والشر ، فالواحد منهم يقول: كتب ربنا علينا - والعياذ بالله - الشر ، فماذا يعبدني إذن ؟! ولا يقول هذا الإنسان « وكتب الله لي الخير ». هذا ما كان يعرضه ويقتضيه المنطق لكنهم تحدثوا عن الشر وسكتوا عما يعطي لهم من خير.

وقولهم «لو شاء الله ما أشركنا» صحيح المعنى ؛ لأنه سبحانه لو شاء أن يجعل الناس كلهم مهديين لفعل ، لكنه شاء أن يوجد لك اختياراً ، وفي إطار هذا الاختيار لا يخرج أمر عن مشيئته الكونية. بل يخرج الكفر والشر عن مراده الشرعي. وعلمنا من قبل أن هناك فرقاً بين الكونية والشرعية ؛ فكفر الكافر ليس عصياناً عن الله أو قهراً عنه سبحانه ، إنما حصل وحدث بما أعطاه الله لكل إنسان من اختيار ، فالإنسان صالح للاختيار بين البديلات.

﴿ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ . ﴿٢٩﴾ ﴾ [سورة الكهف]

فالإنسان قادر على توجيه الطاقة الممنوحة له من الله الصالحة للخير أو الشر. إذن فاختيار الإنسان إما أن يدخله إلى الإيمان وإما أن يتجه به إلى الكفر ، لذلك يقول الحق عن الذين يدعون أن كفرهم كان بمشيئة الله:

﴿ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا .. ﴿١٤٨﴾ ﴾ [سورة الأنعام]

والسابقون لهم قالوا ذلك وفعلوا مثل ما يفعل هؤلاء من التكذيب ؛ وجاءهم بأس وعذاب من الله شديد ، ولذلك يأمر الحق محمداً ﷺ :

﴿ .. قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ ﴾ [سورة الأنعام]

ويسألهم محمدٌ ﷺ عن علم يؤكدون به صحة مايدعونه. ويزعمونه أى هل عندكم ملاغ من الله ، والحق أنهم لاعلم لديهم ولادليل ، إنهم يتبعون الظن ، ويخرصون ، أى أن كلامهم غير راصح الدلالة على المراد منه ، إنه تخمين وظن وكذب

لذلك يقول سبحانه

﴿ قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾ ﴾

نعم فلو شاء سبحانه لقسرهم على الهداية وما استطاع واحد منهم أن يخرج عن الهداية ، ولكنه لم يشأ ذلك ، بل أراد أن يكون الإقبال على الإيمان به ، واتباع التكاليف أمراً داخلاً فى اختيارهم. ألم يخلق سبحانه خلقاً لايعصون الله ماأمرهم ويفعلون مايؤمرون؟ ألم يخلق الكون كله مؤتمراً بأمره؟!

﴿ قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ . ﴿١٤٩﴾ ﴾ [سورة الأنعام]

و«الحجة» هى الدليل الذى تقيمه لتأييد قولك فى جدل ، ولذلك سمى عقوداً حجة على المملكة. أو «الحجة البالغة» أى التى لايفلت منها شىء أبداً يعطل المراد منها

ويقول الحق بعد ذلك .

﴿ قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا ۖ فَإِن شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ ۚ وَلَا

تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَٱلَّذِينَ لَا
يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٠﴾

ومادمتم لا تملكون العلم فمن المحتمل أنكم تملكون شهوداً على ما تقولون . والخطاب : « هلم شهداءكم » هو خطاب للجماعة ، و« هلم » يستوى فيها المفرد والمفردة والمثنى مذكراً كان أو مؤنثاً والجمع مذكراً أو مؤنثاً ، فتقول : هلم يا زيد إليّ ، وهلم يا هند إليّ ، وهلم أيضاً لجماعة الذكور ولجماعة الإناث ،وهذه لغة الحجازيين . وتختلف عن لغة بنى تميم التى يزيدون عليها فيقال . « هلم يا رجل » ، و« هلمى يا امرأة » ، و« هلما » ، وهلموا ، وهلممن » . والقرآن نزل بلغة قريش « الحجازيين » ، والحق يقول : « هلم شهداءكم » . أى هاتوا وأحضروا شهداءكم أن الله حرّم هذا ، إنكم بلا علم ، وكذلك لا شهود عندكم على المدعى ؛ فإن كان عندكم شهود هاتوا هؤلاء الشهود .

وماذا إن أحضروا شهود زور ؟ إنه ـ سبحانه ـ يحذر رسوله ويوضح له أنهم حتى ولو أحضروا شهداء إياك أن تصدقهم فهم كذابون :

وكأن الله يريد أن يفضح الشهود أيضاً أمام المشهود أمامهم ، ويعطى أيضاً قضيتين اثنتين ؛ فسبحانه يدحض ويبطل حجتهم ، ويفضح الشهود الذين جاءوا بهم . فكأنه قال : هاتوا هؤلاء الذين قالوا لكم هذا الكلام ، وفى ذلك فضيحة لمن لفقهم هذه الأوامر .

ويأمر الحق رسوله ألا يتبع الذين كذبوا بآياته سبحانه . وكلمة « أهواء » ، جمع هوى ، وهو ما يختمر فى الذهن ليلوى الإنسان عن الحق ؛ فهو شهوة ترد على الذهن فتجعله يعدل عن الحق :

﴿ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ ﴾

(من الآية ١٥٠ سورة الأنعام)

وهم لا يكذبون بآيات الله فقط بل لا يؤمنون بالآخرة أيضاً ؛ لأنهم لو كانوا يؤمنون بالآخرة لعلموا أنهم مجازون على هذا جزاء يناسب جرائمهم ، ولو أنهم قدروا هذه المسألة لامتنعوا عن اتباع أهوائهم

ويذيل الحق الآية بقوله الكريم :

﴿ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾

(من الآية ١٥٠ سورة الأنعام)

ونفهم من كلمة « يعدل » أنها من العدل بمعنى القسط ، إذا قيل : عدل في كذا ، أو عدل بين فلان وفلان ؛ أو عدل في الحكم ، أما عدل بكذا فيكون المراد منها أنه جعله عديلا ومساويًا . وجاءت بهذا المعنى في آية أخرى هي قوله الحق

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

أي يجعلون ما لا يصح أن يكون مساويًا لله ، مساويا وعدلا لله . وهذا نعل من جعلوا لله شركاء ، وكذلك من لا يؤمنون بالله ؛ فالواحد منهم يعدل عن ربه عدولاً ويميل ويعرض عنه ويشرك به ويسوي به غيره . ويجب أن نلحظ عند النطق بكلمة « التوحيد » وهي : « لا إله إلا الله » ألا نقف عند قول : (لا إله) لأن ذلك يعني إنكار ونفي وجود إله وهذا والعياذ بالله كفر . إذن يجب علينا أن نصلها بما بعدها فنقول : (لا إله إلا الله) أو نكون عند نطقنا بلفظ (لا إله) قد انعقدت قلوبنا على وحدانيته وما يجب له ـ تعالت عظمته ـ من صفات الجلال والكمال ، ومعنى (لا إله إلا الله) أنه لا معبود بحق إلا الله ، لأن المعبودين بباطل كثيرون كالأصنام والنجوم والجن وبعض الإنس والملائكة وغير ذلك

وكلمة « بربهم يعدلون » تفيد أنهم أهل شرك ، وكذلك من ينكر وجود الله إنه عن ربنا يعدل ويميل ويحيد عن الاعتراف به إلها .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ
أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا
وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ
وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا
وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ
إِلَّا بِالْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ
تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ ﴾

نظر فى هذه الآية فلا تجد شيئاً من المحرمات من الأطعمة التى بها قوام الحياة ، ولكن تجد فيها المحرمات التى إن اتبعناها نهدر القيم المعنوية التى هى مقومات الحياة الروحية ، إنها مقومات الحياة من القيم ﴿ قل تعالوا أتل ما حرّم ربكم عليكم ﴾ .

والأداء القرآنى هنا يأخذ لفظ « تعال » بفهم أعمق من مجرد الإقبال ، فكأن الحق يقول : أقبل علىّ إقبال من يريد التعالى فى تلقى الأوامر . فأنت تقبل على أوامر الله لتعلو وترتفع عن حضيض تشريع البشرية ، فلا تأخذ قوانينك من حضيض تشريع البشر ، لأن الشرط الواجب فى المشرع ألا يكون مساوياً لمن شرّع له ، وألا يكون منتفعاً ببعض ما شرّع ، وأن يكون مستوعباً فلا تغيب عنه قضية ولا يغفل عن شىء والمشرع من الخلق لا يشرع إلا بعد اكتمال عقله ونضجه . ولا يقدر أن يمنع نفسه من الانتفاع بالتشريع .

الرأسمالى ـ مثلاً ـ يشرع ليستفيد ، والماركسى يشرّع ليستفيد . وكل واحد

يشرع وفى نفسه هوى ، ومن بعد ذلك تعدّل التشريعات عندما نستبين أنها أصبحت لا تفى ولا تعطى أمور الحياة . فكأن المشرع الأول لقصور علمه غابت عنه حقائق فصحها المجتمع حين برزت القضايا ، فنظر فى قانونه فلم يجد شيئاً يغطى هذه القضايا ، فيقول : نعدل القانون ، ويستدرك ومعنى استدراك القانون أى أن هناك ما جهله ساعة قنن .

إذن يشترط فى المقنن ألاّ يكون مباريًا للمُقَنَّن له ، وألاّ تغيب عنه قضية من القضايا حتى لا يُسْتَدْرَك عليه ، وألاّ يكون منتفعاً بالتشريع ، ولا يوجد ذلك فى بشر أبداً ، فأوضح الحق : اتركوا حضيض التشريع البشرى وارتفعوا إلى السماء لتأخذوا تقنينكم منها ؛ فحين ينادى الله « تعالوْا » فمعناها ارتفعوا عن حضيض تقنين بشريتكم إلى الأعلى لتأخذوا منه تقنياتكم التى تحكم حركة حياتكم ، فهو لا ينتفع بما شرع ، بل أنتم الذين تنتفعون ، ولأنه لا يغيب عنه شىء سبحانه ، وهو خالق ، هو أولى أن يشرع لكم .

﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ﴾

(من الآية ١٥١ سورة الأنعام)

« أتل » من التلاوة وهى القراءة ﴿ ما حرّم ربكم عليكم ﴾ أى ما جعله حراما . . أى يمتنع عليهم فعله ، وسأقول لكم كل البلاغات بلاغاً بعد بلاغ .

﴿ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ﴾

(من الآية ١٥١ سورة الأنعام)

لقد جاء سبحانه بتحريم الشرك من خلال تركيب لغوى يؤكد علينا ألا نشرك به ؛ فأنت ساعة تأتى لتلقى أوامر لمن تراسه تقول له : استمع إلى ما أمنعك منه فاتبعه ثم تبدأ فى التفصيل ، والحق هنا جاء بأول بند من المحرمات والمحظورات هو ألا نشرك به شيئ . أى أتلو عليكم تحريم الشرك ، فأول المحرمات الشرك ، وعلينا أن نوحد الله ، فكل نهى عن شىء أمر بمقابله وكل أمر بشىء نهى عن مقابله . وعلى ذلك فكل أمر يستلزم نهيًا ، وكل نهى يستلزم أمراً فلا تلتبس عليكم الأوامر والنواهى . أو تكون (عليكم) منقطعة عما قبلها ، أى عليكم ترك الشرك ، وعليكم إحسانا بالوالدين ، وألاّ تقتلوا أولادكم ، وألاّ تقربوا

الفواحش . . أي ألزموا ذلك .

ثم يقول سبحانه : ﴿وبالوالدين إحساناً﴾ وسبحانه يأمر هنا بتأكيد الإحسان إلى الوالدين ؛ فهو أمر بسلوك ويستلزم نهيا عن مقابله وهو عقوق الوالدين ، أي لاتعقوهم فعدم الإحسان إلى الوالدين يدخل فيما حرم الله . ثم يقول سبحانه .

﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ . (١٥١)﴾ [سورة الأنعام]

أي استبقوا حياة أولادكم ، فإن أردتها من قبيل النهي فقل هو نهي عن قتل الأولاد، وإن أردتها من قبيل الإيجاب فقل . استبقوا الحياة . وقول : ﴿مِّنْ إِمْلَاقٍ﴾ أي من فقر ، فكأنهم كانوا فقراء ، ومادام الإملاق موجوداً فشغل الإنسان برزق نفسه يسبق الانشغال برزق من يأتي بعده ؛ فيا أهل الإملاق تذكروا أن الله يرزقكم ويرزق من سيأتي زيادة وهم الأولاد ويقول سبحانه :

﴿وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ .. (١٥١)﴾ [سورة الأنعام]

وهذا نهي عن القرب ، أي نهي عن الملابسات التي قد تؤدي إلى الفعل لأنهى عن الفعل فقط ؛ فحينما أراد الله يحرم على آدم وعلى زوجه الشجرة قال :

﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ .. (١٩)﴾ [سورة الأعراف]

لأن القرب قد يعرى بالأكل ، وكذلك : ﴿ولاتقربوا الفواحش﴾ أي لا تأتي إلى مقدمات الفواحش بأن تلقي نظرة أو تحدق النظر إلى محرمات غيرك ، وكذلك المرأة التي تتبرج ؛ إنها تقوم بالإقبال على مقدمات الفواحش ، فإذا امتنعت عن المقدمات أمنت الفتنة والزلل ؛ لأن رسول الله ﷺ يقول : « الحلال بين والحرام بين وبينهما أمور مشتبهات لا يعلمها كثير من الناس فمن اتقى المشبهات فقد استبرأ لدينه

وعرضه ومن وقع فى المشبهات وقع فى الحرام كراع يرعى حول الحمى يوشك أن يواقعه ، ألا لكل ملك حمى ، ألا وإن حمى الله تعالى فى أرضه ، ألا وإن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت كله ألا وهى القلب »[1] .

ويمنعك الحق . ألا تقرب ، أى أمنع نفسك عن مظنة أن تستهويك الأشياء ، مثلها مثل « الجنب » تماماً ، وسبحانه وتعالى يقول

﴿ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ .. ﴿٣٠﴾ ﴾ [سورة الحج]

ويقول : ﴿ .. وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ﴿٣٠﴾ ﴾ [سورة الحج]

وهنا يقول تعالى : ﴿ ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ﴾ .

وكل ما ظهر من الفواحش هو من أفعال الجوارح التى ترتكب الموبقات و« وما بطن » هو من أفعال السرائر مثل الحقد ، والغل ، والحسد .

ويتابع سبحانه : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ .. ﴿١٥١﴾ ﴾

[سورة الأنعام]

وكلمة « النفس » يختلف الناس فى معناها ، ولا تطلق النفس إلا على التقاء الروح بالمادة ، والروح فى ذاتها خيّرة ، والمادة فى ذاتها خيرة مسبحة عابدة .

﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ . ﴿٤٤﴾ ﴾ [سورة الإسراء]

وإذ التقت الروح بالمادة تقوم الحياة ، فمعنى قتل النفس أن نفصل الروح عن المادة بهدم البنية وهذا غير الموت ؛ لأن الله هو الذى يميت النفس ، أما الإنسان به فى الآية فستجد لتعقل يعطيك التوازن فى القرار ، وقد حتم الحق الخمسة الأشياء

(١) رواه البخارى ومسلم وأبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجه عن النعمان بن بشير

فهو يقتل النفس إن هدم بنيتها . والذى وهب الحياة هو الله ، فلا يسلب الحياة إلا هو . وبعد ذلك يشرع الله لنا أن سبب الحياة قصاصاً ، أو للزنا من الثيب المحصن رجلا أو امرأة ، أو للردّة ، فهذا قتل بحق ،لكن سبحانه وتعالى يلعن من يهدم بنيان الله بغير الحق ، والإنسان بنيان الله فلا تعتدى عليه . ولذلك أمرنا الله بالقصاص من إنسان قتل إنساناً ؛ حتى يحافظ كل واحد على حياة نفسه ، وحين يحفظ الإنسان كل نفس ، فإنه يحفظ نفسه ويسلم .

هكذا يأمر الحق بأن نقتل الثيّب ، والثيب الزانى يطلق على الذكر والأنثى وهو من تزوج ودخل على زوجه وذاق كل منهما عسيلة الآخر وأفضى إليه ، وكذلك المرتد ، فنحن نحرص على حرية الاعتقاد ، بدليل أننا لا نقتل الكافر الأصلى لكفره ، ولكن يجب على الإنسان أن يفهم أن الدخول إلى الإيمان بالإسلام يقتضى أن يدرسه دراسة مستوفية مقنعة ، وأن يعلم أن حياته رهن بأن يرجع عن هذا الدين ، فإذا علم أن حياته رهن بأن يرجع عن هذا الدين ، فلن يدخله إلا وهو مقتنع تمام الاقتناع ونحن نحمى بالاختيار ، فعلى لكل من يقبل على الإسلام ويحذره . إياك أن تدخل بظاهر القول دون فهم لمعنى الإسلام لأنك لو دخلت ثم بعد ذلك ارتددت فسوف تقتل ، ومادام الشيء ثمنه الحياة ، فالواجب أن يحتاط الإنسان الاحتياط الشديد . وفي ذلك أيضاً ثقة من أن الإنسان إذا ما بحث فى الأدلة فسيقتنع بأن له إلهاً حقاً ، ولكنا لا نقتل الكافر الأصلى

إذن فقتل المرتد حماية لحرم الاختيار ، فإياك أن تدخل بدون روية ؛ لأنك لو دخلت ثم ارتددت فسوف تقتل ، وبذلك يصفى الحق لمسألة تصعيبة لازمة بأن يعرض من يقبل على الإسلام جميع الحجج عنى نفسه ، ولا يدخل إلا بنية على هذا ، ففى أى عقد يحاول الإنسان أن يعرف التزاماته وأن تتضح أمامه هذه الالتزامات ولا يدخل إلى الدين الدخول الأهوج ، أو الدخول الأرعن ، أو الدخول المتعجل . بل يلزمه أن يدخل بتؤدة وروية

وفى الزواج يدخل الإنسان بكلمة ويخرج بكلمة أيضا هى « أنت طالق » ، ولذلك تحتاط المرأة ، فمادامت قد عرفت أن بقاء زواجها رهن بكلمة فعليها أن تحرص ألا تضع هذا الحق إلا فى يد أمينة عليه . وساعة أن يقول لها أبوها :

اسمعى ، إن لك أن تختارى الزوج الذى إن أحبك أكرمك ، وإن كرهك لا يظلمك ، لأنه بكلمة منه تنتهى الحياة الزوجية إذن فعلى المرأة أن تفكر فى الإنسان الأمين على هذه الكلمة

ومع ذلك فهناك احتياط للفعلة ، فالرجل يتزوج بكلمة واحدة ، من مرة واحدة لكن فى الطلاق هناك ثلاث مراحل ، كرصيد للعصمة فالرجل يتزوج المرأة بكلمة « زوّجتك نفسى أو يزوجها وليها ويكون لقبول من الزوج ويبدأ يتم الزوج » لكن فى الطلاق أباح الله لفعلة الرجل ولرعونته أن يطلق مرة ، ثم يراجع هو من غير دخول أحد بينهما ، ثم يطلق ثانية ، ويراجعها ، ولكن بعد الطلاق الثالث يجد التنبيه من الحق : لقد احتفظنا لك برصيد من غفلتك . ولكن عندما تريدها زوجاً لك فلا يتم ذلك إلا أن تتزوج غيرك ، وبعدها قد تعود لك أو تبقى مع من تزوجها . فاحفظ جيداً للأمر الذى تدخل عليه ، وللتعاقد الذى التزمت به . فإذا كان هذا هو الشأن فى تعاقد الزواج ، فما بالنا بالرِّدة ؟ إنّا نقتل المرتد ، ولا نفعل به ذلك قبل أن يؤمن وقبل أن يعلن إيمانه وقبل الدخول فى حيز المؤمنين ، ليعلم أنه إن رجع عن الإسلام فسيقتل . وهكذا يصعّب الإسلام الدخول إليه ، ويحمى الاختيار فى لوقت نفسه

ويتابع سبحانه :

﴿ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾

(من الآية ١٥١ سورة الأنعام)

و « لوصية » لا تكون إلا للأمور المهمة التى لا تستقيم كالحياة إلا بالقيام بها ، إنها فى أمهات المسائل التى لا يصح أن نغفلها . ولذلك حين نظر إلى النبى صلى الله عليه وسلم ؛ لقد ظل ثلاثة وعشرين عاماً يستقبل من السماء ويناول أهل الأرض ، ثم جاء فى حجة الوداع وركّز كل مبادئ الدين فى قوله تعالى
﴿ ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون ﴾ .

و « وصاكم » غير شرّع ؛ فشرّع تأتى بكل التشريعات وما فيها من تفاصيل صغيره ، ولوصية تضم أمهات المسائل فى التشريع . و العقل يجب أن يسع المسأله من أولها إلى آخرها ؛ فلو استعصت عقلك فى كل منهى عنه ، أو فى كل مأمور

به في الآية فستجد التعقل يعطيك التوازن في القرار ، وقد ختم بحق الخمسة الأشياء التي ذكرها في هذه الآية ﴿ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون﴾ وهذه الأوامر متفق عليها في جميع الرسالات وفي جميع الأديان ، ويسمونها " الوصايا العشر ".

والأشياء الخمسة التي أوصى بها سبحانه هي :

* ألا تشركوا به شيئاً .

* وبالوالدين إحساناً

* ولا تقتلوا أولادكم من إملاق .

* ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن .

* ولا تقتلوا النفس التي حرّم الله إلا بالحق .

فكان يجب أن يقول : ذلكم وصاكم بها ، لكنه قال : ﴿وصاكم به﴾ ، فكأن أمر الله ونواهيه أمر واحد متلازم تتمثل كلها في " التزم ما أمر الله به ، واجتنب ما نهى الله عنه .

وقوله سبحانه ﴿لعلكم تعقلون﴾ فكأن العقل لو خُلّي ليبحث هذه الأشياء بحثاً مستقلاً عن منهج السماء لوجد أن ضرورة العيش على الأرض تتطلب وجود هذه الأشياء .

إذن ، كيف نُعْصم من أهوائنا المتصارعة بعضها مع بعض؟ . لابد أن يكون الإله واحداً حتى لا يتبع كل واحد منا هواه ، إنما نعرف أن الأصل في الإنسان هو الأب والأم . لذلك وصى بالأصل في ﴿وبالوالدين إحساناً﴾ ، ووصى أننا لا نقتل الأولاد خشية الفقر ؛ لأن الحياة تستمر بهم ، وبعد ذلك لابد أن تكون الحياة نظيفة ، طاهرة لجميع الأفراد ، ولا تشوبها شائبة الدنس أبداً ، ولا يتأتى ذلك إلا إذا تركت الفواحش " ما ظهر منها وما بطن " ؛ لأنه يلاحظ أن كل الأولاد غير الشرعيين يُهْمَلون ؛ فالحق سبحانه وتعالى يريد طهارة الأنساب في الحياة ؛ حتى يتحمل كل واحد مسئولية نسله . ويكون محسوباً عليه أمام المجتمع ، ويحذرنا سبحانه من أن نقتل النفس إلا بالحق ؛ لأن النفس أصل استبقاء الحياة

ثم يجيء الحق بعد ذلك في الآية التالية ليكمل الوصاية فيقول:

﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ۖ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾﴾

ونعلم أن اليتيم هو من فقد أباه، ولم يبلغ مبلغ الرجال، هذا في الإنسان. أما اليتيم في الحيوان فهو من فقد أمه. وقوله الحق:

﴿ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده ..﴿١٥٢﴾﴾ [سورة الأنعام]

هو يفرض سبحانه أن اليتيم له مال، فلم يقل لاتأكل مال اليتيم. بل أمرك ألا تقترب منه ولو بالخاطر، ولو بالتفكير، وعليك أن تبتعد عن هذه المسألة. وإذا كان قد قال: ﴿ولاتقربو مال اليتيم﴾فهل هذا الأمر على إطلاقه؟. لا؛ لأنه أضاف وقال بعد ذلك ﴿إلا بالتي هي أحسن﴾أي بأن تُثمِّر له ماله تثميراً يسع عيشه، ويبقى له الأصل وزيادة، ولذلك قال في موضع آخر:

﴿وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا ..﴿٥﴾﴾ [سورة النساء]

فلا يأخذ أحد مال اليتيم ويدخره، ثم يعطيه منه كل شهر جزءاً حتى إذ بلغ الرشد يجد المال قد نقص أوضاع، لذلك لم يقل: ارزقوهم منها، بل قال: ﴿وارزقوهم فيه﴾أي ارزقوهم رزقاً ناشئاً منها فَمَالُهم ظرفية للرزق، ولايتأتى هذا إلا بأن تنموها لليتيم، ولاتحرم الوصية على اليتيم لرعاية ماله من أصحاب

الكفاءات فى إدارة الأعمال والأساء ، وقد يوجد الكفء فى إدارة العمل ، والأمين فيه لكن حاله لا يهفض بأن يتحمل تبعات ومؤنة حيانه وقيامة بإدارة أموال اليتيم ؛ فقال - سبحانه - فى ذلك :

﴿ ومن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ۖ ﴿٦﴾ ﴾ [سورة النساء]

أى أن يهب الوصىّ تلك الرعاية لله ، وحين يهب تلك الرعاية لله ولا يأخذ نظير القيام بها أجراً ؛ يضمن أنه إن وُجِدَ فى ذريته إلى يوم القيامة يتيم فسيجد من يعوله حسبة لله وتطوعاً منه مدخراً أجره عند الله . والحق هو القائل .

﴿ وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٩﴾ ﴾ [سورة النساء]

وحينما يجد اليتيم من يرعاه ، وحين يعاطف المجتمع مع كل يتيم فيه ، ويتولى أمور اليتامى أناس أمناء قادرون على إدارة أمورهم فسوف يقل جزع الإنسان من أن يموت ويترك صغاره ؛ لأنه سيجد كرامة ورعاية لليتيم ، فالناس تخاف من الموت لأن لهم عيالاً صغاراً ويرون أن المجتمع لا يقوم برعاية اليتامى ، لكن الإنسان إن وجد اليتيم مكرما ، ووجده أباء من الأمة الإسلامية متعددين ، فإن جاءه الموت فسوف يطمئن على أولاده لأنهم فى رعاية المجتمع ، ولكن لا تنتظر حتى يصلح شأن المجتمع بل أصلح من نفسك وعملك تجاه أى يتيم ، ويمكنك بذلك أن تطمئن على أولادك فستجد من يرعاهم بعد مماتك ، وحين يرعى المجتمع الإيمانى كل يتيم ستجد الناس لا تضيق ذرعا بقدر الله فى خلقه بأن يموت الواحد منهم ويترك أولادا. والمثل واضح فى سورة الكهف بين العبد الصالح وسيدنا موسى حينما مرّا على قرية :

﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا .. ﴿٧٧﴾ ﴾ [سورة الكهف]

فلم طلبا نقوداً ليدخراها ، ولكنهما طلبا طعاماً لسد الجوع ، وهذه حاجة مُلحّة. ومع أنهما استطعما أهل القرية أبى أهل القرية أن يضيفوهما . ومعنى ذلك

أنها قرية لئيمة الأهل . وعلى الرغم من العبد الصالح وجد ردّهم علنية وامتناعهم عن إطعامهما ، ولكنه عندما وجد جدار ، وبفراسته علم أن الجدار يريد أن ينقض ، وكأن الجدار له إدارة ، فأقام الجدار ، ولأمه سيدنا موسى عليه السلام ، وكان سيدنا موسى منطقيا مع نفسه ، فقد طلب هو وشيخه من أهل القرية مجرد الطعام مرفضوا ، فكيف ترد عليهم بأن تبني لهم الجدار ، وكان يجب أن تأخذ على البناء أجره ، فهم قوم لئام ، هذا كلام موسى . لكن العبد الصالح جازاهم بما يستحقون ؛ لأنه بناءه الجدار قد حال بينهم وبين أخذ الكنز ، لأنه لو ترك الجدار ينهار لظهر الكنز الذي تحته وهو لليتيمين ، وهكذا عرف العبد الصالح كيف يربيهم . وبعد ذلك أراد الله أن يشرح لنا أن الجدار لغلامين يتيمين في المدينة .

﴿ فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا . ﴿٨٢﴾ ﴾ [سورة الكهف]

فكأن استخراج الكنز مقارن ببلوغ الرشد ، وكأن العبد الصالح قد بنى الجدار بناء مؤقوتا ، بحيث لا ينهار إلا حين يبلغ الغلامان مبلغ الرشد ، لقد بنى العبد الصالح البناء وكأنه يضبط الميقات فلا يتماسك الجدار إلا لساعة بلوغ الغلامين أشدهما ، وعندئذ يستخرج الغلامان كنزهما . وبعد ذلك جاء لنا بالحيثية لكل ذلك ، فقال سبحانه .

﴿ وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا . ﴿٨٢﴾ ﴾ [سورة الكهف]

فكأن صلاح الأب هو الذي أراد به الحق أن يظهر لنا كيف حمى كنز الأبناء ، فيأتي العبد الصالح وموسى لأهل القرية اللئام ، ويطلبان طعاماً ، فلا يطعمونهما ، فيبني العبد الصالح الجدار المرتوت الذي يصون الكنز من اللئام . والحق يقول هنا :

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ .. ﴿١٥٢﴾ ﴾ [سورة الأنعام]

من لا يقدر على قرب مال اليتيم بالتي هي أحسن فليبتعد عنه .

وحتى لا ينحرز ويتوقى الناس من رعايتهم مال اليتيم ، قال سبحانه :

﴿ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ ﴾

(من الآية ٦ سورة النساء)

وكلمة « فليأكل بالمعروف » أي لا يكنز ولا يدخر منه أبداً ، بل يأكل بما يدفع الجوع فقط ويكتسي مايستر جسمه . ونعرف أن اليتيم لم ينضج عقله بعد ، وكذلك الكبير السفيه هو أيضاً لا يقدر على التصرف ، لذلك قال الحق في آداته البيانية حيث يؤدي اللفظ ما يوحي بالمعاني الواسعة :

﴿ وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ ﴾

(من الآية ٥ سورة النساء)

وجعل الحق مال السفيه في مرتبة مال الولي ، لأن السفيه لا يحترم ملكيته وقد يبددها ولكن المال يعود لهذا الإنسان حين يذهب عنه السفه فيقول الحق :

﴿ فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ ﴾

(من الآية ٦ سورة النساء)

إنه أداء قرآني عجيب ، يشجع الناس ألا يتركوا السفيه يبدد ماله فتكون خسارة للمجتمع كله ، فمدام هو في سفه فانظر إلى المال كأنه مالك ، ولتكن أميناً عليه أمانتك على مالك . وعندما ترى ونجد رشده وتطمئن على ذلك ، فإن الحق يأمرك أن تعيد له ماله . ونعود إلى اليتيم ، هنا يقول الحق :
﴿ ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن ﴾ .

هذا إن كان له مال ، فماذا عن اليتيم الذي لا مال له ؟ هنا تكون الوصية أقوى ، عن سهل بن سعد رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا » (وأشار بالسبابة والوسطى وفرّج بينهما)[1] .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

---

(١) رواه البخاري ، والترمذي ، وأبو داود

« الساعي على الأرملة والمساكين كالمجاهد في سبيل الله وكالذي يصوم النهار ويقوم الليل »[1] .

وخذوا بالكم واعملوا مسح رأس ليتيم لله ، فمن الجائز أن تكون لليتيم أم جميلة ، ويريد الولي أن يتقرب منها عن طريق الولد ، احذروا ذلك ، فإنه فضلاعلى أنه يسخط الله ويغضبه فهو خسة ولؤم ورذالة .

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ﴾

(من الآية ١٥٢ سورة الأنعام)

لم يقل الله ـ سبحانه ـ بالتي هي حسنة ولكنه قال : ﴿ بالتي هي أحسن ﴾ لتشديد الحرص على مال اليتيم حتى يبلغ أشده لأن بلوغ الأشد ، يعني أن اليتيم صارت له ذاتية مستقلة ، وما المعيار في الغاية المستقلة ؟ ، أن يصبح قادراً على إنجاب مثله ، وهذا معيار النضج مثله مثل الثمرة حين تنضج ، أي صارت البذرة التي فيها صالحة لأن نضعها في الأرض لتكون شجرة وأنت إن قطفت الثمرة قبل أن تنضج لا تجد طعمها حلوا ، ولا تستسيغ مذاقها إلا حين تستوي البذرة وتنضج

و « الأشد » أي أن الإنسان يصير قادراً على إنجاب مثله وهو ما نسميه البلوغ ، ويصبح أيضاً قادراً على حسن التصرف في المال وفي كل شيء . ويتابع سبحانه :

﴿ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ﴾

(من الآية ١٥٢ سورة الأنعام)

والكيل هي المعايير لما يكال حجماً ، والموازين هي المعايير لما يُقدّر كثافة ، فهناك معيار للحجم ومعيار للكثافة معيار الحجم الكيل ، ومعيار الكثافة هو الوزن ، وهناك أيضاً التقديرات العادلة في القياس ، للأقمشة مثلاً ، المقياس فيها هو المتر ، إذن كل شيء بحسبه ، وإذا أردت الموزون فلابد أن يكن بالقسط ، أي بالعدل .

وهذه المسألة من الصعب تحقيقها ، ولذلك تختلف الموازين باختلاف نفاسة الأشياء ، فحين نزن الفول أو العدس أو البطاطس أو الفلفلس ، فنحن نزنه بميزان

---

(١) رواه البخاري في الأدب المفرد

كبير ؛ لأن فرق الميزان قد يكون حول الكيلو جرام، فالأمر حينئذ يكون معقولاً وحين نزن أشياء أثمن قليلاً، نأتي بالميزان الدقيق. فإن كان الشيء الموزون ذهباً نحيط الميزان بجدران زجاجية لأن لفحة الهواء قد تقلل أو تزيد الوزن.

إذن نحاول أن نمنع تأثير تيارات الهواء عليها. وحين نزن المواد الكيماوية نأتي بميزان يحمل بالذرة. إذن كل موزون يأخذ درجة ميزانه بمقدار نفاسته وتأثيره؛ لأن تحقيق العدالة في الميزان مسألة صعبة، وكذلك الأمر في الكيل فحين يكيل الإنسان كيلاً يمسك إناء الكيلة ويهزه؛ حتى يأتي المكيال دقيقاً محرراً، وإن أراد أن يلعب بضمير، ويأخذ أكثر من حقه فهو يملأ المكيال بأكثر مما يحتمل ويسند الزيادة بيده حتى لا تقع وربما يقول:

﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣﴾ [سورة المطففين]

فحين يكتال يستوفي ويطفف أي يريد ما سوف يأخذه شراء، وحين يبيع يقلل الكيل أو الوزن ليأخذ ثمناً أكثر من ثمن ما يزن أو يكيل. وأصل المبادلات عالماً بين طرفين، وبعض المتطفلين يقول. كيف يقول الحق: ﴿ويل للمطففين﴾ والتطفيف في أي مسألة يكون بالزيادة، لا بالنقص. ونقول. انتبه إلى أن المتحدث هو الله، والتطفيف يزيد طرفاً وينقص من طرف، وكل صفقة بين اثنين فيها بيع وشراء. فإن أراد واحد أن يجعل الخسران على طرف وأن يستوفي لنفسه فهو مطفف.

ولذلك تأتي دقة الأداء القرآني من ربنا.

﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ..۝١٥٢﴾

[سورة الأنعام]

وقال الحق ذلك لأنه يعلم أن الكيل والميزان بالعدل أمر متعذر؛ لأن الحق سبحانه وتعالى لواسع رحمته في التشريع لم يجعل مجال الاستطاعة أمراً يمكن أن تتحكم فيه أشياء لا تدخل في الاستطاعة؛ ففي ضبط المكيال والميزان قال. ﴿لا نكلف نفساً

نفساً إلا وسعها ﴾ لأن المكيال والميزان أداتان تتحكم فيهما ظروف لا تدخل في نطاق الإنسان ولذلك قلنا : إن وزن الأشياء التي نعلمها إن كانت من الأشياء التي ليست فيها نفاسة فوزنها له آلة . وإن كانت في المتوسط فوزنها له آله ، وإن كان في الأشياء النفيسة الدقيقة التي للقدر الصغير فيها قيمة مؤثرة ، فإن لها آلة مضبوطة مصونة من عوامل الجو حتى لا تتأثر بهبّة الهواء ، فقول الحق : ﴿ لا نكلف نفساً إلا وسعها ﴾ إباحة للأشياء الزائلة أو الناقصة التي لا تدخل في الاستطاعة ، ثم قال سبحانه :

﴿ وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ .. ﴿١٥٢﴾ ﴾ [سورة الأنعام]

نعلم أن القول نسبة كلامية ينطق بها المتكلم ليسمعه مخاطب ، يفعل للمطلوب فيها خبراً أو إنشاءً ، والقول مقابله الفعل ، وكلاهما عمل ، فالقول عمل والفعل عمل ؛ قل أو افعل ، فافهم أن القول متعلق بجارحة اللسان ، والفعل متعلق بكل الجوارح ما عدا اللسان ، فإذا رأيت ، وإذا سمعت ، وإذا شممت ، وإذا لمست كل ذلك يطلق عليه أنه فعل ، ولكن إذا ما تحرك اللسان فذلك قول : ﴿ وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى ﴾

وهل العدل مقصور على القول؟ أو العدل أيضاً يكون في الفعل؟ إن العدل قد يكون في خلاف بين اثنين ، وهذا لا يتأتى بفعلك ، وإنما يتأتى الحكم والفصل فيه بقولك ، وإذا ما تعودت العدل في قولك ، ألفته وأنست به وأحسنته حتى في أعمالك الخاصة الأخرى .

والقول منه الإقرار ، وإن تقر على شيء في نفسك فقله بالعدل وبالحق ، والشهادة قلها بالحق ، والحكم ، قله بالحق . والوصية ، قلها بالحق . والفتوى ، قلها بالحق . إذن فالحق في القول أمر دائر في كثير من التصرفات ؛ لأنك إذا قلت بالحق أمكنك أن تعدل ميزان حركة الحياة ؛ فميزان حركة الحياة لا يحتمل إلا إن رجح باطل على حق ؛ لأنك إذا حكمت لواحد بشيء لا يستحقه فقد أعطيته ما ليس له ، وإنك بعملك هذا تجعل المتحرك في الحياة يرهف في الحركة . لكن إذا ما حافظت على حركة كل متحرك ، وأخذ كل واحد حظه من الحياة بقدر ما يعمل اترنت كل

الأمور ، ولم يعد هناك قوم يعيشون على جهد غيرهم وعرق سواهم ، إذن فقول العدل هو وسط حركة الحياة الثابتة المستقيمة الرتيبة الرشيدة ﴿ وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى ﴾

والذى يؤثر فى العدل هو الهوى ، وحين يوجد الهوى فهو يحاول أن يميلك إلى ناحية ليس فيها الحق ، وأولى النواحي أن يكون الأمر متعلقاً بك أو بقرابة لك ، وقد تريد إن حكمت ـ والعياذ بالله ـ باطلا ، أن تسعد ذ قرباك ،وأنت بذلك لم تؤد حق القرابة ؛ لأن حق القرابة كان يقتضى أن تمنع عنه كل شىء محرّم وتحمى عرضه ، وتحمى دينه قبل أن تحمى مصلحته فى النعمة الزائلة . ولذلك يأمرك الحق بأن تقول الكلمة بالعدل ولو كان المحكوم له أو عليه ذا قربى ؛ لأنك حين تحكم بالباطل فأنت فى الواقع حكمت عليه لا به

﴿ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا ﴾

(من الآية ١٥٢ سورة الأنعام)

ونحن نعلم أن عهد الله هو ما عاهدنا الله عليه ، وأول عهد وقمة العهود هو الإيمان به سبحانه ، وترتب على ذلك أن نتلقى منه التكليف ، فكل تكليف من تكاليف الله لخلقه يُعتبر عهداً داخلاً فى إطار الإيمان ؛ لأن الله لا يحكم حكماً أو يبينه لكلف إلا بعد أن يقول :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا ﴾

(من الآية ١ سورة المائدة)

أى يا من آمنت بالعهد الأصيل فى القيم وهو العقيدة ، وآمنت بى إلهاً : حمل التكليف منى ؛ لأنك قد دخلت معى فى عهد هو الإيمان .

ولذلك لا يكلف الله بالأحكام كافراً به ، إنما يقول : ﴿ يأيها الذين آمنوا ولذلك يجب أن نأخذ كل حكم بدليله من الإيمان بمن حكم به ، فلا تبحث عن العلة فى كل حكم ، وإنما علة كل حكم أن تؤمن بالذى أمرك أن تفعل كذا ، فعلة كل هى الحكم .

ويذيل الحق الآية الكريمة بقوله تعالى :

﴿ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾

(من الآية ١٥٢ سورة الأنعام)

و « ذلكم » إشارة إلى ما تقدم ، من أول قوله سبحانه :

﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ﴾

(من الآية ١٥١ سورة الأنعام)

إلى أن انتهينا إلى قوله سبحانه :

﴿ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا ﴾

(من الآية ١٥٢ سورة الأنعام)

والتوصية تخصيص للتشريع ؛ لأن التشريع يعم أحكاماً كثيرة جدًّا ، ولكن الوصية التي يوصي الله بها تكون هي عيون التشريع . ولذلك قال ابن عباس رضي الله عنه عن هذه الآيات « إنها محكمات لم ينسخهن شيء من جميع الكتب ، وقيل إنهن أم الكتاب من عمل بهن دخل الجنة ، ومن تركهن دخل النار » .

ولم يوجد شرع جاء بنسخ واحدة من هذه الوصايا ، ولذلك يقول اليهودي الذي أسلم وهو كعب الأحبار « والذي نفس كعب بيده إنّ هذه الآيات لأول شيء في التوراة ﴿ قل تعالوا أتل ما حرّم ربكم عليكم » . ثم نجد أن هذه الوصية الأخيرة هي جامعة لكل شيء ؛ نجد تسع وصايا قد مرّت ؛ حسبما قال فيها . ﴿ لعلكم تعقلون ﴾ ، وأربعا قال فيها ﴿ لعلكم تذكرون ﴾ ، والعاشرة يقول ﴿ لعلكم تتقون ﴾ . وهذه الوصية العاشرة هي الجامعة لكل أنواع الفضائل التكليفية إنها قوله الحق :

﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا

تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾

اى أنه ختم الوصايا التسع بهذا القول ؛ لأن الصراط المستقيم يشمل الوصايا التسع السابقة ويشمل كل ما لم يذكر هنا وقلت : إننا نلاحظ أن الخمس الأول ذيلها الحق بقوله : ﴿ لعلكم تعقلون ﴾ ، والأربع التى بعدها ذيلها الحق بقوله . ﴿ لعلكم تذكرون ﴾ والواحدة الجامعة لكل شىء قال تذييلا لها ﴿ لعلكم تتقون ﴾

فما الفرق بين التعقل والتذكر والتقوى ؟

إن الأشياء الخمسة الأولى التى قال الحق فيها :

﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ۖ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

هذه الأشياء كانت موجودة فى بيئة نزول القرآن ، إنهم كانوا يشركون بالله ويعقون والديهم ويقتلون الأولاد ويقارفون الفواحش ويقتلون النفس التى حرم الله قتلها إلا بالحق ، فأوضح لهم : تعقلوها ، فإذا ما تعقلتموها تجدون أن تكليف الله لهم بعكس هذه الأفعال ، إنه أمر يقتضيه العقل السليم الذى يبحث فى الأشياء بمقدمات سليمة ونتائج سليمة ، لكن « الأربع » الأخرى ، هم كانوا يفعلونها ويتفاخرون بها . ففى التى كانوا يعملونها من القيام على أمر مال اليتيم والوفاء فى الكيل والميزان والعدل فى القول والوفاء بالعهد قال . ﴿ لعلكم تذكرون ﴾ أى إياكم أن تعملوها ؛ فإذا كنتم تفعلونها وأنتم على جاهلية ؛ فاعملوها من باب أولى وأنتم على إسلامية . ثم جاء بالوصية الجامعة

﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

ونظراً لأن هذه الوصية تستوعب كل الأحكام إيجاباً وسلباً ، نهياً وأمراً ، فوضح لهم أنه يجب عليكم أن تتبعوا الصراط المستقيم - لتقوا أنفسكم آثار صفات القهر من الحق سبحانه وتعالى ، وأول جنودها النار .

والصراط : هو الطريق المُعَبَّد ، ويأخذون منه صراط الآخرة ، وهو - كما يقال - « أدق من الشعرة ، وأحدّ من السيف » ، ما معنى هذا الكلام ؟ . معناه أن يمشى عليه بيقظة تامة واعتدال ؛ لأنه لو راح يمنة يهوى في النار ، ولو راح يسرة يسقط فيها ، فهو صراط ممهول بدقة وليس طريقاً واسعاً ، بل - كما قلنا - « أدق من الشعرة وأحدّ من السيف » فلتمش على صراط الله ومنهجه معتدلاً ، فلا تنحرف يمنة أو يسرة ؛ لأن الميل - كما قلنا - يبعدك عن الغاية ، إنك إذا بدأت من مكان ثم اختل توازنك فيه قدر مليمتر فكلما سرت يتسع الخلل ، وأي انحراف قليل في نقطة البداية يؤدي إلى زيادة الهوة والمسافة .

كذلك الدين ، كلما نلتقي فيه ويقرب بعضنا من بعض ، نسير في الطريق المستقيم ، وكلما ابتعدنا عن التشريع تتفرق بنا السبل .

﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

ورسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ جلّى بالحركة العملية منطوق النسبة الكلامية ، حينما جلس بين أصحابه وخطّ خطًا . وقال هذا سبيل الله .

ثم خط خطوطاً عن يمينه وخطوطاً عن يساره ، ثم قال هذه سبل وعلى كل سبيل منها شيطان ؛ يدعو إليها ، ثم قرأ هذه الآية ﴿ وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ﴾

ولذلك فكل أهل الحق ، وأهل الخير كلما اقتربوا من المركز كان الالتقاء ، وهذا الالتقاء يظل يقرب ويقرب ويقرب إلى أن يتلاشى ويصير الكل إلى نقطة واحدة

وانظر إلى جلال الحق حينما يجعل الصراط المستقيم إليه في دينه ، منسوباً إلى رسوله : ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا ﴾ فالرسول يسير على هذا الصراط وهو لا يعش نفسه ، والذي يعمله ويمشي فيه يأمركم بأن تمشوا فيه ، وهو لم يأمركم أمراً وهو بمعزل وبعد عنه ، ولو غشكم جميعاً لا يغش نفسه ، وهذا هو صراطه الذي يسير فيه

والسبيل هنا معروف أنه إلى الله فكأن سبيل الله هو طريق محمد ﷺ . ونسب العمل واحدث لله وحده ؛ ففي البداية قال ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا ﴾ ، ثم قال : «سبله» فالصراط لم يعمله محمد لنفسه ، ولكن أراده الله للمؤمنين جميعاً ، ورسول الله هو الذي يأخذ بأيديهم إليه.

وحين ننظر إلى كل الخلافات التي تأتي بين الديانات بعضها مع بعض ، بين اليهودية والنصرانية على سبيل المثال :

﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَىٰ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ . ﴿١١٣﴾ ﴾ [سورة البقرة]

والمشركون قالوا : لا هؤلاء على شيء ، ولا هؤلاء على شيء

﴿ كَذَٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ .. ﴿١١٣﴾ ﴾ [سورة البقرة]

أي أننا أمام ثلاثة أقوال : اليهود قالوا . ليست النصارى على شيء ، والنصارى قالوا : ليست اليهود على شيء ، وقال الذين لا يعلمون - وهم أهل مكة - مثل قولهم ، ثم نجد الدين الواحد مهما ينقسم إلى طوائف متعددة ، وكل طائفة لها شيء تتعصب له . وترى أن الذي تقول به هو الحق ، والذي يقول به غيرها هو الباطل ، وكيف ينشأ هذا مع أن المصدر واحد ، والتنزيلات الإلهية على الرسل واحدة؟! إن

آفة كل هذا تنشأ من شهوة السلطة الزمنية ، وكل إنسان يريد أن يكون له مكانه ونفوذ وحلافة . وهذا يريد أن يترعم فريقاً ، وذاك يريد أن يترعم فريقاً . ولو أنهم جُمعوا على الطريق الواحد لماكانوا فرقاء .

ونجده ﷺ يقول . «افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة ، وتفرقت النصارى على اثنين وسبعين فرقة ، وتفرقت أمتى على ثلاث وسبعين فرقة»[1] .

وفى رواية «كلها فى النار إلا واحدة وهى الجماعة» ، والجماعة هم أهل السنة والجماعة ، وفى روايه : «ماأنا عليه وأصحابى» .

ونلاحظ دقة هذا القول فى عدد المذاهب والفرق ، وإن كنتم لاتسمعون عن بعضها لأنها ماتت بموت الذين كانوا يتعصبون لها ، والذين كانوا يريدون أن يعيشو فى جلالها .

إذن الآية تأتى حين ننظر حين إلى حكم من الأحكام ، يرى فيه واحد رأيا ، ويأتى الآخر فيرى فيه رأيا آخر ، لالشىء إلا للاختلاف . ونقول لهم انتبهوا إلى الفرق بين حكم مُحْكَم ، وحكم تركه الله مناطاً للاجتهاد فيه . فالحكم الذى أراده الله محكماً جاء فيه بنص لايحتمل الخلاف ، وهذا النص يحسم كل خلاف . والحكم الذى يحبه الله من المكلَّفين تخفيفاً عنهم على وجه من الوجوه يأتى بالنص فيه محتملاً للاجتهاد ، ومجىء النص من المشرع فى حكم محتمل للاجتهاد هو إذن بالاجتهاد فيه ، لأنه لو أراده حكما لامختلف فيه لجاء به محكماً .

والمثال المسمر ماتركه لنا رسول الله ﷺ فى سنته الشريفة ، فحينما أراد الحق سبحانه وتعالى ألا يضع السلاح قبل أن يؤدب بنى قريظة ، وهم من شايعوا مشركى مكة فى الحرب . فقال ﷺ «لايُصَلِّيَنَّ أحد العصر إلا فى بنى قريظة»[2] .

(١) رواه أبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجه عن أبى هريرة
(٢) رواه البخارى فى البخارى ، والبيهقى فى الدلائل والسير

فذهب الصحابة في طريقهم إلى بني قريظة ، وآذنت الشمس بالمغيب وهم في الطريق فانقسم صحابة رسول الله إلى قسمين : قسم قال : نصلي العصر قبل أن تغيب الشمس ، وقال قسم آخر : قال رسول الله لا نصلي العصر إلا في بني قريظة فصلى قوم العصر قبل مغيب الشمس ، ولم يصل الآخرون حتى وصلوا إلى بني قريظة ، ورفعوا أمرهم إلى المشرع وهو رسول الله ، فأقرّ هذا ، وأقرّ هذا ، لأن النص محتمل

لماذا ؟ . لأن كل حدث من الأحداث يتطلب ظرفاً له زمان ومكان ؛ فالذين قالوا إن الشمس كادت تغرب ولابد أن نصلي العصر قبل مغيبها نظروا إلى الزمان . والذين قالوا لا نصلي إلاّ في بني قريظة نظروا إلى المكان . وحينما رُفِعَ الأمر إلى المشرع الأعلم أقرّ هؤلاء وأقرّ هؤلاء

إذن فالحكم إن كان فيه نص محكم فلا احتمال للخلاف فيه . وإن كان الله قد تركه موضعاً للاجتهاد فيه فهو يأتي لنا بالنص غير المحكم . ومَن ذهب إليه لا يصح أن نخطئه ، ولذلك بقي لنا من أدب الأئمة الذين بقيت مذاهبهم إلى الآن بعضهم مع بعض نجد الواحد منهم يقول : الذي ذهبت إليه صواب يحتمل الخطأ ، والذي ذهب إليه مقابلي خطأ يحتمل الصواب ، وجميل أدبهم هو الذي أبقى مذاهبهم إلى الآن ، وعدم أدب الآخرين جعل مذاهبهم تندثر وتختفي ولا تدرون بها ، والحمد لله أنكم لا تدرون بها .

ثم يقول الحق بعد ذلك :

﴿ ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾ ﴾

ونحن إذا سمعنا كلمة « ثم » نعلم أنها من حروف العطف ، وحروف العطف

كثيره ، وكل حرف له معنى يؤديه ، وهنا ﴿ ثم آتينا موسى الكتاب ﴾ ، وإيتاء موسى الكتاب كان قبل أن يأتى قوله : ﴿ قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ﴾ فالتوراة جاءت ثم الإنجيل ، ثم جاء القرآن ككتاب خاتم . فكيف جاءت العبرة هنا بـ « ثم » ؟ . مع أن إيتاء موسى الكتاب جاء قبل محمد قوله الحق : ﴿ قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ﴾ ؟

ونقول لأصحاب هذا الفهم : أنت أخذت « ثم » لترتيب أفعال وأحداث ، ونسيت أن « ثم » قد تأتى لترتيب أخبار فقد يأتى مَن يقول لك : لماذا لا تسأل عن فلان ولا تؤدى الحق الواجب عليك له ؛ كحق القرابة مثلا ، فتقول : كيف ، لقد فعلت معه كذ ، ثم أنا فعلت مع أبيه كذا ، ثم أنا فعلت مع جدّه كذا .

إذن ، فأنت تقوم بترتيب أخبار . وتتصاعد فيها ، وترقى ، ولذلك قال الشاعر العربى :

إن من ساد ثم ساد أبوه ثم قد ساد قبل ذلك جدّه

فالسيادة جاءت أولاً للجد ، ثم جاءت للأب ، ثم انتقلت للابن . و« ثم » فى هذه الحالة ليست لترتيب الأحداث وإنما جاءت للترتيب الإخبارى أى يكون وقوع المعطوف بها بعد المعطوف عليه بحسب التحدث عنهما لا بحسب زمان وقوع الحدث على أحدهما فالمراد الترقى فى الإخبار بالأحداث

وانظر إلى القرآن بكمال أدائه يقول :

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ ﴾

(من الآية ١١ سورة الأعراف)

ونعلم أن الأمر من الله للملائكة بالسجود لآدم كان من البداية فسبحانه فى هذا القول الكريم يريد أن يرتب حالتنا ، إنه ـ سبحانه ـ خلقك بعد أن صورنا ، وصورنا ، بعد أن قال للملائكة اسجدوا لآدم .

ولله المثل الأعلى ، تجد من يقول لابنه لقد اعتنيت بك فى التعليم العالى ،

ثم لاتنس أنى قد اعتنيت بك فى التعليم الثانوى ، ثم لاتنس أنى قد اعتنيت بك فى التعليم الإعدادى ، ثم لاتنس أنى قد اعتنيت بك من قبل كل ذلك فى التعليم الابتدائى وأنت بذلك ترتقى إحسانياً لا أحدائياً فقد يكون الحدث بعد ولكن ترتيب الخبر فيه يكون قبل

﴿ ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ .. ﴿١٥٤﴾ ﴾ [سورة الأنعام]

طبعاً مادام جاء بسيرة موسى فالكتاب هو التوراة وإذا أطلق الكتاب من غير تحديد ؛ فإنه ينصرف إلى القرآن ، لأنه هو الكتاب الجامع لكل ما فى الكتب ، والمهيمن على كل ما فى الكتب أما لو قيل مثلاً أنزلنا على موسى الكتاب ، فيكون الكتاب هو التوراة ، أو أنزلنا على عيسى الكتاب ، فيكون الكتاب هو الإنجيل .

﴿ ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾ ﴾ [سورة الأنعام]

والتمام هو استيعاب صفات الخير ، ولذلك يقول الحق .

﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي .. ﴿٣﴾ ﴾ [سورة المائدة]

و« أكملت » فلا نقصان ، وأتممتها فلا استدراك . ولماذا جاء بالتمام على الذى أحسن فى أمر موسى عليه السلام ؟ . جاء ذلك لأن الذين تصدوا للحجاج والجدل معه ﷺ هم اليهود

وأنتم تعلمون أنهم صوروا فى مصر هما فيلماً سينمائياً اسمه « الوصايا العشر » عن قصة سيدنا موسى عليه السلام . والوصايا العشر هى التى أقر « كعب الأحبار » أنها موجودة فى التوراة وجاءت فى الآيات السابقة التى تناولناها وشرحناها . فمن المناسب أن يأتى هنا ذكر موسى عليه السلام .

وحينما جاء موسى عليه السلام بالتوراة كما أنزلها الله عليه عاصره أناس آمنوا بما في التوراة ، وكانوا من الناجين ، وقد ماتوا أما الذين استمرت حياتهم إلى أن جاء رسول الله ، فكان من المطلوب منهم أن يؤمنوا به ؛ لأن الحق أوضح لهم في التوراة أن هناك رسولاً قادماً ، ولابد أن تؤمنوا حتى تتم نعمة الإحسان عليكم ، لأنكم وإن كنتم مؤمنين بموسى ، وعاملين بمنهجه فلابد من الإيمان بمحمد ﷺ. والسابقون لكم أحسنوا في زمن بعثة رسالة موسى عليه السلام ، وجاء محمد بالرسالة الخاتمة فإن أردتم أن يتم الله عليكم الحسن والكرامة والنعمة ، فلابد أن تعلنوا الإيمان بمحمد ﷺ ، منكم من أحسن الاقتداء بموسى عليه السلام وآمن بمحمد فتم لهم الحسنى ﴿ وتفصيلاً لكل شيء وهدى ورحمة لعلهم بلقاء ربهم يؤمنون ﴾

«وتفصيلاً لكل شيء» أي أنه مناسب لزمنه ، ولله المثل الأعلى ، عندما يكون لك ولد صغير السن فتقول أنا فصلت له ملابسه ، أي فصلت له الملابس التي تناسبه. وحين يكبر لن تعطِ ملابسه القديمة صالحة لأن يرتدنها. «وتفصيلاً لكل شيء» أي القيم التي تناسب الوقت الذي يعيشونه ، فإذا ما جئنا بتفصيل جديد في القرآن فهو مناسب لوقته ، ولقائل أن يقول: هنا تفصيل ، وهنا تفصيل ، فما الفرق بين تفصيل وتفصيل؟ نقول. إن كل تفصيل مناسب لزمنه ، وأثبت القرآن مفصلة جاهزة ومعدة لكل زمن وللناس جميعا إلى أن تقوم الساعة.

والآية - دائماً - هي القائمين على أمر التشريع ، فحينما تأتيهم حالة لذي جاه وسلطان يحاولون إعداد وتفصيل حكم يناسبه ، فنقول لمثل هذا الرجل: أنت تفصل الحكم برغم أن الأحكام جاهزة ومعدة وظاهرة ، إننا نجد القوالب الشخصية تختلف فيها التفصيلات للملابس بينما القوالب المعنوية نجد فيها التساوي بين الناس كلها، فالصدق عند الطفل مثل الصدق عند اليافع ، مثل الصدق عند الرجل ، مثل الصدق عند المرأة ، مثل الصدق عند العالم ، مثل الصدق عند التاجر وليس لكل منهم صدق خاص ، وكذلك الأمانة. ورحمنا الإسلام بالقضية العقدية ، كذلك بالقضية الحكمية الظاهرة المناسبة لكل بشر ، وليست هناك آية على مقاس واحد تطبق عليه وحده ، لا ، فالآيات تسع الجميع.

﴿ وتفصيلاً لكلِّ شيءٍ وهدًى ورحمةً .. (١٥٤) ﴾ [سورة الأنعام]

والهُدَى هو ما يدل على الغايات ، لأن دين الفطرة قد انطمس بعدم تبليغ الآباء إلى الأولاد منهج السماء في أمور الحياة ومتعلقاتها والقيم التي يجب أن تسود والأمة أن الأب يعلم ولده كيف يأكل ويشرب ، وينسى أن يعلمه أمور القيم، لكن الحق سبحانه وتعالى رحم غفلتنا ، ورحم نسياننا ؛ فشرع وأرسل لكل زمان رسولاً جديداً ، وهدْيا جديداً ليذكرنا.

﴿ .. لعلَّهم بلقاء ربهم يؤمنون ﴾ [سورة الأنعام]

إن كل أمة تبح من العزوف عن تشريعات الله ، وهم يريدون أن يصنعوا في أذهانهم لقاء الله ، لكن لو أن لقاء الله منضبط في أذهانهم لاستعدوا لذلك ؛ لأن الغايات هي التي تحمل الإنسان يقبل على الوسائل و لشاعر يقول

ألا من يريني غايتي قبل مذهبي ومن أين والغايات هي بعد المذاهب

ونقول لهذا الشاعر قولك . ألا من يريني غايتي قبل مذهبي كلام صحيح ، أما قولك : ومن أين و لغايات بعد لمذاهب ، هذا كلام غير دقيق ، فالغاية هي التي تحدد المذهب ، وكذلك شرع الله الغاية أولاً ، بعد ذلك جعل لها السبيل . وقد شرع الله لكل شيء ماتقتضيه ظروف البشر الحياتية ، ولذلك لااستدراك عليه لأن فيه تفصيلا لكل شيء .

ويقول الحق بعد ذلك

﴿ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾ ﴾

وهذا إشارة وعادة ماتأتي وترد على متقدم ، ولكن إذا لم يكن لاسم

الإشارة متقدم أو حاضرة يشار إليه فهذا دليل على أنك إن أشرت لايصرف إلا إليه لأنه متعين ينصرف إليه الذهن بدون تفكير لوضوحه وكلمة «كتاب» تدل على أنه بلغ من نفاسته أنه يجب أن يُكتَب ويسجل ، لأن الإنسان لايسجل ولايكتب إلا الشيء النافع ، إنما النغو لايسأل عنه ، وقال ربنا عن القرآن : إنه «كتاب» ، ومرة قال فيه : «قرآن» فهو «قرآن» يتلى من الصدور ، و«كتاب» يحفظ في السطور ولذلك حينما جاءوا ليجمعوه أتوا بالمسطور ليطابقوه على مافي الصدور .

﴿ وهـذا كتـبٌ أنزلنـاهُ مُبارَكٌ . (١٥٥) ﴾ [سورة الأنعام]

و«أنزلناه» أي أمرنا بإنزاله ، ونزل به الروح الأمين ، وكلمة مبارك مأخوذة من «البركة» أي أنه يعطي من الخير والثمرة فوق مايُظَنّ فيه ، وقد تقول فلان راتبه مائتا جنيه ، ويربي أولاده جيداً ويشعر بالرضا ، وتجد من يقول لك : هذه هي البركة كأن الراتب لايؤدي هذه المسئوليات أبداً . وكلمة «البركة» تدل على أن يد الله ممدودة في الأسباب ، ونعلم أن الناس ينظرون دائماً إلى رزق الإيجاب ، ولا ينظرون إلى الرزق الأوسع من الإيجاب وهو رزق السلب ، فرزق الإيجاب يأتي لك بمائتي جنيه ، ورزق السلب يسبب عنك مصارف لاتعرف قدرها . فتجد من يبلغ مرتبه ألفاً من الجنيهات ، لكن بعض والده يمرض ، ويحتاج ولد آخر إلى دروس خصوصية فتبدد الألف جنيه ويحتاج إلى ماوقفها

إذن فحين يسلب الحق المصارف ويعوق المال في المعصية أو المرض فهذه هي بركة الرزق ، وتجد الرجل الذي يأتي ماله من حلال ويعوق فيه يوفقه الله إلى شراء كل شيء يحتاج إليه ، ويجعل الله على المال القليل صفة القبول ، وتجد آخر يأتي ماله حرام فيجعل الله على ماله صفة الغصب فينفقه في المصائب والبلايا ويحتاج إلى ماهو أكثر منه

وأنت حين تقرأ القرآن بالتوراة في الحجم تجده أصغر منها ولكن لو رأيت البركة التي فيه فستجدها بركة لاتنتهي ، فكل يوم يعطي القرآن عطاءه الجديد ولاتنقضي عجائبه ، ويقرأه واحد فيفهم منه معنى ، ويقرأه آخر فيفهم منه معنى جديداً وهذا دليل على أن قائله حكيم ، وضع في الشيء القليل الفائدة الكثيرة ،

وهذا هو معنى ﴿ كتاب أنزلناه مبارك ﴾ ؛ فكل كتاب له زمن محدود وعصر محدود وأمة محدودة ، أما القرآن فهو يواجه من يوم أن أنزله الله إلى أن تقوم الساعة قضايا متجددة يضع لها حلولاً . والمهم أن القرآن قد جاء على ميعاد مع طموح البشريات ، وحضارتها وارتقاءاتها في العقول ؛ لذلك كان لابد أن يواجه كل هذه المسائل مواجهة تجعل له السبق دائماً ولا يكون ذلك إلا إذا كانت فيه البركة .

وكلنا يعلم أن القرآن قد نزل على رجل أمّي ، وفي أمة أميّة ؛ ولذلك حكمة بالغة لأن معنى « أمّي » أي أنه لم يأخذ علماً من البشر ، بل هو كما ولدته أمه ، وجاءت ثقافته وعلمه من السماء .

إذن فالأمية فيه شرف وارتقاء بمصادر العلم له ونزل القرآن في أمة أمية ؛ لأن هذا الدين وتلك التشريعات ، إنما نزلت في هذه الأمة المتدنيّة المتنقلة من مكان إلى آخر وليس لها قانون بل يتحكم فيها رب القبيلة فقط ، وحين تنزل إليها هذه القيم الروحية والأحكام التشريعية فهي دليل على أن الكتاب الذي يحمل هذه القيم والأحكام قادم من السماء . فلو نزل القرآن على أمة متحضرة لقيل نقلة حضارية ، لكنه نزل على أمة لا تملك قوانين مثل التي كانت تحكم بها الفرس أو الروم

ومادام الكتاب له هذه الأوصاف التي تريح الحلق من عناء التشريع لأنفسهم ويصم كل آخر ، لذلك يأتي الأمر من الله :

﴿ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾

(من الآية ١٥٥ سورة الأنعام)

وساعة تأتي بـ « لعل » فاعلم أن فيها رجاء ، وقد ترجو أنت من واحد وتقول : لعل فلاناً يعطيك كذا ، والرجاء هنا من واحد ، ومَن يفعل العمل المرجو إنسان آخر ، وقد يفعل الآخر هذا العمل ، وقد يغضب فلا يفعله ؛ لأن الإنسان ابن أغيار ، بل ومن يدري أنه ساعة يريد أن يفعل فلا يقدر . وإذا قلت : « لعلي أفعل لك كذا » ، وهنا تكون أنت الراجي والمرجوّ في آن واحد ، ولكنك أيضاً ابن

للأعيار ، فأنت تتوقع قدرتك على الفعل وعند إرادتك الفعل قد لا تتيسر لك مثل هذه القدرة

ولماذا أنزل لحق هذا الكتاب ؟ . يأتي الحق هنا بالتمييز للأمة التي أراد لها أن ينزل فيها القرآن فيقول

﴿ أَن تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿١٥٦﴾ ﴾

فالكتاب يصحح العقائد السابقة التي نزلت على الطائفتين من اليهود والنصارى ، وإذا كنتم قد عصمتم عن دراسة التوراة والإنجيل ؛ لأنكم أمة أمية لا تعرف القراءة والكتابة ؛ لذلك أنزلنا إليكم الكتاب الكامل مخافة أن تصطادوا عذراً وتقولوا : إن أميتنا منعتنا من دراسة الكتاب الذي أنزل على طائفتين من قبلنا من اليهود والنصارى . وكأن الله أنزل ذلك الكتاب قطعاً لاعتذارهم

﴿ أَوْ تَقُولُواْ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ ۚ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا ۗ سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يَصْدِفُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾

قد يحتج المشركون من أن التوراة والإنجيل لو نزلت عليهم لكانوا أهدى من

ليهود والنصارى ، وفي هذا القول ما يعني أن أذهانهم مستعدة لتقبل الإيمان ، وقد قطع الله عليهم كل عذر فجاء لهم بالقرآن ، ويقول الحق :

﴿ فمنْ أظْلَمُ ممَّن كَذَّب بآيات الله وصدف عنها .. (١٥٧) ﴾ [سورة الأنعام]

و«صدف» من الأفعال التي تُستعمل متعدية وتُستعمل لازمة ، ومعنى «لازمة» أنها تكتفي بالفاعل ولا تتطلب مفعولاً ، فمثلاً إذا قيل لك : جلس فلان فهم أن فلاناً قد جلس ويتم لك المعنى ولا تتطلب شيئاً آخر ، لكنك إن قيل لك : ضَرَبَ زيد ، فلا بد أنك تنتظر من محدثك أن يبين لك من الذي ضُرِبَ ، أي أنت جئت بفعل يطلب شيئاً بعد الفاعل ليقع عليه الفعل وهذا اسمه فعل « متعد » أي يتعدى به الفعل إلى مفعول به .

و«صدف» فيها الخاصتان وجاء الحق بهذه الصيغة المحتملة لأن تكون لازمة وأن تكون متعدية ليصيب الأسلوب غرضين ؛ الغرض الأول : أن تكون «صدف» بمعنى انصرف وأعرض فكانت لازمة أي صدّ في ذاته ، والأمر الثاني أن تكون صدف متعدية فهي تدل على أنه يصرف غيره عن الإيمان ، أي يضل غيره ، ويقع عليه الوزر ؛ لضلال نفسه أولاً ثم عليه وزر من أضل ثانياً ، ولذلك جاء سبحانه باللفظ الذي يصلح للاثنين «صدف عنها» أي انصرف ، ضلالاً لنفسه ، وصدف غيره أي جعل غيره يصدف ويعرض فأضل غيره ، ولذلك يعذبه الله عذابين ، فيقول سبحانه :

﴿ .. سنجزي الَّذين يصْدِفُون عنْ آياتنا سُوءَ العذاب بمَا كَانُوا يصْدِفُون (١٥٧) ﴾

[سورة الأنعام]

فكأن المسألة بر تكبها . الذين صدفوا أنفسهم ، وصرفوها عن الإيمان ، ويصدفون كل من يحاول أن يؤمن . وهؤلاء هم القوم الذين أعرضوا وانصرفوا عن منهج الهدى ، أو تغافلوا في ذلك فصرفوا غيرهم عن منهج الهدى ، ولو أنهم استقرأوا الوجود الذي يعايشونه بوجدو الموت يختطف كل يوم قوماً على غير طريقه رتيبة ، فلا السن يحكم ويحدد وقت وزمن انقضاء الأجل ، ولا الأسباب تحكمه ،

ولا المرض أو العاهية تحكمه ، فالموت أمر شائع في الوجود. ومعنى ذلك أن على كل إنسان أن يترقب نهايته ، فكأنه يتساءل : لماذا إذن يصدون؟ . وماذا ينتظرون من الكون؟ أرأوا خلوداً في الكون لموجود معهم؟

ويقول سبحانه من بعد ذلك .

﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا قُلِ انتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ (١٥٨) ﴾

فهل ينتظرون من عطاءات الوجود المحيط بهم ,لا أن يأتيهم الملائكة التي تقبض الروح؟ والملائكة يأتي هنا مجملة وفي آيات أخرى يقول :

﴿ الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ فَأَلْقَوُا السَّلَمَ .. (٢٨) ﴾ [سورة النحل]

ولن يتأبى أحد على الملائكة ؛ لذلك يلقون لهم السلم وتنتهي المسألة .

ويتابع سبحانه :

﴿ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا قُلِ انتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ (١٥٨) ﴾ [سورة الأنعام]

ووقف العلماء عند هذا القول الكريم لأنهم أرادوا أن يفسروا الإتيان من الرب على ضوء الأتيان منا ، والأتيان منا يقتضي انتقالاً من مكان كان الإنسان فيه إلى مكان يكون فيه . وهذا الأمر لا يصلح مع الله ونقول. أفسرت كل مجيء على

صوء المجيء بالنسبة لك؟ بالله قل لي : ما رأيك في قوله تعالى :

﴿ وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ﴾

(من الآية ١٩ سورة ق)

كيف جاءت سكرة الموت وهي المخلوقة لله ؟ إننا لا نعرف كيف يجيء الموت وهو مخلوق ؟ فكيف تريدون أن نعرف كيف يجيء الله ؟ عليكم أن تفسروا كل شيء بالنسبة لله بما يليق بذات الله في إطار « ليس كمثله شيء » ولنتأدب ونعط العقول مقدارها من الفهم ، ونجعل كل شيء منسوبا لله بما يناسب ذات الله ؛ لأن المجيء يختلف بأقدار الجائين ، فمجيء الطفل غير مجيء الشاب ، غير مجيء الرجل المجور ، غير مجيء الفارس ، فما بالنا بمجيء الله سبحانه ؟!! إذن - إذن - أن تفهم المجيء على ضوء مجيء البشر . وأكررها دائما : عليك أن تأخذ كل شيء بالنسبة له سبحانه لا بقانونك أنت ، ولكن بقانون الذات الأعلى ، واجعل كل ما يخصه في إطار « ليس كمثله شيء » ، ولذلك قل : له سمع ليس كسمعنا ، وبصر ليس كبصرنا ، ويد ليست كأيدينا ، في إطار « ليس كمثله شيء » . وإياكم أن تسمعوا مناقشة في قوله : « يأتي ربك » . وقل إن إتيان الله ومجيئه ليس كفعل البشر ، بل سبحانه « ليس كمثله شيء » ﴿ أو يأتي ربك أو يأتي بعض آيات ربك يوم يأتي بعض آيات ربك ﴾ .

و « بعض آيات ربك » ، هي العلامات ، وقد قال صلى الله عليه وسلم . « بَادِرُوا بالأعمال سِتًا : طلوعَ الشمس من مغربها ، والدُّخَان ، ودابَّةَ الأرض ، والدَّجَّالَ ، وخُوَيْصَةَ أحَدِكُمْ وأمْرَ العامَّة »[1]

و « خُوَيْصَةُ أحدكم » تصغير : خاصة ، والمراد حادثة الموت التي تخص الإنسان ، وصغّرت لاستصغارها في جنب سائر العظائم من بعث وحساب وغيرهما وقيل . هي ما يخص الإنسان من الشواغل المتعلقة من نفسه وماله وما يهتم به .

و « أمر العامّة » أي القيامة ؛ لأنها تعم الخلائق ، أو الفتنة التي تعمي

(١) رواه أحمد ومسلم عن أبي هريرة .

وتصم ، أو لأمر الذى يستبد به العرام ويكون من قبلهم دون الخواص .

﴿ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ ﴾

(من الآية ١٥٨ سورة الأنعام)

لأن الإيمان لا يكون إلا بأمر غيبى ؛ فكل أمر مشهدى مدرك بالحواس لا يسمى إيماناً ؛ فأنت لا تقول : أنا أؤمن بأنى أقرأ الآن فى كتاب خواطر الشيخ الشعراوى حول آيات القرآن الكريم ؛ لأنك بالعمل تقرأ هذه الخواطر الآن ، وأنت لا تقول أنا أؤمن بأن النور يضىء الحجرة ؛ لأن هذا أمر مشهدى ، وليس أمراً غيبياً والإيمان يكون دائما بأمر غيبى ، ولكن إذا جاءت الآيات فإننا ننتقل من الإيمان بالأمر الغيبى إلى الإيمان بالأمر الحسى ، وحينئذ لا ينفع الإيمان من الكافر ، ولا تقبل الطاعة من صدقة أو غيرها من أنواع البر والخير بعد أن تبلغ الروح الحلقوم وتقول : لفلان كذا ولفلان كذا ، وقد كان لفلان . هذا لا ينفع ؛ لأن المال لم يعد مَالَك ، بل صار مال الورثة ، كذلك الذى لم يؤمن وبعد ذلك رأى الآيات البينة التى قال الشارع عنها : إنها ستحدث بين يدى الساعة أو قبل مجىء الساعة . وساعة ترى هذه الآيات لن يُقبل منك أن تقول - آمنت ؛ لأن الإيمان إنما يكون بالأمر الغيبى ، وظهور الآيات هو أمر مشهدى فلن يُقبل بعده إعلان الإيمان . والحق هو القائل :

﴿ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ﴾

(من الآية ١٥٨ سورة الأنعام)

أى أن الإيمان يجب أن يكون سابقاً لظهور هذه الآيات ، وإلا يكون المانع له من العمل القصور ، كأن يكون الإنسان - والعياذ بالله - مجنوناً ولم يفق إلا بعد مجىء العلامة ، أو لم يَبْلُغ إلا بعد وجود العلامة فهذا هو من ينفعه الإيمان

وقد عرض الحق لنا من هذه الصور ما حدث فى التاريخ السابق ، فهو القائل :

﴿ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾

[سورة يونس]

وماذا كان رد الله عليه ؟ لقد قال سبحانه :

﴿ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ .. ﴿٩١﴾ ﴾ [سورة يونس]

إذن : إذا بلغت الروح الحلقوم ، وهذه مقدمات الموت فلا ينفع حينئذ إعلانك الإيمان .

ويذيل الحق الآية بقوله :

﴿ .. ٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٥٨﴾ ﴾ [سورة الأنعام]

هم منتظرون الخيبة ونحن منتظرون لفلاح .

ويعود الحق بعد ذلك :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾ ﴾

هذه الآية تشرح الآية التي سبقت خواطرنا عنها ، وهي قوله الحق :

﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾ ﴾ [سورة الأنعام]

والذين فرقوا دينهم نسوا أن الدين إنما جاء ليجمع لا ليفرق ، والدين جاء ليوحد مصدر الأمر والنهى فى الأفعال الأساسية فلا يحدث بيننا وبين بعضنا أى خلاف ، بل الخلاف يكون فى المباحات فقط ؛ إن فعلتها فأهلاً وسهلاً ، وإن لم تفعلها فأهلاً وسهلاً ، ومالم يرد فيه أفعل ولاتفعل ؛ فهو مباح

إذن الذين يفرقون فى الدين إنما يناقضون منهج السماء الذى جاء ليجمع الناس على شىء واحد لتتساند حركات الحياة فى الناس ولاتتعاند ، وإذا كان ذلك هوى ، وهذا له هوى ، وذلك له هوى سوف تتعاند الطاقات ، والمطلوب والمفروض أن الطاقات تتساند وتتعاضد .

والشيع هم الجماعة التى تتبع أمراً ، هذا الأمر يجمعهم ولو كان ضلالا

وهناك تشيع لمعنى نافع وخير ، وهناك تشيع لعكس ذلك ، والتشيع على إطلاقه هو أن تجتمع جماعة على أمر ، سواء أكان هذا الأمر خيراً أم شرا .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ ۚ (١٥٩) ﴾

[سورة الأنعام]

إذن هم بعيدون عن منهجك يامحمد ، ولايصح أن ينسبوا إلى دينك ؛ لأن الإسلام جاء لإثبات القيم للوجود مثل الماء لإثبات حياة الوجود ونعرف أن الماء لايأخذ لوناً ولا طعماً ولا رائحة ، فإن أخذ لوناً أو طعماً أو رائحة فهو يفقد قيمته كماء صاف . وكذلك الإسلام إن أخذ لوناً ، وصار المسلمون طوائف ، فهذا أمر يضر الدين ، وعلينا أن نعلم أن الإسلام لون واحد

﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (١٥٩) ﴾ [سورة الأنعام]

إن شاء سبحانه عاجلهم بالهزيمة أو بالعذاب ، وإن شاء أجلهم إلى يوم القيامة

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾ ﴾

هناك « حسن » ، و « حسنة » ولا تقل : إن حسنة هي مؤنث حسن ، لأن فيها تاء . كأنها تاء التأنيث ، ولكن اسمها « تاء المبالغة » تأتي على اللفظ الذي للمذكر ، مثلما تقول : « فلان علامة » ، و « فلان راوية للشعر » وفلان نسّابة هذه هي تاء المبالغة .

والحسنة هي الخير الذي يورث ثواباً ، وكلما كان الثواب أخلد وأعمق كانت الحسنة كذلك . وإذا قال الحق سبحانه وتعالى : ﴿ من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ﴾ .

فـ « أمثالها » جمع « مثل » ، والمثل مذكر ، والقاعدة تقول : حين يكون المعدود مذكراً نأتي له بالتاء ، وحين يكون مؤنثاً نحذف التاء لأن أصل الأعداد مبني على التاء ، لأنك عندما تعد تقول واحد ، اثنان ثلاثة إلى عشرة فأصل الأعداد مبني على التاء ، وإذا استعملته مع المؤنث تخالف بحذف التاء فيه ، وإن استعملت العدد مع الأصل وهو لمذكر ، تستعمله على طبيعته فتقول : « ثلاثة رجال » . وإذا أردت أن تتكلم عن الأنثى ، تقول : « ثلاث نسوة » ، والحق هنا يقول : ﴿ فله عشر أمثالها ﴾ ، و « مثل » ـ كما قلنا ـ مذكر . والحق لم يجعل الأصل في العطاء هو « المثل » ، بل جعل الأصل هو الحسنة .

﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ﴾

(من الآية ١٦٠ سورة الأنعام)

وهذا هو مطلق الرحمة والفضل . ولذلك ورد الحديث القدسي .

عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال - فيما يروي عن ربه تبارك وتعالى - « إن ربكم عز وجل رحيم . من هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة ، فإن عملها كتبت له عشراً إلى سبعمائة إلى أضعاف كثيرة ، ومن هم بسيئة فلم يعملها كتبت له حسنة . فإن عملها كتبت له واحدة أو يمحوها الله عز وجل ولا يهلك على الله إلا هالك »(١) .

ونعرف أن الحق يجزي الحسنة بعشر أمثالها ويضاعف ذلك إلى سبعمائة ضعف ، لأن كل فعل تلازمه طاقة من الإخلاص في نفاذه ، فكأن الحق قد وضع نظاماً بأن الحسنة بعشر أمثالها ، ثم بالنية المخلصة تبلغ الأضعاف إلى من شاء الله . وقد وضع الحق هذا النظام ؛ لأنه جل وعلا يريد للحسنة أن تُفعل ، وينتفع الغير بها ، فإن كان فاعلها حريصاً على الأجر الزائد فهو يقصدها بنية مخلصة ، ويقول الحق لنا :

﴿ مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴾

(سورة الحديد)

ويقول أيضاً

﴿ مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُطُ ﴾

(من الآية ٢٤٥ سورة البقرة)

ويحدد هنا جزاء الحسنة بأن ثوابها عشر أمثالها ، ونية معطي الحسنة هي التي يمكنها أن تضاعفها إلى سبعمائة أو أزيد . والحق سبحانه وتعالى يعطي مثلاً لذلك في قوله تعالى :

﴿ مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ ﴾

(من الآية ٢٦١ سورة البقرة)

---

(١) رواه أحمد والبخاري ومسلم والنسائي .

وإذا كانت الأرض وهي مخلوقة لله تعطيها أنت حبة فتعطيك سبعمائة فمادا يعطي خالق الأرض؟ إن عطاءه غير محدود ولا ينفد، ولذلك يقول سبحانه:

﴿ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ﴾

(من الآية ٢٦١ سورة البقرة)

ويتابع الحق سبحانه:

﴿ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾

(من الآية ١٦٠ سورة الأنعام)

مادام لا يجزى إلا مثلها فهم لا يظلمون أبداً.

ويقول الحق بعد ذلك:

﴿ قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ ﴾

و «ديناً قيماً» أي تقوم عليه مسائل الحياة، وهو قائم بها. و «قيماً» مأخوذة من «القيمة» أو من «القيام» على الأمر، وقام على الأمر أي باشره مباشرة من يصححه، كذلك جاء الدين ليصلح للناس حركة حياتهم بأن أعطاهم القيم، وهو قائم عليهم أيضاً: ﴿ ديناً قيماً ملة إبراهيم حنيفا ﴾.

وفي كل أمر مهم له خطره ومرتله يأتي لنا الحق بلمحة من سيرة سيدنا إبراهيم عليه السلام، لأنه صلوات الله وسلامه على نبينا وعليه فيه القدر المشترك الذي يجمع كفار مكة، وأهل الكتاب الذين يتحاكمون فيه. فقالت اليهود: إبراهيم كان يهودياً، وقالت النصارى: إن إبراهيم كان نصرانياً، وربنا يقول لهم ولنا:

﴿ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا ﴾

(من الآية ٦٧ سورة آل عمران)

واليهودية والنصرانية جاءتا من بعده . أما بالنسبة للجماعة الأخرى ففى بيتهم ، وكل حركات حياتهم ، وتجارتهم ونفعهم من آثار إبراهيم عليه السلام ما هو ظاهر وواضح . يقول الحق :

﴿ رَبَّنَآ إِنِّيٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ ﴾

(من الآية ٣٧ سورة إبراهيم)

فسيدنا إبراهيم هو الذى رفع القواعد من البيت الحرام ، وهو الذى عمل لهم مهابة جعلت تجارتهم تذهب إلى الشمال وإلى الجنوب ولا يتعرض لها أحد ، وجاءت لهم بالرزق الوفير . وحين يقول الحق :

﴿ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾

(من الآية ١٦١ سورة الأنعام)

المقصود هو الدين الذى تعيشون فى كنف خيرات آثاره ، و « الحنف » هو اعوجاج فى القدم . وبطبيعة الحال لم يكن دين إبراهيم مائلاً عن الحق والصواب بل هو مائل عن الانحراف دائم الاستقامة . ومعروف أن الرسل إنما يجيئون عند طغيان الانحراف ، فإذا جاء إبراهيم مائلاً عن المنحرف ؛ فهو معتدل

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ ﴾

و « صلاتى » مقصود بها العبادة والركن الثانى فى الإسلام الذى يتكرر كل يوم خمس مرات ، وهى الركن الذى لا يسقط أبداً ، لأن شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ـ كما قلنا سابقاً ـ يكفى أن تقولها مرة فى العمر ، وقد يسقط عنك الصوم إن كنت لا تستطيع ، وقد لا تزكى لأنه ليس لك مال ، وقد لا تستطيع

الحج ، وتبقى الصلاة التي لا تسقط أبداً عن العبد . وهي ـ كما نعلم ـ قد أخذت التكليف حظها من الركنية .

إن كل تكليف من التكاليف جاء بواسطة الوحي إلا الصلاة فإنها جاءت بالمباشرة ، تلقاها رسول الله صلى الله عليه وسلم من ربه دون واسطة . وحين يقول الحق : « إن صلاتي » ، فهو يذكر لنا عمدة الأركان والتي اشتملت على كل الأركان كما أوضحنا سابقاً . حتى إن الإنسان إذا كان راقداً في مرض ولا يستطيع القيام فعليه أن يحرك رأسه بالصلاة أو يحطر أصال الصلاة على قلبه . ويقول الحق : ﴿ ونسكي ﴾ . و« النسك » يطلق ويراد به كل عبادة ، والحق يقول :

﴿ لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ ﴾

(من الآية ٦٧ سورة الحج)

« النسك » إذن هو عبادة ويطلق بالأخص على أفعال كثيرة في الحج ، مثل نسك الطواف ونسك السعي ، ونسك الوقوف بعرفة ، ونسك الرمي ، ونسك الجمار ، وكل هذه اسمها مناسك ، والأصل فيها أنها مأخوذة من مادة « السبيكة » وهي السبيكة من الفضة التي تصهر صهراً يخرج منها كل المعادن المختلطة بها حتى تصير خالصة في الماء . فسميت العبادة نسكاً لهذا ، أي يجب أن تصفى العبادة لله كما تصفى سبيكة الفضة من كل المعادن التي تخالطها . ﴿ قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي ﴾ .

وهنا أمران اختياريان ، وأمران لا اختيار للإنسان فيهما ، الصلاة والمناسك كلاهما داخل في قانون الاختيار ، لكن المحيا والممات لا يدخل أي منهما في قانون الاختيار ، إنهما في يد الله ، والصلاة والنسك أيضاً لله ، ولكن باختيارك ، وأنت لا تصلي إلا لأنك آمنت بالأمر بالصلاة ، أو أن الجوارح ما فعلت كذا إلا لله . إذن فأنت لم تعمل شيئاً من عندك أنت ، بل وجهت الطاقات المخلوقة لله لتأدية المنهج الذي أنزله الله إذن إن أردت نسبة كل فعل فانسبه إلى الله

ولماذا جاء بالصلاة والنسك وكلاهما أمر اختياري ؟ ؛ لأنه إن كان في ظاهر الأمر لكم اختيار ، فكن هذا الاختيار تابع من إيجاد الله لكم مختارين . وهو الذي وضع

امتهج فجعلكم تصلون ، أو : إن صلاتي لله ونسكي لله ، أي أن تخلص فيها ، ولاتشرك فيها ، ولاتصلي مرائياً ، ولاتصنع نسكاً مرائياً ، ولا تذهب إلى الحج من أجل أن يقولوا لك : « الحاج فلان» أبداً ، بل اجعلها كلها لله ؛ لأنك إن جعلتها لغيره فليس لغيره من القدرة على الجزاء مايجازيك الله به ، إن جعلتها لغيره فقد احترت الخيبة في الصفقة ؛ لذلك اجعل الصلاة والنسك للذي يعطيك الأجر

﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) ﴾ [سورة الأنعام]

والحياة هبة الله ، وإياك أن تصرف قدرة الحياة ومظاهر الحياة في غير مايرضي الله فينبغي أن يكون حيك لله لالشهوتك ، ومماتك لله لالورثتك ، وتذكر ذلك جيداً لأن الحق يقول بعد ذلك :

﴿ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ (١٦٣) ﴾

وهذا القول يدل على أن بعض الخلق قد يجعل لله شريكاً في العبادة فيجعل صلاته ظاهرية رياء ، ومناسكه ظاهرية رياء ، وحياته يجعلها لغير واهب الحياة . ويجعل حركاته كلها لغير واهب الحياة ، ويجعل مماته للورثة وللدنيا ؛ لذلك عليك أن تتذكر أن الله لاشريك له .

﴿ .. وبذلك أُمِرْتُ وأنا أول المسلمين (١٦٣) ﴾ [سورة الأنعام]

وهذا أمر من الله لرسوله ، وكل أمر للرسول هو أمر لكل مؤمن برسالته ﷺ ، والأوامر التي صدرت عن الرب هي لصالحك أنت . فسبحانه أهل لأن يُحب ، وكل عبادة له فيها الخير والنفع لنا ، وأنا لاأدعيه لنفسي من هو عطاء من ربكم وربي الذي أمر . وبذلك فالحق سبحانه وتعالى حينما رأى أن رسوله ﷺ مشغول بأمر أمته أبلغنا :

﴿ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾

(من الآية ١٢٨ سورة التوبة)

وفي كل شيء كان صلى الله عليه وسلم يقول . أمتي أمتي أمتي ، وأراه الحق سبحانه وتعالى أن يطمئن رسوله عن محبوبة أمته فقال له : « إنا سنرضيك في أمتك ولا نسوؤك »(١)

والحديث بتمامه كالآتي :

عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم تلا قول الله عز وجل في إبراهيم ﴿ رب إنهن أضللن كثيراً من الناس فمن تبعني فإنه مني ﴾ الآية .

وقال عيسى عليه السلام . ﴿ إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم ﴾ .

فرفع يديه وقال : « اللهم أمتي أمتي » وبكى ، فقال الله عز وجل : يا جبريل اذهب إلى محمد وربك أعلم فسله ما يبكيك ؟ فأتاه جبريل عليه الصلاة والسلام ، فسأله وأخبره ورسول الله صلى الله عليه وسلم بما قال وهو أعلم ، فقال عز وجل : « يا جبريل اذهب إلى محمد فقل إنا سنرضيك في أمتك ولا نسوؤك »(٢)

ونزل قوله الحق :

﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ﴿٥﴾ ﴾

(سورة الضحى)

روى عن علي رضي الله عنه قال : قال صلى الله عليه وسلم : « إذن لا أرضى وواحد من أمتي في النار »(٣) .

---

(١) رواه مسلم .

(٢) رواه مسلم في كتاب الإيمان

(٣) غرائب القرآن ورغائب الفرقان للنيسابوري

ويذيل الحق الآية بقوله: ﴿وأنا أول المسلمين﴾

وحين يقول ﷺ: وأنا أول المسلمين في أمته فهذا قول صحيح صادق لأنه قبل أن يأمر غيره بالإسلام آمن هو بالإسلام، وكل رسول أول المسلمين في أمته، لكن هناك أناس يقولون لنأخذ العبارة هكذا، ويقول: إن الرسول ﷺ له منزلة بين رسل الله أجمعين تتجلى في أنه أخذ العهد على غيره له، ولم يؤخذ العهد عينة لأحد. فإن كان أول المسلمين في أمته، فهو أول المسلمين بين الرسل أيضاً، وإن لم تأخذها حدثاً خذها للمكانة. وأضرب هذا المثل. هب أن كلية الحقوق أنشئت مثلاً منذ كذا وعشرين، لكل سنة لها أول من التلاميذ ثم جاء واحد وحصل على ١٠٠/ هذا العام فتقول عنه إنه الأول على كلية الحقوق من يوم أن أنشئت.

ويقول الحق بعد ذلك:

﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٦٤﴾﴾

معنى الرب أنه هو الذي تولى التربية، وله السيادة، وكل شيء في الوجود مربوب له، فكيف أحد شيئاً من الأشياء التي هو ربها وخالقها يكون شريكاً له؟!! إن ذلك لا يصح أبداً. ﴿قل أغير الله أبغي ربًا﴾.

وهذا إنكار يأتي في صورة استفهام من كل سامع وكأن الحق يقول لكل ما أعرض هذا على ذهنك عرضاً غير متحيّز، وأنا سأتمنك على الجواب. ولا تقل

ذلك إلا وقد تأكد أن الجواب يكون : لا ، فلو كان الجواب يحتمل هذه أو تلك لما آمنك على الجواب . وكأنه يقول : إن أى عاقل يجيب على هذا السؤال سيوافقنى فى أنه لا ينبغى أن يتخذ غير الله ربًا .

﴿ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ ۚ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ﴾

(من الآية ١٦٤ سورة الأنعام)

و «أبغى» أى أطلب ، و«تكسب» مأخوذة من مادة «كسب» ، و«اكتسب» ، و«كسب» دائماً تأتى فى الخير - كما علمنا من قبل - ، و«اكتسب» تأتى فى الشر . لكنْ هناك أناس يعتادون على فعل السيئات ولم تعد تكلفهم شيئاً ، فكأنها لسهولة ذلك عليهم تعتبر كسباً ومن الحمق أن تقول هذا كسب ، وهو عليك وليس لك ؛ لأنك حين تنظر إلى انتسمية نفسها تفهم أنها ليست رصيداً لك بل عليك .

﴿ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾

(من الآية ١٦٤ سورة الأنعام)

والوزر هو الحمل الشاق ، وإن اشتق منه شىء فإن المشقة والصعوبة تلازمه ؛ كلكلمة «وزير» ، والحق هو القائل :

﴿ وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِى ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ﴿٣١﴾ ﴾

(سورة طه)

كأن موسى عليه السلام عرف أن حمل الرسالة إلى اليهود عملية شاقة فقال له : أعطنى أخى يساعدنى فى هذه المشقة .

والحق هو القائل :

﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٣﴾ ﴾

(سورة الشرح)

وكان النبى عليه الصلاة والسلام فى أول استقباله للوحى قد عانى من وقع هذه

العمية وكان أمرها شاقاً عليه ؛ لأن المسألة تقتضى التقاءات مَلَكية ببشرية ، ولابد أن يحدث تفاعل ، وهذا التفاعل الذى كان يظهر على رسول الله صلى الله عليه وسلم فيحمر وجهه ، ويتصبب منه العرق ، وبعد ذلك يقول : رملونى رملونى دثرونى ، وإن كان قاعداً وركبته على ركبة أحد بجانبه فيشعر جره بالثقل ، وإن كان على دابة تنط وتثن تعباً ، لأن التقاء الوحى برسول الله صلى الله عليه وسلم يحتاج إلى أمرين . إما أن يتحول الوحى وهو حامل الرسالة إلى بشرية مماثلة لبشرية الرسول ، وإما أن الرسول ينتقل إلى ملائكية تناسب مع استقباله للملك . وهكذا كان التقوه بالملكية يتطلب انفعالاً وتفاعلاً .

لكن لما أنس صلى الله عليه وسلم بالوحى عرف حلاوة استقباله نسى المتاعب ، ولذلك عندما فتر الوحى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم اشتاق إليه . وكان الوحى من قبل ذلك يتعبه ، ويجهده ، فأراد الحق سبحانه وتعالى أن يبقى فى نفسه حلاوة ما أوحى به إليه ، وبهذا نفسه وترتاح ويشتاق إلى الوحى ، فإذا ما استقبل الوحى بشوق فلن يتذكر المتاعب .

﴿ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾

(من الآية ١٦٤ سورة الأنعام)

إذن مادة الوزر هى الثقل بمشقة ، أى لا يحمل إنسان مشقة ثقيلة عن آخر ؛ فالمسئولية لا تتعدى إلا إذا تعدى الفعل ، وعرفت من قبل الفارق بين من ضل فى ذاته ، ومن أضل غيره ليحمل أوزاره مع أوزارهم لتعديه بإضلالهم . وسنعود جميعاً إلى ربنا ليبئنا بما كنا فيه نختلف .

ويقول جل وعلا بعد ذلك .

﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ

بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٥﴾

وهناك قول كريم فى اية أخرى :

﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾

(من الآية ٣٩ سورة فاطر)

وهنا يقول الحق : ﴿ خلائف الأرض ﴾ .

ومعنى « خليفة » أى الذى يخلف غيره : فإما أن يخلفه زماناً ، وإما أن يخلفه مكاناً . وخلفة الزمان أن يأتى عصره بعد عصره ، ويومه بعد يومه ، وخلفة المكان أى أن يكون جالساً ثم يرحل ليأتى آخر ليستقر مكانه ، وانظر إلى كل قواعد الحياة بالنسبة للإنسان تجده فى شبابه قوياً ، ثم يرحل عنه الشباب ليأخذه آخره ، ويذهب إلى الشيخوخة وكذلك نجد إنساناً يملك مكاناً ثم يتركه ويأتى واحد اخر يملكه . أو أن الحق سبحانه وتعالى أراد من الخلافة ، لا خلافة بعضنا لبعض ولكن خلافة الإنسان لرب الإنسان فى الأرض ؛ لأن كل شىء منفعل لله قهراً ، والحق سبحانه وتعالى منح بسعة عطائه ، فجعل بعض الأشياء تنفعل لبعضها هبة منه سبحانه ، فإذا أوقدت النار - على سبيل المثال - تنفعل لك ، وإذا حرثت فى الأرض ووضعت فيها البذور تنفعل لك ، وإذا شربت ترتوى ، وإذا أكلت تشبع من أين أخذت كل ذلك ؟

إنك قد أخذته من أن الحق الذى سخّر لك ما فى الكون ، وجعل أسباباً ومسببات ، فكأنك أنت خليفة إرادات ؛ لكى يثبت لنا سبحانه أنه يفعل ما يريد ، فعلينا أن نأخذ هذه القضية قضية مسلمة ، وإن أردت أن تختبر ذلك فانظر إلى أى إنسان ولو كان كافراً ويريد أن يقوم من مكانه ، وتنفعل له جوارحه فيقوم ، فأى جارحة أمرها أن تفعل ذلك ؟ . إنه لا يعرف إلا أنه بمجرد أنه أراد أن يقوم قد قام وحتى لا تفهم أنك أحدثت كل ذلك بشطارتك فهو يجعل بعضاً من الأمور

مشعاً عالمياً ، مثل الموت والحياة إنهما أمران ، لايختلف فيهما الإنجليزى عن الفرنسى ، عن العربى ، وكذلك الضحك والبكاء ، وهل هناك فرق بين ضحكة إنجليزية ، أو ضحكة شيوعية أو ضحكة رأسمالية؟ طبعاً لا ، فكلها ضحك وهو لغة عالمية ، ولذلك قال

﴿ وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ ﴾ [سورة النجم]

وسبحانه جاء بأمر مشترك موجود فى الدنيا كلها ، فأنت تكلم وتعمل على الصورة والكيفية التى تريدها ، لكنك مهما تصنعت فهو سبحانه الذى يضحك وأنت حين تود مجاملة أحد وتضحك له فنحن نعلم أن ضحكتك صناعية

والحق يوضح لك : إن زمام كونى فى يدى ، أجعل القوم مختلفين فى أشياء ، وأجعلهم مرغمين ومتحدين على رغم أنوفهم فى أشياء ؛ فأنا الذى أضحك وأبكى ، ولايوجد بكاء إنجليزى أو بكاء فرنساوى أو بكاء ألمانى ، وكل البشر شركاء فى مثل هذه الأمور .

﴿ وَهُوَ الَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ الْأَرْضِ .. ﴿١٦٥﴾ ﴾ [سورة الأنعام]

إن إرادتك على أعضائك ، وعلى جوارحك -أيها الإنسان- موهوبة لك من الواهب الأعلى والمريد الأعلى ، وسبحانه يسلب ذلك من بعض الأفراد ، فيأمر المخ إياك أن ترسل إشارة لتلك الجارحة لتفعل . فيصاب هذا الإنسان بالشلل .

ولو كان الأمر شطارة من الإنسان لقاوم ذلك

أنتم إذن - خلائف لأرض ؛ تنفعل لكم الأشياء بقدر ماأراد الله أن تنفعل لكم ، فإذا سلب انفعالها عنكم فلكى يثبت أنكم لم تسخروها بقدرتكم ، بل به هو ، إن شاء أطلق الخلافة ، وإن شاء قيد الخلافة ﴿ ورفع بعضكم فوق بعض درجات ﴾

كان من الخلافة أننا لا نكون متماثلين متطابقين ، بل أراد سبحانه أن نكون متكاملين في المواهب ، وفي الكماليات ؛ لأن الناس لو كانوا صورة مكررة في المواهب ، لفسدت الحياة ، فلا بد أن تختلف مواهبنا ، لأن مطلوبات الحياة متعددة ، فلو أصبحنا كلنا أطباء فالأمر لا يصلح ، ولو كنا فصالة لفسد الأمر ، وكذلك لو كنا مهندسين أو فلاحين إذن فلا بد من أن تتحقق إرادة الله في قوله سبحانه .

﴿ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ .. (١٦٥) ﴾ [سورة الأنعام]

أي أن البعض قد رُفِعَ ، والبعض الآخر رُفِعَ عليه ، فمن هو البعض المرفوع ؟

ومن هو البعض المرفوع عليه؟ . إن كل واحد فيكم مرفوع في جهة مواهبه ، ومرفوع عليه فيما لا مواهب له فيه ؛ لأن الحق يريد أن يتكاتف المخلوقون ، ولا ينشأ التكاتف تفضلاً ، وإنما ينشأ لحاجة ، فلا بد أن تكون إدارة المصالح في الكون اضطراراً ، وهذه هي هندسة المكون الأعلى سبحانه التي تتجلى في أنك وضعت حريصة لمن دخلوا معك في مرحلة التعليم الابتدائي . ومن ترك منهم الدراسة ومن استمر ليدخل الدراسة الإعدادية إنك تجدهم أقل ، ومن درس في المرحلة الثانوية أقل ، ومن تعلم التعليم العالي أقل ، ومن نال الدكتوراه أقل

وهكذا نجد أن البعض يتساقط من التعليم لأن هناك أكثر من مهمة في الكون لا تحتاج إلا إلى حامل الابتدائية فقط ، أو حامل الإعدادية ، أو إلى حامل شهادة إتمام الدراسة الثانوية ، ولو ظل كل واحد منهم في التعليم العالي ، فلن نجد لتلك المهام أحداً لذلك جعل الله التكاتف في الكون احتياجاً لا تفضلاً .

والحظ جيداً أن الإنسان إذا عضّه جوع بطنه أو جوع عياله فهو يقبل أي عمل ، وإن رضي بقدر الله فيما وضعه فيه ، ولم يحقد على سواه فسيتقن هذا العمل ، وسيتفوق فيه وسيرزقه الله الرزق الحلال الطيب . ولذلك قال الإمام علي قيمة كل امرئ ما يحسنه ، فإن أحسن الإنسان عمله ، فهو إنسان ناجح في الوجود .

وهكذا أراد الحق سبحانه وتعالى ألا يجعلنا أشخاصاً مكررين ، ولكن جعلنا متفاوتين ، فرفع بعضاً على بعض ، وكل منا مرفوع فيما يجيد ، ومرفوع

عليه فيما لايجيد ، حتى يحتاج الإنسان منا إلى غيره ليؤدى له العمل الذى لايجيده وبذلك يرتبط العالم ارتباط مصلحة وحاجة لا ارتباط تفضل

﴿ ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فى ما ءاتىكم .. ﴿١٦٥﴾ ﴾ [سورة الأنعام]

كأن هذا الرفع هو اختبار للبشر فيما أعطاهم الله من مواهب . ليعلم علم الإلزام للعبد ؛ فسبحانه يعلم أزلاً كل مايصدر عن العبد ، ولكنه يترك للعبد فرصة أن يؤدى العمل ليكون ملتزماً بما فعل . وتكون حجة على العبد . وحينما يقول الحق :

﴿ ليبلوكم ﴾ فالمقصود ليختبركم اختبار إقرار على نفوسكم ، لا إخباراً له .

﴿ .. ليبلوكم فى ما ءاتاكم إن ربك سريع العقاب وإنه لغفور رحيم ﴿١٦٥﴾ ﴾ [سورة الأنعام]

وسبحانه «سريع العقاب» ، وإياك أن تستطيء الآخرة ؛ فالثواب والعقاب سيأتى بعد أن تنتهى وتموت وليس للموت سبب ؛ فكل إنسان عرضة لأن يموت ، وبذلك تكون قيامته قد قامت ، وإن قامت قيامة الإنسان فمن يقوم بأى عمل آخر إذن فسبحانه سريع العقاب . ولكن البعض من القوم يغريهم حلم الله ويستبطئون الآخرة . لذلك يقول أحد العارفين اجعل شكرك لمن لاتنقطع نعمه عنك ، واجعل طاعتك لمن لاتستغنى عنه ، واجعل خضوعك لمن لا تخرج عن ملكه وسلطانه .

إذن فكل صفة من صفات الحق يتجلى ويظهر أثرها فى المخلوق هبة من الله له ، فأنت إذا أردت أن تقف ، مثلاً ، لاتعرف ماهى العضلات التى تحركها لتقف ، ولكنك بمجرد إرادتك أن تقف تقف ، وذلك مظهر لإرادة الله إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون

ومن هنا حلائف فلابد أن تتكامل ولاتتكرر ، بمعنى أن كل واحد فيه موهبة تنقص من الآخر ، وفى الآخر موهبة تنقص فى غيره ، ليضطر كل مخلوق فى الأرض أن يتعاون مع الغير ، ليأخذ ثمرة مواهب غيره ، ويعطى هو ثمرة مواهبه ولا يريد الحق منا أن نعطى ثمرات المواهب تفضلاً ، وإنما يريد أن يجعلها حاجة فأنت تحتاج إلى موهبة من لا موهبة لك فيه ، إنك تحتاج إلى الغير ، وهو كذلك أيضاً يحتاج إلى عملك

راجع أصله وخرج حديثه الدكتور أحمد عمر هاشم نائب رئيس جامعة الأزهر

وحين يستخلفنا الله تبارك وتعالى بهذه الصورة فبعضنا فى ظاهر الأمر يكون أعلى من بعض ، لذلك يوضح سبحانه : أنا فضلت بعضكم على بعض ، لكنى لم أفضل طائفة لأجعل طائفة مفضولاً عليها ، ولكن كلٌّ مفضل فى شىء لأن له فيه مواهب ، ويكون مفضلا عليه فى شىء آخر لا مواهب له فيه ، وهكذا يتساوى الناس جميعا .

إننا جميعاً عيال الله ، وليس أحد منا أولى بالله من أحد ؛ لأنه سبحانه لم يتخذ صاحبة ولا ولداً ؛ ولذلك إن حاولت إحصاء المواهب فى البشر وتوزيعها على الخلق جميعاً لوجدت أن مجموع كل إنسان يساوى مجموع كل إنسان آخر ، ولكن أنت تأخذ فى موهبة ما تفوق ، وفى الموهبة الأخرى لا تجد نفسك قادراً عليها ، وفى موهبة ثالثة قد تقدر عليها لكنك لا تحبها ، واجمع الدرجات كلها فى جميع المواهب ستجد أن كل إنسان يساوى الآخر ، ولا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى .

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ ﴾

(من الآية ١٦٥ سورة الأنعام)

إذن فكل واحد مما يقدر أن يقول . أنا مرفوع ، ولكن عليه ألاّ يغتر ؛ لأنه مرفوع عليه أيضاً . والتوازن يأتى من هذه الناحية ، فلا غرور برفعتك فى درجة ، ولا مذلة بانخفاضك فى درجة ؛ لأن هذا مراد الله وذلك مراد له ـ سبحانه ـ والذى يحترم قدر الله فى توزيع مواهبه على الخلق يعطيه الله خير موهبته ، فلا يتميز ذو موهبة أخرى عليه أبدا

ولكن أينجح الناس جميعاً فى هذا ؟ . لا ، فهناك أناس يتساقطون ، وهناك من يرى واحداً أغنى منه وهو فقير ، فيبدأ فى الغل والحقد والحسد ، ونقول له : انظر إلى فوقك فقد تكون أقوى منه ، وقد تكون أسعد منه فى أمور كثيرة خذ الموهبة التى أعطاها الله لك ، والموهبة التى أعطاها لغيرك وستجد مجموع كل إنسان يساوى مجموع كل إنسان ، فالذى ينجح فى هذه المعادلات التفاضلية يكون له من الله ثواب . فيتجاوز له سبحانه عن بعض سيئاته ، ويغفر له . والذى لا يحترم قدر الله فى خلق الله يعاقبه الله ؛ لذلك أوضح سبحانه : أنا أبلوكم وأختبركم ، فمن ينجح

فله غفران ورحمة ، ومن لا يسجح فله عقاب ، ولا تظنوا أن عقابي بعيد ؛ لأن ما بين الإنسان والعقاب أن يموت ، وليس هناك سبب معروف للموت ؛ فمن الممكن أن يموت الإنسان لوقته ، فيبدأ عقابه.

﴿ .. إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٥﴾ ﴾ [سورة الأنعام]

وبذلك ختمت سورة الأنعام ، التي استهلها الله بقوله سبحانه - ﴿الحمد لله﴾.

وختمها بقوله : ﴿وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾

فالحمد لله في الأولى.

والحمد لله في الآخرة.

سورة الأعراف
مكية

قبل أن نبدأ خواطرنا فى سورة الأعراف لابد أن نلاحظ ملاحظة دقيقة فى كتاب الله ، الله يقول :

﴿ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

(من الآية ١٦٥ سورة الأنعام)

ونقرأ الكلمة الأخيرة فى سورة الأنعام « رحيمٌ » ، ونجدها مبنية على الوصل ؛ لأن آيات القرآن كلها موصولة ، وإن كانت توجد فواصل ايات ، إلا أنها مبنية على الوصل ، ولذلك تجد ﴿ غفور رحيم ﴾ وعليها الضمة وبجوارها ميم صغيرة ؛ لأن التنوين إذا جاء بعده باء ، يقلب التنوين ميماً ، فالميم الصغيرة موجودة على رحيم ، قبل أن تقرأ ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ ، وتصبح القراءة :

« غفور رحيم » « بسم الله » .

وكل آيات القرآن تجدها مبنية على الوصل ، فكأن القرآن ليس أبعاضاً . وكان من الممكن أن يجعلها سكوتاً ، وأن يجعل كل آية لها وقف ، لا ، إنه سبحانه أراد القرآن موصولاً ، وإن كان فى بعض الآيات إقلاب ، وفى بعضها إدغام ، وهذا بغُنّة ، وهذا بغير غُنّة ، ويقول الحق :

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ المص ﴿١﴾ ﴾

وفى هذه الآية فصل بين كل حرف ، ونقرأها : « ألف » ثم نسكت لنقرأ « لام » ثم نسكت لنقرأ « ميم » ثم نسكت لنقرأ « صاد » . وهنا حروف خرقت القاعدة لحكمة ؛ لأن هذه حروف مقطعة ، مثل « الم ، حم ، طه ، يس ، ص ، ق » وكلها مبنية على السكون مما يدل على أن هذه الحروف وإن خيل لك أنها كلمة واحدة ، لكن لكل حرف منها معنى مستقل عند الله ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« من قرأ حرفاً من كتاب الله فله حسنةٌ ، والحسنة بعشر أمثالها ، لا أقول ألم حرف ، ولكن ألِفٌ حرف ، ولامٌ حرف ، وميمٌ حرف »[1] .

والرسول ﷺ أشار إلى أن هذه الحروف بها أمور استقلالية ، ولا تكون كذلك إلا إذا كانت لها فائدة يحس السكوت والوقوف عليها ، فهمه من فهمها ، وتعبد بها من تعبد بها ، وكل قارئ للقرآن يأخذ ثوابه بكل حرف ، فلو أن قارئاً قال : « أعوذ بالله من الشيطان الرجيم » ونطق بعد ذلك بحرف أو بأكثر ، فهو قد أخذ بكل حرف حسنة ، وحين نقرأ بعضاً من فواتح السور ، نجد أن سورة البقرة تبدأ بقوله الحق :

﴿ الٓمٓ ۝١ ﴾

(سورة البقرة)

ونقرأ هنا في أول سورة الأعراف :

﴿ المٓصٓ ۝١ ﴾

(سورة الأعراف)

وهي حروف مقطعة ، نطقت بالإسكان ، وبالفصل بين كل حرف وحرف . ويلاحظ فيها أيضاً أنها لم تقرأ مسميات ، وإنما قرئت أسماء ، ما معنى مسميات ؟ وما معنى أسماء ؟ . أنت حين تقول . كتب ، لا تقول « كاف » « تاء » « باء » ، بل تنطق مسمى الكاف كْ ، واسمها كاف مفتوحة ، أما مسماها فهو « كْ » . إذن فكل حرف له مسمى ، أي الصوت الذي يقوله الإنسان ، وله اسم ، والأمي ينطق المسميات ، وإن لم يعرف أسماءها . أما المتعلم فهو وحده الذي يفهم أنه حين يقول : « كتب » أنها مكونة من كاف مفتوحة ، وتاء مفتوحة ، وباء مفتوحة ، أما الأمي فهو لا يعرف هذا التفصيل .

وإذا كان رسول الله قد تلقى ذلك وقال : ألف لام ميم ، وهو أمي لم يتعلم . فمن قال له انطق مسميات الحروف بهذه الأسماء ؟ .

---

(١) رواه الترمذي ، والدارمي

لابد أنه قد عُلِّمَها وتلقاها ، والحق هو القائل :

﴿ فَإِذَا قَرَأْنَـٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ﴾ [سورة القيامة]

فالذى سوف تسمعه يا محمد ستقرأه ، ولذلك تجد عجائب ؛ فأنت تجد «الم» فى أول البقرة ، وهى أول سورة آل عمران ، ولكنك تقرأ الآية الأولى من سورة الفيل :

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَـٰبِ ٱلْفِيلِ ﴿١﴾ ﴾ [سورة الفيل]

ما الفرق بين الألف واللام والميم فى أول سورة البقرة ، وسورة آل عمران وغيرهما ، والحروف نفسها فى أول سورة الفيل وغيرها كسورة الشَّرْح ؟ أنت تقرأها فى أول سورة البقرة وآل عمران أسماء . وتقرأها فى أول سورة الفيل مسميات . والذى جعلك تفرق بين هذه وتلك أنك سمعتها تقرأ فى أول البقرة وآل عمران هكذا ، وسمعتها تقرأ فى أول سورة الفيل هكذا . إذن فالقراءة توقيف ، وليس لأحد أن يجترىء ليقرأ القرآن دون سماع من معلم لا ، لابد أن يسمعه أولاً حتى يعرف كيف يقرأ.

ونقرأ «المص» فى أول سورة الأعراف ، وهى حروف منطقة ، ونعرف أن الحروف المقطعة ثمانية وعشرون حرفاً ، ونجد نصفها أربعة عشر حرفاً فى فواتح السور ، وقد يوجد منها فى أول السورة حرف واحد مثل :

﴿ قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ﴿١﴾ ﴾ [سورة ق]

وكذلك قوله الحق :

﴿ صٓ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ﴿١﴾ ﴾ [سورة ص]

وكذلك قوله الحق :

﴿ن والقلم وما يسطرون ①﴾ [سورة القلم]

ومرة يأتي من الحروف المقطعة اثنان ، مثل قوله الحق :

﴿حم ①﴾ [سورة الأحقاف]

ومرة تأتي ثلاثة حروف مقطعة مثل :

﴿الم ①﴾ [سورة البقرة]

ومرة يأتي الحق بأربعة حروف مقطعة مثل قوله الحق :

﴿المص ①﴾ [سورة الأعراف]

ومرة يأتي بخمسة حروف مقطعة مثل قوله الحق :

﴿كهيعص ①﴾ [سورة مريم]

وإذا نظرت إلى الأربعة عشر حرفاً وجدتها تمثل نصف الحروف الأبجدية ، وهذا النصف فيه نصف أحكام الحروف ، فبعضها منشور ، أو مهموس ، أو مجهور ، أو مستعلٍ ، ومن كل نوع تجد النصف ، مما يدل على أنها موضوعة بحساب دقيق ، ومع أن توصيف الحروف ، من مستعل ، أو مفخم ، أو مرقق ، أو منشور ، أو مهموس ، هذا التوصيف جاء متأخراً عن نزول القرآن ، ولكن الذي قاله بعلم ما ينتهي إليه خلقه في هذه الحروف المقطعة وله في ذلك حكمة ، وكان رسول الله ﷺ أميًّا ، ولم يجلس إلى معلم ، فكيف نطق بأسماء الحروف ، وأسماء الحروف لا يعرفها إلا من تعلم؟ إذن هو إذن قد تلقنها ، وإنك تعلم أن القرآن جاء متحديًا العرب ؛ ليكون معجزة لسيد الخلق ، ولا يُتحدَّى إلا من كان بارعاً في هذه الصنعة . وكان العرب مشهورين بالبلاغة ، والخطابة

والشعر، والسجع وبالأمثال؛ فهم أمة كلام، وفصاحة، وبلاغة، فجاء لهم القرآن من جنس نبوغهم، وحين يتحدى الله العرب بأنه أرسل قرآناً لايستطيعون أن يأتوا بمثله، فالمادة الخام - وهي اللغة - واحدة، ومن حروف اللغة نفسها التي برع العرب فيها. وبالكلمات نفسها التي يستعملونها، لكنهم عجزوا أن يأتوا بمثله؛ لأنه جاء من رب قادر، وكلام العرب وبلاغتهم هي من صنعة الإنسان المخلوق العاجز.

وهكذا نعلم سر الحروف المقطعة التي جاءت لتثبت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تلقى القرآن من الملأ الأعلى لأنه أمي لم يتعلم شيئاً، لكنه عرف أسماء الحروف، ومعرفة أسماء الحروف لايعرفها - كما قلت - إلا المتعلم، وقد علمه الذي علم بالقلم وعلم الإنسان مالم يعلم، ويمكن للعقل البشري أن يحوم حول هذه الآيات، وفي هذه الحروف معان كثيرة، ونجد أن الكثير من المفكرين والمتدبرين لكلام الله وجدوا في مجال جلالٍ وجمال القرآن الكثير، فنجد متصوفاً يقول إن «المص» جاءت هنا لحكمة، فأنت تنطق أول كلمة ألف وهي الهمزة من الحلق، واللام تنطقها من اللسان، والميم تنطقها من الشفة، وبذلك تستوعب مخارج الحروف من الحلق واللسان والشفة

قال المتصوف ذلك ليدلك على أن هذه السورة تتكلم في أمور الحياة بدءاً للخلق من آدم - إشارة إلى أولية خلق الإنسان، ووسطاً وهو المعاش، ونهاية وهو الموت والحساب ثم الحياة في الدار الآخرة، وجاءت «الصاد» لأن في هذه السورة قصص أغلب الأنبياء

هكذا جال هذا المتصوف جولة وطلع بها، أنردها عليه؟ لانردها بطبيعة الحال، ولكن نقول له: أذلك هو كل علم الله فيها؟. لا؛ لأن علينا أن نتعرف على المعاني التي فيها وأن نأخذها على قدر بشريتنا، ولكن إذا قرأناها على قدر مراد الله فيها فلن نستوعب كل آفاق مرادات الله؛ لأن أفهامنا قاصرة.

ونحن البشر نضع كلمات لامعنى لها لكي تدل على أشياء تخدم الحياة، فمثلا نجد في الجيوش من يضع «كلمة سر» لكل معسكر فلا يدخل إلا من يعرف

الكلمة من يعرف «كلمة السر» يمكنه أن يدخل. وكل كلمة سر لها معنى عند واضعها، وقد يكون ثمنها الحياة عند من يقترب من معسكر الجيش ولا يعرفها.

﴿ الٓمٓصٓ ۝١ ﴾ [سورة الأعراف]

ونجد بعد هذه الحروف المقطعة حديثاً عن الكتاب، فيقول سبحانه:

﴿ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝٢ ﴾

وساعة تسمع «أنزل» فاعلم أنه جاء من جهة العلو أي أن التشريع من أعلى وقال بعض العلماء: وهل يوجد في صدر رسول الله حرج؟. لننتبه أنه ساعة يأتي أمر من ربنا ويوصح فيه ﴿ فلا يكن في صدرك حرج ﴾، فالنهي ليس لرسول الله (ﷺ) وإنما لنهي للحرج أو الضيق أن يدخل برسول الله، وكأنه سبحانه يقول يا حرج لا تنزل قلب محمد.

لكن بعض العلماء قال. لقد جاء الحق بقوله سبحانه: ﴿ فلا يكن في صدرك حرج ﴾، لأن الحق يعلم أن محمداً قد يضيق صدره ببشريته، ويحزن، لأنهم يقولون عليه ساحر، وكذاب، ومجنون. وإذا ما جاء خصمك وقال فيك أوصافاً أنت أعلم منه بعدم وجودها فيك فهو الكاذب، لأنك لم تكذب ولم تسحر، وتريد هداية القوم، وقوله سبحانه: ﴿ فلا يكن في صدرك حرج ﴾ قد جاء لأمر من اثنين. إما أن يكون الأمر للحرج ألا يسكن صدر رسول الله، وإما أن يكون الأمر لرسول طمأنة له وتسكيناً، أي لا تتضايق لأنه أنزل إليك من إله، وهل ينزل الله عليك قرآناً ليصحح منهج خلقه وصراطاً مستقيماً لهم، ثم يسلمك إلى سفاهة هؤلاء؟ لا، لا يمكن، فاطمئن تماماً

﴿ فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝٢ ﴾ [سورة الأعراف]

والإنذار لا يكون إلا لمخالف ؛ لأن الإنذار يكون إخباراً بشر ينتظر من تخاطبه . وهو أيضاً تذكير للمؤمنين مثلما قال من قبل في سورة البقرة : ﴿ هدى للمتقين ﴾ .

وهنا نلاحظ أن الرسالات تقتضي مُرْسِلاً أعلى وهو الله ، ومُرْسَلاً وهو الرسول ، ومُرْسَلاً إليه وهم الأمة ، والمرسَل إليه إما أن يستمع ويهتدي وإما لا ، وجاءت الآية لتقول ﴿كتاب أنزل﴾ من الله وهو المرسِل ، و«إليك» لأنك رسول والمرسَل إليهم هم الأمة ، إما أن تنذرهم إن خالفوا وإما أن تذكرهم وتهديهم وتبشرهم أو تبشرهم إن كانوا مؤمنين .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ ﴾

ومادام العباد سيتقسمون أمام صاحب الرسالة والكتاب الذي جاء به إلى من يقبل الهداية ، ومن يحتاج إلى النذارة لذلك يقول لهم :

﴿ اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ﴾

(من الآية ٣ سورة الأعراف)

وينهاهم عن الشرك وعدم الاستهداء أي طلب الهداية فيقول :

﴿ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾

(من الآية ٣ سورة الأعراف)

وحينما يأتي الحق سبحانه في مثل هذه الآيات ويقول : « وذكرى » . أو « وذكّر » إنما يلفتنا إلى أن الفطرة المصنوع عليها الإنسان مؤمنة ، والرسالات كلها لم تأت لتنشئ إيماناً جديداً ، وإنما جاءت لتذكر بالعهد الذي أخذ علينا أيام كنا في عالم الذر ، وقبل أن يكون لنا شهوة اختيار :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتَ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا .. (١٧٢) ﴾ [سورة الأعراف]

هذا هو الإقرار في عالم الذر ، إذ فحين يقول الحق . ﴿ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ فنحن نلتفت إلى ما نسى الآباء أن يبلغوه للأبناء ؛ فالآباء يعلمون الأبناء متطلبات حياتهم ، وكان من الواجب أن يعلموهم مع ذلك قيم هذه الحياة التي تلقوها ؛ لأن آدم وحواء أول ما نزلا إلى الأرض قال لهما الحق :

﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ .. (١٢٣) ﴾ [سورة طه]

وهكذا نعلم أن هناك «هدى» قد نزل على آدم ، وكان من الواجب على آدم أن يعلمه للأبناء ، ويعلمه الأبناء للأحفاد ، وكان يجب أن يظل هذا «الهدى» منقولاً في سلسلة الحياة كما وصلت كل أقضية الحياة . ويأتي سبحانه لنا بحيثيات الاتباع

﴿ اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ .. (٣) ﴾ [سورة الأعراف]

فالمنهج الذي يأتي من الرب الأعلى هو الذي يصلح الحياة ، ولا غضاضة على أحد منكم في أن يتبع ما أنزل إليه من الإله المربي القادر . الذي ربّى ، وخلق من عدم ، وأمد من عدم ، وهو المتولي للتربية ، ولا يمكن أن يربي أجسادنا بالطعام والشراب والهواء ولا يربي قيمنا بالأخلاق . ﴿ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ ﴾ .

ومدام قد أوضح : اتبعوا ما أنزل إليكم من أعلى ، فلا يصح أن تأتي لي دونه وتأخذ منه ، مثلما يفعل العالم الآن حين يأخذ قوانينه من دون الله ومن هوى البشر . فهذا يحب الرأسمالية فيفرضها بالسيف ، وآخر يحب الاشتراكية فيفرضها البشر . بالسيف . وكل واحد يفرض بسيفه القوانين التي تلائمه وكلها دون منهج الله لأنها أفكار بشر ، وتتصادم بأفكار بشر ، والأولى من هذا وذاك أن نأخذ مما لا يسكف أن يكون عبيداً له

﴿ .. ولا تتبعوا من دونه أولياء قليلاً ما تذكرون ﴿٣﴾ ﴾ [سورة الأعراف]

وتذكر أيها المؤمن أن عزتك في اتباع منهج الله تتجلى في أنك لا تخضع لمساوئ لك ، وهذه ميزة الدين الذي يجعل الإنسان يحيا في الكون وكرامته محفوظة ، وإن جاءته مسألة فوق أسبابه يقابلها بالمتاح له من الأسباب مؤمناً بأن رب الأسباب سيقدم له العون ، ويقدم الحق له العون فعلاً فيسجد لله شاكراً ، أما الذي ليس له رب فساعة أن تأتي له مسألة فوق أسبابه تضيق حياته عليه وقد يتحير

ثم بعد ذلك يبين الحق أن موكب الرسالات سائر من لدن آدم ، وكلما طرأت العتمة على البشر أرسل الله رسولاً ينبههم ، ويوقظ القيم والمدعة الفطرية التي توجد في الذات ، بحيث إذ مالت الذات إلى شيء انحرافي تنبه الذات نفسها وتقول : لماذا فعلت هكذا ؟ . وهذه هي النفس اللوامة . فربما ما سكتت النفس اللوامة واستمرأ الإنسان الخطأ ، وصارت نفسه أمارة بالسوء طوال الوقت ؛ فالمجتمع الذي حوله يعدله .

وهذه فائدة التواصي بالحق والصبر ، فكل واحد يوصّي في طرف ، ويوصّى في طرف آخر ؛ فحين يضعف نفسه أمام شهوة يأتي شخص آخر لم يضعف في هذه الشهوة وينصح الإنسان ، ويتبادل الإنسان النصح مع غيره ، هذا هو معنى التواصي ؛ فالوصية لا تأتي من جماعة تحترف توصية الناس ، بل يكون كل إنسان موصياً فيما هو فيه قوي ، ويوصي فيما هو فيه ضعف . فإذا فسد المجتمع ، تتدخل السماء برسول جديد ومعجزة جديدة ، ومنهج جديد ، لكن الله أمن أمة محمد على هذا الأمر فلم يجيء رسول بعده لأنها خير أمة أخرجت للناس . والخيرية تتجلى في أنها تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ، فالتواصي باق إلى أن تقوم الساعة

﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ .. ﴿١١٠﴾ ﴾

[سورة آل عمران]

وهذه خاصية لن تنتهي أبداً ، فإن رأيت مكراً فلا بد من خلية خير تنكره وتقول : لا ، وإذا كان الحق قد جعل محمداً خاتم الرسل ، فذلك شهادة لأمته أنها أصبحت مأمونة ، وأن المناعة الذاتية فيها لا تمتنع ولا تنقطع ، وكذلك لا تمتنع منها أبداً المناعة الاجتماعية فمن يأتي رسول بعد سيد الخلق سيدنا محمد ﷺ.

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْهُمْ قَائِلُونَ ﴿٤﴾ ﴾

وساعة تسمع «كم» فاعرف أن المسألة خرجت عن العد بحيث تستوجب أن نستفهم عنها ، وهذا يدل على أمر كثير فوق العدد ، لكن عندما يكون العدد قليلاً فلا يستفهم عنه ، بل يعرف والقرية اسم للمكان المعد إعداداً خاصاً لمعيشة الناس فيه وهل القرى هي التي تهلك أم يهلك من فيها ؟ . أوضح الحق أنها تأتي مرة ويراد منها المكان والمكين . أو يكون المراد بالقرية أهلها ، مثال ذلك قوله الحق في سورة يوسف :

﴿ واسأل القرية التي كنا فيها والعير .. ﴿٨٢﴾ ﴾ [سورة يوسف]

وبطبيعة الحال لن يسأل إنسان المكان أو المباني ، بل يسأل أهل القرية ، ولم يقل الحق . اسأل أهل القرية ؛ لأن المسئول عنه هو أمر بلغ من الصدق أن المكان يشهد مع المكين ، ومرة أخرى يوضح الحق أنه يدمر القرية سكانها ومبانيها .

﴿ وكم من قرية أهلكناها فجاءها بأسنا ﴾ .

وأيهما يأتي أولاً الإهلاك أم يأتي البأس أولاً فيهلك ؟ الذي يأتي أولاً هو البأس فيهلك ، فمظاهر الكونيات في الأحداث لا يأتي أمرها ارتجالاً ، وإنما أمرها مسبق أزلاً ، وكأن الحق يقول هنا . وكم من قرية حكمنا أن نهلكها فجاءها بأسنا يستحق ما قلناه أزلاً ، أي أن تأتي الأحداث على وفق المرادات ؛ حتى ولو كان هناك اختيار للذي يتكلم عنه الحق .

ونعلم أن القرية هي المكان ، وعلى ذلك فليس لها اختيار . وإن كان لمن يتحدث عنه الله حق الاختيار ، فسبحانه يعلم أزلاً أنه سيفعل ما يتحدث عنه سبحانه . ويأتي به في قرآن يتلى ؛ ليأتي السلوك موافقاً ما أخبر به الله .

﴿ وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ ﴿٤﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

والبأس هو القوة التي لا ترد ولا تقهر ، و « بياتاً » أي بالليل ، « أو هم قائلون » أي في القيلولة . ولماذا يأتي البأس في البيات أو في القيلولة ؟ . ونجد في خبر عمّن أهلكوا مثل قوم لوط أنه حدث لهم الهلاك بالليل ، وقوم شعيب حدث لهم الهلاك في القيلولة ، والبيات والقيلولة هما وقت الاسترخاء ووقت الراحة وتفاجئهم الأحداث فلا يستطيعون أن يستعدوا .

﴿ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ ﴿١٧٧﴾ ﴾

(سورة الصافات)

أي يأتيهم الدمار في وقت هم نائمون فيه ، ولا قوة لهم لمواجهة البأس .

﴿ فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ ﴾

(من الآية ٤ سورة الأعراف)

وإذا قال سبحانه : ﴿ بياتاً أو هم قائلون ﴾ فمعنى أن لهذه القرية امتدادات ، ووقت القيلولة عند جماعة يختلف عن وقت من يسكن امتداد القرية ، فيكون الوقت عندهم ليلاً ، والقيلولة هي الوقت الذي ينامون فيه ظهراً للاسترخاء والراحة ولكن كيف استقبلوا ساعة مجيء البأس الذي سيهلكهم ؟ .

يقول الحق سبحانه :

﴿ فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا إِلَّا أَن قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٥﴾ ﴾

بهذا القول اتضحت المسألة ، ومن قوله ﴿ دعواهم ﴾ نفهم أن المسألة دعاء ونحن نقول : فلان ادّعى دعوى على فلان ، فإما أن يقيم بينة ليثبت دعواه ، وإما ألا يقيم

والدعوى تطلق أيضاً على الدعاء :

﴿ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾

(من الآية ١٠ سورة يونس)

وهنا يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٥﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

ويشرح ربنا هذا الأمر في آيات كثيرة ، إنه اعتراف منهم باقترافهم الظلم وقيامهم عليه ، فسبحانه القائل :

﴿ وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١١﴾ ﴾

(سورة الملك)

ويقول الحق بعد ذلك

﴿ فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦﴾ ﴾

والحق يسأل الرسل بعد أن يجمعهم عن مدى تصديق أقوامهم لهم ، والسؤال إنما يأتي للإقرار ، ومسألة السؤال وردت في القرآن بأساليب ظاهر أمرها أنها متعارضة ، والحقيقة أن جهاتها منفكة ، وهذا ما جعل خصوم القرآن يدعون أن

القرآن فيه تضارب . فالحق سبحانه يقول :

﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ ﴿١٠١﴾ ﴾

(سورة المؤمنون)

ويقول سبحانه أيضاً :

﴿ وَلَا يَسْئَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴿١٠﴾ ﴾

(سورة المعارج)

ويقول جل وعلا :

﴿ وَلَا يُسْئَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ ﴾

(من الآية ٧٨ سورة القصص)

ويقول سبحانه وتعالى :

﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْئَلُ عَن ذَنبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴿٣٩﴾ ﴾

(سورة الرحمن)

ثم يقول هنا :

﴿ فَلَنَسْئَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْئَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ ﴿٦﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

وهذا ما يجعل بعض المستشرقين يندفعون إلى محاولة إظهار أن بالقرآن ـ والعياذ بالله ـ متناقضات . ونقول لكل منهم : أنت تأخذ القرآن بغير ملكة البيان في اللغة ، ولو أنك نظرت إلى أن القرآن قد استقبله قوم لسانهم عربي ، وهم باقون على كفرهم فلا يمكن أن يقال إنهم كانوا يجاملون ، ولو أنهم وجدوا هذا التناقض ، أما كانوا يستطيعون أن يردوا دعوى محمد فيقولوا : أيكون القرآن معجزا وهو متعارض ؟! لكن الكفار لم يقولوها ، مما يدل على أن ملكاتهم استقبلت القرآن بما يريده قائل القرآن . وفي أعرافنا نورد السؤال مرتين ؛ فمرة يسأل التلميذ أستاذه ليعلم ، ومرة يسأل الأستاذ تلميذه ليقرر .

إذن فالسؤال يأتى لشيئين اثنين : إما أن تسأل لتتعلم ، وهذا هو الاستفهام ، وإما أن تسأل لتقرر حتى تصبح الحجة ألزم للمسئول ، فإذا كان الله سيسأله ، أى يسأله سؤال إقرار ليكون أبلغ فى الاحتجاج عليه ، وبعد ذلك يقولون :

﴿ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١١﴾ ﴾

(سورة الملك)

وهذا اعتراف وإقرار منهم وهما سيدا الأدلة ؛ لأن كلام للقائل إنما يكون شهادة ، ولكن كلام المقر هو إقرار واعتراف .

إذن إذ ورد إثبات السؤال فإنه سؤال التقرير من الله لتكون شهادة منهم على أنفسهم ، وهذا دليل أبلغ للحجة وقطع للسبل على الإنكار . فإما أن يقر الإنسان ، وإن لم يقر فستقرل أبعاضه ؛ لأن الإرادة انفكت عنها ، ولم يعد للإنسان قهر عليها ، مصداقاً لقوله الحق :

﴿ وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾

(من الآية ٢١ سورة فصلت)

والحق هنا يقول : ﴿ فلنسئلن الذين أرسل إليهم ولنسئلن المرسلين ﴾ .

وهو سؤال للإقرار . قال الله عنه

﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ ﴾

(من الآية ١٠٩ سورة المائدة)

وحين يسأل الحق المرسلين ، وهم قد أدوا رسالتهم فيكون ذلك تقريعاً للمرسَل إليهم .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ۝٧ ﴾

أى سيخبرهم بكل ما عملوا فى لحظة الحساب ؛ لأنه سبحانه لم يغب يوماً عن أى من خلقه ؛ لذلك قال : ﴿ وما كُنَّا غَائبين ﴾ ، ونعلم أن الخلق متكرر الذوات ، متكرر الأحداث ، متكرر المواقع ، هم ذوات كثيرة ، وكل ذات لها حدث ، وكل ذات لها مكان . فإذا قال الحق للجميع ﴿ وما كُنَّا غَائبين ﴾ أى أنه مع الجميع ، ومادام ليس بغائب عن حدث ، ولا عن فاعل حدث ، ولا عن مكان حدث ، وهؤلاء متعددون . إذن هو فى كل زمان وفى كل مكان .

وإن قلت كيف يكون هنا وهناك ؟ أقول حل ذلك فى إطار قوله : ﴿ ليس كمثله شيء ﴾ ، ومثل هذه المعانى فى الغيبيات لا يمكن أن تحكمها هذه الصور . والأمر سبق أن قلناه حين تحدثت عن مجيء الله ؛ فله طلاقة القدرة وليس كمثله شيء ، وما كان غائباً فى حدث أو مكان .

ويقول الحق بعد ذلك

﴿ وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ ۚ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٨ ﴾

فى هذه الآيات نجد الحديث عن الوزن للأعمال ، وهذا كله تأكيد للحجة عليهم ؛ فالله لا يظلم أحداً ، وفى وزن الأعمال إبطال للحجة من الذين يحاقون النار ، ولم يؤدوا حقوق الله فى الدنيا ، وكل ذلك ليؤكد الحجة ، ويظهر الإنصاف ويقطع العذر ، وهذا قول كريم يقول فيه الحق سبحانه :

﴿ ونضعُ الموازين القسط ليوم القيامة . (٤٧) ﴾ [سورة الأنبياء]

هذه الموازين هي عين العدل ، وليست مجرد موازين عادلة ، بل تبلغ دقة موازين اليوم الآخر أنها هي عدل في ذاتها . وهما يقول الحق : ﴿ والوزن يومئذ الحق ﴾ نعم ، الميزان في هذا اليوم حق ودقيق ، ولنتذكر أنه قال من قبل :

﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

والميزان الحق هو الذي قامت عليه عدالة الكون كله ، وكل شيء فيه موزون ، وسبحانه هو الذي يضع المقادير على قدر الحكمة والإتقان والدقة التي يؤدي بها كل كائن المطلوب منه ، ولذلك يقول سبحانه :

﴿ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ﴿٧﴾ ﴾

(سورة الرحمن)

ولم نر السماء قذفت والتقت علينا أحداثاً غير متوقعة منها ، فالكون به نظام دقيق . والوزن في يوم القيامة هو مطلق الحق ، ففي هذا اليوم تبطل موازين الأرض التي كانت تعاني إما خللاً في الآلة التي يوزن بها ، وإمّا خللاً في الوزن ، وإمّا أن تتأثر بأحداث الكون ، وما يجري فيه من تفاعلات ، أما ميزان السماء فلا دخل لأحد به ولا يتأثر إلا بقيمة ما عمل الإنسان ، وساعة يقول سبحانه : ﴿ والوزن يومئذ الحق ﴾ .

فكان الميزان في الدنيا يمكن أن يحصل فيه خلل ، وكذلك المِلْك أيضاً ؛ لأنه سبحانه أعطى أسباباً للملك المناسب لكل إنسان ، فهذا يملك كذا ، والثاني يملك كذا ، والثالث يملك كذا ، وبعد ذلك يتصرف كل إنسان في هذا الملك إن عدلاً ، وإن ظلماً على ضوء الاختيار . لكن حين يأتي اليوم الآخر فلا ملك لأحد .

﴿ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾

(من الآية ١٦ سورة غافر)

فالأمر حينئذ يكون كله لله وحده ، فإن كان الملك في الدنيا قد استحلف فيه الحق

عبده ، فهذه الولاية تنتهى فى اليوم الآخر : ﴿ فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون ﴾ .

وسبحانه هو القائل :

﴿ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٦ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٨ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ۝٩ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ۝١٠ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ۝١١ ﴾

(سورة القارعة)

إذن فالميزان يثقل بالحسنات ، ويخف بالسيئات . ونلحظ أن القسمة العقلية لإيجاد ميزان ووازن وموزون تقتضى ثلاثة أشياء : أن تثقل كفة ، وتخف الأخرى ، أو أن يتساويا ، ولكن هذه الحالة غير موجودة هنا . ويتحدث الحق عن الذين تخف موازينهم فيقول سبحانه وتعالى :

﴿ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ ۝٩ ﴾

والسورة السابقة جاء فيها بالحالتين ، وفى هذه السورة أيضاً جاء بالحالتين ، ومن العجيب أن هذا الكلام عن الثقل والخفة وعدم وجود الحالة الثالثة وهى حالة تساوى الكفتين يأتى فى أول سورة الأعراف ، ولكنه ـ سبحانه يقول بعد ذلك فى سورة الأعراف : ﴿ وعلى الأعراف رجال يعرفون كلا بسيماهم ﴾ .

وهؤلاء هم الذين استوت حسناتهم وسيئاتهم ، وقد جعل لهم ربنا مكاناً يشبه عرف الفرس ، وعرف الفرس يعتبر أعلى شىء فيه ، فحينا يأتى شعر الفرس يميناً ، وحينا يأتى شعر الفرس يساراً ، وليس هناك جهة أولى بالشعر من الأخرى . وقد أعد الحق لأصحاب الأعراف مكاناً يسمعون فيه أصحاب النار وهم ينادون أصحاب الجنة ، وأصحاب الجنة وهم ينادون أصحاب النار ، وأصحاب الأعراف

يجلسون ؛ لا هم فى الجنة ولا هم فى النار ، فهم الذين تساوت حسناتهم وسيئاتهم ، وبذلك صحت القسمة العقلية فى قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّۢا بِسِيمَىٰهُمْ ﴾

(من الآية ٤٦ سورة الأعراف)

فلا الحسنات ثقلت ليدخلوا الجنة ، ولا السيئات خفت ليدخلوا النار ، فميزانهم تساوت فيه الكفتان وقال بعض العلماء عن الميزان : إن هناك ميزاناً بالفعل . وقال البعض إن المراد بالميزان هو العدالة المطلقة التى أقامها العادل الأعلى ، والأعجب أن الحق قال : إن هناك موازين ، فهل لكل واحد ميزان أو لكل عمل من أعمال التكليفات ميزان : ميزان العقائد ، وميزان الأحكام . . إلخ ، وهل سيحاسب ربنا تباعاً . أو أن هناك موازين متعددة ، بدليل أن سيدنا الإمام عليًا عندما سألوه : أيحاسب الله خلقه جميعاً فى وقت واحد ؟ فقال : وأى عجب فى هذا ؟ أليس هو رازقهم فى وقت واحد ؟ إذن فالميزان بالنسبة لله مسألة سهلة جدًا . وهيّنة فسبحانه لا يتأبى عليه شىء .

﴿ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ ﴾

(من الآية ٩ سورة الأعراف)

نعم هم قد خسروا أنفسهم فكل منهم كان يأخذ شهوات ويرتكب سيئات يمتع بها نفسه ، ويأتى اليوم الآخر ليجد نفسه قد خسر كل شىء ، وكما يقول المثل العام : خسر الجلد والسقط . لماذا ؟ تأتى الإجابة من الحق : ﴿ بما كانوا بآياتنا يظلمون ﴾

ويقول سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿١٠﴾ ﴾

المُمَكَّن هو الذى يحتل المكان بدون زحزحة ؛ فيقال : مكّنتك من كذ . أى أعطيتك المكان ولا ينازعك أحد فيه . وقد مكننا سبحانه فى الأرض وجعل لنا فيها وسائل استبقاء الحياة ، وترف الحياة ، وزينة الحياة ، ورياش الحياة ، ولم تبخل الأرض حين حرثناها ، بل أخرجت لنا الزرع ، ولم تعب الشمس عنا بضوئها وإشعاعها وحرارتها . ما فى الدنيا يؤدى مهمته ، ولم نُمكَّن فى الأرض بقدراتنا بل بقدرة الله . وكان يجب ألا يغيب ذلك عن أنظارنا أبداً . فلا أحد منا مسيطر على الشمس أو القمر أو الريح أو الأرض ، ولكن الذى خلقها وجعلها مسخرة ، هو ربك وربها ؛ فأنت مُمَكَّن ، وكل شىء مستجيب لك . بتسخير الله له .

﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿١٠﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

و « معايش » جمع معيشة ، والمعيشة هى الحياة ، فالمعيش هو مقومات الحياة ، ولذلك سموا الخبز فى القرى عيشاً لأن عندهم دقة بالغة ؛ لأنهم عرفوا أنه مقوّم أساسى فى الحياة .

وقول الحق : ﴿ قليلاً ما تشكرون ﴾ دل على أن هناك من يشكر ، ومن الناس من يشكر نعم الله شكراً عاماً على مجموع النعم ، أو يشكره شكراً خاصًا عند كل نعمة ، ومنهم من يشكر شكراً خاصًا لا عند كل نعمة ، ولكن عند جزئيات النعمة الواحدة ، فعندما يبدأ فى الأكل يقول : « بسم الله الرحمن الرحيم » ، ويقول بعد الأكل : « الحمد لله » ؛ وهناك من يقول عند تناول لقمة واحدة : « بسم الله » وعندما يمضغها ويبلعها يقول : « الحمد لله » لأنه لم تقف فى حلقه ، وأيضاً حين نشرب علينا أن نشرب على ثلاث دفعات : أول دفعة نقول : « بسم الله » . وننتهى منها فنقول : « الحمد لله » وكذلك فى الدفعة الثانية والدفعة الثالثة . ومن يفعل ذلك فلا تأتى منه معصية ، مدامت آثار شربة الماء هذه فى جسمه ؛ لأنها كلها « بسم الله » . فتحرسه من الخطيئة ؛ لأن النعمة الواحدة لو استقصيتها لوجدت فيها نعما كثيرة .

وأنتم حين لا تشكرون إنما تضيقون عليكم أبواب النعم من الله ؛ لأنكم

لو شكرتموه على النعم لزادت النعم عليكم ، ﴿ لئن شكرتم لأزيدنكم ﴾ ومن الخلق الا تشكر

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿١١﴾ ﴾

ومسألة الخلق سبق أن تقدمت فى سورة البقرة " خلق آدم، والشيطان ، والفضية تتوزع على سبع سور ، فى سبعة مواضع موجودة فى سورة البقرة ، وسورة الأعراف ، وسورة الحج ، وسورة الإسراء ، وسورة الكهف ، وسورة طه ، وسورة ص ، إلا أن القصة فى كل موضع لها لقطات متعددة ، فهنا لقطة ، وهناك لقطة ثانية ، وتلك لقطة ثالثة ، وهكذا ؛ لأن هذه نعمة لابد أن يكررها الله ؛ لتستقر فى أذهان عباده ، ولو أنه ذكرها مرة واحدة فقد تُنسى ، لذلك يعيد الله التذكير بها أكثر من مرة وإذ أراد الله استحضار النعم والتنبيه عليها فى أشياء ، فهو يكررها كما كررها فى استحضار النعم فى سورة واحدة فى قوله سبحانه " ﴿ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾

إنه يذكر هذه النعم من بدايتها ، فيقول

﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴿١٥﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٦﴾ رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٧﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٨﴾ مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢١﴾ يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾ ﴾

[سورة الرحمن]

ولهُ الجوار المُنشآتُ في البحر كالأعلام (٢٤) فبأيّ آلاء ربّكما تُكذّبان (٢٥) كُلُّ من عليها فانٍ (٢٦) ويبقى وجهُ ربك ذو الجلال والإكرام (٢٧) فبأيّ آلاء ربّكما تُكذّبان (٢٨) ﴾ [سورة الرحمن]

وكل نعمة يقول بعدها ﴿ فبأي آلاء ربكما تكذبان ﴾

وأراد سبحانه بذلك أن يكثر ويردد تكرارها على الآذان لتستقر في القلوب حتى في الآذان الصماء؛ فمرة يأتي بها في شيء ظاهره أنه ليس نعمة، مثل قوله:

﴿ يُرسلُ عليكُما شُواظٌ من نارٍ ونُحاسٌ فلا تنتصران (٣٥) فبأيّ آلاء ربّكما تُكذّبان (٣٦) ﴾ [سورة الرحمن]

وجاء الحق بذكر كل ذلك؛ لأنه ساعة يحلي لنا الأمور على حقائقها ونحن في دار التكليف نهدد رحمة ونعمة منه علينا؛ لأن ذلك يدعونا إلى اتقاء المحظورات والبعد والتنحي عن المخالفات.

ولله المثل الأعلى من قبل ومن بعد، فحين يدخل الابن إلى المدرسة يقول له: إن قصرت في كذا فسوف ترسب، وأنت بهذا القول ترحمه بالنصيحة، فلم تتركه دون أن تبصره بعواقب الأمور، وأيضا ساعة ترى شراً يحيق بالكافرين، فإن هذا الأمر سرك، لأنه لو تساوى الكفر والإيمان لما كان للإيمان فضل أو ميزة، فالعذاب نقمة على الكافر، ونعمة على المقابل وهو المؤمن.

وقد جاءت قصة خلق آدم بكل حيثياتها في القرآن سبع مرات، لأنها قصة بدء الخلق، وهي التي تجيب عن السؤال الذي يبحث عن إجابته الإنسان؛ لأنه تلهف ليجد نفسه في كون معد له على أحسن ما يكون، ولم يجيء الكون من بعد الإنسان، بل طرأ الإنسان على الكون، وظل السؤال وارداً عن كيفية الخلق،

والسؤال مهم أهمية وجود الإنسان في الكون ، فأنت تستقرىء أجناساً في لكون ، وكل جنس له مهمة . ومهمته متعلقة بك ، جماد له مهمة ، ونبات له مهمة ، وحيوان له مهمة ، وكلها تصب في خدمتك أنت ؛ لأن الجماد ينفع النبات ، ويتغذى منه لكي يغذي الحيوان ، والحيوان يخدمك ويغذيك ، إذن فكل الأجناس تصب في خدمتك . أمّا أنت أيها الإنسان فما عملك في هذا لكون ؟ ؛ لذلك كان لابد أن يتعرف الإنسان على مهمته وأراد الحق سبحانه أن يُعرِّف الإنسان مهمته ؛ لأنه جل وعلا هو الصانع ، وحين يبحث الإنسان عن صانعه تتجلى له قدرة الله في كل ما صنع . وكان لابد أيضاً أن يستقبل الإنسان خبراً من الخالق . إنه ـ سبحانه ـ يُنزل لنا لمنهج من السماء ويصاحب هذا المنهج معجزة على يد رسول ، وأنزل الحق عليه المنهج وأوكل له مهمة البلاغ . فالرسول يخبر ، ثم نستدل بالمعجزة على صدق خبره فكان من اللازم أن نصدق الرسول ، لأنه قادم بآية ومعجزة من الله .

والرسول عليه الصلاة والسلام جاء بالرسالة في سن الأربعين ومعه المنهج المعجزة ، وأبلغنا أنه رسول من الله وكان لابد أن نبحث لنتثبت من صدق البلاغ عن الله بالتعقل في دعواه ، فهذا الرسول جاء بعد أربعين سنة من ميلاده ومعه معجزة من جنس ما نبغ فيه قومه ، وليس من جنس ما نبغ فيه هو ، إن معجزته ليست من عنده ، بل هي من عند الله ؛ لأن الرسول جاء بالمعجزة بعد أربعين سنة من ميلاده ، ومن غير المعقول أن تتفجر عبقرية بعد أربعين سنة من الميلاد ؛ لاننا نعلم أن العبقريات تأتي في آخر العقد الثاني وأوائل العقد الثالث من عمر الإنسان ، ونلتفت فنجده يتكلم كل الكلام البلاغي المعجز وليس من المعقول أن يأتي بأخبار الكون وهو الأمي الذي مات أبوه وهو في بطن أمه ، ثم ماتت أمه وهو في السادسة ، وكذلك مات جده ورأى الناس يتساقطون من حوله ، فمن الذي أدراه ـ إذن ـ أنه سيمهل ويمد في أجله إلى أن يصل إلى الأربعين ليبلغنا بمعجزته ؟ .

ولذلك نجد القرآن يستدل على هذه ، فيقول :

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ

أَوْ بَدِّلْهُ ۖ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ ۖ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾

(سورة يونس)

وهكذا تتجلى الحجة القوية من أنه صلى الله عليه وسلم مكلف بالبلاغ بما يُوحَى إليه ، ويتأكد ذلك مرة ثانية فى قوله الحق :

﴿ قُل لَّوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُم بِهِ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ ﴾

(سورة يونس)

وهنا نجد أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد تلقى الأمر من الله بأن يبيّن لهم . هل علمتم عنى خلال عمرى أنى قلت شعراً أو حكمة أو جئتكم بمثل ؟ إذن إن نحن عقلنا الأمر وتبصرنا وتأملنا دعواه لصدقنا أنه رسول الله ، وأن المعجزة نزلت عليه من السماء .

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ ﴿١١﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

وهكذا نرى أن مسألة الخلق والإيجاد ، كان يجب على العقل البشرى أن يبحث فيها ، ليعلم مهمته فى الوجود . وحين يبحث فيها ليعلم مهمته فى الوجود يجب عليه أن يترك كل تخمين وظن ؛ لأن هذه المسألة لا يمكن أن نأتى فيها بمقدمات موجودة لتدلنا على كيفية خلقنا ولا لأى شىء ومهمة خلقنا ! فكيفية الخلق كانت أمراً غيبيًا وليس أمامنا ما نستقرئه لنصل إلى ذلك وقد حكم الله فى قضية الخلق ، سواء أكان الأمر بالنسبة للسموات والأرض وما بينهما أم للإنسان ، وقد حكم سبحانه فى هاتين القضيتين ، ولا مصدر لعلم لأمر فيهما إلا من الله سبحانه ، وأغلق باب الاجتهاد فيها ، وكذلك باب التخمين ، وسمى القائمين بكل بحث بشرى فى هذا المجال بأنهم ضالون مضللون ، ولذلك قال ليحكم هذه

القضية ويحسمها ، ويريح العقول من أن تبحث فيها ؛ قال :

﴿ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾ ﴾

(سورة الكهف)

فكأن الذي يقول : كيف خلقت السموات والأرض وكيف خلق الإنسان هو مضيل ؛ لأن الله لم يشهده ، ولم يكن هذا القائل عضداً لله ولا سنداً ولا شريكا له .

وقص سبحانه علينا قصة خلق السموات والأرض وخلق الإنسان ، وهذه الآية تتعرض لخلق الإنسان . ومن يبحث بحثاً استقرائيًا ويرجع إلى الوراء فلابد أن يجد أن الأمر منطقي ؛ لأن العالم يتكاثر ، وتكاثره أمر مرئي ، وليس التكاثر في البشر فقط ، بل فيمن يخدمون البشر من الأجناس الأخرى ، نجد فيهم ظاهرة التكاثر نباتاً وحيواناً ، وإذا ما نظرنا إلى التعداد من قرن وجدنا العدد يقل عن التعداد الحالي وهو خمسة آلاف مليون ، وكلما عدنا ورجعنا إلى الزمن الماضي يقل التعداد إلى أن نصل إلى اثنين ؛ لأن الخلق إنما يأتي من اثنين ، وحلّ الله لنا اللغز فقال :

﴿ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾

(من الآية ١ سورة النساء)

وهذا كلام صحيح يثبته الإحصاء ويؤيده ، لأن العالم يتكاثر مع مرور الزمن مستقبلا

﴿ وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ﴾

(من الآية ١ سورة النساء)

وهذا كلام صادق . وسبحانه القائل :

﴿ وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ ﴾

(من الآية ٤٩ سورة الذاريات)

وأبحثنا سبحانه بقصة خلق آدم ، وكيفية خلق حوّاء فهل أخذ جزءًا من آدم وخلق منه حوّاء ؟ قد يصح ذلك ، أو خلق منها زوجها ويكون المقصود به أنه خلقها من الجنس نفسه وبالطريقة نفسها ؟ وذلك يصح أيضا ، فسبحانه قد اكتفى بذكر خلق آدم عن ذكر خلق حوّاء ، وأعطانا النموذج في واحد ، وقال : ﴿ وخلق منها زوجها ﴾

و ﴿ منها ﴾ في هذه الآية يحتمل أن تكون غير تبعيضية ، مثلها مثل قوله الحق : ﴿ رسول من أنفسكم ﴾ .

فسبحانه لم يأخذ قطعة من العرب وقال : إنها « محمد » ، بل جعل محمدًا صلى الله عليه وسلم من الجنس نفسه خلقاً وإيجاداً ، وسبحانه حين يتكلم عن يقول للملائكة :

﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾

(من الآية ٣٠ سورة البقرة)

وهذا هو أول بلاغ ، ثم أتبع ذلك

﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾

(سورة الحجر)

إذن قبل النفخ في الروح ستوجد تسوية ، فلمن تحدث التسوية ، ومن هو « المسوّى منه » ؟ إن التسوية لآدم . وجاء القول بأنه من صلصال ، ومن حمأ مسنون ، ومن تراب ، ومن طين ؛ إنها مراحل متعددة ، فإن قال سبحانه عن آدم : إنه من تراب ، نقول : نعم ، وإن قال : « من ماء » نقول : نعم ، وإن قال « من طين » فهذا قول حق ؛ لأن الماء حين يختلط بالتراب يصير طيناً . وإن قال : ﴿ من حمأ مسنون ﴾ ، فهذا جائز ؛ لأن الحمأ طينٌ احتمر فتغيرت رائحته ثم جف وصار صلصالاً . إذن فهي مراحل متعددة للخلق ، ثم قال الحق ﴿ ونفخت فيه من روحي ﴾ .

وهكذا تكتمل فصول الخلق ، ثم قال : ﴿ فقعوا له ساجدين ﴾ .

ويقول العلماء . إن المراد من السجود هو الخضوع والتعظيم ، وليس السجود كما نعرفه ، وقال البعض الآخر : المراد بالسجود هو السجود الذي نعرفه ، وأن آدم كان كالقبلة مثل الكعبة التي نتجه إليها عند الصلاة. ولكن لنا هنا ملاحظة ، ونقول : إننا لا نسجد إلا لله ، ومادام ربنا قد قال . اسجدوا فالسجود هنا هو امتثال لأمر خالق آدم و ليسة إذن لم تكن عبادة لآدم ، ولكنها طاعة لأمر الله الأول والأمر بالسجود لآدم قد أراده الله ؛ لأنه سبحانه سخر الكون كله لخدمة آدم ، ومن الملائكة مدبرات أمر ، ومنهم حفظة ، ومنهم من هو بين يدي الله ، فلم يكن السجود للملائكة خصوصاً من الملائكة لآدم ، بل هو طاعة لأمر الله ، ولذلك سجد من الملائكة الموكلون بالأرض وخدمة الإنسان ، لكن الملائكة المقربون لا يدرون شيئاً عن أمر آدم ، ولذلك يقول الحق لإبليس :

﴿ .. أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾ [سورة ص]

والمقصود بالعالين الملائكة الذين لم يشهدوا أمر السجود لآدم ، فليس للملائكة العالين عمل مع آدم ؛ لأن الأمر بالسجود قد صدر من لهم عمل مع آدم وذريته والذين يقول فيهم الحق سبحانه .

﴿ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ .. ﴿١١﴾ ﴾ [سورة الرعد]

وهناك الرقيب ، والعتيد والقعيد وفي كل ظاهرة من ظواهر الكون هناك ملك مخصوص بها ، ويبلغنا الحق بمسألة الخلق ، و لخطاب لنا ﴿خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم﴾ وهذا ترتيب اخباري ، وليس ترتيباً بالأحداث . أو أن الحق سبحانه وتعالى طمر الخلق جميعاً في خلق آدم ، والعلم الحديث يعطينا أيضاً مؤشرات على ذلك ، حين يأتون ببذرة ويكتشفون فيها كل مقومات الثمرة ، وكذلك الحيوان المنوي توجد فيه كل صفات الإنسان . ولذلك نجدهم حين يدرسون قانون الوراثة يقولون : إن حياته كل منا تتسلسل عن آخر ، فأنت من ميكروب أبيك ، وقد نزل من والدك وهو حي ، ولو أنه نزل ميتاً لما اتصل الوجود . ووالدك جاء من ميكروب جده وهو حي ، وعلى ذلك فكل كائن الآن فيه

كائن الآن فيه جزيء حي من لدن آدم، لم يطرأ عليه موت في أي حلقة من الحلقات

إذن فكلنا كنا مطمورين في جريئات آدم، وقال ربنا سبحانه

﴿ وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم.. ﴿١٧٢﴾ ﴾

[سورة الأعراف]

ونقول: صدق الحق فهو الخالق القادر على أن يخرجنا من ظهر آدم، وهكذا كان الخلق أولاً والتصوير أولاً، وكل ذلك في ترتيب طبيعي، وهو سبحانه له أمور بيديها ولا يبتديها، أي أنه سبحانه يصهرها فقط، فإذا خاطب آدم وخاطب ذريته فكأنه يخاطبنا جميعاً.

﴿ ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملئكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس لم يكن من السجدين ﴿١١﴾ ﴾ [سورة الأعراف]

وعرفنا من هم الملائكة من قبل، وما هي علة السجود. ﴿ فسجدوا إلا إبليس لم يكن من الساجدين ﴾

والحق سبحانه يستثنيه بأنه لم يكن من الساجدين وهذا دليل على أنه دخل في الأمر بالسجود، ولكن هل إبليس من الملائكة؟ لا؛ لأنك إذا جئت في القرآن ووجدت نصًّا يدل بالالتزام، ونصًّا يدل بالمطابقة والقطع فحكم نص الالتزام على النص المحكم الذي يقطع بالحكم. وقد قال الحق في ذلك:

﴿ وإذ قلنا للملئكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه.. ﴿٥٠﴾ ﴾ [سورة الكهف]

وفي هذا إحراج لإبليس من جنس الملائكية، وتقرير أنه من الجن، والجن كالإنس مخلوق على الاختيار، يمكنه أن يعصي يمكنه أن يطيع أو أن يعصي، إذن فقوله الحق: ﴿ ففسق عن أمر ربه ﴾.

يعنى أن هذا الفسوق أمر يجوز منه ؛ لكن الملائكة لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ، وإن تساءل أحد : ولماذا جاء الحديث عن إبليس ضمن الحديث عن الملائكة ؟ . نقول : هب أن فرداً مختاراً من الإنس أو من الجن التزم بمنهج الله كما يريده الله ، فأطاع الله كما يجب ولم يعص . أليست منزلته مثل الملك بل أكثر من الملك ، لأنه يملك الاختيار ولذلك كانوا يسمون إبليس طاووس الملائكة ، أى الذى يزهو فى محضر الملائكة لأنه ألزم نفسه بمنهج الله ، وترك اختياره ، وأخذ مرادات الله فنفذها ، فصار لا يعصى الله ما أمره ويفعل ما يؤمر ، وصار يزهو على الملائكة لأنهم مجبورون على الطاعة ، لكنه كان سالماً لأن يطيع ، وصالحاً - أيضاً - لأن يعصى ، ومع ذلك التزم ، فأخذ منزلة متميزة من بين الملائكة ، وبلغ من تميزه أنه يحضر حضور الملائكة فلما حضر مع الملائكة جاء البلاغ الأول عن آدم فى أثناء حضوره ، وقال ربنا للملائكة : ﴿ اسجدوا لآدم ﴾ .

وكان أولى به أن يسارع بالامتثال للأمر بالطاعة ، لكنه استنكف ذلك وهب أنه دون الملائكة وطالما قد جاء الأمر للأعلى منه وهم الملائكة ، ألم يكن من الأجدر به وهو الأدنى أن يبتدر بالأمر ؟ لكنه لم يفعل . ولأنه من الجن فقد غلبت عليه طبيعة الاختيار .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ۖ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾ ﴾

ثم قال كما يحكى القرآن الكريم :

﴿ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴾

(من الآية ٦١ سورة الإسراء)

وهكذا كان الموقف استكباراً واستعلاءً وقوله الحق .

﴿ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ ﴾

(من الآية ٧٥ سورة ص)

ونحن حين نحلل هذا النص ، نجد قوله ﴿ ما منعك ﴾ أي ما حجرك ، وقد أورد القرآن هذه المسألة بأسلوبين ، فقال الحق مرة : ﴿ ما منعك ألا تسجد ﴾ . وقال مرة أخرى : ﴿ ما منعك أن تسجد ﴾ . وهذا يعني أن الأسلوب الأول جاء بـ « لا » النافية ، والأسلوب الثاني جاء على عدم وجود « لا » النافية . وقوله ﴿ ما منعك أن تسجد ﴾ كلام سليم واضح ؛ يعني : ما حجزك عن السجود . لكن ﴿ ما منعك ألا تسجد ﴾ هي التي تحتاج لوقفة . لذلك قال العلماء . إن « لا » هنا زائدة ، ومَنْ أحْسَن الأدب منهم قال : إن « لا » صلة . لكن كلا القولين لا ينفع ولا يناسب ؛ لأن من قال ذلك لم يفطن إلى مادة « منع » ولأي أمر تأتي ، وأنت تقول : « منعت فلاناً أن يفعل » ، كأنه كان يهم أن يفعل فمنعته .

إذن ﴿ ما منعك أن تسجد ﴾ كأنّه كان عنده تهيؤ للسجود ، فجاءت قوة أقوى منه ومنعته وحجزته وحالت بينه وبين أن يسجد . لكن ذلك لم يحدث . وتأتي « منع » للامتناع بأن يمتنع هو عن الفعل وذلك بأن يقنعه غيره بترك السجود فيقتنع ويمتنع ، وهناك فرق بين ممنوع ، وممتنع ؛ فممنوع هي في ﴿ منعك أن تسجد ﴾ ، وممتنع تعني أنه امتنع من نفسه ولم يمنعه أحد ولكنه أقنعه . وإن كان المنع من الامتناع فالأسلوب قد جاء ليؤكد المعنى الفعلي وهو المنع عن السجود . وهذا هو السبب في وجود التكرار في القرآن . ولذلك قال الحق سبحانه

﴿ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ﴾

(من الآية ١٢ سورة الأعراف)

وسبحانه قد أمر الملائكة وكان موجوداً معهم إما بطريق العلو ، لأنه فاق الملائكة وأطاع الله وهو مختار فكانت منزلته عالية ، وإما بطريق الدنو ؛ لأن الملائكة أرفع من إبليس بأصل الخلقة والجبلة ، وعلى أي وضع من العلو والدنو كان على إبليس أن يسجد ، ولكنه قال في لرد على ربّه :

﴿ ... أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين ﴿١٢﴾ ﴾ [سورة الأعراف]

وسبحانه لم يسأل إبليس عن المقارنة بينه وبين آدم ، ولكن سأله وهو يعلم أولاً أن إبليس قد امتنع بامتناع لا بقهر ، ولذلك قال إبليس . أنا خير منه ، فكأن المسألة دارت في ذهنه ليوجد حيثية لعدم السجود . ولا يصح في عرف الإبليس أن يسجد الأعلى للأدنى ، فما دام إبليس يعتقد أنه خير من آدم ويظن أنه أعلى منه ، فلا يصح أن يسجد له . وأعلى منه لماذا ؟ لأنه قال : ﴿ خلقتني من نار وخلقته من طين ﴾ فكأن النار لها علو ، وهو في ذلك مخطىء تماماً لأن الأجناس حين تختلف ، فذلك لأن لكل جنس دوره ، ولا يوجد جنس أفضل من جنس ، النار لها مهمة ، والطين له مهمة ، والنار لا تقدر أن تؤدي مهمة الطين ، فلا يمكن أن نورع في النار

إذن فالخيرية تتأتى في الأمرين معاً ما دام كل منهما يؤدي مهمته ، ولذلك لا نقل . إن هذا خير من هذا ، إنما قل : عمل هذا أحسن من عمل هذا ، فكل شيء في الوجود حين يوضع في منزلته المرادة منه يكون خيراً ، ولذلك أقول : لا نقل عن عود الحديد إنه عود مستقيم ، ونقول عن الخطاف . إن هذا عود أعوج ، لأن مهمة الخطاف تقتضي أن يكون أعوج ، وعوجه هو الذي جعله يؤدي مهمته ، لأن الخيرية إنما تتأتى في متساوي المهمة ، ولكن إبليس قال :

﴿ قال أنا خير منه .. ﴿١٢﴾ ﴾ [الأعراف]

قالها للمعاندة ، للكبر ، للكفر حين أعرض عن أمر الله وأراد أن يعدل مراد الله في أمره ، وكأنه يخطىء الحق في أمره ، ويرد الأمر على الآمر فما كان جزاء الحق سبحانه وتعالى لإبليس إلا أن قال له :

﴿ قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴿١٣﴾ ﴾

والهبوط يستدعي لانتقال من منزلة عالية إلى منزلة أقل ، وهذا ما جعل العلماء يقولون إن الجنة التي وصفها الله بأنها عالية هي في السماء ، ونقول . لا ، فالهبوط لا يستدعي أن يكون هبوطاً مكانياً ، بل قد يكون هبوط مكانة ، وهناك فرق بين هبوط المكان ، وهبوط المكانة ، وقد قال الحق لنوح عليه السلام :

﴿ قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ .. ﴿٤٨﴾ ﴾

[سورة هود]

أي اهبط من السفينة ، إذن مادة الهبوط لا تفيد النزول من مكان أعلى إلى مكان أدنى ، إنما نقول من مكان أو من مكانة . ﴿ قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا ﴾ .

وهذا تنزيل من المكانة لأنه لم يعد أهلاً لأن يكون في محضر الملائكة ؛ فقد كان في محضر الملائكة ؛ لأنه ألزم نفسه بالطاعة ، وهو مخلوق على أن يكون مختاراً أن يطيع أو أن يعصي ، فلما تحدث عنه هذه الصفة لم يعد أهلاً لأن يكون في هذا المقام ، وذلك أن الملائكة لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون .

﴿ قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ .. ﴿١٣﴾ ﴾ [سورة الأعراف]

أي ما ينبغي لك أن تتكبر فيها .

إن امتناعك عن أمر من المعبود وقد وجهه لك وأنت العابد هو لون من الكبرياء على الأمر ، والملائكة جماعة لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ، فمادمت أنت أهل استكبار واستعلاء على هذه المكانة فلست أهلاً بها ، فكان العمل هو الذي أهله أن يكون في العلو ، فلما زايله وفارقه كان أهلاً لأن يكون في الدنو ، وهكذا لم يكن الأمر متعلقاً بالذاتية ، وفي هذا هبوط لقيمة كلامه في أنه من نار وآدم من طين ؛ لأن المقياس الذي توزن به الأمور هو مقياس أداء العمل ، ومن حكمة الحق

أن الجن يأخذ صورة القدرة على أشياء لا يقدر عليها الإنس ، مثل السرعة ، واختراق الحواجز ، والتغلب على بعض الأسباب ، فقد ينفذ الجن من الجدار أو من الجسم ، وكما قال الرسول ﷺ .

« إن الشيطان يجري من الإنسان مجرى الدم »[1].

وهو ذلك مثل الميكروب ، لأن هذه طبيعة النار ، وهي المادة التي خُلق منها . وهي تتعدى الحواجز والجن قد بلغ من اللطف والشفافية أنه يقدر على أن ينفذ من أي شيء ، لكن الحق سبحانه وتعالى أراد أن يوضح للجن . لا تعتقد أن عنصريتك هي التي أعطتك هذا التعبير ، وإنما هي إرادة المُعَنْصِر ، بدليل أنه جعلك أدنى من مكانة الإنسان ، إنه سبحانه - يجعل إنسياً مثل سيدنا سليمان محذوما لك أيها الجني ، إنه يسخرك ويجعلك تخدمه . وأنه في مجلس سليمان ، جعل الذي عنده علم من الكتاب ، يأتي بقوة أعلى من قوة « عفريت» من الجن . فالحق هو القائل .

﴿ قال عفريتٌ مّن الجنِّ .. ﴿٣٩﴾ ﴾ [سورة النمل]

وهذا يدل على أن هناك أذكياء وأغبياء في عالم الجن أيضاً وجاء الذي عنده علم من الكتاب فتسامى فوق عفريت الجن في الزمن ، فقد قال هذا العفريت .

﴿ أن ءاتيك به قبل أن تقوم من مقامك .. ﴿٣٩﴾ ﴾ [سورة النمل]

والمقام هو الفترة الزمنية التي قد يقعدها سليمان في مجلسه ، فماذا قال الذي عنده علم من الكتاب - وهو إنسان - ؟

﴿ قال الذي عنده علمٌ مّن الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتدّ إليك طرفك .. ﴿٤٠﴾ ﴾

[سورة النمل]

---

(١) رواه البخاري في الأدب ، ومسلم في السلام ، وأبو داود في السنة ، وابن ماجه في الصوم ، ورواه أحمد ٣/١٥٦ ، ٢٨٥ ، ٣٢٧ .

كأنه سيأتي بعرش بلقيس قبل أن يرتد سليمان من ردّ طرفه الذى أرسله ليبصر به شيئاً ، إن سليمان رأى العرش بين يديه ، ولذلك نجد عبارة القرآن معبرة :

﴿ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ ﴾

(من الآية ٤٠ سورة النمل)

كأن المسألة لا تتحمل . بل تم تنفيذها فوراً . إذن فالحق يوضح للمخلوقين من العصر : إياكم أن تفهموا أن تميزكم بعناصركم . إنني أقدر بطلاقة قدرتى أن أجعل الأدنى يتحكم فى الأعلى ، لأنها رائدة من عنصر العناصر .

﴿ قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴿١٣﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

وكلمة ﴿ فاهبط ﴾ تشير وتدل على أن الهبوط أمر معنوى ، أى أنك لست أهلاً لهذه المنزلة ولا لتلك المكانة . هذا ما تدل عليه كلمة ﴿ فاهبط ﴾ ، ثم جاء الأمر بعد ذلك بالخروج من المكان .

والصَّغار هو الذل والهوان ، لأنه قابَل الأمر باستكبار ، فلابد أن يجازى بالصَّغار . وبذلك يكون قد عومل بضد مقصده ، والمعاملة بضد المقصد لون من التأديب والتهذيب والتعليم ، مثلما يقرر الشرع أن الذى يقتل قتيلاً يحرم من ميراثه ، لأنه قد قتله ليعجل الإرث منه ، ولذلك شاء الله أن يحرمه من الميراث ؛ فبارتكابه القتل صار محجوباً عن الميراث

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ قَالَ أَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ ﴾

ومعنى ﴿ أنظرنى ﴾ امهلنى اى لا تمتنى بسرعة ، ولا تجعل أجلى قريباً ، بدليل قوله سبحانه :

﴿ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾ ﴾

فالإنظار طلب الإمهال ، وعدم التعجيل بالموت ، وقد طلبه إبليس لكي يشفي غليله من بني آدم وأدم ؛ لأنه جاء له بالصَّغار والذلة والطرد والهبوط ، ولذلك أصر على أن يجتهد في أن يغري أولاد آدم ليكونوا عاصين أيضاً . وكأن إبليس في هذا الطلب أراد أن يُنقذ من الموت وأن يبقى حيًّا إلى يوم البعث الذي يبعث فيه كل من مات وكأنه يريد أن يقفز على قول الحق :

﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ﴾

(من الآية ١٨٥ سورة آل عمران)

فأوضح الحق : أن تأجيل موتك هو إلى يوم الوقت المعلوم لنا وغير المعلوم لك ؛ لأن الأجل لو عرف فقد يعصي من يعلمه مدة طويلة ثم يقوم بالعمل الصالح قبل ميعاد الأجل ، ولكن الله أراد بإبهام زمان الموت أن يشيع رمانه في كل وقت . وفي آية أخرى يقول الحق سبحانه :

﴿ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾ ﴾

(سورة الحجر)

والوقت المعلوم هو النفخة الأولى :

﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾

(سورة الزمر)

وكأن إبليس كان يريد أن يفر من الموت ليصل إلى النفخة الثانية ، لكن ربنا أوضح أنه باق إلى وقت معلوم ، وآخر الوقت المعلوم هذا لابد أن يكون قبل النفخة الأولى .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ﴾

والإغواء . إغراء بالمعصية ، ومن الإغواء الغَيّ وهو : الإهلاك ، يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ .. فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾ ﴾ [سورة مريم]

وحين نقرأ ﴿فبما أغويتنى﴾ أى فبإغوائك يا الله لى سأفعل كذا وكذا ، وبذلك يكون قد نسب الإغواء لله . لكن هل يغوى ربنا أو يهدى ؟ . إن الله يهدى دلالة وتمكيناً ، وسبق أن تكلمنا كثيراً عن هداية الدلالة ودلالة التمكين ، وسبحانه خلق الشيطان مختاراً ، ولم يخلقه مرغماً ومسخراً كالملائكة ، ولأنه قد خلق مختاراً فقد أعطاه فرصة أن يطيع وأن يعصى ، وكأن الشيطان بقوله هذا يتمنى لو أنه قد خلق مقهوراً . ويقول إن الله هو الذى أعطاه سبب العصيان ولم يلتفت إلى أن الاختيار إنما هو فرصة لا للغواية فقط ، ولكنه فرصة للهداية أيضاً وأنت أيها الشيطان الذى اخترت الغواية .

إذن فقول الشيطان : ﴿فبما أغويتنى﴾ إنما يريد به الشيطان : أن يدخل بمعصيته على الله ، ونقول له : لا ، إن ربنا لم يغو ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى لا يغوى وإنما يهدى ؛ لأن الله لو خلقه مرغماً مقهوراً ما أعطاه فرصة أن يختار كذا أو يختار كذا ؛ فقد خلقه على هيئة «افعل» و«لا تفعل» ، واختار هو ألا يفعل إلا المعصية

﴿ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ﴾ [سورة الأعراف]

والمفهوم من العبارة أنهم بنو آدم ، والقعود لون من ألوان حركة الجسم الفاعل ؛ لأن المتحرك إما أن يكون قائماً ، وإما أن يكون قاعداً ، وإما أن يكون

مضجعاً نائماً وأريح الحالات أن يكون نائماً مضجعاً ؛ لأن الجسم في هذه الحالة يكون مستريحاً بفعل الجاذبية الأرضية ، وحين يكون الإنسان قاعداً تقاومه الجاذبية قليلاً ، وحين يكون واقفاً فهو يحمل ثقل جسمه على قدميه ، ولذلك نقول لمن وقف طويلاً على قدميه « اقعد حتى ترتاح» ولو قعد وكان متعباً فقال له «مضجع قليلاً لترتاح»

ولماذا اختار الشيطان أن يقول : ﴿ لَأَقْعُدَنَّ ﴾ ؟ حتى يكون مطمئناً ، فقد يتعب من الوقفة ، أيضاً وهو في حالة القعود يكون منتبها متيقظاً ، والحق يقول

﴿ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ .. ﴿٥﴾ ﴾ [سورة التوبة]

ولم يقل : «قفوا» حتى لا يرهق الناس أنفسهم بالوقوف الطويل ، ولكن ساعة يواجهون الأمر فعليهم بالنهوض . والقعود أقرب إلى الوقوف ، لأن الاضجع أقرب إلى التراخي والنوم ، وقد اختار الشيطان الموقف الذي يحفظ له قوته ، ويبقى له اتباعه ﴿ لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ﴾.

ومادام الشيطان سيغوي ، ويضل لغير ، فسيختار للغواية من يكون في طريق الهداية إنما من غوى باختياره وضل بطبيعته فالشيطان قد استراح من ناحيته ولا يريده ، وتلك ظاهرة تحدث للناس حينما يجدون ويجتهدون في الطاعة ؛ فالشاب الطائع الملتزم يحاول الشيطان أن يخاتله ليصرفه عن الصلاة والطاعة ؛ لأن الشيطان يتلصص على دين الإنسان ، فهو كاللص ، واللص لا يحوم حول بيت خرب . إنما يحوم اللص حول بيت عامر بالخير .

إننا نلاحظ هذه المسألة في كل الناس حينما يأتون للصلاة فيقول الواحد منهم : حينما أصلي يأتي له الوسواس ، ويشككني في الصلاة ، نقول له : نعم هذا صحيح ، وحين يأتي لك هذا الوسواس فاعتبره ظاهرة صحية في الإيمان ؛ لأن معناه أن الشيطان عرف أن عملك مقبول ، ولذلك يحاول أن يفسد عليك الطاعة ؛ لأنك لو كنت فاسداً من البداية ، ووقفت للصلاة دون وضوء ما جاءك الوسواس لكن الشيطان يريد أن يفسد عليك الطاعة ولذلك يقول الله :

﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ .. ﴿٢٠٠﴾﴾ [سورة الأعراف]

لماذا ؟ لأن الله خلقك وخلقه ، وإن كنت لا تستطيع دفعه لأنه يجري منك مجرى الدم في العروق ويعمد إليك بالخواطر والمواجيد التي لا تضبطها ؛ ويأتي إليك بمهام الأشياء في وقت الصلاة ؛ فتتذكر الأشياء التي لم تكن تتذكرها ، ويأتي لك بأعقد المسائل وأنت تصلي ؛ وكل ذلك لأنه قال : ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ ، ولم يقل إنه سيقعد على الطريق المنحرف ، ولن يجلس الشيطان في مجلس خمر ، لكنه يقعد على أبواب المساجد أو في المساجد ليفسد للناس أعمالهم الصالحة . فماذا نفعل في هذه الحال؟ يدلنا الحق سبحانه أن نستعيذ : ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾

فمعنى ﴿فَاسْتَعِذْ﴾ أي فالتجيء منه إلى الله ؛ لأن الله الذي أعطاه الخاصية في أن يتسلط فيبث ، وفي همك ، وفي خواطرك ، هو القادر على منعه ، وحين تقول: «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم» تفزع والتجاء إليه سبحانه فإنه جل شأنه - ينصدك منه . وإن كنت تقرأ القرآن ثم جاءك الخاطر من الشيطان فقل . «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم» وإذا قلت هذا فكأنك نبهته إلى أنك أدركت من أين جاءت هذه النزغة ؛ مرة واثنتين وثلاثاً ، فيقول الشيطان لنفسه : إن هذا المؤمن حاذق يقظ وحذر لا أستطيع غوايته ، ولأبحث عن غيره

ولذلك رأى الإمام أبو حنيفة ، وقد شهر عنه الفتيا ، وذهب إليه سائل يقول ضاع مني مال في أرض كنت قد دفنته فيها ، ولا أعرف الآن مكانه دلني عليه أيها الشيخ ؟ وبطبيعة الحال كان هذا السؤال في غير لعلم ، فقال أبو حنيفة : يا بني ليس في ذلك شيء من العلم ، ولكني احتمال لك ؛ إذا جاء الليل فقم بين يدي ربك مصلي هذه الليلة ، لعل الله سبحانه وتعالى يبعث لك جنداً من جنوده يقول لك عن مكان مالك .

وبينما أبو حنيفة يؤدي صلاة الفجر ، وإذا بالرجل يقبل ضاحكاً متبسماً قائلا يا إمام لقد وجدت المال ، فضحك أبو حنيفة ، وقال : والله لقد علمت أن

الشيطان لا يدعك تتم ليلتك مع ربك ، وسيأتى ليُحبرك ، فهلاّ اتممتها شكراً لله ، هيا قم إلى الصلاة .

إذن فقد عرف الشيطان كيف يقعد ، وكيف يقسم ، لأنه فى آية أخرى يقول :

﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ ﴾

(سورة ص)

لقد استطاع أن يأتى بالقسم الذى يعينه على مهمته ؛ فقال : ﴿ فبعزتك لأغوينهم ﴾ أى بامتناعك عن خلقك وعدم حاجتك إليهم فأنت العالى الذى لا يقهر ؛ لأنك إن أردتهم ما استطعتُ أن آخذهم ، لكنك شئت لكل إنسان أن يختار :

﴿ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾

(من الآية ٢٩ سورة الكهف)

فأقسم ، ومن هذا الباب يدخل الشيطان على الإنسان . ﴿ فبعزتك لأغوينهم أجمعين ﴾ .

واستدرك على نفسه أيضاً وقال :

﴿ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾

(سورة ص)

لأن الذى يريده الله مهديًا لا يستطيع الشيطان أن يغويه ؛ لأنه لا يناهض ربنا ولا يقاومه ، إنما يناهض خلق الله ، ولا يدخل مع ربنا فى معركة ، إنما يدخل مع خلقه فى معركة ليس له فيها حجة ولا قوة ؛ لأن الذى يغلب فى المعركة إما أن يرغمك على الفعل ، وإما أن يضعك لتفعل أنت بدون إرغام . وهل يملك إبليس واحدة من هذه ؟ . لا ، ولذلك سيأتى فى الآخرة يقول

﴿ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي ﴾

(من الآية ٢٢ سورة إبراهيم)

والسلطان قسمان : سلطان يقهر ، وسلطان يقنع . والشيطان يدخل على الإنسان من هذه الأبواب .

ويقول الحق بعد ذلك على لسان إبليس :

﴿ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾ ﴾

فالذى بين اليد هو ما كان إلى الأمام ، ﴿ ومن خلفهم ﴾ أى من الوراء ، و ﴿ عن أيمانهم ﴾ أى من جهة اليمين ، و ﴿ عن شمائلهم ﴾ أى من جهة اليسار . والشىء الذى أمام العالم كله ، وتسير إليه جميعاً هو ﴿ الدار الآخرة ﴾ وحين يأتى الشيطان من الأمام فهو يشككهم فى حكاية الآخرة ويشككهم فى البعث . ويحاول أن يجعل الإنسان غير مقبل على منهج الله ، فيصير من الذين لا يؤمنون بلقاء الله ، ويشكون فى وجود دار أخرى سيُجَازى فيها المحسن بإحسانه والمسىء بإساءته وقد حدث ذلك ووجدنا من يقول القرآن بلسان حاله :

﴿ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿١٦﴾ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿١٧﴾ ﴾

(سورة الصافات)

ولذلك يعرض الحق قضية البعث عرضاً لا يجعل للشيطان منفذاً فيها ، فيوضح لنا أنه سبحانه لم يعجز عن خلقنا أولاً ؛ لذلك لن يعجز عن إعادتنا ، والإعادة بالتأكيد أهون من البداية ؛ لأنه سيعيدهم من موجود ، لكن البداية كانت من عدم ، إنه ـ سبحانه ـ عندما يبيّن للناس أن الإعادة أهون من البداية فهو يخاطبهم بما لا يجدون سبيلاً إلى إنكاره ، وإلاّ فالله ـ جل شأنه ـ تستوى لدى طلاقة قدرته كل الأعمال فليس لديه شىء سهل ومهين وآخر صعب وشاق ويبلغنا ـ سبحانه ـ بتمام إحاطة علمه فيقول :

﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ ۖ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌ ﴿٤﴾ ﴾

(سورة ق)

أى أن لكل واحدٍ كتاباً مكتوباً فيه كل عناصره وأجزائه .

والشيطان أيضاً - يأتي من الخلف ، وخلف كل واحد منا ذريته ، يخاف ضيعتهم ، فيوسوس الشيطان للبعض بالسرقة أو النهب أو الرشوة من أجل بقاء مستقبل الأبناء ، وفساد أناس كثيرين يأتي من هذه الناحية ، ومثل هذا الفساد يأتي حين يبلغ بعض الناس منصباً كبيراً ، وقد كبرت سنه ، ويقيس على الله بشرٍ ، ويظن أنه يترك عياله بخير . لكن إن كنت تخاف عليهم حقاً فأمّن عليهم في يد ربهم ، ولا تؤمّن حياتهم في جهة ثانية .

﴿ وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٩﴾ ﴾

(سورة النساء)

ولماذا لم يأت الشيطان للإنسان من فوق ومن تحت لأن الفوقية هي الجهة التي يلجأ إليها مستعيناً ومستجيراً بربه ، والتحتية هي جهة العبودية الخاصة . فالعبد أقرب ما يكون من ربه وهو ساجد ، فهو في هاتين الحالتين محفوظ من تسلط الشيطان عليه ، لأن الله تعالى يقول : ﴿ إن عبادي ليس لك عليهم سلطان ﴾ .

ويقول تعالى .

﴿ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴿١٧﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

ويأتي الشيطان من اليمين ليرهب الناس ويصرفهم عن عمل الحسن والطاعة . واليمين رمز العمل الحسن ؛ لأن كاتب الحسنات على اليمين ، وكاتب السيئات على الشمال ، ويأتي عن شمائلهم ليغريهم بشهوات المعصية . ونلحظ أن الحق استخدم لفظ ﴿ عن أيمانهم ﴾ و﴿ عن شمائلهم ﴾ ولم يأت بـ « على » لأن « على » فيها استعلاء ، والشيطان ليس له استعلاء أبداً ؛ لأنه لا يملك قوة القهر فيمنع ، ولا قوة الحجة فيقنع . ولأن أكثر الناس لا تتذكر شكر المنعم عليهم ، فيجيد الشيطان غوايتهم . ولذلك يقول الحق تذييلاً للآية :

﴿ .. ولا تجدُ أكثرهُمْ شـٰكرين ﴿١٧﴾ ﴾ [سورة الأعراف]

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا ۖ لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾ ﴾

لقد بلغ الغرور بالشيطان أن تخيّل أنه ذكي ، فشرح لنا خطته ومنهجه فدلّ لنا على أن حكم الله فيه قد نفذ بأن جعل كيده ضعيفاً ، فسبحانه القائل :

﴿ .. إنَّ كَيْدَ الشَّيْطَـٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾ ﴾ [سورة النساء]

لقد بيّنا الحق لكيد الشيطان وغروره ، والناصح هو من يحتاط ، ويأخذ المناعة ضد النزغ الشيطاني . وهنا يقول الحق :

﴿ قال اخْرُجْ منها مذءوماً مدْحُوراً .. ﴿١٨﴾ ﴾ [سورة الأعراف]

وقال له الحق من قبل

﴿ قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّـٰغِرِينَ ﴿١٣﴾ ﴾

[سورة الأعراف]

إذن فهناك هبوط وخروج بصَغار ومجاوزة المكان ، ثم هنا أيضاً تأكيد بأنه في حالة الخروج سيكون مصاحباً للذم والصغار والطرد واللعن ويقول الحق سبحانه

﴿ .. لمن تبعك منهم لأملأن جهنم منكم أجمعين ﴿١٨﴾ ﴾ [سورة الأعراف]

وفي هذا الخبار لمن يتبعون الشيطان بأنهم أهل لجهنم ، ولم يعدّها سبحانه لتسع الكافرين فقط ، لكنه أعدّها على أساس أن كل الخلق قد يكفرون به سبحانه ، كما أعدّ الجنة على أساس أن الخلق جميعاً يؤمنون به ؛ فليس عنده ضيق مكان ، وإن آمن الخلق جميعاً ؛ فإنه - جل شأنه - قد أعد الجنة لاستقبالهم جميعاً ، وإذ كفروا جميعاً فقد أعدّ النار لهم جميعاً ؛ تأكيداً لقوله الحق :

﴿ أولئك هم الوارثون ﴿١٠﴾ الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون ﴿١١﴾ ﴾

[سورة المؤمنون]

وقوله الحق :

﴿ إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون ﴿٩٨﴾ ﴾ [سورة الأنبياء]

وبهذا نكون قد شرحنا مسألة إبليس الذي امتنع عن طاعة أمر الأمر الأعلى بالسجود لآدم

ويقول لخ بعد ذلك :

﴿ وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ ﴾

ويمارد القرآن الحديث عن آدم بعد أن تناول مسألة إبليس فيقول ﴿ يا آدمُ اسكُنْ أنتَ وزوجُكَ الجنّة ﴾

كثير من العلماء تواتر نقل العلم عندهم إلى أن الجنة هى جنة الآخرة والخلود ، واعترض البعض متسائلين : كيف يدخل إبليس جنة الخلود ؟ . وكيف يخرج منها ؟ وهل الذى يدخل الجنة يخرج منها ؟ . وهؤلاء العلماء الذين قالوا : إن الجنة هى جنة الآخرة، لم يفطنوا إلى مدلول كلمة « جنة » ؛ فساعة تطلق كلمة جنة . تأخذ ما يسمى فى اللغة « غلبة الاستعمال » ، أى تأخذ اللفظ من معانيه المتعددة إلى معنى واحد يستقر به عرفاً ، بحيث إذا سُمع انصرف الذهن إليه ، فأنت إذا سمعت يا مؤمن كلمة الجنة ينصرف ذهنك إلى جنة الآخرة ؛ لأنها هى التى تُعتبر جنة بحق ، لكن حينما يأتى اللفظ فى القرآن والمتكلم هو الله ، فلابد أولاً أن ندرس اللفظ واستعمالاته فى اللغة ؛ لأن القرآن جاء بلسان عربى مبين ، فمن الجائز أن يوجد اللفظ فى اللغة وله معانٍ متعددة . وعندما يتعلق الأمر بالدين والفقه فإننا نأخذ اللفظ من معناه اللغوى ، ونجعله ينصرف إلى المعنى الشرعى الاصطلاحى

مثال ذلك كلمة « الحج » فأنت ساعة تسمع كلمة « الحج » تقول هو قصد بيت الله الحرام للنسك والعبادة فى أشهر معلومة ، على الرغم من أن « الحج » فى اللغة هو القصد ، فإذا قصدت أى شىء تقول : حججت إليه . فلما جاء الإسلام أخذ هذا اللفظ من اللغة واستعمله فى الحج بالمعنى الشرعى ، وهو قصد البيت الحرام للنسك ، وكذلك كلمة « الصلاة » إنها فى اللغة الدعاء ، فقوله تعالى : ﴿ وصلِّ عليهم ﴾ أى ادع لهم . ولما جاء الإسلام أخذ الكلمة من اللغة، وجعلها تطلق على معنى اصطلاحى جديد بحيث إذا أطلق انصرفت إليه ، وهى الأقوال والأفعال المخصوصة ، المبدوءة بالتكبير المختومة بالتسليم بشرائطها الخاصة

ولكن هل معنى أننا أخذنا اللفظ من اللغة وجعل له الشرع معنًى اصطلاحيًا أن هذا يكون تركاً لمعناه الأصلى ؟ لا ؛ لأنك إن أردت أن تستعمله فى معناه الأصلى فلك ذلك ، ولكنك تحتاج إلى قرينة تدل على أنك لا تريد الصلاة الشرعية لأن كلمة « صلاة » أصبحت هى الصلوات الخمس المعروفة لنا ، مع أن معناها الأصلى كان الدعاء ، وهذا هو ما جعل العلماء يذهبون إلى أن كلمة « الجنة » ساعة تُطلق ينصرف الذهن إلى جنة الخلود ونقول : المعنى اللغوى للجنة أنها المكان الذى فيه أشجار غزيرة ومتنوعة ، أما غزارتها وعلوها فتستر

الإنسان وتُجنبه عن كل ما حوله ، وأما ما فيها من الثمار والضروريات والكماليات فلأنها تستر الإنسان عن خارجها ويكتفي بأن يكون فيها ، والقرآن لم يجئ بالجنة بمعنى جنة الخلد فقط ، بل يقول أيضاً :

﴿ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ ﴾

(من الآية ٢٦٦ سورة البقرة)

وكذلك يقول سبحانه .

﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ ﴾

(سورة الكهف)

وقوله الحق

﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ ﴾

(سورة سبأ)

وأقول : إن علينا أن نبحث في آفاق مرادات الله حين يُعلمنا من لدنه ويقفنا على المعنى المراد ، إننا نعلم أن أول بلاغ نزل من الله بخصوص آدم أخبرنا فيه أنه قد خلق آدم خليفة في الأرض :

﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾

(من الآية ٣٠ سورة البقرة)

إذن فآدم مخلوق للأرض ، ولا تظلموا آدم وتقولوا إنه مخلوق لجنة ، وكما سنعيش فيها لكنه عصى وأنزلنا إلى الأرض . لذلك نقول : لا ، وعلينا أن نتذكر أن أول بلاغ من الله عن آدم أنه جعله في الأرض خليفة . والذي كان يجب أن نسأل

عنه . مادام قد جعله الله خليفة في الأرض فما الذي جاء بحكاية الجنة هذه ؟!

لقد خلق الله آدم ليكون خليفة في الأرض ، وكان عليه أن يتلقى من الله التكاليف محصورة في « افعل » و « لا تفعل » ؛ لأنك إن لم تمتثل سيظهر الفساد في المجتمع ، أما الذي لا يظهر منه فساد فسبحانه يتركه مباحاً ؛ لذلك فكل ما لم يرد فيه « افعل » و « لا تفعل » لا يفسد به المجتمع . إذن فـ « افعل » و « لا تفعل » هي مقياس ضمان الصلاح في الأرض .

وهل خلق الله الإنسان هكذا بدون معصيات تفسد عليه منهج الله ؟ . لا ، فمادام الشيطان قد وقف هذا الموقف مع آدم ، وقال أنا سأغوي ؛ فسيزين لك في « افعل » ، و « لا تفعل » ويأتيك الأمر بالصلاة فينزغك الشيطان حتى لا تصلي ويأتيك الأمر ألا تشرب الخمر فيزين لك الشيطان أن تشربها ، ويحاول أن ينقل مجال « افعل » إلى مجال « لا تفعل » ، وكذلك يحاول أن يزين لك « أن تفعل » ما هو في مجال « لا تفعل » فترتبك حركتك .

إن الحق سبحانه يريد منهجاً يحكم حركة الحياة ، ويصمم للخلافة في الأرض أن تؤدي مهمتها أداءً يسعد الإنسان فيها في الدنيا وينعم في الآخرة ، لذلك كان لابد أن يدرب الحق سبحانه خليفته في الأرض على المنهج ؛ حتى لا يتلقى المنهج تلقيًا نظريًا . لذلك شاء الحق سبحانه وتعالى ألا يجعل آدم يباشر مهمة الخلافة إلا بعد أن يعطيه تدريباً على المهمة في « افعل » و « لاتفعل » . وحذره من العقبات التي تعترض « افعل » ؛ حتى لا تجرَّ في منطقة « لا تفعل » ، وكذلك من العقبات في منطقة « لا تفعل » حتى لا تجرَّ في منطقة « افعل » ، واختار له مكاناً فيه كل مقومات الحياة وترفها حتى لا يتعب في أي شيء أبداً في أثناء التدريب ، وأوضح له أن هذه هي الجنة وهي بستان جميل وفيه كل مقومات الحياة وترفها ، وأمره : كُلْ من كل شيء فيها ، ولكن لا تقرب هذه الشجرة .

« كل » هذا هو الأمر ، و « لا تقرب » هذا هو النهي . وأوضح سبحانه لآدم أن الذي سيمكر عليه تطبيق منهج الله هو العدو الذي ثبتت عداوته إنه « إبليس » ؛ لأنه حين امتنع عن السجود لآدم تلقى الطرد واللعنة فأقسم وقال .

﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾

(سورة ص)

كأن الحق سبحانه وتعالى جعل الجنة كمكان فيه كل مقومات الحياة لآدم بصنع الله ـ سبحانه ـ وإعداده ، وأعطى له منها القدر الذى يعطى المقوم بلا فضلات تتعبه ، ولا ينتفخ ولا يعانى من متاعب فى الصحة إلخ ؛ لأنه سبحانه يعطى لآدم القدر المقوم . وسبحانه قادر على كل شىء بدليل أنه يرعى الجنين فى بطن أمه ، والجنين ينمو ، والنمو معناه أنه يتلقى الغذاء ، ولا يخرج منه فضلات ؛ لأن الغذاء الذى يدخله الله له على قدر النمو فقط ، وحين يكون ربنا هو الذى يمد جنة التدريب بالغذاء ، فهو قادر على كامل الإعداد .

إذن فالجنة التى وُجد فيها آدم بداية ليست هى جنة الجزاء ؛ لأن جنة الجزاء لابد أن تأتى بعد التكليف . ولا يمكن أن يكون فيها تكليف ، ومن يسكنها لا يخرج منها . وآدم ـ كما علمنا ـ مخلوق للأرض ، إذن وجود الجنة هنا يعنى أنها مكان التدريب على المهمة فى الخلافة أمراً متمثلاً فى ﴿ فكلا ﴾ ، ونهياً متمثلاً فى ﴿ ولا تقربا ﴾ ، لم يقل لهما : لا تأكلا ، بل قال . ﴿ لا تقربا ﴾ لأن القربان مظنة أنه يؤدى إلى الغواية ويدفع إليها . وهو قد أكل منها لأنه جاء ناحيتها واقترب منها ، ولو كان قد استمع ولم يقترب لما أكل منها .

فكأن الله جعل لآدم فى جنة التدريب والتمرين رمزين : الرمز الأول : لـ « افعل » ، والرمز الثانى لـ « لا تفعل » ، ونجد أن الذى نهى الله عنه قليل بالنسبة لما أباحه وأمر به . وهذا من رحمة الله بالعباد ، فيفعل المؤمن ما يؤمر به ، ولا يحوم حول ما حرمه الله ؛ لأنه لا يأمن حين يرى ما حرم الله أن تميل نفسه إليه ، ولذلك قال ﴿ ولا تقربا ﴾ فلو أنهما لم يقربا ما كانت الشجرة تغريهما بأى منظر . ولذلك فى كثير من الأشياء التى يحرمها الحق سبحانه وتعالى وفى قمتها ما يصون ويحفظ العقيدة الأساسية ، يقول بعدم الاقتراب أو الاجتناب ، فسبحانه هو القائل :

﴿ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ﴾

(من الآية ٣٠ سورة الحج)

ولم يقل : «لا تعبدوا الأوثان» ، بل قال : «فاجتنبوا» ، والشأن في «الخمر» أيضاً جاء بالاجتناب لكنّ بعضاً من السطحيين يقولون : لم يرد في الخمر تحريم بل قال «لاجتناب» ، ونقول له : الاجتناب أقوى من المنع ومن التحريم ، لأن غاية التحريم أن يمنعك من شرب الخمر لكن الاجتناب يقتضي ألا تذهب ناحيتها ، ولا تقعد في المكان الذي توجد فيه ، ولا تعصرها ولا تحملها .

﴿ .. وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّـٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ ﴾ [سورة الأعراف]

والظلم هو تجاوز الحد أو إعطاء الشخص غير حقه ، ويوضح سبحانه : أنا لم أجعل لكما حقا في أن تقربا ناحيه هذه الشجرة ، فإن قربها أي منكما ، فهو قد خالف ما شرعته لكما ، «فتكونا من الظالمين» أي تدخلا في إطار من يظلمون أنفسهم لأن الله لا يظلم أحداً ، وأنت تظلم نفسك لأنك تعطي نفسك شهوة قليلة في زمن يسير ، ويعد ذلك تأخذ عقابها عذاباً أليماً في زمن طويل وبشكل أشد وهذا ظلم لنفسك ، كما أنه دليل على أنك غير مأمون عليها

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَـٰنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَـٰذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَـٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾

كلمة «وسوس» تدل على الهمس في الإغواء ، ويعرف أن الذي يتكلم في خير لا يهمه أن يسمعه الناس لكن من يتكلم في شرّ فيهمس خوفاً من أن يفضحه أحد ، وكأن كل شر لابد أن يأتي همساً ، وصاحبه يعرف أن هذا الكلام لا يصح أن يحدث ، ويستحي منه ، ولا يحب أن يعرف المجتمع عنه هذا الشيء ،

و « وسوس » مأخوذة من الصوت المعرى ، لأن الوسوسة هى صوت رنين الذهب والحلى ، إذن فما قاله الشيطان لآدم وزوجه هو كلام معرٍ ليلفتهما عن أوامر رب حكيم .

وقوله الحق :﴿ فوسوس لهما ﴾ يعطينا حيثيات البراعة لحواء ، لأن الشائع أن حواء هى التى ألحت على آدم ليأكلا من الشجرة ، وكثير منا يظلم حواء على الرغم من أن القرآن يؤكد أن الوسوسة كانت لآدم وحواء معاً

﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْآتِهِمَا ﴾

(من الآية ٢٠ سورة الأعراف)

وهل وسوس الشيطان لهما ليبدى لهما ما ووري من سوءاتهما ، أو وسوس ليعصيا الله ؟ . لقد وسوس ليعصيا الله ، وكان يعلم أن هناك عقوبة على المعصية ، ويعلم أنهما حين يأكلان من الشيء الذى حرمه ربنا ستظهر سوءاتهما ، و« السوءة » هى ما يسوء النظر إليه ، وتطلقها على العورة ، والفطرة تستنكف أن يرى الإنسان المكتمل الإنسانية السوءة وكأنهما فى البداية لم ير أحدهما سوءة الآخر أو سوءة نفسه لأن الحق يقول : ﴿ ليبدى لهما ما ووري عنهما من سوءاتهما ﴾

والسوءات أربع : اثنتان للرجل واثنتان للمرأة ، فكأن كل إنسان منهما لا يرى سوءتيه ، وكذلك لا يرى سوءتي الآخر ، لأن السوءات كلها لها ما يخفيها عن الرؤية ، وهذا كلام معقول جداً . ألم تقل سيدتنا أم المؤمنين عائشة ـ رضى الله عنها ـ : « ما رأيت ولا رأى منى » ، وفى هذا القول تتجلى قمة الأدب لأنها لم تجرئ حتى باللفظ ، لأن العضو مادام سوءة فهو مبنى على الستر . وذلك حين حدّث رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال « يا أيها الناس إنكم تحشرون إلى الله حفاة عراة غرلا كما بدأنا أول خلق نعيده وعدا علينا إنا كنا فاعلين »[1] ، تعجبت السيدة عائشة فقال لها : « الأمر أخطر من أن ينظر أحد إلى أحد » .

(١) رواه البخارى ومسلم

﴿ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا ﴾

(من الآية ٢٠ سورة الأعراف)

وبماذا ووري ؟ . لابد أن هناك لباساً كان على كل منهما ، وقال العلماء لكثير عن هذا اللباس ، فمن قائل : إن أظافر الإنسان هي بقية اللباس الذي كان موجودا عند آدم وحواء ، وهو ما كان يواري السوءات ، ويقال : إنّ أيّ إنسان يكون في غاية الضحك والانبساط ، ويريد أن يكتم نفسه ، ويمنعها ويحول بينها وبين الضحك به يحدث له ذلك لو نظر إلى أظافره ، عندئذ لا يمكنه أن يضحك لأنها بقية لحظة الندم على كشف السوءة . وحرّبها في نفسك ، تجد نفسك قد منعت من الضحك ، وهذا من عمل الإله .

أو أن الستر الذي كان يواري السوءة هو النور الإلهي الذي كان يلفهما ، والنور الساطع جداً حين يلف لا يبين ، صحيح أنك بالنور ترى الأشياء ، لكنه إن اشتد عمّى على الأشياء فلحفاها فلا تراها ؛ لأن أي أمر إذا زاد عن حدّه انقلب إلى ضده ، فإما أن يكون الثوب الأظافر ، وإما أن يكون النور الإلهي الذي كان يغشاهما ويواري السوءة ، وقد سميت « سوءة » و « عورة » ، لأنها تسوء ، فلماذا تسوء ؟ وما الفرق بين فتحتين : فتحة في الفم ، وفتحة في العورة ؟ .

إن فتحة العورة سوءة باعتبار ما يخرج منها . وحينما كانا يأكلان من إعداد ربنا لم يكونا ـ كما قلنا ـ في حاجة إلى إخراج فضلات ؛ لأن إعداد الله يعطي كلاً منهما على القدر الكافي للحركة والفعل ، وكانت المسألة مجرد فتحات مثل بعضها . لكن حينما يخرجان عن مرادات الله في الطعام ، ويأكلان غير ما أمر الله به ، ويمارسان اختيار الطعام بدأت الفضلات في الخروج بما لها من رائحة غير مقبولة ، فهل ظهور السوءة لهما هو رمز إلى أن هناك مخالفة لمنهج الله سواء أكان ذلك في القيم والمعنويات أم في الأمور المادية ؟ .

نعم ؛ لأن كل شيء يُخالَف فيه منهج الله لابد أن تبدو فيه العورة ، وإن رأيت أي عورة في المجتمع فاعلم أن منهجاً من مناهج الله قد عطل وينقل القرآن ما قاله لهما الشيطان من وسوسة :

﴿ وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ﴾

(من الآية ٢٠ سورة الأعراف)

لقد همس الشيطان وأوحى لهما بأن الحق : أراد ألا تقربا هذه الشجرة لأن من يأكل منها يصير مَلَكاً ، أو خالداً . ولم يمحص أى منهما كلمات الشيطان ليعرف أن كيده كان ضعيفاً واهياً وغياً ؛ لأنه مادام قد عرف أن من يأكل من هذه الشجرة يصير ملكاً أو يبقى من الخالدين فلماذا لم يخطف منها ما يجعله مَلَكاً أو خالداً ؟ وفى هذا درس يبين لنا أن مَن يُزيِّن له ويتصدى له أحد بالإغواء يجب عليه أن يمحص إلى أى غواية يسير ، وأن يدقق فى نتائج ما سوف يفعل .

وإذا كان الشيطان قد قال :

﴿ قَالَ أَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ ﴾

(من الآية ١٤ سورة الأعراف)

فلماذا لم ينقذ نفسه بالأكل من هذه الشجرة وتنتهى المسألة ؟ . إذن كان ما يقوله الشيطان كذباً .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ ﴿٢١﴾ ﴾

« قاسم » مادة فاعل ، تأتى للمشاركة ، أى أن هناك طرفين اثنين ، كل منهما فاعل فى ناحية ومفعول فى ناحية أخرى ، مثل شارك زيد عمراً ، وهى تعنى أيضاً أن عمر شارك زيداً ، وهكذا تكون مادة فاعل وتفاعل ، فكل منهما فاعل من جهة ومفعول من جهة . وفى المعنى نجد الاثنين فاعلاً ومفعولاً ، إذن « قاسم » تحتاج إلى عمليتين اثنتين فهل جلس إبليس يقسم لآدم ولزوجته ، وهما يقسمان ؟ . ونقول : لا ، لأنها تأتى مرة لغير المفاعلة ، أو للمفاعلة اللزومية ، والمفاعلة اللزومية تتضح فى قوله الحق

﴿ وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ ﴾

(من الآية ١٤٢ سورة الأعراف)

وواعدنا ، مثلها مثل فاعل ، من الذى واعد ؟ . إنه الله الذى وعد موسى عليه السلام ، ودخل موسى فى الوعد بقبوله الوعد وتوفيته به .

إذن « قاسمهما » أى قبلا القسم ودخلا فيه .

﴿ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

و « قاسم » ، أى أقسم ، ولذلك حينما عاتب ربنا سيدنا آدم أوضح سبحانه : أنا قلت إنه عدو لك ولزوجك ، ولسوف يخرجنكما من الجنة لتتعب وتشقى ، فقال آدم : يا ربى ما كنت أعتقد أن خلقاً من خلقك يقسم بك على الباطل . ولم يأت على البال أن خلقاً يقسم بالله على الباطل . وكانت هذه أول خديعة فى الخلق . ولذلك نجد قتادة ـ رضى الله عنه ـ يقول : « المؤمن بالله يُخدع » .

والنبى عليه الصلاة والسلام عقد على امرأة ودخلت به ، ومن كيد النساء وهن زوجات للنبى صلى الله عليه وسلم وقد خمن أن يشغف بها حُبًا ، فقلن لها : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يحب هذه الكلمة ، فإذا دخل عليك فقوليها ! ، قولى . « أعوذ بالله منك » ، ولحظة أن دخل عليها سيدنا رسول الله ، قالت له : « أعوذ بالله منك » . فقال لها : استعذت بمعاذ . ولم يقربها الرسول ، وهذا ما يشرح لنا كيف يُخدع المؤمن بالله . وها هو ذا سيدنا عبدالله بن عمر كان يعتق من العبيد من يحسن الصلاة ويتقنها ويؤديها فى مواعيدها ، ويقف فيها خاشعاً ، وحين عرف العبيد ذلك احترفوا إقامة الصلاة أمام المكان الذى يجلس فيه وكانوا يؤدونها بخشوع ، وكان رضى الله عنه يعتقهم ، وذهب له من يقول : إن العبيد يخدعونك ، فيقول : من خدعنا بالله ، انخدعنا له .

والنصح هنا : إغراء بمخالفة أمر الله ، وكان يجب ألا تكون هناك غفلة من آدم ، وكان لابد أن يقارن بين الأمرين ، بين غواية الشيطان له بالأكل ، وبين أمر الحق سبحانه الذى قال له ولزوجه : لا تقربا لكنه لم يفعل .

ويقول الحق بعد ذلك .

﴿ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ ۚ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ ۚ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾ ﴾

﴿ فدلاهما بغرور ﴾ أى فأنزلهما من رتبة الطاعة إلى درك المعصية والذنب مما غرهما به وخدعهما من القسم.و « دلاّ » مأخوذة من دلّى رجليه فى البئر كى يرى إن كان فيه ماء أم لا ، أودلّى حبل الدلو لينزله فى البئر ، ومعناها : أنه يفعل الشىء مرة فمرة ، و « بغرور » أى بإغراء لكى يوقعهما فى المخالفة ، فأظهر لهما النصح وأبطن لهما الغش .

وهنا وقفة تدل على الاصطراع بين الحق والباطل فى النفس ، ﴿ فلما ذاقا الشجرة ﴾ هذا يدل على أنهما بمجرد المذاق تذكرا أن النزغ من إبليس جعلهما يذهبان إلى الشجرة . وأن ما أخذاه فقط كان مجرد المذاق ، فتنبه كلاهما إلى جسامة الأمر .

﴿ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ ﴾

(من الآية ٢٢ سورة الأعراف)

و « الخصف » أى تأتى بشىء وتلزقه على شىء لتداوى شيئاً . وقديماً حينما كان يبلى نعل الحذاء ، ويظهر به خرق فالإسكافى يضع عليه رقعة من الجلد تكون أوسع من الخرق حتى تتمكن منه

وهكذا فعل آدم وحواء ، أخذا من ورق الجنة ووضعا ورقة على ورقة ليداريا السوءة . وقوله الحق:﴿ وطفقا ﴾ يعنى وجعلا من ورق الشجر غطاء للسوءات .

وهنا يقول الحق :

﴿ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾

(من الآية ٢٢ سورة الأعراف)

لقد كان التكليف هنا في أمر واحد ، والإباحة في أمور متعددة ، وسبحانه لم يكلفهما إلا بأمر واحد هو عدم الاقتراب من الشجرة ، والمباح كان كثيراً ؛ لذلك لم يكن من اللائق أن يتوها عن التكليف . ولم يكن هذا التكليف بالواسطة ولكن كان بالمباشرة ، ولذلك سنمنعنا هذا الموقف في العهم في لفظة للقصة في سورة غير هذه وهو قوله الحق :

﴿ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴾

(من الآية ١٢١ سورة طه)

ولم يأت الحق هنا بسيرة المعصية ، وقال لهما .

﴿ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾

(من الآية ٢٢ سورة الأعراف)

وسبحانه لا يجرم إلا بنص ، وسبق أن قال سبحانه : ﴿ولا تقربا هذه الشجرة ﴾ وأوضح : أن هناك عنصراً إغوائياً هو إبليس وعداوته مسبقة في أنه امتنع عن السجود ، وقد طرده الحق لهذا السبب . إذن إن آحدهما وعاقبهما الله بهذا الذنب فهو لعادل ، وهما اللذان ظلما أنفسهما وكان لابد أن يكون الجواب نعم يارب نهيتنا ، وقلت لنا ذلك . وهذا إيراد للحكم بأقوى الأدلة عليه ؛ لأن الحكم قد يأتي بالإخبار ، وقد يأتي بالاستفهام بالإيجاب ، ويكون أقوى لو جاء بالاستفهام بالنفي .

﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾

(من الآية ٢٢ سورة الأعراف)

ونحن نعلم أن العدو هو الخصم الذى يريد إلحاق الضرر والإيذاء بك، و«مبين» أى محيط، وهذا دليل يظهر عداوة الشيطان وإحاطتها؛ لأنه قد سبق أن أوضح أنه سيأتى من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم. أو بيِّن العداوة وشديد الخصومة.

ويأتى الإقرار بالذنب من آدم وحواء:

﴿ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾

وتلك هى الكلمات التى قال الله عنها فى سياق آخر:

﴿ فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ ﴾ [سورة البقرة]

فكأن الحق سبحانه وتعالى قدَّر غفلة خلقه عن المنهج؛ فشرَّع لهم وسائل التوبة إليه، ووسائل التوبة ثلاث مراحل: تشريعها رحمة، ثم الإقبال عليها من المذنب اعترافا وإنابة، وقبولها منه سبحانه رحمة، فالتشريع يطلب منك أن تفعل، وحين تتوب يتوب الله عليك.

تشريع التوبة - إذن - رحمة، لا بالمذنب فقط، بل وبغيره أيضاً؛ لأن الله لو لم يشرع التوبة، كان الذى يعمل معصية، ولا يجد مغفرة، يستشرى فى المعاصى، وإذا استشرى فى المعاصى تعب المجتمع كله.

﴿ قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين ﴿٢٣﴾ ﴾

[سورة الأعراف]

وهذا هو الموقف بعد الذنب من آدم وزوجته، وهو يختلف عن موقف إبليس بعد الذنب؛ فإبليس أراد أن يبرر المخالفة

﴿ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴾

(من الآية ٦١ سورة الإسراء)

فماذا قال آدم وحواء ؟ :

﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾

(من الآية ٢٣ سورة الأعراف)

ولذلك كان جزاء إبليس ـ وهو المتأبي على أوامر الله وحكمه ـ أن يطرد من رحمته . وجزاء المعترف بأنه أذنب ، وأنه ظلم نفسه أن تُقبل توبته . إذن لا يصح للناس الذين يقيمون على معصية أن يقول الواحد منهم : « هذه هي ظروفي » ، ويبرر ويحلل ما يفعله من المعاصي ، بل على الواحد منهم ألا يطرد نفسه بنفسه من متعلقة الرحمة ، وعليه أن يقول : « ما أفعله حرام ، لكن لا أقدر على نفسي » وبذلك لا يكون قد ردّ الحكم ، بل اتهم نفسه بالتقصير واعترف بالذنب ، فصار أهلاً للمغفرة وأهلا للتوبة .

وهنا نسأل : ما الفرق بين معصية إبليس ومعصية آدم ؟ . ونقول : إبليس عصى وجاء بحيثية رفض الأمر ، لكن آدم عصى وأقر بالذنب وطلب المغفرة .

وحين قال آدم وزوجته حواء : ﴿ ربنا ظلمنا أنفسنا ﴾ معاً وفي نَفْس واحد ، ونغمة حزينة نادمة ، ألا يدل ذلك على أنهما قد تعلماها ؟ . إن كلا منهما لو اعتذر له بمفرده لاختلفا في أسلوب الاعتذار .

وهذا دليل على أنها ملقنة ، ولهذا قال ربنا .

﴿ فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ﴾

(من الآية ٣٧ سورة البقرة)

وهما قد قالا : ﴿ ربنا ظلمنا أنفسنا ﴾ ، وأنفسنا جمع نَفْس ، ولم يقولا « نفسينا » ، بل قالا ﴿ أنفسنا ﴾ أي أن قلبيهما أيضاً قد صفيا وخلصا من أثر تلك المعصية ، وأن ذلك مطمور وداخل في نفوس ذريتهما .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾ ﴾

ولنلتفت لنجد أن هناك أمراً قد سبق لإبليس بالهبوط ، وهنا أمر آخر بالهبوط ، وبالله لو كانت جنة الخلود هي محل إقامتهما ، وآدم مخلوق لها ثم عصى ثم تاب لما خرجا منها أبداً . لكنه سبحانه أمر آدم بأن يهبط إلى الأرض التي جعله خليفة فيها ، ليباشر مهمة الخلافة في إطار التجربة التي وقعت له ، وعليه أن يحترم أمر الله في كل تكليف ، وأن يحترم نهي الله في كل تكليف . وليحذر عداوة الشيطان فإنه سيوسوس له . وقد جرب ذلك بنفسه ، فلينزل مزوداً بالتجربة ، وليس له عذر من بعد ذلك . ﴿ قال اهبطوا بعضكم لبعض عدو ﴾ .

والأمر هنا للجماعة ، ولم يقل لهما اهبطا . وفي آية ثانية قال

﴿ قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا ﴾

(من الآية ١٢٣ سورة طه)

وذلك لنعرف أن ورود القصة في أماكن متعددة جاء لتعطي لقطات كثيرة . والأمر هنا جاء بقوله : ﴿ اهبطوا ﴾ لأن الهبوط اشترك فيه الثلاثة ؛ آدم وحواء ، وإبليس والعداوة مسبقة ولا ندعيها . العداوة بين طرفين : اثنان في طرف هما آدم وحواء ، وواحد في طرف هو إبليس . ويريد الحق لنا بيان الحقائق وأن المتكلم إله ، إنّ كل حرف عنده بميزان ؛ ولذلك نجده سبحانه يقول لنا :

﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ ﴾

(من الآية ٨٢ سورة النساء)

أي إياك أن تأخذ واجهة النص ، ولكن ابحث في خلفيات النص ، ولا تأخذ واجهة اللفظ ، بل انظر إلى ما وراء الألفاظ

﴿ قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

وكلمة « عدو » تعني وجود صراع ، ومعارك سوف تقوم بين أولاد آدم بعضهم مع بعض ، أو تقع العداوة بينهم وبين أعدائهم من سكان الأرض من جن وغيرهم ، لكنها لمدة محدودة ، ولذلك قال : ﴿ ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين ﴾ .

أي أن لكم استقراراً في الأرض ومتاعاً إلى حين . وصراع صاحب الحق في الحق يجب أن يأخذه على أنه متاع في الدنيا ولا يأخذه على أنه معركة بلا جزاء ، لا ، فأنت تجاهد وتأخذ جزاء كبيراً على الجهاد وهذا متاع .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾

كأنه قال:﴿ ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين ﴾ فأحب أن يعطينا الصور لرحلة الحياة ، ويرسم لنا علاقتنا بالأرض التي قال فيها :

﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾

(من الآية ٣٠ سورة البقرة)

فقد ربطنا بالأرض . إيجاداً من طينها ، ومتعة بما فيها من ميزات ، وخيرات وثمرات ، ثم نموت لنعود لها ونبعث من بعد ذلك . فالإنسان منا من الأرض ، منها يحيا وفيها يموت ، ويذهب إلى أصله ومرجعه ، إلى الأم الأرض ، فهي تكفله وتضمه وتأخذه في حضنها فهي الحانية عليه وبخاصة في وقت ضعفه . وساعة ما يكون الإنسان في حالته العلية ، وله أخ حالته عكس ذلك فإن قلب الأم إنما يكون مع الضعيف ، ومع المريض ، ومع الصغير .

والأرض هي التي تأخذ كل البشر ، تأخذ الإنسان وتمص منه الأذى ، وتداري

رائحته ، أمّا أحبابه في الدنيا وإخوانه ، فقد سارعوا بمواراته التراب تهادياً لرحلة التحلل . وبمجرد أن يموت الإنسان ، أول ما يُنْسَى هو اسمه ؛ فيقولون : «أين الجثة» ، ولا يقولون «أين فلان». وبعد الكفن يوضع الجثمان في النعش ، يوارى في التراب ويدمدم اللحد عليه برجليه .

وينتقل الحق بعد ذلك بالخطاب إلى أبناء آدم فيقول :

﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ٢٦ ﴾

وكلمة ﴿ يَا بَنِي آدَمَ ﴾ لفت إلى أن تتذكروا ماضي أبيكم مع عدوكم المبين ، إبليس . أنتم أولاد آدم ، والشيطان موجود ، فانتبهوا. لقد أنزل الحق عليكم لباساً يواري سوءاتكم ؛ لأن أول مخالفة حدثت كشفت السوءة ، والإنزال يقتضي جهة علو لنفهم أن كل خير في الأرض يهبط مدده من السماء ، وسبحانه هو من أنزل اللباس لأنه هو الذي أنزل المطر ، والمطر روى بذور النبات فخرجت النباتات التي عرفناها فصارت ملابس ، وكأنك لو تتبعت كل خير لوجدته هابطاً من السماء ولذلك يمتن الحق سبحانه وتعالى على عباده فيقول :

﴿ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزۡوَٰجٖۚ .. ٦ ﴾ [سورة الزمر]

نعم هو الذي أنزل من الأنعام أيضاً لأن السببية في النبات من مرحلة أولى ، والسببية في الحيوان من مرحلة ثانية ، فهو الذي جعل النبات يخرج من الأرض ليتغذى عليه الحيوان ، ويقول سبحانه أيضاً :

﴿ لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس .. (٢٥) ﴾ [سورة الحديد]

نعم سبحانه هو من أنزل الحديد أيضاً ؛ لأننا نأخذه من الأرض التي خلقها الله ، وهذا دليل على أن التنزيلات إنما أراد الله أن يحمي بها كل منهج

﴿ يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباساً يواري سوءاتكم .. (٢٦) ﴾ [سورة الأعراف]

فهذا كان قد أنزل اللباس الذي يواري سوءات الحس وسوءات المادة ، كذلك أنزل اللباس الذي يواري سوءات القيم . فكلما أنكم تحسّنون وتتركون أن اللباس المادي يداري ويواري السوءة المادية الحسية عليكم أن تعلموا أيضاً أن اللباس الذي ينزله الله من القيم إنما يواري ويستر به سوءاتكم المعنوية . ولباس الحياة المادية لم يقف عند مواراة السوءات فقط ، بل تعدى ذلك إلى ترف الحياة أيضاً لذلك قال الحق :

﴿ .. قد أنزلنا عليكم لباساً يواري سوءاتكم وريشاً ولباس التقوى ذلك خير ذلك من آيات الله لعلهم يذكرون (٢٦) ﴾ [سورة الأعراف]

والريش كسماء الطير ، وقديماً كانوا يأخذون ريش الطير ليريشوا به الملابس ، وكانوا يقصدون الريش على التيجان ، وأخذ العوام هذه الكلمة وقالوا : فلان مريش أي لا يملك مقومات الحياة فقط ، بل عنده ترف الحياة أيضاً ، فكأن هذا القول الكريم قد جاء بمشروعية الترف شريطة أن يكون ذلك في حل . وقبل أن يلمننا الحق سبحانه وتعالى إلى مقومات الحياة لفت إلى الحمال في الحياة ، فقال سبحانه .

﴿ والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة .. (٨) ﴾ [سورة النحل]

والركوب لتجنب المشقة ، والزينة من أجل الجَمَال .

وكذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ﴾

(من الآية ٣٢ سورة الأعراف)

بل سبحانه طلب زينتنا في اللقاء له في بيته فيقول :

﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾

(من الآية ٣١ سورة الأعراف)

إذن فهذا أمر بالزينة ، وهنا في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها يقول سبحانه :

﴿ وَرِيشًا وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ﴾

(من الآية ٢٦ سورة الأعراف)

نعم إن لباس التقوى خير من ذلك كله ؛ لأن اللباس المادي يستر العورة المادية ، وقصاراه أن يكون فيه مواراة وستر لفضوح الدنيا ، لكن لباس التقوى يواري عنا فضوح الآخرة .

أو لباس التقوى هو الذي تتقون به أهوال الحروب ؛ إنّه خير من لباس الزينة والرياش لأنكم تحمون به أنفسكم من القتل ، أو ذلك اللباس ـ لباس التقوى ـ خير من اللباس المادي وهو من آيات الله ، أي من عجائبه ، وهو من الأشياء اللائقة ؛ فالإنسان منكم مكون من مادة لها احتياجات مادية وعورات مادية ، وهناك أمور قيمية لا تنتظم الحياة إلا بها ، وقد أعطاك الحق مقومات الحياة المادية ، وزينة الحياة المادية ، وأعطاك ما تحيا به في السلم والحرب ، ومنهج التقوى يحقق لك كل هذه المزايا . فخذ الآيات مما تعلم ومما تحس لتستنبط منها ما يغيب عنك مما لا تحس .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ ۗ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ۗ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾

قبل أن يطلب منا سبحانه ألا نفتتن بالشيطان ، أوضح أنه قد رتب لنا كل مقومات الحياة ، وعلينا أن نتذكر موقف الشيطان ، من أبينا آدم وإخوانه له .

والفتنة في الأصل هي الاختبار ، وتُطلق ـ أحياناً ـ على الأثر السيئ حيث تكون أشد من القتل ، لكن هل يسقط الإنسان في كل فتنة ؟ لا ؛ لأن الفتنة هي الاختبار ، وفي الاختبار إما أن ينجح الإنسان ، وإمّا أن يرسب ، فإن نجح أعطته الفتنة خيراً وإن رسب تعطه شراً .

وبعد أن ذكر الحق سبحانه وتعالى قصة خلق آدم ، وأعلمنا أنه خلقه للخلافة في الأرض ، وأن موضوع الجنة هو حلقة مقدمة لتلقي الخلافة ؛ لأنه إذا ما أصبح خليفة في الأرض ؛ فلله منهج يحكمه في كل حركاته ، ومادام له منهج يحكمه في كل حركاته فرحمة به لم ينزله الله للأرض ابتداءً ليتلقى المنهج بدون تدريب واقعي على المنهج ، فجعل الجنة مرحلة من مراحل ما قبل الاستخلاف في الأرض ، وحذره من الشيطان الذي أبى أن يسجد له ، وأراد منه أن يأخذ التجربة في التكليف . وكل تكليف محصور في « افعل كذا » و« لا تفعل كذا » ؛ لذلك شاء الله أن يجعل له في الجنة فترة تدريب على المهمة ؛ لينزل إلى الأرض مباشر مهمة الخلافة بعد أن زود بالتجربة الفعلية الواقعية ، ولوضح له : أن كُلْ مِنْ كُل ما في الجنة ، ولكن لا تقرب هذه الشجرة . و﴿ كُلْ ﴾ أمْرٌ ، و﴿ لا تقرب ﴾ نَهْيٌ . وكل تكليف شرعي هو بين « لا تفعل » وبين « افعل »

وبعد ذلك حذره من الشيطان الذى يضع ويجعل له العقبات فى تنفيذ منهج الله ، فلما قرب آدم وحواء الشجرة وأكلا منها ؛ خالفا أمر الله فى ﴿ولا تقربا﴾ ، وأراد الله أن يبين لهما بالتجربة الواقعية أن مخالفة أمر الله لابد أن ينشأ عنها عورة تظهر فى الحياة ، فبدت له ولزوجته سوءاتهما ، فلما بدت لهما سوءاتهما علم كل منهما أن مخالفة أمر الله تُظهر عورات الأرض وعورات المجتمع ، فأمره الله : أن اهبط إلى الأرض مزوداً بهذه التجربة .

ولما هبط آدم وزوجه إلى الأرض أرسل إليه منهج السماء بعد التجربة ، وأراد أن يبين لنا أنه عصى أمر ربه فى قوله : ﴿ ولا تقربا ﴾ ، وتلقى من ربه كلمات فتاب عليه ، وأراد سبحانه أن يبين لنا أن آدم يتمثل فيه أنه بشر يصيب ويخطئ ، وتدركه الغفلة ، وقد يخالف منهج الله فى شىء ، ثم يستيقظ من غفلته فيتوب ، وبعد أن كلفه أن يبلغ رسالة الله وصار نبيًا ؛ جاءت له العصمة فلا يغفل ولا ينسى فى تبليغ الرسالة .

ولذلك يجب أن نقطن إلى النص القرآنى .

﴿ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴾

(من الآية ١٢١ سورة طه)

إنَّ هذه طبيعة البشر أن يعصى ثم يتوب إن أراد التوبة ، ولابد أن نفطن أيضاً إلى قوله الحق : ﴿ ثم اجتباه ربه ﴾ .

إذن فالاصطفاء جاء بعد المعصية ؛ لأن عصيانه كان أمراً طبيعيًا لأنه بشر ، يخطئ ويصيب ، ويسهو ويغفل . ولكن بعد أن خرج من الجنة اجتباه الله ليكون نبيًا ورسولاً ، وءادم قد صار نبيًا ورسولاً فالعصمة تأتى له :

﴿ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾ ﴾

(سورة طه)

إذن لا يصح لك أن تقول : كيف يعصى آدم وهو نبى ؟! نقول : تنبه إلى أن

النبوة ثم تأته الا بعد أن عصى وتاب ؛ فهو يمثل مرحلة البشرية لأنه أبو البشرية كلها ، والبشرية منقسمة إلى قسمين : بشر مبلغون عن الله ، وأنبياء يبلغون عن الله ، فله في البشرية أنه عصى ، وله في النبوة أن ربه قد اجتباه فتاب عليه وهداه. والذين يقولون : إن آدم كان محبوساً بالجنة ، نقول لهم : لا. افهموا عن الله ، لأنه يقول : ﴿إني جاعل في الأرض خليفة﴾.

إذ أمر الجنة كان مرحلة من المراحل التي سبقت الخلافة في الأرض انها كانت تدريباً على المهمة التي سيقوم بها في الأرض ، والا فلو أن آدم قد خلقه الله للجنة وأن المعصية أخرجته ، الا أن الله قد قبل منه توبته ، ومادام قبل توبته فكان يجب أن يبقيه في الجنة ، ومن هنا نقول ونؤكد أن الجنة كانت مرحلة من المراحل التي سبقت الخلافة في الأرض. وبعد ذلك يريد الحق سبحانه وتعالى أن يطلع علينا لتجربة لآدم حتى نتعظ بها ، وأن نعرف عداوة الشيطان لنا ، وألا نقع في الفتنة كما وقع آدم.

﴿يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا ۗ ﴿٢٧﴾﴾ [سورة الأعراف]

وهذا نهي لبني آدم وليس نهيا للشيطان ، وهذا في مُكنة الإنسان أن يفعل أو لا يفعل ، سبحانه لا ينهى الإنسان عن شيء ليس في مكنته ، بل ينهاه عما في مكنته ، والشيطان قد أقسم أن يغتنه وسيفعل ذلك لأنه أقسم وقال : ﴿فبعزتك لأغوينهم أجمعين﴾ فإياكم أن تنخدعوا بفتنة الشيطان ، لأن أمره مع أبيكم واضح ، ويجب أن تتجنب فتنته مع أبيكم عليكم فلا يفتنكم كما أخرج أبويكم من الجنة ، ويتساءل البعض : لماذا لم يقل الله : لا يفتنكم الشيطان كما فتن أبويكم ، وقال : «لا يفتنكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة» ؟. ونقول : هذا هو السمو والارتقاء الراقي في الأداء البياني للقرآن.

وإن هذا تحذير من فتنة الشيطان حتى لا يخرجنا من جنة التكليف كما فتن أبوينا فأخرجهما من جنة التجربة. ويقال عن هذا الأسلوب إنه أسلوب احتياك ،

وهو أن تجعل الكلام شطرين وتحذف من كل منهما نصف ما أثبت في الآخر قصد الاختصار. وهذا هو الأسلوب الذي يؤدي المعنى بمنتهى الإيجاز، ليبقى ذهن السامع لكلام الله فيلتقط من الأداء حكمة الأداء وإيجاز الأداء، وعدم الفصول في الأساليب.

﴿ لا يفتنكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة .. (٢٧) ﴾ [سورة الأعراف]

والفتنة - كما علمنا - هي في الأصل الاختبار حتى يبقى الشيء من الشوائب التي يختلط به، فقد كانت الشوائب في ذهب فحص نعلم أن الذهب مخلوط بنحاس أو بمعدن آخر، وحين تريد أن تأخذ الذهب خالصاً نقيه على النار حتى يغلي ويزيل عنه ما علق به. كذلك الفتنة بالنسبة للناس، فهي تأتي لتختبر الإنسان ليبقى نفسه من شوائب هذه المسألة، وليتذكر ما صنع إبليس بآدم وحواء. فإذا ما جاء يغويك فإياك أن تقترب لأن الفتنة ستضرك كما سبق أن ألحقت الضرر بأبيك آدم وأمك حواء. والشيطان هو المتمرد على منهج الله من الجن، والجن جنس منه المؤمن ومنه الكافر. فقد قال الحق سبحانه:

﴿ وأنا منا الصالحون ومنا دون ذلك .. (١١) ﴾ [سورة الجن]

والشيطان المتمرد من هذا الجنس على منهج الله ليس واحداً، واقرأ قول الحق سبحانه.

﴿ أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو .. (٥٠) ﴾ [سورة الكهف]

وهنا يقول الحق سبحانه:

﴿ إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم .. (٢٧) ﴾ [سورة الأعراف]

و«قبيله» هم جنوده وذريته الذين يشرهم في الكون ليحقق قسمه.

﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ ﴾

(سورة ص)

إذن فقتنة الشيطان إنما جاءت لتخرج خلق الله عن منهج الله ، وحينما عصى إبليس ربّه عزّ عليه ذلك ، فبعد أن كان فى قمة الطاعة صار عاصيًا لأمر الله معصية أدّته وأوصلته إلى الكفر ؛ لأنه ردّ الحكم على الله . إن ذلك قد أوغر صدره وأحقده ، وجعله يوغل ويسرف فى عداوة الإنسان لأنه عرف أن طرده ولعنه كان بسبب آدم وذريته .

﴿ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ﴾

(من الآية ٢٧ سورة الأعراف)

وهذا يدل على أن المراد ذرية الشيطان ، فلو كان المراد شياطين الإنس معهم لما قال : ﴿ إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم ﴾ .

وعلى ذلك فهذه الآية خاصة بالذرية ، ويعلمنا الحق سبحانه وتعالى أن نتنبه إلى أن الشيطان لن يكتفى بنفسه ولن يكتفى بالذرية بل سيزين لقوم من البشر أن يكونوا شياطين الإنس كما وُجد شياطين الجن ، وهم من قال فيهم سبحانه :

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ﴾

(من الآية ١١٢ سورة الأنعام)

وكلمة « زخرف القول » تعنى الاستمالة التى تجعل الإنسان يرتكب المعصية وينفعل لها ، ويتأثر بزخارف القول . وكل معصية فى الكون هكذا تبدأ من زخرف القول ، فالباطل دعاته ، ومروجوه ، ومعلنوه ، إنهم يزينون للإنسان بعض شهواته التى تصرفه عن منهج الله ، ويلاحظ أن أعداء الله ، وأعداء منهج الله يترصدون مواسم الإيمان فى البشر ، فإذا ما جاء موسم الإيمان خاف أعداء الله أن يمر الموسم تاركاً هبة إيمان فى نفوس الناس ، فيحاولوا أن يكثفوا جهودهم حتى يحرموا الناس نفحة الموسم ، فإذا ما حرموا الناس من نفحة الموسم فقد حققوا

غرضهم فى العداوة للإسلام . ﴿ إنه يراكم هو وقبيله ﴾

إن الشيطان يراكم أيها المكلفون هو وقبيله . والقبيل تدل على جماعة أقلها ثلاثة من أجناس مختلفة أو جماعة ينتسبون إلى أب وأم واحدة . واختلف العلماء حول المراد من هذا القول الكريم ؛ فقال قوم : ﴿ إنهم جنوده وذريته ﴾ . ويقصدون جنوده من البشر ، ولم يلتفتوا إلى قول الحق:﴿ من حيث لا ترونهم ﴾ فلابد أن يكون المراد بالقبيل هنا الذرية ؛ لأننا نرى البشر ، وفى قوله الحق تغليظ لشدة الحذر والتنبه ؛ لأن العدو الذى نراه تستطيع أن تدفع ضرره ، ولكن العدو الذى يرانا ولا نراه عداوته شديدة وكيده أشد ، والجن يرانا ولا نراه ، وبعض من العلماء علل ذلك لأننا مخلوقون من طين وهو كثيف ، وهم مخلوقون من نار وهى شفيفة .

فالشفيف يستطيع أن يؤثر فى الكثيف ، بدليل أننا نحس حرارة النار وبيننا وبينها جدار ، ولكن الكثيف لا يستطيع أن يؤثر فى الشفيف ولا ينفذ منه . إذن فنقرة الجن وشفافيته أكثر من شفافية الإنسان ، ولذلك أخذ خفة حركته . ونحن لا نراه .

إذن معنى ذلك أن الشيطان لا يُرى ، ولكن إذا كان ثبت فى الآثار الصحيحة أن الشيطان قد رُئى وهو من نار ، والملائكة من نور ، والاثنان كل منهما جنس خفى مستور ، وقد تشكل المَلَك بهيئة إنسان ، وجاء لرسول الله وقال لنا صلى الله عليه وسلم : « هذا جبريل جاء ليعلم الناس دينهم »[1] .

وعلى ذلك رأى السابقون المعاصرون لرسول الله صلى الله عليه وسلم جبريل لا على صورة ملائكيته ، ولكن على صورة تتسق مع جنس البشر ، فيتمثل لهم مادة .

وقد ثبت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى الشيطان وقال : « إن عفريتا من الجن جعل يفتك علىّ البارحة ليقطع علىّ الصلاة ، وإن الله أمكننى منه فَذَعَتُّهُ فلقد هممت أن أربطه إلى جنب سارية من سوارى المسجد حتى تصبحوا تنظرون إليه أجمعون »[2] .

---

(١) رواه مسلم فى الإيمان

(٢) رواه مسلم فى المساجد ، والبخارى فى الصلاة ، وأحمد ، ومعنى : « فذعتُّه » : أى خنقته .

وذلك من أدب النبوة. إذن فالشيطان يتمثل وأنت لا تراه على حقيقته، فإذا ما أرادك أن تراه.. فهو يظهر على صورة مادية. وقد ناقش العلماء هذا الأمر نقاشاً يدل على حرصهم على فهم كتاب الله، ويدل على حرصهم على تجلية مراداته وأسراره، فقال بعضهم: حين يقول الله إن الشيطان يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم، لابد أن نقول: إننا لن نراه.

وأقول: إن الإنسان إن رأى الجني فلن يراه على صورته، بل على صورة مادية يتشكل بها، وهذه الصورة تتسق وتتفق مع بشرية الإنسان؛ لأن الجني لو تصور بصورة مادية كإنسان أو حيوان أو شيء آخر يمكن أن يراه الإنسان، وحينئذ لفقدنا الوثوق بشخص من نراه، هل هو الشيء الذي نعرفه أو هو شيطان قد تمثل به؟

إن الوثوق من معرفة الأشخاص أمر ضروري لحركة الحياة، وحركة المجتمع؛ لأنك لا تعطف على ابنك لا لأنك تعلم أنه ابنك ومحسوب عليك، ولا تثق في صديقك إلا إذا عرفت أنه صديقك. ولا تأخذ علماً إلا من عالم تثق به. وهب أن الشيطان يتمثل بصورة شخص تعرفه، وهنا سيشكك هذا الشيطان ويمنع عنك الوثوق بالشخص الذي يتمثل في صورته. وأيضاً أعدى أعداء الشيطان هم الذين يبصرون بمنهج الله وهم العلماء، فمن الذي يمنع أن يتشكل الشيطان بصورة عالم موثوق في علمه، ثم يقول كلاماً مناقضاً لمنهج الله؟.

إذن فالشيطان لا يتمثل، هكذا قال بعض العلماء، ونقول لهم. أنتم فهمتم أن الشيطان حين يتمثل، يتمثل تمثلاً استمرارياً، لا. هو يتمثل تمثل الومضة؛ لأن الشيطان يعلم أنه لو تشكل بصورة إنسان أو بصورة مادية لحكمته الصورة التي انتقل اليها، وإذا حكمته الصورة التي انتقل اليها فقد يقتله من يملك سلاحاً، انه يخاف منا أكثر مما نخاف منه، ويخاف أن يظهر ظهوراً استمرارياً؛ لذلك يختار التمثل كومضة، ثم يختفي، والإنسان إذا تأمل الجني المتشكل. سيجد فيه شيئاً مخالفاً، كأن يتمشى - مثلا - في هيئة رجل له ساق عنزة لتلتفت إليه كومضة ويختفي؛ لأنه يخاف أن تكون قد عرفت أن الصورة التي يتشكل بها تحكمه. وإذا عرفت ذلك أمكنك أن تصرعه.

ويتابع الحق سبحانه :

﴿ .. إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [سورة الأعراف]

والشياطين من جَعْل الله ، وسبحانه خلّى بينهم وبين الذين يريدون أن يفتنوهم والا لو أراد الله منعهم من أن يفتنوهم . لفعل . إذن فكل شيء في الوجود ، أو كل حدث في الوجود يحتاج إلى أمرين : طاقة تفعل الفعل ، ومدد لفعل الفعل ، فربما ما كانت عند الإنسان الطاقة للفعل ، و لداعى إلى الفعل ، فإبراز الفعل في الصورة النهائية تستمدها من عطاء الله من الطاقة التي منحها الله للإنسان . فأنت تقول : العامل النساج نسج قطعة من القماش في غاية الدقة ، وتقول : إن العامل لم ينسج ، وإنما نسجت الآلة ، والآلة لم تنسج . لكن الصانع الذي صنعها أرادها كذلك ، والصانع لم يصممها الا بالعالم الذي ابتكر قانون الحركة بها .

إذن فالعامل قد وجّه الطاقة المخلوقة للمهندس في أن تعمل ، واعتمد على طاقة المهندس الذي صنعه في المصنع ، والمهندس اعتمد على طاقة الابتكار وعلى العالم الذي ابتكر قانون الحركة ، والعالم قد ابتكرها بعقل خلقه الله ، وفي مادة خلقها الله

إذن فكل شيء يعود إلى الله فعلاً ؛ لأنه خالق الطاقة ، وخالق من يستعمل الطاقة ، والإنسان يوجه الطاقة فقط ، فإذا قلت . العامل نسج يصح قولك ، وإذا قلت : الآلة نسجت ، صح قولك ، وإذا قلت : إن المصنع هو الذي نسج صح قولك . إذن فالمسألة كلها مردها في الفعل إلى الله وأنت وجهت الطاقة المخلوقة لله بالقدرة المخلوقة لله في فعل أمر من الأمور فإذا قال الله ﴿ إنا جعلنا الشياطين ﴾ أي خلّينا بينهم وبينهم المفتونين بهم ، غير أننا لو أردنا الا يفتنوا أحداً لم فتنوه . وهذا ما فهمه إبليس .

﴿ .. لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ [سورة ص]

إذن من يريده الله معصوماً لا يستطيع الشيطان أن يغويه، وتعلم الشياطين أن الله خلّى بينهم في الاختيار، وهذه اسمها تخلية؛ ولذلك لا معركة بين العلماء فمنهجهم أن الطاقة مخلوقة لله، ونسب كل فعل إلى الله، ومنهم من رأى أنّ موجّه الطاقة من البشر فينسب الفعل لبشر، ومنهم من رأى طلاقة قدرة الله في أنه الفاعل لكل شيء، ومنهم من قال: إن الإنسان هو الذي فعل المعصية. أي أنه وجه الطاقة إلى عمل والطاقة صالحة له، فربنا يعذبه على توجيه الطاقة للعمل الضار ولا خلاف بينهم جميعاً.

﴿ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (من الآية ٢٧ سورة الأعراف

إذن جعل الله الشياطين أولياء لمن لم يؤمن، ولكن الذي آمن لا يتخذه الشيطان وليّاً

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك:

﴿ وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾

والفحشة مأخوذة من التفحش أي التزيد في القبح، ولذلك صرفها بعض العلماء إلى لون خاص من الذنوب، وهو الزنا، لأن هذا تزيد في القبح، فكل معصية يرتكبها الإنسان تنسى بأثرها، لكن الزنا يخلف آثاراً.. فإمّا أن يولد المولود، وإما أن تجهض المرأة، وما أن تلد طفلها وتلقيه بعيداً، ويعيش طريداً في المجتمع لا يجد مسئولاً عنه، وهكذا تصبح المسألة ممتدة امتداداً أكثر من أي معصية أخرى. وتصنع هذه المعصية الشك في المجتمع. ولنا أن نتصور أن إنساناً يشك في أن من ينسبون إليه ويحملون اسمه ليسوا من صلبه، وهذه بلوى

كثيرة للغاية. والذين قالوا : إن الفاحشة المقصود بها الزنا نظروا إلى قول الله سبحانه :

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ ﴾ [سورة الإسراء]

أو الفاحشة هي ما فيه حد ، أو الفاحشة هي الكبائر ، ونحن نأخذها على أنها التزيد في القبح على أي لون من الألوان

فما هي الفاحشة المقصودة هنا ؟. إنها الفواحش التي تقدمت في قوله .

﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ مِن بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ .. ﴿١٠٣﴾ ﴾ [سورة المائدة]

وكذلك ما جاء في قوله تعالى .

﴿ وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ .. ﴿١٣٧﴾ ﴾

[سورة الأنعام]

وكذلك في قوله الحق سبحانه :

﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَائِنَا . ﴿١٣٦﴾ ﴾ [سورة الأنعام]

او أن المقصود أنهم كانوا يطوفون بالبيت عراة ، فيطوف الرجال نهاراً ، والنساء يطفن ليلاً ، لماذا؟ . لأنهم ادَّعَوْا الورع . وقالوا : نريد أن نطوف إلى بيت ربنا كما ولدتنا أمهاتنا ، وأن نتجرد من متاع الدنيا ، ولا نطوف ببيت الله في ثياب عصينا الله فيها .

وقولهم «وجدنا عليها آباءنا» تقليد ، والتقليد لا يعطي حكماً تكليفياً ، وإن

أعطى علماً تدريبياً ، بأن تدرب الأولاد على مطلوب الله من المكلف ليستطيعو ويألفوا ما يكلفون به عندما يصلون إلى سن التكليف . ومما يدل على أن التقليد لا يعطى حقيقة ، أنك تجد المذهبين المتناقضين ـ الشيوعية والرأسمالية مثلاً ـ مقلدين ؛ لهذا المذهب مقلدون ، ولهذا المذهب مقلدون . فلو أن التقليد معترف به حقيقة لكان التقليدان المتضادان حقيقة ، والمتضادان لا يصبحان حقيقة ؛ لأنهم ـ كما يقولون ـ الضدان لا يجتمعان ، هذا هو الدليل العقلي في إبطال التقليد . ولذلك نلاحظ في أسلوب الأداء القرآني أنه أداء دقيق جداً ؛ فالذي يتكلم إله .

﴿ وَإِذَا فَعَلُوا فَٰحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ﴾

(من الآية ٢٨ سورة الأعراف)

والرد من الله عليهم أنه سبحانه لم يأت في مسألة التقليد بردّ لأنه بداهة لا يؤدي إلى حقيقة ، بل قال :

﴿ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾

(من الآية ٢٨ سورة الأعراف)

وهذا رد على قولهم : والله أمرنا بها . وأين الرد على قولهم : ﴿ وجدنا عليها آباءنا ﴾ ؟ .

نقول إنه أمر لا يحتاج إلى رد ؛ لأنه أمر يرفضه العقل الفطري ، ولذلك ترك الله الرد عليه ؛ لوضوح بطلانه عند العقل الفطري ، وجاء بالرد على ادعائهم أن الله يأمر بالفحشاء ، فالله لا يأمر بالفحشاء . ثم كيف كان أمر الله لكم ؟ . أهو أمر مباشر ؟ . بمعنى أنه قد أمر كل واحد منكم أن يرتكب فاحشة ؟ ألم تنتبهوا إلى قول الحق سبحانه :

﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا ﴾

(من الآية ٥١ سورة الشورى)

أم بلغكم الأمر بالفاحشة عن طريق نبي فكيف ذلك وأنتم تكذبون مجيء الرسول ؟ وهكذا يكون قولكم مردوداً من جهتين : الجهة الأولى : إنه لا طريق

إلى معرفة أمر الله إلا بأن يخاطبكم مباشرة أو يخاطبكم بواسطة رسل ؛ لأنكم لستم أهلا للخطاب المباشر ، والجهة الثانية : أنكم تنكرون مسألة الأنبياء والرسل . فأنتم لم يخاطبكم الله بالمباشرة أو بواسطة الرسل فلم يبق إلا أن يقال لكم :

﴿ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾

(من الآية ٢٨ سورة الأعراف)

ولا جواب على السؤال إلا بأمرين : إما أن يقولوا : « لا » فقد كذبوا أنفسهم ، وإما أن يقولوا : « نعم » ؛ فإذا قالوا : نعم نقول على الله ما لا نعلم ؛ فقد فضحوا أنفسهم وأقروا بأن الله لم يأمر بالفاحشة ، بل أمر الله بالقسط ، لذلك يقول سبحانه بعد ذلك :

﴿ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ ۖ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ۚ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾

والقِسط هو العدل من قسط يقسط ، وأما قاسط فهي اسم فاعل من قسط قَسْطاً وقُسُوطاً أي جار وعدل عن الحق ، والقاسطون هم المنحرفون والعادلون عن الحق والظالمون ، وكلمة العدل هي التسوية ، فإن ملت إلى الحق ؛ فذلك العدل المحبوب . وإن ملت إلى الباطل ، فذلك أمر مكروه ﴿ قل أمر ربي بالقسط ﴾ .

وهذه جملة خبرية .

﴿ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾

(من الآية ٢٩ سورة الأعراف)

وهذا فعل أمر ، وقد يتبادر إلى الذهن أن هذا من عطف الأمر على الخبر ، ولكن لنلتفت أن الحق يعطفها على « قل » ، فكأن المقصود هو أن يقول : « قل أمر ربي بالقسط ، وقل أقيموا وجوهكم عند كل مسجد » .

والوجه هو السمة المعينة للشخص ؛ لأن الإنسان إن أخفى وجهه لن تعرفه إلا إن كان له لباس مميز لا يرتديه الا هو . و لوجه أشرف شيء في التكوين الجسمي، ولذلك كان السجود هو وضع الوجه في الأرض ، وهذا منتهى الخضوع لأمر الله بالسجود ؛ لأن السجود من الفاعل المختار وهو الإنسان يكون بوضع الجبهة على الأرض . وكل شيء خاضع لحكم الله نقول عنه : إنه ساجد .

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ ..﴿١٨﴾ ﴾ [سورة الحج]

والشجر يسجد وهو نبات ، و لدواب تسجد وهي من جنس الحيوان ، والشمس والقمر والنجوم والجبال من الجماد وهي أيضا ساجدة ، لكن حين جاء الحديث عن الإنسان قسمها سبحانه وقال :

﴿ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ .. ﴿١٨﴾ ﴾ [سورة الحج]

لأن الإنسان له خاصية لاختيار ، وبقية الكائنات ليس له اختيار . إذن فالسجود قد يكون لغير ذي وجه ، والمراد منه مجرد الخضوع ، أما الإنسان فالسجود يكون بالوجه ليعرف أنه مستخلف وكل الكائنات مسخرة لخدمته وطائعة وكلها تسبح ربها ، فإذا كان السيد الذي تخدمه كل هذه الأجناس حيواناً ، ونباتاً ، وجماداً قد وضع وجهه على الأرض فهو خاضع من أول الأمر حين نقول عنه إنه ساجد

﴿ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ .. ﴿٢٩﴾ ﴾ [سورة الأعراف]

والإقامة أن تضع الشيء فيما هيء له وخلق وطلب منه ، وإن وجهته لناحية ثابتة تكون قد ثبته وأمنته وحبته ، وعرَّجته . إذن فإقامة الوجه تكون بالسجود ؛ لأن الذي سخر لك هذا الوجود وحكمك بمنهج التكليف هو من جعلت وجهك في الأرض من أجله ، وإن لم تفعل ذلك فأنت تحتار الاعوجاج لوجهك ، واعلم أن

هذا الخضوع والخشوع والسجود لله لن يعطيك فقط السيادة على الأجناس الأخرى التي تعطيك خير الدنيا ، ولكن وضع جبهتك ووجهك على الأرض يعطيك البركة في العمل ويعطيك خير الآخرة أيضاً. والعاقل هو من يعرف أنه أخذ السيادة على الأجناس فيتقن العبودية لله ، فيأخذ خيري الدنيا والآخرة حيث لا يفوته فيهما النعيم ولا يفوت هو النعيم ، أما في الدنيا فأنت تقبل عليها باستخلاف وتعلم أنك قد يفوتك النعيم ، أو تفوت أنت النعيم ، وحين تتذكر الله وتكون خاضعاً لله فأنت تنال البركة في حركة الاستخلاف .

﴿ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ .. ﴿٢٩﴾ ﴾ [سورة الأعراف]

والمسجد مكان السجود . وقال الرسول ﷺ : «فضلت على الأنبياء بست : أعطيت جوامع الكلم ، ونُصرت بالرعب وأحلت لي الغنائم وجعلت لي الأرض طهوراً ومسجداً ، وأرسلت إلى الخلق كافة وختم بي النبيون»[1].

إذن فكل موضع في الأرض مسجد ؛ فإن دخلت معبداً لتصلي فهذا مسجد . والأرض كلها مسجد لك يصح أن تسجد وتصلي فيها . وتزاول فيها عملك أيضا ، ففي المصنع تزاول صنعتك فيه ، وحين يأتي وقت الصلاة تصلي ، وكذلك الحقل تصلي فيه ، لكن المسجد الاصطلاحي هو المكان الذي حُبس على المسجدية وقصر عليها ، ولا يزاول فيه شيء آخر . فإن أخذت المسجد على أن الأرض مسجد كلها تكن ﴿ أَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ ﴾ في جميع أنحاء الأرض وإن أخذتها على المسجد ، فالمقصود إقامة الصلاة في المكان المخصوص ، وله منجه وهو الكعبة . وكذلك يكون اتجاهك وأنت تصلي في أي مكان والمساجد نسميها بيوت الله ولكن باختيار خلق الله ، فبعضنا يبني مسجداً هنا أو هناك . ويتجهون إلى بيت باختيار الله وهو الكعبة . ولذلك كانت كعبة ومتوجهاً لجميع بيوت الله .

(١) رواه مسلم والترمذي عن أبي هريرة

وقصارى الأمر أن نجعل قبلة المسجد متجهة إلى الكعبة وأن نقيم الوجه عليها ، أى على الوجه الذى تستقيم فيه العبادة . وهو أن تتجهوا وأنتم فى صلاتكم إلى الكعبة فهى بيت الله باختيار الله .

وساعة ما تصادفك الصلاة صل فى أى مسجد ، أو ﴿ وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد ﴾ يقصد بها التوجه للصلاة فى المسجد ، وهنا اختلف العلماء ، هل أداء الصلاة وإقامتها فى المسجد ندباً أو حتماً ؟ . والأكثرية منهم قالوا ندباً ، والأقلية قالوا حتماً . ونقول : الحتمية لا دليل عليها .

من قال بحتمية الصلاة فى المسجد استدل بقوله صلى الله عليه وسلم :

والذى نفسى بيده لقد هممت أن آمر بحطب فيحتطب ثم آمر بالصلاة فيؤذن لها ثم آمر رجلا فيؤم الناس ثم أخالف إلى رجال فأحرق عليهم بيوتهم[1] .

ونقول : هل فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك أولم يفعل ؟ لم يفعل رسول الله ذلك ، إنما أراد بالأمر التغليظ ليشجعنا على الصلاة فى المساجد عند أى أذان للصلاة .

ويقول الحق سبحانه :

﴿ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾

(من الآية ٢٩ سورة الأعراف)

والدعاء . طلب من عاجز ينجه به لقادر فى فعل يحبه الداعى . وحين تدعو ربك ادعه مخلصاً له الدين بحيث لايكون فى بالك الأسباب ؛ لأن الأسباب إن كانت فى بالك فأنت لم تخلص الدين . لأن معنى الإخلاص هو تصفية أى شىء من الشوائب التى فيه ، والشوائب فى العقائد وفى الأعمال تفسد الإتقان والإخلاص ، وإياكم أن تفهموا أن أحداً لا تأتى له هذه المسألة ، فرسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

---

(١) متفق عليه

« إنّى لَيُغَانُ على قلبى وإنى لأستغفر الله كل يوم مائة مرة »[1] .

إذن فالإخلاص عملية قلبية ، وأنت حين تدعو الله ادعه دائماً عن اضطرار ، ومعنى اضطرار . أن يقطع رجاؤك وأملك بالأسباب كلها . فلجأت للمسبب ، ومادمت مضطراً سيجيب ربنا دعوتك ؛ لأنك استنفدت الأسباب ، وبعض الناس يدعون الله عن ترف ، فالإنسان قد يملك طعام يومه ويقول : ارزقنى ، ويكون له سكن طيب ويقول : أريد بيتاً أملكه . إذن فبعضنا يدعو بأشياء الله فيها أسباب ، فيجب أن نأخذ بها ، وغالبية دعائنا عن غير اضطرار . وأنا أتحدى أن يكون إنسان قد انتهى به أمر إلى الاضطرار ولا يجيبه الله .

ويدلل الحق الآية لكريمة بقوله :

﴿ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴾

(من الآية ٢٩ سورة الأعراف)

والله سبحانه يخاطب الإنسان ، ويحنه ، مذكراً إياه بـ « افعل كذا » و « افعل كذا » و « افعل كذا » . وسبحانه قادر أن يخلقه مرغماً على أن يفعل ، لكنه ـ جل وعلا ـ شاء أن يجعل الإنسان سيدا وجعله مختاراً ، وقهر الأجناس كلها أن تكون مسخرة وفاعله لما يريد ، وأثبت لنفسه ـ سبحانه ـ صفة القدرة ، ولا شيء يخرج عن قدرته ؛ فأنت أيها العبد تكون قادراً على أن تعصى ولكنك تطيع ، وهذه هى عظمة الإيمان إنها تثبت صفة المحبوبية لله ، فإذا ما غُر الإنسان بالأسباب وبخدمة الكون كله ، وبما فيه من عافية ، وبما فيه من قوة ، وبما فيه من مال ، تجد الحق يلفته . لاحظ أنك لن تتعلت منى : أنا أعطيت لك الاختيار فى الذنب ، لكنك ترجع لى فى الآخرة ولن تكون هناك أسباب ، ولن تجد إلا المسبب ، ولذلك اقرأ :

﴿ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾

(من الآية ١٦ سورة غافر)

---

(١) رواه مسلم فى الذكر والدعاء باب استحباب الاستغفار ، وأبو داود فى الصلاة ، والنسائى فى عمل اليوم ، والإمام أحمد ٤/٢١١ ومعنى (لَيُغَانُ) : ما يتغشى القلب ، وقيل الفترات والغفلات عن الذكر ، أو همه بسبب أمته فيستغفر لها ، وقال المناوى : هو غين أنوار لا غين أغيار ولا حجاب ولا غفلة .

راجع أصله وخرج أحاديثه الدكتور أحمد عمر هاشم نائب رئيس جامعة الأزهر .

كان المُلْك قبل ذلك - أي في الدنيا - كان للبشر فيه شيء، مباشرتهم الأسباب هذا يملك، وذلك يملك، وحر يوظف، لكن في الآخرة لا مالك، ولا ملك إلا الله، فإياكم أن تغتروا بالأسباب، وأنها دانت لكم، وأنكم استطعتم أن تتحكموا فيها؛ لأن مرجعكم إلى الله.

ويقول الحق بعد ذلك:

﴿ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ ۚ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾

اذكروا أننا قلنا من قبل - إن الله هدى الكل بمعنى أنه قد ألهم بمنهجه عبر موكب الرسل، وحين يقول سبحانه - ﴿ فريقاً هدى وفريقاً حق عليهم الضلالة ﴾ فالمقصود هنا ليس هداية الدلالة، لكن دلالة المعونة. وقد فرقنا بين هداية الدلالة وهداية المعونة

وقوله الحق ﴿ فريقاً هدى ﴾ أي هداية المعونة، لأن هذا الفريق أقبل على الله بإيمان فحفف الله عليه مؤونة الطاعة، وبغضه في المعصية، وأعانه على مهمته أما الذي تأبى على الله، ولم يستجب لهداية الدلالة أيعينه الله؟ لا إنه يتركه في غيه ويخلي بينه وبين الضلالة، ولو أراده مهديًا لما استطاع أحد أن يمنع من ذلك. وسبحانه منزه عن التحيز على أحد من خلقه، ولكن الذين حق عليهم الضلالة حمل لهم ذلك بسبب ما فعلوا

﴿ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴾

(من الآية ٣٠ سورة الأعراف)

إن من يرتكب المعصية ويعترف بمعصيته فهذه تكون معصية، أما من يقول إنها

هداية فهذا تبجح وكفر ، لأنه يرد الحكم على الله وخير للذين يرتكبون المعاصي أن يقولوا : حكم الله صحيح ولكنا لم نقدر على أنفسنا ، أما أن يرد العاصي حكم الله ويقول : إنه الهداية ، فهذا أمره عسير ، لأنه ينتقل من مرتبة عاصٍ إلى مرتبة كافر والعياذ بالله

﴿ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴾

(من الآية ٣٠ سورة الأعراف)

لأنهم يفعلون ما حرم الله ، وليتهم فعلوه على أنه محرّم ، وأنهم لم يقدروا على أنفسهم ، ولكنهم فعلوه وظنوا أن الهداية في الفعل وهذا الأمر يشيع في معاصٍ كثيرة مثل الربا ، فتجد من يقول : إنه حلال ، ويقول : قل هو حرام ولكن لم أقدر على نفسي ، فتدخل في زمرة المعصية ، ولا تدخل في زمرة الكفر والعياذ بالله ويمكنك أن تستغفر فيغفر لك ربنا ، ويتوب عليك ، ولكن أن ترد الحكم على الله وتقول إنه حلال !! فهذا هو الخطر ، لأنك تبتعد وتخرج عن دائرة المعصية وتتردى وتقع في الكفر ، اربأ بنفسك عن أن تكون كذلك واعلم أن كل ابن آدم خطاء ، وما شرع الله التوبة لعباده إلا لأنه قدّر أن عبيده يخطئون ويصيبون ، ومن رحمته أنه شرع التوبة ، ومن رحمته كذلك أنه يقبل هذه التوبة ، فبعدما تخرج من خير يمكن أن تخرج منه إلى خير يضيق عليك لا تستطيع أن تخرج منه ؟

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك

﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ ﴾

والزينة إذ سمعتها تنصرف إلى تجميل فوق قوام الشيء ، وقوله سبحانه وتعالى

﴿ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾

(من الآية ٣١ سورة الأعراف)

هذا يعني أن يذهب المسلم إلى المسجد بأفخر ما عنده من ملابس ، وكذلك يمكن أن يكون المقصود بـ ﴿ خذوا زينتكم عند كل مسجد ﴾ هو رد على حالة خاصة وهو أنهم كانوا يطوفون بالبيت عراة ، وأن المراد بالزينة هنا هو ستر العورة أو المراد بالزينة ما فوق ضروريات الستر ، أو إذا كان المراد بها الناس لطيب الجميل النظيف ، فنحن نعلم أن المسجد هو مكان اجتماع عباد الله ، وهم متنوعون في مهمات حياتهم ، وكل مهمة في الحياة لها ربها ولها هندامها ؛ فالذي يجلس على مكتب لمقابلة الناس له ملابس ، ومن يعمل في « الحدادة » له زي خاص مناسب للعمل ، ولكن إذا دهتم إلى المسجد لتجتمعوا جميعاً في لقاء الله ، أيأتي كل واحد بلباس مهنته ليدخل المسجد ؟ لا ، فيجعل للمسجد لباساً لا يُضايق غيره ، فإن كنت ملابس العمل في مصنع أو غير ذلك لا تليق ، فاجعل للمسجد ملابس نظيفة حتى لا يُؤذي أحد بالوجود بجانبك ؛ لأنك تذهب إلى المسجد لعمل مشترك يحكم الجميع وهو لقاء الله في بيت الله ، فلابد أن تحتفي بهذا اللقاء .

﴿ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾

(من الآية ٣١ سورة الأعراف)

والمأكل والمشرب من الأمور المباحة لأن فيها مقومات الحياة ، وكل واشرب على قدر مقومات الحياة ولا تسرف ، فقد أحل الله لك الأكثر وحرّم عليك الأقل ، فلا تتجاوز الأكثر الذي أحلّ لك إلى ما حرم الله ؛ لأن هذا إسراف على النفس ، بدليل أنه لو لم تجد إلا الميتة ، فهي حلال لك بشرط ألا تسرف ولا يصح أن تنقل الأشياء من تحليل إلى تحريم ؛ لأن الله جعل لك في الحلال ما يغنيك عن الحرام ، فإذا لم يوجد ما يغنيك ، فالحق يحل لك أن تأخذ على قدر ما يحفظ عليك حياتك ، والمسرفون هم المتجاوزون الحدود ولا سرف في حل ، إنما السرف يكون في الشيء المحرم ، ولذلك جاء في الأثر :

« لو أنفقت مثل أحد ذهباً في حِلّ ما اعتبرت مسرفاً ، ولو أنفقت درهماً واحداً في محرم لاعتبرت مسرفاً » .

ولذلك يطلب منك رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تعطي كل ذي حق حقه

بشرط ألا يؤدى بك ذلك إلى البطر، وحينما ذهب إليه سيدنا عثمان بن مظعون، وقد أراد أن يترهب، ويتنسك، ويسيح فى الكون، وقال لرسول الله يارسول الله، إننى أردت أن اختصى؛ أى يقطع خصيتيه؛ كى لاتبقى له غريزة جنسية، فقال ﷺ. ياعثمان خصاء أمتى الصوم لذلك قال ﷺ فى شأن من لم يستطع الزواج: «يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء»[1]

وقد روى أن رسول الله ﷺ ذكر الناس وحوفهم فاجتمع عشرة من الصحابة وهم. أبو بكر وعمر وعلى وابن مسعود وأبو ذر وسالم مولى أبى حذيفة والمقداد وسليمان وعبد الله بن عمرو بن العاص ومعقل بن مقرن فى بيت عثمان بن مظعون فاتفقوا على أن يصوموا النهار ويقوموا الليل ولا يناموا على الفراش ولا يأكلوا اللحم ولا يقربوا النساء ويجبّوا مذاكيرهم»[2]. فكان التوجيه النبوى أن حمد الرسول ﷺ ربه وأثنى عليه وقال. «مابال أقوام قالوا كذا وكذا ولكنى أصلى وأنام وأصوم وأفطر وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتى فليس منى»[3].

ويتابع الحق سبحانه بعد ذلك:

﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾

ومادام أخرجها لعباده فهو قد أرادها لهم، ومايمنع منها للإناث جعلتها السنة

(١) رواه البخارى ومسلم.
(٢) فتح البارى
(٣) رواه مسلم.

للإناث ، وما يصلح منها للذكور أحلتها السنة لهم ، وكذلك الطيب من الرزق حلال للمؤمنين والمؤمنات ، ولنلحظ دقة الأسلوب هنا في قوله تعالى

﴿ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا ﴾

(من الآية ٣٢ سورة الأعراف)

ثم يتابع سبحانه

﴿ خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَٰمَةِ ﴾

(من الآية ٣٢ سورة الأعراف)

فكأنا أمام حالتين اثنتين : حالة في الدنيا ، وأخرى في يوم القيامة ، معنى ذلك أن الزينة في الحياة الدنيا غير خالصة ، لأن الكفار يشاركونهم فيها ، فهي من عطاء الربوبية ، وعطاء الربوبية للمؤمن وللكافر ، وربما كان الكافر أكثر حظاً في الدنيا من المؤمن ، ولكن في الآخرة تكون الزينة خالصة للمؤمنين لا يشاركهم فيها الكافرون

وكذلك فإن الحق سبحانه وتعالى يعطي اليقظة الإيمانية في المؤمن بوجود الأغيار فيه ، ومعنى وجود الأغيار أنه قد يتعرض الإنسان لتقلبات بين الصحة والمرض والغنى والفقر والقوة والضعف ، وهكذا يكون الإنسان في الدنيا ، فهي دار الأغيار ، ويصيب الإنسان فيها أشياء قد يكرهها ، لذلك فالدنيا ليست خالصة النعيم لما فيها من أغيار تأتيك فتسوؤك إنها تسوؤك عند غيبة شحنة الإيمان منك ؛ لأنك إن استصحبت شحنة الإيمان عند كل حدث أجراه الله عليك للفتك الله إلى حكمته

﴿ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَٰمَةِ ﴾

(من الآية ٣٢ سورة الأعراف)

ويمكن أن نقرأ كلمة « خالصة » منصوبة على أنها حال ، ويمكن أن نقرأها في قراءة أخرى مرفوعة على أنها خبر بعد خبر ، والمعنى أنها غير خالصة للمؤمنين في الدنيا لمشاركة الكفار لهم فيها ، وغير خالصة أيضاً من شوائب الأغيار ولكنها

في الآخرة خالصة للمؤمنين فلا يشاركهم الكفار ولا تأتي لهم فيها الأعياد

ويدلل الحق الأمر بقوله

﴿ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾

(من الآية ٣٢ سورة الأعراف)

معنى « نفصل الآيات » أي لأننا نأتي بالآيات مجملة بل نفصل الآيات لكل مؤمن ، فلا نترك حلالاً ، ونأتي فيها بكل ما تتطلبه أقضيه الحياة ، بتفصيل يُفهمنا قضايانا فهماً لا لبس فيه .

ويقول الحق بعد ذلك

﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾

ولحق سبحانه - قد بدأ الآية بـ « إنما » التي هي للحصر . أي ما حرم ربي إلا هذه الأشياء ، الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، والإثم ، والبغي بغير الحق ، والشرك بالله ، والقول على الله ما لا نعلم ، فلا تدخلوا أشياء أخرى وتجعلوها حراماً ، لأنها لا تدخل في هذه ، وقول الله في الآية السابقة ﴿ قل من حرم زينة الله ﴾ هو على صيغة استفهام لكي يجيبوا هم ولن يجدوا سبباً لتحريم زينة الله لأن الحق قد وضح وبيّن ما حرم فقال :

﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

ونتأمل الخمسة المحرمات التي جاءت بالآية ؛ فحين ننظر إلى مقومات حياة الخلافة في الأرض ليبقى الإنسان خليفة فيها نرى أنه لابد من صيانة أشياء ضرورية لسلامة هذه الخلافة وأداء مهمتها ، وأول شيء أن يسلم للمجتمع طهر أنسابه . وسلامة طهر الأنساب أي الإنجاب والأنسال ضرورية للمجتمع ؛ لأن الإنسان حين يثق أن ابنه هذا منه فهو يحرص عليه لأنه منسوب إليه ، ويرعاه ويربيه . أما إذا تشكك في هذه المسألة فإنه يهمله ويلفظه ، كذلك يهمله المجتمع ، ولا أحد يربيه ولا يلتفت إليه ولا يعنى به .

إذن فسلامة الأنساب أمر مهم ليكون المجتمع مجتمعاً سليماً ، بحيث لا يوجد فرد من الأفراد إلا وهو محسوب على أبيه ، بحيث يقوم له بكل تبعات حياته ، ولذلك يجب أن تعلموا أن الأطفال المشردين مع وجود آبائهم حدث من أن شكاً طرأ على الأب في أن هذا ليس ابنه . ولذلك ماتت فيه غريزة الحنان عليه ، فلا يبالي إن رآه أم لم يره ، ولا يبالي أهو في البيت-أم شرد ، لا يبالي أكل أم جاع ، لا يبالي تعرى أم لا

إذن فطهارة الأنساب ضمان لسلامة المجتمع ؛ لأن المجتمع سيكون بين مربٍّ يقوم على شأن وصغير مربًّى ، المربي قادر على أن يعمل ، والمربَّى صغير يحتاج إلى التربية ولذلك حرم الله الفواحش والفحش - كما قلنا - ما زاد قبحه ، وانتهوا على أنه هو الزنا ؛ لأن أثره لا يتوقف فقط عند الذنب والاستمتاع بل يتعدى إلى الانسال وما تعدى إلى الأنسال فهو تعد إلى المجتمع ، ويصير مجتمعاً مهملاً لا راعي له

والإثم أهو كل كبيرة أو ما يقام على فاعله حد ؟ لقد انتهى العلماء على أن الإثم هو الخمر والميسر ؛ لأن الله قال بالنص :

﴿ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ﴾

(من الآية ٢١٩ سورة البقرة)

وأراد الحق بذلك أن يضمن مقوم تعظيم حركة الحياة في الإنسان وهو العقل وأن

الخمر تغيب العقل، والإنسان مطلب بأن يحفظ عقله ليواجه به أمور الحياة مواجهة تبقى الصالح على صلاحه أو تريده صلاحاً ولا تتعدى على الإنسان. فإذا ما ستر العقل بالخمر فسد واختل، وبختل بذلك التخطيط لحركة الحياة. والذين يأتون ويشربون ويقولون: نريد أن ننسى هموم نقول لهم. ليس مراد الشارع أن ينسى كل واحد ما أهمه؛ لأنه إن نسى كل واحد ما أهمه فلن يحتاط أحد ولن يقوم على تقدير الأمور التي تستمن السلامة

إن الشارع يطلب منك أن تواجه الهموم التي تعاني منها مضاعف لتزيلها. أما أن تستر العقل فأنت قد هربت من المشكلة، إذن يجب عليك أن تواجه مشكلات الحياة بعقلك وبتفكيرك. فإن كانت المشكلة، قد نشأت من أنك أهملت في واجب سببي أي له أسباب وقد قصرت في الأخذ بها فأنت الملوم. وإن كانت المشكلة جاءتك من أمر ليس في قدرتك، أي هبطت عليك قضاء وقدراً، فاعلم أن مجريها عليك له فيه حكمة.

وقد يكون البلاء ليحميك الله من عيون الناس فيحسدوك عليه، لأن كل ذي نعمة محسود، وحتى لاتتم النعمة عليك؛ لأن تمام النعمة على الإنسان يؤذن بزوالها، وأنت ابن الأغيار وفي دنيا الأغيار، وإن تمت لك فقد تتغير النعمة بالنقصان.

إذن فالتفكير في ملاءمة الأسباب الصائبة ولوجهها يأتي بالعقل الكامل، والتفكير في الأشياء التي ليس لها سبب يأتي من الإيمان، والإيمان يطلب منك أن ترد كل شيء إلى حكمة الحكيم. إذن فأنت تحتاج إلى العقل فلا تستره بشرب الخمر؛ لأن العقل يدير حركة الحياة.

البغي نعرف أنه مجاوزة الحد ظلماً أو أكبر، أو بخلاً. والظلم أن تأخذ حق غيرك وتحرمه من ثمرة عمله فيجهد في العمل، لذلك يحرم الحق أن يبغي أحد على أحد. لا في عرضه، ولا في نفسه، ولا في ماله. ويجب أن تصون العرض من الفواحش؛ لأن كل فاحشة قد تأتي بأولاد من حرام. وإن لم تأت فهي تهدر العرض، وتطلوب صيانته، كذلك لايبغي أحد على محرم أحد، وكذلك لايبغي أحد على حياة إنسان بأن يهدمه بالقتل

ويضمون الحق المال فيمنع عنه البغي فلا يأخذ أحد ثمرة عمل آخر وكفاحه عدواناً وظلماً، ومظاهر البغي كثيرة. ومن البغي أن يأخذ سلطة قسراً بغير حق ولكن هناك من يأخذ سلطة قسراً وقهراً بحق، فإن كنت - على سبيل المثال - تركب سفينة، ثم قامت الرياح والزوابع، وأنت أمهر في قيادتها أتترك الربان يقودها وربما غرقت بمن فيها أم تضرب على يده وتمسك بالدفة وتديرها لتنقذ ومن فيها ؟ إنك في هذه الحالة تكون قد أخذت القيادة بحق صيانة أرواح الناس، وهذا بغي بحق، وهو يختلف عن البغي بغير الحق وحتى تفرق بين البغي البغي بحق والبغي بغير الحق نقول إن هذا يظهر ويتضح عندما نأخذ مال السفيه منه للحفاظ عليه وصيانته وتثميره له، فيكون قد أخذنا من صاحبه رعاية لهذا الحق، فهو وإن كان في ظاهره بغيا على صاحب الحق إلا أنه كان لصالحه وللصالح العام فهذا بغي بحق أو أنه سمي بغيا؛ لأنه جاء على صورة استلاب الحق من صاحبه ظلماً، ويسمى هذا في علم البلاغة مشاكلة وهي ذكر الشيء بلفظ غيره لوقوعه في صحبة ذلك الغير، ونقرأ أيضاً قول الله:

﴿ وجزاء سيئة سيئة مثلها .. ﴿٤٠﴾ ﴾ [سورة الشورى]

فهل جزاء السيئة يكون سيئة؟ لا. وإنما هي سيئة بالنسبة لمن وقعت عليه؛ لأنه لما عمل سيئة واختلس مالا - مثلا - وضربت على يده وأخذت منه المال فقد أتعسته ولذلك فالحق يقول:

﴿ وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين ﴿١٢٦﴾ ﴾

[سورة النحل]

ومن بغي بغير حق علينا أن نذكره بأن هناك من هو أقوى منه، أن يتوقع أن يناله بغي ممن هو أكثر قدرة منه.

ويسبهنا الحق إلى العمل الذي لا غفران له ﴿ وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً ﴾

ومحال أن ينزل الحق الذي نعبده شريكاً له ويؤيده بالبرهان والسلطان والحجة

على أنه شريك له ـ تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيراً ؛ لأن من خصائص الإيمان أنه سبحانه ينفى هذا الشرك بأدلته العقلية وأدلته النقلية .

وإذا كان الحق قد قال لنا فى هذه الآية .

﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

فبعض من الآيات الأخرى جمعت هذه الأشياء ، فى إطار إيجازى ومع المقابل أيضاً ، يقول الحق :

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ ﴾

(من الآية ٩٠ سورة النحل)

لقد جاء بالفحشاء فى هذه الآية ليؤكد طهارة الأنسال ، وجاء أيضاً بتحريم المنكر والبغى ، وزاد فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها الإثم فقط . وكأن الإثم فى آية الأمر بالعدل والإحسان والنهى عن الفحشاء والمنكر والبغى ، مطمور فى « المنكر » ، والمنكر ليس محرماً بشرع فقط ، بل هو ما ينكره الطبع السليم ؛ وأيضاً فصاحب الطبع غير السليم يحكم أنه منكر إذا كانت المعاصى تعود عليه بالضرر ، هنا يقول : أعوذ بالله منها وإن كان هو يوقعها على الغير فهو يعتقد أنها غير منكر ، وعلى سبيل المثال نجد رجلاً يبيح لنفسه أن يفتح أعينه على عورات الناس ويتلذذ بهذه المسألة لكنه ساعة يرى إنساناً آخر يفتح عينيه على عورته أو على ابنته مثلا إنّه يرى فى ذلك أبشع المنكرات ؛ لذلك لابد أن تجعل للمنكر حدًّا يشملك ويشمل غيرك ولا تنظر إلى الأمر الذى تكلف به أنت وحدك ، وإنما انظر إلى الأمر المكلف به الآخرون . . وإياك أن تقول : إنه حدد بصرى من أن يتمتع بجسم يسير أمامى ، إنه ـ سبحانه ـ كما حرم نظرك إلى ذلك ، حرم أبصار الناس جميعاً أن ينظروا إلى محارمك ؛ وفى هذا صيانة لك .

وبعد أن حلل هذه الطيبات والزينة ، وحرم الفواحش والمنكر والبغى والإثم يقول سبحانه :

﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾

نحن هنا أمام نص قرآنى تثبته قضايا الوجود الواقعى ؛ فالذين سفكوا ، وظلموا ، وانتهكوا الأعراض ، وأخذوا الأموال . لم يدم لهم ذلك ، بل أمد الله لهم فى طغيانهم ، وأخذهم به أخذ عزيز مقتدر . ولو أراد خصومهم الانتقام منهم لما وصلوا إلى أدنى درجات انتقام السماء . ويجرى الحق هذا الانتقام من الطغاة لصيانة سلامة المجتمع . فإن رأيت فساداً أو طغياناً إياك أن تيأس ؛ لأن الحق سبحانه قد أوضح أن لكل أمة أجلاً ، بداية ونهاية ، ففى أعمارنا القصيرة رأينا أكثر من أمة جاء أجلها . إذن فكل طاغية يجب أن يتمثل هذه الآية :

﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

والأجل لكل أمة معروف عند الله ؛ لأن الباطل والظلم إن لم يعض الناس عضة تجعلهم يصرخون فهم لا يستشرفون إلى الحق ولا يتطلعون إليه . والألم وسيلة العافية لأنه يؤكد لك أن وضعك غير طبيعى ، وعلى ذلك فالمسائل التى تحدث فى الكون وهذه الأمم التى تظلم . وتضطهد . ولها جبروت وطغيان إنما تفعل ذلك إلى أجل معلوم . فإياك أن تيأس ، ولكن عليك أن تستشرف إلى الحق . وإلى جناب الله فتلوذ به وحده ، ولذلك نجد أكثر الناس الذين حدثت لهم هذه الأحداث لم يجدوا إلا واحة الإيمان بالله ؛ ففروا إلى بيته حجاجاً وإلى مساجده عماراً وإلى قراءة قرآنه ذكراً . وننظر إلى هذه الأمور ونقول : إن الطاغية الفاجر مهما فعل فلابد أن يسخره الله لخدمة دينه ، وهناك أناس لولا أن الدهر عضهم وأحنى عليهم كأن سلط عليهم ظالماً لما فروا إلى الله بحثاً عن نجاة ، ولما التفتوا لربنا عبادة .

إن في واقع حياتنا يعرف كل منا أناساً ، كان الواحد منهم لا يعبد ربه فلا يصلي ولا يصوم ولا يذكر ربه ، ثم جاءت له عضة من ظالم فيلجأ الإنسان المعضوض إلى الله عائداً به ملتجئاً إليه ، ولذلك نقول للعالم : والله لو عرفت ماذا قدمت أنت لدين الله ، ولم تأخذ عليه ثواباً لقدمت ، فأنت قد قدمت لدين الله عصبة ممن كانوا من غير المتدينين به . ولو أنك تعلم ما يأتي به طغيانك وظلمك وجبروتك من نصر لدين الله لما صنعته أنت ، إنّ لكل أمة أجلاً ، فإن كنت ظالماً وعلى رأس جماعة ظالمة فلذلك نهاية .

وانظر إلى التاريخ تجد بعض الدول أخذت في عنفوانها وشدتها سيادة على الشعوب ، ثم بعد فترة من الزمن تحل بها الحيبة وتأتي السيطرة عليها من الضعاف ؛ لأن هذا هو الأجل إن الحق يعمي بصائرهم في تصرف ، يظنون أنه يضمن لهم التفوق فإذا به يجعل الضعيف يغلبهم ويسيطر عليهم وإذا جاء الأجل فلا أحد يستطيع تأخيره ؛ لأن التوقيت في يد قيوم الكون ، وهم أيضاً لا يستقدمون هذا الأجل . ونلحظ هنا وجود كلمة « ساعة » ، والساعة لها اصطلاح عصري الآن من حيث إنها معيار زمني لضبط المواقيت ، ونعلم أن اليوم مقسم إلى أربع وعشرين ساعة ، والأقل من الساعة الدقيقة ، والأقل من الدقيقة الثانية ، والأكبر من الساعة هو اليوم ومن يدري فقد يخترع البشر آلاتٍ لضبط الجزء من الثانية

وكذلك تعلق الساعة على قيام القيامة .

ويقول الحق بعد ذلك

﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾

هنا ينادي الحق أبناء آدم ، بعد أن ذكرهم أنه أحل لهم الطيبات والزينة وحرم

عليهم المسائل الخمسة من الفحشة والمنكر والبغي والإثم والشرك، ووضع لهم نظماً يضمن سلامة المجتمع، وطمأنهم بأنه منتقم من أي أمة ظالمة بأن جعل للظلم نهاية وأجلاً فعليكم يابني آدم أن تأخذوا أمور حياتكم في إطار هذه المقدمات.

﴿ يَـٰبَنِيٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتِى ﴿٣٥﴾ ﴾ [سورة الأعراف]

عليكم أن تستقبلوا رسل الله استقبال المهرف المستشرف المتطلع إلى مايحميه وإلى مايمنعه؛ لأن الرسول هو من يعلن لكل واحد منكم ماأحله الله من طيبات الحياة وملاذها، ويبين لكم ماحرم الله ليحيا المجتمع سليماً.

كان المظنون أن ساعة يأتي الرسول تجد المجتمع يحرص على ملازمته وعلى تلقي البلاغ منه، لا أن يظل الرسول يدعو بالليل بيما المجتمع يتأبى عليه. لكن من رحمة الله أن يتأبى المجتمع ويلح الرسول مبيناً آيات الله وبيناته كي يأخذ كل إنسان مايساعده على أمر حياته ويهتدي إلى الصراط المستقيم، وأنت إذا ماأصبت في عافيتك تلح على الطبيب وتبحث عنه، فكان مقتضى العقل أنه إذا جاء رسول مبعوث منهج الله في إدارة حركة الحياة أن نتشوق إليه ونتطلع، لا أن نعاديه، وعادة مايسعد بالرسول أهل الفطرة السليمة بمجرد أن يقول الرسول: أنه رسول ومعه آية صدقه ويقيس أهل الفطرة السليمة قول الرسول بماضيه معهم، فيعلمون أنه مخلص لم يرتكب الإثم. وهذه فائدة قوله الحق:

﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ ﴾ [سورة التوبة]

فلم يأت لكم إنسان لاتعرفونه بل لكم معه تاريخ واضح وجلي، لدرجة تجد الذين آمنوا برسول الله أول الأمر لم ينتظروا إلى أن يتلو عليهم القرآن، لكنهم آمنوا به بسوابق معرفتهم له؛ لأنهم عايشوه، وعرفوا كل تفاصيل أخلاقه. ومثال ذلك. عندما أخبر محمد ﷺ سيدتنا خديجة -رضوان الله عليها- بأنه

رسالته وأسرّ لها بخوفه من أن يكون ما يرى إليه هو من أمور الجن أو مسها ، أسرعت إلى ورقة بن نوفل ؛ لأنه عنده علم بكتاب ، وقبل ذلك قالت لرسول الله صلى الله عليه وسلم « إنك لتصل الرحم وتحمل الكلّ وتعين على نوائب الحق وتكسب المعدوم »

وكل هذه المقدمات تدل على أنك - يارسول الله - في حفظ الله ورعايته ؛ لأنك كنت مستقيم السلوك قبل أن تُنبّأ ، وقبل أن توجد كرسول من الله . وهل معقول أن من يترك الكذب على الناس يكذب على الله ؟! وكذلك نجد سيدنا أبو بكر الصديق بمجرد ما أن قال رسول الله « أنا رسول » قال له « صدقت .

وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على صدق الفطرة ، وهذه هي فائدة ﴿ رسول من أنفسكم ﴾ أو من جنسكم البشري حتى نجد فيه الأسوة الحسنة . ولو جاء لنا رسول من الملائكة وقال لنا « هذا هو المنهج ولكم أسوة بي » كنا سنرد عليه الرد المفحم لسهل اليسير . وهل يقدر أن يدعي مثلك وأنت ملكٌ مفطور على الخير ؟ . لكن حين يأتينا رسول من جنسنا البشري ، وهو صالح أن يصدر منه الخير ، وصالح أن يصدر منه الشر فهو الأسوة الموجودة ، ولذلك كان من عناد الكافرين أن قالوا ما جاء به القرآن على ألسنتهم .

﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ ﴾

(سورة الإسراء)

إنه العناد وقصر النظر والعصب ؛ لأن الله بعث محمداً وهو من البشر ، فهل كانوا يريدون مَلَكاً ؟ ولو كان ملكاً فكيف تكون به الأسوة وطبعه مختلف عن طبائع البشر ؟ . ولذلك يرد الحق لرد المنطق .

﴿ قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾ ﴾

(سورة الإسراء)

وذلك حتى تتحقق بنا الأسوة فيه ؛ فسبحانه لم يقتحم وجودكم التكليفى ، ولم يُدخلكم فى أمر يشتد ويشق عليكم لكنه جعه لكم بواحد منكم تعرفون تاريخه ولم يأت به من جنس آخر

﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى ﴾

(من الآية ٣٥ سورة الأعراف)

وانظر قوله : ﴿ يقصّون عليكم آياتى ﴾ ، لقد جاء بكلمة « يقصّون » لأن القصص مأخوذة من مادة « القاف » و « الصاد المضعّفة » ؛ وهذا مأخوذ من « قصّ الأثر » ، وكان الرجل إذا ما سرقت جماله أو أغنامه يسير ليرى أثر الأقدام إذن ﴿ يقصّون عليكم آياتى ﴾ أى أنهم ملتزمون بما جاء لهم ، لا ينحرفون عنه كما لا تنحرفون أنتم عن قص الأثر حين تريدون المؤثر فى الأثر

﴿ فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾

(من الآية ٣٥ سورة الأعراف)

و « التقوى » هو أن تجعل بينك وبين شىء يضرك وقاية ولذلك يقول الحق ﴿ اتقوا النار ﴾ ، لنرد عن أنفسنا بالعمل الصالح لهيب النار وإذا قيل ﴿ اتقوا الله ﴾ أى اتقوا متعلقات صفات الجبروت من الله ؛ لأنكم لن تستطيعوا تحمل جبروت ربنا ، وعليكم أن تلتزموا بفعل الأوامر وتلتزموا أيضاً بترك النواهى . والأمر بالتقوى هنا يعنى ألا تنكر وتجحد رسالات الرسل ؛ لأنهم إنما جاءوا لإنقاذ البشر ، فالمجتمع حين يمرض ، عليه أن يسرع ويبادر إلى الطبيب القادم بمنهج الله ليرعاه ، وهو الرسول ؛ لذلك لا يصح الجحود برسالة عليها دليل ومعجزة . ﴿ فمن اتقى وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾

و « أصلح » تدل على أن هناك شيئاً غير صالح نجعله صالحاً ، أو حافظ على صلاح الصالح ورقّى صلاحه إلى أعلى ، مثل وجود بئر نشرب منه ، فإن كانت البئر تؤدى مهمتها لا نردمها ، ولا نلقى فيها قاذورات ، وبذلك يبقى الصالح على صلاحه ، ويمكن أن نزيد من صلاح البئر بأن نبنى حولها سوراً ، أو أن نقوم بتركيب مضخة تمتص الماء من البئر لصحه إلى البيوت وبذلك نزيد الصالح

صلاحاً ، والآية في الذين هم الذين يدعون الإصلاح بينما هم مفسدون ، يقول الله فيهم :

﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ۝ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ۝ ﴾

(سورة الكهف)

إذن فحين نقدم على أي عمل لابد أن نعرف مقدمات هذا العمل ، وماذا ستعطيه تلك المقدمات ، وماذا سوف نجد منه . وأنت الصالح في الكون على صلاحه أو زده إصلاحاً ، وهنا لا خوف عليك ولن تحزن على شيء فاثبت لتتحقق قول الحق

﴿ لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ﴾

(من الآية ٢٣ سورة الحديد)

وما المقابل لمن لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، أي هؤلاء الذين أصلحوا واتقوا ؟ المقابل هو ما يأتي في قوله الحق :

﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ۝٣٦ ﴾

ولماذا يكون مصير المكذبين بالآيات و بمستكبرين عنها أن يكونوا أصحاب النار ويكونوا فيها خالدين ؟ لأنهم لم تيسرت لهم أسباب الحياة لم يضعوا في حسابهم أن تكون لهم نهاية في الآخرة ولم يلتفتوا إلى النهاية ، وعاب عنهم الإيمان بقول الحق :

﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ

﴿ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ۝٢٠ ﴾

(سورة الشورى)

وهب أن الواحد منهم قد أخذ ما أخذ في الدنيا، فلماذا نسي أنها موقوتة العمر؟ ولماذا لم يلتفت إلى الزمن في الآخرة؟ عليك أن تعلم أنك في هذه الدنيا، خليفة في الأرض، ومادمنا جميعاً أبناء جنس واحد ومخلوقين فيها والسيادة لنا على الأجناس فلابد أن تكون لنا غاية متحدة؛ لأن كل شيء اختلف فيه لا يعتبر غاية، فالغاية الأخيرة هي لقاء الله؛ لأن النهاية المتساوية في الكون هي الموت ليسلمنا لحياة ثانية. فالذي يستكبر عن آيات الله هو من دخل في صفقة خاسرة؛ لأن من يقارن هذه الدنيا بالحياة الأخرى سيجد أن زمن الإنسان في الدنيا قليل وزمن الآخرة لا نهاية له وعمر الإنسان في الدنيا مظنون غير متيقن، والمتعة فيها على قدر أسباب الفرد وإمكاناته، لكن الآخرة متيقنة، ونعيم المؤمن فيها على قدر طلاقة قدرة الله

﴿ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴾

(من الآية ٣٦ سورة الأعراف)

وأصحاب النار يعني أن يصاحب ويلازم المذنب النار كما يصاحب ويلازم الإنسان منا صاحبه؛ لأن النار على إلف بالعاصين، وهي التي تتساءل ﴿ هل من مزيد ﴾؟

ويقول الحق بعد ذلك

﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِهِۦٓ ۚ
أُو۟لَـٰٓئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمْ
رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوٓا۟ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ

أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَٰذِبِينَ ﴿٣٠﴾

و﴿ ممن أظلم ﴾ تأتى على صيغة السؤال الذى لا تكون إجابته إلا الإقرار ولا أحد أظلم ممن افترى على الله الكذب ؛ لأنه أولا ظلم نفسه ، وظلم أمته ، وأول ظلم النفس أن يرتضى حياة زائلة وأن يترك حياة أبدية ، وأما ظلمه للناس فلأنه سيأخذ أوزار ما يضلون ؛ لأنه قد افترى على الله كذباً ﴿ أو كذب بآياته ﴾

أى قوَّل الله ما لم يقله ، أو كذَّب ما قاله الله ، وكلا الأمرين مساوٍ للآخر والآية - كما نعلم - هى الأمر العجيب ، والآيات أطلقت فى القرآن على معانٍ متعددة ؛ فالحق يقول :

﴿ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ ﴾

(من الآية ٣ سورة فصلت)

وكذلك أطلقت على المعجزات التى يرسلها الله تأييداً لرسله

﴿ وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴾

(من الآية ٥٩ سورة الإسراء)

فالآيات هنا هى المعجزات أى الأمور العجيبة

وتحدث القرآن عن الآيات الكونية فقال سبحانه

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ﴾

(من الآية ٣٧ سورة فصلت)

فالآية إذن هى الشىء العجيب وهى تشمل آيات القرآن ؛ لأنك حين تنظر إلى نظم آيات القرآن ، وإلى استيعابها إلى حقائق الوجود وإلى استيفائها لقضايا الكون

كله تقول لنفسك . هذا شيء عجيب ؛ لأن الذي جاءت على لسانه هذه الآيات نبي أمي ، ما عرف عنه أنه زاول تعلماً ، وما جربوا عليه أنه قال شعراً ، أو نثراً أوله رياضة في كلام ، وبعد ذلك ما جرب حكم أمم ، وما درس تاريخ الأمم حتى يستنبط القوانين التي أعجزت الحضارات المعاصرة عن مجاراتها .

إن الأمة البدوية حينما ذهب بمنهجها إلى الفرس ، وكانت الفرس لها حضارة الشرق كلها ، وعلى الرغم من ذلك أخذت الفرس قوانينها من هذه الأمة البدوية ، وكان كل نظام هذه الأمة المتبدية قبل مجيء الرسالة مع سيدنا رسول الله ﷺ يتخلص في نظام القبيلة وكل قبيلة لها رئيس ، وبعد أن جاءت رسالته ﷺ جاء بنظام يجمع أمم العالم كلها ، ثم ينجح في إدارة الدنيا كلها ، وهذه مسألة عجيبة ، وكل آية من هذه الآيات كانت معجزة وعجيبة .

وكذلك الآيات الكونية التي نجدها تتميز بالدقة الهائلة ؛ فالشمس والقمر بحسبان ، وكل في فلك يسبحون ، إنه نظام عجيب

إذن فالمعجزات في الآيات هي آيات القرآن ، والمعجزات والآيات الكونية . وكيف يكذبون إذن بالآيات ؟ ألا ينظرون إلى الكون وما فيه من دقة صنع وهندسة بناء تكويني لا تضارب فيه ؟ وهي آيات تنطق بدقة الخالق ؛ فهو العالم ، القادر ، الحكيم ، الحسيب . وكذلك كيف يكذبون الرسول القادم بالمعجزات ، ويقولون : إنه ساحر ، وحين تتلى عليهم آيات القرآن يكذبونها . إذن هم لم ينظروا في آيات الكون ليستنبطوا منها عظمة الصانع وحكمته ودقته ، ولم يلتفتوا إلى الإيمان به قمة عقيدية ، وكذلك كذبوا بالآيات المعجزات التي جاء بها الرسل فلم يصدقوا الرسل وآخرها وقمتها آيات القرآن العظيم .

وحينما عرض الحق سبحانه وتعالى هذه المعضلة ، تساءل كيف تقولون . إنه ساحر الناس فمنوا به ، فلماذا لم يسحركم أنت ؟ . وحينما قالوا :

﴿ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ . ﴿١٠٣﴾ ﴾ [سورة النحل]

قال الحق :

﴿ ..لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَـٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾ ﴾

[سورة النحل]

وقالوا:

﴿ وَقَالُوا أَسَـٰطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾ ﴾

[سورة الفرقان]

فيعلم الحق رسله أن يقول :

﴿ .. فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ [سورة يونس]

وهنا يأمر الحق رسوله أن يذكرهم بأنه عاش بينهم أربعين عاماً فهل عرف عنه أنه يقول أو يتكلم بشيء من هذا ؟

فهل يترك الحق من كذبوا بالآيات ؟ أنهم خلق الله ، والله استدعاهم إلى الوجود ، لذلك يضمن لهم مقومات الحياة ، وأمر أسباب لكون أن تكون خدمة هؤلاء المكذبين الكافرين كما هي في خدمة الطائعين المؤمنين . ومن يحسن منهم الأسباب يأخذ نتائجها ، وإن أهمل المؤمنون الأخذ بالأسباب فلن يأخذوا نتائجها ، وكل هذا لأنه عطاء ربوبية ولأنه حق فلا بد أن يسري ، والنواميس الكونية تخدم الطائع وتخدم العاصي ؛ لأن ذلك من سنة الله ولن يجد أحد لسنة الله تبديلا .

إذن فكفرهم لن يمنع عنهم نصيبهم من الكتاب الذي قدَّر لهم ، من الرزق والحياة ، ماهو مسطر في الكتاب الذي أنزل عليهم ؛ لذلك يقول الحق :

﴿ أُولَـٰئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ الْكِتَـٰبِ ﴿٣٧﴾ ﴾ [سورة الأعراف]

أو ينالهم ، أي يصيبهم عذاب مما هو مبين في الكتاب الذي أرسلناه ليوضح أن الطائع له الثواب ، والعاصي له العقاب ، فيقول الحق هنا

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوٓا۟ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ ﴾

(من الآية ٣٧ سورة الأعراف)

وساعة نسمع ﴿ يتوفونهم ﴾ تفهم أن الحياة تنتهي ، وتنفصل الروح عن الجسد فهذا هو « التوفي » ، فمرة ينسب إلى الحق الأعلى سبحانه وتعالى ، ومرة ينسب إلى الملك ، ومرة يراد منه أتباع الملك أي جنوده يقول - سبحانه - ﴿ حتى إذا جاء أحدهم الموت توفته رسلنا وهم لا يفرطون ﴾ ، والأساليب الثلاثة منتفية ؛ لأن ملك الموت لم يأت بالموت من عنده ، بل أخذ التلقي من الله ، فالأمر الأعلى من الله ، وأمر التوسط للملك ، وأمر التنفيذ للرسل

و « التوفي » على إطلاقه هو استيفاء الأجل ، فإن كان أجل الحياة فهو توفيه بالموت ، وإن كان الأجل البرزخ وهو المدة التي بين القبر والحساب ، إلى أن يجيء ميعاد دخولهم النار فهذا هو توفي أجلهم الثاني ؛ لأن كل إنسان له أجلان أجل ينهي هذه الحياة ، والأجل الذي يأخذه في البرزخ إلى أن يجيء الحساب

وهذا لا يمنع أن يقال : إن قيامة كل إنسان تأتي بموته ؛ لأن للقيامة مراحل بدءا من القبر ونهاية بالخلود في الجنة أو في النار

وحين تسألهم الملائكة

﴿ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ ﴾

(من الآية ٣٧ سورة الأعراف)

هم إذن يعترفون أن من كانوا يدعونهم من دون الله قد غابوا واختفوا ولا يظهر لهم أثر .

﴿ وَقَالُوا أَءِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾

(من الآية ١٠ سورة السجدة)

وهم - إذن - يقرون عياب من كانوا يدعونهم من دون الله ، والمراد أنه لا وجود لهم ، وهم بذلك قد شهدوا على أنفسهم بكفرهم ولكن هذه الشهادة لا تجدى لأن زمن التكليف قد انتهى ، وهم الآن فى دار قهر لكل ما يريده الله ؛ ففى دار التكليف كان الإنسان حرًا أن يفعل أو ألا يفعل ، ولكن فى الدار الآخرة لا تنفع هذه الشهادة . وذلك لتبين عدالة الجزاء الذى يصيبهم ، ولن يتأبوا على الجزاء ؛ لذلك يقول الحق :

﴿ قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّىٰ إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾

ويوضح لنا الحق أنه بأوامر ﴿ كن ﴾ سيدخلون النار كما دخلتها أمم قد خلت من قبلهم ليسوا بدعاً ، وليدخلوا معهم إلى المصير الذى يذهبون إليه ، وهم أمم خليط ؛ لأن الكفر سوف يلتقى كله فى الجزاء .

إن الاقتداء بالأمم التى سبقت هو الذى قادهم إلى الكفر ؛ فالأمم التى سبقت كانت أسوة فى الضلال للأمة التى لحقت ، فإذا ما دخلوا معهم .

وهب أن إنساناً دخل مرة السجن لجرم ارتكبه ، وبعد ذلك دخل عليه من كان

يعربه بالجرم. ومن كان يرين له ، ومن اقتدى به . بالله ساعة يلتقيان في السجن ألا يلعن الأول الثاني ؟

﴿ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّىٰ إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾ [سورة الأعراف]

وبعد أن يلحق بعضهم بعضاً ويجتمعوا ، يحدث بينهم هذا الحوار العجيب :

﴿ قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ.. ﴿٣٨﴾ ﴾

[سورة الأعراف]

فإن قلت الأخرى أي التي دخلت النار متأخرة كانت الأولى هي القدوة في الضلال وقد سبقتهم إلى النار ، ﴿ قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ ﴾ ، أي أن الأولى هم القادة الذين أضلوا ، والطائفة الأخرى هم الأتباع الذين قلدوا. ﴿ قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ أَضَلُّونَا ﴾ . وهم يتوجهون بالكلام إلى ربنا ، ﴿ رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ أَضَلُّونَا ﴾

كيف يتأتى هذا ؟ . وكان المقياس أن يقول : قالت أخراهم لأولاهم أنتم أضللتمونا لكن جاء هذا القول ، لأن الذين أضلوا غيرهم أهون من أن يخاصموا ؛ لأن الموقف كله في يد الله ، وإذا ما قالوا لله المواجه للجميع : ﴿ هَٰؤُلَاءِ أَضَلُّونَا ﴾ فهؤلاء ، هذه إشارة إليهم ، فكأن القول موجه لله شهادة منهم إلى من كان وسيلة لإضلالهم وهم يقولون ربنا هذا حتى يأخذوا عذاب الضعف من النار مصداقاً لقوله الحق :

﴿ فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ.. ﴿٣٨﴾ ﴾ [سورة الأعراف]

فقال الله لهم جميعاً. ﴿ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ .. ﴿٣٨﴾ ﴾.

فلكل أمة منهم ضعف العذاب بما ضلت وأضلت. ومعهم أن الضِّعْف معناه «شيء مساوٍ لمثله» ، فأنتم أيها المقلدون غيركم قد أضللتم سواكم بالأسوة أيضاً ؛ لأنكم كثرتم عددهم وقويتم شوكتهم وأغريتم الناس باتباعهم.

ويكون لكم ضعف العذاب بحكم أنكم أضللتم أيضاً ، وأنتم لاتعلمون أن من يحاسبكم دقيق في الحساب ، ويعطي كل إنسان حقه تماماً.

وماذا تقول أولاهم لأخراهم ؟ يقول الحق سبحانه:

﴿ وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾

أي مادمتم ستأخذون ضعف العذاب مثلنا فقد تساوت الرءوس «فذوقوا العذاب بماكنتم تكسبون» كأن المجرم نفسه ساعة يلتقي ويستقبل مجرماً مثله ، يقول له : اشرب من العذاب نفسه ، وليس ذلك نجياً من الله ، ولا يسلطة القهر لعبده ، ولكن بعدالة الحكم ؛ لأن ذلك إنما حدث بسبب ماكسبتم

ومعلوم أن التذوق في الطعوم ، فهل هم يأكلون العذاب ؟ . لا ، إنّ الحق قد جعل كل جارحة فيهم تذوق العذاب، والحق حين يريد شمول العذاب للجسم يجعل لكل عضو في الجسم حساسية الذوق كالتي في اللسان.

ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وضرب اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾ [سورة النحل]

وهذه هي الإدانة ، كأنها صارت لباساً من الجوع يشمل الجسد كله ، والإدانة أشد الإدراكات تأثيراً ، واللبس أشمل للجسد . (فذوقوا العذاب بما كنتم تكسبون) .

ولم يقل الحق : بما كنتم تكتسبون ؛ لأن اكتسابهم للسيئات لم يعد فيه افتعال ، بل صار أمراً طبيعياً بالنسبة لهم ، وعلى الرغم من أن الأمر الطبيعي في التكوين أن يصنع الإنسان الحسنة دون تكلف ولا تصنع ، وفي السيئات يجاهد نفسه ؛ لأن ذلك يحدث على غير ما طبع عليه ، ولكن هؤلاء من فرط إدمانهم لسيئات فسدت فطرتهم ولم تعد ملكاتهم تتضرب عند فعل السيئات ، بل صاروا يرتكبون الإثم كأمر طبيعي ، وهذا هو الخطر الذي يحيق بالمسرفين على أنفسهم ؛ لأن الواحد منهم يفرح بعمل السيئات .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾

والحق يريد أن يعطي حكماً جديداً ويحدد من هو المحكوم عليه ليعرف بجريمته ، وهي جريمة غير معطوفة على سابقة لها ، وليعرف كل إنسان أن هذه جريمة ، وأن من يرتكبها يلقى حكماً وعقاباً . (إن الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها) .

وقد عرفنا من قبل معنى الآيات ، وأنها آيات القرآن المعجزة أو الآيات الكونية ، وأي إنسان يظن نفسه أكبر من أن يكون تابعاً لمنهج جاء به رسول عرف بين قومه بأمانته ، وهذا الإنسان يستحق العقاب الشديد فصحيح أن محمداً ﷺ لم يكن له من الجاه ولا سلطان ما يبالي به سادة وكبراء قريش ، ولذلك وجدنا من يقول :

﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ ﴾ [سورة الزخرف]

إنهم يعترفون بعدو القرآن ، لكنهم تمنوا لو أن القرآن قد نزل على إنسان غيره بشرط أن يكون من العظماء بمعاييرهم وموازينهم المادية.

ومن يكذب الآيات ويستكبر عن اتباع الرسول لاتفتح له الأبواب السماء

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾﴾[سورة الأعراف]

وبذلك نعرف من هم الذين لاتفتح لهم أبواب السماء ، وبطبيعة الحال نعرف أن المقابلين لهم هم الذين تفتح لهم أبواب السماء.. إنهم المؤمنون ، وحين تصعد أرواحهم إلى الملأ الأعلى تجد أعمالهم الصالحة تصعد وترتفع بهم إلى أعلى. أما المكذبون فهم لايترفعون بل يهبطون ولا يدخلون الجنة ، وقد علق سبحانه دخول الجنة بمستحيل عقلاً وعادة وطبعاً: (ولايدخلون الجنه حتى يلج الجمل فى سم الخياط).

و«سم الخياط» هو ثقب الإبرة ، أى الذى تدخل فيه فتلة الخيط ، ولاتدخل فتلة الخيط فى الثقب إلا أن يكون قطر الفتلة أقل من قطر الثقب ، وأن تكون الفتلة من الصلابة بحيث تنفذ ، وأن تكون الفتلة غير مستوية الطرف ؛ لأنها إن كانت مقصوصة وأطرافها مستوية فهى لاتدخل فى الثقب ؛ لذلك نجد الخياط يجعل للفتلة سناً ليدخلها فى ثقب الإبرة.

وحين نأتى بالجمل ونقول له . ادخل فى سم الخياط ، فهل يستطيع ؟ طبعاً لا ؛ لذلك نجد الحق سبحانه قد علق دخول هؤلاء الجنه على مستحيل

بعض الناس قالوا . وماعلاقة الجمل سم الخياط ؟

نقول : إن الجمل يطلق أيضاً على الحبل الغليظ المفتول من حبال ، مثل حبال المركب إننا نجده سميكاً مجدولاً.

وأخذ الشعراء هذه المسألة ؛ ونجد واحداً منهم يصف انشغاله بالحبيب وشوقه إليه وصبابته به حتى يهزل ويستند به الضعف فيقول:

ولو أن ما بي من جوى وصبابة
على جمل لم يدخل النار كافر

لأن الجوى والصبابة التي يعاني منهما هذا الشاعر ، لو أصيب بهما الجمل فلسوف ينحف ويهزل ، إلى أن يدخل في سم الخياط ، وهنا يوضح ربنا إن دخل الجمل في سم الخياط فسوف أدخلهم الجنة

﴿ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾

(من الآية ٤٠ سورة الأعراف)

وهم يستحقون هذا الجزاء بما أجرموا .
ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾ ﴾

المهاد هو الفراش ، ومنه مهد الطفل ، والعاشية هي الغطاء ، أي أن فرش هذا المهاد وغطاءه جهنم وفي آية أخرى يقول الحق سبحانه وتعالى

﴿ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ﴾

(من الآية ١٦ سورة الزمر)

إذن الظلل والغواشي تغطي جهتين في التكوين البعدي للإنسان ، والأبعاد ستة وهي : الأمام والخلف ، واليمين والشمال ، والفوق والتحت ، والمهاد يشير إلى التحتية ، والغواشي تشير إلى الفوقية ، وكذلك الظل من النار ، ولكن لحق شاء أن يجعل جهنم تحيط بأبعاد الكافر الستة فيقول سبحانه :

﴿ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ﴾

(من الآية ٢٩ سورة الكهف)

وهذا يعني شمول العذاب لجميع اتجاهات الظالمين

وجهنم مأخوذة من الجهومة وهي الشيء المحوف العابس الكريه الوجه ، ثم يأتي بالمقابل ليشحن النفس بكراهية ذلك الموقف ، ويحبب إلى النفس المقابل لمثل هذا الموقف ، فيقول سبحانه :

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾

وبهذا يخبرنا الحق أن الذين آمنوا وعملوا الصالحات هم أصحاب الجنة وهم فيها خالدون ، ويضع لنا الحق تنبيهاً بين مقدمة الآية وتذييلها « لا نكلف نفساً إلا وسعها » ؛ لعلهم أن المسرفين على أنفسهم بالكفر وتكذيب الآيات لم يفهموا حقيقة الإيمان ، وأن حبس النفس عن كثير من شهواتها هو في مقدور النفس وليس فوق طاقتها ، لذلك أوضح لنا سبحانه أنه كلف بـ « افعل ولا تفعل » وذلك في حدود وسع المكلف

وحين نستعرض الصورة إجمالاً للمقارنة والموازنة بين أهل النار وأهل الجنة نجد الحق قد قال في أهل النار .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

فهم لن يدخلوا الجنة ، وعلى ذلك فقد سبب منهم بعدُ ، ولا يتوقف الأمر على ذلك ، ولكنهم يدخلون النار ، إذن فهما أمران سلب النافع وهو دخولهم الجنة ، إنه سبحانه حرمهم ومنعهم ذلك النعيم ، وذلك جزاء إجرامهم . وبعد ذلك كان إدخالهم النار ، وهذا جزاء آخر ؛ فقال الحق .

﴿ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٤١﴾ ﴾ [سورة الأعراف]

في الأولى قال: - سبحانه -(وكذلك نجزي المجرمين)

وفي الثانية قال: (وكذلك نجزي الظالمين).

فكأن الإجرام كان سبباً في ألا يدخلوا الجنة، والظلم كان سبباً في أن يكون من فوقهم غواش، لهم من جهنم مهاد، وهم في النار يحيطهم سرادقها.

ومن المناسب بعد تلك الشحنة التي تكرهنا في أصحاب النار وفي سوء تصرفهم فيما كلفوا به أولاً، وسبب بشاعة جرائمهم ثانياً؛ أن نتلهف على المقابل. فقال سبحانه.

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾ [سورة الأعراف]

وقول الحق سبحانه وتعالى: «لا نكلف نفساً إلا وسعها» جاء بين المبتدأ والخبر، ككلام اعتراضي؛ لأن أسلوب يقتضي إيلاءنا أن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم الخلود في الجنة، وجاءت «لا نكلف نفساً إلا وسعها» بين العملتين وهما المبتدأ والخبر؛ لأننا حينما نسمع «والذين آمنوا» فهذا عمل قلبي، ونسمع بعده «وعملوا الصالحات» وهذا عمل الجوارح، وبذلك أي بعمل القلب مع عمل الجوارح يتحقق من السلوك ما يتمشى مع العقيدة والاعتقاد هو يسهل دائما السلوك الإيماني ويجعل مشاق التكاليف في الأعمال الصالحة مقبولة وهينة، ولذلك أوضح سبحانه: إياكم أن تظنوا أني قد كلفتكم فوق طاقتكم، لا؛ فأنا لا أكلف إلا ما في الوسع، وإياكم أن تفهموا قولي «والذين آمنوا وعملوا الصالحات» هو رغبة في إرهاق نفوسكم، ولكن ذلك في قدرتكم لأني المشرع، والمشرع إنما يضع التكليف في وسع المكلَّف.

ونحن في حياتنا العملية نصنع ذلك؛ فنجد المهندس الذي يصمم آلة يخبرنا عن مدى قدراتها، فلا يحملها فوق طاقتها ولا تفسد. وإذا كان الصانع من البشر لا يكلف الآلة الصماء فوق ما تطيق، أيكلف الذي خلق البشر فوق ما يطيقون؟ سبحان أن يكون ذلك.

إذن فيجب أن توصد الباب أمام الذين يحاولون أن يتحللوا من التزامات التكليف عليهم ، فلا تعلق الحكم على وسعك الخاثر الجائر ، ولكن غلق الوسع على تكليف الله ، فإن كان قد كلف فأحكم بأن ذلك في الوسع ؛ والدليل على كذب من يريد الافلات من احكم هو محاولته إخضاع الحكم لوسعه هو ؛ أن غيره يفعل مالايريد أن يفعله . فحين ينهى الحق عن شرب الخمر تجد غيرك لايشرب الخمر امتثالاً لأمر الله ، وكذلك تجد من يمسع عن الزنا أو أكل الربا ؛ فإذا كان مثيلك وهو فرد من نوعك قادراً على هذا العمل فمن لايمتنع عن مثل هذه المحرمات هو المذنب لالصعوبة التكليف .

فالتكليف هو أمر الشارع الحكيم بـ«افعل» و«لاتفعل» وسبحانه لايكلف الإنسان إلا إذا كان قادراً على أن يؤدي مطلوبات الشرع ، لأن الله لا يكلف إلا على قدر الطاقة ، واستبقاء الطاقة يحتاج إلى قوت ، طعام ، شراب ، لباس ، وغير ذلك مما تحتاج إليه الحياة ، لذلك أوضح سبحانه أنه يوفر للإنسان كل مقومات الحياة الأساسية ، وإياكم أن تظنوا أن الله حين يكلف الإنسان يكلفه شططاً ، ولكن الإنسان هو الذي يضع في موضع الشطط فقال :

﴿ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ .. ﴿٧﴾ ﴾ [سورة الطلاق]

«قدر على رزقه» أي ضيق عليه قليلاً .

ويقول سبحانه :

﴿ لِيُنفِقْ مِمَّا ءَاتَـٰهُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا ءَاتَـٰهَا .. ﴿٧﴾ ﴾ [سورة الطلاق]

إذن لا تفترض وتقدر أنت تكاليف المعيشة ثم تحاول إخضاع وارداتك إلى هذا التصور ، بل انظر إلى الوارد إليك وعش في حيز وإطار هذا الوارد ، فإن كان دخلك مائة جنيه فرتب حياتك على أن يكون مصروفك يساوي دخلك ؛ لأن الله لايكلفك إلا ما آتاك .

ولتنظر إلى ماآتاك الله ، لذلك لاتدخل في حساب الرزق إلا ماشرع الله ، فلا تسرق

ولا تنهب ولا تختلس ولا ترتش ثم تقول : هذا ما آتاني الله ، لا ، عليك ألا تأخذ ولا تنتفع إلا بما أحل الله لك ، فإن عشت في نطاق ما أحل الله يعينك الله على كل أمرك وكل حاجاتك ، لأنك تحيا بمنهج الله ، فيصرف عنك الحق مهمات الحياة التي تتطلب أن تزيد على ما آتاك الله ، فلا تخطر على بالك أو على بال أولادك . وتجد نفسك ـ على سبيل المثال ـ وأنت تدخل السوق وآتاك الله قدراً محدوداً من المال ، وترى الكثير من الخيرات ، لكن الحق يجعلك لا تنظر إلا في حدود ما في طاقتك ، وكذلك يُحسّن لك الله ما في طاقتك ويبعد عنك ما فوق طاقتك ؛ لأن الله لا يكلف نفساً إلا ما آتاها ، ولا يحرك شهوات النفس إلا في حدود ذلك

ولذلك قال الحق :

﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

وأصحاب الجنة هم الذين لا يفارقونها مثلما يحب الصاحب صاحبه ؛ فالجنة تتطلبهم ، وهم يتطلبون الجنة ، والحياة فيها بخلود وما فاتك من متع الدنيا لم يكن له خلود ، وأنت في الدنيا تخاف أن تموت وتفوت النعمة ، وإن لم تمت تخاف أن تتركك النعمة ؛ لأن الدنيا أغيار ، وفي ذلك لفت لقضايا الله في كونه ، تجد الصحيح قد صار مريضاً ، والغني قد صار فقيراً ، فلا شيء لذاتية الإنسان . وبهذا يعدل الله ميزان الناس فيأتي إلى الحالة الاقتصادية ويوزعها على الخلق ، ونجد الذي لا يتأبى على قدر الله في رزقه وفي عمله يجعل الله له بعد العسر يسراً . وفي الجنة يُخلي الله أهلها من الأغيار .

ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَٰرُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَىٰنَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ

وَنُودُوٓا۟ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾

وقوله لحق « ونزعنا ما فى صدورهم من غل » ينطبق - ايضا - على أهل الاجتهاد الذين اجتهد كل منهم فى الذنب ، واحتملوا ، هؤلاء يبعثون يوم القيامه وليس فى صدر احدهم غل ولا حقد . ولذلك تجد سيدنا الإمام عليّاً - كرم الله وجهه - حين يقرأ هذه الآية يقول . « اللهم اجعلنى أنا وعثمان وطلحة والزبير من هؤلاء » لأن هؤلاء هم الذين وقع بينهم الخلاف فى مسألة الخلافة ، وكل منهم صحابى ومبشر بالجنة ، فإن كانت النفوس قد دخلت فيها أغيار ، فإياكم أن تظنوا أن هذه الأغيار سوف تصحبكم فى دار الجزاء فى الآخرة ؛ لأن الله يقول . (ونزعنا ما فى صدورهم من غل) .

إن الخلاف كان خلافاً اجتهادياً بين المؤمنين وهم قد عملوا الصالحات وكل منهم أراد الحسن من الأعمال ، ونشأ عن ذلك فى أغيار الدنيا شىء من عمل القلب ، فأوضح سبحانه : إياكم أن تفهموا أن ذلك سوف يستمر معهم فى الآخرة ؛ لأنهم جميعاً حينما اختلفوا كانوا يعيشون باجتهادات الله ، وفى الآخرة لا اجتهاد لأحد . ويريد الحق أن يجعل هذا الأمر قضية كونية ، ومثال ذلك تجد رجلاً قد تزوج امرأة بمقاييس غير مقاييس الله فى الزواج ؛ تزوجها لأنها جميلة مثلاً ، أو لأن والدها له جاه أو غنى ، وبعد الزواج لم يعطه ولدها الغنى شيئاً من ماله ويقول عشنى وزوجنى ابنته ، أو كانت جميلة ، ثم لقى فيها خصالاً قبيحة كثيرة فكرهها ، ونقول لمثل هذا الرجل : مادمت لم تأخذها بمقاييس الله فعليك أن تنال جزاء الاختيار

ولكن من تزوج امرأة على دين الله ، ووجد منها قبحاً ، فلن يصحبه هذا القبح فى الآخرة ، ولذلك تجد الحق قد جعله بهذه القضية بالذات ، ولم يأت بها فى الأسماء أو فى السمات ، بل فى الزوج والزوجة لأنهما عماد الأسرة فبين للرجل : إياك أن تتحمل أن المرأة التى غاظتك أو أتعبتك أو كدرت عليك بخصلة سيئة فيها ، إياك أن تظن أن هذه الخصلة السيئة ستصحبها فى الآخرة ، ولذلك قال سبحانه :

﴿ وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ ﴾

(من الآية ١٥ سورة آل عمران)

وأزواج مطهرة من الأشياء التى كنت تغضب منها وستكون مطهرة بتطهير الله لها .

﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ ﴾

(من الآية ٤٣ سورة الأعراف)

ونجد الحق يقول مرة « تجرى تحتهم الأنهار » ومرة يقول : « تجرى من تحتهم الأنهار » ، ونجد « من » فارقاً بين القولين . إننا نرى من يستقر فى قصر ونجد الماء سابباً حوله وتحته يسر العيون ، وماء الآخرة هو منه غير آسن ، وليس فيه أكدار الدنيا ، وكما أننا نسر بالماء فى الدنيا سنسر به أضعاف ذلك فى الآخرة . وقد تجرى المياه تحت القصر ولكن نبعها من مكان بعيد فيخلف صاحب القصر أن يقطعها آخر عنه . ويطمئن الحق عباده الصالحين : ستجرى من تحت حنانكم الأنهار وكل المياه ستكون دانيتها من موقع كل مكون أنت فيه ولن يتحكم فيك أحد ، ولن يسد أحد عنك منبع المياه وسترى أنهار الآخرة بلا شطآن ؛ لأن كل شىء ممسوك لا بالأسباب كما فى الدنيا ، ولكن بـ « كن » التى هى لله . ولذلك يقول العباد فى جنة الآخرة :

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ ﴾

(من الآية ٤٣ سورة الأعراف)

إنهم يقولون الحمد لله لأنه جل وعلا قد جمعهم ودلهم وأرشدهم إلى الثواب والنعيم دون منغصات ، والحمد لله هى عبادة يقولها المؤمنون فى الآخرة ؛ لأنهم أدوا حق الله فى تكاليفه فى الدنيا ويعطيهم الله فوق ما يتوقعون فى الآخرة ونعيم الآخرة لا قيد عليه ، ولن يستطيع بشر مهما ارتقى بالابتكار أن يصل إلى ما فى الجنة ؛ لأن الشىء يتحقق لك من فور أن يخطر ببالك (وقالوا الحمد لله) .

وهذا الحمد لله كان فى الدنيا عبادة تكليف ، أما فى الآخرة فهو « عبادة غبطة وسرور وتلذذ (وقالوا الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله) .

يقولها المؤمن ؛ لأن الله لو لم ينزل منهجاً سماوياً يحدد له حركة حياته استقامة وينذره

ويخوفه من المعاصي لما وصل إلى الجنة . والهداية ـ كما قلنا ـ هي الدلالة على الطريق الموصل للغاية ، إذن لابد أن تعرف الغاية أولاً ثم تصنع الطريق الموصل لها ، بحيث لا يكون معوجاً ولا يعترضك فيه ما يطيل عليك المسافة ، وقوله الحق . « وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله » يمنع أن يضع البشر للبشر قوانين تهديهم إلى الغاية ؛ لأن البشر أنفسهم لا يعرفون الغاية ؛ لذلك يوضحها لهم خالقهم بمنهجه المنزل على رسوله .

ولما دامت الهداية من الله فسبحانه لن يخاطب كل إنسان مباشرة ، لكنه سبحانه يترك الرسل يتلون عليا آيات الله ويوضحون لنا المنهج ؛ لذلك يأتي الحق في الآية نفسها بقوله الحكيم :

﴿ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوٓاْ أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾

(من الآية ٤٣ سورة الأعراف)

أنت في الحياة الدنيا حين تجد من يقول لك : إن أردت أن ترتاح فأن أنصحك أن تمشي إلى المكان العلاني واذهب إليه عن الطريق الفلاني ، وستجدك سعيداً مرتاح البال ، ثم صدقته وعملت ما قال ، ووجدت الرجل صادقاً . ألا تشعر بالسعادة ؟ . وإذا كان الحق قد أرسل الرسل بالبينات والآيات والمنهج الصحيح ، وسار عليه المؤمنون ثم وجدوا الجنة والنعيم ؛ لذلك كان لابد أن يشكروا الله وأن يقولوا . (لقد جاءت رسل ربنا بالحق) ولأن الرسل لم يكذبوهم بل جاءوا بالخير لهم .(ونودوا أن تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون) .

وكأن الحق يوضح لنا ونحن في دار التكليف أن نستقبل المنهج على هذا الأساس ، وعلى كل واحد أن يحدد مكانه من الجنة ؛ بقربه من منهج الله أو بعده عنه ؛ لأن دخول الجنة هو جزاء العمل طبقاً لمنهج الحق . ووقف العلماء هنا ـ جزاهم الله خيراً ـ وقالوا . كيف نوفق بين هذه الآية :

﴿ وَنُودُوٓاْ أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾

(من الآية ٤٣ سورة الأعراف)

وبين قول الرسول صلى الله عليه وسلم :

(لن يُدخل أحداً عمله الجنة

قالوا: ولا أنت يارسول الله ؟

قال: ولا أنا إلا أن يتغمدني الله بفضل ورحمة[1]

وأقول: ليس هناك تناقض بين قول الله سبحانه وتعالى وقول الصادق المصدوق ﷺ الذي بلغ عن الله سبحانه، بل بينهما تأييد: فلحق ساعة ماشرع أوضح أن من يعمل العمل الصالح سيدخل الجنة، وهذا التشريع لم يجبر أحد الله عليه، بل هو الذي يعطيه لنا فضلا منه؛ فليس لأحد حق على الله؛ لأنه لايوجد عمل يعود بفائدة على الله، واتباع المنهج إنما يعود على العبد بالمنفعة والخير، فإن دخلت الجنة فهذا أيضاً بالفضل من الله. وينبهنا القرآن إلى الجمع بين هذه الآيات وأنه لاتعارض بين نص حديثي ونص قرآني. يقول:

﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾

[سورة يونس]

فجزاء كل عمل عائد على الإنسان لأنه يأخذ مكافأته على فعله، فإن كانت المكافأة أكبر من جزاء الفعل فهي من الفضل؛ لأن الحق هو القائل.

﴿ .. كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾ ﴾ [سورة الطور]

وسبحانه أيضاً هو القائل:

﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ ﴾ [سورة النجم]

إن فهمت اللغة وكنت صاحب ملكة ناصعة تقول: هذه «اللام» للملك. وتفيد أنه لاحق لك على الله إلا بسعيك على وفق منهج الله، وأن هذه الآية قد حددت العدل ولم تحدد الفضل.

(١) رواه البخاري في الرقاق والمرضى ومسلم في صفات المنافقين والترمذي في الجنائز وأبو داود في الجنائز، والنسائي في الجنائز، وابن ماجه في الزهد، وأحمد في مسنده ٦/ ١٢٥

﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا .. ﴿٥٨﴾ ﴾ [سورة يونس]

والمثال على ذلك أننا كمسلمين نصلى على الميت المسلم ، وقد أمرنا التشريع بذلك ، وأن ندعو الله أن يتجاوز عن سيئاته . فهل تضيف هذه الصلاة إلى الميت شيئا زائداً عن عمله ؟ لو لم تكن صلاة تضيف شيئاً لما أمر التشريع بها . فهى صلاة على ميت مسلم ، وأسلامه من عمله ، ونجد الحق يقول:

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ .. ﴿٢١﴾ ﴾ [سورة الطور]

أى أن الآباء والأبناء يشتركون معاً فى الإيمان وفى العمل ، قوله تعالى:

﴿ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ . ﴿٢١﴾ ﴾ [سورة الطور]

هذا الإلحاق يفيد أن منزلة الذرية كانت أقل من منزلة الآباء ، لكن الحق يرفع من منزلتهم إكراماً للآباء . وهذا الإلحاق جزاء للذرية ، وقد يكون أيضاً جزاء للآباء ؛ فيحضر لهم أولادهم معهم مادام الكل قد اشتركوا فى الإيمان ، وكان الآباء يتحرون الحلال فى إطعام الأبناء ولا يربونهم إلا على منهج الله. وقد يرى الأب ابنه جار له يلبسون الملابس الفاخرة ويأكلون الأكل الطيب ، ويتحمل الأبناء ويعشيون عيش الكفاف مع هذا الأب الملتزم بالعمل الصالح والأجر الحلال ، ويسأل الأبناء الجنة مع الأب لأنهم تحملوا معه مشاق الالتزام بالحلال.

وهكذا نجد كل إنسان مؤمن قد أخذ نتيجة عمله وزيادة .

﴿ .. وَنُودُوا أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ [سورة الأعراف]

و«أورثتموها» من «الإرث» وتدل على أن هناك شيئاً آل إلى الغير ونعلم أن الله ، علم أزلا كيف سيسلك كل مخلوق وماسيفعله من كفر وإيمان وطاعة ومعصية ، وعلى رغم ذلك أعد سبحانه لكل واحد من خلقه مكانه فى الجنة على أنه مؤمن ، وأعد لكل

واحد من خلقه مكاناً فى النار على أساس أنه سيكفر

إذن فقد أعدَّ سبحانه جناناً بعدد خلقه ، وأعدَّ أماكن فى الجحيم بعددهم ، فليست هناك أزمة أماكن عند إله قادر مقتدر . فإن آمنا كلنا فلن يضيق بنا واسع الجنة ، و ـ والعياذ بالله ـ إن كفر الخلق جميعاً فلن تضيق بهم النار . فإذا كانوا جماعة من خلق سيدخلون الجنة بالعمل ، فأين تذهب أماكن أهل النار ؟ إن الحق يفضل عبه يمنحها المؤمنين .

إذن فقد ورثوا الذين لم يستحقوا الجنة بسبب الكفر .

وبعد الكلام فى الجنة والجزاء وفى حمد اللذة والسرور والغبطة وفى عهد الجنة ، بعد ذلك كان من المناسب أن يتكلم الحق سبحانه وتعالى عن موقف أهل الجنة من أهل النار ؛ فيقول سبحانه .

﴿ وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾

وهكذا نرى التبكيت ، وتصور لك الآية كيف يرى أهل الجنة أهل النار ، وهذا التراثى من ضمن النعيم ومن ضمن العذاب الأليم ، فحين يرى المؤمن بسبح الله من عداه وقهره وأذاه وهو فى النار فهذا من تمام اللذة والآخر حين يرى مخالفه فى الجنة فهذا أيضاً من تمام العذاب . إذن لابد أن يتراءوا ، ولذلك يحدث الحوار ، وينادى أصحاب الجنة أصحاب النار معترفين بأنهم وجدوا ما وعدهم به الله حقاً وصدقاً ، وأن الحق قد وهبهم هذه الجنة . فهل ـ يا أهل النار ـ وجدتم ما وعد ربكم حقاً ؟

ونلاحظ أن هناك خلافاً بين الأسلوبين مع أن السياق المنطقى واحد ؛ فأهل الجنة يقولون . « قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً » ، ولم يأت بالكاف فى كلمة ماوعد (الثانية) بل قال . « فهل وجدتم ماوعد ربكم حقاً » ؟

إنه قال سبحانه : « ما وعد » فقط ، ولم يقل ما وعدكم كما قال : (ما وعدنا) لأن المراد أن يلفتهم إلى مطلق الوعد ، وليس الخاص بهم فقط ، بل وأيضا الخاص بالمقابل ، وهكذا يتحقق الوعد المطلق لله فأهل الجنة بإيمانهم وأعمالهم في الجنة فضلاً من الله ، وأهل النار في النار بكفرهم وعصيانهم عقاباً من الله

وهنا يجيب أهل النار : (قالوا نعم)

وهذا إقرار منهم بالواقع المشهدي الذي عاشوه واقعاً بعد أن كان وعداً ، وهم لم يكابروا لأن المكابرة إنما تحدث بين الخصمين في غير مشهد ، وهم في الدنيا قبل أن يوجد المشهد كانوا يكذبون البلاغ عن الله ، وصارت الدار الآخرة واقعاً ، وتحقق وجودهم في النار .

﴿ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾

(من الآية ٤٤ سورة الأعراف)

أي فينادي مناد من الملائكة يُسمع أهلَ الجنّة وأهل النار بأن الطرد من رحمة الله على الظالمين الذين ظلموا أنفسهم ؛ بعدم الإيمان وبالتكذيب باليوم الآخر

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾

والذي يصد عن سبيل الله هو من امتنع عن سبيل الله ، وصد غيره ، أي صدّ في ذاته ثم أضل غيره . وهؤلاء هم الذين يطلبون منهج الله معوجاً ، ويذمونه ولا يؤمنون به فيعترضون على إقامة الحدود والقصاص ، وينفرون الناس عن منهج الله ؛ ليصرف الناس عن الدين هم إذن قد صدوا عن سبيل الله وطلبوا العوج فيما شرع الله لينفروا الناس عمّا شرع الله ، ولم يقتصر الأمر على ذلك ، بل هم بالآخرة كافرون ، ولو كان الواحد منهم مؤمناً بالآخرة ويعلم أن له مرجعاً ومرداً إلى الله لما فعل ذلك .

ويقول سبحانه من بعد ذلك .

﴿ وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾

الحجاب موجود بين أصحاب الجنة وأصحاب النار ، وهم يتراءون من خلاله ، وبيّنه المولى سبحانه فقال .

﴿ يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴿١٣﴾ ﴾

(سورة الحديد)

باطن هذا الحجاب الرحمة من ناحية أهل الجنة ، وظاهره المواجه لأهل النار فيه العذاب ، والحق هو القادر على كل شيء ؛ لذلك لا ينال أهل الجنة شيء من شقاء أهل النار ، ولا ينال أهل النار شيء من نعيم أهل الجنة ، ويسمع أهل النار رداً على طمعهم في أن ينالهم بعض من نور أهل الجنة ، إنكم تلتمسون الهدى في غير موطن الهدى ؛ فزمن التكليف قد انتهى ، ومن كان يرغب في نور الآخرة كان عليه أن يعمل من أجله في الدنيا ، فهذا النور ليس هبة من خلق لخلق ، وإنما هو هبة من خالق لمخلوق آمن به وأنتم تقولون : انظرونا نقتبس من نوركم ، وليس في مقدور أهل الجنة أن يعطوا شيئاً من نور أهل الجنة فالعطاء حينئذ لله .

﴿ وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ ﴾

(من الآية ٤٦ سورة الأعراف)

و « كُلًّا » المعنيّ بها أصحاب الجنة وأصحاب النار ، فقد تقسم عندنا فريقان ؛

أصحاب الجنة ، وأصحاب النار وهناك فريق ثالث هم الذين على الأعراف ، و«الأعراف» جمع «عُرف» مأخوذ من عرف الديك وهو أعلى شيء فيه ، وكذلك عرف الفرس . كأن بين الجنة مكانا مرتفعاً كالعرف يقف عليه أناس يعرفون أصحاب النار بسيماهم ، ويعرفون أصحاب الجنة بسيماهم فكأن من ضمن السمات والعلامات ما يميز أهل النار عن أهل الجنة .

وكيف توجد هذه السمات ؟ يقال إن الإنسان ساعة يؤمن يصير أهلا لاستقبال سمات الإيمان ، وكلما دخل في منهج الله طاعة واستجابة أعطاه الله سمة جمالية تصير أصيلة فيه تلازمه ولا تفارقه . وبالعكس من ذلك أصحاب النار فتبتعد عنهم سمات الجلال والجمال وتحل محلها سمات القبح والشناعة والبشاعة .

وإذا ما رأى أهل الأعراف أصحاب الجنة يقولون : سلام عليكم ؛ لأن الأدنى منزلة – أصحاب الأعراف – يقول للأعلى – أصحاب الجنة – سلام عليكم .

وجماعة الأعراف هم من تساوت سيئاتهم مع حسناتهم في ميزان العدل الإلهي الذي لا يظلم أحداً مثقال ذرة .

﴿ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ۝٨ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ۝٨ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ۝٩ ﴾ [سورة القارعة]

ويارب لقد ذكرت الميزان ، وحين قدرت للموزون لهم لم تذكر لنا إلا فريقين اثنين فريق ثقلت موازينه ، وفريقا خفت موازينه ، ومنتهى للسطن في القياس المو ويني أن يوجد فريق ثالث هم الذين تتساوى سيئاتهم مع حسناتهم ، فلم تثقل موازينهم فيدخلوا الجنة ، ولم تخف موازينهم فيدخلوا النار ، وهؤلاء هم من تعرض أعمالهم على « لجنة الرحمة» فيجلسون على الأعراف . ومن العجيب أنهم حين يشاهدون أهل الجنة يقولون لهم سلام عليكم على الرغم من أنهم لم يدخلوا ، لكنهم يطمعون في أن يدخلوا ، لأن رحمة الله سبقت غضبه .

﴿ .. ونادوا أصحاب الجنة أن سلام عليكم لم يدخلوها وهم يطمعون (٤٦) ﴾

[سورة الأعراف]

وبطبيعة الحال ليس في هذا المكان غش ولا خداع .

وماذا حين ينظرون إلى أهل النار ؟

﴿ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٤٧) ﴾

انظر إلى التعبير القرآني « صرفت أبصارهم » أي لم يصرفوا أبصارهم لأن المسألة ليست اختيارية ؛ لأنهم يكرهون أن ينظروا لهم لأنهم ملعونون ، وكان في « صرفت أبصارهم » نوعا من التوبيخ لأهل النار .

وقوله الحق : « وإذا صرفت أبصارهم تلقاء » أي جهة أصحاب النار يقولون : (ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين) .

هنا يدعو أهل الأعراف يارب جنبنا أن نكون معهم إنهم حين يرون بشاعة العذاب يسألون الله ويستعيذون به ألا يدخلهم معهم .

ويقول الحق سبحانه :

﴿ وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ (٤٨) ﴾

وكأن أصحاب الأعراف قد صرفت أنظارهم لأصحاب النار ويرون فيهم طبقات من المعذبين ، فهذا أبو جهل ، وذاك الوليد ، ومعه أمية بن خلف وغيرهم ممن كانوا يظنون أن قيادتهم لمجتمعهم وسيادتهم على غيرهم تعطيهم كل سلطان وكيان ، وكانوا يسخرون من السابقين إلى الإسلام كعمار وبلال وصهيب وخباب ، وغيرهم ممن عاشوا للحق ومع الحق ، فيقول أهل الأعراف لهؤلاء : (ما أغنى عنكم جمعكم وما كنتم تستكبرون).

وكأنهم يقولون لهم : إن اجتماعكم على الضلال في الدنيا لم ينفعكم بشيء شياطينكم ، والأوثان ، والأصنام والسلطان لم ينفعوكم وكذلك استكباركم على الدعوة إلى الإيمان هل أغنى ذلك عنكم شيئاً ؟ لا . لم يغن عنكم شيئاً

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ أَهَٰؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍ ۖ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾

ويشير أهل الأعراف إلى المؤمنين الصادقين من أمثال بلال وخباب ويقولون لأهل النار من أمثال أبي جهل والوليد بن المغيرة : أهؤلاء الأبرار من أهل الجنة الذين تقولون إنهم لن ينالوا رحمة الله ؟ هم إذن أهل الأعراف قد عقدوا المقارنة والموازنة بين أهل الجنة وأهل النار ، وكأنهم نسوا حالهم أن يقفوا في انتظار الفرج وفرحوا بأصحاب الجنة وبخوا أهل النار ، ولم يشعلهم حالهم أن يقفوا موقف الفصل في هذه المسألة ، وهنا يدخل الحق سبحانه أصحاب الأعراف جنته لفرحهم بأصحاب الجنة ، وتوبيخهم أهل النار ويقول لهم :

﴿ ... ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ (٤٩) ﴾ [سورة الأعراف]

وهؤلاء - كما قلنا - هم الذين تساوت حسناتهم وسيئاتهم ؛ هي الطائفة التي جلست على الأعراف ، فلم تثقل حسناتهم لتدخلهم الجنة ، لم تثقل سيئاتهم ليدخلوا النار

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا۟ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ ﴾

وينادى أصحاب النار أصحاب الجنة مستغيثين طالبين أن يعطوهم ويفيضوا عليهم من الماء أو من رزق الله لهم في الجنة ، فيقول أهل الجنة نحن مربوطون الآن بـ « كن » ، ولم يعد لنا الاختيار ، وقد حرم الله عليكم أي شيء من الجنة ومنعه عنكم ، فأنتم يا أهل النار ممنوعون أو هذه المتع ممنوعة عنكم وحين يطلب أهل النار الماء ، فهم يعلمون أوليات الوجود ، فى نار أحاطت بهم سرادقها وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوى الوجوه .

ولذلك يقول الحق بعد ذلك عن الكافرين الذين حرم عليهم خير الجنة :

﴿ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُوا۟ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٥١﴾ ﴾

وهكذا يبين لنا الحق سبحانه وتعالى فى هذه الآية من هم الكافرون الذين حرّم عليهم الجنة ؛ إنهم من اتخذوا دينهم لهواً ولعباً ، وأول مرحلة تمر على الإنسان هى اللعب ثم تأتى له مرحلة اللهو . ونعلم أن كل فعل تَوَجُّه إليه طاقة فاعلة ، وقبل أن تَوَجَّه إليه الطاقة الفاعلة يمر هذا الفعل على الذهن كى يحدد الغاية من الجهد وهذا المقصود له حدود ؛ إما أن يجلب له نفعاً ، وإما أن يدفع عنه ضُرّاً وكل مقصد لا يجلب نفعاً ولا يدفع ضراً ، فهو لعب .

إذن فتعريف اللعب : هو فعل لم يقصد صاحبه به قصداً صحيحاً لدفع ضر أو جلب نفع . كما يلعب الأطفال بلعبهم ، فالطفل ساعة يمسك بالمدفع اللعبة أو السيارة اللعبة ، هل له مقصد صحيح لوجه طاقته له ؟ . لا ، لأنه لو كان المقصد صحيحاً لما حطم العلص لُعبهُ والطفل غالباً ما يكسر لعبته بعد قليل ، وهذا دليل على أنه يوجه الطاقة إلى غير قصد صحيح ولا يجلب لنفسه نفعاً ولا يدفع عنها مضرة

ولكن حين تُوجَّه الطاقة إلى ما هو أدنى من المهم فهذا هو اللهو ، كأن يكون المطلوب منك شيئا وأنت توجه الطاقة إلى شيء آخر والذي يعاقب عليه الله هو اللهو أما اللعب فلا

ولذلك نجد النبي ﷺ يطلب من الأهل أن يدربّوا الأبناء على شيء قد يفيد الأمة كالسباحة والرماية وركوب الخيل ، ولكن خيبة البشر في زماننا أنهم جعلوا اللعب غاية لذاته ومن العجيب أن اللعب صار له قانون الجد ولا يمكن أن يخرقه أحد دون أن يُعاقب ؛ لأن الحكم يوقف المباراة ، وإذا ما تاسى الحكم أمر أو أخطأ صاح الجمهور . وتأمل : لقد نقلتم قانون الجد إلى اللعب ، فلماذا تركتم الجد بلا قانون ؟

وكذلك نجد أن خيبة اللهو ثقيلة ؛ لأن الإنسان اللاهي يترك الأمر المهم ويذهب إلى الأمر غير المهم فيجلس إلى لعبة الورد وهي الطاولة ويترك الشغل الذي يتيح له الرزق ، وبيت هذا اللهو مقصورٌ على اللاهي ، ولكنه يجذب أنظار غير اللاهي ويأخذ وقته ، هذا الوقت الذي كان يجب أن يُستغل في طاقة نافعة وفساد المجتمعات كلها إنما يأتي من أن بعضاً من أفرادها يستغلون طاقاتهم فيما لا يعود على دواتهم ولا على أمتهم بالخير إذن فاللهو طاقة معطلة ﴿ اتخذوا دينهم لهواً ولعباً وغرتهم الحياة الدنيا ﴾

وغرورهم بالحياة الدنيا إنما يأتي من الأسباب التي خلقها الله مستجيبة لهم فظن كل منهم أنه السيد المسيطر وحين غرتهم الحياة الدنيا نسوا الجد الذي يوصلهم إلى الحياة الدائمة الخالدة ، ويكون عقابهم هو قول الله سبحانه :

﴿ فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُوا۟ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴾

(من الآية ٥١ سورة الأعراف)

فهل يعني قوله عز وجل « ننساهم » أنه يتركهم لما يعملون ؟ لا ، بل تأخذهم

جهنم لتشويههم ، وسيماهم هنا هو أنه ـ سبحانه ـ لا يشملهم بمظاهر فضله ولطفه ورحمته ويتركهم للنار تلفح وجوههم وتنضج جلودهم .

وهكذا يتأكد من جديد أن الدنيا هي المكان الذي يعد فيه الإنسان مكانه في الآخرة ، فإن أراد مكاناً في عليين فعليه أن يؤدي التكليف الذي يعطيه مكانه في عليين . وإذا أراد مكانه أقل من ذلك فعليه أن يؤدي العمل الأقل كأن الإنسان بعمله هو الذي يحدد مكانه في الآخرة ؛ لأن الحق لا يجازي لخلقه استبدادا بهم وافتياتاً أو ظلماً ، ولكنه يجري الإنسان حسب العمل ؛ لذلك فهناك أصحاب الجنة ، وهناك أصحاب النار ، وهناك أصحاب الأعراف . وهذا العلم الذي يُنزله لنا الحق قرآناً يتلونا ويبشرنا هو دليل لكل مسلم حتى نتنافس على أن تكون مواقعنا في الآخرة مواقع مشرفة .

﴿ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٥١﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

وحين يقول الحق سبحانه . « وما كانوا بآياتنا يجحدون » فالآيات إما آيات كونية ،

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ﴾

(من الآية ٣٧ سورة فصلت)

وإما آيات قرآنية كقوله سبحانه :

﴿ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ ﴾

(من الآية ٣ سورة فصلت)

وإما أن تكون آيات معجزات لإثبات النبوة كقوله سبحانه .

﴿ وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَن كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ ﴾

(من الآية ٥٩ سورة الإسراء)

هم إذن جحدوا الآيات كلها ، وكان أول جحود هو جحود بالآيات الكونية التي

شاهدوها قبل أن يأتي التكييف، فهم عاشوا الليل والنهار. وتنفسوا الهواء، واستمتعوا بدفء الشمس، وروى المطر أراضيهم ووجدوا الكون مرتباً منظماً يعطي الإنسان قبل أن يكون للإنسان إدراك أو طاقة، وكان يجب أن تلفتهم هذه الآيات إلى أن لهم خالقاً هو الحق الأعلى. وحين جاء بهم الموكب الرسالي جحدوا آيات المعجزات التي تدل على صدق الرسل. وحين جاء القرآن معجزاً جحدوا الآيات التفصيلية التي تحمل المنهج إذن فلا عذر لهم في شيء من ذلك لأن الحق يقول:

﴿وَلَقَدْ جِئْنَاهُم بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾﴾

أي لاعذر لهم في شيء من هذا الجحود؛ لأن الكتاب مفصل، وقد يقولون: إن الكتاب طارىء علينا، وكذلك الرسول الذي جاء به إذن فما موقفهم من الآيات الكونية الثابتة؟ لقد جحدوها أيضاً. (ولقد جئناهم بكتاب فصلناه على علم).

و«فصلناه» أي أنه سبحانه لم ينزل كلاماً مجملاً أو مبهماً، لا، بل فيه تفصيل العليم الحكيم، أنه فصل أحكامه ومعانيه ومواعظه وقصصه حتى جاء قيماً غير ذي عوج، وسبحانه هو القادر أن ينزل المنهج المناسب لقياس ومقام كل إنسان.

إنه حينما يأتي إلينا من يستفتينا في أي أمر ويحاول أن يلوي في الكلام لكي يأتي له بفتوى تبرر له مايفعله، فنحن نقول له. ليس لدينا فتوى مفصلة؛ لأن الفتاوى التي عندنا كلها جاهزة، ولك أن تدخل بمسألتك في أي فتوى

﴿فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [سورة الأعراف]

وهناك أناس سمعوا القرآن ورأوا الآيات واهتدوا، فلماذا اهتدى هؤلاء وضل هؤلاء؟ لقد آمن من صدق بالوجود الأعلى كما قلنا في سورة البقرة:

﴿ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ ﴾ [سورة البقرة]

إذن فقد آمن بالقرآن من اهتدى إلى الحق ، ومنهم من أوضح الحق عنهم : أنهم حين يستمعون القرآن تفيض أعينهم من الدمع . وأيضاً هناك من لا يمس الإيمان قلوبهم حين يستمعون إلى القرآن

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا .. ﴿١٦﴾ ﴾ [سورة محمد]

وهؤلاء هم الذين غلظت قلوبهم فلم يتخللها أو يدخلها ويخالطها نور القرآن ، لذلك نجد الحق يرد عليهم بقوله سبحانه :

﴿ .. أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴿١٦﴾ ﴾ [سورة محمد]

ويقول سبحانه

﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى .. ﴿٤٤﴾ ﴾ [سورة فصلت]

سبق أن ضربنا المثل بأن العمل في بعض الحالات واحد ، لكن القابل للعمل مختلف ، لذلك تكون النتيجة مختلفة . وعلى سبيل المثال . إذا كنت في الشتاء ، وخرجت ووجدت الجو بارداً ، وشعرت أن أطراف أصابعك تكاد تتجمد من البرد ، فتضم قبضتيك معاً وتنفخ فيهما ، وقد تفعل ذلك بلا إرادة من كل تدفئ يديك . وكذلك حين يأتي لك كوب من الشاي الساخن جداً ، وتحب أن تشرب منه ، فأنت تنفخ فيه لتأتي له بالبرودة . والنفخة من فمك واحدة ؛ تأتي بحرارة ليديك ، وتأتي بالبرودة لكوب الشاي ، وهكذا فالعمل واحد لكن القابل مختلف . وكذلك القرآن فمن كان عنده استعداد للإيمان فهو يهتدي به ، ومن لا يملك الاستعداد فقلبه علف عن الإيمان .

ومرقف هؤلاء العاجزين عن استغبال الرحمة موقف غير طبيعي، وماذ ينتظرون بعد هذا الكفر ، وبعد الافتئات وبعد الاستكبار وبعد التأبي وبعد اتخاذ الدين لهواً ولعباً ، ماذا ينتظرون ؟

ها هو ذا الحق سبحانه يوضح لهم العاقبة :

﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾

وما معنى التأويل ؟ . . التأويل هو ما يؤول إليه الشيء ، هو العاقبة التي يعدها الحق ، فالرحمة والجنة لمن آمن ، والنار لمن كفر ، والحق هو من يقول ويمسك قوله لأن الكون كله بيده .

وهنا يقول سبحانه وتعالى : (هل ينظرون إلا تأويله) .

أي هل ينتظرون إلا المرجع الذي يؤول إليه عملهم ؟ إن مرجعهم الأخير هو العذاب بعد الحساب يوم يأتي تأويل وغاية وعاقبة ما عملوا .

وحين يأتي يوم القيامة ويتضح الحق ويظهر صدق ما جاء به الرسول من الوعد والوعيد ماذ سيكون قولهم ؟ . سيقولون ما أورده سبحانه على ألسنتهم : (يقول الذين نسوه من قبل قد جاءت رسل ربنا بالحق)

أي أنهم سيعلنون التصديق حين لا ينفع هذا التصديق ؛ لأنهم لن يكونوا في دار التكليف ، سيقرون بالإيمان لحظة لا ينفعهم ذلك

﴿ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ ﴾

(من الآية ٥٣ سورة الأعراف)

هم إذن يقرون بأن الرسل حملت المنهج الحق ويتساءلون عن الشفيع . ويعلم أن الشفيع لابد أن يكون محبوباً عند من يشفع عنده ، ونحن في الدنيا نجد من يبحث لنفسه عمن يشفع له عند صاحب جاه يكون أثيرا وعزيز لديه ، أو يكون له كلمة وتقبل عليه فلا يرد عليه كلمته . فمن يأتي يوم القيامة بالشفاعة لهؤلاء ؟ . لا أحد ، وسنجدهم يتحدون الشفعاء من الذين اتخذوهم أنداداً لله وسيعلن هؤلاء أيضاً الكراهية لهم ، ولو مكنهم الله من الشفاعة ما أعطوها للكافرين المشركين ؛ فمن الدنيا كان هؤلاء مؤتمرين بأمر الشر وضلالاتهم أما يوم الحساب فلا أحد خاضع لإرادة أحد ، حتى الجوارح لا تخضع لإرادة صاحبها ، بل هي خاضعة للحق الأعلى وفي الآخرة لا مرادات لأحد .

وقد ضربنا من قبل المثل وقلنا عجب أن سرية في جيش ما وعليها قائد صغير برتبة ضابط ، ومفروض في جنود السرية أن ينفذوا كلامه ، ثم راحوا لموقعة وأعطاهم الضابط الصغير أوامر حاسمة بما له من فرض إرادة عليهم فنفذوا ما أمروا به ولحظة أن يعودوا ويحاسبهم القائد الأعلى فيقولون : لقد فعلنا ما أمرنا به الضابط الممكلف بقيادتنا ، وكذلك ستأتي الجوارح في الآخرة : تشهد عليهم أيديهم وأرجلهم وألسنتهم وجلودهم

إذن فالأبعاض سترفع شكواها إلى الله يوم ألا يكون لأحد من ملك سواه ، ويؤيد سيقول المكذبون الصدق الذي لن ينفعهم

﴿ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ ﴾

(من الآية ٥٣ سورة الأعراف)

وسوف يبحثون عن شفاعة ، لكنهم لن يجدوا ، بل إن أول من يسخر من الذين عبدوا غير الله هم المعبودون أنفسهم

ولذلك نجد قوله الحق سبحانه

﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾ ﴾

(سورة الأنبياء)

وما ذنب المعبود؟ إن الأصنام لا ذنب لها ، بل كل منها يريد أن يشفي نفسه بأن يكون أداة تعذيب لمن أعطوه غير حقه . ولذلك نجد أن الأحجار التي عبدت تقول عبدونا ونحن أعبد الله من القائمين بالأسحار ؛ لأن القائم في الأسحار من الأغيار قد يختار أمراً غير هذا ، ولكنا كنا مقهورين على الطاعة ، وقد اتخذوا صمتنا علينا دليلاً .

إن الأحجار تعلن أنها لم تكن تملك قدرة رفض أن يعبدها أحد أو أن يبعده عنها وتعلن له غناءه

والشاعر يقول

قد نجوا جهلا كما قد نجوا ... على ابن مريم والحواري
للمغالي جزاؤه والمغالي ... فيه تنجيه رحمة الغفار

وهكذا يأتيهم الحق واضحاً يوم القيامة .

إنهم سيطلبون العودة إلى الدنيا ، وهذا من الخيبة ؛ لأن مثل هذا الإقرار ليس من الإيمان ، فالإيمان يكون بالغيب لا في المشهد . وحتى ولو عادوا ، فلن يؤمنوا !

والحق هو القائل

﴿ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ ﴾

(من الآية ٢٨ سورة الأنعام)

وكأنهم نسوا لحظة إقرارهم أنهم من الأغيار ، وأتى فيهم القول الفصل من الله

﴿ قَدْ خَسِرُوا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴾

(من الآية ٥٣ سورة الأعراف)

لقد جاء لهم الخسران بعد أن غاب عنهم ما كانوا يفترون على الله في الدنيا ، إنهم

رفضوا عبادته -سبحانه- وعبدوا غيره أصناماً صارت وقوداً للنار التي سيصلونها.

ويقول الحق بعد ذلك:

﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ
فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ
يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ
بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾

٥٤

هما ربوبية ، وهنا ألوهية: «ربكم الله» ولا أحد يختلف في مسألة الربوبية لأن الحق يقول على ألسنة الكافرين والمشركين:

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ .. ﴿٣٨﴾ ﴾ [سورة الزمر]

وكذلك لو سألتهم من خلقهم؟ سيقولون: الله ، ولم يدّع أحد نفسه مسألة الربوبية ، لأن الربوبية جاءت بنفع لهم ، لكن الألوهية دخلت بمنهج هو: «افعل ولاتفعل» ؛ لأن التكليف من الإله الرب ، والتكليف نعمة منه وهو لمصلحتكم أنتم، فلا شيء في التكليف يعود على الله . وفعلكم الحسن أو السيء لن يعطي لله صفة لم تكن له ؛ لأن صفات الكمال أوجدكم. وإن كنتم أنتم في شك في هذه الربوبية فربكم هو الله -ولله المثل الأعلى- منزه عن التشبيه ، كأن تقول الأم للولد: قال لك أبوك لاتسهر خارج المنزل ليلاً ، فيتأبى الولد وتنبه الأم ولدها: إن أباك هو الذي يأتي لك بالأكل والشرب ، والملابس ويعطيك مصروف اليد إلخ.

وقد ضربت هذا المثل لأشرح كيف أن المكلف هو الرزاق ولا أحد سواه يرزق ، لذلك كان يجب أن تقبل تكاليفه لأنه سبق لك بالفضل بأن أعطى لك وسخر لك الدنيا.

ومن قبل قصص الخلق سبحانه لنا خلق الإنسان ، ويفصل لنا هنا خلق السماء والأرض لأن ظرف وجود الإنسان هو السماء والأرض ، وكل الخيرات تأتي له من السماء ومن الأرض ، وإذا كان الله قد علمنا كيف خلقنا ، فهو هنا يعلمنا كيف خلق السموات والأرض ، وخلق الإنسان وخلق السموات والأرض مسألتان يشغل بهما العلم الحديث ، فمن العلماء من قال : إن الأرض انفصلت عن الشمس ، ومنهم من افترض نظرياً أن الإنسان أصله قرد ، ولهؤلاء نقول : هذا حكم منكم لايقبل ؛ لأنكم لم تشهدوا الخلق ، ولذلك فعليكم أن تسمعوا ممن خلق الخلق يقول لكم كيف خلق الخلق .

هو سبحانه يقول

﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٥٤﴾ ﴾ [سورة الأعراف]

والآية تتعرض للخلق الأول وهو السموات والأرض - كما أوضحت - وهو الظرف الوجودي للإنسان الخليفة وطرأ الإنسان على هذا الكون بكل ماعليه من قوى ونواميس ، فكأن الله أعد الكون للخليفة قبل أن يُخلق الخليفة ليجيء الخليفة ويجد كوناً مسخراً له ؛ ولايستطيع أي كائن منه أن يخرج عن مراد الله في شيء (إن ربكم الله الذي خلق) .

ومعنى «خلق» أي أوجد شيئاً كان معدوماً وبراه على غير مثال سبقه فرينا سبحانه قدر كل شيء بنظام دقيق غير مسبوق ، هذا هو معنى الخلق ، وكلمة «الخلق» مادتها الفاعلة هي خالق ، وسبحانه وتعالى يجمعهم مع أنه الخالق الوحيد ويقول :

﴿ ... فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ [سورة المؤمنون]

إذن فهناك الخالق الأعلى وهو الله ، ولكنه سبحانه أيضاً أشرك خالقاً غيره معه فقال

جل وعلا : (فتبارك الله أحسن الخالقين) . كيف ؟ . لأن الخلق يوجد شيء معدوم ، والذى صنع الميكرفون يقال خلقه ، والذى صنع الكوب يقال خلقه ، والذى صنع المصباح يقال خلقه ، لأنه كان شيئاً معدوماً بذاته ، فأوجده . لكن الفارق أن الخالق من البشر يوجد معدوماً من موجود ولا يأتى بمادة جديدة ؛ فمن أخذ المواد الموجودة فى الكون وصنع منها المصباح وصهر الرمل ونفخ الهواء داخل الزجاج يقال له خلق المصباح وأوجد معدوماً من موجود

لكن الخالق هو خير الخالقين لأنه يخلق من عدم ولم يحرم خلقه حين يوجدون شيئاً معدوماً من أن يوصف الواحد منهم بأنه خالق ، وسبحانه حين خلق خلق من لا شيء ، وأيضاً فهنكم حين تخلقون أى صنعة تظل جامدة على هيئة صانعها ، فمن صنع الكوب من الرمل لمصهور يظل الكوب هكذا ، ولا تستطيع ـ كما سبق أن قلت قديماً ـ أن تأتى بكوب ذكر ، وكوب أنثى ، وتضعهما معاً فى مكان وتقول لهما أنجبا لنا أكواباً صغيرة .

لكن ما يخلقه ربنا يعطى له سر الحياة ويجعله بالقانون ينتج غيره ويسمو ويكبر إذن فهو أحسن الخالقين

والله سبحانه وتعالى يعطينا خبر خلقه السموات والأرض وأوضح سبحانه أن السموات سبع وقد جاءت مجموعة أما الأرض فجاء بها مفردة لكنه جل وعلا قال فى آية أخرى :

﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ﴾

(من الآية ١٢ سورة الطلاق)

فكما خلق سبع سموات خلق سبع أراضين ، ولماذا جاء بالسماء بالجمع وترك لفظ الأرض مفرداً ؟ . لماذا لم يقل : سبع أراضين ؟ ؛ لأن كلمة « أراضين » ثقيلة على اللسان فتركها لثقلها وأتى بالسموات مجموعة لخفتها ويسر نطقها

والسماء هى كل ما علاك فأظلك ، هذا معنى السماء فى اللغة لكن هل السماء التى يريدها الله هى كل ما علاك ؟ . إن السحاب هو ما علاك ؛ وقد يقال : إن الشمس علتك ، والقمر علانا جميعاً ولفت الانتباه هنا ونقول للناس الذين أحبوا أن يجعلوا

السموات هي الكواكب إنها ليست دائما ما علانا ، فالشمس تعلو وقتا وتنخفض وقتاً آخر . وكذلك القمر

إذن فالوصف منحسر عن الشمس أو القمر بعض الوقت ، ولا يصح أن يوصف أي منهما بأنه سماء دائما وشيء آخر وهو أنهم حينما قالوا على الكواكب التي كانت معروفة بأنها كواكب سبعة وقالوا إن هذه هي السماء ، إنهم بقولهم هذا قد وقعوا في خطأ وأوضح الحق لنا بالعلم أن للشمس توابع أخرى فمرة رأى العلماء ثمانية توابع ، ومرة تسعة ، وأخرى عشرة توابع ، وهكذا انهدمت فكرة أن التوابع هي السماء ، وبقيت السماء هي ما فوق هذا كله ، والحق هو القائل :

﴿ إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ ۝٦ ﴾

(سورة الصافات)

هذه - إذن - زينة للسماء الدنيا ، والسماء التي يقصدها ربنا ليست هي التي يقولون عليها ، بل السماء خلق آخر لا يمكن لأحد أن يصل إليه ، وكان الجن قديماً يقعدون منها مقاعد للسمع ، فمن يستمع الآن يجد له شهاباً رصدا ، وحدث هذا بعد بعثته ﷺ والحق هو من قال لنا ذلك ولم يوضح الحق لنا حقيقة هذه السماء ونظامها ، أي أن ربنا يريد لعقولنا أن تفهم هذا القدر فحسب ، وسبحانه خالق السماء التي فوقنا ، وهو جل وعلا خالق أراضين وأين هي هذه الأراضين ؟ أهي أراضين مبعثرة ؟

ولقد أثبت العلم أن كل مجرّة من المجرّات فيها ملايين مجموعة شمسية ، وكل مجموعة شمسية فيها أرض ، إذن فهناك أراضٍ عديدة ، ونلحظ أن الحق سبحانه حين يتكلم عن الأرض فكل مخاطب بالأرض التي هو فيها ، ولذلك قال بعض العلماء إن في هذا العالم العلوي توجد أراضٍ ، وكل أرض أرسل لهم الحق رسولاً والحق هو القائل

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ ۝٢٩ ﴾

(سورة الشورى)

ويعطينا العلم كل يوم مزيداً من الاكتشافات . وهكذا تكون السماء هي كل ماحولك والأرض كل ماتحتك . ومادامت سبع سموات والسماء الأولى فراغ كبير وفضاء ، وتأتي بعدها السماء الثانية تُظل السماء الأولى ، وكل سماء فيها أرض وفيها سماء أخرى . ونحن غير مكلفين بهذا ، نحن مكلفون بأن نعلم أن الأرض التي نحن عليها مخلوقة لله .

والحق يقول :

﴿ خَلَقَ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ .. ﴿٥٤﴾ ﴾ [سورة الاعراف]

وقوله " في ستة أيام " هو ظرف للخلق . واليوم نعرف أنه المدة من طلوع الشمس إلى الغروب ثم إلى الشروق ومدته أربع وعشرون ساعة . لكن لابد لنا أن نعرف بعضاً من اصطلاحات الحق القرآنية

فهو يقول سبحانه وتعالى :

﴿ .. سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ ﴿١٨﴾ ﴾ [سورة سبأ]

أي هناك ليل وهناك يوم ، إذن فاليوم ضد الحق غير اليوم عندنا ؛ لأننا نطلق على المدة الزمنية من طلوع الشمس إلى غروبها وشروقها من جديد . هكذا يكون اليوم في العرف العلمي : من شروق إلى شروق ، أو من غروب إلى غروب ، وقول الحق ﴿ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ ﴾ .

يعني أنه سبحانه قد جعل الليل قسماً والنهار قسماً ، وهل كان هناك من عرف اليوم إلا بعد أن وجدت الشمس ؟ . وإذا كانت الشمس هي التي تحدد اليوم فكيف عرف اليوم قبلها وخصوصاً أن السماء والأرض حينما خلقتا لم تكن هناك شمس أو كواكب ؟ . . وعلينا هنا أن نعرف أن هذا هو تقديره سبحانه وقد خاطبنا به بعد أن عرفنا مدة اليوم . ألم تقرأ قول الله سبحانه :

﴿ .. وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿٦٢﴾ ﴾ [سورة مريم]

وليس في الآخرة بكرة ولا عشي ، إذن سبحانه قد قدر البكرة وقدر

العشي ، وكذلك «في ستة أيام» وتلك هي الآيات المحكمات في القرآن بالنسبة لزمن الخلق : ستة أيام ، ولكن آية التفصيل للخلق ، جاءت في ظاهر الأمر أنها ثمانية أيام اقرأ معي :

﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ ﴿١٢﴾ ﴾ [سورة فصلت]

والظاهر من آية التفصيل أنها ثمانية أيام ، أما آيات الإجمال فكلها تقول . إنها أيام ، ومن النقطة دخل المستشرقون ، وادعوا زوراً أن القرآن فيه اختلاف ، وحاولوا أن يجعلوها ضجة عالية ويقول إنه -سبحانه- خلق الأرض وما فيها في أربعة أيام كاملة بلا زيادة ولا نقصان ، فالمراد أن ذلك حصل وتم في تتمة أربعة أيام ويضم إليها خلق السموات في يومين فيكون عدد الأيام التي تم فيها خلق السموات والأرض ستة أيام أو نحمل المفصل على المجمل ، فحين يقول الحق .

﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴿٥٤﴾ ﴾

[سورة الأعراف]

هل خلق الله يحتاج إلى علاج حتى يتطلب ازمن الممتد ؟ . إن ربنا يخلق بـ«كن» ، ونحن البشر نعالج على حسب قدرتنا لنخلق شيئاً ، وكل عملية نقوم بها نأخذ زمناً ، لكن من يخلق بكلمة «كن» فالأمر بالنسبة له هين جداً -سبحانه وتعالى- لكن لماذا جاء بخبر الخلق في ستة أيام ؟

نعلم أن هناك فرقاً بين ميلاد الشيء وبين تهيئته للميلاد . وكنا قد ضربنا المثل سابقاً- ولله المثل الأعلى -بصانع الريادي ، الذي يأتي بأكواب الطين الدافيء ، ثم يضع

فى كل منها جزء من خميرة الزبادى ، ويضع تلك الأكواب فى الحر المناسب . فهل يؤدى هذا الرجل عملاً لمدة أثنتى عشرة ساعة فى كل كوب ، وهى المدة اللازمة لتخمر الكوب ؟ . . طبعاً لا ، فقد اكتفى بأن فى كل كوب عناصر التخمر لتتفاعل مدانها إلى أن تنضج

ولننظر إلى خلق الجنين من تزاوج بويضة وحيوان منوى ويأخذ الأمر تسعة شهور وسبحانه جل جلاله لايعمل فى خلق الجنين تسعة شهور ، لكنه يترك الأمر ليأخذ مراحل تفاعلاته .

إذن فخلق الله السموات والأرض فى ستة أيام لايعنى أن الستة أيام كلها كانت مشغولة بالخلق ، بل قال سبحانه : «كن» وبعد ذلك ترك مكونات السموات والأرض لتأخذ قدرها ومراحلها ؛ لأن ميلادها سيكون بعد ستة أيام وفى القرآن آية من الآيات أعطتنا لمحة عن هذه المسألة ، فقال سبحانه .

﴿ولقد خلقنا السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام وما مسنا من لغوب ﴿٣٨﴾﴾ [ق]

أى خلق سبحانه السموات والأرض دون تعب ؛ لأنه لايعالج مسألة الخلق ، بل إنما يحدث ذلك بأمر «كن» فكانت السموات والأرض . والآية التى بعدها فوراً تقول (فاصبر على مايقولون).

وكأن قوله سبحانه هنا جاء لتسلية الرسول ﷺ موضحاً له : إنهم يكذبونك وقد ترغب فى أن يأخذهم أخذ عزيز مقتدر . لكن الحق جعل لكل مسألة كتاباً ، فهو قد خلق السماء والأرض فى ستة أيام . ونحن فى حياتنا نقول لمن يتعجل أمراً : يا سيدى إن ربنا خلق السماء والأرض فى ستة أيام . فلا تتعجل الأمور .

إذن كان ربنا هو القادر على أن ينجز خلق السماء والأرض فى لحظة ، لكنه أمر «بكن» وترك المواد تتفاعل لستة أيام . ولماذا لا نقول جاء بكل ذلك ليعلمنا التأنى ، وألا نتعجل الأشياء ؟ لأنه وهو القدر على إنجاز السموات والأرض فى لحظة ، خلقها فى ستة أيام ، لذلك قال سبحانه :

﴿ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ .. ﴿٣٩﴾ ﴾ [سورة ق]

أى لاترهق نفسك لأنه سبحانه خلق السماء والأرض فى ستة أيام ، وسيأتى لهؤلاء الجاحدين يومهم الذى يؤاخذون فيه بسوء أعمالهم وسوف يأتى حتماً.

وهناك من يتساءل كيف خلق الكون بما فيه من اجرام والكائنات ؟ . ونقول : إنه الإيجاز الذى أخبر به سبحانه مرة واحدة ، وانفعلت الكائنات للقدرة مرة واحدة ، وتعددت استدامة انفعالات السامع لقدرة الله ، فى كل جزئية من جزئيات العمل ، وأحد الأمر ستة أيام. واستقر الأمر بعد ذلك واستتب ، وسبحانه يقول :

﴿ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ .. ﴿٥٤﴾ ﴾ [سورة الأعراف]

ولابد أن نعرف العرش ماهو . وسبحانه يقول فى ملكة سبأ :

﴿ .. وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ ﴾ [سورة النمل]

فالعرش إذن هو سرير الملك ؛ لأن الملك لايجلس على العرش إلا بعد إن تستقر الأمور

فكأن قوله : «استوى على العرش» كناية عن تمام الأمور ؛ وخلقها وانتهت المسألة لكن العلماء حين جاءوا فى «استوى» ، اختلفوا فى فهمها ؛ لأن العرش لو كان كرسياً يجلس عليه الله ، لكان فى ذلك تحييز لله ووضعه وضمه فى جرم ما وسبحانه منزه عن أن يحيزه شىء . ولذلك أخذ العلماء يتلمسون معانى لكلمة «استوى» منهم من قال إن معناها هو قصد إليها بخلقه واختراعه ، ومنهم من قال : المقصود بها أنه استعلى وارتفع أمره ، ومنهم من قال : «صعد» أمره إلى السماء واستند إلى قوله الحق .

﴿ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ ..﴿١١﴾ ﴾ [فصلت]

وكلها معانٍ متقاربة وجماعة من العلماء أرادوا أن يخرجوا من التشبيهات ؛ فقالوا . المقصود بـ « استوى » أنه استولى على الوجود ، ولذلك رأوا أن وجود العرش والجلوس عليه هو سمة لاستقرار الملك . وحتى لا ندخل فى متاهات التشبيهات ، أو متاهات التعطيل نقول : علينا أن نأخذ كل شىء منسوب إلى الله فى إطار :

﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾

(من الآية ١١ سورة الشورى)

فحين يقول سبحانه .

﴿ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ﴾

(من الآية ١٠ سورة الفتح)

ونحن نفهم أن لليد مدلولاً ، والقرآن لغة عربية يخاطبنا بها سبحانه ، فنقول أن لله يداً فهذا دليل على قدرته . واستخدام الحق كلمة اليد هنا كناية عن القدرة والإنسان عليه أن يأخذ كل شىء منسوب إلى الله مما يوجد مثله فى البشر ، فى إطار « ليس كمثله شىء » ، فنقول سبحانه له يد ليست كيد البشر ، وله وجود لكنه ليس كوجود البشر ، وله عين ليست كعيون البشر وله وجه ليس كوجه أحد من البشر ولذلك حينما سئل سيدنا الإمام مالك عن هذه المسألة قال لمن سأله : « الاستواء معلوم والكيف مجهول والسؤال عنه بدعة » وأراك رجل سَوْء ! أخرجوه نعم السؤال عنه بدعة لأنه يدخل بك فى متاهة التشبيه ومتاهة التعطيل ، وهل سأل أحد من صحابة رسول الله ﷺ عن معنى الاستواء ؟ . . لا ؛ لأنهم فهموا المعنى ، ولم يعلق شىء من معناها فى أذهانهم حتى يسألوا عنها رسول الله ﷺ . إنهم فهموها بفطرتهم التى فطرهم الله عليها فى إطار ما يليق بجلال الله وكماله .

وإن قال قائل : أرسول الله كان يعلم المعنى أم لا يعلم ؟ إن كان يعلم لأخبرنا بها ، وإن لم يخبرنا فقد أراد أن يكتمها وإن لم يكن قد علم لأمر فهل تطلب لنفسك أن تعلم ما لم يعلمه ﷺ ؟

أو أنه ﷺ ترك لكل واحد أن يفهم ما يريد ولكن فى إطار « ليس كمثله شىء » والدين

يسمون التأويل يقولون إياك أن تؤول اليد بالقدرة ؛ لأنه إن قال . إن له يداً ، فقل ليست كأيدينا في إطار « ليس كمثله شيء » ؛ لأنه سبحانه له حياة ، وأنت لك حياة ، أحياته كحياتك ؟ لا ، فلماذا إذن تجعل يده مثل يدك ؟ . إذن لابد أن تدخل على كل صفة لله فتنفي عنها التعطيل وتنفي عنها التشبيه ثم إن من يسمون التأويل نقول لكل منهم - أنت ستضطر أخيراً إلى أن تؤول ؛ لأن الحق يقول

﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ﴾

(من الآية ٨٨ سورة القصص)

ومادام « كل شيء هالك إلا وجهه » فكل ما يطلق عليه شيء يهلك ، ويبقى وجهه سبحانه فقط ، فلو أنك قلت الوجه هو هذا الوجه . فكأن يده تهلك ورجله تهلك وصدره يهلك ، وحاش لله أن يحدث ذلك وتكون قد دخلت في متاهة ما لها من آخر بذلك نقول لناخذ النص وندخله في إطار « ليس كمثله شيء » وآية الاستواء على العرش هذه مذكورة في سور كثيرة ، وهي تحديداً في « سبعة مواضع » ؛ في سورة الأعراف التي نحن بصددها ، وسوره يونس ، وسورة الرعد ، وسورة طه ، وسورة الفرقان ، وسورة السجدة ، وسورة الحديد

وهنا يقول الحق بعد الحديث عن الاستواء على العرش (يغشى الليل النهار)

الله - سبحانه - قد خلق السماء والأرض للخليفة في الأرض وهيأ له فيها أصول الحياة الضرورية ودلّه على ما يحتاج إليه ، فماذا سيعمل هذا الخليفة ؟ . لابد أن يقوم بكل مقومات الحياة ، وإذا ما عمل فسيبذل جهداً ، والجهد يقتضي راحة . ومن يشتغل ساعة لابد أن يرتاح ساعة ، وإذا اشتغل ساعتين ولم يسترح ساعة غُلب على نفسه .

ونحن نرى في الآلة التي تعمل ثلاث ورديات يومياً أي التي تعمل لمدة الأربع والعشرين ساعة دون توقف أنها تستهلك أكثر من الآلة التي تعمل ورديتين ، والآلة التي تعمل وردية واحدة أي لمدة ثماني ساعات يطول عمرها أكثر وكل إنسان يحتاج إلى الراحة فشاء الحق سبحانه وتعالى أن يبين لك أن الليل والنهار متعاقبان من أجل هذا الهدف :

﴿ ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله .. ﴿٧٣﴾ ﴾

[سورة القصص]

أى لتسكنوا فى الليل ، وتبتغوا الفضل فى النهار ، فإن كنت لم تسترح بالليل فلن تقدر أن تعمل بالنهار ، فمن ضروريات حركة الخلافة فى الأرض أن يوجد وقت للراحة ووقت للعمل لذلك أوضح سبحانه لنا: أنا خلقت الليل والنهار ، وجعلت الليل سكناً أى للراحة والبعد عن الحركة ، والحق يقول هنا:

﴿ يُغْشِى اللَّيْلَ النَّهَارَ .. ﴿٥٤﴾ ﴾ [سورة الأعراف]

ويكون المعنى هنا أن النهار يعشى الليل ، ولذلك تحدثنا من قبل عن تتابع الليل والنهار لنستنبط منها الدليل على أن الأرض كرة.

﴿ وهو الذى جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذكر أو أراد شكورا ﴿٦٢﴾ ﴾

[سورة الفرقان]

والليل يخلف النهار ، والنهار يخلف الليل ، وفى مصر نكون فى نهار مثلا ، ويكون هذا الوقت فى بلد آخر ليلاً ، وإذا سلسلتها إلى أول ليل وإلى أول نهار ، وأيهما الذى كان خلفه للثانى ؟ فلن تجد ، لأن كلا الاثنين خلقا معاً ولو كانت الأرض مخلوقة على هيئة التسطيح وكانت الشمس قد خلقت مواجهة لسطح الأرض لكان النهار قد خلق أولاً ثم يعقبه الليل ، ولو كانت الشمس قد خلقت غير مواجهة للسطح كان الليل سيأتى أولاً ثم تطلع الشمس على السطح ليوجد النهار . والحق سبحانه أراد من الليل والنهار أن يكون كلاهما خلفة للآخر ، ولا يمكن أن يكون ذلك إلا إذا كان الله سبحانه خلق الليل والنهار دفعة واحدة . كان لابد أن تكون الأرض كرة ؛ ليعشى النهار الجزء المواجه للشمس ، وليعشى الليل الجزء غير المواجه للشمس ، وحين تدور الأرض يأتى النهار خلفة لليل ، ويكون الليل خلفة للنهار .

﴿ وهو الذى جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذكر أو أراد شكورا ﴿٦٢﴾ ﴾

[سورة الفرقان]

(يغشى الليل النهار)ويغشى النهار الليل وحذفت للاعتماد على الآيات السابقة التي منها قول الحق سبحانه :

﴿ ولا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ .. ﴿٤٠﴾ ﴾ [سورة يس]

أي أن الليل لايسبق النهار وكذلك النهار لايسبق الليل ، وهذا دليل على أنهما خُلقا دفعة واحدة .

والحق يقول هنا: (والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ألا له الخلق والأمر)

فلا أحد من هذه الكائنات له اختيار أن يعمل أو لا يعمل ، بل كلها مسخرة ، ولذلك تجد النواميس الكونية التي لادخل للإنسان فيها ولا لاختياراته دخل في أمورها تسير بنظام دقيق ، ففي الوقت الفلاني ستأتي الأرض بين الشمس والقمر ، وفي الوقت الفلاني سيقع القمر بين الأرض والشمس ، وسيحدث للشمس خسوف ، وكل أمر من هذا له حساب دقيق .

﴿ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ .. ﴿٥٤﴾ ﴾ [سورة الأعراف]

والخلق إيجاد الأشياء من عدم ، فبعد أن خلق الله الكون لم يترك شؤون الكون لأحد ، بل- سبحانه- له الأمر بعد ذلك وقيوميته ؛ لأنه لم يزاول سلطانه في ملكه ساعة الخلق ثم ترك النواميس تعمل ، لا ، فبأمره يُعطل النواميس أحياناً ، ولذلك شاء الحق أن تكون معجزات الأنبياء لتعطيل النواميس ؛ لنفهم أن الكون لايسير بالطبع أو بالعلة . لذلك يقول : (ألا له الخلق والأمر) .

وإذا نظرت إلى كلمة «الأمر» تجد الحق يقول :

﴿ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ . ﴿٥٤﴾ ﴾ [سورة آل عمران]

والمقصود هو الأمر الكوني ، أما الأمور الاختيارية فمنه فيها أمر يتمثل في المنهج ،

وانت لك فيها امر إما أن تطيع وإما أن تعصى ، وأنت حر

﴿ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾

(من الآية ٥٤ سورة الأعراف)

وحين يقول سبحانه « تبارك الله » وقال من قبل : « أحسن الخالقين » ، فكل لفظ له معنى ، فمن خلقه من البشر موهب تَخَلق ولكن من موجود وأوضحنا ذلك .

وفي قول آخر يصف الحق نفسه :

﴿ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ ﴾

(من الآية ٦٢ سورة الأنعام)

والذين تتعلم الحساب وتحلقوا آلات حاسبة ، وهي آلات تتم « برمجتها » وإعدادها وتهيئتها للجمع والطرح والضرب والقسمة ، وكل حدث من الحساب يأخذ مدة بكن الحق يحسب لكل البشر دفعة واحدة لذلك فهو أسرع الحاسبين ، لأنه ليس هناك حساب واحد ، فأنت لك حساب مع الله ، والآخر له حساب مع الله ، والحساب مع الله متعدد بتعدد أفراد المحاسبين ، وحساب الحق للخلق لا يحتاج إلى علاج ، بل يضيق عليها ما ينطبق على الرزق ، ولذلك حينما سُئل عليّ كرم الله وجهه

— أيحاسب الله خلقه في وقت واحد ؟

قال وما العجب في ذلك ألم يرزقهم في وقت واحد ؟

وانظر إلى القرآن تجد الحق « أسرع الحاسبين » و « أحسن الخالقين » ، و « أرحم الراحمين » و « خير الوارثين » وهذه هي الألفاظ التي وردت ، ولله فيها مع خلقه صفة ، لكن صفة الله دائما في إطار « ليس كمثله شيء » . (تبارك الله رب العالمين) .

و« تبارك الله » أي أنه ـ تعالى ـ تنزّه ، لأن هناك فرقاً بين القدرة المطلقة ـ وهي قدرة الله ـ والانفعال للقدرة المتعلقة بالإرادة وبـ « كن » وهذا هو الانقياد والانقياد والإرادة والأمر .

ويقول الحق سبحانه وتعالى بعد ذلك :

﴿ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾

والدعاء إنما يكون من عاجز يدعو قادراً على إنجاز وتحقيق ما عجز عنه أو يعينه عليه وعندما تشعر أنك عاجز فأنت تركن إلى من له مطلق القدرة ؛ لأن قدرتك محدودة إذن فإن كنت تطغى أو تتكبر فاعرف مكانتك ومرتبتك جيداً وتراجع عن ذلك لأنك عرض زائل ، والدعاء هو تضرع ، وذلة ، وخشوع ، وإقرار منك بأنك عاجز ، وتطلب من ربك المدد والعون . واستحضار عجزك وقدرة ربك تمثل لك أسمى اليقين الإيماني وما جعل ربنا للناس حاجات إلا من أجل ذلك ؛ لأن الإنسان إذا ما رأى الأشياء تتعمل له ، ويتكبر ويخترع فقد يأخذه الغرور ، فيأتي له بحاجة تعز وتعجز فيها الأسباب ، فيقف يدعو . ومن كان متكبراً وعنده صلف وغطرسة يذهب إلى رجل « عابد » زاهد تجرد من الجاه والسلطان منقطع لعبادة الله ويقول له . أستحلفك برسول الله أن تدعو لي لأني في أزمة والذي يسأل العابد الزاهد هو رجل عزيز في قومه لكنه يظن أن العابد الزاهد أقرب إلى الله منه .

إذن الدعاء هو الضراعة وإظهار الذلة والخشوع لله ؛ لكي يستديم اليقين الإيماني

﴿ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ﴾

(من الآية ٥٥ سورة الأعراف)

وإياك أن تدعو وفي بالك أن تقضي حاجتك بالدعاء ، عليك بالدعاء فقط لتقصد إظهار الضراعة والذلة والخشوع ، ولأنك لو لم تدع فسيسير أمورك كما قُدر لها ، والدعاء هو إظهار للخشوع ، وإياك أن تفهم أنك تدعو الله ليحقق لك مطالبك ؛ لأنه سبحانه سبق أن يكون موضعاً عندك ، وهناك نظام وضعه سبحانه لتحقيق مطالب العباد . ومن الناس من يطلب بالدعاء أشياء ضارة .

﴿ وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ ۖ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا ﴿١١﴾ ﴾

(سورة الإسراء)

والإنسان قد يتعلق قلبه بأماني قد تضره ؛ لذلك نقول : لا تتعجل بالدعاء طلباً

لأسباب قد تكون شراً عليك ، والحق العليم يعلم لك أمورنا ، وإياك أيضاً أن ييأس حين لا تجاب دعوتك التي في بالك ، لأن الله يحقق الخير لعباده ولو حقق لك بعضاً مما تدعو فقد يأتي منها الشر ، ويترك الله لاقتضتك أموراً تبين لك هذا ، وتقول إن الشيء الفلاني الذي كنت أتمناه تحقق وجاء شراً عليّ . مثال ذلك قد تحجز لطائرة لكنك لا تلحق بها فقد أقلعت قبل أن تصل إليها وحزنت لأن بعضاً من مصالحك قد فاتك ولم يتحقق وتفاجأ بأن هذه الطائرة سقطت في البحر

إذن ، اجعل حظك من الدعاء هو الخشوع والتذلل والضراعة به سبحانه لا إجابتك إلى ما تدعو إليه ، إنك دعوت لتطلب الخير ، فدع لحق بقيومته وعلمه يحقق لك الخير . وسمع قول الله

﴿ وَيَدْعُ الْإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ ۖ وَكَانَ الْإِنسَانُ عَجُولًا ﴿١١﴾ ﴾

(سورة الإسراء)

إذن فحين يقول الحق « ادعوا ربكم تضرعا وخفية » فسبحانه يطلب منا أن ندعوه لأننا سنواجه لحظات متعددة نعجز فيها عن أشياء ، فبدلاً من أن نظل مقهوراً بضعف العجز عن الشيء اذكر أن لك رباً قوياً مقتدراً ، وساعة تذكر ذلك لن تأخذك الأسباب من حظيرة الإيمان وقلنا من قبل من له أب لا يحمل هماً لدنياه ، فإذا كان الذي له أب لا يحمل هماً لمطلوبات الحياة فمن له رب عليه أن يستحي ويعرف أن ربه سيوفر له الخير ، لذلك يوضح سبحانه . إذا أعجزتكم الأسباب فاذكروا أن لكم رباً . وقد طلب منكم أن تدعوه ، ولا تظن أن حظك من لدعاء أن تجاب إلى ما طلبت ، بل ليكن حظك من الدعاء إظهار التذلل والخشوع لله ؛ فقد يكون ما حدث لك نتيجة أنك قد اغتررت بنفسك . وقد سبق « قارون » إلى الغرور ، فماذا حدث له ؟ . لقد هزمه الحق وأنزل به شرّ العقاب وقد يجعل الحق من تأتي الأسباب وامتناعها عليك معبراً لتلتفت إلى الله ، لكن لفتتك لله لا يصح أن تكون بغرض أن يقضي حاجتك ، بل اجعل أساس لفتتك لله أن تظهر لعجز أمامه والخضوع والخشوع ؛ ليحميك ما لم يكن في بالك حين تدعو

﴿ ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ﴾

(من الآية ٥٥ سورة الأعراف)

خفية لها معنى وهو أن يكون الدعاء دعاءً مستوراً محتشاً ، ولها معنى آخر وهو أن تكون من الخوف أي أدعو ربكم خوفاً من متعلقات صفات الجلال كالجبار والقهار أو خوفاً من أن يردها الله عليك فلا يقبلها منك

ادعوا ربكم تضرعاً بذلة وانكسار وخضوع خفية بينك وبين ربك ، فلا تجهر بالدعاء وتجعله عملك الوحيد لأن النبي صلى الله عليه وسلم علمنا حينما كان في غزوة فغزا فنزل أصحابه وادياً ، فلما نزلوا الوادي صاحوا بالتهليل والتكبير ، فقال :

(أيها الناس اربعوا على أنفسكم ، إنكم ليس تدعون أصمَّ ولا غائبا ، إنكم تدعون سميعا قريبا وهو معكم)[1].

والدعاء إلى الله خُفية يبتعد بك عن الرياء وهو أستر لك في مطلوباتك من ربك لأنه حين يوصيك لك : ادعني في سرّك لأني سميع عليم ، أعلم كل ما ظهر منك وما بطن ، ادع بالخضوع والخشوع وانتذلل لتكسر فيك شهوة الكبرياء ، وشهوة العظمة ، وشهوة الجبروت .

وإذا ما نظرت إلى هذا تجد أن كثيراً من العلماء يقولون :
— نعرف قوماً يقرأون القرآن في محضرنا وما عرفنا لتلفاظهم حركة ، وعرفنا قوماً يستنبطون الأحكام من كلام الله وما رأيت منهم انفعالاً يصرفهم عنه . إذن فالمسألة تعبر عن شغل باطني داخلي

ويريد الحق سبحانه وتعالى أن يبعدك عن الرياء ويريد أن يستر علينا مطلوباتنا ؛ لأن الإنسان قد يطلب من الله سبحانه وتعالى ما يستحي أن يسمعه آخر

﴿ ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ﴾

(من الآية ٥٥ سورة الأعراف)

ولو نظرت إلى هذه الآية لوجدت أن كثيراً من الناس يخالفونها مخالفات جماعية ؛ في

---

(١) رواه مسلم بهذا اللفظ ورواه البخاري ، ومعنى : (اربعوا) ارفقوا بأنفسكم واخفضوا أصواتكم

الليل مثلاً تجد من يصعدون على المآذن أو يصيحون فى مكبرات الصوت التى أعتهم عن صعود المآذن، ويكون الواحد من هؤلاء نائم طول النهار لأن رفع الأذان هو عمله ليس غير، وبعد ذلك يظل يصرخ ويستغيث ويقول: «أن هذه ابتهالات» بينما من الناس من هو نائم ليأخذ قسطه من الراحة ليؤدى عمله نهاراً، ولا أحد يطلب من هذا النائم إلا أنه وإذا جاء الفجر يستيقظ ويؤدى الصلاة. فلماذا نقلق الناس بهذا؟ إننا لابد أن ننبه هؤلاء الذين يظنون أنهم يذكرون الناس بدين الله، إنهم بعملهم هذا لا يسلكون الطريق الصحيح؛ لأننا لا يمكن أن نذكر الناس بالله ونصنع مخالفة أو نؤذى أحداً؛ فسبحانه يقول: (ادعوا ربكم تضرعاً وخفية).

والتضرع والخفية تقتضى ألا أقلق الناس، أو أن أعلن الأمور التى أريدها لنفسى خاصة بصوت عال مثل من يأتى فى ختام الصلاة ويقول دعاء بصوت عال وهو رافع يديه، ومثل هذا أقول إن الله سبحانه وتعالى جعل لك القنوت لتدعو فيه، وترك كل مسلم أن يدعو بما ينفعل له. وأنت حين تدعو فى ختام الصلاة قد يوجد مُصل مسبوق لحق الصلاة بعد أن سبقه الإمام بركعة أو باثنين أو بثلاث ويريد أن يكمل صلاته، وأنت حين ترفع صوتك بالدعاء حين تختم صلاتك إنما تفسد عليه إتمام صلاته. وتشغله بمنطوق من عندك وبكلام من عندك عن شىء واجب عليه. ومن يفعل ذلك إنما يفعله عن حسن نية، لكنه يسىء إلى عبادة آخر.

إذن فلا بد أن ننبّه إلى أن الله سبحانه وتعالى له مطلوبات، هذه المطلوبات قد تخالفها النفس لغرض ترى أنه حسن، لكن خذها فى إطار:

﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ ﴾ [سورة الكهف]

فلا بد أن ننتبه إلى مثل هذه المسائل، وعلينا أن نوفر الراحة لمن ينام ليقوم ويصلى الصبح ويذهب إلى عمله؛ لذلك لا داعى أن يفتح إنسان «الميكروفون» ويعلو صوته بالدعاء، ومن يفعل ذلك يظن أنه يحرص على أمر مطلوب ويزعج النائم، بل ويزعج من يصلى بالليل أو «يشوش» على من يقرأ القرآن أو يستذكر بعضاً من العلم. إذ على من

يفعل ذلك أن يترك كل إنسان لانفعالاته ، وأن يكون ملك نفسه وملك اختياره .
ويعطينا الحق سبحانه وتعالى صوراً كهذه فيقول :

﴿ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا ﴾

(الآية ٣ ومن الآية ٤ سورة مريم)

إذن كلمة « خفي » موجودة في القرآن ، ولابد أن ننتبه إلى الدعاء الخفي .

﴿ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾

(من الآية ٥٥ سورة الأعراف)

إذن إذا لم يكن تضرعاً وخفيه فهو اعتداء في الدعاء ؛ لأنك مكلف والله هو المكلف ، وهو يقول لك : ادعوني تضرعاً وخفيه . فإن فعلت غير هذا تكن معتدياً ، وعلى كل هؤلاء أن يفهموا أنهم معتدون فإما أن يكون الاعتداء في أسلوب الطلب وإما أن يكون الاعتداء في المطلوب

لأن الحق حدد أسلوب الطلب فأوضح : ادعوني بخفاء ، فإن دعوت في غير الخفاء تكن معتدياً على منهج الله وكذلك قد يكون الاعتداء في المطلوب فلا يصح مثلاً أن تقول : إني أدعوك يارب أن تجعلني نبياً . إن ذلك لا يصح وربنا سبحانه وتعالى علم فيما سرده عن نوح . فقال

﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾

(سورة هود)

وهنا نبه الحق نوحاً إلى الاعتداء في المطلوب فقال الحق :

﴿ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ﴾

(من الآية ٤٦ سورة هود)

ولذلك نجد نوحاً يستغفر لأنه سأل ودعا الله هذا الدعاء عن غير علم ، فلما عرف ذنبه استغفر الله وقال :

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٌ ﴾

(من الآية ٤٧ سورة هود)

وقال له الحق سبحانه :

﴿ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ﴾

(من الآية ٤٨ سورة هود)

إذن فالذي لا يسمع منهج الله أو لا يطبقه في الدعاء يكون معتدياً على الحق سبحانه وتعالى ، وسبحانه لا يحب المعتدين

ويقول الحق بعد ذلك

﴿ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾

الأرض هي مكان الخليفة وهو الإنسان ، وفيها الأسباب الأصيلة لاستبقاء الحياة والسماء والأرض والشمس والهواء كلٌ مسخر لك ولا تحتاج إلى تكليف فيه . فلا أنت تقول . « يا شمس أشرقي » أو « يا هواء هب » فكل ذلك مسخر لك وأنت مطالب ألا تفسد فيما لك فيه اختيار ، لأنك لا تستطيع أن تفسد قوانين الكون العليا ، لا تستطيع أن تغير مسار الشمس ولا مسار القمر ولا مسار الريح ، وأنت لن تستطيع إصلاح مالا يمكن أن تقترب من إفساده ، لأن أمره ليس بيدك لأنه لا اختيار لك فيه وإنما يأتي الإفساد من ملكات الاختيار الموجودة فيك ، ولم يترك الله أحراراً فيها ، بل حددها بمنهج يحمي حركة الحياة بـ « افعل » و « لا تفعل » ، فإذا كان سبحانه قد أنزل قرآناً ،

والعراك فيه منهج يحمي اختيارك إذن فقد أعطاك عناصر الإصلاح ولذلك يقول لك

﴿ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾

(من الآية ٥٦ سورة الأعراف)

وهنا يعود الحق مرة أخرى للحديث عن الدعاء ، فأولاً جاء بالأمر أن يكون الدعاء تضرعاً وخفية ، وهنا يوضح الحق سبيلاً ثانيا للدعاء (وادعوه خوفاً وطمعاً) خوفاً من صفات جبروته وقهره ، وطمعا في صفات غفرانه ورحمته ؛ لأن لله صفات جمال وصفات جلال ، وادعوه خوفاً من متعلقات صفات الجلال ، وطمعاً في متعلقات صفات الجمال ارجوا من أن ترد وطمعاً فيما أنت ترجو

﴿ وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾

(من الآية ٥٦ سورة الأعراف)

إذن من الذي يحدد قرب الرحمة منه ؟ إنه الإنسان فإذا أحسن قربت منه الرحمة والزمام في يد الإنسان ؛ لأن الله لا يعتدي ولا يستبد بأحد فإن كنت تريد أن تقرب منك رحمة الله فحببك بالإحسان (إن رحمة الله قريب من المحسنين) .

ولذلك قلنا إن الحق سبحانه وتعالى يقول :

(لا أملّ حتى تملّوا) .

(من حديث قدسي)

وأنت تدخل بيوت الله تصلي في أي وقت ، وتقف في أي مكان لتؤدي الصلاة ، إذن فاستحضارك أمام ربك في يدك أنت ، وسبحانه حدد لك خمسة أوقات ، ولكن بقية الأوقات كلها في يدك ، وتستطيع أن تقف بين يدي الله في أي لحظة . وسبحانه يقول .

(ومن جاءني يمشي أتيته هرولة) .

(من حديث قدسي)

وهو جل وعلا يوضح لك : استرح أنت وسأتي لك أنا ؛ لأن الجري قد يتعبك لكني لا يعتريني تعب ولا عي ولا عجز . وكان الحق لا يطلب من العبد إلا أن يملك شعوراً بأنه يريد لقاء ربه إذن فالمسألة كلها في يدك ، ويقول سبحانه :

(من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي ، ومن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منه)

(من حديث قدسي)

وهكذا يؤكد لك سبحانه أن رحمته في يدك أنت وقد أعطاها لك ، وعندما تسأله تجدها تفضلاً من الله ، ولكن في يدك أنت (إن رحمة الله قريب من المحسنين)

ونعلم أن فيه صفات لله وفيه ذات ، فالذات (الله) وهو واهب الوجود ، وله كل صفات الكمال وكل صفة لها متعلق ؛ الرحمة لها متعلق ، والبعث له متعلق فمن أسمائه سبحانه « الباعث » ؛ وإياك أن تغيب عن الذات ، اجعل نفسك مسبحاً لذاته العلية دائماً وقد تقول : يارب أريد أن ترحمني في كذا ، وقد لا يتمذ لك ما طلبت ، لكن ذلك لا يجعلك تبتعد عن التسبيح للذات ، لأن عدم تحقيق ما طلبت هو في مصلحتك وخير لك .

وقد وقف العلماء عند كلمة « قريب » هذه ، وتساءل بعضهم عن سرّ عدم مجيء تاء التأنيث بعد لفظ الجلالة ؟ ونعلم أن القرآن قد نزل بلغة العرب ، وعند العرب ألفاظ يستوي فيها التذكير والتأنيث ، وما يقال للمذكر مثلما يقال للمؤنث ، فنقول : « رجل صبور » ، و« امرأة صبور » ، ولا نقول صبورة ونقول « رجل معطار » أي يكثر استخدام العطر ، و« امرأة معطار » أي تكثر استخدام العطر ونقول . قريب مثلما نقول : قتيل بمعنى مقتول . فيقال : « رجل قتيل » و« امرأة قتيل » ، ولا يقال : « قتيلة » إلا إذا لم يذكر معها كلمة امرأة أو مايدل على التأنيث ، لأن القتيل للذكر وللأنثى .

هذه هي ألفاظ صحيح اللغة . وقد صنعت اللغة ذلك بأساليب ، فأنت حين تقول . « رجل صبور » أو « امرأة صبور » بالصبر يقتضي الجلد والحزم والشدة ؛ لذلك لا نقول . « امرأة صبورة » بل نأتي بالوصف المناسب للجلد والشدة . وإياك أن تضعهما بحكاية التأنيث ، وكذلك « رجل معطار » و « امرأة معطار » ، والرجل المعطار هو من تعرفه الناس من نفاذ رائحة عطره ، والمرأة مبنية على الستر فإن تعطرت فهي قد تشبهت بالرجل ويقال لها : « امرأة معطار » ، وحين نظر إلى كلمة « قريب » فهي من صيغة « فعيل » التي يستوي فيها المذكر والمؤنث ، بدليل أن الله قال

﴿ وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ﴾

(من الآية ٤ سورة التحريم)

والملائكة لفظها لفظ مؤنث، ولم يقل الحق «ظهيرة»، لأن «ظهير» يعني مُعين، والمعونة تتطلب القوة والعزم والمدد؛ لذلك جاء لها باللفظ المناسب الذي يدل على القوة وهو «ظهير». وكذلك قوله الحق:

﴿ .. إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾ [سورة الأعراف]

و«قريب» وزن «فعيل» بمعنى مفعول، ولعل بعض الناس يفهم أن «قريب» بمعنى فاعل أي قارب مثل رحيم ورحم. أي أن رحمة الله هي التي تقترب من المحسنين، والأمر ليس كذلك، فإن الرحمة هي المقروبة، والإحسان هو الذي يقرب إليها فيكون فعيل هنا بمعنى مفعول الذي يستوي فيه المذكر والمؤنث، أن يكون جاءت كذلك على تأويل الرحمة بالرحم أو الترحم، أو لأنه صفة لموصوف محذوف أي شيء قريب، أو لأن تأنيث الرحمة غير حقيقي، أو أن الرحمة مصدر، وحق المصدر التذكير

ويقول الحق بعد ذلك:

﴿ وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾

وتصريف الرياح إماحة للهواء في الكون، والإماحة للهواء في الكون تأتي منها فوائد كثيرة للغاية، ونحن حين نجلس في مكان مكتظ ومملوء بالأنفاس نقول لمن يجلس بجوار النافذة: «الهوى العرفة قليلاً». وإن لم يكف هواء النافذة تأت بمروحة

لتأخذ من طبقات الجو طبقة هواء جديدة فيها أوكسجين كثير. إذن فإرسال الرياح ضرورة حتى لا يظل الهواء راكداً ويتلوث الجو بهذا الركود، ولو أن كل إنسان سيستقر في مكان مكتوم الهواء لامتلأ المكان بثاني أكسيد الكربون الخارج من تنفسه، ثم لا يلبث أن يختنق، ولذلك أراد الله حركة الرياح رحمة عامة مستمرة في كل شيء، وهي أيضاً رحمة تتعلق بالقوت كما تعلقت بمقومات الحياة من نفس وماء وطعام، وتصريف الرياح من أجل تجديد الهواء الذي يتنفسه، وكذلك تكوين الماء لأنه سبحانه القائل عن الرياح

﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ ... (٥٧) ﴾ [سورة الأعراف]

والرياح هي التي تساعد في تكوين الأمطار التي تنزل على الأرض فتروي التربة التي تحرثها، هكذا تكون الرياح بشرى في ثلاثة أشياء: الشيء الأول تحريك طبقات الهواء وإلا لفسد الجو في الماء، لأن الرياح هي التي تحمل السحاب وتحركه وتنزل به هناك فرقاً بين بشرى، وبشراً، فالبشرى مفرد، وقد وردت في قوله الحق:

﴿ وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ (٦٩) ﴾ [سورة هود]

أي التبشير. لكن بشراً جمع بشير وهي كلمة مخففة، والأصل فيها بشر.

والحق يقول: ﴿ فلما أن جاء البشير ﴾.

وجمع البشير «بُشُر» مثل: «نذير» و«نُذُر»، بضم الشين فسكنت تخفيفاً، فتنطق بُشْراً وبُشُراً. (بشراً بين يدي رحمته)

هي بين يدي رحمته لأنها ستأتي لنا بالماء، وهو الرحمة في ذاته، وبواسطته يعطينا ري الأرض، ونحن نرتوي منه مباشرة أيضاً. ونلحظ كلمة الرياح إذا أطلقت بالجمع فهي تأتي للخير، أما حين يكون فيها شر فتأتي بكلمة «ريح» مفردة، مثل قوله:

﴿ ... بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ (٦) ﴾ [سورة الحاقة]

فإذن عندما نرى كلمة « رياح » فاعلم أنها خير ، أما كلمة « ريح » فاعلم أنها شر لمذا ؟ أنت إذا كنت قاعداً في حجرة فيها فتحة نافذة يأتي منها الهواء ، ويتسلط التيار على إنسان ، فالإنسان يصاب بالتعب ؛ لأن الهواء يأتي من مكان واحد ، لكن حين تجلس في الخلاء ويهب الهواء فأنت لا تتعبّ ؛ لأن الرياح متعددة . ولكن الريح تأتي كالصاروخ .

الرياح إذن يرسلها الحق بين يدي رحمته ؛ حتى إذا أقلت أي حملت يقال « أقل فلان الحمل » أي رفعه من على الأرض وحمله لأنه أقل من طاقته ، لأنه لو كان أكثر من طاقته لما استطاع أن يرفعه عن الأرض ، وما دام قد أقله فالحمل أقل بالنسبة لطاقته وبالنسبة لجهده ، أقلت أي حملت . وما دامت قد حملت فجهدها فوق ما حملته ، وإذا كان الجهد أقل من الذي حملته لابد أن ينزل إلى الأرض . وأقلت سحاباً أي حملت سحاباً . نعرف أن السحاب هو الأبخرة الطالعة والصاعدة من الأرض ثم تتجمع وتصعد إلى طبقات الجو العليا ، وتضربها الرياح إلى أن تصادف منطقة باردة فيحدث تكثيف للسحاب فينزل المطر ، ونرى ذلك في الماء المقطر الذي يصنعونه في الصيدلية ؛ فيأتي الصيدلي بموقد وفوقه إناء فيه ماء ويغلي الماء فيخرج البخار ليسير في الأنابيب التي تمر في تيار بارد فينكثف البخار ليصير ماء (حتى إذا أقلت سحاباً ثقالاً سقناه لبلد ميت) .

وقال الحق : « سقناه » بضمير المذكر ؛ لأنه نظر إلى السحاب في اسم جنسه ، أو نظر إلى لفظه ، وجاء بالوصف مجموعاً فقال : « ثقالا » نظراً إلى أن السحاب جمع سحابة فرق بينه وبين واحدة بالتاء ، وما دامت السحب كلها داخلة في السوق فليس لها تعددات فكأنها شيء واحد

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ ﴾

(من الآية ٥٧ سورة الأعراف)

السحاب لا يتجه إلى مكان واحد ، بل يتجه لأماكن متعددة ، إذن فالحق يوجه السحاب الثقال لأكثر من مكان لكن الحق سبحانه وتعالى يقول (سقناه لبلد ميت)

والميت هو الذي لا حراك فيه وانتهى اختياره في الحركة ، كذلك الأرض ، فالماء

ينزل من السماء على الأرض وهي هامدة ليس بها حركة حياة أي أن الله يرسل السحاب ويرجعه إلى البلد الميت في أي مكان من الأرض .

﴿ فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴾

(من الآية ٥ سورة الحج)

إذن فالأرض التي لا يأتيها الماء تظل هامدة أي ليس بها حركة حياة مثل الميت

﴿ سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ﴾

(من الآية ٥٧ سورة الأعراف)

وأراد الحق سبحانه وتعالى أن ينقلنا ونبهنا إلى القضية الكونية التي نراها دائما في صور شتى ، وهي أن الأرض تكون في بعض الأحيان جدباً ، ثم يهبط عليها بعض المطر ، وبمجرد أن ينزل المطر على الحبل ، وبعد يومين من نزول المطر نجد الحبل في اليوم الثالث وهو محضر ، فمن الذي بذر البذرة للنبات هذا اليوم ؟ إذن فالنبات كان ينتظر هذه المياه وبمجرد أن تنزل المياه يخرج النبات دون أن يبذر أحد بذوراً ، وهذا دليل على أن كل منطقة في الأرض فيها مقومات الحياة .

﴿ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾

(من الآية ٥٧ سورة الأعراف)

فالماء الذي ينزل على الأرض الميتة يحيي الأرض ؛ لأنه سبحانه يخرج الحياة كل يوم ، وحين يوضح لنا سبحانه أنه سيبعثنا من جديد فليس في هذا أمر عجيب ، وهكذا جعل الله القضية الكونية مرئية وواضحة لكل واحد ولا يستطيع أحد أن يكابر ويعاند فيها ؛ لأنها أمر حسيّ مشاهد ، ومنها نستنبط صدق القضية وصدق الرب .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى

خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾

إذن الآية السابقة عالجت قضية البعث بضرب المثل بالآية الكونية الموجودة ؛ فالريح التي تحمل السحاب ، والسحاب يساق إلى بلد ميت وينزل منه الماء فيخرج به الزرع . والأرض كانت ميتة وبحييها الله بالمطر وهكذا الإخراج بالبعث وهذه قضية دينية ، ويأتي في هذه الآية بقضية دينية أيضا ، (والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه والذي خبث لا يخرج إلا نكدا) .

والبلد الطيب هو البلد الخصب الذي لا يحتاج إلا إلى المياه فيخرج منه الزرع ، أما الذي خبث ، فمهما نزل عليه الماء فلن يخرج نباته إلا بعد عناء ومشقة وهو مع ذلك قليل وعديم النفع . وهنا يحدثنا الحق قضية دينية مثلما خدم القضية الدينية في البعث أولا . وقال النبي صلى الله عليه وسلم :

« مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل غيث صاب أرضا فكانت منها طائفة طيبة ، قبلت الماء وأنبتت الكلأ والعشب الكثير ، وكان منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس ، فشربوا منها وسقوا وزرعوا ، وأصاب طائفة أخرى منها ، إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ ، فذلك مثل من فقه في دين الله تعالى ، ونفعه ما بعثني الله به ، فعلم وعلّم ، ومثل من لم يرفع بذلك رأسا ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به »[1]

إذن فالمنهج يرد إلى الناس وهم ثلاثة أقسام ، قسم يسمع فينفع نفسه وينقل ما عنده إلى الغير فينفع غيره مثل الأرض الخصبة شربت الماء وقبلته ، وأنبتت الزرع ، وقسم يحملون المنهج ويبلغونه للناس ولا يعملون به ويطبق عليهم قوله الحق

﴿ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾

(من الآية ٢ سورة الصف)

---

(١) رواه البخاري ومسلم

صحيح سينتفع الناس من المنهج ، ولذلك قال الشاعر :

خذ بعلمي ولا تركن إلى عملي ... واحن الثمار وحل العود للنار

ويقول صلى الله عليه وسلم : (من ستر مسلما ستره الله في الدنيا والآخرة)[1]

فستر المؤمن على المؤمن مطلوب وستر المؤمن على العالم آكد وأشد طلبا ، لأن العالم غير معصوم وله فلتات ، وساعة ترى زلته وسقطته لا تُدعها لأن الناس سينتفعون بعلمه فلا تشككهم فيه ، والقسم الثالث هو من لا يشرب الماء ولا يسقيه لغيره أي الذي لا ينتفع هو ، ولا ينفع غيره .

﴿ وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ ۖ وَالَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾

(الآية ٥٨ سورة الأعراف)

إذن منهج الله مثله مثل المطر تماما ، فالمطر ينزل على الأرض ليرويها وتخرج النبات وهناك أرض أخرى لا تنتفع منه ولكنها تمسكه فينتفع غيره ، وهناك من لا ينفع ولا ينفع ، فكذلك العلم الذي ينزله الله على لسان رسوله (والذي خبث لا يخرج إلا نكدا كذلك نصرف الآيات)

قلنا من قبل إن الآيات تطلق على معان ثلاثة الآيات الكونية التي نراها واقعة في الكون مثل قوله الحق .

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ﴾

(من الآية ٣٧ سورة فصلت)

وآيات هي آيات القرآن ، والآيات التي تكون هي المعجزات للأنبياء

﴿ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ﴾

(من الآية ٥٨ سورة الأعراف)

---

(١) رواه مسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه وابن حبان في صحيحه والحاكم وقال صحيح على شرطهما

الآيات هنا في الكونية كالماء الذي ينزل ، إنه مثل المنهج من أخذ به فاز ونجا ، ومن تركه وغوى وكل آيات الله تقتضي أن نشكر الله عليها ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ ﴾

بعد أن تكلم الحق سبحانه وتعالى عن الطائعين وعن العاصين في الدنيا ، وتكلم عن مواقف الآخرة الجزائية بين أصحاب الجنة ، وأصحاب النار والأعراف أراد أن يبين بعد ذلك أن كل دعوة من دعوات الله سبحانه أهل الأرض لابد أن تلقى عنتا وتضييقا ، وتلقى إعراضاً ، وتلقى إيذاء ، إنه سبحانه يريد أن يعطي المناعة لرسوله ﷺ ، فيوضح له : لست أنت بدعاً من الرسل ؛ لأن كل رسول جاء إلى قومه قوبل بالاضطهاد ، وقوبل بالتكذيب ، وقوبل بالنكرات ، وقوبل بالإيذاء ، وإذا كان كل رسول قد أخذ من هذا على قدر مهمته الرسالية زماناً محدوداً ، ومكاناً محصوراً فأنت يا رسول الله أخذت الدنيا كلها زماناً ومكاناً ، فلا بد أن تكون مواجهاً لمصاعب تناسب مهمتك ورسالتك ؛ فأنت في قمة الرسل ، وستكون الإيذاءات التي تنالك وتصيبك قمة في الإيذاء ، فلست بدعاً من الرسل ، فوطّن نفسك على ذلك . وحين توطن نفسك على ذلك ستلقى كل إيذاء وكل اضطهاد بصبر واحتساب في الله ، ونص الحق قصص الرسل على رسول الله ، وعبر الله بالهدف من قص القصص بقول :

﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ ﴿١٢٠﴾ ﴾ [سورة هود]

فكنا القصص تثبيت لفؤاده ﷺ ، فكلما أهاجه نكران ، أو كلما أهاجه جحود ، قص عليه الحق سبحانه قصة رسول قوبل بالنكران وقوبل بالجحود ليثبت به فؤاده ﷺ وفؤاد أتباعه لعلهم يعرفون كل شيء ويوطنون أنفسهم

على هذا العبث ؛ فلم يقل الحق لأتباع محمد : إنكم مقبلون على أمر والأرض مفروشة لكم بالورود ، لا ، إنما هي متاعب لتجابهوا شر الشيطان في الأرض . والقصص له أكثر من هدى يثبت له فؤاد الرسول صلى الله عليه وسلم ويبين له أنه ليس بدعاً من الرسل ، ويقوي نفوس أتباعه ، لأنهم حينما يرون أن أهل الحق مع الأنبياء انتصروا ، وهزم الجمع وولى الدبر ، وأنهم منصورون دائماً فهذا يقوي يقين المؤمنين ، ويكسر من جهة أخرى نفوس الكافرين مثلما قال الحق عن واحد من أكابر قريش (سنسمه على الخرطوم)

قال الحق لهم ذلك عن واحد من أكابر قريش وهم لا يقدرون حينئذ أن يدافعوا أو يذودوا عن أنفسهم ، وذهبوا وهاجروا إلى الحبشة حماية لأنفسهم من بطش هؤلاء الأكابر ، وكل مؤمن يبحث له عمن يحميه ، ويبرز قوله الحق بعد ذلك في الوليد بن المغيرة « سنسمه على الخرطوم » ، والوليد بن المغيرة سيد في قومه ، ويأتي يوم بدر فيوجد أنفه وقد ضرب وخطم ويتحقق قول الله

﴿ سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ﴿١٦﴾ ﴾

(سورة القلم)

فمن - إذن - يحدد ضربه قتال بسيف في يد مقاتل قبل أن يبدأ القتال ؟ لقد حددها الأعلم بما يكون عليه الأمر .

وأيضاً فقصص الرسل إنما جيء بها ليثبت للمعاصرين له أنه تلقى القرآن من الله ؛ لأنه رسول أميّ ؛ والأمة أمية ، ولم يدّع أحد من خصومه أنه جلس إلى معلم ، أو قرأ كتاباً ، فمن أين جاءته هذه الأخبار إذن ؟

واسمع قول الحق سبحانه وتعالى في الآيات التي يأتي فيها : « ما كنت » مثل قوله الحق :

﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ ﴾

(من الآية ٤٤ سورة القصص)

ومثل قوله الحق :

﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُوا مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾

(سورة العنكبوت)

ومثل قوله

﴿ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ ﴾

(من الآية ٤٤ سورة آل عمران)

فمن أين جاءت هذه الأخبار إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم يعلمون أنه لم يجلس إلى معلم ولم يقرأ كتاباً ؟ لقد جاءت كلها من الحق سبحانه وتعالى ، وهذا دليل آخر على صدق رسالته

وقصة سيدنا نوح من القصص التي وردت كثيراً في القرآن الكريم مثل قصة موسى عليه السلام ، ومن العجيب أن لقطات القصة تنتشر في بعض السور ، لكن السورة التي سميت بسورة نوح ليس فيها من المواقف التي تعتبر من عيون القصة ، إنها تعالج لقطات أخرى ، تعالج إلحاحه في دعوة قومه ، وأنه ما قصر في دعوتهم ليلاً ونهاراً ، وسراً وعلانية ، كلما دعاهم ابتعدوا ، ولم تأت قصة المركب في سورة نوح ، ولا قصة الطوفان ، وهذه لقطات من عيون القصة ، وكذلك لم تأت فيها قصته مع ابنه ، بل جاء بها في سورة هود .

إذن كل لقطة جاءت لموضع مقصود ، ولهذا رأينا قصة نوح في سورة « نوح » وقد خلت من عناصر مهمة في القصة ، وجاءت هذه العناصر في سورة « هود » أو في سورة « الأعراف » التي نتناولها الآن بالخواطر الإيمانية .

إذن ، كل قصة من القصص القرآني تجدها قد جاءت تخدم فكرة ، ومجموعها يعطي كل القصة ؛ لأن الحق حين يورد القصص فهو يأتي بلقطة في سورة لتخدم موقفاً ، ولقطة أخرى تخدم موقفاً آخر وهكذا . وحين شاء أن يوصل لنا قصة محبوكة تماماً ، جاء بقصة « يوسف » في سورة يوسف ولم يكررها في القرآن ، لأنها مسئولية في سورة يوسف ، اللهم إلا في آية واحدة :

﴿ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءَكُم بِهِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولًا ﴾

(من الآية ٣٤ سورة غافر)

راجع أصله وخرج أحاديثه الدكتور أحمد عمر هاشم نائب رئيس جامعة الأزهر .

لقد وردت فى سورة يوسف حياة يوسف منذ أن كان طفلا حتى أصبح عزيز مصر ، وهكذا نرى أن الحق حين يشاء أن يأتى بالقصة كتاريخ يأتى بها محبوكة ، وحين يريد أن يلفتنا إلى أمور فيها مواقف وعظات ، يوزع لقطات القصة على مواقع متعددة تتناسب وتتوافق مع تلك المواقع لتأكيد وخدمة هدف

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ ﴾

(من الآية ٥٩ سورة الأعراف)

وساعة ترى « اللام » و « قد » فاعرف أن هذا قسم ، وكأن الحق يقول . وعزتى وجلالى لقد أرسلت نوحاً . وهو بهذا يؤكد المقسم عليه .

والقوم هم الرجال خاصة من المعشر ؛ لأن القوم عادة هم المواجهون للرسالة ، والمرأة محتجبة ، تسمع من أبيها أو من أخيها أو من زوجها ، ولذلك قالت النساء للنبى : غلبنا عليك الرجال .

أى أننا لا نجد وسيلة لنقعد معك ونسألك ، فاجعل لنا يوماً من أيامك تعظنا فيه ، فجعل لهن يوماً ؛ لأن المفروض أن تكون المرأة فى ستر ، وبعد ذلك ينقل لها الزوج المنهج إن سمع من الرسول شيئاً ، وكذلك الأب يقول لابنته ، والأخ يقول لأخته

فإذا تكلم الرسول يقال : إن الرسول واجه القوم ، من قولهم هو قائم على كذا وهم على كذا . ولذلك الشاعر العربى يقول :

وما أدرى ولست أحال أدرى ... أقوم آل حصن أم نساء

وجاء هنا بالقوم ، والمراد بهم الرجال ، والقرآن يقول :

﴿ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ﴾

(من الآية ١١ سورة الحجرات)

إذن فالنساء لا تدخل فى القوم ؛ فالقوم هم المواجهون للرسول ومنهم تأتى المتاعب والتصلب فى الرأى ، ويكون الإنكار والجحود والحرب منهم .

وسيدنا نوح عليه السلام دعا قومه ونبههم إلى ثلاثة أشياء . عبادة الله ، فقال : « ياقوم اعبدوا الله » ، وبين لهم أنه ليس هناك إله سواه فقال : « مالكم من إله غيره » ، وأظهر لهم حرصه وإشفاقه عليهم إذا خالفوا وعصوا فقال « إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم » .

وهكذا تكلم عن العقيدة في الإله الواحد المستحق للعبادة ، وليس آلهة متعددة ، وتعبده أي تطيع أمره ونهيه ، ولأنهم إن لم يفعلوا ذلك فهو يخاف عليهم من عذاب يوم عظيم ، وهو عذاب يوم القيامة . أو لأن الله كان قد أوحى له بأنه سيأخذهم أخذ عزيز مقتدر ، وعذاب يوم عظيم أي يوم الإغراق ، و « الخوف » مسألة تتعب تفكير من يستقبلها ويخاف أن يلقاها . فمن الذي يفزع بهذا ؟

إن الذي يفزع هم الطغاة والجبابرة والسادة والأعيان ورجوه القوم ، وكانوا قد جعلوا من أنفسهم سادة ، أما سائر الناس وعامتهم فهم العبيد والمستضعفون . والذي يهاج بهذه الدعوة هم السادة لأنه ليس هناك إلا إله واحد ، والأمر لواحد والنهي لواحد والعبادة والخضوع لواحد ، ومن هنا فسوف تذهب عنهم سلطتهم الزمنية ، لذلك يوضح الحق لنا موقف هؤلاء من الدعوة حين يقول

﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ ﴾

والملأ هم سادة القوم وأعيانهم وأشرافهم ، أو الذين « يملأون » العين هيبة ويملأون القلوب هيبة ، ويملأون صدور المجالس بهية

إنهم خائفون أن تكون دعوة نوح هي الدعوة إلى الطريق المستقيم وكلامه هو الهداية ، فيمنّوا أنفسهم بأن هذا ضلال وخروج عن المنهج الحق . (إنا لنراك في ضلال مبين)

أى عيبة عن الحق ، أو فى تيه عن الحق ، و« مبين» أى محيط بصورة لا يمكن النفاذ منها .

ويرد نوح عليه السلام :

﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦١﴾ ﴾

هم قالوا له : « إنا لنراك فى ضلال مبين » ، المتبادر أن يكون الرد : ليس فى أمرى ضلال ، لكنه قال هنا « ليس بى ضلالة» ، أقول ذلك بتعرف أن كل حرف فى القرآن موزون لموضعه . هم قالوا له : إنا لنراك فى « ضلال » ، يرد عليهم : ليس بى ضلالة ، لأن الضلال جنس يشمل الضلالات الكثيرة ، وقوله يؤكد أنه ليس عنده ضلالة واحدة . وعادة نفى الأقل يلزم منه نفى الأكثر ، مثلاً عندما يقول لك صديق : عندك تمر من المدينة المنورة ؟ تقول له : ليس عندى ولا تمرة واحدة . أنت بذلك نفيت الأقل ، وهذا أيضاً نفى للأكثر (قال يا قوم ليس بى ضلالة)

وحين ينفى نوح عن نفسه وجود أدنى ضلالة فلذلك لأنه يعرف أنه لم يأت من عنده بذلك ، ولو كان الأمر كذلك لأتهم نفسه بأن هواه قد غلبه ، لكنه مرسل من عند إله حق .

﴿ .. وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦١﴾ ﴾ [سورة الأعراف]

وقوله . « ولكنى» استدراك فلا تقولوا . أنا فى ضلال ؛ فليس فىّ ضلالة واحدة ، لكن أنا رسول يبلغ عن الله ، والله لا يعطى غير الهدى .

(رسول من رب العالمين) أى من سيد العالمين ومن متولى تربية العالمين ، ومن يتولى التربية لا يُنزل منهجاً يضل به من يربيهم ، بل ينزل منهجاً ليصلح من يربيهم ، وسبحانه قبل أن يأتى بهم إلى الوجود سخر لهم كل هذا الكون ، وأمدهم بالأرزاق حتى الكافرين منهم ، ومن يعمل كل ذلك لن يرسل لهم من يضلهم .

ويستمر البلاغ من نوح عليه السلام لقومه فيقول .

﴿ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾

والبلاغ هو إنهاء الأمر إلى صاحبه ، فيقال : بلغت المكان العلاني أي انتهيت إليه و « البلاغة » هي النهاية في أداء العبارة الجميلة ، و « أبلغكم » أي أنهي إليكم ما عليه الحق من منهج هداية لحركة حياتكم (أبلغكم رسالات ربي)

وكان يكفي أن يقول : « رسالة ربي » إلا أنه قال : (رسالات ربي) لأن أي رسول يأتي بالمنهج الثابت كما جاءت به الرسالات السابقة حتى لا يقول أحد إنه جاء ليناقض ما جاء به الرسل السابقون ، في قاله وجاء به أي رسول سابق يقوله ، ونعلم أنه كانت هناك صحف لشيث ولإدريس . فقال : إنه يبلغ رسالته المتضمنة للرسالات السابقة سواء رسالة إدريس وهو اخنوخ ، وكذلك شيث وغيره من الرسل .

أي أبلغكم كل ما جعله الله منهجاً لأهل الأرض من الأمور المستقيمة الثابتة ، مثلما قال سبحانه :

﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ﴾

(من الآية ١٣ سورة الشورى)

وهو الأمور المستقرة لثابتة العقدية ، والأحكام التي لا تتغير أو « رسالات ربي » ، لأنه كرسول يتلقى كل يوم قسطاً من الرسالة ؛ فاليوم جاءت له رسالة يبلغها ، وغداً تأتي له رسالة يبلغها . ولو قال : « الرسالة » لكان عليه أن ينتظر حتى تكتمل البلاغات من الله له ثم يقولها ، ولكنّ نوح كان يبلغ كل رسالة تأتيه في وقت إبلاغه بها ؛ لذلك فهي « رسالات » . أو لأن موضوع الرسالات أمر متشعب تشعباً يماثل ما تحتاج إليه الحياة من مصالح ؛ فهناك رسالة للأوامر ، ورسالة للنواهي ، ورسالة للوعظ ، ورسالة للزجر ،

ورسالة للتبشير ، ورسالة للإنذار ، ورسالة للقصص ، وهكذا تكون رسالات .

أو أن كل نجم - أي جزء من القرآن ونسط منه - يعتبر رسالة ، فما يرسله الله في يوم هو رسالة للنبي ، وغداً له رسالة أخرى وهكذا .

وقوله: « أنصح لكم » لأن البلاغ يقتضي أن يقول هم منهج الله ، ثم يدعو القوم لاتباع هذا المنهج بأن يرتق قلوبهم ويخاطبهم بالأسلوب الهادئ، وينصحهم ، والنصح أمر خارج عن بلاغ الرسالة .

ولنلتفت إلى فهم العبارة القرآنية . (وأنصح لكم)
والنصح أن توضح للإنسان المصلحة في العمل ، وتجرد نيتك مما يشوبه . وهل أنت تنصح آخر بأمر يعود نفعه عليك ؟ إنك إن فعلت ذلك تكون النصيحة متهمة ، وإذا نصحته بأمر يعود عليه وعليك فهذه نصيحة لك وله ، ولكن حينما تقول « نصحت لك » أي أن النصيحة ليس فيها مسألة خاصة بك ، بل كل ما فيها لصالح من تبلغه فقط ، وبذلك يتضح الفارق بين « نصحته » و« نصحت لك »

﴿ وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾

(من الآية ٦٢ سورة الأعراف)

وكأن سيدنا نوحاً يخاطب قومه : إياكم أن تضنوا أن ما أقوله لكم الآن هو كل العلم من الله ، ولا كل علم الله ، ولا كل ما علمني الله ، بل أنا عندي مسائل أخرى سوف أقولها لكم إن اتقيتم الله وامتلكتم الاستعداد الإيماني ، وهنا سأعطيكم منها جرعات . وقوله : « وأعلم من الله ما لا تعلمون » يعني أنه سيحدث لكم أمر في الدنيا لم يحصل للأمم السابقة عليكم وهو أن من يُكذب الرسول يأخذه الله بذنبه وتلك التجربة لم تحدث مع قوم شيت أو إدريس

﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ﴾

(من الآية ٤٠ سورة العنكبوت)

ولم يحدث مثل هذا العقاب قبل نوح ، وقد بين لهم نوح : أنا أعلم أن ربنا قد دبر لكم أن من يكذب سيأخذه أخذ عزيز مقتدر .

أو « وأعلم من الله ما لا تعلمون » ، أي أن الله أعلمني لا على قدر ما قلت لكم من الخير ، لكنه سبحانه قد علمني أن لكل إخبار بالخير ميلاداً وميعاداً .
ويقول سبحانه بعد ذلك :

﴿ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾

« أوعجبتم » وكان من الممكن أن يقول « أعجبتم » ، لكن ساعة أن يجيء بهمزة الاستفهام ويأتي بعدها بحرف عطف . فاعرف أن هناك عطفاً على جملة ، أي أنه يقول . أكذبتم بي ، وعجبتم من أن الله أرسل على لسان « ذكر من ربكم » . والذكر ضد النسيان ، وأداة الشيء يكون على البال ، ومرة يتجاوز البال ويجري على اللسان .

وقد وردت معانٍ كثيرة للذكر في القرآن ، وأول هذه المعاني وقمتها أن الذكر حين يطلق يراد به القرآن :

﴿ ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ ﴿٥٨﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

وكذلك في قوله الحق :

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾

(سورة الحجر)

إذن يطلق الذِّكر ويراد به القرآن ، ومرة يطلق الذكر ويراد به الصيت أي الشهرة الإعلامية الواسعة . وقد قال الحق لرسوله عن القرآن .

﴿ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ﴾

(من الآية ٤٤ سورة الزخرف)

أى أن القرآن شرف كبير لك ولأمتك وسيجعل لكم به صيتاً إلى يوم القيامة ؛ لأن الناس سترى فى القرآن على تعاقب العصور كل عجيبة من العجائب ، وسيعلمون كيف أن الكون يصدق القرآن ، إذن بفضل القرآن (العربى) ، سيظل اسم العرب ملتصقا ومرتبط بالقرآن ، وكل شرف للقرآن ينال معه العرب شرفا جديدا

أى إن القرآن شرف لكم . ويقول سبحانه :

﴿ لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ﴾

(من الآية ١٠ سورة الأنبياء)

أى فيه شرفكم ، وفيه صيتكم ، وفيه تدرجكم ، ورأى الإسلام الذى يسخ القوميات والأجناس ، ويجعل الناس كلهم سواسية كأسنان المشط .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ﴾

(من الآية ١٣ سورة الحجرات)

والرسول صلى الله عليه وسلم يقول :

(لا فضل لعربى على أعجمى إلا بالتقوى) .

وسيظل القرآن عربياً ، وهو معجزة فى لغة العرب ، وبه ستظل كلمة العرب موجودة فى هذه الدنيا . إذن فشرف القوم يجىء من شرف القرآن ، ومن صيت القرآن . والحق يقول :

﴿ صٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ﴿١﴾ ﴾

(سورة ص)

أى أن شرفه دائم أبداً . حين يأتى إلى الدنيا سبق علمى ، نجد من يذهب إلى البحث عن أصول السبق العلمى فى القرآن ، ونجد غير المسلمين يعثرون بالقرآن ويطبعونه فى صفحة واحدة ، وعلى ورق فاخر قد لا يستعملونه فى كتبهم . هذا هو القرآن ذو الذكر على الرغم من أن بعض المسلمين ينحرفون قليلاً عن المنهج ، وقد يتناساه بعضهم ، لكن فى

مسألة القرآن تجد الكل يتنبه . وكما قلت من قبل : قد تجد امرأة كاشفة للوجه وتضع مصحفاً كبيراً على صدرها ، وقد تجد من لا يصلي ويركب سيارة يضع فيها المصحف ، وكل هذا ذكر وتجد القرآن يُقرأ مرتلاً ، ويُقرأ مجوداً ، ومجوداً بالعشرة ثم يسجل بمسجلات يصنعها من لا يؤمنون بالقرآن . وكل هذا ذكر وشرف كبير .

عرف أن « الذكر » قد ورد أولا بمعنى القرآن ، وورد باسم الصيت والشرف : ويطلق الذكر ويراد به ما نزل على جميع الرسل ؛ فالحق سبحانه يقول :

﴿ اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ ﴿١﴾ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٢﴾ ﴾ [سورة الأنبياء]

أي أن كل ما نزل على الرسل ذكر .

ويقول سبحانه :

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ ﴾ [سورة الأنبياء]

إذن فالمراد بالذكر – أيضاً – كل ما نزل على الرسل من منهج الله

ومرة يُطلق الذكر ويراد به معنى الاعتبار . والتذكير ، والتذكر فيقول سبحانه :

﴿ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ ﴿٩١﴾ ﴾ [سورة المائدة]

والمراد هنا بالذكر الاعتبار والتذكر وأن تعيش كمسلم في منهج الله . ومرة يراد بالذكر . التسبيح ، والتحميد . انظر إلى قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴿٣٦﴾

رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكوة . ﴿٣٧﴾

[سورة النور]

وهو ذكر لأن هناك من يسبح له فيها بالغدو والآصال وهم رجال موصوفون بأنهم لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله .

وقد يُطلق بذكر ويراد منه خير الله على عبادة ويراد به كذلك ذكر عبادتهم له بالطاعة ؛ فسبحانه يذكرهم بالخير وهم يذكرونه بالطاعة . فإن شئت قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ . وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكرون ﴿٩٠﴾ ﴾[سورة النحل]

وفي آية أخرى :

﴿ . إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر والله يعلم ما تصنعون ﴿٤٥﴾ ﴾ [سورة العنكبوت]

ومن هنا قد قال جل وعلا : « ولذكر الله أكبر » أي ذكر الله لهم بالنعم والخيرات ؛ فذكره فضل وإحسان وهو الكبير المتعال . فهناك إذن ذكر ثان ، ذكر أقل منه ، وهو العبادة لربهم بالطاعة . هنا يقول الحق :

﴿ أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم ولتتقوا ولعلكم ترحمون ﴿٦٣﴾ ﴾ [سورة الأعراف]

ما وجه التعجب هنا ؟ نعلم أن التعجب هو إظهار الدهشة وانفعال النفس من حصول شيء على غير ما تقتضيه مواقع الأمور ومقدماتها ، إذن تظهر الدهشة ونتساءل كيف حدث هذا ؟ ولو كان الأمر طبيعياً ومتوقعاً ما حدثت تلك الدهشة وذلك العجب

وعجبتم لماذا ؟ اقرأ - إذن - قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ ق والقرآن المجيد ﴿١﴾ بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم .. ﴿٢﴾ ﴾ [سورة ق]

موضع العجب هنا أن جاء لهم منذر ورسول من جنسهم ؛ فمن أى جنس كانوا يريدون الرسول ؟ كان من عنادهم أنهم أرادوا الرسول مَلَكاً .

﴿ بَلْ عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ۝ ﴾

(سورة ق)

وجاء العجب أيضاً فى البعث . فتساءل الكافرون هل بعد أن ذهبنا وغبنا فى الأرض وصرنا تراباً بعد الموت يمكن البعث مرة ثانية ؟!

إذن فالعجب معناه إظهار الدهشة من أمر لا تدعو إليه المقدمات أو من أمر يخالف المقدمات

العجب عندهم فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها لأن نوحاً عليه السلام يريد منهم أن يبحثوا فى الإيمان بوجود إله . وكان المنطق يقتضى أنه إذا رأوا شيئاً هندسته بديعة ، وحكيمة ، وطرأ عليها هذا المخلوق وهو الإنسان ليجد الكون مسقفاً موجوداً من قبله ، كان المنطق أن يبحث هذا الإنسان عمن خلق هذا الكون وأن يلح فى أن يعرف مَن صنع الكون ، وحين يأتى الرسول ليقول لكم من صنع هذا الكون ، تتعجبون ؟!

كان القياس أن تتلهفوا على من يجيركم بهذه الحقيقة ؛ لأن الكون وأجناسه من النبات والجماد والحيوان فى حضنتك أيها الإنسان . لا يقوتك خلقت هذا الكون ولا تلك الأجناس ، بل أنت طارىء على الكون والأجناس ، ألم يدر بخلدك أن تتساءل من صنع لك ذلك ؟

إذن فالكلام عن الإيمان كان يجب أن يكون عمل العقل ، وتلك قضية . هب أن إنساناً وقعت به حادثة فى مكان ، وهذا المكان ليس به من وسائل الحياة شىء أبداً ، ثم جاع ، ولم يجد طعاماً ، وقهره التعب ، فنام ، ثم أفاق من هذه الإغماءة ؛ وفوجىء بمائدة أمامه عليها أطايب الطعام والشراب وهو لا يعرف أحداً فى المكان . فهل قبل أن يأكل ألا يتساءل عمن أحضرها ؟!! كان الواجب يقتضى ذلك

إذن أنتم تتعجبون من شىء تقتضى الفطرة أن نبحث عنه ، وأن نؤمن به وهو الإله

الذى لا ينتفع بطاعتك أو بعبادتنا ، ولا تعود عليه العبادة بشىء ، بل تعود علينا ، والعبادة فيها مشقات لأنها تلجم الشهوات وتعقل وتمنع من المعاصى والمحرمات ، ولكن يُقابِل ذلك الثوابُ فى الآخرة .

وهناك من قال : ولماذا لا يعطينا الثواب بدون متاعب التكليف ؟ لماذا لا يستفيد إنّ العقل كاف ليدلنا - دون منهج - إلى ما هو حسن فنفعله ، وما نراه سيئاً فلا نفعله ، والذى لا نعرفه أهو حسن أم سيىء . ونضطر له نفعله ، وإن لم نكن فى حاجة له لا نفعله

ونقول لهذا القائل لكن من الذى أخبرك أن العقل كاف ليدلنا إن الأمر الحسن ، هل حسّن لك وحدك أم لك وللآخرين ؟ فقد يكون الحسن بالنسبة لك هو السوء بالنسبة لغيرك لأنك لست وحدك فى الكون ولنفترض أن هناك قطعة قماش واحدة ، الحسن عندك أن تأخذها ، والحسن عند غيرك أن يأخذها . لكن الحُسْن الحقيقى أن يفصل فى مسألة ملكية هذه القطعة من القماش مَنْ يعدل بينك وبين غيرك دون هوى وألا يكون واحد أولى عنده من الآخر . إذن لابد أن يوجد إله يعصمنا من أهوائنا بمنهج ينزله يبين لنا الحسن من السيىء ؛ لأن الحسن بالمنطق البشرى ستصطدم فيها أهواؤنا

ومثال آخر : افرض أننا دخلنا مدينة ما ، ورأيت مسكن جميلا فاخرا وكل من يريد أن يسكن فيه وكل واحد يريد أن يأخذه ؛ لأن ذلك هو الحسن بالنسبة له ، لكن ليس كذلك بالنسبة لغيره ، إذن فالحسن عندك قد يكون قبيحاً عند الغير فالحسن عند بعض الرجال إذا ما رأى امرأة أن ينظر إليها ويتكلم معها ، لكن هل هذا حسن عند أهلها أو أبيها أو زوجها ؟ . لا .

إنّ الذى تعجبتم منه كان يجب أن تأخذوه على أنه هو الأمر الطبيعى العادى الذى تستلزمه المقدمات فقد جاءكم البلاغ عن لسان رجل منكم ولماذا لم يقل الحق . لسان رجل ؟ إننا نعلم أن هناك آية ثانية يقول فيها الحق

﴿ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ ﴾

(من الآية ١٩٤ سورة آل عمران)

كأنه يقول لهم : إن الوعد الذى وعده الحق لكم قد جاء لكم بالمنهج الذى نزل على الرسل . ومهمة الرسل صعبة ؛ فليست مقصورة على التبليغ باللسان لأن مشقاتها كلها على كاهل كل رسول ، ولا تظنوا أن ربنا حين اختار رسولاً قد اختاره ليدلله على رقاب الناس ، لا . لقد اختاره وهو يعلم أن المهمة صعبة ، والرسول صلى الله عليه وسلم - كما تعلمون - لم يشبع من خبز شعير قط ، وأولاده وأهله - على سبيل المثال - لا يأخذون من الزكاة ، والرسل لا تورث فجميع ماتركوه صدقة ، وكل تبعات الدعوة على الرسول ، وهذه هى الفائدة فى أنه لم يقل على لسان رسول ، لأن الأمر لو كان على لسان الرسول فقط لأعطى البلاغ فقط ، إنما « على رجل منكم » تعطى البلاغ ومسئولية البلاغ على هذا الرجل .

﴿ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ ﴾

(من الآية ٦٣ سورة الأعراف)

ماهو العجب ؟ لقد كان العجب أن تردد الألوهية والنبوة .

وبعضهم لم يرد الألوهية ورد فكرة النبوة على الإنسان . وطالب أن يكون الرسول من الملائكة ، لأن الملائكة لم تعص وها هية ولا يُعرف عنها الكذب . لكن كيف يصبح الرسول ملكاً ؟ وهل أنت ترى الملك ؟ إن البلاغ عن الله يقتضى المواجهة ، ولابد أن يراه القوم ويكلموه ، والملك أنت لن تراه . إذن فلسوف يتشكل على هيئة رجل كما تشكل جبريل بهيئة رجل إذن أنتم تستعجبون من شىء كان المنطق يقتضى ألا يكون .

﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ ﴾

(سورة الإسراء)

وقولهم هذا فى قمة الغباء فقد كان عليهم أن ينتهزوا ويقبلوا على الإيمان ؛ لأن الرسول منهم وقد عرفوه ماضيه من قبل ، وكذلك أسوا به ، ولو كانت له انحرافات قبل أن يكون رسولاً لحزى واستحيا أن يقول لهم : استقيموا . ومادام هو منكم ويعرفون تاريخه وسلوكه حين دعاكم للاستقامة كان من الواجب أن تقولوا لأنفسكم إنه لم يكذب فى أمور الدنيا فكيف يكذب فى أمور الآخرة ، ولم يسبق له أن كذب على خلق الله فكيف يكذب على الله ؟ ولأنه منكم فلابد أن يكون إنساناً ولذلك قال الحق

﴿ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

وهذه هي الآية التي نحن بصددها يقول الحق: (على رجل منكم ليندركم ولتتقوا ولعلكم ترحمون).

إذن فمهمته أن ينذر ، والإنذار لقصد التقوى ، والتقوى غايتها الرحمة ، وبذلك نجد هنا مراحل الإنذار وهو إخبار بما يسوؤك ولم يأت زمنه بعد وذلك لتستعد له ، وتكف لأنه سيبعك ويضايقك والبشارة ضد الإنذار ، لأنها تخبر بشيء سار زمنه لم يأت ، وفائدة ذلك أن يجند الإنسان كل قوته ليستقبل الخير القادم وأن يبتعد عن الشيء المخيف.

وهكذا يكون التبشير والإنذار لتتقي الشرور وتأخذ الخير ، وبذلك يحيا الإنسان في التقوى التي تؤدي إلى الرحمة.

إذن فمواطن تعجبهم من أن يجيئهم رسول مردودة ؛ لأن مواطن التعجب هذه كان يجب أن يلح عليها فطرياً ، وأن تنعطف النفس إليها لا أن يتعجب أحد لأنها جاءت ، فقد جاءت الرسالة موافقة للمقدمات ، وقد جاء الرسول ولم يأت ملكاً ليكون قدوة

وكذلك لم يرسله الله من أهل الجاه ومن الأعيان ومن صاحب الأتباع ؛ حتى لا يقال إن الرسالة قد انتشرت بقهر العزوة ، إن الأتباع كانوا موافقين على الباطل بتسلط الكبراء والسادة ، فمخافة أن يقال. إن كل تشريع من الله آزره المبطلون بأتباعهم جاءت الدعوة على أيدي الذين ليس لهم أتباع ولا هم من أصحاب الجاه والسلطان. ولقد تمنى أهل الشرك ذلك ويقول القرآن على لسانهم:

﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ ﴾ [سورة الزخرف]

ولقد كان تمنيهم أن ينزل القرآن على رجل عظيم بمعاييرهم ، وهذه شهادة منهم بأن القرآن في ذاته منهج ومعجزة. ولم يتساءلوا: وهل القرآن يشرف بمحمد أو محمد هو الذي يشرف بالقرآن ؟ إن محمداً يشرف بالقرآن ؛ لذلك يقول الحق:

﴿ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ ﴿٢٧﴾ ﴾ [سورة هود]

وهذه هى العظمة ؛ لأن أتباع محمد ﷺ لم يكونوا من الدين بفرض عليهم الواقع أن يحافظوا على جاههم ويعملوا بسطوتهم وبطشهم وبفوتهم ، ويفرضوا الدين بقوة سلطانهم ، لا ، بل يمر على أتباع رسول الله فترة ضعاف مضطهدون ، ويؤذون ويهاجرون ، فالمهمة فى البلاغ عن الله تأتى ليبذر الرسول ، ويتنى الأتباع لتالهم الرحمة نتيجة التقوى ، والتقوى جاءت نتيجة الإنذار .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾

وهنا يتكلم الحق عن حكاية الإبحاء ، ونعلم المقدمة الطويلة التى سبقت إعداد سيدنا نوح عليه السلام للرسالة ، فقد أراد له الله أن يتعلم النجارة ، وأن يصنع السفينة

﴿ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ .. ﴿٣٨﴾ ﴾ [سورة هود]

ولم يجىء الحق هنا بسيرة الطوفان التى قال فيها فى موضع آخر من القرآن :

﴿ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ ﴾ [سورة القمر]

وجاء الحق هنا بالنتيجة وهى أنهم كذبوه

﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ﴿٦٤﴾ ﴾

[سورة الأعراف]

وكانت هذه أول حدث عقابى فى تاريخ الديانات ؛ لأن رسالة نوح عليه السلام هى أول رسالة تعرضت إلى مثل هذا التكذيب ومثل هذا العناد ، وكان الرسل السابقون لنوح عليهم السلام فقط ، ولم يكن عليهم أن يدخلوا فى حرب أو صراع ، والسماء هى التى

تؤدب ، فحينما علم الحق سبحانه وتعالى أنه بإرسال رسوله صلى الله عليه وسلم ستبلغ الإنسانية رشدها صار أتباع محمد مأمونين على أن يؤدبوا الكافرين
وفى تكذيب نوح عليه السلام يأتينا الحق هنا بالنتيجة .

(فأنجيناه والذين معه) ولم يقل الحق . كيف أنجاه ولم يأت بسيرة الملك ، بل أخبر بمصير من كذبوه ، ويأتى بالعقاب من جنس الطوفان

﴿وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ﴾

(من الآية ٦٤ سورة الأعراف)

هناك « أعمى » لمن ذهب بصره كله من عينيه كلتيهما ، وهناك أيضا عمه وأعْمَهُ ، والعَمَهُ فى البصيرة كالعمى فى البصر أى ذهبت بصيرته ولم يهتد إلى خير .

ثم انتقل الحق إلى رسول آخر . ليعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم الأسوة فيه أيضاً . بعد أن جاء بنوح يأتى بهود

﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾﴾

وساعة ماتسمع : (وإلى عاد أخاهم هوداً) أى أرسلنا إلى عاد أخاهم هوداً ، و « أخاهم » موقعها الإعرابى « مفعول به » ويدلنا على ذلك قوله فى الآية السابقة (أرسلنا نوحا) ، وكذلك أرسلنا إلى عاد أخاهم هودا.وكلمة « أخاهم » تشعرُ بأشياء كثيرة : إنه من جنسهم ، ولغته لغتهم ، وأنسهم به ، ويعرفون كل شىء وكل تاريخ عنه ، وكل ذلك إشارات تعطى الأنس بالرسول ؛ فلم يأت لهم برسول أجنبى عاش بعيداً عنهم حتى لا يقولوا . لقد جاء ليصنع لنفسه سيادة عليهم . بل جاء لهم بواحد منهم وأرسل إليهم « أخاهم » وهذا الكلام عن « هود » .

إذن كان هود من قوم عاد ، ولكن هناك رأى يقول . إن هودا لم يكن من قوم عاد ، ولأن

الأخوة نوعان: أخوّة في الأب القريب، أو أخوّة في الأب البعيد، أي من جنسكم، من آدم؛ فهو إما أخ من الأب القريب، وإمّا أخ من الأب البعيد. وقد قلنا من قبل: إن سيدنا معاوية كان يجلس ثم دخل عليه الحاجب فقال: يا أمير المؤمنين، رجل بالباب يقول إنه أخوك، فتساءلت ملامح معاوية وتعجب وكأنه يقول لحاجبه: لا تعرف إخوة أمير المؤمنين؟ وقال له: أدخله، فأدخله. قال معاوية للرجل: أي إخوتي أنت؟!

قال له: أخوك من آدم.

فقال معاوية: رحم مقطوعة - أي أن الناس لا تنتبه إلى هذه الأخوة - والله لأكون أول من وصلها.

﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

ونلحظ أن الحق قال على لسان سيدنا نوح لقومه:

﴿ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾

(من الآية ٥٩ سورة الأعراف)

وأرسل الحق هوداً إلى عاد، لكن قول هود لقوم عاد يأتي: (قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون).

وهنا «قال» فقط من غير الفاء؛ وجاء في قول نوح «فقال»، وهذه دقة الأداء لننتبه؛ لأن الذي يتكلم إله ورب، فتأتي مرة بـ «فاء» وتأتي مرة بغير «فاء» رغم أن السياق واحد، والمعنى واحد والرسول رسول، والجماعة هم قوم الرسول. ونعلم أن «الفاء» تقتضي التعقيب، وتفيد الإلحاح عليهم، وهذا توضحه سورة نوح؛ لأن الحق يقول فيها:

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾ وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟

وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾ ثُمَّ إِنِّى دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّىٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٩﴾ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾

(سورة نوح)

إذن فالعلة مناسبة هنا ، لكن فى مسألة قوم هود نجد أن سيدنا هوداً قال لهم مرة أو اثنتين أوثلاث مرات ، لكن بلا استمرار وإلحاح ، وهذا يوضح لنا أن إلحاح نوح على قومه يقتضى أن يأتى فى سياق الحديث عنه بـ « فقال » وألا تأتى فى الحديث عن دعوة سيدنا هود وقد يتعجب الإنسان لأن مدة هود مع عاد لا تساوى مدة نوح مع قومه ، وقد جاء الإيضاح بزمن رسالة سيدنا نوح فى قوله الحق .

﴿ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا ﴾

من الآية ١٤ سورة العنكبوت)

ظل سيدنا نوح قرابة ألف سنة يدعو قومه ليلاً ونهاراً سرًا وعلانية ، لكنهم كانوا يفرون من الإيمان ، لذلك يأتى الحق فى أمر دعوة نوح بالفاء التى تدل على المتابعة أما قوم عاد فلم يأت هم « بالفاء » بل جاء به « قال » :

﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ﴾

(من الآية ٦٥ سورة الأعراف)

وقال نوح من قبل .

﴿ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾

(من الآية ٥٩ سورة الأعراف)

وفى مسألة قوم عاد قال « يا قوم اعبدو الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون »

ومع أن الأسلوب واحد والمعانى واحدة ، وكان ذلك يقتضى الإيجاز ، لكن لم يقل الحق ذلك ، لأن نوحاً كان عنده علم بالعذاب الذى سوف ينزل ؛ لأنها كانت أول تجربة ، لكن سيدنا هود لم يكن عنده علم بالعذاب

العملية التي حدثت لنوح مع قومه وإهلاكهم بالغرق كانت أولية بالنسبة له ، فالله سبق أن أعلمه بها ، وحين ذهب هود إلى قوم عاد كانت هناك سابقة أمامه ، وأخذ ربنا المكذبين لنوح بالعذاب ، لذلك المح سيدنا هود فقط إلى احتمال العذاب حين قال ﴿ أفلا تتقون ﴾ .

أي أن العذاب قد يتظركم وينالكم مثل قوم نوح .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾

في هذه الآية جاء قوله : ﴿ الذين كفروا ﴾ ، وفي قصة نوح قال سبحانه : ﴿ قال الملأ من قومه ﴾ ولم يأت فيها بالذين كفروا ، لأن قوم نوح لم يكن فيهم من آمن وكتم إيمانه وأخفاه ، بخلاف عاد قوم هود فإنه كان فيهم رجل اسمه مرثد بن سعد آمن وكتم وستر إيمانه ، فيكون قوله تعالى في شأنهم ﴿ الذين كفروا ﴾ قد جاء مناسبا للمقام ، لأن فيهم مؤمنا لم يقل ما قالو من رميهم لسيدنا هود بالسفاهة حيث قالوا ما حكاه الله عنهم بقوله :

﴿ إِنَّا نَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾

(من الآية ٦٦ سورة الأعراف)

أما قوم نوح فقد قالوا

﴿ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾

(من الآية ٦٠ سورة الأعراف)

فقال لهم نوح عليه السلام .

﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَٰلَةٌ ﴾

(من الآية ٦١ سورة الأعراف)

ما الفرق بين الضلال والسفاهة ؟

الضلال هو مجانبة حق ، والسفاهة طيش وخفة وسخافة عقل ، وأضافت عاد اتهاماً آخر لسيدنا هود . ﴿ وإنا لنظنك من الكاذبين ﴾

والظن رجحان الأمر بدون يقين ، فهناك راجح ، ومرجوح ، أو أن الظن هنا هو اليقين . على حد قوله سبحانه :

﴿ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ ﴾

(من الآية ٤٦ سورة البقرة)

أي يتيقنون ، وجاء بالرد من سيدنا هود :

﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾

وفي هذا القول نفي للاتهام بالسفاهة ، وإبلاغ لهم بأنه مبلّغ عن الله بمنهج تؤديه الآية التالية وهي قوله الحق :

﴿ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ ﴾

وسبق أن قال سبحانه على لسان نوح :

﴿ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ ﴾

(من الآية ٦٢ سورة الأعراف)

فلماذا قال في قوم نوح : ﴿ أنصح لكم ﴾ ،وقال هنا في عاد : ﴿ وأنا لكم ناصح أمين ﴾ ؟

نقد قال الحق : ﴿ أنصح لكم ﴾ في قوم نوح لأن الفعل دائماً يدل على التجدد ، بينما يدل الاسم على الثبوت . ونظراً إلى أن نوحاً عليه السلام كان يلحّ على قومه ليلاً ونهاراً ، وإعلاناً وسرًّا ، لذلك جاء الحق بالفعل : ﴿ أنصح لكم ﴾ ليفيد التجدد ، ولكن في حالة قوم هود جاء سبحانه بما يفيد الثبوت وهو قوله . ﴿ ناصح أمين ﴾ ؛ لأن هوداً عليه السلام لم يلح ويكرر على قومه في دعوتهم إلى الإيمان كما كان يفعل نوح عليه السلام

ويقول سبحانه على لسان سيدنا هود

﴿ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ۚ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً ۖ فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾

جاء الحق هنا بالذكر للإنذار فقال ﴿ لينذركم ﴾ فقط ، وليس كما قال في قوم نوح : ﴿ ولتتقوا ولعلكم ترحمون ﴾ لأن الإنذار لم يأت لمجرد الإنذار ، بل لترتدع وتتقي ، لكي تُرحم ، إذن فحين يأتي بأول الحلقة وأول الخيط وهو الإنذار فنحن سننتج الباقي وهو التقوى لنصل إلى الرحمة : ﴿ واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح ﴾ .

وهذا كلام جديد ؛ لأن قوم نوح هم أول قوم عُذِّبوا حين لم يؤمنوا ، وجاء سيدنا هود إلى عاد بعد ذلك ، يبلغهم وينذرهم ليأخذوا العبرة من نوح وقومه :

﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾

(من الآية ٦٩ سورة الأعراف)

ويذكرهم سيدنا هود أن الحق قد أعطى لهم أجساماً فارعة فيها بسطة وطول ، ويقال : إن الطويل منهم كان يبلغ طوله مائة ذراع ، والقصير منهم كان يبلغ طوله ستين ذراعاً ، ويأمرهم سيدنا هود أن يذكروا آلاء الله ، أي نعمه عليهم ، وأول النعم أن أرسل إليهم رسولاً يأخذ بأيديهم إلى مناطق الخير

فماذا كان ردهم ؟

يقول الحق :

﴿ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٧٠﴾ ﴾

كان المنطق أن يعبدوا الله وحده لا أن يعبدوا الشركاء الذين لا ينفعونهم ولا يضرونهم ، ولا يسمعونهم . بل إن الواحد منهم كان يرى الهواء يهب على الصنم ، فيميل الصنم ويقع على الأرض وتتكسر رقبته ، فيذهب إلى الحداد ليعيد تركيب رأس حديد للصنم ، فكيف يعبد مثل هذا الصنم ؟ لكنهم قالوا لهود . نحن تقلد آباءنا ولا يمكن أن نترك ما كان يعبد آباؤنا لأننا على آثارهم نسير وإن كان إلهك ينذرنا بعذاب فأتنا به إن كنت من الصادقين وهكذا وضح أنه لا أمل في اقتناعهم بالدعوة إلى الإيمان .

فماذا يقول الحق بعد ذلك ؟

يجيء القول الفصل على لسان سيدنا هود :

﴿ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ
وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا
أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ
فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ (٧١) ﴾

لقد كان يكلمهم ويكلمونه ، قالوا له : ائتنا بالعذاب ، فقال لهم : ﴿ قد وقع عليكم من ربكم رجس وغضب ﴾ ، فكيف يقول وقع ؟ لقد قال ذلك لأنه يخبر عن الله . و « وقع » فعل ماض ، ونحن نعلم أن كلام الله مجرد عن الزمان ماضيا كان أو حاضرا ، أو مستقبلا ، لقد قال سيدنا هود : « وقع » والعذاب لم يقع بعد ، لكن لما كان قوله بلاغاً عن الله فإنه يؤكد وقوع العذاب حتماً ، لأن الذي أخبر به قادر على إنفاذه في أي وقت ، ولا إله آخر ولا قوة أخرى قادرة على أن تمنع ذلك والذي وقع عليهم هو الرجس ، والرجس أي التقذير ، ضد التزكية والتطهير . وغضب الله الواقع لم تحدده هذه الآية . لكن لابد أن له شكلاً سيقع به

ويسائلهم هو ساخراً : ﴿ أتجادلونني في أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ﴾ ، وكل اسم يكون له مسمى ، وهذه الأسماء أنتم أطلقتموها على هذه الآلهة ، فهل لها مسميات حقيقية لتُعبد ؟ . لا ، بل أنتم خلعتم على ما ليس بإله أنه إله ، وهذه أسماء بلا مسميات ، وأنتم في حقيقة الأمر مقلدون لآبائكم . وما تعبدونه أسماء بلا سلطان من الإله الحق .

﴿ مَّا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ ﴾
(من الآية ٧١ سورة الأعراف)

أي ليس لهذه الأسماء من حجة على ما تقولون ، بدليل أنهم كانوا يسمون في الجاهلية إلهاً باسم « العزّى » وعندما يكسرونه لا يجدون عزاً ولا شيئاً ، لأن هذا الإله المزعوم لم يدفع عن نفسه ، فكيف يكون إلهاً وقيّوما على غيره ؟ وكذلك سموا « اللات » أي الله ومضاف له التاء ، وعندما يكسرونه لا يجدون له قوة أو جبروتاً أو طغياناً .

ويقول هود لقومه ما يؤكد وقوع العذاب

﴿ فَانتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴾

(من الآية ٧١ سورة الأعراف)

وقوله : ﴿ فانتظروا ﴾ ، جعلنا نفهم قوله السابق : ﴿ قد وقع عليكم من ربكم رجس وغضب ﴾ بأن الرجس والغضب قادمان لا محالة . صحيح أنه عبر عن ذلك بالفعل الماضي ، ولكن لنقرأ قوله الحق :

﴿ أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ﴾

(من الآية ١ سورة النحل)

و « أتى » فعل ماضٍ ، وفي الظاهر أنه يناقض قوله ﴿ فلا تستعجلوه ﴾ لأن الاستعجال يدل على أن الحدث لم يأت زمنه بعد . ولكن لك أن تعلم أن الذي أخبر هو الله ، ولا توجد قوة ثانية تغير مرادات الله أن تكون أو لا تكون

يقول الحق بعد ذلك :

﴿ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ وَمَا كَانُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾ ﴾

ونلحظ أن الحق قد بين وسيلة نجاة سيدنا نوح : ﴿ فكذبوه فأنجيناه والذين معه في الفلك وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا ﴾

أما هنا في مسألة عاد فلم يوضح لنا وسيلة النجاة ، بل قال سبحانه :

﴿ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ وَمَا كَانُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

وقوله . ﴿ فأنجيناه ﴾ تدل على أن عذاباً عاماً وقع ، إلا أن ربنا أوحى لسيدنا هود أن يذهب بعيداً عن المكان هو والذين معه قبل أن يقع هذا العذاب وكان العرب قديماً إذا حزبهم أمر ، أو دعتهم ضرورة إلى شيء خرج عن أسبابهم يذهبون إلى بيت الله ؛ ليضرعوا إلى الله أن يخلصهم منه ، حتى الكفرة منهم كانوا يفعلون ذلك . كما حدث من عاد حين أرسل الله إليهم سيدنا هودا نبيًا فكذبوه وارداد عتوًا وتجبراً فأصابهم جدب وظل ثلاث سنوات فما كان منهم ألا أن مزعوا إلى الكعبة لكي يدعوا ربهم أن يخفف عنهم العذاب ، وذهب واحد منهم اسمه « قيل بن عنز » ، وآخر اسمه « مرثد بن سعد » الذى كان يكتم إسلامه على رأس جماعة منهم إلى مكة ، وكان لهم بها أخوال من العماليق ؛ من أولاد عملوق بن لاوث بن سام بن نوح ، وكانوا هم الذين يحكمون مكة فى هذا الوقت ، وعلى رأسهم واحد اسمه « معاوية بن بكر » ، فنزلو عنده ، وأكرم وفادتهم على طريقه العرب ، واستضافهم ضيافة ملوك وأمراء ، وجاء لهم بالقيان والأكل والشراب ، فاستمرأوا الأمر ، ومكثوا شهرٍ . فقال معاوية بن بكر : لقد جاءوا لينقذوا قومهم من الجدب ومافكروا أن يذهبوا إلى الكعبة، ولافكروا فى أن يدعوا ربنا وأخاف أن أقول لهم ذلك فيقولوا إنه ضاق بنا . وتكون سبّة فىّ . وأخذ يفكر فى الأمر . وكان عنده مغنيتان اسمهما « الجرادتان » . فقالت المغنيتان : قل فى ذلك شعر ، ونحن نغنيه بهم ، فقال معاوية :

ألا يا قيل ويحك قم فهينم ... لعل الله يمطرنا غماماً
فيسقى أرض عاد إن عادا ... قد أمسوا لا يبينون الكلاما

فلما غنتا ، والغناء فيه ترديد وخصوصاً إذا كان غناءً موجهاً « ألا يا قيل ويحك قم فهينم » وهينم : أى ادعو الله ، ألم نحصر من أجل الدعاء لعل الله يمطرنا الغمام على أرض عاد ، وينتهى الجدب ، وقد بلغ منهم الجهد أنهم لا يبينون الكلام ، فتنبه القيل ، وتنبه مرثد بن سعد ، وكان قد نمى إلى علم « القيل » أن مرثد بن سعد مؤمن بهود عليه السلام ، فرفض أن يصحبه معه ، وبالفعل ذهب قيل ولحد يدعو الله ، فسمع هاتفاً يقول له : « اختر لقومك » وقد رأى سحابة سوداء وسحابة حمراء وسحابة بيضاء ، ونبهه الهاتف أن يختار سحابة تذهب لقومه من بين الثلاثة ، فاختار السحابة السوداء ، لأنها أكثر السحاب ماء ، وهو على قدر اجتهاده

اختار السحابة السوداء ، وعادوا لبلادهم ليجدو السحابة السوداء فقد لهم : أنا اخترت السحابة السوداء لأنها ترجى بماء كثير منهمر ، وقال الحق فى هذا الأمر :

﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ﴾

(من الآية ٢٤ سورة الأحقاف)

أى أن هذه هى السحابة التى قال عليها «قيل» سوف تعطينا المطر

فيرد الحق عليهم ويقول لهم :

﴿ بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ ﴾

(من الآية ٢٤ ومن الآية ٢٥ سورة الأحقاف)

إذن فقولهم السابق لسيدنا هود الذى أورده الحق هنا فى سورة الأعراف :

﴿ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾

(من الآية ٧٠ سورة الأعراف)

أى أن عذابهم يتأكد بالمطر والريح الذى جاء به قول سيدنا هود هنا فى سورة الأعراف : ﴿ قد وقع عليكم من ربكم رجس وغضب ﴾

ولم يفلت من العذاب إلا من آمن مصداقاً لقوله الحق :

﴿ فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

لقد يسّر الحق الانقاذ لسيدنا هود ومن آمن معه ليهجروا المكان لحظة ظهور السحاب ، فقد سمع هود هاتفاً يؤكد له أن فى هذا السحاب العذاب الشديد ، فأخذ الجماعة الذين آمنوا معه وهرب إلى مكة ، وتم إهلاك الذين ظلموا أنفسهم بتكذيب رسولهم ورفضهم الإيمان بربهم .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ ﴾

لقد قال سيدنا صالح لثمود مثلما قال سيدنا هود لعاد ، وحمل لهم الإنذار ليتقوا فيرحموا ، قال سيدنا صالح : ﴿ يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ﴾ .

إذن فالإنذار للتقوى وللوصول إلى الرحمة والفلاح ، ولذلك أقول دائماً . إن القرآن حينما يتعرض لأمر قد لا يأتي به مفصلا ولكن سياقه يوحي بالمراد منه ، ولا يكرر وذلك ليربي فينا ملكة الانتباه إلى استقبال المعاني . والمثال على ذلك في قصة الهدهد مع سيدنا سليمان ، يقول القرآن على لسان سيدنا سليمان :

﴿ وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾

(سورة النمل)

ويهدد سيدنا سليمان الهدهد قائلاً :

﴿ لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاذْبَحَنَّهُ ﴾

(من الآية ٢١ سورة النمل)

ثم جاء الهدهد ليقول :

﴿ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴾

(من الآية ٢٢ سورة النمل)

ثم أرسل سيدنا سليمان الهدهد إلى قوم سبأ قائلاً .

﴿ اذْهَب بِّكِتَابِي هَـٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾

(سورة النمل)

وبعد هذه الآية مباشرة قال القرآن :

﴿ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَؤُا إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ ﴾

(سورة النمل)

وكأن الهدهد قد ذهب بالكتاب ، ورماه إلى ملكة سبأ ، وقالت هي الرد مباشرة إذن لم يكرر القرآن ما حدث ، بل جعل بعضاً من الأحداث متروكاً لفهم من السياق .

وكذلك هنا في قوله الحق :

﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا ﴾

(من الآية ٧٣ سورة الأعراف)

وكلمة « أخاهم » هنا تؤكد أن سيدنا صالحاً كان مأنوساً به عند ثمود ، ومعروف التاريخ لديهم ، وسوابقه في القيم والأخلاق معروفة بهم تماماً وأضيفت ثمود له لأنه أخوهم . وقد جاءت دعوته مطابقة لدعوة نوح وهود .

﴿ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ هَـٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً ۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ ۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

(من الآية ٧٣ سورة الأعراف)

والبينة هي الدليل على الصدق في البلاغ عن الله ، وهي الناقة . فما قصة الناقة ؟ هل حرج لهم ناقة ونسب منكيتها لله ؟ بطبيعة الحال ، لا ، بل لابد أن تكون لها قصة بحيث يعلمون أن هذه الناقة ليست لأحد من البشر . وحين قام سيدنا صالح بدعوته ، تحداه السادة من قومه ، وقالوا : نقف نحن وأنت ، نستنجد نحن بآلهتنا ، وأنت تستنجد بإلهك ، وإن غلبت آلهتنا تتبعنا ، وإن غلب إلهك

نتبعك ، وجلسوا يدعون آلهتهم ، فلم يحدث شيء من تلك الآلهة ، وهنا قالوا لسيدنا صالح . إن كنت صادقاً في دعوتك ، هذه صخرة منفردة أمامك في الجبل اسمها « الكاثبة » فليخرج ربك لنا من هذه الصخرة ناقة هي عشراء كالبخت ـ أحسن أنواع الإبل ـ ، فدعا الله سبحانه وتعالى ، وانشقت الصخرة عن الناقة ، وخروج الدقة من الصخرة لا يدع مجالاً من الشك في أنها آية من الله ظهرت أمامهم إنها البينة الواضحة لقد انشقت الصخرة عن الناقة ووجدوها ناقة عشراء ، وَبْراء ـ أي كثيرة الوَبَر ـ يتحرك جنينها بين جنبيها ثم أحدها المخاض فولدت فصيلاً ، وهكذا تتأكد الآية الإلهية دون أن يجرؤ أحد على التشكيك فيها ، وهي ناقة من الله وهو القائل :

﴿ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا ﴾

(من الآية ١٣ سورة الشمس)

وأوضح لهم سيدنا صالح أنها ناقة الله ، وتروتها رؤية مشهدية وهذه الدقة لها يوم في الماء لتشرب منه ، ويوم تشربون أنتم فيه وكان الماء قليلاً عندهم في الآبار

﴿ هَٰذِهِ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴾

(من الآية ١٥٥ سورة الشعراء)

أي لابد من تخصيص يوم لتشرب فيه هذه الدقة ، ولكم أنتم وأبلكم وحيواناتكم يوم آخر ، وكان من عجائب هذه الدقة أن تقف على العين وتشرب فلا تدع فيها ماءً ، وهي كمية من المياه كانت تكفي كل الإبل . وبعد ذلك تتحول كل المياه التي شربتها في ضرعها لبناً ، فيأخذون هذا اللبن .

صحيح أن الناقة منعتهم المياه لكنهم أخذوا منها اللبن الذي يطعمونه ، ولأنها ناقة الله كان لابد أن تأخذ هيكلاً وحجماً يناسبها وكمية من الطعام والشراب مناسبة لتقيم بها حياتها ، وكمية إدرار اللبن مناسبة لشربها وطعامها وحجمها ، فمادامت مسوبة لله فلابد أن فيها مواصفات إعجازية ، وكان الفصيل الذي ولدته معها ، وكان إذا ما جاء الحر في الصيف تسكن الناقة في المشارف العالية ، وبقية الوقت تنزل في الأرض الوطيئة ، وحين يأتي الشتاء تنزل إلى المناطق المنخفضة

والمعروف أن مدائن صالح كانت منطقة شديدة الحرارة ، ويمكن لمن يزور المدينة أو « تبوك » أن يمر عليها .

كانت الناقة حرة فى اختيار المكان الذى تعيش فيه صيفاً أو شتاءً فلا أحد بقادر أن يمسها بسوء . وكانت هناك امرأتان لهما نياق . وناقة الله تغلب نياق المرأتين فى المراعى والماء . فاحضرت المرأتان رجلاً يطلق عليه « أحيمر ثمود » واسمه قُدار بن سالف « يقتلها ، فقتل الناقة ، فلما قتلت الناقة ، طلع ابنها الفصيل على جبل يسمى « قارة » وحار ثلاثة أصوات ، فنادى سيدنا صالح : يا قوم أدركوا هذا الفصيل ، لعل الله بسبب إدراككم له يرفع عنكم العذاب ، فرحوا يتلمسونه فلم يجدوه وأعلم الله صالحاً النبى أن العذاب قادم ، ففى اليوم الأول تكون وجوههم مصفره ، وفى اليوم الثانى تكون محمرة ، وفى اليوم الثالث تكون مسودة ، فقد كانت الناقة هى ناقة الله المسوية له سبحانه ، وقد تأكدوا بالأمر المشهدى من ذلك ، وكان من الواجب عليهم ساعة أن وجدوا الآية الكونية المشهودة أن يأخذوا منها العبرة ، وأنها مقدمة لشىء الموعود به . لكنّ الغباء أنساهم أنها ناقة الله .

﴿ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

(من الآية ٧٣ سورة الأعراف)

وبالفعل حدث العذاب بعد أن قتل أحيمر ثمود الناقة .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ

اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾

ومن قبل قال الحق لقبيلة عاد :

﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ ﴾

(من الآية ٦٩ سورة الأعراف)

وهنا قال الحق ﴿ واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد ﴾ .

لأن عاداً هم الخلفاء الأقرباء منهم ، وقصتهم مازالت معروفة ومعالمها واضحة ، أما قصة نوح فهي بالتأكيد أقدم قليلاً من قصة عاد .

ويذكرهم الحق أيضاً أنه جعل لهم في الأرض منازل يسكنونها ، فاتخذوا من سهولها قصوراً ، والسهل هو المكان المبسط الذي لا توجد به تلال أو صخور أو جبال ، وكانوا ينحتون من الجبال بيوتاً ، وكان عمر الإنسان منهم يطول لدرجة أن البيت ينهدم مرتين في العمر الواحد للإنسان . ولذلك قرروا أن يتخذوا من الجبال بيوتاً لتظل آمنة ، وحين يرى الإنسان مدائن صالح منحوتة في الجبل فهي فرصة لأن يتأمل عظمة الحق في تنبيه الخلق إلى ما يفيدهم وهي بالفعل من نعم الله ، ويقول سبحانه :

﴿ فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾

(من الآية ٧٤ سورة الأعراف)

وآلاء الله ـ كما عرفنا ـ هي نعمه التي لا تحصى ، وينبههم إلى عدم نشر الفساد في الأرض .

ويقول سبحانه بعد ذلك :

﴿ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ

لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ
أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا
أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾

ونعرف أن هناك سادة ، وهناك أتباعاً . ومن قبل قال الحق :

﴿ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا ﴾

(من الآية ١٦٦ سورة البقرة)

وهنا في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها حوار بين السادة وبين المستضعفين الذين لا جاه لهم ولا جبروت يُحافظ عليه ، ورأوا دعوة الإيمان ووجدوا فيها النفع لهم فأقبلوا عليها ، أما الملأ وهم السادة الأشراف الأعيان الذين يملأون العين هيبة ، والقلوب مهابة فقد قالوا لمن آمن من المستضعفين ـ لأن هناك مستضعفين ظلوا على ولائهم للكفر ـ قال هؤلاء الملأ من المستكبرين لمن آمن من المستضعفين :

﴿ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴾

(من الآية ٧٥ سورة الأعراف)

وعندما سمع المستكبرون قول المؤمنين من المستضعفين . فماذا قال الملأ المستكبرون ؟

يقول الحق :

قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ
بِهِ كَافِرُونَ ﴿٧٦﴾

إذن فقد أعلنوا الكفر بالقول وضموا إليه بالعمل وهو قتل الناقة ،

ويقول الحق :

﴿ فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾

والعقر : هو الذبح بالسنة للوق .

وهم هنا يقولون أيضاً مثلما قال السابقون لهم :

﴿ .. ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾

[سورة الأعراف]

و« الصادقين » تؤول أيضاً إلى المرسلين . لقد اتهموا صالحاً عليه السلام بالكذب كنبي مرسل لهم برغم حدوث الآية الواضحة وهي خروج الناقة من الجبل ، لذلك يحل عليهم غضب الله المتمثل في قوله الحق :

﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٧٨﴾ ﴾

والرجفة هي الهزة التي تحدث رجة في المهزوز . ويسميها القرآن مرة بالطاغية . في قوله الحق

﴿ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ ۝ ﴾ [سورة الحاقة]

والتي أصبحوا من بعدها «جاثمين» ، وهو التعبير الدقيق الذي يدل على أن الواحد منهم إن كان واقفاً ظل على وقوفه ، وإن كان قاعداً ظل على قعوده ، وإن كان نائماً ظل على نومه . أو كما نقول : «انسخطوا على هيئاتهم» .

«فالجاثم» هو من لزم مكانه فلم يبرح أو لصق بالأرض .

وبعد أن أخذهم بالرجفة يقول الحق:

﴿ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ ۝٧٩ ﴾

فهل كان سيدنا صالح يخاطبهم وهم موتى ؟ . نعم يخاطبهم إنصافاً لنفسه وإبراء للذمة ، مثلما يقع واحد في ورطة فيقول له صديقه لاأملك لك شيئاً الآن فقد نصحتك من قبل . أو أن شريراً قد قتل ، فتقول له : «يامن نصحتك» . وأنت تتكلم لكي تعطي لنفسك براءة العذر ، أو كما فعل ﷺ مع قتلى بدر وناداهم واحداً واحداً بعد أن ألقوا جثثهم في قليب بدر ، وقال ﷺ : ياأهل القليب ، يافلان ، ياعلان ، يافلان ، هل وجدتم ماوعدكم ربكم حقاً ، فإني قد وجدت ماوعدني ربي حقاً ، فقال الصحابة :

أوتكلمهم يارسول الله وقد جيّفوا . قال والله ماأنتم بأسمع لما أقول منهم ولكنهم لايستطيعون أن يجيبوني .

وكان سيدنا صالح قال ذلك ليتذكروا كيف أبلغهم رسالات الله ومنهجه ونصح لهم وتحنن عليهم أن يلتزموا بمنهج الله ، لكنهم لم يستمعوا للنصح . ولم يحبوا الناصحين ؛ لأن الناصح يريد أن يُخرج المنصوح عما ألفه من الشر ، وعندما ينصحه أحد يغضب عليه

وبعد أن انتهى من قصة ثمود مع نبيهم يقول سبحانه .

﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ ﴾

وكما قال الحق : ﴿ لقد أرسلنا نوحاً ﴾ وقال ﴿ وإلى عاد أخاهم هوداً ﴾ ، ﴿ وإلى ثمود أخاهم صالحاً ﴾ فهو هنا يأتي باسم « لوط » منصوباً لأنه معطوف على من سبقه من أصحاب الرسالات

وما هو زمان الإرسال ؟ إن قوله الحق : ﴿ إذ قال لقومه ﴾ يفيد أن زمن القول كان وقت الإرسال وهي الإشارة القرآنية ذات الدلالة الواضحة على أن الرسول حين يبعث ويرسل إليه ويبلغ الرسالة لا يتوانى لحظة في أداء المهمة ، فكان تبليغ الرسالة تزامن مع قوله : ﴿ يا قوم ﴾ . والأسلوب يريد أن يبين لك أنه بمجرد أن يقال له « بلغ » فهو يبلغ الرسالة على الفور ، وكأن الرسالة جاءت ساعة التبليغ فلا فاصل بينهما .

﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ ﴾

(من الآية ٨٠ سورة الأعراف)

وكلمة « قومه » تعني أنه منهم ، ولماذا لم يقل . « أخاهم لوطاً » ؟ وهذه لها معنى يفيد أن السابقين من الرسل كانوا من بيئة الأقوام الذين أرسلوا إليهم ؛ فقد كان « هود » من بيئتهم ، و « ثمود » كان صالح من بيئتهم . وإذا كان الحق لم يقل « أخاهم لوطاً » فلنلحظ أنه أوضح أنه قد أرسله إلى قومه ، وهذه تنبهنا إلى أن لوطاً

لم يكن من هذا المكان ، لأن لوطاً وإبراهيم عليهما السلام كانا من مدينة بعيدة ، وجاء إلى هذا المكان فراراً من الاضطهاد هو وإبراهيم عليهما السلام ، وهذا يبين لنا أن لوطاً طارىء على هذا المكان ، ولم يكن أحاهم المقيم معهم في البيئة نفسها . ولكنهم « قومه » لأنه عاش معهم فترة فعرف بعضهم بعضاً ، وعرفوا بعضاً من صفاته ، وأنسوا به .

أقول ذلك لننتبه إلى دقة أداء القرآن ، فمع أن القصص واحد فسبحانه يضع لنا التمييز الدقيق ، ولم يقل لهم لوط : إن ربي نهاكم عن هذه العملية القذرة وهي إتيان الرجال . بل أراد أن يستفهم منهم استفهاماً قد يردعهم عن العملية ويقبحها

وكان استفهام سيدنا لوط هو استفهام تقريع ، واستفهام إنكار ، فلم يقل لهم : إن ربنا يقول لكم امتنعوا عن هذا الفعل . بل يستنكر الفعل كعمل مضاد للفطرة ، واستنكار فطري .

﴿ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾

(من الآية ٨٠ سورة الأعراف)

وهذا يدل على أنه يريد أن يسألهم سؤالاً إنكارياً ليحرجهم ، لأن العقل الفطري يأبى هذه العملية : ﴿ أتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين ﴾ .

أي أن هذه المسألة لم تحدث من قبل لأنها عملية مستقذرة ؛ لأن الرجل إنما يأتي الرجل في محل القذارة ، لكنهم فعلوها ، وهذا الفعل يدل على أنها مسألة قد تشتهيها النفس غير السوية . ولكنها عملية قذرة نأباها الفطرة السليمة .

وكلمة « فاحشة » تعطينا معنى التزيد في القبح ؛ فهي ليست قبيحاً فقط ، بل تزيد وإبغال وتعمق في القبح ومبالغة فيه ؛ لأن الفاحشة تكون أيضاً إذا ما أتى الرجل أنثى معدة لهذه العملية لأنه لم يعقد عليها ، ولم يتخذها زوجا ، وعندما يتزوجها يصير حلالاً له ، لكن إتيان الذكر للذكر هو تزيد في المحش . وإذا كان هذا الأمر محرماً في الأنثى التي ليست حلالاً له ويعد فاحشة ، فالرجل غير مخلوق

لمثل هذا الفعل ولا يمكن أن يصير حلالاً ، يكون إتيانه فاحشة بمعنى مركّب

﴿ .. أتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين ﴿٨﴾ ﴾ [سورة الأعراف]

وقلنا من قبل إن «من» قد تأتي مرة زائدة ، ويمكنك أن تقول إنها زائدة في كلام الإنسان ، لكن من العيب أن تقول ذلك في كلام ربنا . وقوله ﴿ ما سبقكم بها من أحد من العالمين ﴾

أي ما سبقكم أحد من العالمين ، و«أحد» هي الفاعل ، وجاءت «من» لتوضح لنا أنه لم يأت بها أحد ابتداءً ، مثلما قلنا قديماً ، حين تأتي لواحد لتقول له : «ما عندي مال» . فأنت قد نفيت أن يكون عندك مال يعتد به . وقد يكون معك من بداية ما يقال له أنه مال ، وقوله الحق

﴿ .. ما سبقكم بها من أحد من العالمين ﴿٨﴾ ﴾ [سورة الأعراف]

يعني أنه لم يسبقكم أي أحد من بداية ما يقال له أحد ، وسبحانه يريد بذلك أن ينفيها أكثر ، و«من» التي في قوله ﴿ من العالمين ﴾ هي تبعيضية أي ما سبقكم بها أحد من بعض «العالمين» . فما هذا الأمر ؟ لقد سماها فاحشة ، وهي تزيد في القبح ووصفة لها بأنها لم يأتها أحد من العالمين جعلها مسألة فظيعة للغاية

لأننا حين نبحث هذه المسألة بحثاً عقلياً نجد أن الإنسان مخلوق كخليفة في الأرض وعليه استبقاء نوعه ؛ لأن كل فرد له عمر محدود ، ويخلف الناس بعضهم بعضاً ، ولابد من بقاء النوع ، وقد ضمن الله للإنسان الأقوات التي تبقيه ، وحلل له الزواج وسيلة لإبقاء النوع ، ومهمة الخلافة تفرض أن يخلف بعضنا بعضاً

وكل خليفة يحتاج إلى اقتيات وإلى إنجاب و«الاقتيات» خلقه الله في الأرض التي قدر فيها أقواتها

والنوع البشري جعل منه سبحانه الذكر والأنثى ومنهما يأتي الإنجاب الخلافي ؛ فهو محمول أولاً في ظهر أبيه نطفة ، ثم في أمه جنيناً ثم تضعه لترعاه مع والده ويربيه الاثنان حتى يبلغ رشده . وهذه خمس مراحل ، وكل مرحلة منها شاقة ،

فحمل الأم في الحمل تسعة شهور هو أمر شاق ، لأن الإنسان منذ حمل شيئاً طوال النهار سيصاب بالتعب ، لكن لأم تحمل الجنين تسعة أشهر ، وأراد الله أن يكون الحمل انسيابياً بمعنى أن الجنين في بدايته الأولى لا يبلغ وزنه إلا أقل القليل ، ثم يكبر بهدوء وبطء لمدة ستة شهور حتى يكتمل نموه .

وهذا الجنين كان صغيراً في بدء تكوينه ، ثم صار وزنه غالباً ثلاثة كيلو جرام في يوم ولادته ، وبين بدء تكوينه إلى لحظة ميلاده هناك فترة زمنية ينمو فيها هذا الجنين تدريجياً ، وبشكل انسيابي ، فهو لا يزيد في الوزن كل ساعة ، بل ينمو في كل جزء من المليون من الثانية بمقدار يناسب هذا الجزء من الثانية ، وهذا يعني أن الجنين ينمو انسيابيا بما يناسب الزمن .

نلحظ ذلك أيضاً في أثناء التدريب على رياضة حمل الأثقال أنهم لا يدربون اللاعب الناشيء على حمل مائة كيلو جرام من أول مرة بل يدربونه على حمل عشرين كيلو جراماً في البداية ، ثم يزاد الحمل تدريجياً بما لا يجعل حامل الأثقال في عنت ، ويسمون ذلك انسيابية التدريب ؛ لأن حمل هذه الأثقال يحتاج إلى تعود ، ولهذا لا يتم تدريبه على حمل الأثقال فجأة ، بل بانسياب بحيث لا يدرك الزمن مع الحركة ، كذلك النمو ، فأنت إذ نظرت إلى طفلك الوليد ساعة تلده أمه ، وسافرت جداً ثم طفلك تنظر إليه دائماً ، فهو لا يكبر في نظرك أبداً ؛ لأنه ينمو بطريقة غير محسوسة لديك ، لكنك لو غبت شهراً عنه وتعود لرؤيته ستدرك نموه ، وهذا النمو الزائد قد تجمع في الزمن الفاصل بين آخر مرة رأيته فيها قبل غيابك وأول مرة تراه بعد عودتك .

ومن لطف الله -إذن- في الحمل أن الجنين ينمو انسيابياً ، ولذلك يزداد الرحم كل يوم من بدء الحمل إلى آخر يوم فيه ، وترى الأم الحامل ، وهي تسير بوهن وتعب في حركتها ، ثم يأتي الميلاد مصحوباً بمتاعب الولادة والآمها ، وبعد أن يولد المولود تستقبله رعاية أمه وأبيه ، ويأخذ سنوات إلى أن يبلغ الرشد . ومعلوم أن أصعب الأجناس طفولة هو الإنسان ، ولذلك نجد الأب الذي يريد الإنجاب يتحمل

مع الأم متاعب التربية ، وقد قرن الله هذا الأمر بشهوة ، وهي أعنف شهوة تأتي من الإنسان ، وبعد ميلاد الطفل تجد المرأة تقول : لن أحمل مرة أخرى ، ولكنها تحمل بعد ذلك .

إذن كأن الشهوة هي الطُّعم الموضوع في المصيدة ليأتي بالصيد وهو الإنجاب ؛ لذلك قرن الحق الإنجاب بالشهوة لتقبل عليها ، وبعد أن نقبل عليها ، وتتورط فيها نتوفر ونبذل الجهد لتربي الأولاد . فإذا أنت عزلت هذه الشهوة عن الإنجاب والامتداد تكون قد أحللت وملت عن سنة الكون ، لأنك ستأخذ اللذة بدون الإنجاب ، وإذا تعطل الإنجاب تعطلت خلافة الأرض ، والشيء الآخر أن الرجل في الجماع يلعب دور الفاعل ، وفي الشذوذ وهو العملية المضادة التي فعلها قوم لوط ينقلب الرجل إلى منفعل بعد أن كان فاعلاً

﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

والفاحشة هي العملية الجنسية الشاذة ، ولم يحددها سبحانه من البداية كدليل على أنها أمر معلوم بالفطرة ، فساعه يقول : ﴿ أتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين ﴾ يعرفون ما فعلوا . وإن افترضنا أن هناك أغبياء أو من يدعون الغباء ويرفضون الفهم ، فقد جاء بعدها بالقول الواضح :

﴿ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾ ﴾

والإسراف هو تجاوز الحد ، والله قد جعل للشهوة لديك مصرفاً طبيعيًا منجبا ، وحيث تأخذ أكثر من ذلك تكون قد تجاوزت الحد ، ولقد جعل الله للرجل امرأة من جنس البشر وجعلها وعاء للإنجاب ، وتعطيك الشهوة وتعطيها أنت الشهوة ، وتعطيك الإنجاب ، وتشتركان من بعد ذلك في رعاية الأولاد . وأي خروج

عما حدده الله يكون الدافع إليه هو الشهوة فحسب لكي يبغى أن يكون الدافع إلى هذه العملية مع الأنثى هو الشهوة والإنجاب معا ؛ لبقاء النوع ، ولذلك وصف الحق فعل قوم لوط . ﴿ .. بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾ ﴾. ويأتي الحق سبحانه بما أجابوا به عن سؤال سيدنا لوط :

﴿ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾

وبذلك تمادى هؤلاء القوم رافضين أن يقبح أحد لهم الشذوذ ؛ لذلك قالوا : ﴿ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ .. ﴿٨٢﴾ ﴾ .

وما هي الحجة التي من أجلها إخراج لوط والذين آمنوا معه من القرية ؟

﴿ .. أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ [سورة الأعراف]

فهل التطهر عيب ؟ لا ، لكنهم عاشوا في النجاسة والقذارة ، ويرفضون الخروج منها ، لذلك كرهوا التطهر والمثال على ذلك حين نجد شاباً يريد أن ينضم إلى صداقة جماعة في مثل عمره ، لكنه وجدهم يشربون الخمور ، فنصحهم بالابتعاد عنه ، ووجدهم يعازلون النساء فحذرهم من معية الخوض في أعراض الناس ، لكن جماعة الأصدقاء كرهت وجوده بينهم لأنه لم يألف الفساد فيقولون : لنبتعد عن هذا المستقيم المتزهد المتقشف ، وكأن هذه الصفات صارت سُبّة في نظر أصحاب المزاج المنحرف ، مثلهم مثل الحيوان الذي يحيا في القذارة ، وإن خرج إلى النظافة يموت .

ويقول الحق بعد ذلك

﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٨٣﴾﴾

وهم حين أرادو طرد لوط وأهله ، إنما كانوا يجازون.

إنهم بذلك قد تعجلو العقاب ، وجاءهم العقاب وأنجى الحق سبحانه لوطاً وأهله بتدبير حكيم لايحتاج فيه سبحانه إلى حد ، وإذا تساءل أحد : ومن هم أهل لوط الذين أنجاهم الله معه ؟ أهم أهل النسب أم أهل التدين والتبعية ؟ إن كان أهله بالنسب فالحق يستثني منهم «إمرأته» ، وهذا دليل على أن أهل البيت آمنوا بما قاله لوط وكذلك الأتباع أيضاً ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾

إذن كان مع لوط أيضاً بعض من أهله وبعض من الأتباع ، وكانوا من المتطهرين ، والتطهر هو أن يترفع الإنسان عن الرجس والسوء ولذلك نجد سيدنا شعيباً حين ينصح قومه :

﴿فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ ﴿٨٥﴾﴾ [سورة الأعراف]

ويتعجب القوم سائلين شعيباً :

﴿أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا ﴿٨٧﴾﴾ [سورة هود]

إنهم يتعجبون من أن الصلاة تنهى عن ذلك ، لقد أعمى ضلالهم بصيرتهم ، فلم يعرفو أن الصلاة تنهى عن كل شيء وكذلك فعل بعض من الكافرين حين اتهموا سيدنا رسول الله بأنه مجنون :

﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿٦﴾﴾ [سورة الحجر]

ومن قولهم يتأكد غباء تفكيرهم ، فمادامو قد قالوا : ﴿ نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ ﴾ فمن الذي نزل هذا الذكر؟ ، والذكر هو القرآن ، والذي نزله هو الله - سبحانه وتعالى - فكيف يعترفون بالقرآن كذكر ، ثم يتهمون الرسول بأنه «مجنون» ؟ ، لأنهم مادموا قد قالوا عن القرآن إنه ذكر ، وإنه قد نزل عليه ، ولم يأت به من عنده ، فكيف يكون مجنوناً؟ إنهم هم الكاذبون ، وقولهم يؤكد أن فكرهم نازل هابط .

وفي الآية التي نحن بصدد حوطرنا عنها نجد الحق يقول سبحانه :

﴿ فَأَنجَيْنَـٰهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَـٰبِرِينَ (٨٣) ﴾ [سورة الأعراف]

إن إمرأة سيدنا لوط لم تدخل في الإنجاء لأنها من الغابرين ، و«غبر» تأتي بمعان متعددة ، فهي تعني إقامة ومكث بالمكان ، أو تعني أي شيء مضى ، كما يقال : هذا الشيء غبرت أيامه ؛ أي مضت أيامه ، ولسائل أن يقول : كيف تأتي الكلمة الواحدة للمعنى ونقيضه ؟ فغبر تعني بقي ، وغبر أيضاً تعني مضى وانتهى . نقول : إن المعنى ملتق هنا في هذه الآية ، فمادام الحق ينجيه من العذاب الذي نزل على قوم لوط في القرية فنجد زوجته لم تخرج معه ، بل بقيت في المكان الذي نزل فيه العذاب ، وبقيت في الماضي ، وهكذا يكون المعنى ملتقياً . فإن قلت مع الباقين الذين أتاهم العذاب فهذا صحيح ، وإن قلت إنها صارت تاريخاً مضى فهذا صحيح أيضاً : ﴿ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴾ .

ونحن لا ندخل في تفاصيل لماذا كانت امرأته من الغابرين ؛ لأن البعض تكلم في حقها بما لا يقال ، وكأن الله يدلس على نبي من أنبيائه ، لا ، نحن لا نأخذ إلا ما قاله الحق بأنها كانت مخالفة لمنهجه وغير مؤمنة به .

ونلحظ أيضاً أن الحق تحدث عن امرأة نوح وامرأة لوط في مسألة الكفر ؛ فقال :

﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَـٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا ..(...) ﴾ [سورة التحريم]

ودقق النظر فى كلمة ﴿ تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما ﴾ وتساءل البعض عن معنى الخيانة وهل المقصود بها الزنا ؟ . ونقول . ربنا لا يدلس على نبى له ، لكن أن تؤمن الزوجة أو تكفر ، فهذه مسألة اختيارية وكان الله سبحانه يوضح لنا أن الرسول مع أنه رسول من الله إلا أنه لا يستطيع أن يفرض إيمانا على امرأته ، فالمسألة هى حرية الاعتقاد . وانظر إلى التعبير القرآنى : ﴿ ضرب الله مثلا للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط ﴾ .

إياك أن تظن أن أيًا منهما كانت متكبرة على زوجها ، لأن الحق يقول : ﴿ كانتا تحت عبدين من عبادنا ﴾ أى أن إمرة وقوامة الرجل مؤكدة عليها ، يشير إلى ذلك قوله : ﴿ كانتا تحت عبدين ﴾ لكن الإيمان هو مسألة اختيار ، وهذا الاختيار متروك لكل إنسان ، وأكد الحق ذلك فى مسألة ابن سيدنا نوح :

﴿ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ﴾

(من الآية ٤٦ سورة هود)

وحاول البعض أن يلصق تهمة الزنا بامرأة نوح وامرأة لوط ، وهم فى ذلك يجانبون الصدق ، إنه محض افتراء ، وقد نبهنا الحق إلى ذلك فقال عن امرأة نوح وامرأة لوط .

﴿ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا ﴾

(من الآية ١٠ سورة التحريم)

ولنفهم أن الاختيار فى العقيدة هو الذى جعلهما من الكافرين ، وأن الرسولين نوحاً ولوطاً لم يستطيعا إدخال الإيمان فى قلبى الزوجتين ، حتى يتأكد لدينا أن العقيدة لا يقدر عليها إلا الإنسان نفسه . ولذلك ضرب سبحانه لنا مثلاً آخر :

﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١١﴾ ﴾

(سورة التحريم)

فهذه زوجة فرعون المتجبر ، الذى « ادّعى الألوهية » ، لكنه لا يقدر أن يمنع

امرأته من أن تؤمن بالله ، وهكذا نجد نبيًّا لا يقدر أن يقنع امرأته بالإيمان ، ونجد مدّعي الألوهية عاجزاً عن أن يجعل امرأته كافرة مثله ، وهذا يدل على أن العقيدة أمر اختياري محمي بكل أنواع الحماية ؛ حتى لا يختار الإنسان دينه إلا على أساس من اقتناعه لا على أساس قهره .

وضرب الله مثلاً آخر :

﴿ وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ ﴾

(من الآية ١٢ سورة التحريم)

ونلاحظ أن الحق لم يأت بأسماء زوجتي نوح ولوط ، وكذلك لم يأت باسم امرأة فرعون ، لكنه أورد لنا اسم مريم واسم والدها . فلماذا كان الإبهام أولاً ؟ لنعلم أنه من الجائز جدًّا أن يحصل مثل هذا الأمر لأي امرأة ، فقد تكون تحت جبار وكافر ، وتكون هي مؤمنة ، وقد تكون تحت عبد مؤمن ولا يلمس الإيمان قلبها .

﴿ فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

فكلمة « أنجيناه » تشير إلى أن عذاباً سيقع في المكان الذي فيه قوم لوط ، ولأنه سبحانه شاء أن يعذب جماعة ولا يعذب جماعة أخرى ، فلابد أن يدفع الجماعة التي كتب لها النجاة إلى الخروج . وهذا الخروج أراده لهم من يكرهونهم ، فقد قالوا

﴿ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾

(من الآية ٨٢ سورة الأعراف)

لكن ربنا هو الذي أخرجهم ، والإخراج كان من العذاب الذي نزل بهؤلاء المجرمين ؛ إنه كان لإنجاء لوط وأهله مما نزل بهؤلاء الفجرة

ويأتي العذاب من الحق :

﴿ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾ ﴾

فهل كان ذلك المطر مثل المطر الذى ينزل عادة ؟ لا ، بل هو مطر من نوع آخر . فسبحانه يقول .

﴿ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾

[سورة الذاريات]

يقول الحق . إنه سيعذبهم بالمطر ، فلتنتبه أنه ليس المطر التقليدى ، بل إنه يعذبهم ويستأصلهم بنوع آخر من المطر .

وقوله : «فانظر» أى فاعتبر يا من تسمع هذا النص ، وهذه القصة تبين وتوضح أن الله لايدع المجرمين يصادمون دعوة الله على لسان رسله دون عقاب

ويقول سبحانه .

﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾

و«مدين» هو ابن من أبناء سيدنا إبراهيم جاء واستقر في هذا المكان ، فهو علم على شخصه ، وعلم على المكان الذي أقام فيه وسمي المكان باسمه ، فلما تكاثر أبناؤه وصاروا قبيلة أخذت القبيلة اسمه ، إذن فـ«مدين» اسم عَلَمٌ على ابن إبراهيم ، وأطلق على المكان الذي استقر فيه من طور سيناء إلى الفرات ، وأطلق على القبيلة : ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ﴾

الحق سبحانه وتعالى قد يكرر «أخ» ليبين لك : أنه إذ قسا عليهم مرة فسيحنو عليهم مرة أخرى ؛ لأنهم إخوة له ومأنوس بهم ، وفيهم عاش ويعرفون عنه كل شيء ، وكان مدين قد تزوج من رتبة ابنة سيدنا لوط ، وحين تكاثر الاثنان صاروا قبيلة ، ويبلغهم سيدنا شعيب بالقضية المنهجية التي يبلغها كل رسول :

﴿ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ﴾ .

والعبادة هي الطاعة للأمر والطاعة للنهي ، وأنت لا تطيع أمر آمر ولا نهي ناه إلا إذا كان أعلى منك ، لأنه إن كان مساويا لك ، فبعد أن يقول لك «افعل كذا» ستسأله أنت . لماذا ؟ ، وبعد أن ينهاك عن شيء ستسأله أيضاً لماذا ؟ . لكن الأب حينما يقول لطفله : لا تفعل الشيء الفلاني ، فالابن لا يناقش ؛ لأنه يعرف أن أباه هو من يطعمه ويشربه ويكسوه ، وحين يكبر الطفل فهو يناقش ؛ لأن ذاتيته تتكون ، ويريد أن يعرف الأمر الذي سيقدم عليه

﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ .. ﴿٨٥﴾ ﴾ [سورة الأعراف]

ومادام قد قال لهم : ﴿ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ﴾ فهو رسول قادم ومرسل من الله ، ولابد أن تكون معجزة يثبتها ، إلا أن شعيباً لم يأت لنا بالمعجزة ، إنما جاء بالبينة .

﴿ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ .. ﴿٨٥﴾ ﴾ [سورة الأعراف]

لأن كل المعاصي والكفر تدفع إلى الإخلال في الكيل والميزان ، وإذا كان شعيب قد قال ذلك لقومه فلابد أن الإخلال في الكيل والميزان كان هو الأمر الشائع فيهم . فيأتي ليعالج الأمر الشائع . وهم كانوا يبخسون الكيل والميزان .

ويظن الناس في ظاهر الأمر أنها عملية سهلة ، وأن القبح فيها قليل ، والاختلاس فيها هين يسير ، فحين يبخس في الميزان ولو بجزء قليل ، إنما يأخذ لنفسه في آخر الأمر جزءاً كبيراً . وأنت ساعة تكيل وتزن وتطفف فأنت تفعل ذلك في من يشتري . وستذهب أنت بعد ذلك لتشتري من أناس كثيرين سيفعلون مثلما فعلت ، فإذا ماوفيت الكيل والميزان ، فأنت تفعل ماهو في مصلحتك ، لأنك تنشر العدل السلوكي بين الناس بادئاً بنفسك ، ومصالحك كلها مع الآخرين

إنك حين تبيع أي سلعة ولو كانت بلحاً وتنقص في الميزان ، ستحقق لنفسك ربحاً ليس لك فيه حق ، وإن كنت تكيل قمحاً لتبيعه وأنقصت الكيل ، فأنت تأخذ ماليس لك ، والقمح والبلح هما بعض من مقومات حياتك ؛ لأنك تحتاج إلى سلع كثيرة عند من يزن ، وعند من يكيل ، فإن أنقصت الميزان أو الكيل فالسوف يفعلون مثلما فعلت فيما يمكرون لك ، وبذلك تخسر أنت ويصبح الخسران عاماً

﴿ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ .. ﴿٨٥﴾ ﴾ [سورة الأعراف]

وإذا كانت الخسارة في الكيل والميزان طفيفة ومحتملة ، فمن باب أولى ألا تبخس الناس أشياءهم فلا تظلمهم بأخذ أموالهم والاستيلاء على حقوقهم ، فلا تسرف لأن السارق يأخذ ماتصل إليه يده ، ولا تغضب ، ولاتختلس ، ولاترتشي ، لأنه إذا كان وفاء الكيل هو أول مطلوب الله منكم مع أن الخسارة فيه طفيفة ، إذن فبخس الناس أشياءهم يكون من باب أولى .

ويتابع سبحانه

﴿ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا .. ﴿٨٥﴾ ﴾ [سورة الأعراف]

وبذلك يكون أمام أكثر من أمر جاء بها نبي الله شعيب . ﴿ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ﴾ وهذه العبادة لتربي فيهم مهابة وتريدهم حباً واحتراماً للأمر الأعلى ،

وكذلك ليحافوا من جبروته سبحانه . وبعد ذلك ضرورة يكون الأمر بالوفاء بالكيل والميزان ، والزجر عن أن يبخسوا الناس أشياءهم ، ثم النهى والتحذير من الإفساد فى الأرض ﴿ ولا تفسدوا فى الأرض بعد إصلاحها ﴾ ، والإصلاح الذى يعلمه الله منا أن نستديمه أو نرقيه إنما يتأتى بإيجاد مقومات الحياة على وجه جميل .

مثال ذلك الهواء وهو العنصر الأول فى الحياة المسخرة لك ، يصرّفه سبحانه حتى لا يفسد . والنعيم الثانى فى الحياة وهو الشراب ؛ إنه سبحانه ينزل لك الماء من السماء ، ثم القوت الذى يخرجه لك من الأرض والمواشى التى تأخذ منها اللبن ، والأوبار ، والأصواف ، والجلود ، كل ذلك سخره الله لك ، وهذا إصلاح فى الأرض ، لكن هل هذه كل المقومات الأساسية ؟ لا ؛ لأنه إن وجدت كل هذه المقومات الأساسية ثم وجد الغصب ، والسرقة ، والرشوة ، والاختلاس ، فسيفسد كل شىء ، ولا يعدل كل ذلك ويقيمه ويجعله سويا إلا الدين ؛ لأنه كمنهج يمنع الإفساد فى الأرض .

﴿ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ﴾

(من الآية ٨٥ سورة الأعراف)

إذن فهذه الأشياء التى هى إيفاء الكيل والميزان يأتى الأمر بها ، ثم يتبعها بما ينهى عنه وهو ألا يبخس الناس أشياءهم وألا تفسد فى الأرض بعد إصلاحها ، كل ذلك يجمع المنهج . أوامر ونواهى ، وقد يبدو فى ظاهر الأمر أنها مسائل تقيد حرية الإنسان ، فمثلا لا تنظر إلى نفسك أيها الإنسان وأنت بمعزل عن المجتمع الواسع ، فأنت لا تملك من مصالحك إلا أمرا واحدا ، وهذا الأمر الذى تملكه أنت من مصالحك يكون أقل الأشياء عندك ، ولكن الأمور الأخرى التى تحتاج إليها هى بيد غيرك ، فإن أنت وفيت الكيل والميزان . فذلك خير لك ؛ فالذى يقيس لك القماش لا يغشك ، والذى يزن لك ما ليس عندك لا يغشك ، والذى يكيل لك الذى ليس عندك لا يغشك ، إذن فأنت واحد منهى عن أن تفعل ذلك ، وجميع الناس منهيون أن يعملوا ذلك معك ، وبذلك تكون أنت الكاسب

وإذا جئت إلى قوله تعالى: ﴿ولا تبخسوا الناس أشياءهم﴾، فأنت مأمور ألا تبخس الناس أشياءهم، وكل الناس مأمورون ألا يبخسوك شيئاً، وإذا أفسدت في الأرض بعد إصلاحها فالناس مأمورون أيضاً ألا يفسدوا هذه الأرض وبذلك تكون احفظ منهم في كل شيء. ولذلك يجب على كل مكلف حين يستقبل تكليفاً قد يكون شاقاً على نفسه أن يتأمل هذا التكليف وأن يقول لنفسه إياك أن تنظر إلى مشقة التكليف على نفسك، ولكن انظر إلى ما يؤديه لنفسه: إياك أن تنظر إلى التكليف لك. لا تنظر إلى محارم غيرك، فقد أمر غيرك ألا ينظر محارمك، وفي هذا عزة لك. وإذا أمرك التكليف ألا تضع يدك في جيب غيرك وتسرق، فقد أمر كل الناس ألا يضعوا أيديهم في جيوبك ليسرقوك، وبهذا تعيش في أمان

وإذا طلب التكليف منك وأنت غني أن تخرج زكاة مالك إياك أن تقول: مالي وتعبي وعرقي؛ لأن المال مال الله، وأنت كإنسان مخلوق ليس لك إلا توجيه الحركة، والحركة تكون بطاقة مخلوقة لله، والعقل الذي خطط مخلوق لله، والانفعال الذي انفعل لك في الأرض من خلق الله، ولكن الحق احترم عملك وناتجه وفرض عليك أن تخرج منه زكاة مقدرة. فإياك أن تقول: إنه يأخذ مني. لماذا؟ لأن عالم الأغيار باد وظاهر أمامك، وكم رأيت من قوي ضعف، ومن غني افتقر، فإذا كان سبحانه قد طلب منك أن تعطي الفقير وتقويه، فإن افتقرت فسيعوض لك ذلك، وفي ذلك تأمين حياتك؛ لأنك تعيش في مجتمع فلا تأس على نفسك إن مرت بك الأغيار لأن مجتمعك الإيماني لن يتركك، أنت أو أولادك، ويقول الحق:

﴿وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافا خافوا عليهم فليتقوا الله وليقولوا قولا سديدا ﴿٩﴾﴾ [سورة النساء]

فإن أردت أن تطمئن على أولادك الصغار بعد موتك فانظر للأيتام في مجتمعك وكن أبا لهم، وحين تصير أنت أبا لهم، وهذا أب لهم، وذلك أب لهم، سيشعر اليتيم أنه فقد أبا واحداً، لكنه يحيا في مجتمع إيماني أوجد له من كل المؤمنين

أباء، فلا يحزن، وكذلك لن تخاف أنت على أولادك إن صاروا أيتاماً بعد أن غادرتهم إلى لقاء ربك؛ لأنك رعيت اليتامى وعشت في مجتمع يرعاهم، ولكنك تحزن عندما ترى يتيماً مضيعاً في مجتمع لا يقوم على شأنه وتقول لنفسك: أنا إن مت سيضيع أبنائي هكذا.

وهكذا تكون تكاليف الإيمان هي تأميناً للحياة، ومثال ذلك حين تقول للمرأة: تحجبي، ولا تبدي زينتك لغير محارمك، قد تظن المرأة في ظاهر الأمر أننا ضيقنا على حريتها، لأنها تنسى أن المنهج يؤمن لها قبح الشيخوخة، لأنها حين تتزوج صغيرة، ثم يصل عمرها فوق الأربعين ويتغير شكلها من متاعب الحمل وتربية الأبناء، ثم يرى زوجها فتاة في العشرين وغير محتشمة قد تفتنه وتصرفه عن زوجته، وينظر إلى زوجته نظر غير المكترث بها، وغير الراغب فيها. فالشرع قد أمر بالحجاب للمرأة وهي صغيرة؛ ليصون لها زوجها إن صارت كبيرة غير مرغوب فيها، فإن منعها وهي صغيرة فقد منع عنها وهي كبيرة؛ كل ذلك إذن من تأمينات المنهج للحياة.

إذن فإيفاء الكيل، وعدم إبخاس الناس أشياءهم وعدم الإفساد في الأرض بعد إصلاحها خير للجميع في الدنيا، بالإضافة إلى خير الآخرة، ولذلك يذيل الحق الآية الكريمة بقوله:

﴿.. ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [سورة الأعراف]

و«ذلكم» إشارة إلى ما سبق من الأمر بعبادة الله فلا إله غيره وإلى الأمر باستيفاء الكيل والميزان، وألا يبخس الناس أشياءهم، وألا تفسد في الأرض بعد إصلاحها، ووضع الحق ذلك في إطار ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ على الرغم من أن الخير سيأتي أيضاً لغير المؤمن، وهكذا تكون كلمة «خير» تشمل خيراً في الدنيا، وخيراً في الآخرة للمؤمن فقط. أما الكافر فسيأخذ الخير في الدنيا فقط، ولا خير له في الآخرة، فإن كنتم مؤمنين فسيضاعف الخير لكم ليصير خيراً دائماً في الدنيا والآخرة.

ويقول الحق بعد ذلك:

﴿ وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَاذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾

وقوله : ﴿ ولا تقعدوا بكل صراط ﴾ أى لا تقعدوا على كل طريق ، لأن من يقعد على الطريق قد يمنع من يحاول الذهاب ناحية الرسول . والشيطان قد قال :

﴿ لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾

(من الآية ١٦ سورة الأعراف)

فحين تقعدون على كل صراط يصير كل منكم شيطاناً والعياذ بالله ؛ لأن الشيطان قال لربنا . ﴿ لأقعدن لهم صراطك المستقيم ﴾ ، وهنا ينهى الحق عن القعود بكل صراط ؛ لأن الصراط سبيل ، وحين يجمع الحق السبل لينهى عنها ، إنما ليذكرنا أن له صراطاً مستقيماً واحداً ، وسبيلا واحداً يجب علينا أن نتبعه . ولذلك يقول :

﴿ فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ﴾

(من الآية ١٥٣ سورة الأنعام)

إذن فللشيطان سبل متعددة وسبيل الاستقامة واحد ، لأن للطرق المتعددة غوايات متنوعة ، فهذا طريق يغوى بالمال ، وذلك يغوى بالمرأة ، وذاك يغوى بالجاه . إذن فالغوايات متعددة .

أو أن الهداية التى يدعو إليها كل رسول شائعة فى كل ما حوله ، فمن يأتى ناحية أى هداية يجد من يصده . ومن يطلب هداية الرسول يلقى التهديد والوعيد ، والمنع عن سبيل الحق . ولماذا يفعلون ذلك ؟ تأتى إجابة الحق : ﴿ وتبغونها عوجا ﴾ .

إنهم يبغون ويودون شريعة الله معوجة ومائلة وزائغة عن الاستقامة ، أو تصفونها بأنها غير مستقيمة لتصدوا الناس عن الدخول فيها ،ولتنفروا منها ، مثال ذلك السخرية من تحريم الخمر والادعاء بأنها تعطى النفس السرور والانسجام . إن الواحد من هؤلاء إنما ينفر من شريعة الله ، ويدعى أنها شريعة معوجة ، فنجد من يحلل الربا ؛ لأن تحريم الربا فى رأيهم السقيم المنحرف يضيق على الناس فرصهم . إنهم يبغون شريعة الله معوجة ليستفيدوا هم من اعوجاجها ، وينفروا الناس منها .

﴿ وَاذْكُرُوٓاْ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ ۖ وَانظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾

(من الآية ٨٦ سورة الأعراف)

نعلم أن كل ردع ، وكل توجيه يهدف إلى أمرين اثنين . ترغيب وترهيب ، وعلى سبيل المثال نجد المدرس يقول لتلاميذ . من يجتهد فسنعطيه جائزة ، وهذا ترغيب ، ويضيف الأستاذ قائلاً للتلاميذ : ومن يقصر فى دروسه سنفصله من المدرسة ؛ وهذا ترهيب . وما دام الناس صالحين لعمل الخير ولعمل الشر بحكم الاختيار الممنوح فيهم لله فلا بد من مواجهتهم بالأمرين بالترغيب فى الخير والترهيب من الشر .

والحق هنا يقول فى الترغيب : ﴿ واذكروا إذ كنتم قليلاً فكثركم ﴾

وكأنه يطالبهم بأن يكونوا أصحاب ذوق وأدب ، فنحن نعلم أن مدين تزوج وأنجب عدداً من الذرية وكانوا قلة فى العدد فكثرهم حتى صاروا قبيلة ، وكانوا ضعافاً فقواهم ، وكانوا فقراء فأغناهم ، فمن صنع فيكم ولكم كل هذه المسائل ألا يصح أن تطيعوا أوامره . كان عليكم أن تطيعوا أوامره . وهذا ترغيب وتحبين .

ونعلم أن شعيباً هو خامس نبى جاء بعد نوح ، وهود ، وصالح ، ولوط . لذلك يذكرهم الحق بما حدث لمن كذبوا الأنبياء الأربعة السابقين . ولقد يكون قوم نوح معذورين لأنهم كانوا البداية ، فلم يسبقهم من أخذ بالعذاب لتكذيب رسلهم ، ثم صارت من بعد ذلك قاعدة هى أن من يكذب الرسل يلقى العذاب ، مصداقا لقوله الحق :

﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ ... ﴿٤﴾ ﴾ [سورة العنكبوت]

فإذا كان شعيب ينذرهم بأن ينظروا كيف كان عاقبة المفسدين ممن سبقوهم فهذا تذكير بمن أغرقهم ومن أخذتهم الصحبة ، ومن كفأ وقلب ودمر ديارهم ، ومن جاء لهم بمطر من سجيل ، فإن لم يعرفوا واجبهم نحو الله الذي أنعم عليهم بأن كانوا قليلاً فكثرهم ، فعليهم أن يخافوا عاقبة المفسدين إذن فقد جمع لهم بين الترغيب والترهيب

ويقول الحق بعد ذلك

﴿ وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ فَٱصْبِرُوا۟ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾

وهذا القول يوضح لنا أن طائفة آمنت ، وطائفة لم تؤمن ، ثم جاء الأمر للطائفتين ، فأمر المؤمنين بالصبر تأنيس لهم ، وأمر الكافرين بالصبر تهديد لهم

وهذه دقة القرآن في الأداء وعظمة البيان والبلاغة إذن ، فكلمة . اصبروا نفعت في التعبير عن الأمر بالصبر للذين آمنوا ، ونفعت في كشف المصير الذي ينتظر الذين لم يؤمنوا ، فصبر الكافرين مآله وعاقبته ، إما أن يخجلوا من أنفسهم فيؤمنوا ، وإما أن يجدوا العذاب ، وصبر المؤمنين يقودهم إلى الجنة ، وأن الذي يحكم هو الله وهو خير الحاكمين ؛ لأن المحكوم عليهم بالنسبة له سواء ، فلا أحد منهم له أفضلية على أحد ولا أحد منهم قريبه ، وإلا قرابة القربى والزلفى إليه ، وسبحانه هو العادل بمطلق العدل ، ولا يظلم أحداً .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾﴾

علمنا من قبل أن الملأ هم السادة، والأعيان الذين يملأون العيون هيبة، ويملأون القلوب هيبة، ويملأون الأماكن تحيراً. وقد استكبر الملأ من قوم شعيب عن الإيمان به، وطغوا وهددوه بأن يخرجوه من أرضهم. وقالوا مثلما قال من سبقوهم: فقد نادى بعض من قوم لوط بأن يخرجوا لوطاً ومن آمن معه من قريتهم. قال تعالى:

﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [سورة النمل]

وكلمة «قرية» تأخذ في حياتنا وضعاً غير وضعها الحقيقي، فالقرية الآن هي الموقع الأقل من المدينة الصغيرة. لكنها كانت قديماً البلد الذي توجد فيه كل متطلبات الحياة، بدليل أنهم كانوا يقولوا عن مكة «أم القرى». وقد وضع الملأ شعيباً ومن آمن معه بين أمرين: إما أن يخرجوهم حتى لا يفسدوا من لم يؤمن فيؤمن، وإما أن يعودوا إلى الملة.

وهنا «لفته لفظية» أحب أن تنتبهوا إليها في قوله: ﴿أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا﴾ لأن العود يقتضي وجوداً سابقاً خرج عنه، ونريد أن نعود إلى الأصل، فهل كان شعيب والذين آمنوا معه على ملتهم ثم آمنوا والمطلوب منه الآن أنهم يعودون؟

علينا أن ننتبه إلى أن الخطاب هنا يضم شعيباً والذين معه. وقد يصدق أمر العودة إلى الملة القديمة على الذين مع شعيب، ولكنها لا تصدق على شعيب لأنه نبي مرسل، وهنا ننتبه أيضاً إلى أن الذي يتكلم هنا هم الملأ من قوم مدين،

وضعوا شعيباً والذين آمنوا معه أمام اختيارين . إما العودة إلى الملة ، وإما الخروج ، ونسوا أن الحق قد يشاء تقسيماً آخر غير هذين القسمين فقد يوجد ويريد سبحانه أمراً ثالثاً لا يخرج فيه شعيب والذين آمنوا معه ، وأيضاً لا يعودون إلى ملة الكفر ، كأن ثانى كارثة تمنع ذلك .

لقد عزل الملأ من قوم شعيب أنفسهم عن المقادير العليا ، لأن الله قد يشاء غير هذين الأمرين ، فقد يمنعكم أمر فوق طاقتكم أن تُخرجوا : شعيباً ومن آمن معه ؛ بأن يصيبكم ضعف لا تستطيعون معه أن تخرجوهم ، أو أن يسلط الله عليكم أمراً يفنيكم وينجى شعيباً والذين آمنوا معه إذن أنت أيها الإنسان الحادث ، العاجز لا تفتئت ولا تفترى وتختلق على القوة العليا فى أنك تخير بين أمرين قد يكون لله أمر ثالث لا تعلمه ، وياتى الرد على لسان مَن آمنوا مع شعيب .

﴿ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴾

(من الآية ٨٨ سورة الأعراف)

لقد سأل شعيب والذين معه . أيمكن أن يتم قهر أحد على أن يترك الإيمان إلى الكفر ، كأن الكافرين قد نسوا أن التكليف مقصور فى الاختيار ، فالإنسان يختار بين سبيل الإيمان وسبيل الكفر .

ويتابع القول من شعيب والذين آمنوا معه :

﴿ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۗ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾

وقولهم : ﴿ قد افترينا على الله كذباً إن عدنا فى ملتكم ﴾ أى أنهم يعلمون أن

العودة إلى مثل هذه الملة لون من الكذب المتعمد على الله لأن الكذب أن تقول كلاماً غير واقع ، وتعين قضية غير حقيقية إن أنت قلتها على مقتضى علمك فهذا مطلق كذب . لكن إن كنت عارفاً بالحقيقة ثم قلت غيرها فهذا افتراء واختلاق وكذب . والذين آمنوا مع شعيب عليه السلام يعلمون أن الملة القديمة ملة باطلة ، وهم قد شهدوا مع شعيب حلاوة الإيمان بالله ، لذلك رفضوا الكذب المتعمد على الله . ويقولون بعد ذلك :

﴿ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ﴾

(من الآية ٨٩ سورة الأعراف)

قد عرفوا أن التكليف اختيار وهم قد اختاروا الإيمان ، وأقروا وأكدوا إيمانهم بأنه سبحانه له طلاقة القدرة ، فقالوا ﴿ إلا أن يشاء الله ﴾ . فمشيئته سبحانه فوق كل مشيئة . ألم يقل رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« إن قلوب بني آدم كلها بين أصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد يصرفه حيث شاء »[1] .

وألم يقل سيدنا إبراهيم وهو أبو الأنبياء والرسل .

﴿ وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ ﴾

(من الآية ٣٥ سورة إبراهيم)

لم يقل : وجنبنا . بل قالها واضحة ودعا ربه أن يبعده وبنيه أن يعبدوا الأصنام ، لأنه يعلم طلاقة قدرته سبحانه . إذن نحن آمنو مع شعيب احترموا طلاقة القدرة في الحق ، لذلك قالوا

﴿ وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا ﴾

(من الآية ٨٩ سورة الأعراف)

ولكن الله لا يشاء لمعصوم أن يعود ، وسبحانه يهدي من آمن بهداية الدلالة ويمده بالمزيد من هداية المعونة إلى الطريق المستقيم .

---

(١) رواه أحمد ، ورواه مسلم عن ابن عمر

ويتابع أهل الإيمان مع شعيب .

﴿ وسع ربنا كل شيء علما على الله توكلنا ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين (٨٩) ﴾ [سورة الأعراف]

جاء قوله : ﴿ على الله توكلنا ﴾ لأن خصومهم من الملأ بقوتهم وبجبروتهم قالوا لهم . أنتم بين أمرين اثنين إما أن تخرجوا من القرية ، وإما أن تعودوا في ملتنا وأعلن المؤمنون برسولهم شعيب أن العود في الملة لايكون إلا بالاختيار وقد اخترنا ألا نعود . إذن فليس أمامهم إلا الإخراج بالإجبار ؛ لذلك توكل المؤمنون على الله ليتولاهم ، ويمنع عنهم تسلط هؤلاء الكافرين

﴿ على الله توكلنا ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين (٨٩) ﴾

[سورة الأعراف]

وساعة تسمع كلمة «افتح» أو «افتح» أو «افتح» فهم أن هناك شيئاً معلقاً أو مشكلاً ، فإن كان من المحسنات يكون الشيء معلقاً والفتح يكون بإزالة الأغلاق وهي الأقفال ، وإن كان في المعنويات فيكون الفتح هو إزالة الإشكال ، والفتح الحسي له نظير في القرآن ، وحين نقرأ سورة يوسف نجد قوله الحق :

﴿ ولما فتحوا متاعهم وجدوا بضاعتهم ردت إليهم قالوا يا أبانا ما نبغي هذه بضاعتنا ردت إلينا .. (٦٥) ﴾ [سورة يوسف]

وكلمة ﴿ ولما فتحوا متاعهم ﴾ تعني أن المتاع الذي معهم كان مغلقاً واحتاج إلى فتح حسي ليجدوا بضاعتهم كما هي . وأيضاً يقول الحق سبحانه وتعالى .

﴿ وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمراً حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها .. (٧٣) ﴾

[سورة الزمر]

وما دام هناك أبواب تفتح لهذا فتح حسي وقد يكون الفتح فتح علم مثلما تقول ربنا افتح علينا بالإيمان والعلم، ويقول الحق:

﴿أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ ۚ ﴿٧٦﴾﴾ [سورة البقرة]

فما دام ربنا قد علمهم من الكتاب الكثير فهذا فتح علمي ويكون الفتح بسوق الخير والإمداد به وامثال على ذلك قوله الحق

﴿مَّا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا .. ﴿٢﴾﴾ [سورة فاطر]

وكذلك قوله سبحانه:

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ .. ﴿٩٦﴾﴾

[سورة الأعراف]

والبركات من السماء كالمطر وهو يأتي من أعلى، وهو سبب فيما يأتي من الأسفل أي من الأرض.

والفتح أيضاً بمعنى إزالة إشكال في قضية بين خصمين، فمن ليمن حتى الآن، يسمون القاضي الذي يحكم في قضايا الناس «الفاتح» لأنه يزيل الإشكالات بين الناس وقد يكون «الفتح» بمعنى «النصر»، مثل قوله الحق:

﴿وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا .. ﴿٨٩﴾﴾ [سورة البقرة]

لقد كانوا ينتظرون النبي ﷺ ليستنصروا به على الذين كفروا، ومن تفتح أيضاً الفصل في الأمر من قوله الحق هنا في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها

﴿رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ .. ﴿٨٩﴾﴾ [سورة الأعراف]

وهذ القول هو دعاء للحق : احكم يا رب بيننا وبين قومنا بالحق بنصر الإيمان وهزيمة الكفر ، وأنت خير الفاتحين فليس لك هوى ضد أحد أو مع أحد من مخلوقاتك .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٩٠﴾ ﴾

وهنا يقول الملأ من قوم مدين لمن آمنوا ولمن كان لديهم الاستعداد والتهيؤ للإيمان محذرين لهم من اتباع شعيب حتى لا يظل الملأ والكبراء وحدهم فى الضلال :

وساعة نرى « اللام » فى « لئن » نعلم أن هنا قَسَماً دلّت عليه هذه « اللام » . وهنا أيضاً « إن » الشرطية ، والقسم يحتاج إلى جواب ، والشرط يحتاج كذلك إلى جواب ، فإذا اجتمع شرط و قسم اكتفينا بالإتيان بجواب المتقدم والسابق منهما ، مثل قولنا : « والله إن فعلت كذا ليكونن كذا » : ﴿ لئن اتبعتم شعيباً إنكم إذاً لخاسرون ﴾ .

وماذا سيخسرون ؟ سيخسرون لأنهم كانوا سيأخذون أكثر من حقهم حين يطففون الكيل ويخسرون الميزان ، والقوى يأخذ من الضعيف ، فإذا ما ارتبطوا بالمنهج واتبعوه خسروا ما كانوا يأخذونه من تطفيف الكيل وبخس وخسران الميزان بمنهج . وهذه هى الخسارة فى نظر المنحرف .

﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩١﴾ ﴾

والرجفة هى الهزة العنيفة التى تزج الإنسان زجًا غير اختيارى ، ومعروا بها جاثمين أى قاعدين على ركبهم ؛ ولا حراك بهم ؛ ميتين ، وفى هيئة الذلة وهذا يدل على أن كلا منهم ساعة أجد تذكر كل ما فعله من كفر وعصيان ، وأراد استدراك ما فاته من محالفاته للرسول ، وأخذ يوبخ نفسه ويندم على ما فعل ، ولم تأخذه الأبهة والاستكبار ، لأن هناك لحظة تمر على الإنسان لا يقدر فيها أن يكذب على نفسه ، ولذلك نجد أن من ظلم وطغى وأخذ حقوق الغير ثم يأتيه الموت يحاول أن يتدى على كل من بقى عليه أو ظلمه ليعطيه حقه لكنه لا يجده . ولذلك يسمون تلك اللحظة أنها التى يؤمن فيها الفاجر ، لكن هل ينفع إيمانه ؟ طبعاً لا . فى هذه الحالة لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل .

ويتابع سبحانه وصف ما حدث لهم إثر الرجفة .

﴿ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا ۚ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَانُوا۟ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٢﴾ ﴾

وغنى بالمكان : أقام به ؛ فحين صاروا جاثمين وخلت منهم الديار ، كأنهم لم تكن لهم إقامة إذ استؤصلوا وأهلكوا إهلاكاً كاملا ، وإذا كان هؤلاء المكذبون قد قالوا : ﴿ لئن اتبعتم شعيباً إنكم إذاً لخاسرون ﴾ فيكون مآلهم هو ما ذكره ربنا بقوله : ﴿ الذين كذبوا شعيب كانوا هم الخاسرين ﴾

ويتابع قوله الحق عن سيدنا شعيب .

﴿ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ ۖ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٩٣﴾ ﴾

و«تولى عنهم» أى تركهم وسار بعيداً عنهم، وحدثهم متخيلاً إياهم ﴿لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ﴾، فكأن المنظر العاطفى لإنسانى حين رأى كيف أصبحوا، وتعطف عليهم وأسى من أجلهم، لكن يرد هذا التعاطف متسائلا متعجباً ﴿فَكَيْفَ آسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾؟ إنهم نوع من الناس لايحزن عليهم المؤمن. فما بالنا بنبى ورسول؟ إنه يحدث نفسه وكأنه يقول: ماقصرت فى مهمتى، بل أبلغتكم رسالاتى التى تلقيتها من الله، والرسالات إذا جمعت فالمقصود منها رسالته ورسالة الرسل السابقين فى الأمور التى لم يحدث فيها نسخ ولا تغيير، أو رسالاته أى فى كل أمر بلغ به؛ لأنه كان كلما نزل عليه حكم يبلغه لهم. أو أن لكل خبر رسالة، ولكل أمر رسالة، وقد أبلغهم كل ماوصله من الله، ولم يقتصر على البلاغ بل أضاف عليه النصح، والنصح غير البلاغ، فالبلاغ أن تقول ماوصلك ويسهى الأمر، و«النصح» هو الإلحاح عليهم فى أن يثوبوا إلى رشدهم وأن يتبعوا نهج الله

ويقول الحق بعد ذلك:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾﴾

وعرفنا من قبل أن القرية هى البلد الجامع لكل مصالح سكانها فى دنياهم.

والمقصود هنا أن القرية التى يرسل إليها الحق رسولاً ثم تُكَذِّب فسبحانه يأخذ أهلها بالبأساء والضراء. والبأساء هى المصيبة تصيب الإنسان فى أمر خارج عن ذاته، من مال يضيع، أو تجارة تبور وتهلك، أو بيت يهدم، والضراء هى المصيبة التى تصيب الإنسان فى ذاته ونفسه كالمرض، ويصيبهم الحق بالبأساء والضراء لأنهم نسوا الله فى الرخاء فأصابهم بالبأساء والضراء لعلهم يرجعون إلى ربهم ويتضرعون إليه، ليكون معهم فى السراء والضراء. والحق يقول:

﴿ وإذا مسَّ الإنسانَ الضُّرُّ دعانا لجنبه أو قاعدًا أو قائمًا فلما كشفنا عنه ضُرَّه مرَّ كأن لم يدعنا إلى ضُرٍّ مسَّه .. (١٢) ﴾ [سورة يونس]

وكان من الواجب على الإنسان أنه ساعة ما تمسه الضراء أن يتجه إلى خالقه، وبقد جعل الله الضراء وسيلة تنبيه يتذكر بها الإنسان أن له ربا، وفي هذه اللحظة يجيب الحق الإنسان المضطر، ويغيثه معتقا لقوله الحق:

﴿ أمَّن يُجيبُ المُضطرَّ إذا دعاهُ ويكشفُ السُّوءَ ويجعلُكُم خُلفاءَ الأرضِ أإلهٌ مَّعَ اللَّهِ قليلًا مَّا تذكَّرونَ (٦٢) ﴾ [سورة النمل]

وإذ صنع الله مع المضطر هذا فقد يثوب إلى رشده ويقول: إن الإله الذي لم أجد لي مفرعاً إلا هو، لا يصح أن أنساه.

وكأن الحق سبحانه وتعالى يذكرنا بطلاقة قدرته حين يقول:

﴿ فلولا إذ جاءهم بأسُنا تضرَّعوا . (٤٣) ﴾ [سورة الأنعام]

وكأنه سبحانه يطلب منا حين تجيء البأساء أن نفزع إليه ولا نعتقد أن نعيش في الحياة وحدنا، بل نعيش في الحياة بالأسباب المخلوقة لله وبالمسبب وهو الله، فالذي خلق الأسباب وتعبنا بروح المسبب، وبذلك يأخذ سبحانه أية قرية لا تصدق الرسل بالبأساء والضراء بعلهم يضرعون وذلك رحمة بهم

ويقول:

﴿ ولكن قست قلوبهم . (٤٣) ﴾ [سورة الأنعام]

فهل يتركهم لله في السراء والضراء دائماً؟ لا، فهو سبحانه يحبهم ويبتليهم بالبأساء والضراء ليلفتهم إليه، فإذا لم يلتفتوا إلى الله، فسبحانه يبدل مكان السيئة الحسنة، لذلك يقول:

﴿ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا
وَّقَالُوا قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَٰهُم
بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾ ﴾

ويعطى سبحانه بعد ذلك لهم الرزق ، والعافية ، والغنى ؛ لأن الحق إذا أراد أن يأخذ جباراً أخذ بزير مقتدر قهر يمهله ، ويرخى له العنان ليتجبر ـ كفرعون ـ من أجل أن يأخذه بغتة ، وكأنه يسقط من أعلى ، فيعميه ويعليه من أجل أن ينزل به ـ كما يقولون ـ على جذور رقبته : ﴿ ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة حتى عفوا ﴾ .

(عَفَوْا) أى كثروا عدداً ومالاً وقوة أى أنه ما أحدهم سبحانه بالبأساء والضراء إلا وكان القصد منها أن يلفتهم إليه ، فلم يلتفتوا ، فيمدهم ويعطى لهم العافية وما يسرّهم ، ثم يصيبهم بالعذاب بغتة .

﴿ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا وَّقَالُوا قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ
فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

ونلحظ أن الحق سبحانه وتعالى بعد أن تكلم على خلافة الإنسان فى الأرض ، وأنه أمده بكل ما تقوم به حياته ، وأمده بالقيم بواسطة مناهج السماء ، وأنزل المنهج مبينا ما أحل ، وما حرم بعد أن كانوا يحلون ما حرم الله ، ويحرمون ما أحل الله ، بيّن لهم الحق أن الذى خلق الخلق عالم بما يصلحهم فأحله ، وعالم بما يفسدهم فحرّمه ، فليس لكم أن تقترحوا على الله حلالاً ، ولا حراماً ، ولكن بعض المشككين فى منهج الله قالوا ـ ومازالو يقولون ـ . إذا كان الله قد أحل شيئاً وحرم شيئاً فلماذا خلق ما حرم ؟ ونقول : لقد خلق سبحانه كل شىء لحكمة قد تكون لغير الطعام والشراب والكسوة ، فبعض الأشياء يكون مخلوقاً لمهمة وإن لم تكن مباشرة لك ؛ فالبترول مثلاً مخلوق لمهمة أن يوجد طاقة ، لذلك لا نشربه .

والخنزير مخلوق لحكمة لا نعلمها نحن ، وإنما يعلمها من خلق ، لأنه من

الجائز أن يكون أداء لالتقاط الميكروبات التي تنشأ من عفن الأشياء التي يستعملها الناس في حياتهم، إذن فكل شيء مخلوق لحكمة، فلا تخرج أنت حكمة الأشياء من غير مراد خالقها؛ لأن صانع الصنعة هو الذي يحدد الشيء الذي يوجد وينشئ القوة لها. ونحن نعلم - مثلاً - أن أنواع الوقود كثيرة، فهناك «البنزين» النقي جداً ويرقمونه برقم (١) وهو مخصص للطائرة، ووقود السيارة وهو «البنزين» رقم (٢) فإذا استخدمت وقود ماكينة وآلة بدل ماكينة أخرى أفسدتها، كذلك حسن الله الإنسان وسخر له كل المخلوقات وأوضح: هذا يصلح لك مباشرة، وهذا مخلوق ليخدمك خدمة غير مباشرة فدعه في مكانه.

وبعد أن عرض الحق سبحانه وتعالى مواقف الجنة، ومواقف النار، ومواقف أصحاب الأعراف الذين استوت حسناتهم وسيئاتهم؛ وبعد أن بين المنهج كله أراد أن يبين أن ذلك ليس نظرياً، وإنما هو واقع كوني أيضاً. ففرق بين الشيء يقال نظراً، والشيء يقع واقعاً، فقص علينا قصص الأنبياء حين أرسلهم إلى أقوامهم، فمن كذب بالرسل أخذه الله أخذ عزيز مقتدر بواقع يشهده الجميع؛ فذكر نوحاً مع قومه، وذكر عاداً وأخاهم هوداً، وذكر ثمود وأخاهم صالحاً، ومدين وأخاهم شعيباً، وقوم لوط وسيدنا لوط. وبين ما حدث للمؤمنين بالنجاة، وما حدث للكافرين بالعطب والإذلال، ويوضح الحق سبحانه وتعالى: أنني أخذ الناس بالبأساء والضراء لعلهم يتضرعون، لأن الإنسان مخلوق أفاض الله عليه من صفات جلاله، ومن صفات جماله الشيء الكثير، فالله قوي، وأعطى الإنسان من قوته، والله غني وأعطى الإنسان من غناه، والله حكيم وأعطى الإنسان من حكمته، والله عليم وأعطى الإنسان من علمه.

وإذا أردت أن تستوعب ما يقربك إلى كمال العلم في الله، فانظر ما علمه لكل خلق الله، ومع ذلك فعلمهم ناقص، ويردون إلى العلم الذاتي في الحق سبحانه وتعالى، وربما غر الإنسان بالأسباب وهي تستجيب له، فهو يحرث وينذر ويروي، وإذا بالأرض تعطيه أكلها. وهو يصنع الشيء فيستجيب له، كل ذلك قد يغريه بأن الأشياء استجابت لذاتيته فيذكره الله أن اذكر من ذللها لك.

﴿ كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ (٦) أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ (٧) ﴾ [سورة العلق]

وساعة ما يجد الإنسان أن كل الأسباب مواتية له فعليه أن يذكر الله . إن الإنسان بمجرد إرادة أن يقوم من مكانه فهو يقوم . وبمجرد إرادة أن يصفع أحداً فهو يصفعه ؛ لأن الأبعاض التي في الإنسان خاضعة لمراده ، فإذا كانت أبعاضك خاضعة لمراداتك أنت ، وأنت مخلوق ، فكيف لا يكون الكون كله مراداً للحق بالإرادة ؟ فإذا استغنى الإنسان بالأسباب ، فالحق يلفته إليه . فالقادر الذي كان بفتوته يفعل . يسلب الله منه القدرة بالمرض ؛ فيمد يده ليساعده إنسان على القيام والذي اغتر بشيء يدله الله بأشياء . لماذا ؟ حتى يلفته إلى المسبِّب ، فلا يُفتن بالأسباب .

ويدع لنا الحق سبحانه وتعالى في كونه عجائب ، ونجد العالم وقد تقدم الآن تقدماً فضائيًّا واسعاً ، واستطاع الإنسان أن يكتشف من أسرار كون الله ما شاء ، ولكن الحق يصنع لهم أحياناً أشياء تدلهم على أنهم لا يزالون عاجزين . فبعد أن تكتمل لهم صناعة الآلات المتقدمة يكتشفون خطأ واحداً يفسد الآلة ويحطمها ، وتهب زوبعة أو إعصار يدمر كل شيء ، أو يشتعل حريق هائل . فهل يريد الله بكونه فساداً وقد خلقه بالصلاح ؟ لا ، إنه يريد أن يلفتنا إلى ألا نغتر بما أوتينا من أسباب . فالذين عملوا « الرادار » لكي يبين لهم الحدث قبل أن يقع ، يفاجئهم ربنا ـ أحياناً ـ بأشياء تعطل عمل « الرادار » ، فيعرفون أنهم مازالوا ناقصي علم .

إذن فالأخذ بالبأساء ، والأخذ بالضراء ، سنة كونية ليظل الإنسان فاهماً وعالماً أنه خليفة في الأرض لله . وفساد الإنسان أن يعلم أنه أصيل في الكون ، فلو كنت أصيلاً في الكون فحافظ على نفسك في الكون ولا تفارقه بالموت . وإن كنت أصيلاً في الكون فذلل الكون لمراداتك . ولن تستطيع ؛ لأن هناك طبائع في الكون تتمرد عليك ، ولا تقدر عليها أبداً .

وترى أكثر من مفاعل ذري ينفجر بعد إحكامه وضبطه لماذا ؟! ليدل على طلاقة القدرة وأن يد الله فوق أيديهم ، إذن فأخذ الناس بالبأساء والضراء ، وبالشيء الذي نقول إنه شر إنما هو طلب اعتدال للإنسان الخليفة ، حتى إذا اغتر يرده الله سبحانه وتعالى من الأسباب إلى المسبِّب . وحين يأخذ الله قوماً بالبأساء التي تصيب الإنسان في غير ذاته : مال يضيع ، ولد يفقد ، بيت يهدم ، أو يأخذهم بالضراء

وهي الأشياء التي تصيب الإنسان في ذاته ، فذلك ليسلب منهم ألهة الكبرياء ، فلا يجدون ملجأ إلا أن يخضعوا لرب الأرض والسماء ، ولكي يتضرعوا إلى الله ، ومعنى التضرع - كما عرفنا - إظهار الذلة لله وإذا لم يُجْدِ وينفع فيهم هذا ، وقالوا لا ، إن البأساء والضراء مجرد سنن كونية ، وقد تأتي للناس في أي زمان أو مكان نقول لهم : صحيح لبأساء و بضراء سنن كونية من مكوّن أعلى من الكون ، فإذا لم يرتدعوا بالبأساء والضراء ويرجعوا إلى ربهم ويتوبوا إليه يبتليهم الله بالنعماء ، فهو القائل :

﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

فالمجتمعات حين تبتعد عن منهج السماء يجد الحق ينتقم منهم انتقاماً يناسب جرمهم ، ولو أنه أخذهم على حالهم المتواضع فلن تكون الضربة قوية ؛ لذلك يوسع عليهم في كل شيء حتى إذا ما سلب منهم وأخذهم بغتة وفجأة تكون الضربة قوية قاصمة ويصيبهم اليأس والحسرة .

وقديماً قلنا تعبيراً ريفيًا هو : إن الإنسان إن أراد أن يوقع بآخر لا يوقعه من على حصيرة ، إنما يوقعه من مكان عال . وربنا يعطي للمتكبرين الكثير ويمدهم في طغيانهم ثم يأخذهم أخذ عزيز مقتدر وقد دلت وقائع الحياة على هذا ، ورأينا أكثر من ظالم وجبار في الأرض والحق يملي له في العلو ويمد له في هذه الأسباب ثم يأخذه أخذ عزيز مقتدر ، ولو بواسطة حارسه .

﴿ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا وَّقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

وقد يضبط الإنسان أشياء تُعْلمه بواقع الشر في مستقبله . مثلها مثل « الرادار » الذي يكشف لنا أي خطر في الأفق قبل أن يأتي ، وحين يقول سبحانه : ﴿ وهم لا يشعرون ﴾ أي ليس عندهم حساب ولا مقاييس تدلهم على أن شرًا يحيق بهم .

وأنت لو نظرت إلى هذه المسألة لوجدت الإنسان بعقله وفكره الذى لم يسلك فيه طريق الله بل سلك فيه السبيل غير الممهج بمنهج الله ،وبينما لاينتفت الانسان إلى مجىء الكرتة ، ويتساءل . لماذا تجرى هذه الحيوانات ؟ ! إنه فى هذه الحالة يكون أقل من الحيوانات ؛ لأن الحيوان من واقع الأحداث فى بلد تحدث فيه الزلازل يكون أول خارج من منطقة الزلزال ، إن الله قد سلبه هذه المعرفة حتى تتمكن منه الضربة ، إننا نجد الحمار يجرى ليغادر مكان الزلزال ، بينما يظل الإنسان واقفاً حتى يحيق ويحيط به الخطر ، فأى إحساس وأى استشعار عند الحيوان ؟ إنه استشعار غريزى خلقه ربه فيه ؛ لأنه سلب منه التعقل فأعطاه حكمة الغرائز .

ولمادام الحق قد نبه الإنسان بالبأساء فلم ينتفت ، وبالضراء فلم يتجه إلى المنهج ؛ لذلك يأتى له الحق ويمد له بالطغيان .

لكن أهل الإيمان أمرهم يختلف ، فيقول سبحانه :

﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾

أى أنهم لو آمنوا بالموجود الأعلى ، واتقوا باتباع منهجه أمراً ونهياً تسلم آلاتهم،لأن الصانع من البشر حين يصنع آلة من الآلات،يحدد ويبيّن الغاية من الآلة قبل أن يبتكرها ، ويصمم لها أسلوب استخدام معين ، وقانون صيانة خاصا لتؤدى مهمتها ، فمابالنا بمن خلق الإنسان ، إذن فالبشر إذا تركوا رب الإنسان يضع منهج صيانة الإنسان لعاش هذا الإنسان فى كل خير ، وسبحانه وتعالى أوضح أنهم إن اتقوا ، تأت لهم بركات من السماء والأرض ، فإن أردنها بركات مادية تجدها فى المطر الذى ينزل من أعلى ، وبركات من الأرض مثل النبات ، وكذلك كنوزها التى تستنبط منها الكماليات المرادة فى الحياة .

وما معنى البركة ؟ . البركة هي أن يعطي الموجودُ فوق ما يتطلبه حجمه ؛ كواحد مرتبه خمسون جنيهاً ونجده يعيش هو وأولاده في رضا وسعادة ، ودخل ضيق ، فتتساءل : كيف يعيش ؟ ويجيبك : إنها البركة . والبركة تفسير كوني لأن الناس دائماً ـ كما قدنا سابقاً ـ ينظرون في وارداتهم إلى رزق الإيجاب ، ويعملون رزق السلب . ورزق الإيجاب أن يجعل سبحانه دخلك آلاف الجنيهات ولكنك قد تحتاج إلى أضعافهم ، ورزق السلب يجعل دخلك مائة جنيه ويسلب عنك مصارف كثيرة ، كأن يمنحك العافية فلا تحتاج إلى أجر طبيب أو نفقة علاج .

إذن فقوله : ﴿ بركات من السماء والأرض ﴾ أي أن يعطي الحق سبحانه وتعالى من القليل الكثير في الرزق الحلال ، ويمحق الكثير الذي جاء من الحرام كالربا ، ولذلك سمى المال الذي نخرجه عن المال الزائد عن الحاجة سماه زكاة مع أن الزكاة في ظاهرها نقص ، فحين تملك مائة جنيه وتخرج منها جنيهين ونصف الجنيه يكون قد نقص مالك في الظاهر وإن أقرضت أحداً بالربا مائة جنيه فأنت تأخذ منه مائة وعشرة ، لكن الحق سمى النقص في الأولى نماء وزكاة ، وسمى الزيادة في الثانية محقاً وسحتاً ، وسبحانه قابض باسط .

﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

إذن فلو أخذ الإنسان قانون صيانته من خالقه لاستقامت له كل الأمور ، لكن الإنسان قد لا يفعل ذلك . ويقول الحق : ﴿ ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون ﴾ .

وهكذا نعلم أن الأخذ ليس عملية جبروت من الخالق ، وإنما هي عدالة منه سبحانه ؛ لأن الحق لو لم يؤاخذ المفسدين ، فماذا يقول غير المفسدين ؟ . سيقول الواحد منهم مادمنا قد استوينا والمفسدين ، وحالة المفسدين تسير على ما يرام ، إذن فلأفسد أنا أيضاً وذلك يغري غير المفسد بأن يفسد ، ويعطي لنفسه راحتها وشهواتها ، لكن حين يأخذ الله المفسدين بما كانوا يكسبون ، يعلم غير المفسد أن سوء المصير للمفسد واضح ، فيحفظ نفسه من الزلل .

كان القياس أنه يقول سبحانه : بما كانوا يكسبون ، لأن مسألة الحرام تتطلب انفعالات شتى ، وضرب المثل من قبل بأن إنساناً يجلس مع زوجته ، وينظر إلى جمالها ويملأ عينيه منها ، لكن إن جلس مع أجنبية وأراد أن يغازلها ليتمتع بحسها ، فهو يناور ويتحيل ، وتتضارب ملكاته بين انفعالات شتى ، وهو يختلف في ذلك عن صاحب الحلال الذي تتناسق ملكاته وهو يستمتع بما أحل له الله ، ولكن هؤلاء المفسدون تدربوا على الفساد فصار دربة تقرب من الملكة فضل فيهم الحق . إنهم يكسبون لفساد ، ولا يحدون في ارتكابه عنتا .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ ﴾

ونلحظ وجود « همزة استفهام » و « فاء تعقيب » في قوله الحق ﴿ أفأمن ﴾ وهذا يعني أن هناك معطوفاً ومعطوفاً عليه ، ثم دخل عليهما الاستفهام ، أي أنهم فعلوا وصنعوا من الكفر والعصيان فأخذناهم بغتة ، أبعد ذلك أمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا وعذابنا بياتا أو ضحى كما صنع بمن كان قبلهم من الأمم السابقة ؟ هم إذن لم يتذكروا ما حدث للأمم السابقة من العذاب والدمار .

ويوضح الحق أن الذين كذبوا من أهل القرى ، هل استطاعوا تأمين أنفسهم فلا يأتيهم العذاب بغتة كما أتى قوم نوح وقوم هود وقوم صالح وقوم لوط وقوم شعيب ؟ والبأس هو الشدة التي يؤاخذ بها الحق سبحانه الأمم حين يعرضون عن منهجه وما الذي جعلهم يأمنون على أنفسهم أن تنزل بهم أهوال كالتي نزلت بمن سبقهم من الأمم .

وحين يتكلم الحق عن الأحداث فهو يتكلم عما تتطلبه الأحداث من زمن

ومكان ، لأن كل حدث لابد له من زمن ولابد له من مكان ، ولا يوجد حدث بلا زمان ولا مكان ، والمكان هنا هو القرى التي يعيش فيها أهلها ، والزمان هو ما سوف يأتي فيه البأس ، وهو قد يأتي لهم بياتاً وهم نائمون ، أو يأتي لهم ضحى وهم يلعبون ، وهذه تعابير إلهية ، والإنسان إذا ما كان في مواجهة الشمس فالدنيا تكون بالنسبة له نهاراً والمقابل له يكون الليل وقد يجيء البأس على أهل قرية نهاراً ، أو ليلاً في أي وقت من دورة الزمن ، ونعلم أن كل لحظة من اللحظات للشمس تكون لمكان ما في الأرض شروقاً ، وتكون لمكان آخر غروباً ، وفي كل لحظة من اللحظات يبدأ يوم ويبدأ ليل ، إذن أنت لا تأمن يا صاحب النهار أن يأتي البأس ليلاً أو نهاراً ، وأنت يا صاحب الليل لا تأمن أن يكون البأس نهاراً أو ليلاً .

وأهل القرى هم الذين قال الله فيهم .

﴿ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾

(من الآية ٩٦ سورة الأعراف)

وعلماؤنا قد كذبوا بمعنى ذلك أنهم لم يؤمنوا برسول مبلغ عن الله ، وتبعاً لذلك لم يؤمنوا بمنهج يحدد قانون حركتهم بـ « افعل » و « لا تفعل » .

إذن فنهارهم هو حركة غير منجدية ، وغير نافعة ، بل هي لعب في الحياة الدنيا ، وليلهم نوم وفقد للحركة ، أو عبث ومجون وانحراف ، وكل من يسير على غير منهج الله يقضي ليله نائماً أو لاهياً عاصياً ، ونهاره لاعباً ؛ لأن عمله مهما عظم ، ليس له مقابل في الآخرة من الجزاء الحسن .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾

و « الأمن » هو الاطمئنان إلى قضيه لا غير مخاوف ولا متاعب ، ويقال فلان

« آمن » ؛ أى لا يوجد ما يكدر حياته . والحق يقول : ﴿ أفأمنوا مكر الله ﴾ ونحن نسمع بعض الكلمات حين ينسبها الله لنفسه نستعظمها ، ونقول وهل يمكر ربنا ؟ لأننا ننظر إلى المكر كعملية لا تليق . . وهنا نقول . تنبه إلى أن القرآن قد قال :

﴿ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ﴾

(من الآية ٤٣ سورة فاطر)

إذن ففيه مكر خير ، ولذلك قال الحق :

﴿ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴾

(من الآية ٥٤ سورة آل عمران)

والمكر أصله الالتفاف وحين نذهب إلى حديقة أو غابة نجد الشجر ملتف الأغصان وكأنه مجدول بحيث لا تستطيع أن تنسب ورقة في أعلى إلى غصن معين ؛ لأن الأغصان ملفوفة بعضها على بعض . وكذلك نرى هذا الالتفاف في النباتات المتسلقة ونجد أغصانها مجدولة كالحبل .

إذن فالمكر مؤداه أن تلف المسائل ، فلا تجعلها واضحة ولكي تتمكن من خصمك فأنت تبيت له أمراً لا يفطن إليه ، وإذا كان الإنسان من البشر حين يبيت لأخيه شرًّا ، ويفتنه فتناً يُعمى عليه وجه الحق وليس عند الإنسان العلم الواسع القوى الذى يمكر به على كل من أمامه من خصوم لأنهم سيمكرون له أيضاً .

وإذا كان هناك مكر وتبييت لا يكتشفه أحد فهو مكر وتبييت الله لأهل الشر ، وهذا هو مكر الخير ؛ لأن الله يحمى الوجود من الشر وأهله بإهلاكهم .

﴿ أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

وهناك من يسأل : هل أمن الأنبياء مكر الله ؟ نقول نعم . لقد أمنوا مكر الله باصطفائهم للرسالة ، وهناك من يسأل : كيف إذن لا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون ؟!

نقول : لقد جاء في منهج الرسل جميعاً أن الذي يأمن مكر الله هو الخاسر ؛ لأن الله هو القادر ، وهو الذي أنزل المنهج ليختار الإنسان به كسب الدنيا والآخرة إن عمل به ، وإن لم يعمل به يخسر طمأنينة الإيمان في الدنيا وإن كسب فيها مالاً أو جاهاً أو علماً ، ويخسر الآخرة أيضاً

ويتابع سبحانه

﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَن لَّوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾

و « يهد » أي يبين للذين يرثون الأرض طريق الخير ، ومعنى ﴿ يرثون الأرض من بعد أهلها ﴾ أن الأرض كانت مملوكة لسواهم ، وهم جاءوا عقبهم . وحين يستقرىء الإنسان الوجود الحضاري في الكون يجد أن كل حضارة جاءت على أنقاض حضارة ، وما في يدك وملكك جاء على أنقاض ملك غيرك ، والذي يأتي على أنقاض الغير يسمى إرثاً ، ولما دمتم قد رأيتم أنكم ورثتم عن غيركم كان يجب أن يظل في بالكم أن غيركم سيرثكم .

إذن فالمسألة دُوَلٌ ، ويجب ألا يغتر الإنسان بموقع أو منصب ، ونحن نرى في حياتنا من يحتل منصباً كبيراً ، ثم يُقال ويعزل عن منصبه ، أو يحال إلى التقاعد ويأتي آخر من بعده ولذلك يقال . لو دامت لغيرك ما وصلت إليك . فإن كنت صاحب مكانة وقد أحسست الدخول إلى وضعك وإلى جاهك ، وإلى منصبك ؛ فيجب أن تفطن وتتذكر الخروج قبل الدخول إلى هذا المنصب حتى لا يمر عليك فراقه يوماً

واحذر أن تحسن الدخول في أمر قبل أن تحاول أن تحسن الخروج منه .

واستمع إلى قول الشاعر فى هذا المعنى .

إن الأسير هو الذى يُمسى أميراً يوم عزلة
إن زال سلطان الإمارة لم يزل سلطان فضلة

وحين يقول الحق . ﴿ أو لم يهد للذين يرثون الأرض ﴾ .

نلحظ أنه سبحانه لم يجعل المهديين هنا على وضع المفعول ، فلم يقل أو لم يهد الذين ، بل قال « يَهْد للذين » ، فما الحكمة فى ذلك ؟ . نعرف أن « الهداية » هى الدلالة على الطريق الموصل للغاية ، وقد تعود فائدته عليك ، أى أنك قد هَدَيْت غيرك لصالحك . وقد تكون الهداية وهى الدلالة على فعل الخير لأمر يعود على الذى هَدَى وعلى المَهْدِىّ معاً ، لكن إذا كانت الهداية لا تعود إلا لك أنت ، ولا تعود على من هداك ، أتشك فى هدايته لك ؟ لا ، إن من حقك أن تشك فى الهداية إذا كان هذا الأمر يعود على من هَدَى ، أو يعود أمرها على الاثنين ؛ ففى ذلك شبهة لمصلحة ، لكن إذا كان الأمر لا يعود على من يَهْدِى ويعود كله لمن يُهْدَى فليس فى ذلك أدنى شك

ولذلك يقول الحق سبحانه فى حديثه القدسى .

« . . يا عبادى لو أنَّ أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك فى ملكى شيئاً ، يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكى شيئاً ، يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا فى صعيد واحد فسألونى فأعطيت كل إنسان مسألته ما نقص ذلك مما عندى إلا كما ينقص المِخْيط إذا أُدْخِل البحر »[1]

إذن فحين يهديكم الحق إلى الصراط المستقيم فما الذى يعود عليه سبحانه من صفات الكمال بهذا العمل ؟ لقد خلقكم بصفات الكمال فيه ، فلى يشىء خلقه

(١) رواه مسلم ـ واللفظ له ـ ورواه الترمذى

لكم صفة من صفات الكمال زائدة على ما هو له ، وهكذا نرى أن كل هداية راجعة إلى المهتدي وبذلك يتأكد قوله : ﴿ يهد للذين يرثون الأرض ﴾ ما هو مصلحتهم .

﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ أَهْلِهَا أَن لَّوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾

(سورة الأعراف)

والحق سبحانه وتعالى حين يتكلم عن المشيئة يقول : ﴿ لو نشاء ﴾ ويحدد أسباب المشيئة وهو قوله : ﴿ أصبناهم بذنوبهم ﴾ ، وهكذا نعلم أن المشيئة ليست مشيئة ربنا فقط لا ، بل هي أيضاً مشيئة العباد الذين ميزهم بالاختيار ، ومبحانه يقول .

﴿ أَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا ﴾

(من الآية ٣١ سورة الرعد)

وما الذي يمنعه سبحانه أن يشاء هداية الناس جميعاً ؟ لا أحد يمنع الخالق ، ولكنه سبحانه خلق خلقاً مهديين بطبيعتهم ، لا قدرة لهم على المعصية وهم الملائكة ، وجعل سائر أجناس الأرض مسخرة مسبحة ، وذلك يثبت صفة القدرة ، فلا يستطيع أحد أن يخرج عن مراد الله ، ولكن هذا لا يعطي صفة المحبوبية للمشرع الأعلى ، ثم إنه ـ سبحانه ـ خلق خلقاً لهم اختيار في أن يطيعوا وأن يعصوا

فالمخلوق الذي اختصه سبحانه بقدرة الاختيار في أن يؤمن وأن يكفر ، وأن يطيع وأن يعصى ، ثم آمن يكون إيمانه دليلا على إثبات صفات المحبوبية للإله .

إذن المقهورون على الفعل أثبتوا القدرة ، والمختارون الفعل أثبتو المحبوبية للمشروع الأعلى ، ويتابع سبحانه في الآية نفسها .

﴿ أَن لَّوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾

(من الآية ١٠٠ سورة الأعراف)

ويلحظ أن الحق لم يقل أن لو يشاء أصابهم لذنوبهم وذلك رحمة منه ، بل جعل العقاب بالذنوب التي يختارونها هم ، وكذلك جعل الطبع على القلوب نتيجة للاختيار . وسبق أن تكلمنا في أول سورة البقرة . عن كلمة « الطبع » ؛ وهو الختم :

﴿ خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾

(من الآية ٧ سورة البقرة)

لأن القلوب وعاء اليقين الإيماني ؛ فحين يملأ إنسان وعاء اليقين بالكفر ، فهذا يعني أنه عشق الكفر وجعله عقيدة عنده ؛ لذلك يساعده الله على مراده ، وكأنه يقول له . أنا سأكون على مرادك ، ولذلك أطبع على قلبك فلا يخرج ما فيه من الكفر ، ولا يدخل فيه ما خرج منه من الإيمان الفطري الذي خلق الله الناس عليه . لأنك أنت قد سَدَدْت ووضعت في قلبك قضية يقينية على غير إيمان ؛ لأن أصول الإيمان أن تُخْرِج ما في قلبك من أي اعتقاد ، ثم تستقبل الإيمان بالله ، ولكنك تستقبل الكفر وترجحه على الإيمان

إن الله سبحانه لم يجعل لرجل من قلبين في جوفه : قلب يؤمن ، وقلب لا يؤمن ، بل جعل للإنسان قلباً واحداً ، والقلب الواحد حيز ، والحيز ـ كما قلت ـ لا تداخل للمحيَّز فيه ؛ فحين تأتي بزجاجة فارغة وتقول إنها « فارغة » فالذي يدل على كذب هذه الكلمة أنا حين نضع فيها الماء تخرج منها فقاقيع الهواء ؛ وخروج فقاقيع الهواء هو الذي يسمح بدخول الماء فيها ، لأن الزجاجة ليست فارغة ، بل يحيل لنا ذلك ؛ لأن الهواء غير مرئي لنا . ولو كانت الزجاجة مفرغة من الهواء دون إعداد دقيق في صناعتها لذلك المهمة لكان من الحتمي أن تنكسر . والقلب كذلك لو حير إن دخل فيه الإيمان بالله لا يسع الكفر ، وإن دخل فيه الكفر ـ والعياذ بالله لا يسع الإيمان ، ولعاقل هو من يطرح القضيتين خارج النفس ، ثم يدرس هذه ويدرس تلك ، وما يراه مفيداً لحياته ولآخرته يسمح له بالدخول . أما أن تناقش قضية الإيمان بقين قبي بالكفر فهذه عملية لا تؤدي إلى نتيجة

﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ أَهْلِهَا أَن لَّوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ

عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾

(سورة الأعراف)

أى أو لم يتبيّن للذين يستخلفون فى الأرض من بعد إهلاك الذين سبقوهم بما فعلوا من المعاصى والكفر فساد هؤلاء القوم سيرة من سبقهم وعملوا أعمالهم وعصوا ربهم أن لو نشاء فعلنا بهم من العذاب كما فعلنا بمن قبلهم وقوله : ﴿ فهم لا يسمعون ﴾ أى السمع المؤدى إلى الاعتبار والاتعاظ فكأنهم لم يسمعوا

ويقول لاحق بعد ذلك

تِلْكَ الْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَائِهَا ۚ وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْكَافِرِينَ ﴿١٠١﴾

هذا هو المراد فى سرد القصص بالنسبة لرسول الله صلى الله عليه وسلم الذى أوضحه الحق فى موضع آخر من القرآن فقال .

﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ ﴾

(من الآية ١٢٠ سورة هود)

فإذا ما حدث لك من أمتك وقومك شىء من العناد والإصرار والمكابرة فاعلم أنك لست مدعاً من الرسل ؛ لأن كل رسول قد قابلته هذه الموجة الإنحائية من القوم الذين حاطبهم وإذا كان كل رسول يأخذ حظه من البلاء بقدر ما فى رسالته من العلو فلابد أن تأخذ أنت ابتلاءات تساوى ابتلاءات الرسل جميعاً .

﴿ تِلْكَ الْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَائِهَا ۚ وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا

﴿ بِمَا كَذَّبُوا مِن قَبْلُ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْكَافِرِينَ ﴿١٠١﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

والطبع ـ كما قلت ـ هو الختم ، لأن قلوبهم ممتلئة بالضلال ، لذلك يعلنون التكذيب للرسول . وقد طبع الله على قلوبهم لا قهراً منه ، ولكن لاستبطان الكفر وإخفائه في قلوبهم .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ ۖ وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ ﴿١٠٢﴾ ﴾

وهؤلاء الذين كذبوا الرسل ، وردوا منهج الله الذي أرسله على ألسنة رسله كانت لهم عهود كثيرة . فما وفوا بعهد منها ، مثال ذلك : العهد الجامع لكل الخلق ، وهو العهد الذي أخذه الله على ذرية آدم من صلبه حين مسح الله على ظهر آدم ، وأخرج ذريته وقال :

﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا بَلَىٰ ﴾

(من الآية ١٧٢ سورة الأعراف)

وقد يقف العقل في أخذ مثل هذا العهد على الذرية الموجودة في آدم ، لذلك نقول : إذا قال الله فقد صدق عقلنا ذلك أو لم يعقله ، إنك لو نظرت إلى « آحاد البشر » ، أي إلى الأفراد الموجودين ، تجد نفسك وغيرك يجد نفسه نسلاً لآبائكم ، وهذا يدل على أن الإنسان وجد من حيوان سوى حتى انتقل إلى بويضة حيَّة من أمه فنشأ هذا الإنسان ولو طرأ على الحيوان المنوي موت ، أو طرأ على البويضة موت امتنع الإنسال .

إذن فكل إنسان منا جزء من حياة أبيه ، وأبوه جزء من حياة والده ، ووالده جزء

من حياة أبيه ، وإذا سلسلت ذلك فستصل لآدم ، فكل واحد من ذرية آدم إلى أن تقوم الساعة فيه جزيء حي من آدم . ومادام فيه جزيء حي من آدم فقد شهد الحق الأول ، ولذلك حين يسألهم الله سؤال التقرير ويقول . ﴿ ألست بربكم ﴾ ؟ فيقولون : ﴿ بلى ﴾

وضربنا المثل لنقرب وقلنا إن الذرة الشائعة في شيء ، تشيع في أضعاف الشيء ، وسبق أن قلنا : إننا إذا جئنا بمادة ملونة حمراء - مثلاً - في حجم ستتميتر مكعب ، ثم أذبناها في قارورة ، وبذلك يصبح كل جزء في القارورة فيه جزء من المادة الملونة ، وإن أخذت القارورة وألقيتها في برميل واسع ، هنا تصير كل قطرة من البرميل فيها جزيء من المادة الحمراء ، وإذ أخذت ماء البرميل وألقيته في البحر فكل ذرة في البحر الواسع يصير فيها جزيء من المادة الملونة ، وهكذا يقرب من ذهن كل منا أن في كل إنسان جزيئا من آدم ، وقد شهد هذا الجزيء العهد الأول . ولقائل أن يسأل . كيف يخاطب الله الذر الذي كان موجوداً في ظهر آدم ؟ . نقول : كما خاطب الأرض وخاطب السماء ، فهو القائل :

﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ ﴾

(سورة فصلت)

إذن فعدم إدراكنا لكيفية الخطاب بين رب ومربوب ، لا يقدح في أن هذه المسألة لها أصل ولها وجود .

وهذا بالنسبة للعهد الأول ، وبعده العهد الثاني الذي أخذه الله على رسله ، مصداقاً لقوله الحق :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

ثم هناك عهود خاصة أنشأتها الأحداث الخاصة ، مثلما يقول الحق سبحانه وتعالى .

﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٢٢﴾﴾

(سورة يونس)

إنهم لا يسلمون أنفسهم للعطب ، ولا يغترون بجاههم وبالأسباب التي عندهم لأنها قد امتنعت ، ولذلك لا ينشون أنفسهم بل يلجأون صاغرين إلى الله قائلين :

﴿لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾

(من الآية ٢٢ سورة يونس)

هكذا نرى أنهم أعطوا العهد في حادثة ، فلما أنجاهم الله أعرضوا ، وفي ذلك يقول الحق سبحانه :

﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُ﴾

(من الآية ١٢ سورة يونس)

إذن فالعهد إما أن يكون عهداً عاماً وإما ان يكون عهداً خاصًا

والحق يقول ﴿وإن وجدنا أكثرهم لفاسقين﴾

أي أن حال وشأن أكثرهم ظل على الفسق ونقض العهد والخروج عنه ، لأن العهد إطار يحكم حركة المختار فيما أعطاه على نفسه من المواثيق ، وهو حر في أن يفعل أو لا يفعل ، لكنه إذا عاهد أن يفعل أصبح ملزماً ووجب عليه أن ينعقد العهد باختياره ، لأنه إذا قطع العهد على نفسه فعليه أن يحكم حركته في إطار هذا العهد ، فإن خرج بحركته عن إطار هذا العهد فهذا هو الفسق ، والأصل في الفسق

أنه خروج الرطبة من القشرة لأن القشرة تصنع سياجاً على الثمرة بحيث لا تدخل إلى الثمرة شيئاً مفسداً من الخارج ، ويقال: فسقت الرطبة أي خرجت عن قشرتها كأن ربنا جعل التكليف تغليفاً حماية للإنسان من العطب ، فإذا ما خرج عن الدين مثل خروج الرطبة عن الغطاء والقشرة صار عرضة للتلوث وللميكروبات ، فسمى الله الخارج على منهجه بالفسق ، لأنه خرج عن الإطار الذي جعله الله له ليحميه من المفاسد ، ومن العطب الذي يقع عليه .

وبعد ذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾ ﴾

وبعد أن تكلم الحق عن نوح وهود وصالح ولوط وشعيب وما دار بينهم وبين أقوامهم ، وكيف أهلك سبحانه المكذبين وأنجى المؤمنين ، أراد أن يأتي بتاريخ رسول من أولي العزم من الرسل ، أي من الذين تعرضوا في رسالاتهم لأشياء لا يتحملها إلا جَلَد قوي . وأظن أنكم تعلمون أن علاج موسى لليهود أخذ قسطاً وافراً في القرآن ، بل إن قصة موسى مع قومه هي أطول قصص القرآن ؛ لأن انحرافاتهم وبزواتهم وتمردهم على أنبيائهم كانت كثيرة ، وكان أنبياؤهم كثيرين ، ولذلك فهم يفتخرون بأنهم كثيرو الأنبياء ، وقالوا نحن أكثر الأمم أنبياء . وقلنا لهم . إن كثرة أنبيائكم تدل على تأصل دائكم ؛ لأن الأطباء لا يكثرون إلا حين يصبح علاج المريض أمراً شاقاً . إذن فكثرة أنبيائكم ، دليل على أن رسولاً واحداً لا يكفيكم ، بل لابد من أنبياء كثيرين .

وقوله الحق : ﴿ ثم بعثنا من بعدهم موسى ﴾ .

وكلمة « بعث » ـ كما نفهمها ـ توحي وتشير إلى أنه سبحانه قد أرسل موسى رسولاً إلى فرعون ، واختيرت كلمة « بعث » للرسالات لأن البعث يقتضي أن شيئاً

كان موجوداً ثم انظمر ثم بعثه الحق من جديد ، والإيمان يتمثل في عهد لفطرة الأول الذي كان من آدم ؛ لأن الله خلقه بيديه خلقاً مباشراً وكلفه تكليفاً مباشراً ، فنقل آدم الصورة للذرية ، وهذه الصورة الأصلية هي التي تضم حقائق الإيمان التي كانت لآدم ، وحين يبعث الله رسولاً جديداً ، فهو لا ينشىء عقيدة جديدة ، بل يحيي ما كان موجوداً وانطمر ، وحين يطم الفساد يبعث الله الرسول ، فكأن الحق سبحانه وتعالى حينما كلف آدم التكليف الأول طلب منه أن ينقل هذا التكليف إلى ذريته ، ولو أن الإنسان أخذ تكاليف الدين كما أخذ مقومات الحياة مثل سبقه لظل الإيمان مسألة رتيبة في البشر .

إننا نأخذ الأشياء التي أورثها لنا أجدادنا وتنفعنا في أمور الدنيا نحتفظ بها ونحرص عليها ، فلماذا لم نأخذ الدين منهم ؟ لأن الدين يحجر على حرية الحركة ويضعها في إطارها الصحيح والإنسان يريد أن ينعتق من تقييد حرية الحركة ، وحين يقول ربنا مرة إنه . « أرسل » الرسل ، ومرة أخرى إنه قد بعثهم ، فهذا يدل على أنه لم يجيء بشيء جديد ، ولكنه جاء بشيء كان المفروض أن يظل فيكم كما ظلت فيكم الأشياء التي ورثها لكم أسلافكم وتنتفعون بها ، مثال ذلك : نحن ننتفع برغيف الخبز وننتفع بخياطة الإبرة فلماذا انتفعنا بهذه الأشياء المادية ونسينا الأشياء المنهجية ؟ لأن الأشياء المادية قد تعين الإنسان على شهواته ، أما قيم الدين فهي تحارب الشهوات

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِ﴾

(من الآية ١٠٣ سورة الأعراف)

والآيات ـ كما نعلم ـ جمع آية ، وهي الأمر العجيب الذي يقف العقل عنده مشدوهاً . وتطلق الآيات ثلاث إطلاقات ، فهي تطلق على الآيات القرآنية لأنها عجيبة أسلوبياً معبرة عن كل كمال يوجد في الوجود إلى أن تقوم الساعة ، وكل قارىء لها يأخذ منها على قدر ذهنه وقدر فهمه . والآيات الكونية موجودة في خلق الأرض والسماء وغير ذلك ، وكذلك تطلق الآيات على المعجزات الدالة على صدق الأنبياء . والبعث يقتضي مبعوثاً وهو موسى ، ويقتضي باعثاً وهو الله ، ومبعوث إليهم . وهم قوم فرعون ، ومبعوثاً به وهو المنهج .

راجع أصله وخرج أحاديثه الدكتور أحمد عمر هاشم نائب رئيس جامعة الأزهر .

والآيات التي بعث الله بها موسى هي أدلة صدق لنبوة ، وهي أيضاً الكلمات المعبرة عن المنهج ليشاهدها ويسمع لها فرعون وملؤه ، ولملأ - كما عرفنا من قبل - هم القوم الذين يملأون العيون هيبة ، فلا يقال للناس الذين لا يلتفت إليهم أحد إنهم ملأ ، أو هم الأناس الذين يملأون صدور المجالس ، أي الأشراف والسادة . ولماذا حدد الحق هنا أن موسى قد بعث لفرعون وملئه فقط ؟ لأن الباقين من أتباعهم تكون هدايتهم سهلة إن اهتدى الكبار ، والغالب والعادة أن الذي يقف أمام منهج الخير هم المنتفعون بالشر . وهم القدة أو من حولهم ، ولا يرغبون في منهج الخير لأنه يصادم أغراضهم ، وأهواءهم ، ولذلك يحاربونه ، أما بقية العامة فهم المغلوبون على أمرهم ، وساعة يرون أن واحداً قد جاء ووقف في وجه الذين عضوهم بمطالمهم وعضوهم بطغيانهم ، تصبح قلوبهم مع هذا المنقذ !

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيهِ ﴾

(من الآية ١٠٣ سورة الأعراف)

وإن كانت الآيات هي الكلمات المؤدية لمنهج الموجودة في التوراة ، أو كانت الآيات هي المعجزات التي تدل على صدق موسى فقد كان ذلك يقتضي إيمانهم . ونعلم أن القرآن قد عدد الآيات المعجزات التي أرسلها الحق مع موسى :

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ ﴾

(من الآية ١٠١ سورة الإسراء)

ومن هذه الآيات العصا ، واليد يدخلها في الجيب أو تحت جناحه وإبطه وتخرج بيضاء من غير سوء أو علة ، وأخذ آل فرعون بالسنين ، وكلمة « سنين » تأتي لتجدب الشديد الذي يستمر لفترة من الزمن بحيث يلمت الناس إلى حدث في زمان ، ولذلك نقول : كانت سنة عصيبة ؛ لأن السنة عصة من الأحداث ، تهدم ترف الحياة ، ثم تأتي لهم بما يهدم مقومات الحياة ، وأولها الطعام والشراب فيصيبهم بنقص الثمرات ، وهو الجدب والقحط ، وسمي الجدب سنة ، وجمعه سنين ، لأنه شيء يؤرخ به ، فمادا كان استقبال فرعون وملئه للآيات التي مع موسى عليه السلام ؟ يقول الحق : ﴿ فظلموا بها ﴾ .

وهل كانت الآيات أداة للظلم أو ظلموا بسببها لأنهم رفضوها كمنهج حياتي ؟

بقد ظلموا بها لأنهم رفضوا اتباع المنهج الحق ، وظلوا على فسادهم ، والمفسدون ـ كما تعلم ـ هم الذين يعمدون إلى الصالح في ذاته فيفسدونه ، برغم أن المطلوب من الإنسان أن يستقبل الوجود استقبال من يرى أن هناك أشياء فوق اختيار له ومراداته ، وأشياء باختياره ومراداته ، فإذا نظر الإنسان في الأشياء التي بها مقومات الحياة ، مما لايدخل في اختياره يجدها على منتهى الاستقامة

إننا نجد الإنسان لا يتحكم في حركة الشمس أو حركه القمر ، أو النجوم أو الريح أو المطر ، فهذه الكائنات مستقيمة كما يريدها الله ، ولا يأتي الفساد إلا في الأمر الذي للإنسان مدخل فيه ، والنفس لا تشكو من أزمة هواء ـ على سبيل المثال ـ لأنه لا دخل في حركه الهواء لأحد ، لكنهم شكوا من أزمة طعام لأن للبشر فيه دخلاً ، ونجد شكواهم من أزمة المياه أقل ؛ لأن مدخل الإنسان على الماء قليل .

إنه سبحانه وتعالى يجعل الأمر الذي يدبر حركتك الوقودية لك فيه بعض من الدخل ، فيجعل من جسمك ـ على سبيل المثال ـ مخزناً للدهون ليعطيك لحظة الجوع ما كنزته فيه من طاقة . ومن العجيب أن الدهون هذه هي مادة واحدة وساعة تحتاج إلى التغذية منها تتحول المادة الواحدة إلى المواد الأخرى التي تحتاج إليها

تحتاج مثلا إلى زلال ، فيتحول الدهن إلى زلال ، تحتاج إلى كربون ، يعطى لك الدهن الكربون ، تحتاج إلى فوسفور يعطيك فوسفوراً ، تحتاج إلى منسيوم يعطيك الدهن المغنسيوم ، وهكذا فإذا كنا نصبر على الطعام بقدر المخزون في أجسامنا ، ونصبر على الماء أيضاً بقدر المخزون في هذه الأجساد ، فنحن لا نصبر على الهواء لأن التنفس شهيق وزفير ، ولو أراد إنساناً ملك الهواء يعطيك إياه لحظة الرضا ، ويمنعه عنك لحظة الغضب ، لمت قبل أن يرضى عنك ، لكن إن منع عنك الماء فترة فقد يحن قلب عدوك أو يأتي لك أحد بالماء أو قد تسعى أنت بحيلة ما لتصل إليه

إذن فالأمر الذي لا دخل للإنسان فيه نجده على منتهى الاستقامة ، ولا يأتي

الفساد إلا من الأمر الذى للإنسان فيه دخل .

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾﴾

(سورة الأعراف)

أى أن آخر الأمر سيعاقب الله المفسدين .

وأراد سبحانه أن يَذْكُر سلسلة القصة لا من بدء سلسلتها ، بل يبدأ من نهايتها ، فسبحانه لا يدرس لنا التاريخ ، ولكن يضع أمامنا العظة ، والنقطة التى يريدها فى هذا السياق ، ولذلك لم يتكلم سبحانه فى هذه السورة عن ميلاد موسى وكيف أوحى لأمه أن تلقيه فى البحر ، ولم ترد حادث ذهابه إلى مدين ومقابلته لسيدنا شعيب ، لكنه هنا يتكلم سبحانه عن مهمة سيدنا موسى مع فرعون

ويقول سبحانه .

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٤﴾﴾

ويشرح لنا القرآن أمر ملاغ موسى لفرعون وقومه بأن الله واحد أحد وهو رب العالمين ، وكان قوم فرعون يعتقدون بوجود إله للسماء وآخر للأرض ، لذلك يبلغهم موسى بأن الإله واحد :

﴿قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾﴾

(سورة الشعراء)

ونجد موسى يعدد كلمة الربوبية فى آيات أخرى ؛ ليأتى بالمظهر الذى دُسَّت فيه دسيسة الربوبية لفرعون ، وكانوا يعتقدون أن للسماء إلهاً ، وللأرض إلهاً آخر ، فقال موسى . إنى أتكلم عن الإله الواحد الذى هو رب السماء والأرض معاً فلا إله إلا الله وحده وكانوا يعتقدون أن للشرق إلهاً ، وللغرب إلهاً ، فأبلغهم موسى بأنه

إله واحد ، وكانو يعتقدون أن للأحياء إلهاً وربا ، وللأموات إلهاً وربا ، فقال لهم موسى :

﴿ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ ﴾

(سورة الشعراء)

ويبلغ هنا موسى فرعون وقومه :

﴿ إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾

(من الآية ١٠٤ سورة الأعراف)

وما دام موسى رسولا من رب العالمين ، فهو لا يقول إلا الحق ، لذلك يتابع الحق على لسان موسى :

﴿ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٠٥﴾ ﴾

فأى هذه الأمور هو الذى يحتاج إلى بينة ، هل البلاغ بأنه رسول من رب العالمين ؟ إن هذا لقول يدلنا على أن موسى اختلف مع فرعون أولاً فى أن موسى رسول ، وأن للعالمين ربًا واحداً ، وأنه لا يبلغ إلا بالحق ، هذه - إذن - ثلاث قضايا خلافية بين موسى وفرعون ، ولكن فرعون لم يختلف مع موسى إلا فى قضية واحدة هى : هل هو رسول مبلغ عن الله بالقول الحق ؟ فماذا طلب منه ؟ طلب الدليل على أنه رسول من رب العالمين . وهذا يوضح أن فرعون يعلم أن العالم له رب أعلى

كذلك فإن فرعون لم يقف مع موسى فى مسألة أن للعالمين ربًا ، وأن هذا الرب

لا يستطيع كل إنسان أن يفهم مراده منه فلابد أن يرسل رسولاً ، مل وقف فرعون فى مسأله : هل موسى رسول مبلغ عن الله أو لا ؟

ولذلك يقول موسى .

﴿ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٠٥﴾ ﴾

(سورة الاعراف)

كأن مهمة موسى عند فرعون أن يخلص بنى إسرائيل ونعرف أن قصة بنى إسرائيل ناشئة من أيام نبى الله يعقوب وابنه يوسف حين كاد الإخوة لأخيهم يوسف ، وتشاوروا فى أمر قتله أو طرحه أرضاً أو إلقائه فى غيابة الجب ، لقد جاء الحق بقصة بنى إسرائيل على مراحل لتتدرج بالانفعال معها نمراحل الانفعال النفسى أمام من تكره تأخذ صورتين اثنتين صورة تدل على تصعيد الرحمة فى قلبك ، وصورة تدل على تصعيد الشر فى قلبك ، مثال ذلك لنفترض أن لك خصماً وصنع فيك مكيدة ، وتحكى أنت لإخوانك ما فعله هذا الخصم ، وكيف أنك تريد الانتقام منه فتقول أريد أن انتقم منه بضربه صفعتين ، ثم تصعد الشر فتقول : أنا أريد أن أقتله بالرصاص ، هذا شأن الشرير ، أما الخيِّر فيقول : أنا لا أريد أن أقتله أو أصفعه أو أشتمه وأسبّه فهذا تصعيد فى لخير إذن يختلف تصعيد الانتقام أو السماح حسب طاقة الخير أو الشر التى فى النفس وهكذا نجد إخوة يوسف وهم يكيدون له ، فقالو :

﴿ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ ﴾

(من الآية ٨ سورة يوسف)

هم يحترمون أنهم قوة وعصبة ، ويحسدون يوسف وأخاه على محبة الأب لهما ، ويعترضون على ذلك ، ويظهرون البينة على أن يوسف وأخاه أحب إلى الأب منهم ، وذكر القرآن هذه البينة لنعرف أهميتها ، حتى لا يعمل أحد عملها لقد كان قلب نبى الله يعقوب مع يوسف وأخيه لصغرهما وضعفهما ، بينما بقية أبنائه كبار أقوياء أشداء ؛ لأن الله سبحانه وتعالى وضع فى قلب الأبوة والأمومة من الرحمه على قدر ضعف الوليد الصغير فالصغير هو من يحتاج إلى رعاية وعناية ، ويكون

قلب الأم والأب مع الابن المريض أو الغائب . ولذلك حينما سئلت امرأة حكيمة : من أحب بنيك إليك ؟ قالت : الصغير حتى يكبر ، والغائب حتى يعود ، والمريض حتى يشفى .

إذن فقول إخوة يوسف . ﴿ ونحن عصبة ﴾ هو بيت قصيدهم . وكان المنطق يقتضي أن يعرفوا أنهم مادامو عصبة فلابد أن يكون قلب أبيهم مع يوسف وأخيه فكلاهما كان صغيراً ويحتاج إلى رعاية ، وبطبيعة تكوين أبناء يعقوب كأسباط وذرية أنبياء ، نجدهم يصعدون الخير لا الشر ، فقد بدأوا بإعلان رغبة القتل ، ثم استبدلوا بها الطرح أرضاً بأن يلقوه في أرض بعيدة نائية ليستريحوا منه ويخلو لهم وجه أبيهم ، ثم استبدلوا بها إلقاءه في غياهب الجب ؛ بدأوا بالقتل في لحظة عنفوان الغضب ثم تنازلوا عن القتل بالطرح أرضاً ، أي أن يتركوه في مكان يكون فيه عرضة لأن يضل ، ثم تنازلوا عن ذلك واكتفوا بإلقائه في غيابة الجب يلتقطه بعض السيارة ، فهل كانوا يريدون أن يضروه ، أو كانوا يفكرون في نجاته ؟ إذن فهذا تصعيد للخير .

وتوالت الأحداث مع سيدنا يوسف واستقر معه بنو إسرائيل في مصر وكثرت أعدادهم . وعندما نستقرئ التاريخ ، نجد أن الحق سبحانه وتعالى حينما تكلم عن ملوك مصر ، خص بعضهم باسم فرعون ، وخص بعضهم باسم ملك ، فهناك فرعون وهناك ملك .

فإذا ما نظرت إلى القديم نجد أن الحق يقول :

﴿ وَفِرْعَوْنَ ذِي ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ ﴾

(سورة الفجر)

هكذا نجد الحق يسمي حاكم مصر « فرعون » وفي أيام سيدنا موسى أيضاً يسميه الحق فرعون . لكن في أيام يوسف عليه السلام لم يسمه فرعون ، بل سماه ملكاً .

﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦ ﴾

(من الآية ٥٠ سورة يوسف)

وبعد أن اكتشف العالم الفرنسي شامبليون ـ حجر رشيد ـ عرفنا أن الفترة التي دخل فيها سيدنا يوسف مصر ، لم يكن الفراعنة هم الذين يحكمون مصر ، بل كان الحكام هم ملوك الهكسوس الرعاة ، وطمر القرآن هذه الحقيقة التاريخية حين سمى حكام مصر قبل يوسف فراعين ، وفي الفترة التي جاء فيها سيدنا يوسف سماهم « الملوك » ، وهؤلاء هم من أعاروا على مصر وحكموها وساعدهم بنو إسرائيل وخدموهم ، وقاموا على مصالحهم ، وبعد أن طرد المصريون الهكسوس التفت الفراعنة بالشر إلى من أعان الهكسوس ، فبدأوا في استذلال بني إسرائيل لمساعدتهم الهكسوس إبان حكمهم مصر . وأراد الله أن يخلصهم بواسطة موسى عليه السلام ، ولذلك يقول لحق على لسان موسى :

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٠٥﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

كان موسى يريد أن يخلص بني إسرائيل ، أما مسألة الألوهية وربوبية فرعون فقد جاءت عرضاً .

ويقول فرعون :

﴿ قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٠٦﴾ ﴾

وهكذا يواجه فرعون موسى سائلاً إياه أن يُظهر الآية إن كان من الصادقين ، إذن فرعون يعتقد أن لله آيات تثبت صدق الرسول بدليل أنه قال له : هاتها إن كنت من الصادقين .

ويكشف موسى عليه السلام الآية :

﴿ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ ﴾

وهذا الإلقاء كان له سابق تجربة أخرى حينما خرج مع أهله من مدين ورأى ناراً وبعد ذلك قال لأهله :

﴿ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا ﴾

(من الآية ١٠ سورة طه)

ثم سمع خطاباً :

﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ ﴾

(سورة طه)

وحين يقال له : ﴿ وما تلك بيمينك ياموسى ﴾ ، كان يكفي أن يقول في الجواب : عصاي ، ولا داعي أن يقول : « هي » ولا داعي أن يشرح ويقول : إنه يتوكأ عليها وأن له فيها مآرب أخرى ؛ لأن الحق لم يسأله ماذا تفعل بعصاك ، إذن فجواب موسى قد جاوز في الخطاب قدر المطلوب ، ويظن البعض أنه كان من الواجب أن يعطي الجواب على قدر السؤال . لكن من يقول ذلك ينسى أنه لا يوجد من يزهد في الأنس بخطاب الله . وحين قال موسى عليه السلام

﴿ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي ﴾

(من الآية ١٨ سورة طه)

وبعد شعر موسى عليه السلام واستدرك هيبة المخاطب فكان تهافته على الخطاب حبًا لأنسه في الله ، لكنه حين شعر أنه قارب أن يتجاوز قال : ﴿ ولي فيها مآرب أخرى ﴾ كان من الممكن أن يقول استعمالات كثيرة للعصا . إذن فللعصا أكثر من إلقاء ، إلقاء الذرية والتمرين على لقاء فرعون حين أمره الحق :

﴿ قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ ﴾

(سورة طه)

فماذا حدث؟ قال له الله .

﴿قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَىٰ ﴿٢١﴾﴾

(سورة طه)

فساعة حدث ، دل على أن ما حدث للعصا ليس من قبيل السحر ؛ لأن السحر حين يبقى عصاه أو حبله يرى ذلك عصا أو حبلاً ، بينما يرى ذلك غيرُه حية ، ولذلك يقول الحق عن السحرة .

﴿سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ﴾

(من الآية ١١٦ سورة الأعراف)

وهذا يدل على أن حقيقة الشيء في السحر تظل كما هي في نظر الساحر ، لكن موسى أوجس في نفسه خيفة ، فهذا يدل على أن العصا انتقلت من طبيعتها الخشبية وصارت حية

وكان من الممكن أن تورق العصا وتحصر على الرغم من أنها كانت عصاً يابساً ولو حدث ذلك فسيكون معجزة أيضاً ، ولكن جعلها الله تنتقل نقلتين : نقلها من الجماديه ، وتعدى بها مرحلة النباتية إلى مرحلة الحيوانية

وكأن الحق العليم أراد ألاّ يرد على من أراد النمط في مسألة إلقاء العصا ، وقد ظن بعض الجاهلين أن ذلك تكرار في الكلام في قصة واحدة . ولم يلحظوا أن جهة الإلقاء للعصا كانت مختلفة ، ففي المرة الثالثة ألقاها للعصا . بقاء التدريب حينما اصطفى الله موسى رسولاً وأعلمه بذلك في طور سيناء

﴿إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي﴾

(من الآية ١٤ سورة طه)

وبعد ذلك قال له :

﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ﴾

(سورة طه)

وإلقاء التدريب على المهمة هذه طمأنة موسى ، حتى إذا ما باشرها أمام فرعون باشرها وهو على يقين أن العصا ستستجيب له فتنقلب حية بمجرد إلقائها ، ولو أن الله قال له خبراً « إذا ذهبت إلى فرعون فألق العصا فستنقلب حية » ، فقد لا يطمئن قلبه إلى هذا الأمر . فأراد الله أن يدربه عليها تدريباً واقعياً ، ليعلم أن العصا ستستجيب له حين يلقيها فتنقلب حية ، وكان ذلك أول إلقاء لها ، أما الإلقاء الثاني فكان ساعة أن جاء لفرعون للإعلام بمهمته أنه رسول رب العالمين ، وإعلامة بالبينة ، وهو ما نحن بصدده الآن في هذه الآية التي تتكلم بخواطرنا الإيمانية فيها .

ثم هناك إلقاء ثالث وهو إلقاء التحدي للسحرة ، ولأن لكل إلقاء موقعاً فلا تقل أبداً أن ذلك تكرار . وإنما هو تأسيس لتعدد المواقف والملابسات ، فلكل موقف ما يتطلبه ، فلا تغني لقطة هنا عن لقطة هناك .

﴿ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

ومرّة يقول عن العصا : ﴿ كأنها جان ﴾ .

ويقول لمشككون في كلام الله من المستشرقين : كيف يقول مرة إنها ثعبان مبين . ثم مرة أخرى يقول . ﴿ فإذا هي حية تسعى ﴾ ، ومرة ثالثة يقول : ﴿ كأنها جان ﴾ . ونقول : إن هناك فارقاً بين مختلفات تتناقض ، ومختلفات تتكامل ، فهي ثعبان مرة ، وهي حية مرة ثانية ، وهي جان ؛ لأن الثعبان هو الطويل الخفيف الحركة ، والحية هي الكتلة المخيفة بشكلها وهي متجمعة ، والجان هو الحية المرعبة الشكل . فكأنها تمثلت في كل مرة بمثال يرهب من يراه ، وكل مرة لها شكل ؛ فهي مرة ثعبان ، ومرة حية ، وثالثة جان ، أو تكون ثعباناً عند من يخيفه الثعبان ، وتكون حية عند من تخيفه الحية ، وتكون جاناً عند من يخيفه الجان ، ولذلك تجد أن إشاعة الإبهام هو عين البيان للمبهم

ومثال ذلك إبهام الحق لأمر الموت ، فلا يحكمه سن ، ولا يحكمه سبب ، ولا يحكمه زمان . وفي هذا إبهام لزمانه وإبهام لسببه مما يجعله بياناً شائعاً تستشله

بأى سبب فى أى زمان أو فى أى مكان، وهكذا يأتى الإبهام هنا لكى يعطينا الصور المتكاملة . وقال بعض المستشرقين . إن المسلمين يستقبلون القرآن بالرهبة وبالانبهار . ولا يحركون عقولهم لكى يروا المتناقضات فيه ، لكن غير المسلم إن قرأ القرآن يتبين فيه أشياء مختلفة كثيرة ، قالوا بالنص « أنتم تعلمون بقضايا اللغة أن التشبيه إنما يأتى لتلحق مجهولاً بمعلوم » ، فيقال : أنت تعرف فلاناً ، فتقول . لا والله لا أعرفه . فيقول لك . هو شكل فلان ؛ فى الطول ، وفى العرض ، وفى الشكل ، إذن فقد ألحق مجهولاً بمعلوم ليوضحه . فكيف يلحق القرآن مجهولاً بمجهول ، إن هذا لا يعطى صورة مثلما تكلم القرآن عن شجرة الزقوم فقال :

﴿ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ۝ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ ۝ ﴾

(سورة الصافات)

فكيف توجد شجرة فى الجحيم ، إنها أشياء متناقضة ؛ لأن الشجرة فيها خضرة ، وتحتاج إلى رى ، ومائية ، والجحيم نار وجفاف ، ثم إن الشيطان غير معلوم الصورة للبشر ، وشجرة الزقوم غير معلومة لأنها ستأتى فى الآخرة ، فكيف يُشَبِّه الله مجهولاً بمجهول واستخدم المستشرقون هذا كدليل على أن المسلمين يأخذون القرآن بانبهار ولا يبحثون فيه ، ورد عليهم : أنتم لا تعلمون لغة العرب كملكة ، بل عرفتموها صناعة ، ولم تتفهموا حقيقة أن القرآن جاء على لغة العرب وقد تحيلت لغة العرب أشياء رأت فيها البشاعة والقبح ، كأن قالوا . « ومسنونة ورق كأنياب أغوال » ، والغول كائن غير موجود ، لكنهم تخيلوا الغول المخيف وأن له أنياباً . . . إلخ

إذن التشبيه قد يكون بأمر المُتَخَيَّل فى أذهان الناس ، والأصل فى التشبيه أن يلحق مجهولاً ليُعلم ، وشجرة الزقوم لا نعرفها ، ورءوس الشياطين لم نرها ، وهكذا ألحق الله مجهولاً بمجهول ، ولماذا لم يأت بها فى صورة معلومة ؟ . لأنه ـ سبحانه ـ يريد أن يشيع البيان ، ويعمم الفائدة ويربيها ؛ لأن الإضافة تتطلب مخيفاً ، والمخيف يختلف باختلاف الرائين ، فقد يوجد شىء يخيفك ، ولكنه لا يخيف غيرك ، وقد تستقبح أنت شيئاً ، ولكن غيرك لا يستقبحه ، ولذلك ضربنا ـ سابقاً ـ مثلاً . وقلنا . لو أننا أحضرنا مجموعة من كبار رسامى الكاريكاتير فى

العالم ، وقلنا لهم : ارسموا لنا صورة الشيطان تخيلوا الشيطان وارسموه ، أيتفقون على شكل واحد فيه ؟ لا ؛ لأن كل رسام سيرسم الشيطان من وحي ما يخيفه هو

ولقد قال الله في صورة : شجرة الزقوم ﴿ طلعها كأنه رءوس الشياطين ﴾ ؛ بتخيل كل سامع ما يخيفه من صورة الشيطان ، فتكون الفائدة عامة من التخويف من تلك الشجرة . لكنه لو قالها بصورة واحدة لأخاف قوماً ولم يخف الآخرين . ومثال ذلك أمر عصا موسى ، فهي مرة ثعبان ، ومرة جان ، ومرة حية ، وكلها صور لشيء واحد مخيف ، ويقول الحق هنا في سورة الأعراف : ﴿ فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين ﴾ .

وقوله : ﴿ فإذا هي ﴾ يوضح الفجائية التي أدهشت فرعون ، فقد تحولت العصا إلى ثعبان ضخم في لمح البصر بمجرد إلقائها ، ومن فوائد تدريب سيدنا موسى على إلقاء العصا في طور سيناء أن موسى لن تأخذه المفاجأة حين يلقيها أمام فرعون ، بل ستأخذ المفاجأة فرعون كأن التدريب أولاً لإقناع موسى وضمان عدم خوفه في لحظة التنفيذ ، وقد خاف منها موسى لحظة التدريب ؛ لأن العصا صارت ثعباناً وحيّة حقيقية ، ولو كانت من نوع السحر لظلت عصا في عين الساحر ولا يخاف منها ، إذن خوفه منها إبّان التدريب دليل على أنها انقلبت حقيقة ، لا تخيلاً ، وتلك هي معجزة المعجزة للسحر ، فالمعجزة حقيقة والسحر تخييل ، وهذا هو الذي سيجعل السحرة يخرون ساجدين لأنهم قد ذهلوا مما حدث .

﴿ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

و « مبين » أي بيّن ، وواضحة ملامحه المخيفة التي لا تخفى على أحد ، ويقدم موسى عليه السلام الآية الثانية ، فيقول الحق :

﴿ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾

وهذه آية معجزة أخرى . وقوله : « ونزع » تعني إخراج اليد بعسر ، كأن هناك

شيئاً يقاوم إخراج اليد ؛ لأنه لو كان إخراج اليد سهلاً ، لما قال الحق : «ونزع يده» لأن النزع يدل على أن شيئاً يقاوم ، ومثال ذلك قوله الحق .

﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ ﴾

(من الآية ٢٦ سورة آل عمران)

لأن نزع الملك ليس مسألة سهلة ، ففي الغالب يحاول صاحب الملك التشبث بملكه ، لكن الحق ينزعه من هذا الملك كذلك قوله : « ونزع يده » ، وهذا يدل على أن يده لها وضع ، ونزع يده وإخراجها شدة له وضع آخر ، كأنها كانت في مكان حريص عليها إذن فيه لقطة بيت الإدخال ، ولقطة بيت النزع ، وهما عمليتان اثنتان . وقال سبحانه في آية ثانية :

﴿ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ﴾

(من الآية ١٢ سورة النمل)

و « الجيب » هو مكان دخول الرأس من الثوب ، وإن كنا نسمي « لجيب » في أيامنا مطلق شيء نجعله وعاء لما نجيب ، وكان الأصل أن الإنسان حين يريد أن يحتفظ بشيء ، يضعه في مكان أمامه وتحت يده ، ثم صنع الناس الجيوب في الملابس ، فسميت الجيوب جيوباً لهذا

والحق قال في موضع آخر :

﴿ وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ﴾

(من الآية ٢٢ سورة طه)

إذن فيه إدخال وإخراج ، وكل آية جاءت بلقطة من اللقطات ؛ فآية أوضحت دخول اليد في الجيب ، وأخرى أوضحت ضم اليد إلى الجناح ، وثالثة أوضحت نزع اليد ، وهذه لقطات متعددة ، تكوّن كلها الصورة الكاملة ؛ لتفهم أن القصص في القرآن غير مكرَّر ، فالتكرير قد يكون في الجملة . لكن كل تكرير له لقطة تأسيسية ، وحين نستعرضه تتبين أركان القصة كاملة . فكل هذه اللقطات تجمَّع لنا القصة . وقلنا قبل ذلك : إن الصراع بين فرعون وموسى لا ينشأ إلا عن عداوة ، وحتى يحتدم الصراع لابد أن تكون العداوة متبادلة ، فلو كان واحد عدوًا

والناس لا يشعر بالعداوة فلن يكون لديه لدد خصومة ، وقد يتسامح مع خصمه ويأخذ أمر الحلاف أخذاً هينا ويسامحه وينهض لمسألة لكن الذى يجعل العداوة تستعر ، ويشتد ويعلو لهيبها أن تكون متبادله . وتأتى لنا لقطه فى القرآن تثبت لنا العداوة من فرعون لموسى ، ولقطة أخرى تثبت العداوة من موسى لفرعون ، فالحق يقول :

﴿ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ ﴾

(من الآيه ٣٩ سورة طه)

هذه تثبت العداوة من فرعون لموسى .

ويقول الحق

﴿ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ﴾

(من الآيه ٨ سورة القصص)

وهذه تثبت أن موسى عدوٌّ لهم . وكلتا اللقطتين يُكمل بعضها بعضاً لتعطينا الصورة الكاملة .

والحق هنا يقول :

﴿ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

ونعرف أن موسى كان أسمر اللون ، لذلك يكون البياض فى يده مخالفاً لبقية لون بشرته ، ويده صارت بيضاء بحيث ساعة يراها الناس يلفتهم ضوؤها ويجذب أبطارهم ، وهى ليست بيضاء ذلك البياض الذى يأتى فى سُمرة نتيجة البرص ، لا ؛ لأن الحق قال فى آية أخرى :

﴿ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ﴾

(من الآية ٢٢ سورة طه)

وكل لقطة كما ترى تأتى لتؤكد وتكمل الصورة . إذن فقوله . ﴿ بيضاء للناظرين ﴾ يدل على أن ضوءها لامع وضىء ، يلمت نظر الناس جميعاً إليها ،

ولا يكون ذلك إلا إذ كان له بريق ولمعان وسطوع ، وقوله ﴿ بيضاء من غير سوء ﴾ يؤكد أن هذا البياض ليس مرضاً .

ويتابع الحق سبحانه :

﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ ﴾

عرفنا أن الملأ هم القوم الذين يتصدرون المجالس ، ويملأونها أو الذين يملأون العيون هيبة ، والقلوب مهابة وهم هنا المقربون من فرعون . وكأنهم يملكون فكرة وعلما عن السحر . وفي سورة الشعراء جاء القول الحق :

﴿ قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ ﴾

(سورة الشعراء)

إذن فهذه رواية جاءت بالقول من الملأ ، والآية الأخرى جاءت بالقول على لسان فرعون ، وليس في هذا أدنى تناقض ، ومن الجائز أن يقول فرعون : إنه ساحر ، وأيضاً أن يقول الملأ : إنه ساحر . وتتوارد الخواطر في أمر معلوم متفق عليه . وقد حدث مثل هذا في القرآن حينما نزلت آيات في خلق الإنسان وتطوره بأن كان علقة فمضغة إلخ فقال كاتب الوحي بصوت مسموع :

﴿ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾

(من الآية ١٤ سورة المؤمنون)

عن أنس رضي الله عنه قال : قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : وافقت ربي في أربع نزلت هذه الآية : ﴿ ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ﴾ الآية قلت أنا : فتبارك الله أحسن الخالقين فنزلت : ﴿ فتبارك الله أحسن الخالقين ﴾[1] .

---

(١) رواه ابن أبي حاتم .

وعن زيد بن ثابت الأنصارى قال . أملى علىّ رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية . ﴿ ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ﴾ إلى قوله : ﴿ . . .خلقاً آخر ﴾ فقال معاذ : ﴿ فتبارك الله أحسن الخالقين ﴾ فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال له معاذ : مِمّ تضحك يارسول الله ؟ فقال . « بها ختمت فتبارك الله أحسن الخالقين »[1] .

لقد جاءت الخواطر فى الحالة المهيجة لأحاسيس الإيمان محطة نزول الوحى بمراحل خلق الإنسان .

فماالذى يمنع من توارد الخواطر فيجىء الخاطر عند فرعون وعند الملأ فيقول ويقولون ؟ أو يكون فرعون قد قالها وعلى عادة الأتباع والأذناب إذا قال سيدهم شيئاً كرروه .

﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

ولم يصفوا فعل سيدنا موسى بأنه ساحر فقط بل بالغوا فى ذلك وقالوا : إنه ساحر عليم . وأضافوا ما جاء على ألسنتهم بالقرآن فى هذه السورة .

﴿ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾ ﴾

إنها نكبة جاءت لفرعون الذى يدعى الألوهية ، ونكبة لمن حوله من هؤلاء الذين يوافقونه ، فكيف يواجهها حتى يظل فى هيئته وهيبته ؛ قال عن موسى : إنه ساحر ، لكى يصرف الناس الذين رأوا معجزات موسى عن الإيمان والاقتناع به ، وأنه رسول رب العالمين ، وبعد ذلك يهيج فرعون وطيبتهم ويهيج ويثير غيرتهم ويحرك انتماءهم إلى مكانهم فقال : ﴿ يريد أن يخرجكم من أرضكم فماذا تأمرون ﴾ .

---

(١) رواه ابن أبى حاتم وأورده ابن كثير فى تفسيره وقال وفى إسناده جابر بن زيد الجعفى ضعيف جدا ، ونرى أن خبر سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه أصح

اتهموا موسى عليه السلام بأنه يريد أن يخرج الناس بسحره من أرضهم ، وهذا القول من فرعون ومن معه له هدف هو تهييج الناس وإثارتهم ؛ لأن فرعون أقنع الناس أنه إله . وهاهى ذى الألوهية تكاد تنهدم فى لحظة ، فقال عن موسى إنه ساحر ، وبين قوم لهم إلف بالسحر ، وقوله : ﴿ فماذا تأمرون ﴾ على لسان الملأ من قوم فرعون يدل على أن القائل للعبارة أدنى من المقول لهم ، فالمفروض أن فرعون هو صاحب الأمر على الجميع ، ومجىء القول . ﴿ فماذا تأمرون ﴾ يدل على أن الذى يأمر فى مسائل مثل هذه هو فرعون ، وهذا يشعر بأن فرعون قد أدرك أن مكانته قد انحطت وأنه نزل عن كبريائه وغطرسته . أو أن يكون ذلك من فرعون تطييباً لقلوب من حوله ، وأنه لا يقطع أمراً إلا بالمشورة ، فكيف تشاور الناس يا فرعون وأنت قد غرست فى الناس أنك إله ؟ وهل يشاور الإله مألوهاً ؟ . إن قولك هذا يحمل الخيبة فيك لأنك تدعى الألوهية ثم تريد أن تستعين بأمر المألوه .

ويقول الحق سبحانه .

﴿ قَالُوٓاْ أَرۡجِهۡ وَأَخَاهُ وَأَرۡسِلۡ فِي ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿١١١﴾ ﴾

و « ارجه » أى أخّره مثل قوله الحق :

﴿ وَءَاخَرُونَ مُرۡجَوۡنَ ﴾

(من الآية ١٠٦ سورة التوبة)

أى أنهم مؤجرون للحكم عليهم وهم الثلاثة الذين تخلفوا عن الغزو فحلفوا وأرجىء أمرهم حتى نزل فيهم قوله سبحانه : ﴿ وعلى الثلاثة الذين خلفوا ﴾ إلخ الآية .

وقولهم :

﴿ أَرۡجِهۡ وَأَخَاهُ ﴾

(من الآية ١١١ سورة الأعراف)

وهكذا كان طلب الإرجاء لأن المسألة أخطر من أن يُتصرَّف فيها تصرفاً سريعاً

بل تحتاج إلى أن يؤخر الرأى فيها حتى يجتمع الملأ ، ويرى الجميع كيفية مواجهتها ، فهى مسألة ليست هينة لأن فيها نقض ألوهية فرعون ، وفى هذا ذلك لسلطان الفرعون وإنهاء لانتفاعهم هم من هذا السلطان . فإذ كان قد قال لهم : ﴿ فماذا تأمرون ﴾ .

فكأنه كان يطلب منهم الرأى فوراً ، لكنهم قالوا إن المسألة تحتاج إلى تمهل وبطء ، وأول درجات البطء والتمهل أن يُستدعى القوم الذين يفهمون فى السحر . فمادمنا نقول عن موسى إنه ساحر ، فلنواجهه بما عندنا من سحر : وقبول فرعون لهذه المشورة هدم لألوهيته ؛ لأنه يدعى أنه إله ويستعين بمألوه هم السحرة ، والسحرة أتباع له . وقوله الحق على ألسنتهم :

﴿ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴾

(من الآية ١١١ سورة الأعراف)

يدل على أن السحر كان منتشراً ، ومنبثٌ فى المدائن وقد أتبع سبحانه هذا القول على لسان الملأ بقوله :

﴿ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾ ﴾

ولأن المستشرقين يريدون أن يشككونا فى القرآن قالوا : ولماذا قال فى سورة الشعراء : ﴿ يأتوك بكل سحّار عليم ﴾ . وكأن هؤلاء المستشرقين يريدون أن يفرقوا بين ﴿ ساحر عليم ﴾ و ﴿ سحّار عليم ﴾ ؛ ولأنهم لا يعرفون اللغة لم يلتفتوا إلى أن « سحّار » تفيد المبالغة من جهتين فكلمة « ساحر » تعنى أنه يعمل بالسحر ، و « سحّار » تعنى أنه يبالغ فى إتقان السحر ، والمبالغات دائماً تأتى لضخامة الحدث ، أو تأتى لتكرر الحدث . فـ « سحّار » تعنى أن سحره قوى جدًا ، أو يسحر فى كل حالة ، فمن ناحية التكرار هو قادر على السحر ، ومن ناحية الضخامة هو قادر أيضاً . ومادام القائلون متعددين . فواحد يقول . ساحر ، وآخر يقول : سحّار وهكذا . والقرآن يغطى كل اللقطات .

﴿ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

و « حاشرين » تعني مَن يحشر لك السحرة ويجمعهم لا بإرادتهم ولكن بقوة فرعون وبطش جنده .

ويقول الحق سبحانه :

﴿ وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓا۟ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾ ﴾

وقوله : ﴿ وجاء السحرة فرعون ﴾ يدل على بطش الأمر ، أي أنه ساعة قال الكلمة هُرِع الجند بسرعة ليجمعوا السحرة . وقد ولغ بعض المستشرقين في هذه اللقطة أيضاً فتساءلوا : ولماذا جاء بقول مختلف في سورة أخرى حين قال :

﴿ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا ﴾

(من الآية ٤١ سورة الشعراء)

لقد جاء بها بهمزة الاستفهام ، وفي سورة الأعراف جاء بها من غير همزة الاستفهام ، وهذه آية قرآنية ، وتلك آية قرآنية . وأصحاب هذا القول يتناسون أن كل ساحر من سحرة فرعون قد انفعل انفعالاً أدى به مطلوبه ؛ فالذي يستفهم من فرعون قال : « أإن » ، والشجاع قال لفرعون : ﴿ إن لنا لأجراً ﴾ وفي القضية الاستفهامية لا يتحتم الأجر لأنه من الجائز أن يرد الفرعون قائلا : أنْ لا أجر لكم ، ولكن في القضية الخبرية « إن لنالأجراً » أي أن بعض السحرة قد حكموا بضرورة وجود الأجر ، وقد غطى القرآن هذا الاستفهام ، وهذا الخبر .

وتأتي إجابة فرعون على طلب السحرة للأجر :

﴿ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾ ﴾

و « نعم » حرف جواب قائمة مقام جملة هى : لكم أجر ، وأضاف أيضاً : ﴿ وإنكم لمن المقربين ﴾ .

وهذا دليل على أنه ينافقهم أو يبالغ فى مجاملتهم ؛ لأنه يحتاج إليهم أشد الحاجة . وهكذا نجد ألوهية فرعون قد حارت أمام المألوهين السحرة . وقوله : ﴿ لمن المقربين ﴾ هذه تدل على فساد الحكم ؛ لأنه مادام حاكماً فعليه أن يكون كل المحكومين بالنسبة إليه سواء لكن إذا ما كان هناك مقربون فالدائرة الأولى منهم تنهب على قدر قربها ، والدائرة الثانية تنهب أيضاً ، وكذلك الثالثة والرابعة ، فتجد كل الدوائر تمارس فسادها مادام الناس مصنفين عند الحاكم

ولذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا ما جلس الصحابة يستمعون إليه كان يسوّى بين الناس جميعاً فى نظره حتى يظن كل إنسان أنه أولى بنظر رسول الله ، ولا يدنى أحداً ويقربه من مجلسه إلا من شهد له الجميع بأنه مقرب . .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾ ﴾

ونلحظ أنهم لم يؤكدوا لموسى رغبتهم فى أن يلقى هو أولا عصاه . ولكنهم أكدوا رغبتهم فى أن يكونوا هم أول الملقين فجاءوا بضمير الفصل وهو (نحن) الذى يفيد التأكيد

ونعلم أن من يعقِّب ويكون عمله تالياً لمن سبقه ، فإن فعله هو الذى سيترتب

عليه الحكم . ولابد أن يكون قوى الحجة هم يريدون أن يكونوا هم المحقين ، وأن موسى الذى يبدأ ، لكن عزتهم تفرض عليهم أن يبدأوا هم أولا ، بذلك جاءوا بالعبارة التى تحمل المعنيين :

﴿ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ﴾

(من الآية ١١٥ سورة الأعراف)

فعلم موسى أنهم حريصون ، على أن يبدأوا هم بالإلقاء فأتى بكلمة (نحن) وفكر موسى أن من صالحه أن يلقوا هم أولا ، لأن عصاه ستلتقف وتبتلع ما يلقون ؛ لذلك يأتى قوله سبحانه :

﴿ قَالَ ٱلْقُوا۟ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾ ﴾

هم - إذن - سحروا أعين الناس ، والسحر - كما نعلم - لطف حيلة يأتى بأعجوبة تشبه المعجزة وكأنها تخرق القانون ، وهو غير الحيلة التى يقوم بها الحواة ؛ لأن الحواة يقومون بخفة حركة ، وخفة يد ، ليعموا الأمر على الناس لكن « السحر » شىء آخر ، ونعلم أن الحق سبحانه وتعالى خلق كل جنس بقانون : خلق الإنس بقانون ، وخلق الجن بقانون ، وخلق الملائكة بقانونهم

﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ﴾

(من الآية ٣١ سورة المدثر)

وكل قانون له خصائصه ومميزاته التى تناسب عصر تكوينه ، فالإنسان - مثلا - لأنه مخلوق من الطين له من الكثافة ما يمنعه من التسلل من خلال جدار ؛ لأنك لو كنت تجلس وهناك تفاحة وراء الجدار الذى تجلس بجواره فلن يتعدى ريحها ، ولا طعمها إلى فمك ؛ لأن الجدار يحول بينك وبين ذلك ، لكن لو كانت هناك حدوة من نار بجانب الجدار الذى تستند عليه لكان من الممكن أن يتعدى أثرها

لك ؛ لأن للنار إشعاعات تنفذ من الأشياء ، ولأن الجن مخلوق من نار ، لذلك نجد له هذه الخاصية

﴿ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ﴾

(من الآية ٢٧ سورة الأعراف)

فإذا كان الجن له قانون والإنس له قانون ، فهل القانون هو الذى يسيطر ؟ لا ، بل رب القانون هو الذى يسيطر لأنه جل وعلا فوق القانون . فيأتى الله للإنس ويُعَلِّم واحداً منهم بعضاً من أسرار كونه ليستدل الجن لخدمته ، برغم ما للجن من خفة حركة ، فسبحانه يوضح . لا تظن أيها الجن أنك قد أخذت خصوصيتك من العنصر الذى يكونك لأن هناك القادر الأعلى وهو المعنصر لك ولغيرك ، بدليل أن الإنسان وهو من عنصر آخر يتحكم فيك بعد أن علمه الله بعضاً من أسرار كونه ولتنتبه دائماً أن العلم بأسرار تسخير الجن هو من ابتلاءات الحق للخلق ؛ لأنه سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ﴾

(من الآية ١٠٢ سورة البقرة)

فكأن هاروت وماروت وهما يعلّمان الإنسان كيف يمارس السحر ، ينصحان الإنسان الذى يرغب فى أن يتعلم السحر أولاً ، ويوصحان له أنهما فتنة أى ابتلاء واختبار ويقولان له : ﴿ فلا تكفر ﴾ ، مما يدل على أن كل من يتعلم السحر ؛ إن قال لك . بى سأستعمله فى الخير فهو كاذب ؛ لأنه يقول ذلك ساعة صفاء نفسه تجاه الخلق ، لكن ماذا إن غافله إنسان من أى ناحية وغلبه على بعض أمره وهو يملك بعضاً من أسرار السحر ؟ هل يقدر على نفسه ؟ لقد قال إنه أمين وقت التحمل ، لكن هل يظل أميناً وقت الأداء ؟ إن من يتعلم السحر قد يستخدمه فى الانتقام من غيره ، وبذلك يصبح تكافؤ الفرص ، ونعلم أن تكافؤ الفرص هو الذى يحمى الناس ، ويعطى بعضهم الأمن من بعض ، ويُلزم كل إنسان حدّه .

فإذا أخذ إنسان سلاحاً ليس عند غيره فقد يستخدمه ضد من لا يملك مثله ، والإنسى الذى يأخذ سلاح استخدام الجن إنما يأخذ سلاحاً لا يملكه أخوه

الإنسى ، وبذلك يكون قد أخذ فرصة أقوى من غيره وفى هذا ابتلاء ؛ لأن الإنسان قد ينجح فيه وقد يخفق فلا يظفر بما يطلبه ، وقوله سبحانه : ﴿ فلا تكفر ﴾ يدل على أنهما علما طبائع البشر فى أنهم حين يأخذون فرصة أعلى قد يُضْمَنون وقت صفاء نفوسهم ، ولكنهم لا يُضْمَنون يوم تعكير نفوسهم

﴿ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ ۚ وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾

(من الآية ١٠٢ سورة البقرة)

مادام الحق هو الذى أعطاهم هذه القدرة فهو سبحانه القادر على أن يسلبها منهم ، مثلما يمنح الله سبحانه وتعالى القدرة لإنسان ليكون عنيًا وقادرا على شراء سلاح نارى ، وأن يتدرب على إطلاق النار ، فهذا الرجل ساعة يغضب قد يتصور أن يحل خلافه مع غيره أو ينهى غضبه مع أى إنسان آخر بإطلاق الرصاص عليه لكن لو لم يكن معه « مسدس » فقد ينتهى غضبه بكلمة طيبة يسمعها ، إذن فساعة ما يمنح الله أمرا فهو يريد أن يرحم ، لذلك يقول : ﴿ وما يعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر ﴾ .

وفى هذا تحذير لمن يتعلم مثل هذا الأمر ، ويريد سبحانه أن يحمى خلقه من هذه المسألة ، ويكفى أن نعلم أنه سبحانه قد قال : ﴿ وماهم بضارين به من أحد إلا بإذن الله ﴾

فلو أنك تتبعت هؤلاء لاستدلوك ، واستنزفوك ، ويتركك الله لهم لأنك اعتمدت فيهم ، أما إن قلت : « اللهم إنك قد أقدرت بعض خلقك على السحر والشر ، ولكنك احتملت لنفسك بإذن الضر ، فإنى أعوذ بما احتفظت به مما أقدرت عليه ، بحق قولك ﴿ وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله ﴾ . هنا لن يمكنهم الله منك ، بما إن استجبت وسرت معهم ، فهم يستنزفونك ، وأراد الله أن يفصح مثل هذه العملية فقال على ألسنة السحرة الذين استدعاهم فرعون .

﴿ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا ﴾

(من الآية ٤١ سورة الشعراء)

وكأنهم يعترفون بالنقص فيهم ، فعلى الرغم من ادعائهم القدرة على فعل المعجزات إلا أنهم عاجزون عن الكسب الذى يوفى حاجاتهم ؛ لذلك طلبوا الأجر من فرعون ، وهذا حال الذين يشتغلون بالسحر والشعوذة هم يدعون القدرة ويعانون الدقة والعوز هكذا حكم الحق بضيق ورق من يعمل بالسحر ، ويمنحهم الحق دائماً ، وللعاقل أن يقول : مادامو يَدَّعُون الفلاح فليفلحوا فى إصلاح أحوالهم ومادام السحر يدعى أنه يعرف أماكن الكنوز المخبوءة فلماذا لا يعرف كنوزاً فى الأرض التى ليست مملوكة لأحد ويأخذها لنفسه ؟ هذا إن افترضنا أن الساحر أمين للغاية ولا يريد أن يأخذ من خزائن الناس

ولذلك تجد كل العاملين بالسحر والشعوذة بموتون فقراء ، بشعى الهيئة ، مصابين فى الذرية ؛ لأن الكائن منهم استغل فرصه لا توجد لكل واحد من جنسه البشرى ، وذلك للإضرار بالناس . واقرأ قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ۝٦ ﴾

(سورة الجن)

وهنا يقرر الحق أنهم سيعيشون فى إرهاق وتعب وذلك يتحدد موقفنا من السحر بأننا لا ننكره مثلما ينكره اخرون . فقد قال بعض من العلماء : إن السحرة جاءوا بعصىّ وضعوا فيها رئبقاً ،وعند وجود الزئبق تحت أشعة الشمس تعطى له حرارة فتتلوى العصى ، لكن نحن لا ننكر السحر ، كما لا ننكر الجن لأنه لا يعوزنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

« إن عفريتا من الجن تفلّت علىّ البارحة ليقطع علىّ الصلاة فأمكننى الله تبارك وتعالى منه وأردت أن أربطه إلى سارية من سوارى المسجد حتى تصبحوا وتنظروا إليه كلكم فذكرت قول أخى سليمان عليه الصلاة والسلام : ﴿ رب اغفر لى وهب لى ملكاً لايسغى لأحد من بعدى ﴾ »[1] .

فمادام الحق قد قال . إنه خلق خلقاً لا تدركهم بإحساسك ، فنحن نقر

---

(١) رواه البخارى ، ومسلم والنسائى

بما أبلغنا به الحق ، لأن وجود لشيء أمر وإدراك وجوده أمر آخر ، وكل مخلوق له قانونه ، فالعفريت من الجن قال لسيدنا سليمان عن عرش بلقيس :

﴿ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ﴾

(من الآية ٣٩ سورة النمل)

وكأن الجن يظن زمناً ما ، فقد يجلس سليمان في مقامه معهم ساعة أو ساعتين أو ثلاثا ، لكن الذي عنده علم من الكتاب يقول .

﴿ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ﴾

(من الآية ٤٠ سورة النمل)

ولابد أن يكون عرشه قد ارتد في أقل من ثانية بعد أن قال ذلك ، وبهذا نجد القرآن يورد ما حدث على الفور فيقول . ﴿ فلما رآه مستقراً عنده ﴾

مما يدل على أن الله قد خلق الأجناس ، وخلق لكل جنس قانوناً ، وقد يكون هناك قانون أقوى من قانون آخر ، لكن صاحب القانون مخلوق لذلك لا يحتفظ به ، لأن خالق القانون يبطله ، ويسلط أدنى على من هو أعلى منه ولنقف في التعبير القرآني : ﴿ سحروا أعين الناس ﴾ .

ونحن أمام أشياء هي العصي والحبال وجميع من البشر ينظر . ونفهم من قوله الحق : ﴿ سحروا أعين الناس ﴾ أن السحر يُصَبُّ على الرائي له ، لكن المرئي يظل على حالته ، فالعصى هي هي ، والحبال هي هي ، والذي يتغير هو رؤية الرائي . ولذلك قال سبحانه في آية ثانية

﴿ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴾

(من الآية ٦٦ سورة طه)

إذن فالسحر لا يقلب الحقيقة ، بل تظل الحقيقة هي هي ويراها الساحر على طبيعتها . لكن الناس هي التي ترى الحقيقة مختلفة إذن فالسحرة قد قاموا بعملهم وهو : ﴿ سحروا أعين الناس واسترهبوهم ﴾ .

واسترهبوهم أى أدخلوا الرهبة فى نفوس الناس من هذه العملية ، وظن السحرة أن موسى سيخاف مثل بقية الناس المسحورين ، ونسوا أن موسى لن يخدع بسحرهم ؛ لأنه باصطفاء الله له وتأييده بالمعجزة صار منفذ القانون الذى أرسله بجعل عصاه حية ، وصاحب القانون هو الذى يتحكم . وهم قد جاءوا بسحر عظيم ، وهو أمر منطقى ؛ لأن العملية هى مباراة كبرى يترتب عليها هدم ألوهية فرعون أو بقاء ألوهيته ، لذلك لابد أن يأتوا بآخر وأعظم ما عندهم من السحر

ويقول الحق :

﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ ﴾

ولماذا احتاجت هذه المسألة إلى وحى جديد خصوصاً أنه قد سبق أن تم تدريب موسى على إلقاء العصا ؟ . ونقول : فيه فرق بين التعليم للإعداد لما يكون ، والتنفيذ ساعة يكون ، فساعة يأتى أمر التنفيذ يجىء الحق بأمر جديد ، فربما يكون قد دخل على بشرية موسى شىء من السحر العظيم ، والاسترهاب ، هذا ونعلم أن قصة موسى عليه السلام فيها عجائب كثيرة . فقد كان فرعون يقتل الذكران ، ويستحى النساء ، وأراد ربنا ألا يُقتل موسى فقال سبحانه .

﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ ﴾

(من الآية ٧ سورة القصص)

وقوله سبحانه : ﴿ أرضعيه فإذا خفت عليه ﴾ يدل على أن العملية المخوفة لم تأت بعد ، بل ستأتى لاحقاً . وهات أية امرأة وقل لها : إن كنت خائفة على ابنك من أمر ما فارميه فى البحر من المؤكد أنها لن تصدقك ، بل ستسخر منك ؛ لأنها ستتساءل : كيف أنجيه من موت مظنون إلى موت محقق ؟ . وهذا هو الأمر الطبيعى ، لكن نحن هنا أمام وارد من الله إلى خلق الله ، ووارد الله لا يصادمه شك . إذن فالخاطر والإلهام إذا جاء من الله لا يراحمهما شىء قط . ولا يطلب

الإنسان عليه دليلاً لأن نفسه قد اطمأنت إليه ؛ لذلك ألقت أمام موسى برضيعها فى البحر .

ويقدّر الله أنها أم فيقول :

﴿ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِيٓ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ ﴾

(من الآية ٧ سورة القصص)

ولن يرده إليها فقط ، بل سيوكل إليه أمراً جللاً :

﴿ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾

(من الآية ٧ سورة القصص)

وكأن الحق سبحانه يوضح لأم موسى أن ابنها لن يعيش من أجلها فقط ، بل إن له مهمة أخرى فى الحياة فسيكون رسولاً من الله . فإذا لم تكن السماء ستحفظ عليه لأجل خطر الأم وعواطفها ، فإن السماء ستحفظه لأن له مهمة أساسية ﴿ وجاعلوه من المرسلين ﴾ . ونلحظ أن الحق هنا لم يأت بسيرة التابوت لكنه فى آية ثانية يقول :

﴿ إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ ﴾

(سورة طه)

ولم يقل فى هذه الآية : ﴿ ولا تخافى ولا تحزنى ﴾ ؛ لأنه أوضح لها ما سوف يحدث من إلقاء اليم له بالساحل وقوله فى الأولى : ﴿ فإذا خفت عليه ﴾ . هو إعداد للحدث قبل أن يجىء ، وفى هذه الآية ﴿ إذ أوحينا إلى أمك ما يوحى .. ﴾ إلخ تجد الملقطات سريعة متتابعة تتعبر عن التصرف لحظة الخطر . لكن فى الآية الأولى : ﴿ ولا تخافى ولا تحزنى إنا رادّوه إليك وجاعلوه من المرسلين ﴾ نجد البعد والهدوء والرتابة ؛ لأنها تحكى عن الإعداد . لم يكون .

إذن فالحق سبحانه وتعالى بمعنى كل جنس قانوناً ، وكل قانون يجب أن يُحترم

في نطاقه ، لأن تكافؤ الفرص بين الأجناس هو الذي يريده الله وحينما أراد سبحانه وتعالى أن يبين لنا هذه المسألة أوضح أن على المؤمن أن ينظر إلى المعطيات من وراء التكاليف ، وفي آية الدَّيْن ـ على سبيل المثال ـ نجد الحق يوصي المقترض « المدين » ـ وهو الضعيف ـ أن يكتب الدَّيْن ، ويعطي بذلك إقراراً للدائن وهو القوي القادر فيقول سبحانه :

﴿ وَلَا تَسْـَٔمُوٓاْ أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦ ﴾

(من الآية ٢٨٢ سورة البقرة)

والمسألة هنا في ظاهر الأمر أنه يحمي الدائن ويقوده ، لكن علينا أن ننتبه إلى أنه يحمي المدين من نفسه ؛ لأن الدَّيْن إن لم يكن موثقاً فالمدين لن يبذل الجهد الكافي للسداد ، وباجتهاد المدين تفيد الوجود بطاقة فاعلة ولكن إن لم نوثق الدَّيْن ، وتكاسل المدين عن العمل والسداد فقد تشيع الفوضى في المجتمع ويرفض كل إنسان أن يقرض أحداً ما يحتاج إليه . وبذلك تفسد الأمور الاقتصادية .

إذن فسبحانه حين يأمر بتوثيق الدَّيْن ، وإن كان في ظاهر الأمر حماية للدائن لكنه في باطن الأمر يحمي سبحانه المدين ، لأن هناك فرقاً بين ساعة التحمل للحكم ، وساعة أداء الحكم .

مثال ذلك حين يأتيك إنسان قائلاً : أنا عندي ألف جنيه وخائف أن يضيع مني فخذه أمانة عندك إلى أن أحتاج إليه ، وبذلك يكون هذا الإنسان قد استودعك أمانة ولا يوجد إيصال أو شهود ، والأمر مردود إلى أمانة المودَع عنده إن شاء أنكر ، وإن شاء أقر ونجد من يقول لهذا الإنسان : هات ما عندك يقول ذلك وفي ذهنه ونيته أن صاحب الألف جنيه حين يأتي ليطلبه يعطيه له ، إنه يعدُّ ذلك ساعة التحمل ، لكنه لا يضمن نفسه ساعة الأداء ، فقد تأتي له ظروف صعبة ساعة الأداء فيتعلل بالحجج ليبعد صاحب المال عنه

إذن هناك فرق بين حالة واستعداد حامل الأمانة ساعة التحمل وساعة الأداء لهذه

الأمانة . والمؤمن الحق هو من يتذكر ساعة التحمل والأداء معاً ، إنْ بعض الناس يرفض تحمل الأمانة ليزيل عن نفسه عبء الأداء .

ولذي يتعلم شيئاً يناقض ناموس وجوده كتعلم السحر نقول له : احذر أن تُبتلى وتُفتن ، بل ابتعد واحفظ نفسك ولا تستعمل ذلك ، واحذر أن تقول أنا سأستعمل ما تعلمته من سحر في الخير ، ومن يأتي لي وهو في أزمة سوف أحلها له بالسحر . ونقول : لهذا الإنسان : أنت تتكلم عن وقت التحمل ، ولكنك لا تتكلم عن وقت الأداء

ويقول الحق سبحانه :

﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

والإفك هو قلب الشيء عن وجهه ، ومنه الكذب . وعلمنا من قبل أن كل شيء له نسبة كلامية وله نسبة واقعية ، فإذا قلت مثلاً « محمد مجتهد » فهذه نسبة كلامية ، لكي أيوجد واحد في الواقع اسمه محمد وموثوق في اجتهاده ؟ . إن كان الأمر كذلك فقد وافقت النسبة الكلامية النسبة الواقعية ، ويكون الكلام هو الصدق ، أما الكذب فهو أن تقول « محمد مجتهد » ولا يوجد إنسان اسمه محمد ، وإن كان موجوداً فهو غير مجتهد ، ويكون الكلام كذباً لأن النسبة الكلامية خالفت النسبة الواقعية ، وحين يكذب أحد فهو يعلب المسألة ونسمي ذلك كذباً ، وشدة لكذب تسمى إفكاً . أو الكذب ألا يكون هناك تطابق ، وإن لم تكن تعلم ، والإفك أن تتعمد الكذب ، وهذا أيضاً افتراء ﴿ أن ألق عصاك فإذا هي تلقف ما يأفكون ﴾ .

وهنا يقول الحق سبحانه وتعالى : « فإذا » وهي تعبر عن المفاجئة حيث ابتلعت عصا موسى ـ بعد أن صارت حية ـ ما أتى السحرة وجاءوا به من الكذب والإفك وسحروا به أعين الناس .

ويقول سبحانه بعد ذلك :

﴿ فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ ﴾

وقوله : ﴿ فوقع الحق ﴾ أى صار الحق النظرى واقعاً ملموساً ؛ لأن هناك فارقاً بين كلام يلقى نظريًا وكلام يؤيده الواقع ، والوقوع عادة يكون من أعلى بحيث يراه ويعرفه كل من يراه

وقوله سبحانه : ﴿ فوقع الحق ﴾ أى ثبت الحق ، فبعد أن كان كلاماً خبريًا يصح أن يصدَّق ويصح أن يُكذب ، صار بصدقه واقعاً ﴿ فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون ﴾

والذى بطل هو ما كانوا يعملون من السحر . إن الحق جعل صدق موسى واقعاً مشهوداً . وبذلك غلب السحرة .

ويقول الحق :

﴿ فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانقَلَبُوا صَاغِرِينَ ﴿١١٩﴾ ﴾

ولم يغلب السحرة فقط ، بل غلب أيضاً فرعون وجماعته ، وعاش كل من هو ضد موسى فى صَغَار ، صغر للمستدعِى وصغار للمستدعَى . لذلك ذيل الحق الآية بقوله . ﴿ وانقلبوا صاغرين ﴾ أى أذلاء .

ويقول الحق بعد ذلك

﴿ وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ ﴾

ولم يقل الحق : وسجد السحرة ، ولكنه قال : « وألقى » مما يدل على أن

خرورهم للسجود ليس برأيهم ، ولكنه عملية انبهرية مما حصل أمامهم ، كأن شيئاً آخر ألقاهم ساجدين ، وهو الانبهار بالحق . فالساحر منهم كان يعتقد أنه هو الذي يسحر ، ثم يباغتا مجموع السحرة أن موسى حين ألقى عصاه رأوها حية بالفعل فعرفوا أن المسألة ليست سحراً ، وحينما ألقوا عصيهم وحبالهم التي جاءوا بها من كل المدائن ، قيل إنها حُمست على سبعين بعيراً وشاهدوا كيف أن العصا التي صارت حية أو ثعباناً لقفت كل هذا و بتلعته ! وحجم العصا هو حجم العصا مهما طالت ، وهكذا تيقن السحرة أن هذا لا يمكن أن يكون من فعل ساحر ، وانظر إلى الاستجابة منهم لمَّا رأوا :

﴿ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ ﴾

وهل هم سجدوا بعد الإيمان ؟ أم آمنوا بعد السجود ؟ النص هنا يظهر منه أنهم آمنوا بعد السجود ، ولكن كان الأمر يقتضي ألا يسجد أحد إلا لأنه آمن ، لكن نحن نعرف أن الإيمان عمل قلبي ، والسجود عمل عضلي وسلوك عملي ، فكل منهم آمن بقلبه فسجد

وهناك فرق بين أن يؤمنوا فيسجدوا ثم يعلنوا إيمانهم ؛ فيقولوا : آمنا برب العالمين ؛ لذلك نحن لا نرتب السجود على إيمان ، بل نرتب السجود مع القول بالإيمان وبإعلان الإيمان ؛ لأن إعلان الإيمان شيء ، والإيمان شيء آخر ، فكأنهم آمنوا فخروا ساجدين وبعد هذا قاموا بإعلان الإيمان ، وكان الناس سألوهم : ما الذي جرى لكم ؟ فقالوا . ﴿ آمنا برب العالمين ﴾ .

إذن فمن يحاول أن يستدرك على النص فعليه أن ينتبه إلى أن إخبارهم عن الإيمان يعني وجود الإيمان أولاً ، والسحرة قد آمنوا فسجدوا ، فستغرب منهم الناس هذا السجود ، وهنا قال السحرة : لا تستغربوا ولا تتعجبوا فنحن قد آمنا برب العالمين .

﴿ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ ﴾

وقيل فى بعض التفاسير : إن فرعون قال : أنا رب العالمين . لكن السحرة لم يتركوا قوله هذا فأعلنوا أن رب لعالمين هو : ﴿ رب موسى وهارون ﴾ . وقال فرعون : لقد ربيت أنا موسى ، فقالوا : لكنك لم تربه هارون .

ولذلك أوضح الحق هنا أن رب العالمين هو :

﴿ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾ ﴾

ولأن السحرة أعلنوها واضحة بالإيمان برب العالمين رب موسى وهارون ، وكان لابد أن يغضب فرعون ، فيأتى القرآن بما جاء على لسانه :

﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ ﴾

وكان فرعون مازال يحاول تأكيد سلطانه ، ويعلم أن بنى إسرائيل اختلطوا بالناس فى مصر ، ومنهم من تعلم السحر . ولذلك اتهم فرعون السحرة بأنهم قد اتفقوا مع موسى على هذه المسألة .

لقد كان فرعون فى مأزق ويريد أن يخرج منه ؛ لأن الناس جميعاً قد شاهدوا المسألة ، وهو لا يريدهم أن يتشككوا فى ألوهيته ، فينهدم الصرح الذى أقامه على الأكاذيب ؛ لذلك قال للسحرة : إن هذا لمكر مكرتموه فى المدينة .. أى أنكم اتفقتم مع موسى ، وسيأتى ويقول : اتهاماً لموسى :

﴿ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ﴾

(من الآية ٧١ سورة طه)

ونتيجة لهذا المكر المتوهم بين بنى إسرائيل وموسى يتوعدهم فرعون .

﴿ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ ﴾

والوعيد ـ كما نراه ـ قاس وفظيع ، تقطيع الأيدى والأرجل ثم الصلب كلها أمور تخيف ، فماذا يكون الرد ممن يتلقون هذا الوعيد ، وقد خالطت بشاشة الإيمان قلوبهم ؟ إنهم يقولون :

﴿ قَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ ﴾

إنك قد عجلت لنا لخير لأننا سنكون فى جوار ربنا ، فأنت بطيشك وحمقك قد أسديت لنا معروفا وخيرا من حيث لا تدرى . ويزيدون فى تقريع فرعون بما يجىء فى القرآن على ألسنتهم :

﴿ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا ۚ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾ ﴾

« الذى تكرهه منا لأن « تنقم » تعنى تكره » وقولهم لفرعون : أليس الذى تكرهه منا أنا آمنا بآيات ربنا لما جاءتنا ؟ وهل الإيمان بآيات الإله حين تجىء مما يُكره ؟!! ويسمون ذلك فى اللغة تأكيد المدح بما يشبه الذم ؛ كأن يقول إنسان : ماذا تكره لىّ ؟ أصدقى ؟ أمانتى ؟ أجودى ؟ أعلمى ؟

كأنه يعدد أشياء يعرف كل الناس واقعاً أنها لا تُكره ، لكن الخطأ في مقاييس من يكره الصواب ، فهي أمور لا تستحق أن تُكره أو تعاب أو تذم . لقد تيقنوا أن لقاء الله على الإيمان هو الخير وكلهم يفضل جوار الله على جوار فرعون . وهذا الذي يعتبره فرعون عقاباً إنما يثبت خيبته حتى لو توقع العقوبة ؛ لأنه لو لم يهددهم بهذه الميتة فهم سيموتون ليرجعوا إلى الله ، وهذا أمر مقطوع به ، وكل مخلوق مصيره أن ينقلب إلى الله ، وكأنهم أبطلوا وعيد فرعون حين قال لهم :

﴿ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

ثم يتجهون إلى ربهم وحالقهم فيقولون ﴿ ربنا أفرغ علينا صبراً وتوفنا مسلمين ﴾ .

وده الإفراغ ، أن يصب شيء على شيء ليغمره ، وكأنهم يقولون أعطنا يا رب كل الصبر ، وهم يحتاجون إلى الصبر لأن فرعون قد توعدهم بأن يقطع أيديهم وأرجلهم . ولذلك قال بعض العارفين بالله عجبي لسحرة فرعون كانوا أول النهار كفرة سحرة وكانوا آخر النهار شهداء برره .

ويقول سبحانه

﴿ وَقَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ ﴿١٢٧﴾ ﴾

وهكذا نعرف أن المقربين من فرعون هم أول من خافوا على سلطانهم ، ويدل

هذا القول أيضاً على أن فرعون لم يتعرض لموسى بأي أذى ؛ لأنه ما زال يعيش في رهبة ليقين وصوله الحق الذي جاء به موسى ؛ لأن فرعون أول من يعلم أن مسألة الوهيته كذب كبير ، ويعلم جيداً أن موسى على حق ، لكن إعلان انهزامه أمام الجمع ليس أمراً سهلاً على النفس البشرية ، وسأل الملأ من قوم فرعون الذين اهتز أمامهم سلطانه ومكانته ، قائلو لفرعون أتترك موسى وقومه ليفسدوا في الأرض ؟ أو فيما يبدو أن موسى وهارون تركا المكان بعد أن انتهيا من أمر السحرة ، ولم يتعرض عليهما فرعون ؛ لذلك تساءل الملأ من قوم فرعون :

﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ﴾

(من الآية ١٢٧ سورة الأعراف)

و « يذرك » أي يدعك ويتركك ، وكان فرعون يعتقد أن هناك آلهة صغيرين و آلهة سماويين ، وهو رب العالم السفلي كله لذلك قالوا : « ويذرك وآلهتك » وهناك قراءة أخرى « ويذرك لآلهتك أي عبادتك » أي يتركك أنت ويترك عبادتك ويقول فرعون : ﴿ فإن سنقتل أبناءهم ونستحيي نساءهم ﴾

وحتى بعد البحطة لم يتعرض فرعون لموسى ، ولا يزال خوفه من موسى يمنعه من الاقتراب أو لدنو منه أو لاتصال به ولو بكلمة ، إنه يأخذ الحذر من أن يقدم على شيء ضد موسى ، فيفاجئه موسى مفاجأة ثانية ويقال إن الثعبان الذي ظهر ساعة ألقى موسى عصاه فتح شدقيه واتجه إلى فرعون ، فصاح كف عني وأومن بما جئت به وهو أمر محتمل ، لأن فرعون حتى هذه البحطة لم يجرؤ على الاقتراب من موسى ، وجاء بخبر قتل الأبناء وسبي النساء ولم يأت بسيرة موسى

﴿ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴾

(من الآية ١٢٧ سورة الأعراف)

والقوي حين يملك القدرة على الضعيف لا يشد الخناق عليه شداً ليمتك به ؛ لأنه يعرف ضعفه ، ويستطيع أن يناله في أي وقت ، لكن لو كان الخصم أمامك قوياً فأنت ترهبه بالقوة حتى يخضع لك ، وهذا يقول فرعون : ﴿ وإنا فوقهم قاهرون ﴾

إن فرعون يؤكد لقومه أنهم مسيطرون وغالبون ، ولن يستطيع قوم موسى أن ينتزعوا منهم . ويؤكد فرعون . سفعل أبناءهم ونستحيي نساءهم ؛ لأن الأبناء هم العدة ، والنساء عادة شأنهن مبني على الحجاب ، وعلى الستر ، وفي إبقاء المرأة وقتل الرجل إذلال للرجال ؛ لأن التعب سيكون من نصيب النساء . ولذلك كان العرب حين يغيرون على عدو ، يصحبون نساءهم لتزيد الحمية ولا يحور ولا يحبن واحد وتراه زوجه أو أخته أو ابنته وهو على هذا الحال ، وكذلك كان العرب يحاذون الانهزام حتى لا يمسك لعدو نساءهم ويأخذهن سبايا

ومما يؤكد فرعون إصراره على إذلال قوم موسى بأن يعيد قتل الأبناء ، وأن يستحيي النساء ، وكان الفرعون يفعل مثل ذلك الأمر من قبل ، والسبب في ذلك أن بني إسرائيل كانوا يساعدون ملوك الهكسوس ، وبعد أن طرد الفراعنة الهكسوس ، اتجهوا إلى إيذاء بني إسرائيل الذين كانوا في صف الهكسوس ، ومن بقي من بني إسرائيل تعرض لتقتيل الأبناء ، لكن الحق أنقذ موسى حين أوحى لأمه أن تلقيه في اليم ليربيه فرعون . وهاهو ذا فرعون يعيد الكرة مرة أخرى بالأمر بتقتيل الأبناء وسبي النساء

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ ﴾

ويقرر موسى الحقيقة الواضحة وهي أن الأرض ليست لفرعون ، والعاقبة لا تكون إلا للمتقين وكأنه بهذا القول يريد أن يردهم إلى حكم التاريخ حيث تكون العاقبة دائماً للمتقين ، فإذ قال فرعون : وإنا فوقهم قاهرون ، مستعلون غالبون مسلطون مسيطرون ، فإن موسى يرد على ذلك أنا أستعين بمن هو أقوى

منك . إن موسى عليه السلام يأمر قومه بأن يستعينوا بالله ، ويصبروا على ما ينالهم من بطش فرعون وظلمه

ولأن قوم موسى كانوا من المستضعفين ، فإن الله وعدهم أن يؤمنهم في الأرض ويمكن لهم فيها وهذا إخبار من الله وإخبار الله حقائق ولكن ماذا كان موقف قوم موسى منه بعد هذا النصر العظيم لموسى ، ولنصر لهم ؟ نجد الحق سبحانه يقول .

﴿ قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾ ﴾

لقد قالوا لموسى : من قبل أن تأتينا أوذينا بأن قتلوا الأبناء واستحيوا النساء ، وبعد أن جئت هانحن أولاء نتلقى الإيذاء . كأن مجيئك لم يصنع لنا شيئاً . إذن هم نظروا للابتلاءات التي يجريها الله على خلقه ، ولم ينظروا إلى المنة والمنحة والعطاء وإلى آلاء الانتصار ، وإلى أن فرعون قد حشد كل السحرة ، وبعد ذلك هزمهم موسى ، وكان يجب أن يكون ذلك تنبيها لهم لقدر عطاءات الله ، هم يحسبون أيام البلاء ، ولم يحسوا أيام الرخاء

وقوله ﴿ فينظر كيف تعملون ﴾ يدل على أنهم سوف يخونون العهود ، ويفعلون الأشياء التي لا تتناسب مع هذه المقدمات وفي الإسلام نجد عمرو بن عبيد وقد دخل على المنصور قبل أن يكون أميراً للمؤمنين ، وكان أمامه رغيف أو رغيفان ، فقال : التمسوا رغيفاً لابن عبيد فرد عليه العامل : لا نجد . فلما ولي الخلافة وعاش في ثراء الملك وبعمته دخل عليه ابن عبيد وقال . لقد صدق معكم

الحق يا أمير المؤمنين في قوله :

﴿ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾

(من الآية ١٢٩ سورة الأعراف)

وقد قال موسى لقومه هذا القول بعد أن عايروه بعدم قدرته على رد العذاب عنهم . وهكذا استقبل قوم موسى أول هزيمة لفرعون أمام موسى ، وقالوا له : أوذينا من قبل أن تأتينا ، ومن بعد ما جئتنا ، أي بالتذبيح ، واستحياء النساء ، وقتل الأبناء ، فكأن مجيئك لم يفدنا شيئاً لأننا مقيمون على العذاب الذي كنا نُسامه . فلا حاجة لنا بك ، ولا ضرورة في أن تكون موجوداً ؛ بدليل أن الذي حدث بعدك هو الذي حدث قبلك .

ولم يلتفتوا إلى أن الإيذاء من قبل ومن بعد لا ينشأ إلا من عدو ، فكأن موسى يرد عليهم بأن أسباب الإيذاء ستنتهي ، وأن الله سيهلك عدوكم الذي آذاكم من قبل ويؤذيكم من بعد ولن يقتصر الأمر على هذه النعمة ؛ بل يزيدكم بأن يستخلفكم في الأرض ، ويعطيكم ملكهم ويعطيكم أرضهم . وكأن هنا أمرين : الأمر الأول سلبي : وهو إهلاك العدو ، والأمر الثاني إيجابي : وهو استخلافكم في الأرض وهذا أمر لكم ، ووعد من الله بأن تكون لكم السيادة والملك وعليكم أن تنتبهوا إلى أن نعمة الله عليكم بإهلاك عدوكم ، وباستخلافكم في الأرض لن تترك هكذا ، بل أنا رقيب عليكم أنظر ماذا تفعلون ، هل تستقبلون هذه النعم بالشكر وزيادة الإيمان واليقين والارتباط بالله ، أو تكفرون بهذه النعمة ؟

وحين يقول الحق سبحانه وتعالى على لسان موسى ﴿ عسى ﴾ فهي كلمة ـ كما يقول علماء اللغة ـ تدل على الرجاء ، ومعنى الرجاء أن ما بعدها يكون مرجو الحصول . وهناك فرق بين التمني وبين الرجاء . فالتمني أن تتطلب أمراً مستحيلاً أو يكون في الحصول عليه عسر ، ولكنك تريد ـ فقط ـ بالتمني إشعار حبك به ، فأنت إذا قلت : ليت الشباب يعود ، فهذا أمر لا يكون ، ولكنك تعلن حبك لمرحلة الشباب . وقصارى ما يعطيه أن يعلمت أنك تحب هذا المتمنى . لكن هل يتحقق أو لا يتحقق . . فهذه ليست واردة .

لكن « الرجاء » شيء محبوب يوشك أن يقع ، وهكذا نعرف أن الرجاء أقوى من التمنى . وأداة التمنى « ليت » ، وأداة الرجاء « عسى » وحين يكون بعد « عسى » ما يُرَجّى فلذلك مراحل تتفاوت بقوة أسباب الرجاء في الوقوع . فأنا مثلاً إذا قلت : عسى أن أكرمك فهذا أمر يعود إليّ أنا ، لأنّ إكرامي لك يقتضي بقائي ، وعدم تغير نفسي من ناحيتك ، فمن الجائز أن تتغير نفسي قبل أن أكرمك ولا يقع إكرامي لك . هذا هو الرجاء من صاحب الأغيار ، ومادمت صاحب أغيار فقد لا أقدر على الإكرام ، أو أقدر ولكني لم أعد أحب هذا الأمر فقد انصرفت نفسي عنه ، وهذا يفسد الرجاء ويقلل الأمل في حصوله . فإذا قلت لإنسان : عسى أن يكرمك فلان وهو مساويه ، فهذا أمر مستبعد قليلاً ؛ لأن من يقول ذلك لا يملك أن يقوم فلان بإكرام المساوي له ، لأنه صاحب أغيار .

لكن إذا قلت : عسى الله أن يكرمك فهذه أقوى ، لأن ربنا لا يعجزه شيء عن إكرام إنسان . وهل يقبل الله أن يجيب رجاءك ؟ هذه مسألة تحتاج إلى وقفة ، فسبحانه من ناحية القوة له مطلق القدرة فلا شيء يعطله أو يستعصي أو يتأبى عليه . فإذا ما قال الحق عن نفسه : ﴿ عسى ربكم ﴾ فقد انتهت المسألة وتقرر الوعد وتحقق ، وهذا ما يقال عنه رجاء محقق . إذن مراحل الرجاء هي : عسى أن أكرمك ، وعسى أن يكرمك زيد ، وعسى الله أن يكرمك ، وأقوى ألوان الرجاء أن يعدِ الحق بالإكرام أو بالرحمة .

﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ﴾

(من الآية ١٢٩ سورة الأعراف)

والكلام كما نراه هو من موسى ، ولا يقدر على هذه المسألة إلا الله ، فما موقع هذا من تحقيق الرجاء ؟ . نعلم أن موسى رسول أرسله الله لهداية الخلق ، وأرسله مؤيداً بالمعجزة ، فإذا كان الرسول المؤيد بالمعجزة قد أمره الله أن يبلغهم ذلك ، فيكون الرجاء منه مقبولاً ﴿ عسى ربكم أن يهلك عدوكم ﴾ .

ومرة تكون إزالة الشيء الضار نعمة بمفردها ، أما أن يهلك الله عدوي ويحلني الحق مكانة عدوي العالية فهذه نعمة إيجاب ، تكون بعد نعمة سلب . ومثل هذا سوف يحدث يوم القيامة ؛ لأن الحق يقول :

﴿ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ﴾

(من الآية ١٨٥ سورة آل عمران)

ومجرد الزحزحة عن النار فضل ونعمة ، فمابالك بمن زُحزح عن النار وأدخل الجنة ؟ . لقد نال نعمتين . وهنا يقول الحق سبحانه : ﴿ عسى ربكم أن يهلك عدوكم ﴾ . وتلك وحدها نعمة تليها نعمة أخرى هي : ﴿ ويستخلفكم في الأرض ﴾ . لكن ثمن هذه النعم هو أن ينظر ماذا تعملون ؟ . هل ستشكرون هذه النعم وتكونون عبداً صالحين ، أو تجحدونها وتكفرونها ؟ فالإنسان ظلوم كفار

وكلمة « ينظر » إذا جاءت على الإنسان نُفهم المراد منها أي يراك بناظره . وإذا أُسندت لله فالأمر مختلف ، فتعالى الله أن تكون له حدقة عين مثل عيوننا . لكنه سبحانه لا يجهل شيئاً لينظره ؛ لأنه هو ـ سبحانه ـ عالمه قبل أن يقع . ونعلم أن هناك فرقاً بين الحكم على المخلوق بعلم الخالق ، وبين الحكم على المخلوق بعمل المخلوق .

مثال ذلك نجد الأستاذ في مادة ما يعرف مستويات الطلاب الذين يدرسون على يديه وعميد الكلية يقول له : ما رأيك ؟ فيقول فلان تلميذ يستحق النجاح بتقدير مرتفع والثاني لابد أن يرسب . الأستاذ يقول هذا الحكم بناء عن علمه بحال كل طالب لكن إذا أرسب الأستاذ طالباً بناء على تقديره دون امتحان فالطالب الذي رسب قد يقول لأستاذه : أنت شططت في الحكم ؛ ولو مكنتني من الامتحان لنجحت . وحين يقرر العميد امتحان الطالب ، ويؤدي الامتحان بالفعل ، ولكنه يرسب . هنا يتأكد للعميد أن الحكم برسوب طالب قد عرفه الأستاذ أولاً ثم تلا ذلك إخفاق الطالب في الامتحان .

إن الله سبحانه حين يقول . ﴿ فينظر كيف تعملون ﴾ . هو سبحانه لا ينظرها ليعلمها ـ حاشا لله ـ فهو عالمها ، ولكنه لا يريد أن يحكم بعلمه على خلقه . ولكن يريد أن يحكم على خلقه بفعل خلقه ، وسبحانه عالم أزلاً بكل من يهدي ومن يضل ، ولذلك خلق الجنة وخلق النار لتسع كل منهما كل الخلق ، ولم يخلق أماكن في الجنة على قدر من سوف يدخلونها فقط ، وكذلك لم يخلق أماكن في

النار لا تسع فقط أهل النار ، بل يمكنها أن تسع كل الخلق ، ولم يحكم بعلمه فى هذه المسألة ، بل يترك الحكم الأخير لواقع الأشياء مادام هناك اختيار للإنسان ، فعلى فرض أنكم جميعاً آمنتم فلكم كلكم أماكن فى الجنة . وعلى فرض أنكم ـ والعياذ بالله ـ كفرتم فلكم أماكن فى النار ، وسبحانه لن يشىء شيئاً جديداً ، بل أعد كل شىء وانتهى الأمر .

وحين يأتى أهل الجنة ليدخلوا الجنة ، وأهل النار ليدخلوا النار سوف يكون لأهل الجنة مقاعد أخرى كانت مخصصة لمن دخلوا النار . ويعلن لأهل الجنة : أورثتموها وخلوها أنتم :

﴿ وَنُودُوٓاْ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا ﴾

(من الآية ٤٣ سورة الأعراف)

وهى ميراث من الذين كانت معدة لهم ولم يقوموا بالعمل المؤهل لامتلاكها . فإياك أن تفهم أن نظر الله إلى خلقه ليعلم منه شيئاً.لا إنه العليم أزلاً .

ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ﴾

(من الآية ٢٥ سورة الحديد)

وسبحانه يعلم أزلاً ويتحقق بسلوك الناس علمهم بأفعالهم واقعاً ، وعلم الواقع هو الذى يكون حجة على الخلق . وهنا فى الآية التى نحن بصددها ثلاثة أشياء . أن يهلك سبحانه عدوكم ، وأن يستخلفكم فى الأرض ، فينظر كيف تعملون . ونحقق فيم تحقق منهما

وجاء سبحانه فى مقدمة الإهلاك ، فقال :

﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ

الثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾

وهكذا نرى أن الإهلاك لم يحدث دفعة واحدة ، بل على مراحل لعلهم إذا أصابتهم شدة يضرعون إلى الله

نحن نعلم أن السنة هي العام . أي من مدة إلى نهاية مدة مثلها ، لكنها تطلق ـ أيضاً ـ على الجدب والقحط . ولذلك يقول الرسول صلى الله عليه وسلم في دعائه على قومه :

« اللهم اجعلها عليهم سنين كسني يوسف »[1]

أي أن ينزل بهم سبحانه بعضاً من الجدب ليتأدبوا قليلاً .

ويقال « أسنت القوم » أي أصابهم قحط وجدب . إذن فالسنة المراد منها هنا القحط والجدب .

ولماذا سماها سنة ؟ لأن نعم الله متوالية كثيرة ، وابتلاءاته لخلقه بالشر قليلة في الكون ، وسبحانه ينعم عليهم مدة طويلة ثم يبتليهم في لحظة ، فإذا ما ابتلاهم في وقت يؤرخ به ، ويقال حدث الابتلاء سنة كذا . فيقال : سنة الجراد ، سنة حريق القاهرة ، وهكذا نجد الناس تؤرخ بالأحداث المفجعة ، لأن الأحداث السارة عادة تكون أكثر من الأحداث السيئة . ولذلك قلنا إن الذي يعد أيام البلاء عليه أن يقارنها بأيام الرخاء ، وعلى الواحد منا أن ينظر إلى أيام السنة التي عاشها ، إن جاء له يوم بلاء حزن نقل له : وكم مرة عشت ونعمت بالرخاء ؟ ونجد أن أيام الرخاء هي أكثر من أيام البلاء : ﴿ ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات ﴾

وعرفنا أن السنين ـ كما قلنا ـ تعني الجدب والقحط ، أما قوله سبحانه : « ونقص من الثمرات » فهو يدل على أن بعضاً من الثمار كان موجوداً ، لو كان الجدب

(١) رواه البخاري في التفسير ، ومسلم في المنافقين ، وأحمد ١ ـ ٢٨٠ ، ٤٤١

والقحط في البادية ، أما « نقص الثمرات » فكان في الحضر ، ويقال:إن النخلة الواحدة في الحضر كانت لا تحرج في السنة إلا بلحة واحدة ولماذا هذه البلحة ؟ لأن أسباب رحمته سبحانه يجب أن تبقى في خلقه ، ولو أن النخل كله لم يطرح ولا بلحة واحدة لانقطع نسل النخيل ؛ لذلك يُبقي الله أسباب رحمته لنا .

إننا نرى في واقعنا أنهم مهما حاولوا أن يستزرعوا فواكه بدون بذور بواسطة التقدم العلمي المعاصر ، نجد ثمرة وقد شذت وفيها بذرة ، لماذا ؟ يقال لنا لاستبقاء النوع ، فلو خرجت كل الثمار بلا بذور ثم أكلناها جميعها فكيف نزرع محصولاً جديداً ؟ ولذلك قلنا من قبل إن الحق سبحانه وتعالى من رحمته بالخلق في استبقائه للنعم ومقومات الحياة لم يجعل الثمار حلوة تستساغ إلا بعد أن تنضج بذرتها ، فأنت حين تفتح البطيخة إن كان بذرها أبيض تجد طعمها لا يستساغ وترميها . لكن حين يسودّ بذرها ويكون صالحاً لأن تعيد زراعته ، هنا تكون ثمرة البطيخة ناضجة وحلوة الطعم . وبذلك يوضح لك الحق أن الثمار لن تصير مقبولة ومستساغة إلا بعد أن تنضج بذرتها لتكون صالحة لاستنباتها من جديد ، وفي هذا استبقاء للرحمة ، وحتى مع العاصين نجده سبحانه يسقي الرحمة معهم .

﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَّعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

وقوله : ﴿ لعلهم يذكرون ﴾ يعني أن على الإنسان أن يتذكر أنه الخليفة في الأرض وأنه غير أصيل في الكون حتى يظل العالم مستقيماً . لكن الذي يفسد العالم أن الإنسان حينما تستجيب له أسباب الحياة ، ومنها الكونية ويحرث ويبذر ويطلع الزرع ، ويشعل النار ويستخرج المياه من الآبار ينسى أن كل ذلك « أسباب » ولا يتذكر المُسبِّب إلا حينما تمتنع عليه الأسباب .

والمثال في حياتنا اليومية أن الإنسان منا إذا جاء ليفتح صنبور المياه في البيت فلم يجد ماءً فيتجه أول ما يتجه إلى محبس المياه الذي يتحكم في مياه المنزل ويرى هل به خلل أو سدد ، وإن وجده سليماً ، يبحث هل أنبوبة وماسورة المياه الرئيسية مكسورة أو لا ؟ وإن كانت ماسورة المياه سليمة فهو يبحث عن الخلل في

آلة رفع المياه ، ويظل يبحث في الأسباب الكثيرة ، وقديماً لم تكن المياه تأتي إلا من الآبار وعندما لا يوجد في البئر ماء يقول العبد : يا رب اسقني . والحضارة الآن أبعدتنا بالأسباب عن المسبب

والحق قد أخذ قوم فرعون بالسنين ونقص الثمرات لينقص أيديهم من أسبابها ، فإذا نقصت اليد من الأسباب لم يبق إلا أن يلتفتوا إلى المسبب ويقولون « يا رب » ويقول القرآن عن الإنسان :

﴿ وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا ﴾

(من الآية ١٢ سورة يونس)

إذن فالإنسان يذكر المسبب حين تمتنع عنه الأسباب ، لأنها مقومات الحياة ، فإذا امتنعت مقومات الحياة يقول الإنسان : يا رب ، وهكذا كان ابتلاء الله لقوم فرعون بأخذهم بالسنين ونقص الثمرات ليذكروا خالقهم

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَٰذِهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ ۗ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾ ﴾

والحسنة إذا أطلقت فهي الأمر الذي يأتي من ورائه الخير . ولكن الحسنة مرة تكون لك ، ومرة تُطلب منك ، فالحسنة التي لك في ذاتك أولاً أن تكون في عافية وسلام ، ثم الحسنة في مقومات الذات ومقومات الحياة ، وهي في النبات ، والحيوان ، والخصب والثروة . والحسنة المطلوبة منك هي أيضاً لك . فسبحانه يطلب منك عمل شيء يورثك في الآخرة حسنة ، ولذلك يقول سبحانه

﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ﴾

(من الآية ١٦٠ سورة الأنعام)

وهذه هي الحسنة التي تعطي الإنسان خيراً فيما بعد ، إذن فالحسنة التي هي ذلك من عافية وسلامة أو في مقومات الدنيا من ثمرات وحيوانات وحصب وأعشاب وثراء فكلها موقوته برمن موقوت هو الذنيا ، والحسنة الثانية غير محدودة لأن زمنها غير محدود ، فأي الحسنات أرجح وأفضل بالنسبة للإنسان ؟ إنها حسنة الآخرة .

وقول الحق . ﴿ فإذا جاءتهم الحسنة ﴾ أي جاء لهم قدر من الخصب والثمار وغير ذلك من الأرزاق يقولون ﴿ لنا هذه ﴾ أي أنا نستحقها ، فوجد يقول ، أنا أستحقها لأني رتبت لها وأتقنت الزراعة والحصاد مثلما قال قارون

﴿ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ﴾

(من الآية ٧٨ سورة القصص)

وأجرى عليه الحق التجربة ، فعادام يدعي أنه جاء بالمال على علم من عنده فليجعل العلم الذي عنده يحافظ له على المال أو يحافظ له على ذاته ، وهم قالوا عن الحسنات التي يهبهم الله لهم . ﴿ قالوا لنا هذه ﴾ أي نستحقها ، لأنا قمنا بمقدمات تعطينا هذه النتائج وجرت العادة قديماً بأن يقبض الفلاح كل سنة ثمرة الأرض ، ثم يبذرون الحب وينتظرون الثمار فإن جاءت لهم سيئة مثل أجدبهم الله لهم بالسنين ينسبون ذلك لموسى

﴿ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

(من الآية ١٣١ سورة الأعراف)

فإذا ما جاءتهم سيئة يطَّيَّرون أي يتشاءمون لأن الطيرة هي التشاؤم ، وضده التفاؤل ، ويقال ﴿ فلان طائره يمن ﴾ ، و ﴿ فلان طائره يمن وسعد ﴾ وقديماً حينما كانوا يريدون طلب مسألة ما ، يأتون بطير ويضعه صاحب المسألة على يده ويرجره ويثيره ، فإن طار يميناً فهذا فأل حسن ، وإن طار يساراً فهذا فأل سيء ،

والحق هنا يوضح لا تتشاءموا بموسى ، لأن شؤمكم أوحظكم السيء ليس من موسى ؛ لأن موسى لا يملك في كون الله شيئاً ، وإنما المالك للكون هو رب موسى . وكأن الحق يريدهم أيضاً ألا يفتنوا في موسى إن صنع شيئاً يأتي لهم بخير ، وهنا يقول لهم لا تتطيروا بموسى ، لأن طائركم من عند الله

ولأن أحداث الحياة صنفان : حدث لك فيه مدخل ، مثل التلميذ الذي لم يذاكر ويرسب ، أو إنسان لا يحسن قيادة سيارته فقدها فعطبت به أو أصاب أحداً إصابة خطيرة وهنا لا عريم لهذا الإنسان ، بل هو عريم نفسه وهناك شيء يقع عليك ، واسمه حدث قهري ، فالإنسان في الأحداث بين أمرين اثنين : إما مصيبة دخلت عليه من ذات نفسه لتقصيره في شيء وإما أحداث قدرية تنزل بالإنسان ونقول إنها من عند الله لحكمة لا يعرفها الإنسان ، لأن الإنسان ينظر إلى سطحيات الأشياء ، وإلى عاجل الأمر فيها ، ولكنه لا ينظر إلى عاقبة الأمر ولهذا تحدث له بعض من الأحداث ليس له فيها مدخل

مثال ذلك . أن يكون للإنسان ابن نجيب وذكي وترتيبه دائماً من العشرة الأوائل ، ثم جاء في ليلة الامتحان أو في يوم الامتحان وأصابه صداع جعله لا يعرف كيف يجيب عن أسئلة الامتحان ورسب ، وهذه مصيبة ليس له مدخل فيها .

وعادة ما يحزن الناس من مثل هذه المصائب لكن المؤمن يقول . إن الولد لم يقصر ، وهذا أمر جاء من الله ، وسبحانه منزه عن العبث ، بل حكيم ولابد أن له حكمة في مثل هذه الأمور . وبعد مدة تتبين الحكمة ، فلو كان الولد قد نجح لأصابته عين الحسود . وحدث له ما يكره ، فكأن الله يصنع له تميمة يحميه بها من الحسد وقديماً حين كانوا يصنعون للطفل الجميل « فاسوحة » ، ولا يهتمون بنظافته ولا بملابسه ، لماذا ؟ يقال حتى لا تتجه إليه عين العائن الحاسد .

وأقول : وما الذي يدريك أن الله سبحانه وتعالى صنع الحادث الطارئ ليرد عنه العين ، ويُسكت الناس عنه ؟ وما الذي يدريك أن الله أراد له أن يرسب هذا العام لأنه لم يكن يستطيع الحصول على المجموع الذي يدخله الكلية التي يريدها ، ثم يستذكر في العام التالي وتكون المذاكرة سهلة بالنسبة له ، ونقول له : احمد ربك

على أنك لم تنجح في لعام السابق وأن الله أراد لك خيراً .. لتبذل جهداً وتنجح وتنال المجموع الذي أردته لنفسك

إذن فالمقادير التي تجري على الناس بدون دخل لهم فيها ، فلله فيها حكمة ، وهنا يقال : ﴿ طائركم عند الله ﴾ ، أما إذا كان للإنسان دخل فيما يجري له فيقال : طائرك من عندك أنت وشؤمك من نفسك وعصيانك

﴿ فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَٰذِهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ ۗ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

ألم يتطير اليهود في المدينة برسول الله صلى الله عليه وسلم حينما قالوا : قلت الأمطار وارتفعت الأسعار من شؤم مجيء هذا الرجل ، ولم يتفهموا حكم الله . لقد كانوا سادة في الجزيرة ؛ لأنهم أهل علم بالكتاب وسيطروا على حركة السوق التجارية ، وتعاملوا في الربا وتجارة السلاح وكان عندهم الحصون ، والأسلحة ، وأراد الله أن يشعرهم بأحد شيء من أسبابهم وبهذا كيانهم يلفتهم إلى أنهم خرجوا عن المنهج إلى أن هناك رسولاً قد جاء بعودة إلى المنهج .

وقوله الحق : ﴿ ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴾ يعني أن هناك قلة تعلم . فما موقف هذه القلة ، ولماذا لم يرفضوا موقف الكثرة ؟ كان موقفهم هو الصمت خوفاً من الطغيان ؛ لأن الطاغية أجبرهم وقهرهم وجعلهم يسكتون ولا يعترضون على باطل ، ونرى في حياتنا كثيراً من الناس يعلمون الزور ويعلمون الطغيان ولكنهم لا يتكلمون .

ويقول الحق بعد ذلك .

﴿ وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِن آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ ﴾

أى وقال قوم فرعون لموسى عليه السلام أى شىء تأتينا به من المعجزات لتصرفنا عما نحن عليه فلن نؤمن لك ، وسموا ما جاء به موسى « آية » استهزاء منهم وسخرية وكل هذه مقدمات تبرر الإهلاك الذى قال الله فيه

﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ﴾

(من الآية ١٢٩ سورة الأعراف)

واعلموا أن ما جاء به موسى هو سحر على الرغم من أنهم رأوا السحرة الذين برعوا فى السحر وعرفوا طرائقه ونبذوا فى سواهم قد خروا ساجدين وآمنوا ، كيف يحدث هذا والسحرة كلهم جُمعوا إلى وقت معلوم ؟ وشهد كل الناس التجربة الواقعية التى اشتملت فيها عصا موسى كل سحر السحرة فآمنوا وسجدوا ، فكيف يتأتى لمن لا يعرفون السحر أن يتهموا موسى بالسحر ؟ وكيف يظنون أن ما يأتى به من آيات الله هو لون من السحر ؟ إنهم يقولون كلمة « مهما » وهى تدل على استمرارية العناد فى نفوسهم مثلما يقول واحد لآخر لقد صممت على ألا أقبل كلامك ، فيكرر الرجل - انتظر لتسمع حجتى الثانية فقد تقنعك ، فيقول مهما تأتنى من حجج فلن أسمع لك ، وهذا يعنى استمرارية العناد والجحود والتمرد ويقدمون حيثيات هذا الجحود فيقولون

﴿وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾﴾

(سورة الأعراف)

وإذ كانوا يظنون أن آيات الله التى مع موسى من السحر ، فهل للمسحور إرادة مع الساحر ؟ . ولو كانت المسألة سحراً لسحركم وانتهى الأمر وقلنا قديماً فى الرد على الذين قالوا . إن محمداً يسحر الناس ليؤمنوا به ، قلنا إذ كان هو قد سحر الناس ليؤمنوا به ، فلماذا لم يسحركم لتؤمنوا وتنتهى المسألة ؟ إن بقاءكم على العناد دليل على أنه لا يملك شيئ من أمر السحر .

وأنت ساعة تسمع كلمة « مهما » تعرف أن هناك شرطاً ، وله جواب ، ويقول العلماء : إن أصلها « مه » أى كُفّ عن أن تأتينا بأية اية فلن نصدقك وهذا يعنى أن هناك إصراراً وعناداً على عدم الإيمان .

ويبين الحق عقابه لهم على ذلك

﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾ ﴾

وكلمة « الطوفان » يراد بها طغيان ماء ، والماء - كما نعلم - هو سبب الحياة ، وقد يجعله الله سبباً للدمار حتى لا تفهم أن المسائل بذاتيتها ، بل بتوجيهات القادر عليها ، وعندما ننظر إلى الطوفان الذي أغرق من قبل قوم نوح ، ولم ينج أحد إلا من ركب مع نوح في السفينة ؛ وهنا مع قوم موسى لا توجد سفينة ، لأن الله يريد أن يؤكد لهم العقاب على طغيانهم . وإذا كان الطوفان قد أصاب آل فرعون ومعهم بنو إسرائيل لدرجة أن الواحد منهم كاتب المياه تبلغ التراقي فيبقى واقفاً لأنه لو جلس يموت ، ويظل هكذا ، وأمطرت عليهم السماء سبعة أيام ، لا يعرفون فيها الليل من النهار ويرون أمامهم بيوت بني إسرائيل لا تلمسها المياه ، وهذه معجزة واضحة ، لقد عمّ الطوفان وأراد الحق أن ينجي بني إسرائيل منه دون حيلة منهم حتى لا يقال آية كونية جاءت على هيئة طوفان وانتهت المسألة ، لكن الطوفان جاء لبيوتهم ولم يلمس بني إسرائيل .

وقال الرواة : إن الطوفان دخل على فرعون حتى صرخ واستنجد بموسى ، وقال له : كف عنا هذا ونؤمن بما جئت به ، ودعا موسى ربه فكف عنهم الطوفان لكنهم عادوا إلى الكفر .

وجعل الله من آياته لمحات ، وإشارات ، بدأت بالطوفان ، وحين يوضح ربنا أنا عذبت بالطوفان قوم نوح ، وقوم فرعون ، فهو يعطينا ملامح تشعرنا بصدق القضية ، فيهبط السيل في أي بلد ويهدم الديار ويغرق الزرع والحيوانات ، لنرى صورة كونية ، وكذلك الجراد يرسله الله على فترات فيهبط في أي وقت من الأوقات ، ويقيم الحملات لمكافحته ، وهذا دليل على صدق الأشياء التي حكى الله عنها ، فلو لم يوجد جراد ولا طوفان لكنا عرضة ألا نصدق . وابتلاهم الله بالقمل كذلك

« والقُمَّل » هو غير القَمْل . فالقَمْل هو الآفة التى تصيب الإنسان فى بدنه وثيابه وتنشأ من قذارة الثياب ، أما القُمَّل فقيل هو السوس الذى يصيب الحبوب ، ومفردها قُمَّلة ، وقيل هو ما نسميه بالقراد ، وقيل هو الحشرات التى تهلك النبات والحرث ، وحين يراه المزرع وتبحث عن تحليص الزرع منه دليد والمبيدات ، وكل ذلك من تنبيهات الحق للخلق ، وهى مجرد تنبيه وإرشاد ولَفْتٌ للانتباه إلى الحق .

وكذلك يرسل الله عليهم « الضفادع » ، وعندما يضع أى إنسان منهم يده فى شىء يجد فيها الضفادع ؛ فإناء الطعام يرفع عنه الغطاء فترى فيه الضفادع ، والماء الذى يشربها يجد فيه الضفادع !! وإن فتح فمه تدخل ضفدعة فى الفم !! . فهى آية ومعجزة ، وكذلك « الدم » ، فكان كل شىء ينقلب بهم دماً

ويقال:إن امرأة من قوم فرعون أرادت أن تشرب ماء ، فذهبت إلى امرأة من بنى إسرائيل وقالت لها : حلى الماء فى فمك ومُجيه فى فمى ، كأنها تريد أن تحتال على ربها وتأخذ مياها من غير دم ، فينتقل من فم الإسرائيليه وهو ماء ، فإذا ما دخل فم المرأة التى هى من قوم فرعون صار دماً .

﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ ﴾

(من الآية ١٣٣ سورة الأعراف)

وقوله سبحانه : ﴿ مفصلات ﴾ أى لم يأت بها جل وعلا كلها مجتمعه مع بعضها البعض لتفزعهم دفعة واحدة وتحتبرهم أيعلنون الإيمان أم لا ؟ بل جاء سبحانه بكل آية مُنفصلة عن الأخرى ؛ فلا توجد آية مع آية أخرى فى وقت واحد ، أو جاء بها علامات واضحات فيها مواعظ وعبر ، مما يدل على موالاة الإنذارات للرغبة فى أن يَذّكروا ، وأن يرتدعوا ، فلو اذكرو وارتدعوا من آية واحدة يكف عنهم سبحانه لبأس

وأرسل سبحانه الآيات وهى : طوفان ، جراد ، قمل ، ضفادع ، دم ، هذه ايات خمس فى هذه الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها ، ومن قبل قال الحق إنه

-أخذهم بالسنين ، وكذلك نقص الثمرات ، فأصبحت الآيات سبعاً ، ومن قبل كانت عصا موسى التى تلقف ما صنعه السحرة فصارت ثماني آيات ، وكذلك « اليد البيضاء » التى أراها موسى لفرعون وملئه فيصبح العدد تسع آيات ، إذن فالآيات بترتيبها هى : العصا ، واليد ، والأخذ بالسنين ، ونقص الثمرات ، والطوفان ، والجراد ، والقمل ، والضفادع ، والدم .

والآيات المفصلات .. هى عجائب ؛ كل منها عجيبة يسلطها الله على من يريد إذلاله ، ويبتلى الله بها نوعا من الناس ولا يبتلى بها قوماً آخرين . فلماذا كان موقفهم من الآيات العجائب ؟ نجد الحق يدبل الآية . ﴿ فاستكبروا وكانوا قوماً مجرمين ﴾ . إنهم لم يؤمنوا ، بل تكبروا وأجرموا فى حق أنفسهم وقطعوا ما بينهم وبين الإيمان .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٣٤﴾ ﴾

هم إذن بعد أن استكبروا وكانوا قوماً مجرمين ، وتوالت عليهم الأحداث ، والرجز هو الأمور المفزعة وما نزل بهم من العذاب ، وهنا ذهبوا إلى موسى ليسألوه أن يدعو الله ليكشف ويرفع عنهم ما نزل بهم من العقاب . إذن فهم آمنوا بأن موسى مرسل من رب ، وهم قد فهموا أن الرجز الذى عاشوا فيه لن يرتفع إلا من ذلك الرب . وهذا ينقض ربوبية إلههم فرعون ، لأنه لو كانت ربوبية فرعون فى عقيدتهم لذهبوا إليه ولم يذهبوا إلى عدوهم موسى ليسألوه أن يدعو لهم الله . ومن هنا نلحظ أكثر من قضية عقدية هى أولاً : أن ألوهية فرعون باطلة ، وثانياً : أن موسى مقبولُ الدعاء عند ربه ، وثالثاً : أنه إن لم يكشف ربه هذا العذاب فسيستمر هذا العذاب ، وكل هذه مقدمات تعطى الإيمان بالله .

﴿ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾

(من الآية ١٣٤ سورة الأعراف)

أى ادع ربك بما أعطاك الله من العهد أن ينصرك لأنك رسوله المؤيد بمعجزاته وهو لن يتخلى عنك . ادع الله أن يرفع عنا العذاب والله لئن رفعت وكشفت عنا ما نحن فيه من العذاب لنؤمنن بك ولنصدقن ماجئت به ولنرسلن ونطلقن معك بنى إسرائيل ، وقد كانوا يستخدمونهم فى أحط وأرذل الأعمال ، ولكنهم فى كل مرة بعد أن يكشف الحق عنهم العذاب يعودون إلى نقض العهد بدليل قوله سبحانه عنهم :

﴿ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَىٰ أَجَلٍ هُم بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾ ﴾

فكان لهم مع كل آية نقضاً للعهد ، وانظر الفرق بين العبارتين . بين قوله الحق : ﴿ فلما كشفنا عنهم الرجز إلى أجل هم بالغوه إذا هم ينكثون ﴾ وبين قوله السابق : « ادع لنا ربك بما عهد عندك لأن كشفت عنا الرجز ﴾ ، فمن إذن يكشف الرجز ؟ إن الكشف هنا منسوب إلى الله ، وكل كشف للرجز له مدة يمرها الحق ، فهو القائل : ﴿ إلى أجل هم بالغوه إذا هم ينكثون ﴾ .

والنكث هو نقض العهد .

ويتابع سبحانه :

﴿ فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿١٣٦﴾ ﴾

ويوضح هنا سبحانه أنه مادام قد أخذهم بالعقاب فى ذواتهم ، وفى مقومات حياتهم ، وفى معكرات صفوهم لم يبق إلا أن يهلكوا ؛ لأنه لا فائدة منهم ؛ لذلك جاء الأمر بإغراقهم ، لا عن جبروت قدرة ، بل عن عدالة تقدير ؛ لأنهم كذبوا بالآيات وأقاموا على كفرهم . ويلاحظ هنا أن أهم ما فى القضية وهو الإغراق قد ذكر على هيئة الإيجاز ، وهو الحادث الذى جاء فى سورة أخرى بالتفصيل ، فالحق سبحانه يقول :

﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾

(سورة الشعراء)

ولم يأت الحق هنا بتفاصيل قصة الإغراق ، لأن كل آية فى القرآن تعالج موقفاً ، وتعالج لقطة من اللقطات ، لأن القصة تأتى بإجمال فى موضع وبإطناب فى موضع آخر ، وها نأتى موقف الإغراق بإجمال ﴿ فانتقمنا منهم فأغرقناهم فى اليم ﴾ .

وكلمة « فأغرقناهم » لها قصة طويلة معروفة ومعروضة عرضاً آخر فى سورة أخرى ، فحين خرج موسى وبنو إسرائيل من مصر خرج وراءهم فرعون ، وحين رأى بنو إسرائيل ذلك قالوا بمنطق الأحداث : ﴿ إنا لمدركون ﴾ . مدركون من فرعون وقومه لأن أمامهم البحر وليس عندهم وسيلة لركوب البحر . لكن موسى المرسل من الله علم أن الله لن يخذله ؛ لأنه يريد أن يتم نعمة الهداية على يديه ، كان موسى عليه السلام ممتلئاً باليقين والثقة لذلك قال بملء فيه :

﴿ كَلَّآ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾

(من الآية ٦١ سورة الشعراء)

هو يقول : « كلا » أى لن يدركوكم لا بأسبابه ، بل بأسباب من أرسله بدليل أنه جاء بحيثيتها معها وقال : ﴿ إن معى ربى سيهدين ﴾ . لقد تكلم بمنطق المؤمن الذى أوى إلى ركن شديد ، وأن المسائل لا يمكن أن تنتهى عند هذا الوضع ؛ لأنه لم يؤد المهمة بكاملها ، لذلك قال : « كلا » بملء فيه ، مع أن الأسباب مقطوع بها . فالبحر أمامهم والعدو من خلفهم ، وأتبع ذلك بقوله : ﴿ إن معى ربى

سيهديين » بالحفظ والنصرة . أى أن الأسباب التى سبق أن أرسلها معى الله فوق تعلق أسباب البشر ، فالعصا سبق أن نصره الله بها على السحرة ، وهى العصا نفسها التى أوحى له سبحانه باستعمالها فى هذه الحالة العصيبة قائلا له .

﴿ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ ﴾

(من الآية ٦٣ سورة الشعراء)

ونعرف أن البحر وعاء للماء ، وأول قانون للماء هو السيولة التى تعينه على الاستطراق ، ولو لم يكن الماء سائلا ، وله جمود وعنطة لصار قطعاً غير متساوية ، ولكن الذى يعينه على الاستطراق هو حالة السيولة ، ولذلك حين نريد أن نضبط دقة استواء أى سطح نلجأ إلى ميزان الماء

وقال الحق سبحانه لموسى عليه السلام :

﴿ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ ﴾

(من الآية ٦٣ سورة الشعراء)

وحين ضرب موسى بعصاه البحر امتنع عن الماء قانون السيولة وفقد قانون الاستطراق ، ويصور الله هذا الأمر لنا تصويراً دقيقاً فيقول : ﴿ فكان كل فرق كالطود العظيم ﴾ . أى صار كل جزء منه كالطود وهو الجبل ، ونجد فى الجبل الصلابة ، وهكذا فقد الماء السيولة وصار كل فرق كالجبل الواقف ، ولا يقدر على ذلك إلا الخالق ، لأن السيولة والاستطراق سمة كونية ، والذى خلق هذه السمة الكونية هو الذى يستطيع أن يعطلها . وحين سار موسى وقومه فى اليابس ، وقطع البحر جميع الطريق الموجود فى البحر سار خلفهم فرعون وجنوده وأراد موسى أن يضرب البحر بعصاه ليعود إلى السيولة وإلى الاستطراق حتى لا يتبعه فرعون وجنوده ، وهذا تفكير بشرى أيضاً ، ويأتى لموسى أمر من الله .

﴿ وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا ﴾

(من الآية ٢٤ سورة الدخان)

أى اترك البحر ساكناً على هيئته التى هو عليها ليدخله فرعون وقومه ، إنه سبحانه لا يريد للماء أن يعود إلى السيولة والاستطراق حتى يُغرى الطريق اليابس

فرعون وقومه فيأتوا وراءكم ليلحقوا بكم ، فإذا ما دخلوا واستوعبهم اليبس ؛ أعدنا سيولة الماء واستطراقه فيغرقون ؛ ليثبت الحق أنه يجبى ويهلك بالشيء الواحد ، وكل ذلك يجمله الحق هنا في قوله : ﴿ فانتقمنا منهم فأغرقناهم في اليم ﴾ و« اليم » هو المكان الذي يوجد به مياه عميقة ، ويطلق مرة على المالح ، ومرة على العذب ، فمثلاً في قصة أم موسى ، يقول الحق :

﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي ٱلْيَمِّ ﴾

(من الآية ٧ سورة القصص)

وكان المقصود باليم هناك النيل ، لكن المقصود به هنا في سورة الأعراف هو البحر . ويأتي سبب الإغراق في قوله : ﴿ بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين ﴾ .

كيف إذن يعذبهم ويغرقهم نتيجة الغفلة ، ونعلم أن الغفلة ليس عليها حساب ؟ بدليل أن الصائم قد يعمل ويأكل ويصح صيامه . ويقال إن ربنا أعطى له وجهة تغذيه بالطعام وحسب له الصيام لأنه عدل . لكن هنا يختلف أمر الغفلة ؛ فالمراد بـ « غافلين » هنا أنهم كانوا قد كذبوا بآيات الله ثم أعرضوا إعراضاً لا يكون إلا عن غافل عن الله وعن منهجه ، ولو أنهم كانوا عباداً مستحضرين لمنهج الله لما صح أن يغفلوا ، وهذا القول يحقق ما سبق أن قاله سبحانه :

﴿ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ ﴾

(من الآية ١٢٩ سورة الأعراف)

ثم يأتي بعد ذلك القول الذي يحقق ما سبق أن قاله سبحانه

﴿ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾

(من الآية ١٢٩ سورة الأعراف)

ويقول الحق تأكيداً لذلك .

﴿ وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ

مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ
وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ
بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ
وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾

أى صارت مصر والشام تحت إمرة بنى إسرائيل ، وهى الأرض التى باركها الله ، بالخصب ، وبالنماء ، بالزروع ، بالثمار ، بالحيوانات ، وبكل شىء من مقومات الحياة ، وترف الحياة . ﴿ وتمت كلمت ربك الحسنى على بنى إسرائيل بما صبروا ﴾ .

﴿ وتمت كلمة ربك ﴾ أى استمرت عليهم الكلمة وتم وعد الله الصادق بالتمكين لبنى إسرائيل فى الأرض ونصره إياهم على عدوهم ، واكتملت النعمة ؛ لأن الله أهلك عدوهم وأورثهم الأرض ، وتحققت كلمته سبحانه التى جاءت على لسان موسى :

﴿ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾

(من الآية ١٢٩ سورة الأعراف)

هكذا تمت كلمة الله بقوله سبحانه .

﴿ وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ﴾

(من الآية ١٣٧ سورة الأعراف)

ونعلم أن كلمة « مشارق ومغارب » تقال بالنسبيات ، فليس هناك مكان اسمه مشرق وآخر اسمه مغرب ، لكن هذه اتجاهات نسبية ؛ فيقال هذا مشرق بالنسبة لمكان ما ، وكذلك يقال له « مغرب » بالنسبة لمكان آخر . وحين ينتقل الإنسان إلى مكان آخر يوجد مشرق آخر ومغرب آخر وعلى سبيل المثال نجد من يسكن فى الهند واليابان يعلمون أن منطقة الشرق الأوسط بالنسبة لهم مغرب ، ومن

يسكنون أوربا يعرفون أن الشرق الأوسط بالنسبة لهم مشرق .

وقلنا من قبل : إن الحق حين جاء « بالمشرق والمغرب » بصيغة الجمع كما هما فذلك إنما يدل على أن لكل مكان مشرقاً ، ولكل مكان مغرباً ؛ فإذا غربت الشمس في مكان فهي تشرق في مكان آخر . وفي رمضان نجد الشمس تغرب في القاهرة قبل الإسكندرية بدقائق .

ونعلم أن سبب هذه الدورة إنما هو ليبقى ذكر الله بكل مطلوبات الله في كل أوقات الله ، مثال ذلك حين نصلي نحن صلاة الفجر نجد أناساً يصلون في اللحظة نفسها صلاة الظهر ، ونجد آخرين يصلون صلاة العصر ، وقوماً غيرهم يصلون صلاة المغرب ، وغيرهم يصلي صلاة العشاء . وبذلك تحقق إرادة الله في أن هناك عبادة في كل وقت وفي كل لحظة ، فحين يؤذن مسلم قائلاً « الله أكبر » لينادي لصلاة الفجر ، هناك مسلم آخر يقول : « الله أكبر » منادياً لصلاة الظهر أو العصر أو المغرب أو العشاء ، وهذا هو الاختلاف في المطالع أراد به سبحانه أن يظل اسمه مذكوراً على كل لسان في كل مكان لتملو « الله أكبر ، الله أكبر » في كل مكان .

وأنت إذا حسبت الرمز بأقل من الثانية تجد أن كون الله لا يخلو من « لا إله إلا الله » أبداً : ﴿ وتمت كلمة ربك الحسنى ﴾ . ونعلم أن كلمة « الحسنى » وصف للمؤنث ، و« كلمة » مؤنثة ، والكلمة هي قول الحق :

﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴾

(سورة القصص)

لقد قال الحق القصة بإيجاز ، وهذه هي التي قالها ربنا وهي كلمة «الحسنى» لأنه سبحانه لم يعط لهم نعمة معاصرة لنعمة العدو ، بل نعمة على أنقاض العدو ، فهي نعمة تضم إهلاك عدوهم ، ثم أعطاهم بعد ذلك أن جعلهم أئمة وهداة وورثهم الأرض : ﴿ وتمت كلمة ربك الحسنى على بني إسرائيل بما صبروا ﴾ .

وهم بالفعل قد صبروا على الإيذاء الذي نالوه وذكره سبحانه من قبل حين قال :

﴿ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ﴾

(من الآية ٤٩ سورة البقرة)

وجاء عقاب الله لقوم فرعون :

﴿ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ﴾

(من الآية ١٣٧ سورة الأعراف)

والتدمير هو أن تدك شيئاً وتخربه ، وقد ظل ما فعله الله بقوم فرعون باقيًا في الآثار التي تدلك على عظمة ما فعلوا ، وتجد العلماء في كل يوم يكتشفون تحت الأرض آثاراً كثيرة . ومن العجيب أن كل كشوف الآثار تكون تحت الأرض ، ولا يوجد كشف أثري جاء من فوق الأرض أبداً .

وكلمة « دمرنا » تدل على أن الأشياء المدمرة كانت عالية الارتفاع ثم جاءت عوامل التعرية لتعطيها ، ويبقى الله شواهد منها لتعطينا نوع ما عمّروا ، كالأهرام مثلاً . وكل يوم نكتشف آثاراً جديدة موجودة تحت الأرض مثلما اكتشفنا مدينة طيبة في وادي الملوك ، وكانت معطلة بالتراب بفعل عوامل التعرية التي تنقل الرمال من مكان إلى مكان . وأنت إن غبت عن بيتك شهراً ومع أنك تغلق الأبواب والشبابيك قبل السفر ؛ ثم تعود فتجد التراب يغطي جميع المنزل والأثاث ؛ كل ذلك بفعل عوامل التعرية التي تنفذ من أدق الفتحات ، ولذلك لو نظرت إلى القرى القديمة قبل أن تنشأ عمليات الرصف التي تثبت الأرض نجد طرقات القرية التي تقود إلى البيوت ترتفع مع الزمن شيئاً فشيئاً وكل بيت تنزل له قليلاً ، وكل فترة يردمون أرضية البيوت لتعلو ، وكل ذلك من عوامل التعرية التي تزيد من ارتفاع أرضية الشوارع . وكل آثار الدنيا لا تكتشف إلا بالتنقيب ، إذن فكلمة « دمرنا » لها سند . والحق يقول عن أبنية فرعون :

﴿ وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ ﴾

(سورة الفجر)

ونجد الهرم مثلاً كشاهد على قوة البناء ، وإلى الآن لم يكتشف أحد كيف تم بناء الهرم . وكيف تتماسك صخوره دون مادة كالأسمنت مثلاً ، بل يقال : إن بناء

الهرم قد تم بأسلوب تفريغ الهواء ، ولا أحد يعرف كيف نقل المصريون الصخرة التي على قمة الهرم . إذن فقد كانو على علم واسع . وإذا ما نظرنا إلى هذا العلم عمارة وآثاراً وتحنيطاً لجثث القدماء ، إذا نظرت إلى كل هذا وعلمت أن القائمين به كانوا من الكهنة المنسوبين للدين ، لتأكدت أن أسرار هذه المسائل كلها كانت عند رجال الدين ، وأصل الدين من السماء ، وإن كان قد حُرِّف . وهذا يؤكد لنا أن الحق هو لدى هدى لناس من أول الخلق إلى واسع العلم .

﴿ وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

و « يعرشون » أى يقيمون جنات معروشات ، وقلنا من قبل إن الزروع مرة تكون على سطح الأرض وليس لها ساق ، ومرة يكون لها ساق ، وثالثة يكون لها ساق لينة فيصنعون له عريشة أو كما نسميه نحن التكعيبه لتحمله وتحمل ثمرهُ .

وبعد ذلك يقول الحق :

﴿ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ ﴾

لقد قالوا ذلك وهم مازالوا مغمورين في نعم الله إنجاء من عدو ، واستخلافاً في الأرض ، ومع ذلك بمجرد أن طلعوا إلى البر ورأوا جماعة يعبدون صنماً طلبوا موسى أن يجعل لهم صنماً يعبدونه . لقد حسدوا من يجهلون قيمة الإيمان ويعكفون على عبادة الأصنام ، ويعكف تعني أن يقيم إقامة لازمة ، ومنه الاعتكاف

فى المسجد ، أى لانقطع عن حركة الحياة خارج المسجد إلى عبدة الله فى بيته .

﴿ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ﴾

(من الآية ١٣٨ سورة الأعراف)

وهذا القول من قوم موسى هو قمة العماء ، كأن الإله بالنسبة لهم مجهول على زعم أنه قد أسبغ عليهم من النعم الكثير ، وهذه أوثانهم ، وهم يريدون أن يكون الإله مجعولاً برغم أن الإله بكمالاته وطلاقة قدرته جاعل ، ولكن عقليتهم لم تستوعب النعم العامرة وقلوبهم مخلفة لم تعمها الإيمان وقالوا اجعل لنا إلهاً ! وأرادوا أن يحب لهم الأصنام ، وقد يكون واحد منهم رأس الإله كبيرة قليلاً صغرها بعض الشىء ، وأنفه غير مستقيمة فلعدلها بالإزميل ، وقولهم : ﴿ اجعل لنا إلهاً ﴾ . وهذا ما يجعلنا نفهم أن عقولهم لم تستوعب حقيقة الإيمان ؛ لذلك يقول لهم موسى : ﴿ إنكم قوم تجهلون ﴾ .

ولم يقل لهم « لا تعلمون » بل قال : « تجهلون » لأن هناك فارقاً بين عدم العلم بالشىء ، وبين الجهل بالشىء ، فعدم العلم يعنى أن الذهن قد يكون خالياً من أى قضية ، أما « الجهل » فهو يعنى أن تعلم مناقضاً للقضية ، إذن فهناك قضية يعتقدها الجاهل ولكنها غير واقعية أما الذى لا يعلم فليس فى باله قضية ، وحين تأتى له القضية يقتنع بها ، ولا يحتاج ذلك إلى عملية عقلية واحدة مثل الأمى مثلاً الذى لا يعلم ، لأن ذهنه خال من قضية ، أما الذى يعلم قضية مخالفة فهو يحتاج من الرسول إلى عمليتين عقليتين : الأولى أن يخرج ما فى نفسه من قضية الجهل ، والثانية أن يعطى له القضية الجديدة ، إن الذى يرهق العالم هم الجهلاء لا الأميون ، لأن الأمى حين تعطى له المعلومة فليس عنده ما يناقضها لكن الجاهل عنده ما يناقضها ويخالف الواقع

ويقول سبحانه بعد ذلك :

﴿ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟

يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾

و « مُتبرٌ » أى هالك ومدمر ، وهنا يوضح لهم موسى أن هؤلاء الجماعة التى تعبد الأصنام ؛ وهم وأصنامهم هالكون ، وما يعملون هو باطل لأن قضايا الكون إن أردتم أن تعرفوا حقيقتها فلا بد لها من ثبوت ، والحق ثابت لا يتغير أبداً لأن له واقعاً يُستقرأ ، ومثال ذلك إذا حصلت حادثة بالفعل أمامنا جميعاً ، ثم طُلب من كل واحد على انفراد أن يقول ما رآه فلن نختلف فى الوصف لأننا ستوحى واقعاً ، لكن إن كانت القضية غير واقعة فكل واحد سيقولها بشكل مختلف ، ولذلك نجد من لباقة القضاء أن القاضى يحاور الشهود محاورات ليتبيّن ما يشتون عليه وما يتضاربون فيه . وإن كان الشهود يسترجون حقيقة واقعة ، فلن يختلفوا فى روايتهم ، ولكنهم يختلفون حين لا يتأكد أحدهم من الواقعة أو أن تكون غير حقيقية .

والمثل العربى يقول : « إن كنت كذوباً فكن ذكوراً » أى إن كذبت ـ والعياذ بالله ـ وقلت قولاً غير صادق فعليك أن تتذكر كذبتك ، وأنت لن تتذكرها لأنها أمر متخيّل وليس أمراً ثابتاً وقد يجوز أن يأخذ غير الواقع زهوة ولمعاناً فنقول : إياك أن تغتر بهذه الزهرة لأن الحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾ ﴾

(سورة الرعد)

لقد شبه سبحانه الباطل بالزبد وهو ما يعلو لسائل أو الماء من الرغوة والقش والمخلفات التى تعوم على سطح المياه إنه يتلاشى ويذهب ، أما ما ينفع الناس فيبقى وتحن نحتبر المعادن لنعرف هل هى مغشوشة أو لا . . ونعرضها على النار ، فيطفو ما فيها من مادة غير أصيلة وما فيها من شوائب ، ويبقى فى القاع المعدن الأصيل .

وهنا يقول الحق على لسان موسى :

﴿ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾

(سورة الأعراف)

والأحداث إما فعل أو قول ، والقول : عملية اللسان ، والفعل : لقية الجوارح ، وكل لأحداث ناشئة عن قول أوعن فعل ، والقول والفعل معاً هما « عمل » . ولذلك يقول الحق :

﴿ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾

(من الآية ٢ سورة الصف)

إذن فالعمل يشمل القول ، ويشمل الفعل

وقوله الحق ﴿ وباطل ما كانوا يعملون ﴾ إن الأصنام التى كانوا يصنعونها ويعبدونها ، كانت تقوم على أقوال وأفعال ، كأن يقولوا : ياهبل ، يا لات ، يا عزّى ، ويسجدون هذه الأصنام ويطلبون منها أن تحقق لهم بعضاً من الأعمال وكانوا يقفون أمامها صاغرين أذلاء ، إذن فقد صدر منهم قول وفعل يقسمهما معاً العمل .

ويتابع الحق على لسان موسى عليه السلام :

﴿ قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٤٠﴾ ﴾

هم حينما قالوا لموسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة ، قال لهم أولاً : ﴿ إنكم قوم تجهلون ﴾ ، ثم قال : ﴿ إن هؤلاء متبر ما هم فيه وباطل ما كانوا يعملون ﴾ ، وبعد ذلك رجع إلى الدليل على أن هذا طلب جهل ، وأن الذين يعبدون الأصنام

من دون الله ,نما يفعلون باطلاً ؛ فقال : ﴿ قال أغير الله أبغيكم إلهاً وهو فضلكم على العالمين ﴾

وقوله : ﴿ أغير الله ﴾ أى أن إلاه الذى عرفتم بالتجربة العملية أنه فضلكم على العالمين ورأيتم ما صنع بعدوكم الذى استذلكم وسامكم سوء العذاب ، إنه قد أهلكه ودمره ، هل يمكن أن تطلبوا ربًّ غيره ؟

وقوله : ﴿ قال أغير الله أبغيكم ﴾ أى أأطلب لكم إلهاً غيره ؟ وفى سؤاله هذا استنكار لأنه يتبعه بتفضيل الله لهم على العالم ، ثم أراد أن يذكرهم نعمة التفضيل لهم فيقول سبحانه على لسان موسى :

﴿ وَإِذْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾ ﴾

وإذا سمعت « إذ » فافهم أن معناها ظرف زمان يريد الحق أن نتذكر ما حدث فيه ، و« إذ » بمعنى اذكروا جيداً ولا يغب عن بالكم حين أنجاكم الله من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب وأفظعه وأشده .

ويقول بعدها مبيناً ومفسراً ذلك العذاب : ﴿ يقتلون أبناءكم ويستحيون نساءكم ﴾ .

ونلحظ أنه لم يأت بالعطف هنا ، فلم يقل : يسومونكم سوء العذاب ويقتلون أبناءكم ويستحيون نساءكم . مما يدل على أنه جاء بقمة سوء العذاب ؛ لأن الاحتقار ، والتسخير هما جزء من العذاب . لكن قمة العذاب هى تقتيل الأبناء ، واستحياء النساء .

وفى آية ثانية يقول سبحانه :

﴿ وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ ﴾

(من الآية ٤٩ سورة البقرة)

أى أنهم تعرضوا للتقتيل ، وتعرضوا للتذبيح ، وفى آية ثالثة يقول

﴿ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ ﴾

(من الآية ٦ سورة إبراهيم)

لقد جاء بـ « الواو » هنا للعطف لأن المتكلم هنا مختلف ، فقد يكون المتكلم الله ، وسبحانه يمتن بقمة النعم لكن : ﴿ إذ قال موسى لقومه اذكروا ﴾ ، فموسى يمتن بكل النعم التى ساقها الله إلى بنى إسرائيل صغيرة وكبيرة .

ويذيل الحق الآية الكريمة : ﴿ وفى ذلكم بلاء من ربكم عظيم ﴾

هو بلاء شديد الإيلام والوقع لفراق من يقتل أو يذبح ، وبلاء آخر فى الهم والحزن على من يستحى من النساء لاستباحة أعراضهن وامتهانهن فى الخدمة

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾ ﴾

وعلمنا من قبل فى مسألة الأعداد أن هناك أسلوبين : الأسلوب الأول إجمالى ،

والثانى تفصيلى ؛ فمرة يتفق التفصيل مع الإجمال ، وبذلك لا توجد شبهة أو إشكال ، وسبحانه فى سورة البقرة يقول

﴿ وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ﴾

(من الآية ٥١ سورة البقرة)

جاء بها هناك بالإجمال . ولكنه شاء هنا فى سورة الأعراف ألا يأتى بها مرة واحدة مجملة بل فصلها بثلاثين ليلة ثم أتمّها الحق بعشر أخر لمهمة سنعرفها فيما بعد ، ليكون الميقات قد تم أربعين ليلة ، وإذا جاء العدد مجملاً مرة ، ومفصلاً مرة ، واتفق الإجمال مع التفصيل فلا إشكال لكن إذا اختلف الإجمال عن التفصيل فعادة يُحْمَل التفصيل على الإجمال ، لأن المفصَّل يمكن أن يتداخل ليصير إلى الإجمال

وضرب من قبل المثل فى خلق السماء والأرض فى ستة أيام ، وكل آيات الخلق تأتى بخبر الستة الأيام وهى مجملة . لكنه شاء سبحانه فى موضع آخر بالقرآن أن يقول :

﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٩ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ۝١٠ ﴾

(سورة فصلت)

وظاهر الأمر هنا أن المهمة قد اكتمل أمرها وخلقها فى ستة أيام ، لكنه قال جل وعلا بعدها :

﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا ۖ قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ۝١١ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ ﴾

(الآية ١١ وجزء من الآية ١٢ سورة فصلت)

وهنا فى موقف أيام خلق الدنيا نجد إجمالاً وتفصيلاً ، والتفصيل يصل فى ظاهر

الأمر بأيام الخلق إلى ثمانية ، والإجمال يحكى أنها ستة أيام فقط .

فهل هى ستة أيام أو ثمانية أيام ؟ نقول : إنها ستة أيام لأننا نستطيع أن ندخل المفصل بعضه فى بعضه ، فإذا قلت : سافرت من مصر إلى طنطا فى ساعتين ، وإلى الإسكندرية فى ثلاث ساعات ، فمعنى هذا القول أن الساعتين دخلتا فى الثلاث الساعات : ﴿ وواعدنا موسى ثلاثين ليلة وأتممناها بعشر ﴾ .

والوعد هو أن الله وعد موسى بعد أن تحدث عملية إنجاء بنى إسرائيل أنه ـ سبحانه سينزل عليه كتاباً يجمع فيه كل المنهج المراد من خلق الله لتسير حركة حياتهم عليه ، لكن ما إن ذهب موسى لميقات ربه حتى عبدوا العجل ، فى مدة الثلاثين يوماً ولم يشأ الله أن يرسل موسى بعد الثلاثين يوماً بل أتمها بعشر أخر حتى لا يعود موسى ويرى ما فعله قومه ؛ لأنه بعد أن عاد أمسك برأس أخيه يعنفه ويشتد عليه ويأخذ بلحيته يجره إليه إذ كيف سمح لبنى إسرائيل أن يعبدوا العجل . وفى ذلك يقول الحق على لسان هارون :

﴿ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِيٓ ۖ إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴿٩٤﴾ ﴾

(سورة طه)

فكأن العشرة أيام زادوا عن الثلاثين يوماً ليعطيك الصورة الأخيرة الموجودة فى سورة البقرة .

وهنا يقول الحق فى سورة الأعراف :

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾

(من الآية ١٤٢ سورة الأعراف)

و « اخلفنى » أى كن خليفة لى فيهم إلى أن أرجع وذلك فيما هو مختص بموسى من الرسالة فاستخلاف موسى لهارون ليس تكليفاً لهارون باعتداد إرسال الله لموسى وهارون ، فأسلوب تقديم موسى وهارون أنفسهما لفرعون جاء بضمير التثنية التى تجمع بين موسى وهارون :

﴿ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ ﴾

(من الآية ٤٧ سورة طه)

لأن كلاً منهما رسول ، وقول الحق . ﴿ وقال موسى لأخيه هارون ﴾ فيه التحنن ، أى أننى لى بك صلة قبل أن تكون شريكاً لى فى الرسالة فأنا أخ لك وأنت أخ لى ، ومن حقى عليك أن تسمع كلامى وتحلفنى . فالأخوة مقرونة بأنك شريك معى فى الرسالة ، إذن تجد أن موسى قد قدم حيثية الأخوة ، والمشاركة فى الرسالة وأكد موسى عليه السلام بكلمة « قومى » أنهم أعزاء عليه ، ولا يريد بهم إلا الخير الذى يريده لنفسه ، فإذا جاءكم بأمر فاعلموا أنه لصالحكم ، وإذا نهاكم نهياً فاعلموا أن موسى هو أول من يطبقه على نفسه .

وقيل كان موسى عليه السلام قد قام بإعداد نفسه للقاء ربه ، ولابد أن يكون الإعداد بطهر وبتطهير وبتركية النفس بصيام ، فصام ثلاثين يوماً ، وبعد ذلك أنكر رائحة فمه ، فأحد سواكاً وتسوك به ليذهب رائحة فمه ، فأوحى الحق سبحانه له : أما علمت يا موسى أن خلوف فم الصائم أطيب عندى من ريح المسك . وما دمت قد أزلت الخلوف وأنا أريد أن تقبل علىّ بريح المسك فزد عشرة أيام ؛ حتى تأتى كذلك وقال بعض العلماء إن تفصيل الأربعين إلى ثلاثين وإلى عشرة ، لأن الثلاثين يوماً هى الأيام التى عبد فيها القوم بعد موسى العجل ، فكان ولابد أن تكون هناك فترة من الفترات ؛ حتى يميز الله الخبيث من الطيب

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ ﴾

(من الآية ١٤٢ سورة الأعراف)

وهما أمر ونهى « أصلح » هى أمر ، و « لا تتبع » هى نهى ، ونعرف أن كل تكاليف الحق سبحانه وتعالى محصورة فى « افعل كذا » ، و « لا تفعل كذا » ، ولا يقول الحق للمكلفين : « افعلوا كذا » إلا إذا كانوا صالحين للفعل ولعدم الفعل ، وإن قال لهم : « لا تفعلوا » فلا بد أن يكونوا صالحين أيضاً للفعل ولعدم الفعل ، ولذلك أوضحنا من قبل أن الله ركز كل التكليف فى مسألة آدم وحواء فى الجنة فقال . ﴿ وكلا منها رغداً حيث شئتما ﴾ ، وكان هذا هو الأمر . وقال : ﴿ ولا تقربا هذه الشجرة ﴾ ، وهذا نهى : ﴿ وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين ﴾ .

وكلمة « أصلح » تستلزم أن يبقى الصالح على صلاحه فلا يفسده ، وإن شاء أن يزيد فيه صلاحا فليفعل وقوله . ﴿ ولا تتبع سبيل المفسدين ﴾ لأنه قول موجه لنبي وهو هارون ، لا يتأتى منه الإفساد ، ولكن موسى أعلمه أنه ستقوم فتنة بعد قليل ، فكأن موسى قد ألهم أنه سيحدث إفساد ، فقصارى ما يطلبه من أخيه هارون ألا يتبع سبيل المفسدين ، ولذلك سيقول هارون بعد ذلك معتذراً تركه بني إسرائيل على عبادة العجل بعد أن بذل غاية جهده في منعهم وبدارهم حتى قهروه واستضعفوه ولم يبق إلا أن يقتلوه

﴿ إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴾

(من الآية ٩٤ سورة طه)

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَٰكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾ ﴾

والميقات هو الوقت الذي يعد لعمل من الأعمال ، ويسميه وقت العمل . وغلب على أشياء في الإسلام ، كمواقيت الحج ونحن نعلم أن كل عمل وحدث يتطلب أمرين يُظرف فيهما ، أي يكونان ظرفاً له ؛ فلا بد له من مكان يحدث فيه ، ومن زمان يحدث فيه كذلك ، واسمهما ظرف الزمان ، وظرف المكان إلا أن ظرف الزمان غير قار أي غير ثابت ؛ فقد يأتي الصبح ويذهب ويأتي بعده ، الظهر ، والعصر والمغرب والعشاء . لكن ظرف المكان قار وثابت .

والموقيت - إذن - إما أن يتحكم فيها الزمان ، وإما أن يتحكم فيها المكان ، وإما أن يتحكم فيها المكان والزمان معاً . قيدنا أحدنا الموقيت على أنها زمن كل فعل نجد فريضة « الصوم » لها زمن محدد وهو رمضان . فالذي يتحكم في الصوم هو الزمن ، فيكون ويحدث في أي مكان . وكذلك صيام عرفة يتحكم فيه أيضا الزمان لأنه صيام يوم عرفة ، ومن يجلس في أي مكان يصوم يوم عرفة ولكنه غير مطلوب من الحج ولكن الوقوف بعرفة يتحكم فيه المكان والزمان معاً . والإحرام بالحج أو العمرة يتحكم فيه المكان وهو ما نسمى بالميقات المكاني ولكل أهل جهة ميقاتهم المكاني الذي يطلب منهم ألاّ يمروا عليه إلاّ وهم محرمون . فعمرة يتحكم الزمان ، وعمرة يتحكم المكان ، وثالثة يتحكمان معا

وجاء موسى لميقاتنا المضروب له بعد أربعين ليلة .

وهل جاء موسى لميقات أو جاء في لميقات ؟ لقد جاء في الميقات ، واللام تأتي بمعنى « عند » ونعلم أن « اللام » تأتي بمعنى « عند » كثيراً في القرآن ، مثل قوله

﴿ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ ﴾

(من الآية ٧٨ سورة الإسراء)

أي أقم الصلاة عند دلوك الشمس أي عند زوالها عن وسط وكبد السماء إلى غسق الليل . ومن الدلوك إلى الغسق نجد صلاة الظهر ثم العصر ثم المغرب ثم العشاء ، وهذه أربعة فروض ، وبقي الفرض الخامس وهو الفجر ، وقال فيه الحق

﴿ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴾

(من الآية ٧٨ سورة الإسراء)

ولماذا بدأ بدلوك الشمس ؟ وهل النهار يبدأ بالظهر أو يبدأ بالصبح ؟ . إن الإسراء والمعراج كانا ليلاً ، ورسول الله جاء صباحاً إلى مكة ، وقد فرضت الصلاة في المعراج ، فكانت أول فريضة هي الظهر ، وكأن الحق يعني حد النهاية وحد البداية ، وكانت البداية هي صلاة الظهر والعصر والمغرب والعشاء وبقي الفجر ،

وجاء فيه : ﴿ وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهوداً ﴾

ثم يخص الله رسوله بالتهجد وهو قيام الليل إنه فرض على رسول الله دون غيره ، فإنه بالنسبة لسائر الأمة تطوع

﴿ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾ ﴾

(سورة الإسراء)

ومن يتشبه برسول الله فله الثواب الجزيل والأجر العظيم ولكن هذا الأمر مرجعه إلى اختيار المسلم . ﴿ ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه ﴾

وهذه المسألة تحتاج إلى بحث ، وقوله سبحانه : ﴿ وكلمه ربُّه ﴾ هو قول يدل على أن كلاماً حصل من الله لموسى فكيف يحدث ذلك وسبحانه قد قال في مسألة الكلام بالنسبة للبشر كلاماً عاماً :

﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ﴾

(من الآية ٥١ سورة الشورى)

وفي هذا نفى أن يكلم الله البشر . إلا بالوسائل الثلاث . الوحي أو من وراء حجاب أو يرسل رسولاً ، والوحي بالنسبة للأنبياء يكون بإلقاء المعنى في قلب النبي دفعة ، مع العلم اليقيني بأن ذلك من الله عز وجل ، وقد يراد بالوحي الإلهامات ؛ مثل الوحي إلى أم موسى ، والوحي إلى الحواريين ، وكذلك إلى الملائكة ، وقد يراد بالوحي : التسخير ، كالوحي للأرض ، والنحل

وبعد ذلك . « أو من وراء حجاب » أي أن يسمع كلاماً ولا يرى متكلماً ، « أو يرسل رسولاً » هو جبريل عليه السلام والقرآن لم ينزل إلا بطريقة واحدة ، بواسطة نزول جبريل على سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فما نزل القرآن بالإلهام ، وما نزل القرآن من وراء حجاب بل نزل بواسطة رسول من الله وهو جبريل وله علامات

وهنا في كلام موسى نقول إن الكلام وقع فيه من وراء حجاب وهنا نمسك عن الخوض فيما وراء ذلك لأنه عيب لم يكشف لك عنه ونترك الأمر فيه لله

وقد سبق أن قلنا : إن صفات الله لا يوجد مثلها في البشر . فليس وجود الإنسان كوجود الله ، وليس غنى الإنسان كغنى الله ، وكذلك لن يكون أبداً كلامك ككلام الله ، لأن كل شيء يحصل الله إنما تأخذه في إطار « ليس كمثله شيء » . وقد بين الحق سبحانه وتعالى أن كلامه لموسى تميز لموسى ، ولذلك يقول الحق

﴿ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي ﴾

(من الآية ١٤٤ سورة الأعراف)

ويجب أن نأخذ كل وصف يوجد في البشر ، ويوجد مثله . في وصف الله مثل « استوى » ، و« جلس » و« وجه » ، و« يد » نأخذ كل ذلك في إطار « ليس كمثله شيء » .

﴿ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ ﴾

(من الآية ١٤٣ سورة الأعراف)

وحينما خص الله موسى بميزة أن تكلم إليه ، خصص من موسى استشراق اصطفائي ، وكأنه قال لنفسه مادام قد كلمني فقد أقدر أن أراه ؛ لأن استطالة الأنس تمد لنفس سبل الأمل في الامتداد في الأشياء مثلما قال موسى من قبل رداً على سؤال الله :

﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَىٰ ﴿١٧﴾ ﴾

(سورة طه)

كان الجواب يكفي أن يقول : « عصا » لكنه قال :

﴿ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي ﴾

(من الآية ١٨ سورة طه)

قال ذلك على الرغم من أن الحق لم يسأله : ماذا تفعل بها ؟ وأراد بالكلام أن

يطيل الأنس بربه ، وكأنه عرف أنه من غير اللائق أن يكون الجواب مجرد كلمة رداً على سؤال ولله المثل الأعلى ـ نجد الإنسان منا حين يرى طفلاً صغيراً فهو يداعبه ويطيل الكلام معه إيناساً له وحين وجد موسى أن الله يكلمه استشرفت نفسه أن يراه ﴿ ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه قال رب أرني أنظر إليك ﴾ .

لم يقل موسى أرني ذاتك بل قال . ﴿ أرني أنظر إليك ﴾ كأنه يعلم أنه بطبيعة تكوينه يعرف أنه لا يمكن أن يرى الله ، لكن إن أراه الله ، فهذا أمر بمشيئة الحق . وقدم موسى الطلب معلقاً بمشيئة الله وإرادته ؛ لأنه يعلم أنه غير معد لاستقبال رؤية الله ؛ لأن تكوينه لا يقوى على ذلك ، وحتى في الوحي والكلام لم يكلم ربنا الناس مباشرة ، بل لابد أن يصطفي من الملائكة رسلاً ، ثم تكون مرحلة ثانية أن يصطفي من البشر رسلاً ، ويبلغ الرسل الناس كلام الله ؛ لأن الصفات الكمالية العليا الخالقة لا يمكن أن يستوعبها المخلوق

ضربنا المثل من قبل ـ ولله المثل الأعلى ـ بصناعات البشر ، وأن الإنسان حين ينام ليلاً ، قد يستيقظ لأي شيء . فإذا كانت الدنيا ظلاماً قد يحطم الأشياء التي هي أقل منه أو تحطمه الأشياء التي هي أكثر صلابة منه ؛ وإن اصطدم بشيء صغير فقد يكسره ، وإن اصطدم بدولاب أو حائط فقد يكسر الإنسان . ولذلك ترك الإنسان في البيت شيئاً من النور الضئيل ؛ ليستفيد من سكون الليل وظلمته ، فيصنع ما نسميه « النواسة » قوة شمعتين أو خمس شمعات ، ولا يقدر أن يركبها على قوة التيار الموجود في المنزل ؛ لأنها تفسد فوراً ، لذلك يأتي لها بمحول يأخذ من القوى ويعطي الضعيف .

إذن إذا كانت صناعة البشر نجد فيها الضعيف الذي لا يأخذ من القوى إلا بواسطة ، فمن باب أولى أنه لا يمكن أن يتلقى خلق الله عن الله إلا بواسطة . وكانت الواسطة من البشر اصطفاء ومن الملائكة اصطفاء ، فليس كل ذلك صالحاً لهذه المسألة ، فمصطفى من الملائكة يعطي مصطفى من البشر .

وبعد ذلك يعطي المصطفى من البشر للبشر . كذلك الرؤية وسيظهر ذلك لنا حينما يعطي الله الدليل على أنه خلقكم لا على هيئة أن تروه الآن ، ولكن حين

تبرزون فى الآخرة وتعدون إعداداً آخر ، فمن الممكن أن تنالوا شرف رؤيته : ﴿ وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة ﴾ .

ولا يستوى الناس فى ذلك ؛ لأن المؤمن هو من ينال شرف النظر إلى الله ، أما الكافر فهو محجوب عن رؤية الحق يقول تعالى فى شأن الكفار : ﴿ كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون ﴾ فلا يستوى المؤمن والكافر فى هذه الحالة ، فمادام الكافر محجوبا فالمؤمن غير محجوب ويرى ربّه . وقال موسى . ﴿ رب أرنى أنظر إليك ﴾ . قال الحق : ﴿ قال لن ترانى ﴾ .

وفى اللغة نجد أن « لن » تأتى تأبيدية ، أى تؤبد المستقبل أى لا يحدث ولا يتحقق ما بعدها . فهل معنى ذلك أن قول الحق : ﴿ لن ترانى ﴾ أن موسى لن يرى الله فى الدنيا ولا فى الآخرة ؟ . ونقول : ومن قال إن زمن الآخرة هو زمن الدنيا ؟ إن هذه لها زمن وتلك لها زمن آخر :

﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ ﴾

(سورة إبراهيم)

إذن فزمن الآخرة وإعادة الخلق فيها سيكون أمراً آخر ، يكفى أن أهل الجنة سيأكلون ولن تكون لهم فضلات ، إنه خلق جديد . إن مجىء « لن » فى قوله الحق : ﴿ لن ترانى ﴾ تأبيدها إضافى ، أى بالنسبة للدنيا ، وفيها تعليل لعدم قدرة موسى على الرؤية ، وأضاف سبحانه :

﴿ وَلَٰكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ﴾

(من الآية ١٤٣ سورة الأعراف)

وسبحانه هنا يعلل لموسى بعملية واقعية فأوضح : لن ترانى ولكن حتى أطمئنك أنك مخلوق بصورة لا تمكنك من رؤيتى انظر إلى الجبل ، والجبل مفروض فيه الصلابة ، والقوة ، والثبات ، والتماسك ؛ فإن استقر مكانه ، يمكنك أن ترانى . إن الجبل بحكم الواقع ، وبحكم العقل ، وبحكم المنطق أقوى من

الإنسان ، وأصلب منه وأشد ، ولما تجلّى ربه للجبل اندك . والدكُّ هو الضغط على شيء من أعلى ليسوّى بشيء أسفل منه . والحق هو القائل :

﴿ كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ ﴾

(سورة الفجر)

وهنا في موقف موسى وحواره مع الله يتأكد لنا أن الله تجلى على خلق من خلقه ، ولكن أيقدر المتجلَّى عليه على هذا التجلي أم لا يقدر ؟ . إن أقدره الله فهو يقدر ، أما إن لم يقدره الله فلن يقدر . والجبل هو الأصلب ، فلما تجلى له ربه اندك ، إذن فمن الممكن أن يتجلى الله على بعض خلقه ، ولكن المهم أيقوى المستقبل للتجلي أو لا يقوى ؟ ولم تقو طبيعة موسى على التجلي لله بدليل أن الأقوى منه لم يقو . وبعد ذلك أراد الله أن يلفتنا لفتة تصاعدية . ويبين لنا أن موسى قد صعق لرؤية المتجلَّى عليه فكيف لو رأى المتجلَّى ؟ !! ﴿ فلما تجلَّى ربه للجبل جعله دكا وخرَّ موسى صعقا ﴾ . ويقال : خر الشيء إذا سقط من أعلى إلى أسفل ، ويقول الحق في آية قرآنية :

﴿ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا ﴾

(من الآية ٢٤ سورة ص)

والحق يخبرنا هنا : ﴿ وخر موسى صعقا ﴾ ، وصعقه تُطلق ويراد بها الوفاة ، ولكن هنا صعقة أخرى تعبر عن الإغماءة الطويلة . وصعقة الوفاة يقول فيها الحق سبحانه :

﴿ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴾

(من الآية ٦٨ سورة الزمر)

إذن النفخة الأولى لصعق وموت الجميع ، ثم تأتي النفخة الثانية للبعث . وهنا يقول الحق : ﴿ فلما أفاق قال سبحانك تبت إليك ﴾ . وهذا يدل على أن الصعقة ليست هي الصعقة الميتة ، وأفاق سيدنا موسى من الصعقة ، وانتبه إلى أنه لم يكن من اللائق أن يطلب الرؤية المباشرة لله . وكما نقول : « فلان فاق

لنفسه ، وهنا « أفاق » موسى على حجتين اثنتين ، أفاق من الغشية التي حصلت له من الصعقة ، وكأنه تساءل : لماذا انصعقت ؟ لقد انصعق لأنه سأل ربنا ما ليس له به علم : ﴿ فلما أفاق قال سبحانك ﴾ ، وساعة تسمع كلمة « سبحانك » اعرف أنه يراد بها التنزيه لله من الحدث الذي نحن بصدده وهو رؤيته ـ تعالى ـ أي تنزيها لك يارب أن يراك مخلوقك ؛ لأن الرؤية قدرة بصر على مرئي ، ومعنى « رأيت الشيء » أي أن عين البشر قد قدرت على الشيء ، ولو أننا نحن المخلوقين رأينا الله بقانون الضوء ، فهذا يعني أن أبصارنا تقدر على ربنا وهذا لا يمكن أبداً ؛ لأن المقدور لا ينقلب قادراً ، والقادر لا ينقلب مقدور .

﴿ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾

(من الآية ١٤٣ سورة الأعراف)

وتوبة موسى هنا من أنه سأل الله ما ليس له به علم ، ولأنه لم يقف عند التجليات لمحالفة نواميس الكون ، وأن ربنا قد أعطاه بدون أن يسأل ، لقد كلمه الله ، فلماذا يُصعد المسألة ويطلب الرؤية ؟ ولماذا لم يترك الأمور للعوضات التي يعطيها الله له ويتنعم بفيض جود لا ببذل مجهود ؟ .

ويقرر موسى ويقول : ﴿ وأنا أول المؤمنين ﴾ ، أي بأن ذاتك ـ سبحانك ـ لا يقدر مخلوق أن يراها ويدركها . لقد شعر موسى ببعض من انكسار الخاطر لأنه طمح إلى ما يفوق استطاعته وقال : ﴿ سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين ﴾ وكأنه قد فهم ما أوضحه الحق له . لا تلتفت إلى ما منعتك ، ولكن انظر إلى ما أعطيتك :

﴿ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ ﴾

والاصطفاء هو استخلاص الصفوة ، وقوله : ﴿ اصطفيتك على الناس ﴾ تعبير

فيه دقة الأداء لأنه لو قال اصطفيتك فقط ، ولم يقل على الناس ، فقد يُفهم الاصطفاء على الملائكة أيضاً . ولكن الاصطفاء هنا محدد في دائرة الاصطفاء البشري . ﴿ إني اصطفيتك على الناس برسالاتي وبكلامي ﴾ . ولقائل أن يقول : إن الحق اصطفى غيره أيضاً من الرسل ، والحق هو القائل :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا ﴾

(من الآية ٣٣ سورة آل عمران)

ونقول : هناك فرق بين اصطفاء رسالة منفردة ، وبين اصطفاء في رسالة ومعها شيء زائد ، ولنضرب هذا المثل ـ ولله المثل الأعلى ـ فإذا جئت كمدرس لتلاميذ وأعطيت واحداً منهم هدية عبارة عن قلم كمكافأة ، ثم أعطيت الثاني قلماً وزجاجة حبر ، أنت بذلك اصطفيت التلميذ الأول بهدية القلم ، واصطفيت الآخر باجتماع قلم وزجاجة حبر في هدية واحدة . والاصطفاء هنا لموسى بالرسالة كما اصطفى غيره من الرسل بالإضافة إلى شرف الكلام : ﴿ اصطفيتك على الناس برسالاتي وبكلامي ﴾ .

وعرفنا من قبل أن « رسالاتي » هي في مجموعها رسالة واحدة ، ولكن الرسالة مع سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم استمرت جزئياتها ثلاثاً وعشرين سنة في النزول ، فكأن كل نجم رسالة ، أو كل باب من أبواب الخير رسالة ، فهي رسالات متعددة ، أو أن رسالته جمعت رسالات السابقين :

﴿ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

أي لا تنظر إلى ما معك ، بل اذكر أني اصطفيتك وكلمتك وعليك أن تشكر لي هذا . ولذلك يجب على الإنسان المؤمن حين يتلقى قضاء الله فيه أن ينظر دائماً إلى ما بقي له من النعم . لا إلى ما سلب عنه من النعم . ولذلك نجد المؤمن المتفائل ينظر إلى الكوب الذي نصفه مملوء بالماء فيقول : الحمد لله نصف الكوب ملآن . أما المتشائم فيقول : إن نصف الكوب فارغ ، ويرغم أن كُلاً منهما

يقرر الحقيقة إلا أن المؤمن المتفائل ينظر إلى ما بقى من نعم الله .

إنا نجد ابن جعفر حين ذهب للخليفة الأموى فى دمشق وخرجت رحله فى أثناء السير من المدينة إلى دمشق ، ولم تكن هناك عدية طبية فتقيحت ، وحين أحضروا له الأطباء وقرروا قطع رجله ، قال بعض الحاضرين التمسوا له مرقداً أى دواء تخدير يجعله لا يحس بالألم ، فقال : لا ، فإنى لا أريد أن أغفل عن ربى لحظة عين ، فلما قطعوها أخذوها ليدفنوها ، فقال هاتوها فأحضروها له وأمسك بها وقال : اللهم إن كنت قد ابتليت فى عضو فقد عافيت فى أعضاء

هذه نظرة المؤمن الذى لا ينظر إلى ما أخذ منه ، بل ينظر إلى ما بقى له . وكذلك كان توجيه الحق لموسى عليه السلام ، فقد أوضح له : لا تنظر إلى أنى منعتك الرؤية ، لا ، بل انظر الاصطفاء وشرف الكلمة إلى الخالق واشكر ذلك

ويقول الحق بعد ذلك .

﴿ وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا سَأُورِيكُمْ دَارَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿١٤٥﴾ ﴾

والكتْب هو الرقم بقلم على ما يكتب عليه من ورق أو جلد أو عظم أو أى شىء ، وعندما يقول ربنا ﴿ وكتبنا ﴾ فالله لم يزاول الكتابة بنفسه ، ولكن رسله من الملائكة يكتبون بأمر من الحق وهو القائل

﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ ﴾

(من الآية ١٢ سورة يس)

وكتابة الرسل من الملائكة لأعمالنا هى بالأمر من الله ، ومرة ينسب الأمر إلى الأعلى ، أو ينسب إلى المباشر أو إلى الواسطة . ﴿ وكتبنا له فى الألواح من كل شىء موعظة وتفصيلا ﴾ .

ونحن نعرف الألواح ، وكنا نكتب عليها قديماً ولكتابة على الألواح سبب ، فقديماً كانوا يكتبون على أي شيء مبسوط ، وتبين لنا الآثار أن هناك كتباً مكتوبة على جلود الحيوانات ، مثلاً نجد قدماء المصريين قد كتبوا على الأحجار ، مثل حجر رشيد الذي أتاح لنا معرفة تاريخهم . وكان العرب يكتبون على الصحف المأخوذ من النحل ، وكذلك كتبوا على عظام الذبائح ، أخذو منها قطعة العظم المبسوطة مثل عظم الكتف وكتبوا عليه ، وكانت هذه الوسيلة مشهورة جدًا لديهم ، وصار كل مكتوب عليه يسمونه لوحاً .

﴿ وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ ﴾

(من الآية ١٤٥ سورة الأعراف)

وقوله سبحانه . ﴿ من كل شيء ﴾ يعني : من كل شيء تتطلبه حلافة الإنسان في الأرض في الوقت المناسب له : فالرسل تأتي بعقيدة ، لكن قد يأتي تشريع مناسب لفترة الزمنية التي جاء فيها الرسول ، ويضيف الله لرسول اخر يأتي من بعده ، إلى أن جاء محمد صلى الله عليه وسلم بالمنهج المكتمل إلى قيام الساعة .

لقد أوضح سبحانه أنه كتب في الألواح الموعظة والتفصيل لمنهج الحياة ، والموعظة تعني ألا تنشيء حكماً للسامع ، بل تعظه بتنفيذ ما عُلِم له من قبل ، ولذلك يقال : واعظ وهو الذي لا يُنشيء مسائل جديدة بل يعرف أن المستمع يعلم أركان الدين ويعظه بما يعلم .

وقوله الحق سبحانه ﴿ وتفصيلاً لكل شيء فخذها بقوة ﴾ أي أن الكلام لم يأت مجملاً ، بل يأتي بالتفصيل ، ويأمر الحق موسى أن يقبل على الموعظة والتفصيلات التي في الألواح بقوة ولماذا جاء الأمر هنا بأن يأخذها بقوة ؟ لأن الإنسان حين يؤمر أمراً قد يكون الأمر مخالفاً لرتابة ما ألف ، وحين يُنهى نهيا قد يكون هذا النهي مخالفاً لرتابة ما ألف وبذلك ينزع هذا النهي أو ذلك الأمر الإنسان مما ألف ، ويأخذه ويخرجه عما اعتاد

إن الإنسان في هذه الحالة يحتاج إلى قوة نفس تتغلب على الشهوة الرتيبة التي

تحلقها العادة ، ولذلك فمن يريد أن يقبل على منهج الله فعليه أن يعرف أن لمنهج سوف يخرجه مما ألف ، ولابد له أن يقبل على المنهج بقوة وعزم ليوجه إلف النفس ، لأن إلف النفس قد يقول للإنسان : لا تفعل ، والمنهج يقول له : « افعل » وعلى المؤمن ـ إذن ـ أن يأخذ التكاليف بقوة ، لأن شهوات النفس تحقق منع الدنيا الزائلة ، والمنهج يعطى متعة طويلة الأجل .

إن الشهوة قد تحقق للإنسان لذة على مقدار قدرته واستعداده ، لكن التكليف يعطى للمؤمن نفعا يتناسب مع طلاقة قدرة الله في النفع إذن لابد أن تشحن نفسك بما يعطيه الله لك من المنهج ، وإياك ساعة أن ترى المنهج مطالبا لك ببعض من الجهد أن تقول : إن تلك أمور صعبة لأنك لست وحدك في المنهج ، بل معك غيرك فإذا قال لك : لا تسرق ، إياك أن تقول : أيحدد المنهج حريتي ؟ لا ، لا تنظر إلى أن حظر وتحريم السرقة هو تحديد لحريتك بل هو صيانة لك من أن يعتدي عليك المعتدون ، فقد قال المنهج للناس كلهم لا تسرقوا منه وأنت الكاسب في هذه الحالة ويتابع الحق بيان ما في الألواح من قيم فيقول سبحانه : ﴿ وأمر قومك يأخذوا بأحسنها ﴾ .

« أحسن » تفيد أن هناك مرتبة أقل منها وهي « حسن » ؛ فأمرهم الحق أن يتركوا الحسن ويأخذوا بالأحسن ، ونعلم أن الإنسان من الأغيار ، إذا ما أصابته مصيبة من أحد يعتبره غريما له ، فإذا ما كان للإنسان غريم تحركت نوازع نفسه إلى عقابه بمثل ما أصابه به وهذا ما يبيحه الله في القصاص ، ولكن الله يطلب من المؤمن إن قدر على نفسه أن يعفو ، إذن فالعقوبة بالقصاص أو بغيره مادامت مشروعة من الله بمثل ما عوقبت فهذه مرتبة الحسن ، لكن إذا تركت نوازع نفسك وعفوت فهذه مرتبة « الأحسن » ، وجاءت هذه الترقيات لأن الحق سبحانه وتعالى خلق في الإنسان عواطف وغرائز ، وللعواطف والغرائز مهمة في حركة الحياة ، ولكن العواطف لا يمكن أن يسيطر عليها الإنسان ، ولذلك لا يقنن الله للعاطفة ولكنه سبحانه يقنن للغرائز كيف ؟ .

نحن نعلم أن « حب الطعام » غريزة ، ولكن يجب ألا يصل حب الطعام إلى مرتبة النهم والشره . وأيضاً « بقاء النوع » أو المتعة الجنسية أوجدها الحق من أجل

بقاء النوع. لكن لا يصح أن تتحول إلى درجة الشرود والوقوع في أعراض الناس وانتهاك حرماتهم، وحب الاستطلاع غريزة، والذين اكتشفوا الكشوف العلمية جاءت أعمالهم من حب استطلاعهم على أسرار الوجود. لكن لا يصح ولا ينبغي أن يصل حب الاستطلاع إلى التجسس الاستذلالي.

إن للإنسان غرائز يعليها الشرع، أما الحب فهو مسألة عاطفية. فالمشرع، يقول لك: أحبب من شئت وأبغض من شئت، ولكن لا تظلم من أبغضته ولا تظلم الناس لحساب من أحببت.

ولنا في رسول الله أسوة حسنة حين قال:

«لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه وولده ووالده والناس أجمعين»[1].

فقال عمر: كيف؟

وكررها رسول الله فعلم عمر - رضي الله عنه - بفطرته أن ذلك أمر تكليفي وعرف أن الحب المراد هو الحب العقلي. فيقول المؤمن لنفسه: من أنا لولا رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ وكل مؤمن يحب رسول الله حبًّا عقليًّا، وقد يتسامى إلى أن يصير حبًّا عاطفيًّا. والإنسان منا - كما قلنا سابقًا - يحب الدواء بعقله لا بعاطفته لأنه مُرّ، ولكنه يغضب إن اختفى الدواء من الأسواق ويفرح بمن يأتي له به.

إذن التكليف يتطلب الحب العقلي. ومن أخبار سيدنا عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - عندما مرّ أمامه قاتل أخيه زيد بن الخطاب فقال له عمر: أرو نفسك عني فأنا لا أحبك، فرد الرجل بكل جرأة إيمانية: أو عدم حبك لي يمنعني حقًّا من حقوقي؟ قال عمر: لا، قال الرجل: إنما يبكي على الحب النساء.

---

(١) رواه أحمد والبخاري ومسلم والنسائي وابن ماجه.

راجع أصله وخرج أحاديثه الدكتور أحمد عمر هاشم نائب رئيس جامعة الأزهر

والحق يقول هنا ﴿ يأخذو بأحسنها ﴾ فمثلاً ، حين يُقْتَلُ إنسان فلولي الدم أن يقتص ، لكن الحق يحثن قلب ولي الدم على القاتل فيقول :

﴿ فَمَنْ عُفِيَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾

(من الآية ١٧٨ سورة البقرة)

وحين يسمى الحق القاتل أخاً فهو يهدىء من صراع العواطف ويخفف من رغبة الانتقام . ويقول سبحانه أيضاً

﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿٤٣﴾ ﴾

(سورة الشورى)

ونجده سبحانه يؤكد أن مثل هذا الأمر من « عزم الأمور » لأنه أمر يتطلب الصبر والمغفرة . ومادام المؤمن قد استطاع أن يصبر وأن يغفر لغريم له ، أفلا يصبر إذا نزلت مصيبة عليه بدون غريم كمرض مفاجىء أو افتقاد حبيب ؟ . من إذن غريمك في المرض ؟ ومن تغضب ، وعلى من تهيج وإلى أين انتقالك ؟ ولذلك يقول لك الحق سبحانه : ﴿ واصبر على ماأصابك ﴾ أي مما لا غريم لك فيه ، ويوضح لك سبحانه : ﴿ إن ذلك من عزم الأمور ﴾ . ونلحظ أن الحق هنا لم يؤكد « باللام » لكنه أكد الأخرى « باللام » ، لأن لك غريماً يهيجك سامعه أن تراه ، وفي الآية التي نحن بصدد خواطر عنها يقول الحق لسيدنا موسى : ﴿ وأمر قومك يأخذوا بأحسنها ﴾ .

يعني إذا وجدت بهم ذريعة ووسيلة وسبباً إلى شيء ويوجد ما هو أحسن فأمرهم أن يلجأوا بالأحسن ، لماذا ؟ ، لأن الإنسان إذا روّض نفسه وذللها وعودها على الأحسن يكون قد فهم عن الله ونفرض أن واحداً أساء إليك ويمكنك أن تسيء إليه ، فعليك أن تراعي في ردك للإساءة أن تكون بقدرها مصداقاً لقول الحق سبحانه :

﴿ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ﴾

(من الآية ١٢٦ سورة النحل)

ولكن مَن ما يتصف بالدقة في الموازين النفسية حتى يستطيع أن يعرف المثلية بالهوى ؟ فإن كان هناك من صفعك وتريد أن ترد الصفعة ، فمن أين لك أن تقدر حجم الألم الذي في صفعتك له ؟ . لا يمكن لك أن تحدد هذا القدر من الألم ؛ لأن هذه مسألة تتناسب مع القوة إذن لماذا تدخل نفسك في متاهات ، ولماذا لا تعفو وينتهي الأمر ؟

وحين يدلك الحق على أن العفو أحسن ، إنما يريد بذلك أن ينهي شراسة النفوس وغبش الصدور . فحين يقتل إنسان إنساناً آخرَ ؛ سيكون هناك قصاص ودم ، ولكن إذا عفا وليّ الدم تكون حياة المعفو عنه هبة من وليّ الدم فيستحي القاتل ـ بعد ذلك ـ أن يجعل أية حركة من حركات هذه الحياة ضد وليّ الدم أو من ينسب إلى وليّ الدم ، وحينذاك تنتهي أي ضغينة أو رغبة في الثأر ، ولذلك نجد البلاد التي تحدث فيها الثأرات وتستشري فيها عادة الأخذ بالثأر ـ مثل صعيد مصر ـ نجد القاتل إذا ما أخذ كفنه على يده ودخل على وليّ الدم وقال له : أنا جئت إليك . . يعفو عنه وليّ الدم وتفهم العائلة كلها أن حياة المطلوب للثأر صارت هبة من وليّ الدم ، وتصفى الثأرات وتنتهي . ولذلك جاء الأمر من الحق بالأخذ بالأحسن : ﴿ وأمر قومك يأخذوا بأحسنها ﴾ ومثال آخر على الأخذ بالأحسن ، قد نجد مديناً غير قادر أن يوفي الدين ، هنا نجد الحق يقول :

﴿ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ﴾

(من الآية ٢٨٠ سورة البقرة)

الترض الرجل لأنه محتاج ؛ لأن القرض لا يكون إلا عن حاجة ، وهو عكس السؤال الذي قد يكون عن حاجة أو عن غير حاجة ، ولهذا نجد ثواب القرض أكثر من ثواب الصدقة ؛ لأن المقترض لا يقترض إلا عن حاجة ، ولأن المتصدق حين يتصدق بشيء من ماله يكون قد أخرج هذا المال من نفسه ولم يعد يتعلق به . لكن القرض تتعلق به النفس ، فكلما صبر المقرِض مع تعلق نفسه بماله أخذ أجراً ، وهكذا يكون القرض أحسن من الصدقة .

إذن فهناك حَسَن وهناك أحسن ، الحَسَن هو أن تأخذ حقك المشروع ، والأحسن أن تتنازل عنه ، ومن يتنازلون هم الفاهمون عن الله فهماً واسعاً ، ولنا

المثل والأسوة في سيدنا الحسن البصري ـ رضي الله عنه ـ الذي أحسن لمن أساء إليه فقال كلمته : « ألا نحسن إلى من جعل الله في جانبه » . ودائماً أضرب هذا المثل ـ ولله المثل الأعلى ـ هب أن إنساناً عنده أولاد وأساء واحد منهم للآخر . نجد قلب الأب يكون مع من أسيء إليه ، وكذلك الأمر فينا نحن خلق الله . إن أساء واحد من خلق الله إلى واحد آخر من خلق الله ؛ نجد رب الخلق مع من أسيء إليه ، وعلى من أسيء إليه أن يقول : هذا الإنسان الذي أساء إلي قد جعل ربنا في جانبي ولذلك فهو يستحق أن أحسن إليه ولهذا يقول الحق سبحانه :

﴿ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥ ﴾

(من الآية ١٨ سورة الزمر)

وفي آية ثانية يقول الحق .

﴿ وَٱتَّبِعُوٓا۟ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم ﴾

(من الآية ٥٥ سورة الزمر)

ويدلل الحق الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها بقوله : ﴿ سأريكم دار الفاسقين ﴾ .

ودار الفاسقين هي النار ، وكأن الحق هنا يقول : سأريكم النار ، ونعلم أن كل البشر سيمرون عليها ويرونها ، ولكن المؤمنين سيعبرونها ويردون عليها ويدخلون الجنة . ولقائل أن يقول : ولماذا تأتي سيرة النار هنا ؟ ونقول : جاءت سيرة النار ليرهب ويخيف النفس ويحملها على أن تبتعد عن كل أمر يقرب إلى النار . والقول هنا أيضاً لبني إسرائيل الذين نصرهم الحق على قوم فرعون وأخذوا منهم الكنوز والمقام الكريم وكأن الحق يقول لهم : إن كنتم تحبون أن يكون مآلكم مثل مآل قوم فرعون فافعلوا مثلهم ، وإن كنتم لا تريدون هذا لمآل فالتزموا منهج الحق .

إذن فقوله الحق : ﴿ سأريكم دار الفاسقين ﴾ معناه حملهم على ما في الألواح من عظة ، وعلى أن يأخذوه بقوة ، وعلى أن يتبعوا أحسن ما أنزل الله . أو ﴿ دار

الفاسقين ﴾ هي المدائن التي دمرت وخربت بتمرد وكفر وعصيان أهلها وفسقهم لتعتبروا فلا تفسقوا مثل فسقهم فينكل الله بكم مثل نكاله بهم ، وأنتم تمرون عليها في الغدو والرواح .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾ ﴾

والآيات جمع آية وهي الأمر العجيب ، وتطلق ثلاث إطلاقات ، فإما أن تكون آية كونية مثل قوله تعالى : ﴿ إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب ﴾ ، وإما أن تكون آية دلالة على صدق الرسول في البلاغ ، وإما أن تكون آية قرآنية فيها حكم من أحكام الله ، ومنا يقول الحق :

﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾

(من الآية ١٤٦ سورة الأعراف)

إذن يوضح سبحانه هنا أنه سيصرف الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق عن أن ينظروا نظر اعتبار في آيات الكون ، أو أن الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق سيبطل كيدهم في أن يتجهوا بالحق بالهدم ؛ لأن الواحد من هؤلاء ساعة يرى آية من آيات الله سينظر إليها على أنها سحر ، أو شعوذة ، أو أن يقول عنها إنها ضمن أساطير الأولين .

إذن وجه الصرف أن يسلط الحق عليه من الكبر ما يجعله غير قادر على وزن الآية بالميزان الصحيح لها ، والمتكبر هو من ظن أن غيره أدنى منه وأقل منزله ، ومقومات الكبر قد تكون قوة ، لكن ألم ير المتكبر قويًّا قد ضعف ؟ وقد يكون الثراء من مقومات الكبر ، لكن ألم ير المتكبر غنيًّا قد افتقر ؟ أو يكون المتكبر صاحب جاه ، ألم ير المتكبر ذا جاه صار ذليلاً ؟ .

إذن فمن يتكبر ، عليه أن يتكبر بشيء ذاتي لا يُسْلَب منه أبداً . فإذا ما أردت أن تطبق هذا على البشر فلن تجد واحداً يستحق أن يكون متكبراً أبداً ؛ لأنه لا يوجد في الإنسان خاصية ذاتية فيه تلازمه ولا تفارقه أبداً ، بل كلها موهوبة ، ومن الأغيار التي تحدث وقد تزول . فكلها من الله وليست أموراً ذاتية ؛ لأن القوة فيك إن كانت ذاتية فحافظ عليها ، ولن تستطيع . وإن كان الثراء ذاتيًّا فحافظ على غناك أبداً ، ولن تستطيع . وإن كانت العزة ذاتية فحافظ على عزتك أبداً ولن تستطيع . إذن فمقومات الكبرياء في البشر غير ذاتية .

وقوله سبحانه : ﴿ يتكبرون في الأرض بغير الحق ﴾ يفيد أن هناك كبرياء بحق لمن يملك في ذاته كل عناصر القوة والثراء والجاه والعزة ، ولذلك فالكبرياء لله وحده واعلموا أن كل متكبر في الأرض لا يخطر الله بباله ؛ لأنه لو خطر الله بكماله وجلاله في باله لتضاءل ؛ لأن الله يخطر فقط ببال المتواضعين من الناس . ولذلك نضرب هذا المثل : إننا نجد من حولنا إنساناً هو الرئيس الأعلى ، وهناك رئيس لطائفة ومرؤوس لآخر ، وهناك مرؤوس فقط والرئيس المرؤوس لا يستطيع أن يجلس مع المرؤوسين له بتكبر ويضع ساقاً على ساق ويعطي أوامر ؛ لأنه قد يلتفت فيجد رئيسه وقد دخل عليه فما فعل الرئيس المرؤوس ذلك لضحك منه المرؤوسون له فكذلك الناس الذين لا يستحضرون الله في بالهم يجدهم مثار سخرية ، لكن الذين يستحضرون الله الذي له الكبرياء في السموات والأرض لا يتكبرون أبداً .

إنه سبحانه يصرف عن المتكبرين النظر في الآيات الكونية فلا يعتبرون ، ويصرف عنهم تصديق الآيات الدالة على نبوة الأنبياء ، ويصرف عنهم القدرة على تصديق أحكام القرآن ، ويطبع على قلوبهم ، فما يداخل هذه القلوب من الكفر

لا يخرج ، وما فى خلوع هذه القلوب من الإيمان لا يدخل . وهم برغم حركتهم فى الحياة إلا أن الحق يعجزهم عن رؤية آياته فى الكون .

﴿ وَإِن يَرَوْا كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ﴾

(من الآية ١٤٦ سورة الأعراف)

وحين يرى أهل الكبر الآية الكونية أو الآية الإعجازية أو آيات الأحكام فهم لا يؤمنون بها ، وحين يرون سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلاً ؛ لأن سبيل الرشد يضغط على شهوات النفس وهواها ، فينهى عن السيئات وهم لا يقدرون على كبح جماح شهواتهم لأنها تمكنت منهم ، ولكن سبيل الغى يطلق العنان لشهوات النفس ، ولا يكون كذلك إلا إذا عقل عن معطيات الإيمان الذى يحرمه من شىء ليعطيه أشياء أثمن ، وهكذا تكون نظرة أهل الكبر سطحية . ونلحظ أن كلمة السبيل تأتى مرة كمذكر كقوله ؛ ﴿ لا يتخذوه سبيلاً ﴾ ، ومرة تأتى مؤنثة ، فالحق يقول : ﴿ قل هذه سبيلى ﴾ .

وهنا يقول الحق عن الذين يتبعون سبيل الغى من أهل الكبر : ﴿ ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين ﴾ . وقديماً قلنا إن الغفلة لا توجب الجزاء عليها ؛ لأن الغافل ساهٍ وناس ، ولكن هؤلاء صدفوا عن الأمر صدوفاً عقلياً مقصوداً ، لدرجة أنهم لا يعيرون الإيمان أى التفات .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٧﴾ ﴾

وقد جاء لفظ الآيات هنا أكثر من مرة ، فقد قال الحق : ﴿ وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها ﴾ . ويقول أيضاً : ﴿ ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا ﴾ . ويقول سبحانه : ﴿ والذين كذبوا بآياتنا ﴾ .

إذن فالمسألة كلها معاصها في الآيات الكونية للاستدلال على من أوجدها ، والإعجازية للاستدلال على صدق مَنْ أُرسل من الرسل ، والقرآنية لأخذ منهج الله لتقويم واستواء حركة الإنسان .

﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ ﴾

(من الآية ١٤٧ سورة الأعراف)

ويقال: حبط الشيء أي انتفخ وورم من علة أو مرض . أي أنهم في ظاهر الأمر يبدو لهم أنهم عملوا أعمالا حسنة ولكنها في الواقع أعمال باطلة وفاسدة ، وقد يوجد من عمل عملاً حسناً نافعاً للناس ، ولكن ليس في باله أنه يفعل ذلك إرضاء لله ، بل للشهرة ليتنشر ذكره ويذيع صيته ويثنى الناس عليه ، أو للجاه والمركز والنفوذ . ولذلك حين سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم : من الشهيد ؟ . قال :

« من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله »[1] .

لأن الرجل قد يقاتل حمية ، أو ليعرف الناس مثلاً أنه شجاع . إذن فهناك من يعمل عملاً ليفتخر به . ويقال مثلاً : إن الكفار هم من اكتشفوا الميكروب وصعدوا إلى الفضاء . ويقول : نعم لقد أخذوا التقدير من الناس لأن الناس كانت في بالهم ، ولن يأخذوا التقدير من الله لأنهم عملوا أعمالهم وليس في بالهم الله . والإنسان يأخذ أجره ممن عمل له ، والله سبحانه وتعالى لن يضيع أجر أعمالهم الحسنة ، بل أعطى لهم أجورهم في الدنيا ، لكن حرث الآخرة ليس لهم

﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا ﴾

(من الآية ٢٠ سورة الشورى)

---

(١) رواه أحمد والبخاري ومسلم وأبو داود والنسائي والترمذي وابن ماجه

فمن زرع وأحسن اختيار البذور ، واختيار التربة وروى بنظام يأتى له الزرع بالثمر لأنه أخذ بالأسباب ، وهذا اسمه عطاء الربوبية وهو عطاء عام لكل من خلق الله ، مؤمناً كان أو كافراً ، عاصياً أو طائعاً ، لكن عطاء الألوهية يكون فى اتباع المنهج بـ « افعل ولا تفعل » وهذا خاص بالمؤمنين ، فإذا ما أحسنوا استعمال أسباب الحياة فى السنن الكونية يأخذون حظهم منها ، والكافرون أيضاً يأخذون حظهم منها إذا أحسنوا الأخذ بالأسباب ؛ ويكون ذلك بتخليد الذكرى وإقامة التماثيل لهم . وأخذ المكتبات والمحاكم وحملات التكريم . أما جزاء الآخرة فيأخذه من عمل لوجه الآخرة ، أما من لم يفعلوا من أجل لقاء الله فهو سبحانه يقول فى حقهم :

﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾ ﴾

(سورة الفرقان)

وكذلك يقول :

﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً ﴾

(من الآية ٣٩ سورة النور)

فالكافرون مثلهم مثل الظمآن الذى يسير فى صحراء ويخيل له أن أمامه ماء ، ويمشى ويمشى فلا يجد ماء . أما غير الظمآن فلا يهمه إن كان هناك ماء أو لا يوجد ماء ، فالظمآن ساعة يرى السراب يمنى نفسه بأن المياه قادمة وأنه سيحصل عليها .

﴿ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا ﴾

(من الآية ٣٩ سورة النور)

وليس المهم أنه لم يجده شيئاً بل يفاجأ . ﴿ ووجد الله عنده ﴾ . إنه يفاجأ بأن الإله الذى كان لا يصدق بأنه موجود يجده أمامه يوم القيامة فيوفيه حسابه ويجزيه على عمله القبيح إذن فإن عمل الإنسان عملاً فلينتظر الأجر ممن عمل له ، وإن عمل الإنسان عملاً وليس فى باله الله فعليه ألا يتوقع الأجر منه ، وعلى الرغم من ذلك يعطى الله لهؤلاء الأجر فى قانون نواميس الحياة الكونية ؛ لأن من يحسن عملاً يأخذ جزاءه عنه .

﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٧﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

هم إذن كذبوا بآيات الله ، وكذبوا باليوم الآخر ، ولم يعملوا وفق منهج الإيمان ، فلهم جزاء وعقاب من لحق الذى أنزل هذا المنهج ، ولكنهم أعرضوا عنه وكذبوه .

ولذلك يقول سبحانه :

﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ ﴾

(سورة الكهف)

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ ﴿١٤٨﴾ ﴾

وقوله : ﴿ من بعده ﴾ أى من بعد ذهابه لميقات ربه بعد أن قال لهارون . ﴿ اخلفنى فى قومى ﴾ .

بعد ذلك اتخذ قوم موسى من حليهم عجلاً جسداً له خوار ، ونعرف أن الحلى هو ما يُتزين به من الذهب ، والجواهر والأشياء الثمينة ، وسيد هذه الحلى هو الذهب دائماً ، ونعلم أن الصائغ الماهر يشكل الذهب كما يريد ، وإن انكسر يسهل إصلاحه ، كما أن كسر الذهب يطيء ، ولذلك يقال : إن الذهب كالإنسان

الطيب ،كسره بعض ، ونجباره سهل

وساعة نسمع كلمة « زينة » قد يدخل فيها الماس والزمرد ، والياقوت ، لكن الذهب سيد هذه الحلى . ونعلم أن العالم مهما ارتقى ، فلن يكون هناك رصيد لأمواله إلا الذهب ، ولذلك لم يأت سبحانه بالياقوت ، أو بالجوهر ، أو بالماس ولذلك إذا أطلقت كلمة « الحلى » فالمراد بها الذهب .

وهذه الزينة هى التى صنع منها موسى السامرى تمثال العجل ، وبطبيعة الحال أخذ الحلى الذهبية لأن الماس والجواهر لا يمكن صهرها . لكن من أين جاء قوم موسى بالحلى وقد كانوا مستضعفين ، ومستذلين ؟ لقد احتالوا على أهل مصر وأخذوا منهم الحلى كسلفة سيردونها من بعد ذلك . ثم جاء رحيلهم فأخذوا الحلى معهم !

وغرق قوم فرعون وبقيت الحلى مع قوم موسى ، وصنع موسى السامرى من ذهب هذه الحلى عجلاً ، والعجل هو الذكر من ولد البقر ، وساعة تسمع قوله ﴿ عجلاً جسداً ﴾ أى أنه مُجسَّم ، أى له حجم واضح وأحد أهل التفسير من كلمة « جسداً » أن ذلك العجل هو بدن لا روح له ، مثلما نقول : « فلان هذه مجرد جثة » . أى كأنه جثة بلا روح .

وقوله الحق : ﴿ عجلاً جسداً له خوار ﴾ ، هذا القول يدل على أن جسدية العجل لم تكن لها حياة ؛ لأنه لو كان جسداً فيه روح لما احتاج إلى أن يقول عجلاً جسد له خوار ، ولا كتفى بالقول بأنه عجل . لكن قوله سبحانه : ﴿ له خوار ﴾ دليل على أن الجسدية فى العجل لا تعطى له الحياة . وجاء بالوصف فى قوله : ﴿ له خوار ﴾ والخوار هو صوت البقر . وقد صنعه من الذهب وكأنه يريد أن يتميز عن الآلهة التى كانت من الأحجار ، وحاول أن يجعله إلهاً نفيساً ، فصنعه ـ كما نعرف ـ من الحلى المسروقة ، وصنعه بطريقة أن هذا العجل الجسد إذا ما استقبل من دبره هبة الهواء ؛ صنعت وأحدثت فى جوفه صوتاً يشبه صوت وخوار البقر الذى يخرج من فمه ، وهذه مسألة يراها فى الناى وهو أنبوبة من القصب مما يسمى العاب البلدى وتصنع به ثقوب ، ويعزف عليه العازف ليخرج منه النغمة التى يريدها

وحين صنع موسى السامرى العجل بهذه الحيلة ، حدث هذ الصوت مشابها لخوار البقر وقصة هذا العجل تأتى فى سوره طه بوضوح وسنتعرض لها حين نتعرض بخواطر الإيمانية لسورة طه بإذن الله .

﴿ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ ﴾

(من الآية ١٤٨ سورة الأعراف)

ولماذا اختار السامرى العجل ؟ لأنهم حين خروجهم من مصر ، رأوا قدماء المصريين وهم يعبدون العجل لمزية فيه ، فقد كانوا يرون فيه مظهر قوه ، كما عبد الآخرون الشمس حين رأوا فيها مظهر قوه ، وكذلك من عبدوا القمر ، والنجوم . وقدماء المصريين عبدوا العجل لأن فيضان النيل كان يعمر الأرض بالمياه ، وكانوا يستخدمون العجل حين يريدون حرث الأرض . وكان أيدًا ، أى قويًا وشديداً فى حرث الأرض وهذا مظهر من مظاهر القوة . ولكن كيف اتخذ قوم موسى من بعده عجلاً يعبدونه بعد أن أتم عليهم الله المنة العظيمة حين أنجاهم وأغرق فرعون وآله ؟ وهو أوضح لنا الله أنه جاوز بنى إسرائيل البحر ومروا على قوم يعبدون الأصنام ، فقالوا لموسى عليه السلام اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة

وياتى القول من الحق :

﴿ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ ﴾

(من الآية ١٤٨ سورة الأعراف)

وهذه قضية تهدم كل عبادة دون عبادة الله ؛ لأن العبد لابد أن يتلقى من المعبود أوامر ، وأن يكون عند المعبود منهج يريد من العبد أن يعبده ، وأن يأتى المنهج بواسطة رسل يبلغون رسالات الله وكلام الله للبشر أما الذين يعبدون الشمس ـ مثلاً ـ فنسألهم : لماذا تعبدونها ؟ وما المنهج الذى أرسلته الشمس لكم ؟ إن العبادة هى طاعة العابد للمعبود فى « افعل » و « لا تفعل » فهل قالت لكم الشمس « افعلوا » و « لا تفعلوا » ؟ لا ؛ لأنه لا توجد واسطة كلامية تقول لكم المنهج ، وكيف يوجد ـ إذن ـ معبود بدون منهج للعابد ؟ وهل قالت : إن من يعبدنى سأشرق

عليه ، وأعطيه الضوء والحرارة ، ومن لا يعبدني فلن أعطيه شيئاً من ذلك ؟ لم تقل الشمس ذلك فهي تعطي من آمن بها ومن كفر ، ولم تزل خبراً عن الآخرة وقيام القيامة .

وهكذا يبطل أمام كل عابد لغير الله من ناحية أن العبادة تقتضي أمراً ونهياً ، في « افعل » و « لا تفعل » ومن يقل معبود من هؤلاء ما الذي تعبده وما الذي تعصاه . والأصل في المعبود أنه يهدي العابد السبيل الموصل إلى خيره في الدنيا وفي الآخرة لذلك يقول الحق ﴿ ألم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلاً اتخذوه وكانوا ظالمين ﴾ . و﴿ كانوا ظالمين ﴾ لأنهم أعطوا حقاً لمن ليس له الحق ، والحق سبحانه أعلى قمة في الحق ، ولذلك قال عن الشرك به . ﴿ إن الشرك لظلم عظيم ﴾ .

ويقول الحق بعد ذلك

﴿ وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ ﴾

هذا يوضح لنا أن عبادة العجل بين قوم موسى صار لها جمهور لكن الناس الذين امتلكوا قدراً من البصيرة ، أو بقية إيمان قالوا هذه الحكاية سخيفة ، وما كان لنا أن نفعلها وندموا على ما كان ، ويقال . سُقط في يده ، وهذه من الدلالات الطبيعية الفطرية التي لا تختلف فيها أمة عن أمة ، بل هي في كل الأجناس ، وفي كل لغة تشير إلى أن الإنسان إذا ما فعل فعلا وحدث له عكس ما يفعل يعض على الأنامل ندماً وغماً ، وهذه من الدلالات الفطرية الباقية لنا من الالتقاء الطبيعي في المخططات ، في كل الأجناس ويعض الإنسان الأنامل لأنه عمل شيئاً ما كان يصح أن يعمله ، وإذا كان الشيء عظيماً فهو لا يكتفي بالأنملة بل يمسك يده كلها ويعضها . والحق يقول ﴿ ويوم يعض الظالم على يديه ﴾

« وسقط في أيديهم » أي جدت أنيابهم على أيديهم ، كان الندم بلغ أشده ، إن ذلك حدث من التائبين الذين أبصرو بعيونهم ورأوا أن ذلك باطل وخسران . أي قالوا : لئن لم يتداركنا الله برحمته ومغفرته لنكونن من الهالكين ، وهذا اعتراف منهم بذنبهم والتجاء إلى الله عز وجل

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ ۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ ۚ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى ۖ فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥٠﴾ ﴾

وكون موسى يعود إلى قومه حالة كونه غضبان أسفاً ، يدلنا على أنه علم الخبر بحكاية العجل . والغضب والأسف عملية نفسية فيها حزن وسموها « المواجيد النفسية » ، أي الشيء الذي يجده الإنسان في نفسه ، وقد يعبر عن هذه المواجيد بانفعالات نزوعية ، ولذلك تجد فارقا بين من يحزن ويكبت في نفسه ، وبين من يغضب ، فمن يغضب تنتفخ أوداجه ويحمر وجهه ويستمر هياجه ، وتبرق عيناه بالشر وتندفع يداه ، وهذا اسمه عصبان وصار موسى إلى الحالتين الاثنتين ؛ وقدّم الغضب لأنه رسول له منهجه ولا يكفي في مثل هذا الأمر الحزن فقط ، بل لابد أن يكون هناك الغضب نتيجة هياج الجوارح

وقديماً قلنا . إن كل تصور شعوري له ثلاث مراحل : المرحلة الأولى مرحلة إدراكية ، ثم مرحلة وجدانية في النفس ، ثم مرحلة نزوعيه بالحركة . وضربنا المثل لذلك بالوردة . فمن يرى الوردة فهذ إدراك ، وله أن يعجب بها ويسر من شكلها ويطمئن لها ويرتاح ، وهذا وجدان . لكن من يمد يده ليقطفها فهذا نزوع

حركى . والتشريع لم يقنن للإدراك أو للوجدان لكنه قنن للسلوك . إلا فى غض البصر عما حرم الله وذلك رعاية لحرمة الأعراض .

والأسف عند موسى لن يظهر للمخالفين للمنهج . بل يظهر الغضب وهو عملية نزوعية ، ونلحظ أنه يأتى بكلمة أسِف . وهى مبالغة فهناك فرق بين أسِف وآسف ، آسف خفيفة قليلا ، لكن أسِف صيغة مبالغة ، مما يدل على أن الحزن قد اشتد عليه وتمكن منه

﴿ قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِيٓ ۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ﴾

(من الآية ١٥٠ سورة الأعراف)

وقوله سبحانه . ﴿ أعجلتم أمر ربكم ﴾ أى استبطأتموني ، وهذا نتيجة لذهاب موسى لثلاثين ليلة وأتمها بعشر ، فتساءل موسى : هل ظننتم أنى لن آتى ؟ أو أننى أبطأت عليكم ؟ وهل كنتم تعتقدون وتؤمنون من أجلى أو من أجل إله قادر ؟ . ولذلك قال سيدنا أبو بكر رضى الله عنه : عندما انتقل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى :

« من كان يعبد محمدًا فإن محمدًا قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حى لا يموت » . وهنا يقول سيدنا موسى : افترضوا أنكم عجلتم الأمر واستبطأتمونى أو حقتم ان أكون قد مت . فهل كنتم تعبدوننى أو تعبدون ربنا .

﴿ أعجلتم أمر ربكم وألقى الألواح ﴾ ، ونعلم أن الألواح فيها المنهج ، وقد فسر موسى على أخيه : ﴿ وأخذ برأس أخيه يجرّه إليه ﴾ وهذا « النزوع العضبى » الذى جعله يأخذ برأس أخيه ، كأن الأخوة هنا لا نفع لها ، فماذا كان رد الأخ هارون : ؟

﴿ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾

(من الآية ١٥٠ سورة الأعراف)

نلحظ أنه قال : « ابن أم » ولم يقل : « ابن أب » لأن أبا موسى وهارون طُوى

اسمه فى تاريخ النبوات ولم يظهر عنه أى خبر ، والعلم جاءنا عن أمه لأنها هى التى قامت بتنشئته فى أمر حياته ، لذلك جاء هنا بالقدر المشترك البارز فى حياتهما ، ولأن الأمومة مستقر الأرحام ؛ لذلك أنت تجد أخوة من الأم ، وأخوة من الأب فقط ، وأخوة من الأب والأم ، ولأخوة من الأب والأم أمرهم معروف لكن نجد فى أخوة الأم حنانا ظاهراً ، ويقل الحنان بين الأخوة من الأب . وجاء الحق هنا بالقدر المشترك بينهما - موسى وهارون - وهو أخوة الأم ، وله وجود مستحضر فى تاريخهم . أما الأب عمران فنحن لا نعرف عنه شيئاً ، وكل الآيات التى جاءت عن موسى متعلقة بأمه ، لذلك نجد أخاه هارون يكلمه بالأسلوب الذى يحننه . ﴿ قال ابن أمّ إن القوم استضعفونى وكادوا يقتلونني ﴾ .

ومادام قد قال ﴿ وكادوا يقتلونني ﴾ فهذا دليل على أنه وقف منهم موقف المعارض والمقاوم الذى أدى ما عليه إلى درجة أنهم فكروا فى قتله ، ويتابع الحق بلسان هارون : ﴿ فلا تشمت بى الأعداء ولا تجعلنى مع القوم الظالمين ﴾ .

والشماتة هى إظهار الفرح بمصيبة تقع بخصم ، والأعداء هم القوم الذين اتخذوا العجل ، وقد وصفهم بالأعداء كدليل على أنه وقف منهم موقف العداوة ، وأن موقف الخلاف بين موسى وهارون سيمرحهم . وقوله : ﴿ وأخذ برأس أخيه ﴾ . . بجمال للرأس فى عمومها ، وفى آية أخرى يقول : ﴿ لا تأخذ بلحيتى ولا برأسى ﴾

ولقد صنع موسى ذلك ليسمع العذر من هارون ؛ لأنه يعلم أن هارون رسول مثله ، وأراد أن يسمعنا ويسمع الدنيا حجة أخيه حين أوضح أنه لم يقصر . قال : إن القوم استضعفونى لأنى وحدى وكادوا يقتلوننى ، مما يدل على أنه قاومهم مقاومة وصلت وانتهت إلى آخر مجهودات لطاقة فى الحياة ؛ حتى أنهم كادوا يقتلونه ، إذن فهو لم يوافقهم على شىء ، ولكنه قاوم على قدر الطاقة البشرية ، لذلك يذيل الحق الآية بقوله سبحانه : ﴿ ولا تجعلنى مع القوم الظالمين ﴾

وكأنه يقول : لموسى إنك أن آخذتنى هذه المؤاخذة فى حالة غضبك ، ربما ظُنَّ فى أنى كنت معهم ، أو سلكت مسلكهم فى اتخاذ العجل وعبادته وأراد الحق سبحانه

أن يبين لنا موقف موسى وموقف أخيه ؛ فموقف موسى ظهر حين غضب على أخيه وابن أمه ، وموقف هارون الذى بين العلة فى أن القوم استضعفوه وكادوا يقتلونه ، ولايمكن أن يطلب منه فوق هذ ، وحينما قال هارون ذلك تنبه موسى إلى أمرين :

الأمر الأول : أنه كيف يلقى الألواح وفيها المنهج ؟ والأمر الثانى : أنه كيف يأخذ أخاه هذه الأخذة قبل أن يتبين وجه الحق منه ؟

ويقول الحق على لسانه بعد ذلك :

﴿ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٥١﴾ ﴾

قال يا رب اغفر لى إن كان قد بدر منى شىء يخالف منطق الصواب والحق . واغفر لأخى هارون ما صنع ، فقد كان يجب عليه أن يأخذ فى قتال من عبدوا العجل حتى يمنعهم أو ينالوا منه ولو مادون القتل جرحاً أو خدشاً أو . . أو . . إلخ .

ويطلب موسى لنفسه ولأخيه الرحمة :

﴿ وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾

(من الآية ١٥١ سورة الأعراف)

وحين تسمع ﴿ أرحم الراحمين ﴾ ، أو ﴿ خير الرازقين ﴾ ، أو ﴿ خير الوارثين ﴾ ، أو ﴿ أحسن الخالقين ﴾ ، وكل جمع هو وصف لله ، وإنه بهذا أيضاً يدعو خلقه إلى التخلق بهذا الخلق ، ويوصف به خلقه-فاعلم أن الله لم يحرمهم من وصفهم بهذه الصفات لأن لهم فيها عملا وإن كان محدودا يتناسب مع قدرتهم ومخلوقيتهم وعبوديتهم ، فضلا على أنها عطاء ومنحة منه ـ سبحانه أما صفات الله فهى صفات لا محدودة ولا متناهية جلالا وكمالا وجمالا فسبحانه ﴿ ليس كمثله

شيء ﴾ ، وإذا كان الله هو ﴿ أرحم الراحمين ﴾ بهذا يعني أنه سبحانه لم يمنع الرحمة من خلقه على خلقه ؛ فمن رحم أحداً سُمِّيَ رحيماً ، وراحماً ، ولكن الله أرحم الراحمين ؛ لأن الرحمة من كل إنسان ضمان لمطهرية العضب في هذا الأحد ، يقال : « رحمت فلاناً » أي من غضبك عليه وعقوبتك ، وإن عقوبتك على قدر قوتك ، لكن الله حين يريد أن يأخذ واحداً بذنب ففوته لا نهاية لها ، وكذلك رحمته أيضاً لا نهاية لها

ويقول الحق بعد ذلك

﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾ ﴾

حين يقال : ﴿ اتخذوا العجل ﴾ قد يجد من يتساءل : هل اتخذوه مذبوحاً يأكلونه ؟ أو يثير الأرض أو يسقي الحرث ويدير السواقي ؟ لأن العجل موجود لهذه المهام ، لكنهم لم يأخذوا العجل لتلك المهام ، بل إنهم قد تخذوا العجل إلهاً ومعبوداً ، أما اتخاذه فيما خُلِقَ له فلا غبار عليه ، وهو هنا محذوف ومتروك لفطنة السامع ؛ فإذ اتخذوا العجل فيما خُلِقَ له العجل لا يدلنا غضب من الله ، أما الذين سينالهم غضب الله فهم من اتخذوا العجل في غير ما خُلق له ، إنهم اتخذوه إلهاً ﴿ سينالهم غضب من ربهم وذلة في الحياة الدنيا ﴾

وقوله : ﴿ سينالهم ﴾ يدل على أن آوان الغضب والذلة لم يأت بعد ، وسيحدث في المستقبل ، ومستقبل الدنيا هو الآخرة ، ولكن الحق هنا يقول : إن الذلة ستحدث في الدنيا ، فكيف يكون ﴿ سينالهم غضب ﴾ مع أنهم تابوا ؟ ويوضح سبحانه لنا ذلك في قوله . ﴿ فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم ذلكم خير لكم عند بارئكم فتاب عليكم ﴾ .

فبعضهم تاب إلى بارئه وقتل نفسه فلماذا إذن الغضب ؟

ويوضح الحق لك أن الذى نالهم من الغضب هو ما ألجأهم إلى أن يقال لهم : « اقتلوا أنفسكم » ، وهكذا نفهم أن قوله تعالى : « سينالهم غضب » أى قبل أن يتوبوا ، وقتل النفس هو منتهى الذلة ومنتهى الإهانة .

﴿ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ ﴾

(من الآية ١٥٢ سورة الأعراف)

أى أن هذا الأمر ليس بخاصية لهم ، فكل مفتر يتجاوز حده فوق ما شرعه الله لابد أن يناله هذا الجزاء ؛ لأن ربنا حين يقول لنا ما حدث فى تاريخهم ؛ وحين يسرد لنا هذه القصة فإنه يريد من وراء ذلك ـ سبحانه ـ أن يعتبر السامع للقصة فى نفسه . واعتبار السامع للقصة فى نفسه لا يتأتى إلا بأن يقول له الله تنبيها وتحذيراً ﴿ وكذلك نجزى المفترين ﴾ أى احذر أن تكون مثل هؤلاء فينالك ما نالهم ، وهو سبحانه ينبه كلا منا ليتنفع من هذه العبرة وهذه اللقطة فإن التاريخ مسرود لأخذ العبرة ، والعظة ليتعظ بها السمع

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِن بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٥٣﴾ ﴾

وهذا ما حدث ، فبعد أن اتخذوا العجل ، وقال لهم : اقتلوا أنفسكم توبة إلى بارئكم ، ثم تابوا ورجعوا إلى الله وآمنوا بما جاءهم ، غفر الله لهم . وإذا كان الحق قد نص علينا مظهرية جباريته فإنه أيضاً لم يشأ أن يدعنا فى مظهرية الجبارية ، وأراد أن يدخلنا فى حنان الرحمانية . لذلك يقول هنا :

﴿ وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِن بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا

لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٥٣﴾

(سورة الأعراف)

وقوله . ﴿ ثم تابوا ﴾ أى ندموا على ما فعلوا وأصروا وعزموا على ألاَّ يعودوا ، ونعلم من قبل أن التوبة لها مظهريات ثلاثة ؛ أولاً . لها مظهرية التشريع ، ولها مظهرية الفعل من التائب ثانيا ، ولها قبولية الله للتوبة من التائب ثالثاً . ومشروعية التوبة نفسها فيها مطلق الرحمة ، ولو لم يكن ربنا قد شرع التوبة فى ذاته لتعب الخلق جميعاً ؛ لأن كل من عمل سيئة ، ولم يشرع الله له التوبة سيستشرى شره فى عمل السيئات . لكن حين يشرع ربنا للمسىء التوبة ، ويدعو العبد للكف عن السيئة فهذه رحمة بالمذنب ، وبالمجتمع الذى يعيش فيه المذنب بعد ذلك يتوب العبد ، ثم يكون هنا مظهرية أخرى للحق ، وهو أن يقبل توبته .

التوبة ـ إذن ـ لها تشريع من الله ، وذلك رحمة ، وفعل من العبد بأن يتوب ، وذلك هو الاستجابة ، وقبول من الله ، وذلك هو قمة العطاء والرحمة منه سبحانه .

وقوله الحق :

﴿ وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِن بَعْدِهَا وَآمَنُوا ﴾

(من الآية ١٥٣ سورة الأعراف)

إنَّ هذا القول يدل على أن عمل السيئة يخدش الإيمان ، فيأمر سبحانه عبده : جدِّد إيمانك ، واستحضر ربك استحضاراً استقبالياً ؛ لأن عملك السيئة يدل على أنك قد غفلت عن الحق فى أمره ونهيه ، وحين تتوب فأنت تجدد إيمانك وتجد ربك غفوراً رحيماً : ﴿ إن ربك من بعدها لغفور رحيم ﴾ .

إن ذنب العبد يكون فيما خالف منهج ربه فى « افعل » و « لا تفعل » ، ومادام العبد قد استغفر الله وتاب فسبحانه يقبل التوبة . ويوضح : إذا كنت أنا غفورا رحيماً ، فإياكم يا خلقى أن تذكروا مذنباً بذنبه بعد أن يتوب ؛ لأن صاحب الشأن غفر ، فإياك أن تقول للسارق التائب : « يا سارق » ، وإياك أن تقول للزانى التائب : « يازانى » ، وإياك أن تقول للمرتشى التائب : « يامرتشى » لأن المذنب

مادام قد جدد توبته وآمن ، وغفر الله له ، فلا تكن أنت طفيليًّا وتثور له الذنب من جديد

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾ ﴾

وهل للغضب سكوت ؟ هل للغضب مشاعر حتى يسكت ؟ نعم ؛ لأن الغضب هيجان النفس لتعمل عملاً نزوعيًّا أمام من أذنب ، فكأن الغضب يلح عليه ، ويقول للغاضب اضرب ، اشتم ، اقتل . كأن الغضب قد مُثِّل وصُوِّر في صورة شخص له قدرة إصدار الأوامر ، فشبَّه الله الغضب بصورة إنسان يلح على موسى في أن يفعل كذا ، ويفعل كذا ، ويفعل كذا ، فلما قال الله ذلك كأن الغضب قد سكت عنه .

أو هو كما قال إخواننا العلماء من القلب في اللغة ، أي أنه يقلب المسألة ، اتكالاً على أن فطنة السامع سترد كل شيء إلى أصله ؛ كما نسمع في اللغة : خرق الثوبُ المسمارَ ، نفهم من هذا القول أن المسمار هو الذي قام بخرق الثوب ؛ لأننا لن نتخيل أنَّ الثوب يخرق مسمارا . ويسمى ذلك « القلب » أي أن يأتي بمسألة مقلوبة تفهمها فطنة السامع . أو أن المسمار مستقر في مكانه ، والثوب هو الذي طرأ عليه فانخرق ، فيكون سبب الخرق من الثوب ، فكأن الفاعلية الحقيقية من الثوب : ﴿ ولما سكت عن موسى الغضب ﴾ .

أو تكون كلمة (سكت) كناية عن أن الغضب زال وانتهى .

﴿ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

وأول عمل قام به موسى ساعة أن كان غضبان أسفاً أنه ألقى الألواح ، وأول ما ذهب الغضب عنه ورأيناه أخذ الألواح ، وهذا أمر منطقي ، فالغضب حمله يلقي الألواح ، ويأخذ برأس أخيه ، ثم فهم ما فعله أخوه واعتذر له فقبل عذره ، وطلب من الله أن يغفر له ، وأن يغفر لأخيه وانتهى الغضب وكانت الألواح ملقاة فأخذها ثانية .

﴿ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴾

(من الآية ١٥٤ سورة الأعراف)

النسخة من الكتاب مأخوذة من الشيء المنسوخ أي المنقول من مكان إلى مكان ، ويقال : نسخت الكتاب الفلاني من الكتاب الفلاني . . أي أن هناك كتابا محفوظاً ثم نعناه بالطباعة أو بالكتابة إلى نسخة أو عدد من النسخ ، أي أخذته من الأصل إلى الصورة ، واسمه منسوخ ، وكلمة نسخة على وزن « فعلة » وتأتي بمعنى مفعولة ، فنسخة تعني منسوخة ، وهي لقرآن مثل هذا كثير والحق سبحانه وتعالى قال

﴿ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ ﴾

(من الآية ٢٤٩ سورة البقرة)

و « غُرْفة » أي مغروفة ، وهي القليل من الماء في اليد لتبل الريق فقط ، والغرفة أيضاً تكون في البيوت ؛ لأنها مكان مقتطع من مكان آخر ولها جدران تحددها ، واسمها غرفة لأنها مغروفة من المكان في حيز محصور وهنا يقول الحق سبحانه ﴿ وفي نسختها هدى ورحمة ﴾

و « هدى » المقصود بها المنهج الموصل للغاية في « افعل » و « لا تفعل » . إنه يوصل للغاية وهي ثواب الآخرة إذن فالهدى والرحمة شيء واحد له طرفان ، فالهدى هو المنهج الذي إن اتبعته تصل إلى الرحمة ، ولذلك يقول الحق ﴿ هدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون ﴾

وهكذا نجد المنهج هدى ورحمة ، فمن يسمع كلام الله ويتبعه يهتدي ويرحمه

رب ؛ لأنه حمل الله في باله ، وخاف من صفات الجبارية في الحق ، ولهذا لابد أن يستحضر الإنسان أو المؤمن رهبته لربه وخوفه منه ـ سبحانه ـ ليكون المنهج هدى ورحمة له ويكون من الذين يرهبون ربهم

وساعة ترى المفعول تقدم في مثل قوله سبحانه هنا :

﴿ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴾

(من الآية ١٥٤ سورة الأعراف)

نفهم أن هذا هو ما يسمى في اللغة « اختصاص » ونصر مثلما قال الحق في فاتحة الكتاب : ﴿ إياك نعبد ﴾ .

وما الفرق بين « إياك نعبد » و « نعبدك » ؟ إن قولنا « نعبدك » فهو قول لا يمنع من العطف عليه ، فقد نعبدك ونعبد الشركاء معك ؛ لكن قولنا : « إياك نعبد » أي خصصناك بالعبادة وقصرناها عليك سبحانك فلا تتعدى إلى غيرك

إذن حين تقدم المفعول فهذا هو عمل الاختصاص ومثال ذلك في حياتنا حين نقول : « أكرمتك » ، ولا مانع أن نقول بعدها « وأكرمت زيداً وأكرمت عمراً » لكن إن قلت : إياك أكرمت ، فهذا يعني أني لم أكرم إلا إياك وهذا يقول الحق ﴿ للذين هم لربهم يرهبون ﴾ . ولقائل أن يقول ألا يمكن أن يدعي أحد الرهبة ظاهراً وأنه ممتثل لأمر الله رياء أو سمعة حتى يقول الناس : إن فلاناً حسن الإسلام ، ويأخذون في الثناء عليه ؟ ولكن هنا نجد التخصيص الذي يدل على أن العبد لا يرهب أحداً غير الله ، وأن الرهبة خالصة لله ، وليست رياء ، ولا سمعة ، ولا لقصد الثناء .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن

قَبْلُ وَإِيَّىَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ إِنْ هِىَ إِلَّا
فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ أَنتَ وَلِيُّنَا
فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ ﴿١٥٥﴾

وكلمة « اختار » تدل على أن العمل الإختيارى يُرجح العقل فيه فعلاً على عدم فعل أو على فعل آخر ، وإلا فلا يكون فى الأمر اختيار ؛ لأن « اختار » تعنى طلب الخير والخيار ، وكان فى مكنتك أن تأخذ غيره ، وهذا لا يأتى إلا فى الأمور الاختيارية التى هى مناط التكليف ، مثال ذلك . اللسان خاضع لإرادة صاحبه فخضع للمؤمن حين قال : لا إله إلا الله ، وخضع للملحد حين قال ـ لعنه الله ـ . لا وجود لله ، ولم يعص اللسان فى هذه ، ولا فى تلك . والذى رجح أمراً على أمر هو ترجيح الإيمان عند المؤمن فى أن يقول : لا إله إلا الله ، وترجيح الإلحاد عند الملحد فى أن يقول ما يناقض ذلك . والحق هنا يقول : ﴿ واختار موسى قومه سبعين رجلاً ﴾ .

والذين درسوا اللغة يقولون : إن هناك حدثاً . وأنّ هناك موجداً للحدث نسميه فاعلاً مثل قولنا : « كتب زيد الدرس » أى أن زيداً هو الذى أدى الكتابة ، ونسمى « الدرس » الذى وقعت عليه الكتابة مفعولاً به ، ومرة يكون هناك ما نسميه « مفعولاً له » أو « مفعولاً لأجله » مثل قول الابن : قمت لوالدى إجلالاً ، فالذى قام هو الابن ، والإجلال كان سبب فى إيقاع الفعل فنسميه « مفعولاً لأجله » ونقول : « صُمْت يوم كذا » ونسميه « مفعولاً فيه » ، وهو أن الفعل ، وقع فى هذا الزمن . فمرة يقع الحدث على شىء فيكون مفعولاً به ، ومرة يقع لأجل كذا فيكون مفعولاً لأجله ، ومرة يقع فى يوم كذا ؛ العصر أو الظهر فيكون مفعولاً فيه ، ومرة يكون مفعولاً معه « مثل قولنا : سرت والنيل . أى أن الإنسان سار بجانب النيل وكلما مشى وجد النيل فى جانبه .

وهنا يقول الحق :

﴿ وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا ﴾

(من الآية ١٥٥ سورة الأعراف)

ولأن اختيار موسى للسبعين كان وقع من لقوم ، فيكون بمفعول قد جاء من هؤلاء لقوم ، ويسمى « مفعولاً منه » ؛ لأنه لم يختارهم كلهم ، إنما اختار منهم سبعين رجلاً لميقاته مع الله سبحانه

وقالوا في عدة السبعين إن من تبعوا موسى كانوا أسباطاً ، فأخذ من كل سبط عدداً من الرجال ليكون كل الأسباط ممثلين في الميقات ، وكلمة « ميقات » مرت قبل ذلك حين قال الله :

﴿ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ ﴾

(من الآية ١٤٣ سورة الأعراف)

وهل الميقات هنا هو الميقات الأول ؟ لا ؛ لأن الميقات الأول كان للكلام موسى مع الله ، والميقات الثاني هو للاعتذار عن عبدة العجل

﴿ وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم ﴾

(من الآية ١٥٥ سورة الأعراف)

ولماذا أخذتهم الرجفة ؟

لأنهم لم يقاوموا الذين عبدوا العجل المقاومة الملائمة ، وأراد الله أن يعطي لهم لمحة من عذابه ، والرجفة هي الزلزلة الشديدة التي تهز المرجوف وتخيفه وترهبه من الراجف . وحين أخذتهم الرجفة قال موسى ﴿ رب لو شئت أهلكتهم من قبل وإياي ﴾ .

أوضح موسى : لقد أحضرتهم من قومهم وأهلوهم يعرفون أن السبعين رجلاً قد جاءوا معي ، فإن أهلكتهم يا رب فقد يظن هؤلاء أني أحضرتهم ليموتوا وأسلمتهم إلى الهلاك ولو كنت مميتهم يا رب وشاءت مشيتك ذلك لأمتهم من

قبل هذه المسألة وأنا معهم أيضاً . ويضيف القرآن على لسان موسى والقوم معاً :

﴿ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ ﴾

(من الآية ١٥٥ سورة الأعراف)

أنت أرحم يا رب من أن تهلكنا بما فعل السفهاء منا ، وهذا القول يدل على أن لعبادة عجلية نعم ، والفعل هو عبادة العجل ، فلو أن هذا هو الميقات لأول بما احتاج إلى مثل هذا القول ، لأن قوم موسى لم يكونوا قد عبدوا العجل بعد ولكنهم قالوا بعد الميقات الأول . مادام موسى قد كلم الله ، فلابد لنا أن نرى الله ، وقالوا فعلاً لموسى .

﴿ أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً ﴾

(من الآية ١٥٣ سورة النساء)

إذن نجد أن ما حصل من قوم موسى بعد الميقات الأول هو قولهم ﴿ أرنا الله جهرة ﴾ وليس الفعل ، أما هنا فالآية تتحدث عن الفعل ﴿ أتهلكنا بما فعل السفهاء منا إن هي إلا فتنتك ﴾ .

وهكذا نعلم أن الآية تتحدث عن ميقات ثانٍ تحدد بعد أن عبد بعضهم العجل . والفتنة هي الاختبار ، والاختبار ليس مذموماً في ذاته ، ولا يقال في أي امتحان إنه مذموم إنما المذموم هو النتيجة عند من يرسب ، والاختبار والامتحان غير مذموم عند من ينجح .

إذن فالفتنة هي الابتلاء والاختبار ، وهذا الاختبار يواجه الإنسان الجاهل الذي لا يعلم بما تصير إليه الأمور وتنتهي إليه ليختار الطريق ويصل إلى النتيجة . ولا يكون ذلك بالنسبة لله ، لأنه يعلم أولاً كل سلوك لعباده ، لكن هذا العلم لا يكون حجة على العباد ، ولابد من الفعل من العباد ليبرز ويظهر ويكون له وجود في الواقع لتكون الحجة عليهم والأخذ بالواقع هو الأعدل

وقول موسى عليه السلام

﴿ إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ ﴾

(من الآية ١٥٥ سورة الأعراف)

هذا القول يعني . أنك يا رب قد جعلت الاختبار لأنك خلقتهم مختارين ؛ فيصح أن يطيعوا ويصح أن يعصوا والله سبحانه هو من يُضل ويهدي ؛ لأنه مادام قد جعل الإنسان مختاراً فقد جعل فيه القدرة على الضلال ، والقدرة على الهدى .

وقد بيّن سبحانه من يشاء هدايته ، ومن يشاء إضلاله فقال :

﴿ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾

(من الآية ٨٦ سورة آل عمران)

والسبب في عدم هدايتهم هو ظلمهم ، وكذلك يقول الحق :

﴿ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾

(من الآية ٢٦٤ سورة البقرة)

وهكذا نرى أن الكفر منهم هو الذي يمنعهم من الهداية . إذن فقد جعل الله للعبد أن يختار الهداية أو أن يختار الضلال ، وما يفعله العبد ويختاره لا يفعله قهراً عن الله ؛ لأنه سبحانه لو لم يخلق كلا منا مختاراً لما استطاع الإنسان أن يفعل غير مراد الله ، ولكنه خلق الإنسان مختاراً ، وساعة ما تختار ـ أيها الإنسان ـ الهداية أو تختار الضلال فهذا ما منحه الله لك ، وسبحانه قد بيّن أن الذي يظلم ، والذي يفسق هو أهل لأن يعينه الله على ضلاله ، تماماً كما يعين من يختار الهداية ؛ لأنه أهل أن يعينه الله على الهداية

ويقول الحق على لسان سيدنا موسى في نهاية هذه الآية

﴿ أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ ﴾

(من الآية ١٥٥ سورة الأعراف)

والولي هو الذي يليك ، ولا يليك إلا من قربته منك مودتك له ، ولم تقربه إلا لحيثية فيه تعجبك وتنفعك وتساعدك إذا اعتدى عليك أحد أو تأخذ من عمله لأنه عميم . إذن فالمعنى الأول لكلمة ولي أي القريب الذي قربته لأن فيه خصلة من الخصال التي قد تنفعك ، أو تنصرك ، أو تعلمك .

وقول موسى « أنت ولينا » أي ناصرنا ، والأقرب إليا . فإذا ارتكب الإنسان ما ذماً فأنت أولى به ، إنك وحدك لقادر على أن تغفر ذنبه ؛ لذلك يقول موسى . « فاغفر لنا » ، ونعلم من هذا أنه يطلب درء المفسدة أولاً لأن درءها مقدم على جلب المصلحة ، فقدم موسى عليه السلام طلب غفر الذنب ، ثم طلب ودعا ربه أن يرحمهم ، وهذه جلب منفعة وقد قال ربنا في مجال درء المفسدة : ﴿ فمن زحزح عن النار ﴾ وهذا درء مفسدة وهو البعد عن النار . ﴿ وأدخل الجنة ﴾ . وهذا جلب منفعة ومصلحة .

إذن فدرء المفسدة مقدم على جلب المصلحة ، ـ وعلى سبيل المثال ـ إنك ترى تفاحة على الشجرة ، وتريد أن تمد يدك لتأخذها ، ثم التفت فوجدت شاباً يريد أن يقذفك بطوبة ، فماذا تصنع ؟ أنت في مثل هذه الحالة الانفعالية تدفع الطوبة أولاً ثم تأخذ التفاحة من بعد ذلك . وهذا هو درء المفسدة المقدم على جلب المصلحة ، وهذ درء المفسدة متمثل في قول موسى : ﴿ فاغفر لنا ﴾ ثم قال بعد ذلك ﴿ وارحمنا ﴾ وهذا جلب مصلحة ، والقرآن يقول :

﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ ﴾

(من الآية ٨٢ سورة الإسراء)

لأن الداء يقع أولاً ، وحين تذهب لمنهج القرآن يشفيك من هذا الداء ، والرحمة ألا يجيء لك داء بالمرة فإذا أخذت القرآن لك مصيراً فمن يأتي لك الداء أبداً .

﴿ فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ ﴾

(من الآية ١٥٥ سورة الأعراف)

ومثله مثل قول الحق سبحانه . ﴿ خير الرازقين ﴾ ، و ﴿ وخير الماكرين ﴾ ، و ﴿ خير الوارثين ﴾ و ﴿ خير الغافرين ﴾ هما ؛ لأن المغفرة قد تكون من الإنسان للإنسان ، ولكنا نعرف أن مغفرة الرب فوق مغفرة الخلق ؛ لأن الغافر من البشر قد يغفر رياء ، وقد يغفر سمعة ، قد يغفر لأنه خائف بطش المقابل . لكنه سبحانه لا يخاف من أحد ، وهو خير الغافرين من غير مقابل

ويقول الحق بعد ذلك .

﴿ وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ﴾

ونلحظ أن هذه الآية تضم طلبات جديدة لسيدنا موسى من ربّه بعد قوله ﴿ فاغفر لنا وارحمنا ﴾ . ويرى أن خير العاقرين تعود لقول موسى - عليه السلام - . ﴿ فاغفر لنا ﴾ أما الحسنة في قوله ﴿ واكتب لنا في هذه الدنيا حسنة ﴾ فإنها تعود على طلب الرحمة ﴿ واكتب لنا في هذه الدنيا حسنة وفي الآخرة ﴾ .

هو إذن يطلب الحسنة في الدنيا وكذلك في الآخرة ، والحسنة لها معنى « لغوي » ، ومعنى « شرعي » أما المعنى اللغوي فكل ما يستحسنه الإنسان يُسمى حسنة ، ولكن الحسنة الشرعية هي ما حسنه الشرع ، فالشرع رقيب على كل فعل من أفعالنا وتصرفاتنا ، فالحسنة ليست ما يستحسنه الإنسان ؛ لأن الإنسان قد يستحسن المعصية ، وهذا استحسان بشري بعيد عن المنهج ، أما الاستحسان الشرعي فهو في تنفيذ المنهج بـ« افعل » و« لا تفعل »

والحسنة المعتبرة في عرف المكلفين من الله هي الحسنة الشرعية ؛ لأن الإنسان قد يستحسن شيئاً وهو غير شرعي لأنه ينظر إلى عاجلية النفع فيه ، ولا ينظر إلى آجلية النفع ، ولا ينظر إلى كمية النافع . والنفع - كما نعلم - في الدنيا على قدر تصورك في النفع ، أما النفع في الآخرة فلا يعلم قدره إلا علام الغيوب - سبحانه - إذن فقوله ﴿ واكتب لنا في هذه الدنيا حسنة ﴾ يكون المراد بها الحسنة الشرعية في الدنيا عملاً ، وفي الآخرة جزاءً .

ونلحظ أن موسى أراد بالحسنة الأولى ما يعم الحسنة الشرعية والحسنة

بلعوبه ؛ فهو دعاء بالعافية والنعم الجليلة الطيبة ، وكل خير الدنيا في ضوء منهج الله . والحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَٰمَةِ ﴾

(من الآية ٣٢ سورة الأعراف)

إذن فالحسنة الخالصة هي في يوم القيامة ، ولكن هناك من ينتفع بها في الدنيا ؛ فالجماد ينتفع برحمة الله ، والنبات ينتفع برحمة الله ، والحيوان ينتفع برحمة الله ، والكافر ينتفع برحمة الله كل ذلك في الدنيا ، وهي الرحمة التي وسعت كل شيء ، لكن مسألة الآخرة كجزاء على الإحسان فهو جزاء خاص بالمؤمنين

ويتابع الحق على لسان موسى عليه السلام : ﴿ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ ﴾

و « هدنا » أي رجعنا ، و « هدنا إليك » أي رجعنا إليك ، وهذا كلام موسى عن نفسه وعن أخيه ، وعن أقوام آخرين عبدوا العجل ثم تابوا ، ومادمنا قد رجعنا إليك يا رب فأنت أكرم من أن تردنا خائبين ويرد الحق سبحانه

﴿ قَالَ عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ وَالَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴾

(من الآية ١٥٦ سورة الأعراف)

وقوله الحق ﴿ عذابي أصيب به من أشاء ﴾ أي لا يوجد من يدفعني ويرشدني في توجيه العذاب لأحد ؛ فحين يذنب عبد ذنبا أعذبه أو أعصر به ؛ لذلك لا يقولن عبد لمعذب إن الله لابد أن يعذبه ؛ لأنه سبحانه هو القائل

﴿ عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ﴾

(من الآية ١٥٦ سورة الأعراف)

وما المقصود بالرحمة هنا ؟ أهي الرحمة في الدنيا أو الرحمة في الآخرة ؟ إنها الرحمة في الدنيا التي تشمل الطائع والعاصي ، والمؤمن والكافر ، ولكنها خالصة

فى اليوم الآخر ـ كما قلنا ـ للمؤمنين .

وقوله سبحانه : ﴿ فسأكتبها ﴾ يدل على أن هذا سيكون فى الآخرة أى ان رحمة الله وسعت كل شىء فى الدنيا ولكنها رحمة تنتهى بالنسبة للكافرين فى إطار الدنيا ، ولكن بالنسبة للمؤمنين فهى رحمة مستمرة قد كتبها الله أزلا وتعطى للمؤمنين فضلا ومنّة وعطاء منه ـ سبحانه ـ

﴿ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ وَالَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴾

(من الآية ١٥٦ سورة الأعراف)

وعندما سمع بعض اليهود ذلك قالوا نحن متقون ، فقيل لهم : فى أى منهج أنتم متقون أفى منهج موسى ؟ لو كنتم متقين فى منهج موسى ـ كما تزعمون ـ لآمنتم بمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ لأن من تعاليم موسى أن تؤمنوا برسول الله محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ وبذلك جاء قوله تعالى :

﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى
يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ
يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ
وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَـٰٓئِثَ
وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَـٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ
عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ
وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ
ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾

فهذه تسع صفات لسيدنا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهي أن الله أوحى إليه كتاباً مختصاً به وهو القرآن ، وأنه صاحب المعجزات ، وأنه بلغ ربه بأفضل وأتم العقائد والعبادات والأخلاق ـ وهو ـ عليه الصلاة والسلام ـ الأمي الذي لم يمارس القراءة والكتابة ولم يجلس إلى معلم ، فهو ـ عليه السلام ـ باقٍ على الحالة التي ولد عليها ، وقد ذكره ربّه ـ جل وعلا ـ باسمه وصفاته ونعوته عند اليهود والنصارى في التوراة والإنجيل وقد كتمها الكافرون منهم أو أساءوا تأويلها ، كما وصفه ربه بأنه يأمرهم بالمعروف ويكلفهم بفعل كل ما تدعو إليه الطبائع المستقيمة والفطر السليمة ؛ لأن في ذلك النجاح في الدنيا والفلاح في الآخرة ، وأنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ يزجرهم وينهاهم عن كل منكر مستهجن تستقبحه الجبلة السليمة ، والخلقة السوية ، ويحل لهم ما حرم عليهم من الطيبات التي منعوا منها وحظرها الله عليهم جزاء طغيانهم وضلالهم ، ويحرم عليهم كل ضار وخبيث كأكل الميتة والمال الحرام من الربا والرشوة والغش ، ويخفف عنهم ما شق عليهم وثقل من التكاليف التي كانت في شريعة موسى ـ عليه السلام ـ كقطع الأعضاء الخاطئة وتحريم الغنائم عليهم ووجوب إحراقها ، وكذلك يخفف الله ويحط عنهم المواثيق الشديدة التي فرضت عليهم عقاباً لهم على فسوقهم وظلمهم .

يقول ـ جل شأنه ـ :

﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦١﴾ ﴾

(سورة النساء)

وهكذا أعلم الله الرسل السابقين على سيدنا رسول الله أن يبلغوا أقوامهم بمجيء محمد صلى الله عليه وسلم ، وأن يؤمن الأقوام التي يشهدون ويعاصرون رسالته صلى الله عليه وسلم ، صحيح أن رسول الله لم يكن معاصراً لأحد من الرسل ، ولكن البشارة به قد جاءت بها أنبياؤهم وسجلت في الكتب المنزلة عليهم ، وكل رسول سبق سيدنا محمداً صلوات الله وسلامه عليه ، قد أمره الله أن يبلغ الذين أرسل إليهم أن يتبعوا الرسول محمداً ويؤمنوا به ولا يتمسكوا بسلطة

زمنية ويخافون أن تنزع منهم . ومادام الرسول صلى الله عليه وسلم قد جاء ومعه معجزة وبينة فلابد أن يؤمنوا به .

﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾

(من الآية ٨١ سورة آل عمران)

إذن فقد صنع الله سبحانه وتعالى خميرة إيمانية حتى لا يتعارض اتباع الأديان ولا يعني أصحاب دين موجود أن نبياً آخر جاء لينسخه ويأخذ منه السلطة الزمنية ؛ لأن رسالة الإيمان موصولة وتحدث الأقضية للناس بامتداد الزمان فكل الرسل يحرصون على أن تكون الحياة آمنة سعيدة تتساند فيها المواهب ولا تتعاند فيها الحركات وقد طلب الحق من الرسل ذلك وأخذ عليهم العهد وبعد ذلك أكده فقال :

﴿ أَأَقْرَرْتُمْ ﴾ واستوحى منهم الكلام الذي يؤيد هذا المنهج . ولذلك لا يصح لتابع نبي أن يصادم رسالة جديدة مؤيدة بمعجزة ومؤيدة بمنهج يضمن للإنسان الحياة وسلامتها وسعادتها .

ولم يكتف الحق بأن يجعل الإيمان برسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم مجرد خبر ، بل وضع لمحمد وحده سمة في الكتب التي سبقته ، ووصفه لهم مشخص . وحين يصفه مشخصاً فهذا أوضح من الخبر عنه بكلام ولذلك قال عبدالله بن سلام عندما سأله عمر رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : أنا أعلم به منّي يا بني . قال . وَلِمَ ؟ قال . لأني لست أشك في محمد أنه نبيّ . فأما ولدي فلعل والدته قد خانت ، فقبّل عمر رأسه ولذلك يقول الحق سبحانه . ﴿ يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ﴾ .

ولاشك أن الإنسان يعرف ابنه معرفة دقيقة . ورسول الله صلى الله عليه وسلم كانت له سمات خاصة وهي التي تثبت شخصيته صلى الله عليه وسلم المادية ، وليس الأمر في رحلة الإسراء والمعراج مجرد كلام ، بل إنه حينما سئل عن هذه

الرحلة قال : « رأيت موسى وإذا رجل ضَرْبٌ ، وَجَلٌ[1] كأنه من رجال شنوءة ، ورأيت عيسى فإذا هو رَبعة أحمر كأنه خرج من ديماس ـ الحمّام ـ وأنا أشبه ولد إبراهيم به »[2] .

وكذلك أعطى الله في التوراة والإنجيل لا الخبر عن محمد صلى الله عليه وسلم فقط ، بل أعطى تفاصيل صورته بحيث تتشخص لهم ، فلا يلتبس به عند مجيئه مع التشخيص شريك ، فيقول سبحانه : ﴿ يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ﴾ . ولكن فريقاً منهم كتموا الحق ليحتفظوا بالسلطة الزمنية ، لأنهم كانوا يظنون أنه حين يأتي دين جديد سيأخذ منهم هذه السلطة الزمنية ويقرد الأمم والشعوب لقد أراد الحق سبحانه وتعالى أن يجعل رسل السماء إلى الأرض متعاونين لا متعاندين ، ينصر بعضهم بعضاً كما جاء في سورة الفتح

﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾ ﴾

(من الآية ٢٩ سورة الفتح)

لقد جاء الحق بصورة المؤمنين برسالة رسول الله في التوراة والإنجيل ، لأن الدين الإسلامي الذي نزل على محمد لن يأتي دين بعده ، لذلك جاء بسيرة رسول الله وصفاته وصفات أتباعه في التوراة والإنجيل ، وفي هذا الدين ما تفتقده اليهودية

---

(١) الضَّرْب : الخفيف اللحم ، والرَّجل هو من شعره بين السبوطة والجعودة ، وقوله : من رجال شنوءة أي طويل ؛ لأن هذه القبيلة كانت مشهورة بطول قامة رجالها ، ورَبْعة أي مربوع الخلق لا طويل ولا قصير .

(٢) متفق عليه .

التى انجرفت إلى مادية صرفة وتركت الروحانيات ؛ لذلك تأتى سيرة أتباع محمد فى التوراة : ﴿ سيماهم فى وجوههم من أثر السجود ﴾ .

حين أسرف اليهود فى المادية أراد الله أن يأتى برسول يجنح ويميل إلى الروحانية وهو سيدنا عيسى بن مريم عليه السلام . . ليحصل الاعتدال فى تناول الحياة دون إفراط أو تفريط .

إذن فالحق سبحانه وتعالى مهد لكل رسول بأن يبشر به الرسول السابق لأنه لا معاندات فى الرسالات . ولما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم هو خاتم الموكب الرسالى ، كان ولابد أن يصفه الله ـ سبحانه ـ وصفاً ليس بالكلام ، بل بصفة كصورة ، بحيث إذا رأوه يعرفونه ، ولذلك نجد سيدنا سلمان الفارسى حين رأى رسول الله فى المدينة ورأى منه علامات كثيرة أحب أن يرى فيه علامة مادية ، فرأى فى كتف الرسول خاتم النبوة .

ولكن هل نفع ذلك ؟ نعم ، فكثير من الناس آمن به . وقد أقام رسول الله مناظرة بينه وبين اليهود بواسطة عبدالله بن سلام ، الذى قال بعد أن أسلم بين يدى رسول الله : « يارسول الله إن اليهود قوم بهت إن علموا بإسلامى قبل أن تسألهم بهتونى[1] عندك ، فجاءت اليهود ودخل عبدالله البيت ، فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : أى رجل فيكم عبدالله بن سَلَام ؟ قالوا : أعلمنا وابن أعلمنا وأخيرنا وابن أخيرنا . فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : أفرأيتم إن أسلم عبدالله ؟ قالوا : أعاذه الله من ذلك ؟ فخرج عبدالله إليهم ، فقال : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً رسول الله . فقالوا : شرنا وابن شرنا ووقعوا فيه »[2] .

إذن فالأوصاف الكلامية والأوصاف الشخصية جاءت حتى لا يقال : إن أديان السماء تتعاند ، إنها كلها متكاتفة فى أن تصل الأرض بالسماء على ما تقتضيه حالة العصر زماناً ومكاناً . وقديماً كان العالم معزولاً عن بعضه ، وكل

---

(١) بهتونى : قالوا علىَّ ما لم أفعل ، من البهت والبهتان وهو الباطل والكذب والافتراء .

(٢) من حديث أخرجه البخارى فى صحيحه ـ كتاب بدء الخلق ـ عن أنس ـ رضى الله عنه ـ

بيئة لها أجواؤها وداءاتها ؛ فيأتي الرسول ليعالج في مكان خاص داءات خاصة ، لكن الله جاء برسوله صلى الله عليه وسلم بعد أن توحدت هذه الداءات في الدنيا ؛ جاء رسولنا الكريم ليعالج هذه الداءات العالمية ، وجاء رسول الله مؤيداً بأوصافه ومؤيداً بتعاليمه التي تخفف عنهم إصرهم وأغلالهم ، والإصر هو الحِمْل الثقيل ، والأغلال جمع غُلّ وهو الحديدة التي تجمع اليدين إلى العنق لتقييد الحركة .

وقد ذكر الحق الأوصاف ومهّد الأذهان إلى مجيء رسالة محمد صلى الله عليه وسلم ليضع عنهم الأغلال بالنور الذي نزل على محمد صلى الله عليه وسلم ، فالرسالة المحمدية هي الجامعة المانعة ، ولذلك يقول الحق بعد ذلك :

﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾ ﴾

هنا يأمر الحق رسوله بالآتي : ﴿ قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً ﴾ في رسالة تعم الزمان ، وتعم المكان . وفي ذلك يقول رسول الله :

« أعطيت خمساً لم يُعطهن أحد من الأنبياء قبلي .. نُصرت بالرعب مسيرة شهر ، وجُعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً ، فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل ، وأحلت لي الغنائم وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس كافة وأعطيت الشفاعة »[1] .

---

(١) متفق عليه .

ثم بعد ذلك أراد الحق سبحانه وتعالى أن يثبت عمومية الرسالة بعمومية تسخير الكون للخلق ؛ لذلك كان الحديث موجهاً إلى كافة الناس . ﴿ قل يا أيها الناس ﴾ وكل من يطلق عليهم ناس فالرسول مرسل إليهم . ﴿ إني رسول الله إليكم جميعا ﴾ وأراد سبحانه أن يعطينا لحيثيات التي تجعل لله رسولاً يبلغ قومه وكافة الأقوام منهج الله في حركة حياتهم ، فقال ﴿ الذي له ملك السموات والأرض ﴾ .

ولماذا هو الذي يملك السموات والأرض ، ولم يدَّع أحد من خلقه أنه يملكها ، وفي السموات والأرض وما بينهما حياتنا ومقومات وجودنا فهو سبحانه أولى وأحق أن يعبد ولو أن السماء لواحد ، والهواء لواحد ، والأرض لواحد ، وما بينهما لواحد لكان من الممكن أن يكون إله هنا ، وإله هناك وإله هنالك وفي هذ يقول الحق :

﴿ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾

(من الآية ٩١ سورة المؤمنون)

إذن فمادام الوجود كله من السموات والأرض وما سواهما لله ، فهو الأولى أن يعبد ، وأول قمة العبده أن تشهد بأنه لا إله إلا الله ، وحيثية الوهيته لأولى أن له ملك السموات والأرض ومادام إلهاً فلابد أن يطاع ، ولا يطاع إلا بمنهج ، ولا منهج إلا بافعل ولا تفعل . وأول المنهج القمه العقلية إنه هو التوحيد وجعل الله للتوحيد حيثية من واقع الحياة فقال : ﴿ يحيي ويميت ﴾ . وهذا أمر لم يدعه أحد أبداً ؛ لأن الله هو الذي له ملك السموات والأرض ، ولأنه يحيي ويميت ولذلك نجد من حاجّ إبراهيم في ربه يقول الحق عنه .

﴿ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّيَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ﴾

(من الآية ٢٥٨ سورة البقرة)

وحاول هذا الملك أن يدير حواراً سفسطائياً مضللا ليحكم ويسكت إبراهيم ـ عليه السلام ـ فقال :

﴿ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ﴾

(من الآية ٢٥٨ سورة البقرة)

وذلك بأن يأمر بقتل انسان ثم يعفو عنه ، وهو بذلك لا يميته بل يحييه فى معنى السمطائيين . لكن هل الأمر بالقتل هو الموت ؟ . طبعا لا ؛ لأن هناك فرق بين الموت والقتل ، فقد يقتل إنسان إنساناً آخر ، لكنه لا يمكن أن يميته ؛ لأن الموت يأتى بدون علم بنيته بشىء ؛ برصاصة أو بحجر أو بقنبلة ولا أحد قادر على أن يميت أحداً إذا رغب فى أن يميته ، فالموت هو الحادث بدون سبب . لكن أن يقتل إنسان إنساناً آخر فهذا ممكن ، ولذلك يقول الحق سبحانه عن نفسه :

﴿ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾

(من الآية ١٥٨ سورة الأعراف)

وانظروا إلى الدقة فى الأداء ؛ فمادام قد أمر الحق رسوله أن يقول : إنى رسول الله إليكم جميعاً ، وحيثية الإيمان هى الإقرار والاعتقاد بوحدانية الإله الذى له ملك السموات والأرض ، وهو لا إله إلا هو ، وهو يحيى ويميت ؛ لذلك يدعوهم إلى الإيمان بالخالق الأعلى . ﴿ فآمنوا بالله ورسوله ﴾

لم يقل محمدٌ وآمنوا بى ؛ لأنها ليست مسألة ذاتية فى شخصك يا محمد ، إنما هو تكريم لرسالتك إلى الناس ، فالإيمان لا بذاتك وشخصك ، ولكن لأنك رسول الله ، فجاء بالحيثية الأصيلة ﴿ فآمنوا بالله ورسوله ﴾ ، والرسول قد يكون محمداً أو غير محمد . وبعد ذلك قال فى وصف النبى : ﴿ النبى الأمى الذى يؤمن بالله وكلماته ﴾ . والأمية ـ كما علمنا من قبل ـ شرف فى سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، وهو صلى الله عليه وسلم يؤمن بكلمات الله ، وهى إما بما بلغنا عنه من أسلوب القرآن ، وإمّا بالذى قاله موسى لقومه « واجعل كلامى فى فيه »

ويقول فيه عيسى ـ الذى لا يتكلم من قِبَل نفسه ـ ، وإنما تأتى له كلمات ربنا فى فمه ، والقول الشامل فى وصف كلمات محمد صلى الله عليه وسلم ما بيّنه الحق فى قوله :

﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ ﴾

(سورة النجم)

أو أن الإيمان بالكلمات هو أن يؤمن بأن كل كون الله مخلوق بكلمة منه .

﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ ﴾

(سورة يس)

ولقائل أن يقول : كيف يخاطب الله شيئاً وهو لم يكن بعد ؟ ونقول . إنه سبحانه قد علمه أزلاً ، ووجوده ثابت وحاصل ، ولكن الله يريد أن يبرز هذا الموجود للناس ، فوجود أي شيء هو أزلي في علم الله ، وكأنه يقول للشيء . اظهر يا كائن للوجود ليراك الناس بعد أن كنت مطموراً في طيّ قدرتي .

وسواء أكانت الكلمة بخلق لأسباب ، مثل خلق الشمس والقمر أم بخلق شيء بلا أسباب ، كعيسى ـ عليه السلام ـ فإنه « كلمة منه » أي كلمة تخطت نطاق الأسباب ؛ بأن ولدت سيدتنا مريم من غير رجل . وفي هذا تخطٍ للأسباب ، ولذلك قال الحق سبحانه :

﴿ بكلمة منه ﴾ . ونعلم أن كل شيء لا يكون إلا بكلمة منه سبحانه ، ولكن بكلمة لها أسباب ، أو بكلمة لا أسباب لها . والكلمات هي أيضاً الآيات التي فيها منهج الأحكام ، ولذلك يأتي قوله الحق :

﴿ قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ ﴾

(سورة البقرة)

ويروى لنا الأثر أن سيدنا موسى عليه السلام قال لربه :

« إني أجد في الألواح أمة يؤمنون بالكتاب الأول وبالكتاب الآخر ويقاتلون حتى يقاتلوا الأعور الكذاب ، فاجعلهم أمتي قال : تلك أمة أحمد »[1] .

---

(١) ابن كثير في تفسير قوله تعالى : ﴿ ولما سكت عن موسى الغضب . ﴾ إلخ

وقول موسى آمنوا بالكتاب الأول وبالكتاب الآخر ، هو الذى يدل عليه قول الحق سبحانه :

﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ ﴾

(من الآية ١٣٦ سورة البقرة)

ويذيل الحق الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها بقوله :

﴿ واتبعوه لعلكم تهتدون ﴾ و « لعل » رجاء وطلب . ونعلم أن كل طلب يتعلق بأحد أمرين : إما طلب لمحال لكنك تطلبه لتدل بذلك على أنك تحبه ، وهو لون من التمنى مثل قول من قال . ليت الشباب يعود يوماً ، إنه يعلم أن الشباب لا يعود لكنه يقول ذلك ليشعرك بأنه يحب الشباب أو كقول إنسان : ليت الكواكب تدنو لى فأنظمها عقود مدح ، وهذا طلب لمحال ، إلا أنه يريد أن يشعرك بأن هذا أمر يحبه ، وإما طلب ممكن التحقيق . وهو ما يسمى بالرجاء . وله مراحل . فأنت حين ترجو لإنسان كذا ، تقول . لعل فلاناً يعطيك كذا ، والإدخال فى باب الرجاء أن تقول : لعلى أعطيك ؛ لأن الرجاء منك أنت ، وأنت الذى تقوله ، ومع ذلك قد لا تستطيع تحقيقه ، والأقوى أن تقول : لعل الله يعطيك . ولكنها من كلامك أنت فقد يستجيب الله لك وقد لا يستجيب ، أما إذ قال الله : لعلكم ، فهذا أرجى الرجاءات ، ولابد أن يتحقق .

وحينما يتكلم الحق عن قوم موسى ، يتكلم عنهم بعرض قصصهم ، وفضائحهم ونقضهم للعهد بعد نعم الله الواسعة الكثيرة عليهم ، وأوضح لك : إياكم أن تأخذوا هذا الحكم عاماً ؛ لأن الحكم لو كان عاماً ، لما وجد من أمة موسى من يؤمن بمحمد . ولذلك قلنا قديماً إن هناك ما يسمى « صيانة الاحتمال » . ومثال على ذلك نجد من اليهود من آمنوا برسالة رسول الله مثل محريق الذى قال فيه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « محريق خير يهود » وعبدالله بن سلام إن بعض اليهود كانوا مشغولين بقضية الإيمان ، ولذلك لا تأخذ المسألة كحكم عام ؛ لأن من قوم موسى من يصفهم الحق بالقول الكريم .

﴿ وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾ ﴾

وحين يسمع قوم موسى هذا القول سيقولون فى أنفسهم إنه يعلم ما فى صدورنا من تفكير فى الإيمان برسالة محمد صلى الله عليه وسلم ولكن لو علم الحكم فلم يفكر فى الإيمان بمحمد يقول لماذا يصدر حكماً صلبى وأن أفكر فى الإيمان ؟ لكن الحق « صان الاحتمال » وأوضح لكل واحد من هؤلاء الذين يفكرون فى الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم أن يتجه إلى إعلان الإيمان فقال :

﴿ وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

أى يدلون الناس على الحق ويدعونهم إلى طريق الخير ، وبهذا الحق يعدلون فى حكمهم بين الناس ولا يجورون

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۚ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟

مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن
كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٠﴾

وحين يقول الحق « قطعناهم » فهذه عودة لقوم موسى ، ونعرف أن القرآن لا يخصص كل كتاب فصلاً لموسى وآخر لعيسى وثالث لمحمد ، لا ، بل يجعل من المنهج الإيماني عجينة واحدة في الدعوة ، فيأتي بقضية عيسى ، ثم يدخل في الدعوة قضية موسى وغيره وهكذا ، ثم يرجع إلى القضية الأصلية كي يستمل انفعالات النفس بعد أي قصة من القصص .

وهنا يعود الحق سبحانه لقوم موسى مرة أخرى فبعد أن أنصفهم وبيّن أن فيهم أمة يهدون بالحق وبه يعدلون . يقول ﴿ وقطعناهم اثنتي عشرة أسباطاً أمماً ﴾ . والمقصود هنا بنو إسرائيل ، ومعنى « قطعت الشيء » أن الشيء كان له تمام وجودي مع بعضه ، ثم قطعته وفصلت بعضه عن بعض ، وجعلته قطعاً وأجزاء . فهم كلهم بنو إسرائيل ، ولكن الحق يوضح أنه قطعهم وجعلهم « أسباطاً » ، و « السبط » هو ولد الولد ، وهم هنا أولاد سيدنا يعقوب وكانوا اثني عشر ولداً ، وحكت سورة يوسف وقالت :

﴿ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَٰجِدِينَ ﴾

(من الآية ٤ سورة يوسف)

وحين تعد وتحصي ستجد أحد عشر كوكباً مرئية ، وتضم إليها الشمس والقمر والرائي ، فيصير العدد أربعة عشر واترك الشمس والقمر لأنهما يرمزان إلى يعقوب وزوجه ، وخذ لأحد عشر كوكباً ، وأضف الرائي وهو يوسف فيكون العدد اثني عشر . وهؤلاء هم الاثنا عشر سبطاً ، فقد أنجب سيدنا يعقوب اثني عشر ابناً من أمهات مختلفة ، وعرفنا من قبل أن الأمهات حين تتعدد فالميول الأهوائية بين الأبناء قد تتعاند . ولذلك تنبأ سيدنا يعقوب وقال لسيدنا يوسف :

﴿ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا ﴾

(من الآية ٥ سورة يوسف)

هذا أول دليل على أنهم مختلفون ، وهو سبب من أسباب وحيثية التقطيع : ﴿ وقطعناهم اثنتى عشرة أسباطاً ﴾ .

وفى سورة يوسف نقرأ :

﴿ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَـٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ﴾

(من الآية ١٠٠ سورة يوسف)

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ﴾

(من الآية ١٦٠ سورة الأعراف)

إنهم لا يريدون حتى مجرد الاشتراك فى الماء تحسساً للاختلاف فيما بينهم ، فجعل الحق لكل سبط منهم حيناً يشرب منها ليعالج ما فيهم من داءات الغيرة والحقد على بعضهم البعض ؛ لأن الحق قال عنهم : ﴿ وقطعناهم اثنتى عشرة أسباطاً أمماً ﴾ .

وهنا وقفة لغوية فقط ، والأسباط هم أولاد يعقوب وإسحاق يقابلون القبائل فى أولاد إسماعيل ، وأولاد إسماعيل « العرب » يسمونهم قبائل ، وهؤلاء يسمونهم « أسباطاً » ، ونعرف أن لفظ « اثنتى » يدل على أنهم إناث ، و « عشرة » أيضاً إناث ، لأننا نقول : « جاءنى رجلان اثنان » و « امرأتان اثنتان » ؛ أى اثنان للمذكور ، واثنتان للإناث ، وكلمة « اثنتى عشرة » عدد مركب وتمييزه يكون دائماً مفرداً ، ولذلك يقول الحق : ﴿ أحد عشر كوكباً ﴾ .

إذن « اثنتا عشرة » يدل على أنه مؤنث . لكن المذكور هنا « سبط » وسبط مذكر ، ولنا أن نعرف أنه إذ جمع صار مؤنثاً لأنهم يقولون : « كل جمع مؤنث » وأيضاً فالمراد بالأسباط القبائل ، ومفردها قبيلة وهى مؤنثة ، وقطعهم أى كانت بهم - من قبل - وحدة تجمعهم ، فأراد الحق أن يلفتنا إلى أنهم من شىء واحد ، فجاء بكلمة « أسباط » مكان قبيلة ، وقبيلة مفردة مؤنثة ، ويقال : « اثنتا عشرة قبيلة » ،

ولا يقال اثنتا عشرة قبائل ، فوضع أسباطٌ ، موضع قبيلة لأن كل قبيلة تضم أسباطاً لذا جاء التمييز مذكراً . .

﴿ وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا ﴾

(من الآية ١٦٠ سورة الأعراف)

أى جعلنا كل سبط أمة بخصوصها . والواقع الكونى أثبت أنهم كذلك ؛ لأنك لا تجد لهم ـ فيما مضى ـ تجمعاً قومياً وهو ما يسمونه « الوطن القومى لليهود » برغم أن الدول الظالمة القوية أعانوهم وأقاموا لهم وطناً على أرض فلسطين ، ومع ذلك نجدهم فى كل بلد طائفة منهم تعيش معزولة عن الشعوب التى تحيا فى رحابها ، وكأنهم لا يريدون أن يذوبوا فى الشعوب ، ففى باريس ـ مثلاً ـ تجد « حى اليهود » ، وفى لندن المسألة نفسها ، وفى كل مدينة كبيرة تتكرر هذه الحكاية ، فهم يعيشون فيها بطقوسهم وبشكلهم وبأكلهم ، وبعاداتهم معزولين عن الشعوب ، وكأنهم ينفذون قدر الله فيهم : ﴿ وقطعناهم اثنتى عشرة أسباطاً أمماً ﴾ .

وقطعهم ربنا فى الأرض أى أنه بشرهم فى البلاد ، ولم يجعل لهم وطناً مستقلاً ، ولذلك ستقرأ فى سورة الإسراء إن شاء الله : ﴿ وقلنا من بعده لبنى إسرائيل اسكنو الأرض ﴾ .

أى أنه سبحانه قال لهم بعد سيدنا موسى . اسكنو الأرض وحين تقول لنا يا رب : « اسكن » فأنت تحدد مكاناً من الأرض . كأن يسكن الإنسان فى الإسكندرية أو القاهرة أو الأردن أو سوريا ، لكن أن يصدر الحكم بأن « اسكنوا الأرض » فهذا يعنى أن انتاحوا فيها فلا تجمع لكم .

ويقول الحق : ﴿ فإذا جاء وعد الآخرة جئنا بكم لفيفاً ﴾

أى أنه حين يجىء وعد الآخرة تكون ضربة قاضية عليكم ـ أيها اليهود ـ لأن عدوكم لن يتتبعكم فى كل أمة من الأمم ، ويبعث جيشاً يحاربكم فى كل مكان تعيش فيه طائفة منكم ، لكن إذا جاء وعد الآخرة يأتى بهم الحق لفيفاً ويتجمعون . فى هذا الوطن القومى الذين يفرحون به ، ونقول لهم : لا تفرحوا

فهذا هو التجمع الذى قال الله عنه : « جئنا بكم لفيفاً » لتكون الضربة موجهة لكم فى مكان واحد تستأصلكم وتقضى عليكم

ويأتى الحق بعد ذلك بخبر المعجزات :

﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ﴾

(من الآية ١٦٠ سورة الأعراف)

و « استسقى » المراد منه هو طلب السقيا ، والسقيا هى طلب الماء الذى يمنع عن الإنسان العطش ، ومادام قد طلبوا السقيا فلابد أنهم يعانون من ظمأ ، كأنهم فى التيه . وأراد الله سبحانه أن يبرز لهم نعمه وقت الحاجة ، فقد تركهم إلى أن عطشوا ليستسقوا وليشعروا بنعمة الرِّى .

والحق يقول : ﴿ إذ استسقاه قومه ﴾ ، أى طلبوا من سيدنا موسى أن يسأل الله السقيا . فلماذا لجأوا إلى موسى وقت الظمأ ؟ وقال لهم موسى : ليس بذاتى أرويكم ، ولكن سأستسقى لكم ربى ، ونعلم أن مقومات الحياة بالترتيب الوجودى الاضطرارى . الهواء والماء والطعام . وساعة ترى « همزة » وسيناً « وتاء » واقعة على شىء من الأشياء فاعرف أنه أمر مطلوب ومرغوب فيه .

مثال ذلك : حين سار موسى والعبد الصالح ونزلا قرية استطعما أهلها ، أى طلبا طعاماً وهذا هو المقوم الثالث للحياة . وهنا « استسقى » أى طلب المقوم الثانى وهو الماء ، ونعلم أن المقوم الأول وهو الهواء لا نستغنى عنه . لذا لم يضعه الله فى يد أحد بل أعطاه ومنحه كل الخلق .

ولما كان الهواء غير ممنوك وهو مشاع ، لذلك لم توجد فيه هذه العملية . إنما الطعم يُمكن أن يُملك ، والماء يُمكن أن يُملك ، فقال سبحانه مرة « استطعم » ، وقال هنا « استسقى » ، ولم يوجد « استهوى » لطلب الهواء ، لكن وجد فى القرآن « استهوى » بمعنى طلب أن تكون على هواه .

﴿ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴾

(من الآية ٧١ سورة الأنعام)

أى طلبت الشياطين أن يكون هواه ومراده تبعاً لما يريدون لا لما يريده الله

وقصة الاستسقاء وردت من قبل فى سورة البقرة : ﴿ وإذ استسقى موسى لقومه ﴾ . وفى سورة الأعراف التى نحن بصدد خواطرنا عنها هم الذين طلبوا الاستسقاء . فهل هناك تعارض ؟ . طبعاً لا ؛ لأن قوم موسى طلبوا السقيا من موسى ، فطلب لهم السقيا من ربه . فهل هذا تكرار ؟ لا ؛ لأنه سبحانه تكلم عن الواسطة ، وبعد ذلك تكلم عن الأصل ، وهو سبحانه الواهب للماء ؛ فقال هنا : « إذ استسقاه قومه » ، وفى سورة البقرة قال : ﴿ وإذا استسقى موسى لقومه ﴾ .

وهذا ترتيب طبيعى . أقول ذلك لنعرف الفارق بين العبارتين حتى نؤكد أنه لا خلاف ولا تكرار ؛ لأن المستسقى هنا القوم ، والمستسقى لهم هنا هو موسى والمستسقى منه هو الله ـ جلت قدرته ـ وهذا أمر طبيعى

والحق سبحانه يقول فى سورة البقرة :

﴿ وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ﴾

(من الآية ٦٠ سورة البقرة)

ونجد الوحى نزل إلى موسى بقوله : ﴿ فقلنا اضرب ﴾ ؛ وهنا فى سورة الأعراف نجد الحق يقول :

﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ﴾

(من الآية ١٦٠ سورة الأعراف)

ولنا أن نعرف أن « قُلْنَ » تساوى « أوحينا » تماماً ، لأن المقصود بالقول هنا ليس من مباحات تكليم الله لموسى ، بل مناط هذه القضية غير المناط فى قوله الحق : ﴿ وكلم الله موسى تكليماً ﴾ .

فليس كل وحى لموسى جاء بكلام مباشر من الله ، بل سبحانه كلمه مرة واحدة كتشريف له ، ثم أوحى له من بعد ذلك كغيره من الرسل .

وقوله الحق :

﴿ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ﴾

(من الآية ١٦٠ سورة الأعراف)

هذا القول يدلنا على الإعجاز المطلق ، فمرة أمر الحق موسى أن يضرب الماء بالعصا ﴿ فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم ﴾ ، ومرة يأمره هنا أن يضرب الحجر فينبجس منه الماء ، وهكذا نرى طلاقة قدرة الله في أن يعطي ويمنع بالشيء الواحد ، ولم يكن ذلك إلا بالأسباب التي في يد الله يحركها كيف يشاء ولذلك رأينا أمر الله حين ضرب موسى البحر بعصاه ، فصار كل فرق كالطود ، أي كالجبل ، وامتنعت السيولة ، ولما خرج موسى وقومه إلى البر بعد أن عبر البحر أراد أن يضرب البحر ليعود ثانية إلى سيرته الأولى من السيولة ، فأوحى له الله : ﴿ اترك البحر رهوا ﴾ .

أي اتركه كما هو عليه ؛ لأن الله يريد أن يغتر فرعون وقومه بأن يروا اليابس طريقاً موجوداً بين الماء ، فيحاولوا النفاذ منه وراء موسى وقومه ، وما أن دخل فرعون وقومه خلف موسى حتى عاد الماء إلى سيولته فغرق فرعون وقومه . وهكذا أنجى الله وأغرق بالشيء الواحد ، وكذلك في أمر العصا ؛ إنها هي حين ضربت الماء فلقته فصار كل فرق كالطود والجبل الشامخ ، ثم ضرب موسى بها الحجر فانبجست منه اثنتا عشرة عيناً من الماء ، وهكذا نرى قدرة من بيده القدرة والأسباب .

﴿ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ﴾

(من الآية ١٦٠ سورة الأعراف)

وهنا تعبير « انبجست » ، وهناك تعبير « انفجرت » ، ونعلم أن الانبجاس يحدث أولاً ثم يتبعه الانفجار ثانياً ؛ فالانبجاس أن يأتي الماء قطرة قطرة ، ثم يأتي الانفجار وتتدفق المياه الكثيرة ، فكان موسى عليه السلام أول ما يضرب الضربة تأتي وتجيء المياه قليلة ثم تنفجر بعد ذلك إذن فقد تكلم الحق عن المراحل التي أعقبت الضربة في لقطات متعددة لمظهر واحد ؛ له أولية وله آخرية

وحين تكلم أمير الشعراء عن عطاء الله وقدرته قال :

سبحانك اللهم خير معلم علمت بالقلم القرون الأولى
أرسلت بالتوراة موسى مرشداً وابن البتول معلم الإنجيلا

ثم جاء لسيدنا محمد وقال :

وفجرت ينبوع البيان محمداً فسقى الحديث وناول التنزيلا

وهنا توفيق رائع في العبارة حين قال : « فسقى الحديث » ، فالحديث سقيا أما القرآن فمناولة من الله لخلقه والحق يقول : ﴿ فانبجست منه اثنتا عشرة عينا ﴾ .

إن الضربة واحدة من عصا واحدة ، وكان المفترض أن تحدث هذه الضربة عينا واحدة تنبع منها المياه ، لكن الحق أرادها اثنتي عشرة عين وعلم كل أناس مشربهم ؛ لذلك كان لابد أن يكون المكان متسعاً . وأن هذه الضربة كانت إيذاناً بالانفعال من الأرض .

﴿ فَٱنۢبَجَسَتۡ مِنۡهُ ٱثۡنَتَا عَشۡرَةَ عَيۡنٗاۖ قَدۡ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٖ مَّشۡرَبَهُمۡۚ ﴾

(من الآية ١٦٠ سورة الأعراف)

ومن أين عرف كل قسم منهم الماء الذي يخصه ؟ إنها قسمة الله وصارت كل عين تجذب أصحابها ، فلم يتزاحموا ، وهذا يدل أيضاً على التساوي ، فلم تتفجر عين بماء أكثر من الأخرى فتثير الطمع ، لا ، بل انتظم الجميع فيما أراده الحق : ﴿ قد علم كل أناس مشربهم ﴾ .

والحق هنا يتكلم عن رحلة بني إسرائيل في التيه ، وفي الصحراء والشمس محرقة ، ولا ماء ، فاستسقوا موسى ، فطلب لهم السقيا من الله ، وجعلت لهم اثنتا عشرة عينا حتى لا يتزاحموا ، وعرف كل منهم مشربه .

ويضيف الحق : ﴿ وظللنا عليهم الغمام ﴾ .

ولأن الشمس محرقة يرحمهم الله بمسيرة من الغمامات تظللهم ، ولكل سبط غمامة على قدره ، فإذا كان الواحد من البشر حين يوزع جماعة من كتل صغيرة ، لا يعجز أن يقسمهم في عشرين خيمة مثلا ، فهل يعجز ربنا عن ذلك ؟ طبعاً لا .

وإذا كان الحق قد ضمن لنا فى الأرض الرزق حتى لا نجوع ، ولا نعرى ، ولا تحرقنا الشمس ، ونجد ماء . إذن لقد بقى أمر الطعام لهؤلاء فقال .

﴿وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾

(من الآية ١٦٠ سورة الأعراف)

ساعة تأتى كلمة « أنزلنا » نعرف أنها مسألة جاءت من علو ، ولا يُمترض أن يكون مكانها عالياً ، لكن هى مسألة جاءت من أعلى من قدرتك ، أى من فوق أسبابك إنها بقدرة الأعلى .

و « المنّ » مادة بيضاء اللون حلوة الطعم مثل قطرات الرشيق . يجدونه على الشجر . ولا يزال هذا الشجر موجوداً إلى الآن فى العراق ، يهزونه صباحاً فيتساقط ما على الورق من قطرات متجمدة لونها أبيض ، فيأخذونه على ملاءة بيضاء واسمه عندهم المنّ - أيضاً - وهو فى طعم القشدة وليونتها ، وحلاوة العسل .

و « السلوى » هو طير من رتبة الدجاجيات يستوطن أوربا وحوض البحر المتوسط واحدته « سَلْواة » وهو « السُّمانى » ويسميه أهل السواحل « السُّمان » وهو يأتى مهاجراً ولم يره أحد ، وفى هذا إنزال من الله لأنه رزق من فوق قدرة العباد وأسبابهم .

﴿وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾

(من الآية ١٦٠ سورة الأعراف)

وهناك مصانع تصنع المن فى أشكال مختلفة وأنواع من الحلوى جميلة ، ومن زار العراق ذاقه أو أحضره لأهله . والسلوى - كما قلنا - هو طائر « السمان » الموجود فى بيئة أخرى يغريه ربنا بالطقس الدافىء فيأتى إلينا لنأخذه ، وهذه الطيور جاءت طالبة استمرار الحياة ، ويبعثها ربنا لتصير لنا طعاماً ليدلل على أنه حين يريد أن يأتى لهم برزق غيبى يمدهم ويمسحهم المن والسلوى كما أخرج من الحجر الماء ، وكما ظللهم بالغمام ، وبذلك صارت حاجاتهم قدريّة ليس لهم فيها أسباب وجاءت لهم بالهناء . فقالوا : ومن يدرينا أن الرزق الذى يأتينا من المن والسلوى سيستمر ، ثم كيف لنا أن نصبر على طعام واحد ؟ إنهم قالوا لنبيهم سيدنا موسى

ما حكاه القرآن بقوله :

﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ مِن بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ﴾

(من الآية ٦١ سورة البقرة)

وهنا قال الحق : اهبطوا إلى أى مصر من الأمصار والمدن تجدوا ما تريدون : ﴿ اهبطوا مصرا فإن لكم ما سألتم ﴾ . لقد أعطاهم الحق الرزق بدون السببية ، إنه منه مباشرة ، فكان من الواجب أن تشكروا من أراحكم ، وجعل لكم الرزق ميسرا . لكنهم لم يشكروا الله ، بل تمردوا ، ولذلك ذيل الحق الآية بقوله : ﴿ وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾ . نعم لهم ظلموا بعدم شكر النعمة .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ ۚ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٦١﴾ ﴾

وهذه القصة مذكورة أيضاً فى سورة البقرة ، ونعرف أن قوله سبحانه : ﴿ وإذ قيل لهم ﴾ ، ولم يذكر الحق من القائل ؛ لأن طبيعة الأمر فى الأسباط أنه سبحانه جعل لكل سبط منهم عيناً يشرب منها ، وكل سبط له نقيب ، وهذا دليل على أنهم لا يأتلفون ؛ فلا يكون القول من واحد إلى الجميع ، بل يصدر القول من المشرع الأعلى وهو الحق إلى الرسول ، والرسول يقول للنقباء ، والنقباء يقولون للناس .

وبعد أن تلقى موسى القول أبلغه للنقباء ، والنقباء قالوه للأسباط ، وفى آية أخرى قال الحق : ﴿ وإذ قلنا ﴾ . وهذا القول الأول وضعنا أمام لقطة توضح أن

المصدر الأصيل في القول هو الله ، ولأنهم أسباط ولكل سبط مشرب ؛ لذلك يوضح الحق هنا أنه أوحى لموسى . وساعة ما تسمع « وإذ » فاعلم أن المراد اذكر حين قيل لهم اسكنوا هذه القرية ، لقد قيل إن هذه القرية هي بيت المقدس أو أريحا ، لكنهم قالوا . لن ندخلها أبداً لأن فيها قوماً جبارين وأضافوا :

﴿ فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ﴾

(من الآية ٢٤ سورة المائدة)

والحق لا يبين لنا القرية في هذه الآية ؛ لأن هذا أمر غير مهم ، بل جاء بالمسألة المهمة التي لها وزنها وخطرها وهي تنفيذ الأمر على أي مكان يكون : ﴿ اسكنوا هذه القرية وكلوا منها ﴾ .

ويوضح الحق : أنا تكفلت بكم فيها كما تكفلت بكم في التيه من تظليل غمام ، وتفجير ماء من صخر ، ومَنّ وسلوى . وحين أقول لكم ادخلوا القرية واسكنوها فلن أتخلى عنكم . ﴿ وكلوا منها حيث شئتم ﴾ . وقديماً كان لكل قرية باب ؛ لذلك يتابع سبحانه : ﴿ وقولوا حطة وادخلوا الباب سجداً ﴾ .

والحطة تعني الدعاء بأن يقولوا . يا رب حط عنا ذنوبنا فنحن قد استجبنا لأمرك وجئنا إلى القرية التي أمرتنا أن نسكنها ، وكان عليهم أن يدخلوها ساجدين ؛ لأن الله قد أنجاهم من التيه بعد أن أنعم عليهم ورفّههم فيه . وإذا ما فعلوا ذلك سيكون لهم الثواب وهو :

﴿ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴾

(من الآية ١٦١ سورة الأعراف)

وسبحانه يغفر مرة ثم يكتب حسنة ، أي سبب مغفرة ، وجلب منفعة ، لكن هناك في سورة البقرة قد جاء النص التالي :

﴿ وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَٰذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ ﴾

(سورة البقرة)

فالكيان العام واحد ونجد خلافاً فى الألفاظ واللفظات عن الآية التى وردت فى سورة الأعراف . أو، خلاف ﴿ وإذ قلنا ﴾ ، ﴿ وإذ قيل ﴾ ، وشاء الحق ذلك ليأتى لنا بلقطة مختلفة كما أوضحنا من قبل ففى آية سورة البقرة يقول سبحانه : ﴿ ادخلوا ﴾ وفى آية سورة الأعراف يقول : ﴿ اسكنوا ﴾ ، ونعلم أن الدخول يكون لغاية وهى السكن أى ادخلوا لتسكنوا ، وأوضح ذلك بقوله فى سورة الأعراف : ﴿ اسكنوا ﴾ يبين أن دخولهم ليس للمرور بل للإقامة وأراد سبحانه أن يعطيهم الغاية النهائية ؛ لأنه لا يسكن أحد فى القرية إلا إذا دخلها

وهكذا نرى أن كلمات القرآن لا تأتى لتكرار ، بل للتأسيس وللإتيان بمعنى جديد يوضح ويبين ويشرح . ويقول الحق هنا فى سورة الأعراف : ﴿ وكلوا منها حيث شئتم ﴾ . وفى آية سورة البقرة يقول : ﴿ فكلوا منها حيث شئتم رغداً ﴾ .

وحين أمرهم الله بالدخول وكانوا جوعى أمرهم الحق أن يأكلوا ، عنى الفور والتوّ بتوسع ، لذلك أتى بكلمة « رغداً » لأن حاجتهم إلى الطعام شديدة وملحة ، لكنه بعد أن أمرهم بالسكن أوضح لهم أن يأكلوا ؛ لأن السكن يحقق الاستقرار ويتيح للإنسان أن يأكل براحة وتأنٍ . وقال الحق هنا فى سورة الأعراف : ﴿ وقولوا حطة وادخلوا الباب سجداً ﴾ . أى أنه قدم قولهم « حطة » على السجود ، وفى آية سورة البقرة قدم السجود فقال :

﴿ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ ﴾

(من الآية ٥٨ سورة البقرة)

جاء الحق بهذا الاختلاف لأنه علم أن انفعالات لسامعين تختلف ساعة الدخول ، فهناك من ينفعل للقول ، فيقول أول دخوله ما أمر به من طلب الحطة وغفران الذنب من الله ، وهناك آخر ينفعل للفعل فيسجد من فور الدخول تنفيذاً لأمر الله . وأيضاً قال الحق هنا فى سورة الأعراف :

﴿ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴾

(من الآية ١٦١ سورة الأعراف)

وفى سورة البقرة يقول : ﴿ نغفر لكم خطاياكم وسنزيد المحسنين ﴾ .

ونعلم أن صيغة الجمع تختلف ؛ فهناك « جمع تكسير » وجمع تأنيث ، ففي جمع التكسير تغير من ترتيب حروف الكلمة ، مثل قولنا « فعل » فنقول في جمعها « أفعال » . أما في جمع التأنيث فنحن نزيد على الكلمة ألفاً وتاء بعد حذف ما قد يوجد في المفرد من علامة تأنيث ، مثل قولنا « فاطمة » ، و « فاطمات » ، و « أكلة » ، و « أكلات » وهذا جمع مؤنث سالم ، أي أن ترتيب حروفه لم يتغير ، وجمع المؤنث السالم يدل على القلة لكن جمع التكسير يدل على الكثرة فجاء ـ سبحانه ـ بجمع المؤنث السالم الذي يدل على القلة وبجمع التكسير الذي يدل على الكثرة لاختلاف درجات ونسب الخطايا ؛ لأن المخاطبين غير متساوين في الخطايا ، فهناك من ارتكب أخطاء كثيرة ، وهناك من أخطأ قليلاً . والاختلاف حدث أيضاً في عجز الآيتين ، فقال في سورة البقرة : ﴿ وسنزيد المحسنين ﴾ . وجاء عجز سورة الأعراف بدون « واو » فقال . ﴿ سنزيد المحسنين ﴾ .

وقد عودنا ودعاة الحق إلى أن نقول اغفر لنا وأنت خير الغافرين ، وارحمنا وأنت خير الراحمين ، واكتب لنا في هذه الدنيا حسنة . ومن يوضح سبحانه : أنا لن أكتفي بأن أغفر لكم وأن أرفع عنكم الخطايا . لكني سأزيدكم حسناً ، وفي هذا سلب للضرر وجلب للنفع كان الله حينما قال : « خطاياكم » بجمع التكسير الذي ينبىء ويدل على كثرة الذنوب والخطايا و « خطيآتكم » التي تدل على القلة انشغلوا وتساءلوا : وماذا بعد الغفران يا رب فقيل ؟ لهم : ﴿ سنزيد المحسنين ﴾ هل سيغفر لنا فقط ، أو أنه سيجزينا بالحسنات أيضاً ؟ وكانت إجابة الله أنه سيغفر لهم ويزيدهم ويمدهم بالحسنات . وقد عقدنا هذه المقارنة المفصلة بين آية سورة البقرة وآية سورة الأعراف لنعرف أن الآيات لا تتصادم مع بعضها البعض ، بل تتكامل مصداقاً لقول الحق :

﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾

(من الآية ٨٢ سورة النساء)

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي

قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ
بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴿١٦٢﴾

هذه الآية تدل على أنهم افترقوا فرقتين ؛ لأن الحق سبحانه مدام قد قال : ﴿ منهم ﴾ فهذا يعني أن بعضهم قالوا وفعلوا المطلوب ، وبعضهم ظلموا وبدلوا القول ، فقد أمرهم الحق أن يقولوا : « حطة » وطلب منهم أن يدخلوا سجدا والتغيير منهم جاء في القول ؛ لأن القول قد يكون بين الإنسان وبين نفسه بحيث لا يسمعه سواه . لكن الفعل مرئي مما يدل على أن بعضهم يرائي بعضاً ، فمن القول أرادوا أن يهذروا ويتكلموا بما لا ينبغي ولا يليق ، فبدلاً من أن يقولوا : « حطة » قالوا : « حنطة » استهزاءً بالكلمة

وهكذا نرى أن التبديل جاء في القول ، لكن الفعل لم يأت فيه كلام ، وإن قال بعضهم : إن التبديل أيضاً حدث من بعضهم في الفعل فبدلاً من أن يدخلوا ساجدين دخلوا زاحفين على مقعداتهم ، كنوع من التعالي ، لكن الحق لم يذكر شيئاً من ذلك ؛ لأن سلوكهم في الفعل قد يكون السبب فيه أن بعضهم لا قدرة له على الفعل

﴿ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ ﴾

(من الآية ١٦٢ سورة الأعراف)

وكأن الحق يذكرنا بما فعله معهم من رعايتهم في أثناء التيه وكيف ظلل عليهم الغمام وأنزل عليهم المن والسلوى ، واستسقى لهم موسى فجاءت المياه . لكن غريزة التبديل والتمرد لم تغادرهم وما داموا قد بدّلوا في كلمات الله ، فعليهم أن ينالوا العقاب . ﴿ فأرسلنا عليهم رجزاً من السماء ﴾ .

وهناك آية ثانية في سورة البقرة يقول فيها الحق : ﴿ فأنزلنا على الذين ظلموا رجزاً من السماء ﴾ . والفارق بين « الإنزال » وبين « الإرسال » أن الإنزال يكون مرة واحدة . أما الإرسال فهو مسترسل ومتواصل . ولذلك يقول الحق سبحانه في

المطر : ﴿ وأنزلنا من السماء ماء طهوراً ﴾ . لأن المطر لا ينزل طوال الوقت من السماء . لكن في الإرسال استمرار ، اللهم إلا بعضاً من تأثير الهواء . ولذلك يقول الحق : ﴿ وأرسلنا الرياح لواقح ﴾ . فالذي يحتاج إلى استمرارية في الفعل يقول فيه الحق : « أرسل » بدليل أن الله حينما أراد أن يجيء بالطوفان ليغرق المكذبين بموسى قال :

﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ ﴾

(من الآية ١٣٣ سورة الأعراف)

وعندما أراد أن يرغب عاداً قوم سيدنا هود في الاستغفار والتوبة والرجوع عما كانوا عليه من الكفر والآثام قال لهم .

﴿ وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴾

(من الآية ٥٢ سورة هود)

إذن فالإرسال يعني التواصل ، أما الإنزال فهو لمرة واحدة ، وأراد الحق سبحانه من قصة بني إسرائيل أن يأتي لنا بنقطة فجاء بكلمة « أنزلنا » ، ونقطة أخرى جاء فيها بـ « أرسلنا » ؛ لأن العقوبة تختلف باختلاف المذنبين ، والمذنبون مقولون بالتشكيك ، فهذا له ذنب صغير ، وآخر ذنبه أكبر ، وكل إنسان يأخذ العذاب على قدر ذنبه ؛ فمن أذنب ذنباً صغيراً أنزل الله عليه عقاباً على قدر ذنبه . ومن تمادى أرسل الله عليه عذاباً يستمر على قدر ذنوبه الكبيرة .

وهنا يقول الحق :

﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾

(من الآية ١٦٢ سورة الأعراف)

و « رجزاً » أي عذاباً ، وهناك رِجْز ، ورُجْز ، والرِّجز يُولد من الرُّجْز ؛ وينشأ مثل قوله الحق : ﴿ والرُّجزَ فاهجر ﴾ . أي اهجر الرُّجْز . . أي المآثم والمعاصي والذنوب لتسلم من الرِّجز . . أي من العذاب . وهنا يبين الحق أنهم تلقوا العذاب بسبب ظلمهم ، وهناك في الآية الأخرى قال : ﴿ بما كانوا يفسقون ﴾ .

والفسق يسبق الظلم ؛ لأن الإنسان لا يمكن أن يظلم نفسه بمخالفة منهج إلا إذا

فسق أولاً ، ولذلك جاء الحق بالمسبَّب وجاء بالسبب ، وهكذا نتأكد أن كل كلمة في القرآن جاءت لمعنى أساسي تؤديه ولا تكرار إلا لمجموع القصة في ذاتها ، أما لقطات القصة هنا ، ولقطات القصة هناك فأمور جاءت تأسيساً في كل شيء لتعطي معاني ولقطات جديدة .

ويقول الحق بعد ذلك .

﴿ وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ ۙ لَا تَأْتِيهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾

هذا سؤال عن القرية التي كانت حاضرة البحر ، ونعلم أن القرية الأولى التي دخلوها هي « بيت المقدس » ولم تكن على البحر ، والقرية التي كانت على البحر هي « أيلة » أو « مدين » أو « طبرية » ، المهم أنها كانت « حاضرة البحر » أي قريبة من البحر ومشرفة عليه ؛ لأننا نقول فلان حضر ، أي كان بعيداً فاقترب . فمثل الإسكندرية يمكن أن نسميها حاضرة البحر .

وقوله « واسألهم » والسؤال هنا موجه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليوجه السؤال إلى أهل الكتاب ، ويطلب منهم أن ينظروا في كتبهم ليعرفوا أن ما يقوله هو وحي من الله إليه ؛ لأنهم يعلمون أنه صلى الله عليه وسلم لم يجلس إلى معلم ، ولم يقرأ في كتاب ، وإنما علّمه من أرسله ، إنه صلى الله عليه وسلم لا يريد أن يَعْلَم منهم ، بل يريد أن يُعْلِمَهم أنه يعلم ، وهم يعلمون أنه لا مصدر له كعلم سائر البشر ؛ لا جلس على معلم ولا قرأ في كتاب ولذلك تجد « ماكُنْتَ »

القرآن أي قوله الحق . « ما كنت » و « ماكنت » و « ما كنت » و« ما كنت » مثل قوله :

﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ ﴾

(من الآية ٤٤ سورة القصص)

ومثل قوله تعالى :

﴿ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ﴾

(من الآية ٤٥ سورة القصص)

ومثل قوله تعالى :

﴿ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾

(من الآية ٤٤ سورة آل عمران)

إذن فأنت يا رسول الله لم تكن معهم لتقول لهم ما حدث وحصل لهم ، بل إن ذلك موجود عندهم في كتبهم ، إذن فالذي علمك هو من أرسلك . كذلك هنا مصداقاً لقوله تعالى

﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾

(سورة العنكبوت)

وفي هذا القول أمر من الله سبحانه وتعالى أن يخبرهم أنه سبحانه قد علمه وأعلمه بما لا يستطيعون إنكاره ليتيقنوا أن الله يعلمه ليؤمنوا به .

﴿ وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ ﴾

(من الآية ١٦٣ سورة الأعراف)

وكلمة « واسألهم » تحمل لنا إشكالات كثيرة ، مثال ذلك حديث الإسراء ، وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم صلى بالأنبياء بصلاة إبراهيم .

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لقد رأيتني في الحجر وقريش تسألني عن مسراي ، فسألوني عن أشياء من بيت

المقدس لم أثبتها فكربت كرباً ما كربت مثله قط ، فرفعه الله إليّ أنظر إليه ، ما سألونى عن شيء إلا أنبأتهم به ، وقد رأيتنى فى جماعة من الأنبياء ، وإذا موسى قائم يصلى وإذا هو رجل جعد كأنه من رجال شنوءة ، وإذا عيسى قائم يصلى أقرب الناس شبها به عروة بن مسعود الثقفى ، وإذا إبراهيم قائم يصلى أقرب الناس شبهاً به صاحبكم - يعنى نفسه - فحانت الصلاة فأممتهم فلما فرغت قال قائل : يا محمد هذا مالك خازن جهنم فالتفت إليه فبدأنى بالسلام »(١).

وتأتى آية فى القرآن تقول :

﴿وَسْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ﴾

(من الآية ٤٥ سورة الزخرف)

والأمر لرسول الله عليه الصلاة والسلام أن يسأل رسل الله من قبله ، ومتى يسألهم ؟ لابد أن توجد فرصة ليلتقوا فيسأل إذن حين يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم إنه التقى بالأنبياء وكلمهم وصلى بهم فالخبر مصدق لأنه قد أدى أمر الله ﴿ واسألهم عن القرية التى كانت حاضرة البحر ﴾ . والسؤال هنا سؤال للتقرير والتفريع والتوبيخ : وما قصة القرية التى كانت حاضرة البحر ؟

لقد قلنا إن حاضرة البحر أى القريبة من البحر ، ونفهم أن ما تتعرض له الآية من سؤالهم يشير إلى أن للبحر فيه مدخلاً ؛ لأن المسألة متعلقة بالحيتان والسمك والصيد ، لذلك لابد أن تكون بلدة ساحلية .

﴿إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾

(من الآية ١٦٣ سورة الأعراف)

وحيتان جمع حوت ، مثلما يجمعون « نونا » - وهو الحوت أيضاً - على « نينان » ؛ وهو صنف من الأسماك . لقد حرم الله عليهم العمل فى يوم معين لينقطعوا فيه للعبادة وهو يوم « السبت » ، ومازالت عندهم بعض هذه العادات ، حتى إن واحداً منهم زار أمريكا ورفض أن يركب سيارة يوم السبت لأنه يوم عطلة ،

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه .

ورفض كذلك أن يعمل حتى جاء اليوم التالى . وشاء الحق سبحانه أن يؤدبهم حينما ارتكبوا أشياء مخالفة للمنهج ، وسلب منهم وقتاً للعمل وقال :

﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ ﴾

(من الآية ١٦٠ سورة النساء)

وفى هذه مُثُل وعِبَر لأى منحرف ، ولكل منحرف نقول : إياك أن تظن أنك بانحرافك عن منهج الله ستأخذ أشياء من وراء ربنا وتسرقها ، لا ؛ لأن ربنا قادر أن يبتليه بعقاب يفوق ما أخذ آلاف المرات ، فالمرتشى مثلاً يفتح له الله أبواباً من الأمراض ومن العلل ومن المصائب يضيع عليه كل شىء أخذه .

إذن فقد استحل بنو إسرائيل أشياء محرمة ، فابتلاهم الله بأن يحرمهم من أشياء كانت حلالاً لهم . وهكذا نرى أن ما وقع عليهم من عقاب كان بظلمهم لأنفسهم ؛ لأنهم انشغلوا بالدنيا وبالمادة ، فحرم عليهم العمل فى يوم السبت ، وهؤلاء الذين كانوا يقيمون قريباً من حاضرة البحر يبتليهم الله البلاء العظيم ، ويرون السمك فى المياه وهو يرفع زعانفه كشراع المركب ، وتظل عليهم أشرعة الحيتان وهم فى بيوتهم ، وهذا ابتلاء من ربهم لهم وعقاب ؛ لأنهم ممنوعون من صيده ، ويرون هذا السمك أمامهم فى يوم السبت ، لكن فى بقية الأيام التى يباح فيها العمل ، كيوم الأحد والاثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس والجمعة لا تظهر لهم ولا سمكة واحدة : ﴿ ويوم لا يسبتون لا تأتيهم كذلك نبلوهم بما كانوا يفسقون ﴾ .

وهنا قالوا . مادام ربنا قد حرم علينا أن نصطاد يوم السبت فعلينا أن نحتال . وصنعوا كيساً من السمك المضفر والذى نسميه « الجورية » وهم أول من صنعوا هذه الجورية بشكل خاص ، ويدخل السمك فيها ولا يستطيع الخروج منها ، فيأتى السمك يوم السبت ويدخل فى الجورية ويستخرجونه يوم الأحد . وفى هذا اعتداء . لو يصنعون حوضاً له مدخل وليس له مخرج وفى هذا مكر . وتمكر لهم السماء بحيلة أشد . لقد أراد الله ابتلاءهم لأنهم فسقوا عن المنهج . وخرجوا عن الطاعة ، واستحلوا أشياء حرمها الله ؛ لذلك يحرم الله عليهم أشياء أحلها لغيرهم .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ۙ اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ ﴾

وحينما تجد أن طائفة قالت قولاً ، فلابد أن هناك أناساً قيل لهم هذا القول . إذن ففيه « قوم وعظوا » ، و« قوم موعوظون » ، و« قوم مستكرون وعظ الواعظين » . وهكذا صاروا ثلاث فرق .

الذين قالوا وعظاً لهم : لماذا لا تلتزمون بمنهج الله ؟ هؤلاء هم المؤمنون حقًا . وقالوا ذلك لأنهم رأوا من يخالف منهج الله . والذين لاموا الواعظين هم الصالحون من أهل القرية الذين يئسوا من صلاح حال المخالفين للمنهج .

وحين ندقق فى الآية :

﴿ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ۙ اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ ﴾

(من الآية ١٦٤ سورة الأعراف)

نعلم أن القائلين هم من الذين لم يعتدوا ، ولم يعظوا وقالوا هذا التساؤل لمن وعظوا ؛ لأنهم رأوا أن الوعظ مع الخارجين على منهج الله لا ينفع . كما قال الله لرسوله صلى الله عليه وسلم : ﴿ فلعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين ﴾ .

هنا يسأل الحق رسوله : ولماذا تُحزن نفسك وتعمل على إزهاق روحك وهنا قال بعض بنى إسرائيل : لم تعظون هؤلاء المغالين فى الكفر ، لماذا ترهقون أنفسكم معهم ، إنهم يعملون من أجل أن يعذبهم الله . وماذا قال الواعظون ؟ : ﴿ قالوا معذرة إلى ربكم ولعلهم يتقون ﴾ .

وما هى المعذرة إلى الله ؟ يقال : عذرك فلان إذا كنت قد فعلت فعلاً كان فى

ظاهره أنه ذنب ثم بينت العذر في فعله ، كأن تقول : لقد جعلتني انتظرك طويلاً وتأخرت في ميعادك معي . أنت تقول ذلك لصديق لك لأنه أتى بعمل مخالف وهو التأخر في ميعادٍ ضربه لك . فيرد عليك : تعطلت مني السيارة ولم أجد وسيلة مواصلات ، وهذا عذر إذن فمعنى « العذر » هو إبداء سبب لأمر مخالف مراد الغير . ولذلك يقال : أعذر من أنذر ، والحق يقول :

﴿ وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ ﴾

(من الآية ٩٠ سورة التوبة)

ونعلم أيضاً أن هناك مُعْذِراً ، ومُعذَّراً . والمُعَذِّر هو من يأتي بعذر كاذب ، والمُعْذِر هو من يأتي بعذر صادق . وقال الواعظون : نحن نعظهم ، وأنتم حكمتم بأن العظة لا تنفع معهم لأنهم اختاروا أن يهلكهم الله ويعذبهم ولكنا لم نيأس ، وعلى فرض أننا يئسنا من فعلهم ، فعلى الأقل نكون قد قدمنا لربنا المعذرة في أننا عملنا على قدر طاقتنا

وكلمة « وَعْظ » تقتضي أن تقول فيها : إن هناك فارقاً بين بلاغ الحكم ، والوعظ بالحكم ، فالوعظ أن تكرر لموعوظ ما يعلمه لكنه لا يفعله كأن تقول لإنسان : قم إلى الصلاة ، هو يعلم أن الصلاة مطلوبة لكنه لا يقوم بأدائها

إذن فالوعظ معناه تذكير الغافل عن حكم ، ومن كلمة الوعظ نشأت لوعّاظ . وهم من يقولون للناس الأحكام التي يعرفونها ، ليعملوا بها ، فالوعاظ إذن لا يأتون بحكم جديد

وبعض العلماء قال : إن قول الحق : ﴿ لم تعظون قوماً الله مهلكهم ﴾ ليس مراداً به العِلة التي لم تفعل الذنب ولم تعظ ، إنما يراد به الفئة الموعوظة ، كأن الموعوظين قالوا : إن ربنا سيعذبنا فلماذا توعظوننا ؟ . ونقول : لا ، لأن عجز الآية ينافي هذا . فالحق يقول : ﴿ معذرة إلى ربكم ولعلهم يتقون ﴾

ومجيء « لعلهم » يؤكد أن هذا خبر عن الغير لا أنه من الموعوظين .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ ﴾

ويخبرنا الحق هنا أن الموعوظين حينما نسوا ما وعظهم به بعض المؤمنين أهلكهم الله بالعذاب الشديد جزاءً لخروجهم وفسوقهم عن المنهج وأنجى الله الفرقة الواعظة . وماذا عن الفرقة الثالثة التي لم تنصع إلى الواعظين أو الموعوظين ؟ الذين قالوا : ﴿ لم تعظون قوماً الله مهلكهم ﴾ إن قولهم هذا لون من الوعظ ؛ فساعة يحوقلونهم بأن ربنا مهلك أو معذب من يخرج على منهجه ، فهو وعظ من طرف آخر .

وقوله الحق : ﴿ فلما نسوا ما ذكروا به ﴾ يدل على أنه قد وعظهم غيرهم وذكروهم . ويعذب الحق هؤلاء الذين ضربوا عرض الحائط بمنهجه ولم يسمعوا مَن وعظهم ، وخرجوا على تعاليمه فظلموا أنفسهم واستحقوا العذاب الشديد ؛ فالمسألة ليست تعنتاً من الله ؛ لأنهم لسبب في هذا ، إما بفسق ، وإما بظلم للنفس .

ويقول الحق بعد ذلك .

﴿ فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿١٦٦﴾ ﴾

وأخذهم بعذاب يدل على أنه لم يرهق حياتهم ويميتهم ؛ لأن العذاب هو إيلام من يتألم ، والموت ليس عذاباً لأنه ينهي الإحساس بالألم ، ولنتعرف على الفارق بين الموت والعذاب حين نقرأ قصة الهدهد مع سيدنا سليمان ، يقول سيدنا سليمان حين تنبه لغياب الهدهد عندما وجد مكانه خاليا :

﴿ مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ۝٢٠ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَا۟ذْبَحَنَّهُۥٓ ﴾

(من الآيتين ٢٠ ، ٢١ سورة النمل)

هكذا نرى الفارق بين العذاب وبين الموت وهنا يقول الحق ﴿ فلما عتوا عن ما نهوا عنه ﴾ و « عتوا » تعني أبوا وعصوا واستكبروا فحق عليهم عذاب الله الذي أوضحه قول الحق : ﴿ كونوا قردة خاسئين ﴾

لأن « العتو » كبرياء وإباء ، فيعاقبهم الله بأن جعلهم كأحس الحيوانات ، فصيرهم أشباه القرود ، كل منهم مفضوح السيرة ، يسخر الناس منهم ويستهزئون بهم . فهل انقلبوا قردة ؟ نعم ، لأنك حين تأمر إنساناً بفعل . . ألا تُقدِّر قبل الأمر له بالفعل أنه صالح أن يفعل وألا يفعل ؟ . وحين يقول الله : ﴿ كونوا قردة ﴾ فهل في مكنتهم أن يصيروا من أنفسهم قردة ؟ . ونقول . إن هذا اسمه « أمر تسخيري » أي اصيروا وصيِّروا قردة . وقد رأوهم على هذه الهيئة من وعظوهم ، وهي هنا مقولة « خبر » نصدقه بترثيق من قائله ، وكان هذا الخبر واقعاً لمن شاهده .

ولذلك نجد المعجزات التي حدثت لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم غير القرآن الذي وصفنا ككتاب منهج ومعجزة وسيظل كذلك إلى قيام الساعة ، لكن ألم ينبع الماء من بين أصابعه صلى الله عليه وسلم ؟ لقد حدث ذلك وغيره من المعجزات وشاهده أصحابه صلى الله عليه وسلم ، وأخبروا بالخبر ، وكان ذلك آية تثبت يقينهم وإيمانهم . وتثبت لنا خبراً ، فإن اتسع لها ذهنك فأهلاً وسهلاً ، وإن لم يتسع لها فلا توقف إيمانك ؛ لأنها آية لم تأت من أجلك أنت ، ولكن معجزة كونية حدثت لرسول الله فالمراد بها من شاهدها ، ووصلتك أنت كخبر ، إن وثقت بالخبر صدقته ، وإن لم تثق به ووقفت عنده فلن ينقص إيمانك . غير أنه يجب على من وصل إليه الخبر بطريق مقطوع به ، أن يصدق ويذعن .

وقد أخبر الحق هنا بالأمر بقوله : ﴿ كونوا قردة خاسئين ﴾ بأنه أوقع عليهم عذاباً بأن جعلهم قردة خاسئين ، فهذا عقاب للذين عتوا عمَّا نهوا عنه . والذين وعظوهم أو عاصروهم هم من شاهدوا وقوع العذاب .

وهل الممسوخ يظل ممسوخاً ؟ . إن الممسوخ قرداً أو خنزيراً ، يظل فترة كذلك ليراه من رآه طالماً ، ثم بعد ذلك يموت وينتهى .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٧﴾ ﴾

وتَأَذَّن نجد مادته من الهمزة والذال ونون ، فمنه أُذُن ، ومنها أَذَان ، وكلها يراد بها الإعلام ، والوسيلة للإعلام هى الأذن والسمع ، حتى الذى سنُعلمه بواسطة الكتابة نقول له ليسمع . ثم يكتب ويقرأ ، وما قرأ إلا بعد أن سمع ؛ لأنه لن يعرف القراءة إلا بعد أن يسمع أسماء الحروف « ألف » ، « باء » إلخ ، ثم نهجدها . إذن فلا أحد يقرأ إلا بعد أن يسمع ، وهكذا يكون السمع هو الأصل فى المعلومات ، ونقرأ فى القرآن :

﴿ إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ﴿١﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٢﴾ ﴾

(سورة الانشقاق)

وأذنت لربها . . أى سمعت لربها ، فبمجرد أن قال لها . « انشقى » امتثلت وانشقت .

﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٧﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

والكلام هنا بالنسبة لبنى إسرائيل ، وبين لنا سبحانه أنهم مع كونهم مختارين فى أن يفعلوا ، « فإن مواقفهم الإيمانية ستظل متقلبة مترددة ، ولن يهدأ لهم حال

في نشر الفساد وإشاعته ، ولذلك يسلط الله عليهم من يسومهم سوء العذاب ، ولماذا ؟ .

لأنهم منسوبون للدين ، والله لا يسوم العذاب للكافر به وللملحد ، لأنه يكفره وإلحاده خرج عن هذه الدائرة ، إذ لم يبعث الله به رسولاً ولكن المنسوب لله ديانة ، والمنسوب لله رسالة ، والمنسوب لله كتاباً ؛ إذا فسد مع كون الناس يعلمون عنه أنه تابع لنبي ، وأن له كتاباً ، حينئذ يكون أسوة سيئة في الفساد للناس ، فإذا ما سلط الله عليهم العذاب فإنما يسلط عليهم لا لأجل الفساد فقط ، ولكن لأنه فساد منسوب لمن هو منسوب إلى الله وعرف أن مدة أدنى كلها منذ الإعلام ، وحينما تكلم الله عن خلقنا قال :

﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ﴾

(من الآية ٧٨ سورة النحل)

إن الحق ـ سبحانه ـ يسمي العرب المعاصرين لرسول الله أميين ، أي ليس عندهم شيء من أسباب العلم ، وسبحانه خلق لك وسائل العلم . بأن جعل لنا السمع والأبصار والأفئدة ، وهي وسائل العلم التي تبدأ بالسمع ثم بالأبصار ثم الأفئدة . ومن العجيب أنه رتبها في أداء وظيفتها ؛ لأن الإنسان منا إذا كان له وليد ـ كما قلنا سابقاً ـ ثم جاء أحد بعد ميلاده ووضع أصبعه أمام عينه فإنه لا يطرف ؛ لأن عينه لم تؤد بعد مهمة الرؤية ، وعيون الوليد لا تؤدي مهمة الرؤية إلا بعد مدة من ثلاثة أيام إلى عشرة ، ولكنك إذا حدثت في أذنه وصرخت تفعل

إن هذا دليل على أن أذنه أدت مهمتها من فور ولادته ، بينما عينه لا تؤدي مهمة الرؤية إلا بعد مدة ، فأولاً يأتي السمع ، ثم يأتي البصر ، ومن السمع والبصر تتكون المعلومات ، فتنشأ عند الإنسان معلومات عقلية ، ويقولون بعضهم مثلاً : إياك أن تقس على هذه النار حتى لا تحرقك ، فلا يصدق ، وسطر النار يحذره فيلمسها ، فتلسعه مرة واحدة ، وبعد أن لسعته النار مرة واحدة ، لم يعد في حاجة إلى أن يتكرر له القول . بأن النار محرقة . فقد تكونت عنده معلومة عقلية فأولاً

يأتى السمع ، ثم الأبصار ، ثم تأتى الأفئدة . ولذلك قال سبحانه : ﴿ لعلكم تشكرون ﴾ . تشكرون له سبحانه أن أمدكم بوسائل العلم ليخرجكم من أميتكم .

وهناك لفتة إعجازية أخرى ؛ فحين تكلم الحق عن وسائل العلم ، تكلم عن السمع بالإفراد ، وعن الأبصار بالجمع . مع أن هذه آلة ، وهذه آلة ؛ فقال : (السمع والأبصار) ولم يقل السمع والبصر ، ولم يقل الأسماع والأبصار ؛ لأن السمع هى الآلة التى تلتقط الأصوات ، وليس لها سد من طبيعتها ، أما العين فليست كذلك ، ففى طبيعة تكوينها حجاب لغمض . وإذا أنت أصدرت صوتاً من فمك يسمعه الكل ، وعلى هذا فمنفذ السمع واحد ، لكن فى أى منظر من المناظر قد تكون لديك رغبة فى أن تراه ، فتمتع عينك ، وإن لم تكن بك رغبة للرؤية فأنت تغمضهما .

إذن فالأبصار تتعدد مرائيها ، أما السمع فواحد ولا اختيار لك فى أن تسمع أو لا تسمع . أما البصر فلك اختيار فى أن ترى أو لا ترى ، وهذه أمور رتبها لنا الحق فى القرآن قبل أن ينشأ علم وظائف الأعضاء ، ورتبها سبحانه فأفرد فى السمع ، وجمع فى البصر مع أنهما فى مهمة واحدة ، إلا آية واحدة جمعت فى القرآن :

﴿ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴾

(من الآية ٣٦ سورة الإسراء)

قال الحق ذلك لأن المسئولية هنا هى الفردية الذاتية ، وكل واحد مسئول عن سمعه وبصره وفؤاده ، وليس مسئولاً عن أسماع وأبصار وأفئدة الناس . ونرى مادة السمع قد تقدمت ، وبعدها جاءت مادة البصر إلا فى آية واحدة أيضاً ، تتحدث عن يوم القيامة :

﴿ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا ﴾

(من الآية ١٢ سورة السجدة)

هنا قدم الحق مادة الإبصار على مادة السمع ؛ لأن هول القيامة ساعة يأتى سيرى تغيراً فى الكون قبل أن نسمع شيئاً .

﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٧﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

وتأذن أى أعلم الله إعلاماً مؤكداً بأنكم يا بنى إسرائيل ستظلون على انحراف دائم ، ولذلك سيسلط الله عليكم من يسومكم سوء العذاب ، إما من جهة إيمانية ، مثلما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم في بنى النضير وبنى قريظة وبنى قينقاع وخيبر ، وإما أن يسلط عليهم حاكم ظالما غير متدين ، مصداقاً لقوله الحق .

﴿ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا ﴾

(من الآية ١٢٩ سورة الأنعام)

وكذلك مثلما حدث من بختنصر ، وهتلر . إذن « وإذ تأذن ربك » أى أعلم ربك إعلاماً مؤكداً ؛ لأن البشر قد يُعْلمون بشيء ، ولكن قدرتهم ليست مضمونة لكى يعملوا ما أعلموا به . فإذا أعلمت أنت بشيء فأنت قد لا تملك أدوات التنفيذ ، أمّا الله ـ سبحانه ـ فهو المالك لأدوات التنفيذ ، والإعلام منه مؤكد ، ولذلك يُعْلم بالشيء ، أما غيره فالظروف المحيطة به قد لا تساعده على أن يمضى . مثال ذلك صحابة رسول الله لأول وهم مستضعفون ولم يستطيعوا أن يحموا أنفسهم من اضطهاد المشركين والكافرين ، وصار كل واحد يبحث لنفسه عن مكان يأمن فيه ؛ منهم من يذهب إلى الحبشة أو يذهب إلى قوى يحتمى به ، فينزل الله في هذه الظروف العصيبة آية قرآنية لرسول الله يقول فيها :

﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ ﴾

(سورة القمر)

وتساءل البعض كيف يُهزمون ونحن غير قادرين على حماية أنفسنا . فعندما نزلت هذه الآية قال سيدنا عمر : أى جمع يُهزم ، قال عمر : فلما كان يوم بدر رأيت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يثب في الدروع وهو يقول : ﴿ سيهزم الجمع ويولون الدبر ﴾ ، فعرفت تأويلها يومئذ . إن الله سبحانه وتعالى أعْلَم بالنصر ، وهو قادر على إنفاذ ما أعْلَم به على وفق ما أعلم ؛ لأنه لا يوجد إله آخر

يصادمه . إذن « وإذ تأذن ربك » يعني أعلم إعلاماً مؤكداً ، وحيثية الإعلام المؤكد أنه لا توجد قوة أخرى تمنع قدرته ولا تنقض حكمه .

﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾

(من الآية ١٦٧ سورة الأعراف)

أي يبعث الله عليهم من يسومهم سوء العذاب . وهناك بنص القرآن مبعوث ، والله يخلي بينه وبينهم ، فلا يمنعهم الله منه ، إنما يسلط الله عليهم العذاب باختيار الظالم . مثلما قال الحق :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴾

(سورة مريم)

أي انه ـ سبحانه ـ أرسلهم لهذه المهمة وخلّى بينهم وبين الذين يستمعون إليهم : ﴿ وإذ تأذن ربك ليبعثن عليهم إلى يوم القيامة ﴾ .

وكلمة « إلى يوم القيامة » تفيد أن هذا العنصر ، المشاكس من اليهود سيبقى في الكون كخميرة (عكننة) إلى أن تقوم الساعة ، لماذا ؟!

هم يقومون بمهمة الشر في الوجود ، ولولا أن هذا الشر موجود في الوجود ، وبعض الناس بمساوئه وإفساداته ، لم يكن من الناس من يتهافت على الحق وعلى الخير . فالشر ـ إذن ـ جاء لبعض الناس بآلامه وإفساده ليتجه الناس إلى الخير ، ولذلك تجد أقوى انفعالات تتمثل في صدور المسلمين وأقوى نزوع حركي إلى الإسلام حين يجدون من يضطهد قضية الإسلام .

إن مهمة الشر في الوجود أنه يجمع عناصر الخير في الوجود ، ومهمة الباطل في الوجود أنه يحفز عناصر الحق ويحضهم على محاربة الشر ومناهضته ؛ لأن الباطل حين يعم ، ويتضايق منه الناس ، ترفع يدها وتقول : يا ناس افعلوا الخير ولو لم يحدث ذلك فلن تجد من يقبل على الخير بحمية وحرارة .

﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ﴾

(من الآية ١٦٧ سورة الأعراف)

(وسومهم) من مادتها سام ، وتسمعها في البهائم وتسميها السائمة وهي التي تطلب مقومات حياتها ، وليس صاحبها هو الذي يجهز لها مقومات حياتها . أما البهائم التي تُربط وليست سائمة فهي التي تجد من يجهز لها طعامها ، إذن أصل « سام » أي طلب ، وبهيمة سائمة أي تطلب رزقها وأكلها بنفسها .

و « سام » أيضاً أي طلب العذاب . ولا يطلب أحد العذاب إلا أن يكون قد أفرغ قوته في التعذيب فيطلب ممن يقدر على العذاب أن يعذب ، أي أن الله يسلط ويبعث عليهم من يقوم بتعذيبهم جهد طاقته ، فإذا فترت طاقته أو ضعفت قوته يستعين على تعذيبهم بغيره

إذن فطلب العذاب معناه أنه عذّب هو ، ولم يكتف بأنه عذّب بل طلب لهم عذاباً آخر ، و « يسومهم سوء العذاب » أي العذاب السيء الشديد ويذيل الحق الآية بقوله تعالى :

﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

(من الآية ١٦٧ سورة الأعراف)

ومعنى سرعة الشيء أن تأخذ زمناً أقل مما يتوقع له ، لأن السرعة هي اختصار الزمن . « لسريع العقاب » هي للدنيا وللآخرة ، فساعة يقترفون ذنباً . يسلط عليهم من يعذبهم في الدنيا ، أما الآخرة فيها سرعة عالية ؛ لأن مسافة كل إنسان إلى العذاب ليست هي عمر الدنيا ، فالإنسان بمجرد أن يموت تنتهي الدنيا بالنسبة له . والرسول صلى الله عليه وسلم يقول « إذا مات أحدكم فقد قامت قيامته »[1] .

إن هناك سرعة لحساب الآخرة وحتى لو افترضنا أننا سنبقى جميعاً دون حساب إلى أن تنتهي الدنيا ، فإن الحساب سيكون سريعاً لأن كل لحظة تمر على أي إنسان تقربه من العقاب ، وحتى لو كان عمر الدنيا مليون سنة ، فكل يوم يمر سينقص من عمر الدنيا .

---

(١) رواه الديلمي عن أنس مرفوعاً .

وحين يقول الحق سبحانه بعد سرعة العقاب « وإنه لغفور رحيم » قد نجد من يسأل كيف ولحديث هنا عن العقاب ؟ ونقول : به سبحانه الذى يتكلم . وهو القادر . فإذا قال : إنه لسريع العقاب ، فهذا يعني أنه يسرع بعقاب المفسدين والظالمين ؛ لأنه غفور رحيم بالمظلومين الذين يُظلمون ، إذن فسرعة عقاب الظلمة رحمة منه بالمظلومين . أو أن الله كما قال « سريع العقاب » فإنه ـ سبحانه ـ يأتى بالمقابل لكى يشجع كل إنسان على الدخول فى رحمته .

ويقول سبحانه بعد ذلك

﴿ وَقَطَّعْنَٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا مِّنْهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾ ﴾

وقد قال سبحانه قبل ذلك أيضاً .

﴿ وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا ﴾

(من الآية ١٦٠ سورة الأعراف)

ولكن القول هنا يجيء لمعنى آخر : ﴿ وقطعناهم فى الأرض أمماً منهم الصالحون ومنهم دون ذلك ﴾ .

وقد قطعهم الحق حتى لايبقى لهم وطن ، ويعيشون فى ذلة ، لأنهم مختلفون غير متفقين مع بعضهم بعضا منذ البداية ، كانوا كذلك منذ أن كانوا أسباطاً وأولاد إخوة على خلاف دائم وهنا يقول الحق : ﴿ وقطعناهم فى الأرض أمماً ﴾ .

ومعنى « قطعنا هم » أى أن كل قطعة يكون لها تماسك داخلى فى نفسها ، وأيضاً لا تشيع فى المكان الذى تحيا فيه ، ولذلك قلنا : إنهم لا يذوبون فى المجتمعات أبداً ، ـ كما قلنا ـ فعندما تذهب إلى أسبانيا مثلاً تجد لهم حيًّا خاصًّا ، كذلك فى

فرسا ، والمأتي ، وكل مكان يكون لهم فيه تجمع خاص بهم ، لا يدخل فيه أحد ، ولا يأخذون أخلاقاً من أحد ، وشاء الحق ذلك بعد أن قال لهم :

﴿ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾

(من الآية ٢١ سورة المائدة)

فبعد أن منَّ عليهم بأرض يقيمون فيها ، قالوا :

﴿إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾

(من الآية ٢٤ سورة المائدة)

فحرم الله عليهم أن يستوطنوا وطنا واحداً يتجمعون فيه ، وينشرهم في الكون كله لأنهم لو كانوا متجمعين لعم فسادهم فقط في دائرتهم التي يعيشون فيها . ويريد الله أن يعلن للدنيا كلها أن فسادهم فساد عام ولذلك فهم إن اجتمعوا في مكان فلابد أن تتألب عليهم القوى وتخرجهم مطرودين أو تعذبهم ، وأظن حوادث هتلر الأخيرة ليست بعيدة عن الذاكرة ، وقد أوضحنا ذلك من قبل في شرح قوله الحق :

﴿وَقُلْنَا مِن بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ﴾

(من الآية ١٠٤ سورة الإسراء)

لقد قلنا : إن السكن في الأرض هو أن يتبعثروا فيها ؛ لأنه ـ سبحانه ـ لم يحدد لهم مكانا يقيمون فيه ، فإذا جاء وعد الآخرة ينتقم الله منهم بضربة واحدة ، ويأتي الحق بهم لفيفاً تمهيداً للضربة القاصمة : ﴿وقطعناهم في الأرض أمماً منهم الصالحون ومنهم دون ذلك﴾ .

هناك فريق منهم جاء إلى المدينة المنورة ووسعتهم المدينة وصاروا أهل العلم وأهل الكتاب ، وأهل الثراء وأهل المال ، وأهل بنايةٍ للحصون ، وحين هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم عقد معهم معاهدة . فالذي دخل منهم في الإيمان استحق معاملة المؤمنين ، فلهم ما لهم وعليهم ما عليهم ، والحق قد قال :

﴿ وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

وقلنا إن هذه تسمى صيانة الاحتمال بمن يفكرون فى الإيمان برسول الله صلى الله عليه وسلم . ﴿ وقطعناهم فى الأرض أمماً منهم الصالحون ومنهم دون ذلك ﴾ . و « دون » أى غير ، فالمقابل للصالحين هم المفسدون . أو منهم الصالحون فى القمة ، ومنهم من هم أقل صلاحاً فهناك أناس يأخذون الأحسن ، وأناس يأخذون الحسن فقط ويتابع الحق سبحانه :

﴿ وَبَلَوْنَاهُم بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾

(من الآية ١٦٨ سورة الأعراف)

كلمة « لعلهم يرجعون » هى التى جعلتنا نفهم أن قول الحق سبحانه وتعالى : إن منهم أناساً صالحين ، ومنهم دون ذلك ، أى كافرون ؛ لأنهم لو كانوا قد صنعوا الحسن والأحسن فقط ، لما جاء الحق بـ ﴿ لعلهم يرجعون ﴾ . أو هم يرجعون إلى الأحسن .

و « بلوناهم » أى اختبرنا ؛ لأن لله فى الاختبارات مطلق الحرية ، فهو يختبر بالنعمة ليعلم واقعاً منك لأنه ـ سبحانه ـ عالم به ، من قبل أن تعمل ، لكن علمه الأزلى لا يُعتبر شهادة منا . لذلك يضع أمامنا الاختبار لتكون نتيجة عملنا شهادة إقرار منا علينا . ﴿ وبلوناهم بالحسنات والسيئات ﴾ . وسبحانه وتعالى يختبر بالنعمة ليرى أتغرنا الأسباب فى الدنيا عن المُسبِّب الأعلى الذى وهبها .

﴿ كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ﴿٦﴾ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ ﴿٧﴾ ﴾

(سورة العلق)

فالواجب أن نشكر النعمة ونؤديها فى مظان الخير لها فإن كان العبد سيؤديها بالشكر فقد نجح ، وإن أداها على عكس ذلك فهو يرسب فى الاختبار إذن فهناك الابتلاء بالنعم ، وهناك الابتلاء بالنقم . والابتلاء بالنقم ليرى الحق هل يصبر العبد أو لا يصبر ، أى ليراه ويعلمه واقعاً حاصلاً ، وإلا فقد علمه الله أزلاً .

ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ ﴿١٦﴾ ﴾

(سورة الفجر)

إننا نجد من يقول . « ربي أكرمن » . ومَن يقول : « ربي أهانن » والحق يوضح . أنتما كاذبان فليست النعمة دليل الإكرام ، ولا سلب النعمة دليل الإهانة . ولكن الإكرام يبدأ حين تستقبل النعمة بشكر ، وتستقبل النقمة بصبر . إذن مجيء النعمة في ذاتها ليس إلا اختبارا . وكذلك إن قدّر الله عليك رزقك وضيقه عليك ، فهذا ليس للإهانة ولكنه للاختبار أيضاً .

ويوضح الحق جل وعلا

﴿ كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾ ﴾

(سورة الفجر)

أنتم لا تطعمون في مالكم يتيماً ولا تحضون على طعام مسكين . فكيف يكون المال نعمة ؟ إنه نقمة عليكم . وهنا يقول الحق : ﴿ وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون ﴾ ولله المثل الأعلى ، نقول : إن فلاناً أتعبني ، لقد قلبته على الجنبين ، لا الشدة نفعت فيه ، ولا اللين نفع فيه ، ولا سحائي عليه نفع فيه ، ولا ضني عليه نفع فيه ، وقد اختبر الله بني إسرائيل فلم يعودوا إلى الطاعة مما يدل على أن هذا طبع تأصل فيهم .

ويقول الحق بعد ذلك .

﴿ فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا الْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ

مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ ۚ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُوا۟
عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ وَدَرَسُوا۟ مَا فِيهِ ۗ وَٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ
لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦٩﴾

والخَلْف أو الخَلَف أو الخليفة هو من يأتي بعد ذلك ، ويقال : فلان خليفة فلان ، ومن قبل قرأنا أن سيدنا موسى قال لسيدنا هارون :

﴿ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي ﴾

(من الآية ١٤٢ سورة الأعراف)

أي كن خليفة لي ، إلا أنك حين تسمع « خَلْف » بسكون اللام ، فاعلم أنه في الفساد ، وإن سمعتها « خَلَف » بفتح اللام فاعلم أنه في الخير ، ولذلك حين تدعو لواحد تقول : اللهم اجعله خير خلف لخير سلف . وهنا يقول الحق : ﴿ فخلف من بعدهم خَلْف ﴾ والحديث هنا عن أنهم هم الفاسدون والمفسدون ، والشاعر يقول :

ذهب الذين يعاش في أكنافهم وبقيت في خَلْفٍ كجلد الأجرب

الشاعر هنا يبكي موت الكرماء وأهل السماحة ، فلم يعد أحد من الذين كان يعيش في رحاب كرمهم وسماحتهم ؛ فقد ذهب الذين يُعاش في أكنافهم أي جوارهم ؛ لأن هذا الجوار كان نعمة أيضاً وحين يجاور رجل ضيق وقُدِر عليه رزقه رحلاً طيباً عمه نعمة ، فنضح عليه نعمة الرجل الطيب . والشاعر هنا قال : « وبقيت في خَلْفٍ كجلد الأجرب » أي أن جلده قريب ولاصق لكنه جلد أجرب .

وعرفنا قصة « أبودلف » وكان رجلاً كريماً في بغداد . يعيش في نعمته كل الناس ومن يحتاج يعطيه وطرأ طارئ على جار فقير له ، وأراد أن يبيع داره ، فعرض الدار للبيع ، وسألوه عن الثمن الذي يرتضيه ، فقال : داري بمائة دينار .

لكن حوارى لأبى دلف بألف دينار ، فبلغ هذا الكلام أبا دلف فقال : إن رجلاً قدر حوارنا بعشرة أمثال ما قدر به داره لحقيق ألا يفرّط فيه . قولوا له : فليبق جاراً لنا وليأخذ ما يريد من مال .

﴿ فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب ﴾ . والكتاب هو التوراة ، والخلف أخذوه ميراثاً ، والشىء لا يكون ميراثاً إلا إذا حمله السابق بأمانة وأدّاه للاحق ، ولكن لأنهم أهل إفساد فلنر ماذا فعلوا فى الكتاب ؟ لقد ورثوه . وبُلّغ إليهمُ وعرفوا ما فيه .

﴿ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَـٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ ﴾

(من الآية ١٦٩ سورة الأعراف)

أى لا حجة لهم فى ألاّ يكونوا أصحاب منهج خير ، لكنهم لم يلتفتوا إلى ما فى الكتاب ـ التوراة ـ من المواثيق ، والحلال ، والحرام ، وافعل كذا ولا تفعل كذا ؛ لم يلتفتوا لكل هذا ؛ لأنهم قالوا لأنفسهم : إن هذا الكتاب يعطى النعيم البعيد فى الآخرة ، وهم يريدون النعيم القريب ، فمنهم من قبل الرشوة واستغلال النفوذ وبذلك أخذوا عَرَضَ الحياة الأدنى وهو عرض الدنيا . ولم يأخذوا إدارة الدنيا بمنهج الله ، والدنيا فيها جواهر وأعراض ، والجوهر هو الشىء الذاتى ، فالإنسان بشحمه ولحمه « جوهر » أما لونه إن كان أسمر أو أبيض فهذا عَرَض ، قصيراً أو طويلاً ، صحيحاً أو مريضاً ، وغنيًّا أو فقيراً فهذا عرض . إذن فالأعراض هى ما توجد وتزول ، والجواهر هى التى تبقى ثابتة على قدر ما كتب لها من بقاء ، وكما يقول علماء المنطق . الجوهر ما قام بنفسه ، والعَرَض ما قام بغيره .

وهم قد أخذوا العرض من الحياة الدنيا ، وعرض الدنيا قد يتمثل فى المال الحرام ، وأن يغشوا ويستحلوا الرشوة . ونعلم أن الإنسان ـ حتى المؤمن ـ قد تحدث منه معصية ولا يمنع ربنا هذا ؛ لأن المشرع الأعلى حين يشرع عقوبة لجريمة ، فهذا إذنٌ بأنها قد تحدث ، وحين يقول الحق :

﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا ﴾

(من الآية ٣٨ سورة المائدة)

إنّ معنى هذا القول أن المؤمن قد تسول له نفسه أنْ يسرق مثلاً ، ولم يترك

الحق هذا الجرم بدون عقوبة وإن رأيا مسلما يسرق ، يقل له هذا فعل مُجرَّم من الإسلام ، وله عقوبة ، و مُجْرم لا يمكن أن يرتكب الجُرْم وهو ملتزم بالدِّين ، بل هو منسوب للدين فقط ، وعندما يرتكب مسلم ذنبا أو معصية ثم يندم ويتوب ويعزم على الله لن يعود تصح توبته ، وكذلك لو أُلحَّت عليه معصيته فيعود إليها ، ثم تاب ، المهم أنه في كل مرة لا يصر على الفعل ، ثم يقول : سوف أتوب وهم كانوا يصرون على المعصية ويقولون : سيغفر الله لنا ، بل إنهم لم يفكروا في التوبة ، ووجدنا منهم من يقول :

﴿ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ﴾

(من الآية ١٨ سورة المائدة)

ويأتي الرد :

﴿ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ﴾

(من الآية ١٨ سورة المائدة)

إذن هم يأخذون عرض هذا الأدنى ، ويحكمون في أحدهم بهذا العرض أنه سبحانه سوف يغفر لهم وبذلك استحلوا المحرم وانتقلوا من معلقة المعصية إلى معلقة الكفر ، لأن هناك فرقا بين أن تفعل شيء وتقول هو معصية لكن أن يرتكب الإنسان المعصية ويقول ليست بمعصية ، فهو انتقل من العصيان إلى الكفر . ومثل ذلك لو نصح أحد من يحبه ، يقول له : أفضل أن تكون عاصيا ولا تدخل نفسك في الكفر ، لأنك إن فعلت ما حرم الله يقع عبئ الكفر وتوصف به والعياذ بالله ، أما إن قلت ، هو حرام ولكن ظروفي صعبة ولا أقدر على نفسي فقد يغفر الله لك . لكن قوم موسى كانوا يصرون على المعصية ويقولون سيغفر الله لنا .

ويقول الحق ﴿ وإن يأتهم عرض مثله يأخذوه ﴾

وهم بعد ذلك تركوا الأعلى وأخذوا عرض الحياة الأدنى ويتصدون في غيهم ويرتكبون المعاصي تلو المعاصي دون أن يذوقوا باب التوبة لذلك يفهمهم الحق سبحانه :

﴿ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَاقُ الْكِتَابِ أَن لَّا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ ﴾

(من الآية ١٦٩ سورة الأعراف)

لقد ورثوا الكتاب ، وفى الكتاب قد أُخذ عليهم عهدٌ موثقٌ ألا يقولوا على الله إلا الحق ، لكن هل يعدل الفاسق عن الباطل ويعود إلى الحق ؟ . طبعاً لا ، هم إذن تجاهلوا ما فى هذا الكتاب ، رغم أنهم قد درسوا ما فيه مصداقاً لقوله الحق : ﴿ ودرسوا ما فيه ﴾

وكلمة « دَرَس » تدل على تكرر العمل ، فيقال : « فلان درس الفقة » أى تعلمه تعلما متواصلا ليصير الفقه عنده ملكة . وهو مختلف عمن قرأ الكتاب مرة واحدة ، هنا لا يصبح الفقه عنده ملكة . وحتى نفهم الفرق بين « العلم » و« الملكة » ، نقول : إن العلم هو تلقى المعلومات ، أما من درس المعلومات وطبقها وصارت عنده المسألة آلية ، فهذا هو من امتلك ناصية العلم حتى صار العلم عنده ملكة .

إذا التقى صائم - مثلا - بفقيه وسأله عن فتوى فى أمر الصيام يجيبه فوراً ؛ لأنه علم كل صغيرة وكبيرة فى لفقه . لكن إن تسأل تلميذاً مبتدئا فى الأزهر فقد يرتبك وقد يطلب أن يرجع إلى كتبه ليعثر على الإجابة ؛ لأن الفقه لم يصبح لديه ملكة . والملكة فى المعنويات هى مقابل الآلية فى الماديات التى تحتاج إلى دُرْبة ، فمن يمسك النول لينسج النسيج ويتقن تمرير المكوك بين المتلتين لا يعمل ذلك إلا عن دُرْبة . إنه قد تعلم ذلك بصعوبة وتكرار تدريب .

إذن فقوله : ﴿ ودرسوا مافيه ﴾ أى تكررت دراسة الكتاب حتى عرفوا مافيه من علم . ونحن أخذنا « درس العلم » من مسألة حسية هى « درس القمح » ، ويعلم من تربى فى الريف كيف ندرس القمح ، حين يدور النورج على سنابل القمح فيخرج لنا الحب من أكمامه ، ويقطع لنا العيدان ، وهذه العملية تسمى « درس القمح » .

إن مافعلوه من عصيان ليس عن غفلة عن هذا الميثاق فى ألا يقولوا على الله إلا الحق ، لأنهم درسوا ما فى الكتاب المنزل عليهم وهو التوراة دراسة مستوعبة ، لكنهم أخذوا العرض الأدنى . وكان لابد أن يأتى لنا بمقابل العرض الأدنى ليوضح لنا أن مصير من يريد الدار الآخرة هو الثواب الدائم ولذلك يقول الحق :

﴿ وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾

من الآية ١٦٩ سورة الأعراف

وهذا يعني التنبيه بأنه من الواجب قبل أن تفعلوا الفعل أن تنظروا ما يعطيه من خير، وأن تتركوه إن كان يعطي الكثير من الشر، وزنوا المسألة بعقولكم، وساعة أن تزنوا المسألة بعقولكم ستعرفون أن عمل الخير راجح

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ ﴿١٧٠﴾ ﴾

إنّ الكثير من بني إسرائيل ورثوا الكتاب، وأخذوا العرض الأدنى، ولم يرموا الأمور بعقولهم؛ لذلك لم يتمسكوا بالكتاب، وتركوه، وساروا على هواهم؛ كأنهم غير مقيدين بمنهج افعل كذا ولا تفعل كذا، ويقابلهم بعض الذين يتمسكون بالكتاب الذي ورثوه، ولا يقولوا على الله إلا الحق.

ومادة الميم والسين والكاف تدل على الارتباط الوثيق؛ فالذي يجعل الانسان متصلاً بالشيء هو ماسكه، وتقول «سَكَ» وتقول «مَسَّكَ»، و«أمسك»، وتقول «متمسك»، و«تماسك»، وكلها مادة واحدة. وقوله الحق: «يمسّكون» مبالغة في المسك، مثل قطع وقطّع، ولكن قطّع أبلغ

و«مسّك» يعني أن الماسك تمكن مما يمسك، و«استمسك» أي طلب، و«تماسك» أي أنّ هناك تفاعلاً بين الاثنين؛ بين الماسك والممسوك. ومن رحمة ربنا أنه لا يطلب منا أن نمسك الكتاب بل يطلب أن نستمسك بالكتاب، ولذلك يوضح لك الحق سبحانه وتعالى: إن أنت مددت إلى القرب مني والزلفى إليّ، فاترك الباقي عنك فالمعونة منيّ أنا، ولذلك يدلنا على أن من يتبع منهج القرآن لا يلقى الهوان أبدا ﴿ فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها ﴾ وهذا يستحق

الحق سبحانه كلمة (استمسك) لا كلمة مسّك ، فمن وجه نيته في أن يمنحه يعطيه الله المعونة ، ولذلك يقول سبحانه في الحديث القدسي .

« أنا عند ظن عبدي بي ، وأنا معه إذا ذكرني ، فإن ذكرني في نفسه ، ذكرته في نفسي ، وإن ذكرني في ملأ ، ذكرته في ملأ خير منه ، وإن تقرب إليّ بشبر ، تقربت إليه ذراعاً ، وإن تقرب إليّ ذراعا ، تقربت إليه باعا ، وإن أتاني يمشي ، أتيته هرولة[1] » .

فأنت بإيمانك بالله تعرر نفسك وتقويها بمعونة الله لك . فإن أردت أن يذكرك الله فاذكر الله ؛ فإن ذكرته في نفسك يذكرك في نفسه ، وإن ذكرته في ملأ يذكرك في ملأ خير منه ، وإن تقربت إليه شبرا تقرب إليك ذراعاً ، فماذا تريد أكثر من ذلك ، خاصة أنك لن تضيف إليه شيئا ، إذن فالموقف في يدك ، فإذا أردت أن يكون الله معك فسر في طريقه تأت لك المعونة فوراً . وهكذا يكون الموقف معك وينتقل إليك ، وذلك بإيمانك بالله وإقبالك على حب الارتباط به

ولذلك قلنا من قبل : إن الانسان إذا أراد أن يلقى عظيماً من عظماء الدنيا وفي يده مصلحة من مصالح الإنسان فهو يكتب طلباً ، فإما أن يوافق هذا العظيم وإما ألا يوافق ، وحين يوافق هذا العظيم يحدد الزمان ويحدد المكان ، ويسأل مدير مكتبه عن الموضوعات التي سيتكلم فيها ، وحين تقابله وينتهي الوقت ، فهو يقف من كرسيه ليبقى المقابلة ، هذا هو العظيم من البشر ، لكن ماذا عن العظيم الأعظم الأعلى الذي تلتقي به في الإيمان ؟ أنت تلقى الله في أي وقت ، وفي أي مكان ، وتقول له ما تريد ، وأنت الذي تنهي المقابلة ، ألا يكفي كل ذلك لتستمسك بالإيمان ؟ .

﴿ وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ ﴿١٧٠﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

والكتاب هنا هو الكتاب المورورث ، والمقصود به التوراة وهو الذي درسوا

(١) من صحيح البخاري في كتاب التوحيد . وأخرجه مسلم في صحيحه بثلاث طرق عن أبي هريرة ، كما أخرجه الترمذي وابن ماجه

ما فيه ، وقد أحد الله في هذ الكتاب الميثاق عليهم ألا يقولوا على الله إلا الحق ، والحق يقول هنا . ﴿ وأقاموا الصلاة ﴾ فهل هذا الكتاب ليس فيه إلا الصلاة ؟ لا ، ولكنه خص الصلاة بالذكر . لأننا نعلم أن الصلاة عماد الدين ، وعرفنا في رسالة محمد صلى الله عليه وسلم أن الصلاة قد فرضت بالمباشرة ، وكل فروض الإسلام ـ غير الصلاة ـ قد فرضت بالوحي .

لقد قلنا من قبل ولله المثل الأعلى ، إن رئيس أي مصلحة حكومية حين يريد أمراً عادياً روتينياً ، فهو يوقع الورق الذي يحمل هذا الأمر ويكتب عليه : يعرض على فلان ، ويأخذ الورق مجراه ، وحين يهتم بأمر أكثر ، فهو يتحدث تليفونياً إلى الموظف المختص ، وحين يكون الأمر غاية في الأهمية القصوى فهو يطلب من الموظف أن يحضر لديه ، وهكذا فرضت الصلاة بهذا الشكل لأنها الإعلان الدائم للولاء لله خمس مرات في اليوم ، وإن شئت أن تزيد على ذلك نفلا وتهجدا فعلت .

إنك بالصلاة توالي الله بكل أحكامه ، إنك توالي الله بالزكاة كل سنة ، وبالصوم في شهر واحد هو رمضان ، وبالحج مرة واحدة في العمر إن استطعت . لكن الصلاة ولاء دائم متجدد ، ولأن الصلاة لها كل هذه الأهمية ؛ لذلك لا تسقط أبداً . وأركان الإسلام ـ كما نعلم ـ خمسة ؛ شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، إنها الإيمان بالله وبالرسول كوحدة واحدة لا تنفصل ، ويكفي أن ينطقها الإنسان مرة لتكتب له ، ثم تأتي أركان الصلاة ، والزكاة ، والصوم ، والحج ، والحج ليس ركناً مفروضاً إلا على من يستطيعون . قد لا يكون للإنسان مال يخرج عنه الزكاة ؛ فلا يجب عليه إخراج شيء حينئذ ، وقد يكون الإنسان مريضاً أو مسافراً فلا يصوم

إذن فبعض فروض الإسلام قد تسقط عن المسلم ، إلا الصلاة فهي لا تسقط أبداً ؛ لأن في الصلاة في ظاهر الأمر قطعا لبعض الوقت عن حركة عملك ، وإن كان كل فرض يأخذ مثلاً نصف الساعة ، فالإنسان يقتطع من وقته ساعتين ونصف الساعة كل يوم في أداء الصلاة والوقت عزيز عند الإنسان . ففي الصلاة بذل لبعض الوقت الذي يستطيع أن يكسب الإنسان فيه مالاً ، وفيها أيضا الصوم عن الأكل والشرب ومباشرة الزوجات ، ففيها كل مقومات أركان الإسلام ، لذا فهي لا تسقط أبدا .

﴿ وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَٰبِ وَأَقَامُوا الصَّلَوٰةَ ﴾

(من الآية ١٧٠ سورة الأعراف)

إذن الاستمساك واضح هنا جداً ، وأداء الصلاة تعبير عن الالتزام بالاستمساك بمنهج الإيمان ولذلك سمع من يقول حين ذهبنا إلى مكة والمدينة عشنا الصفاء النفسي والإشراق الروحي ، وعشنا مع التحنن والنور الذي يغمر الأعماق وأقول لمن يقول ذلك إن ربنا هو ربنا هناك ، فقط أنت هناك التزمت ، بسعة كنت تسمع لأذان كنت تحرى وتسعى إلى الصلاة ، وإذا صنعت هنا مثلما وسعت هناك فسترى التجليات نفسها إذن إن صرت على ولاء دائم مع الحق سبحانه وتعالى فالحق لن يضيع أجرك كأحد المصلحين لأنه القائل ﴿ إنا لا نضيع أجر المصلحين ﴾

وهذه قضية عامة ، والحق سبحانه وتعالى لا يضيع أجر المصلح وقوله ﴿ لا نضيع أجر المصلحين ﴾ بعد قوله : ﴿ يمسكون بالكتاب وأقاموا الصلاة ﴾ دليل على أن أي إصلاح في المجتمع يعتمد على من يمسكون بالكتاب ويقيمون الصلاة ؛ لأن المجتمع لا يصلح إلا إذا استلمت أنت صنعتك بمن خلقك وخلق المجتمع ، وأنزل لك المنهج القويم ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾ ﴾

والجبل معروف أنه من الأحجار المتماسكة في بعضها والمكونة لجرم عالٍ قد يصل إلى ألف متر أو أكثر ، والحق يقول عن الجبال ﴿ والجبال أرساها ﴾ ولا يعدل ارساها إلا إذا كان وجد شيء له ثقل ، فأنت لا تقول « أرسيت الورقة على المكتب » ، ولكنك تقول « أرسيت لوح الزجاج على المكتب ليحميه » ، وأنت بذلك ترسي شيئاً له وزن وثقل

وقد أرسى ربنا الجبال وجعلها في الأرض أوتادا، والوَتد - كما نعلم - ممسوك من الموتود والمثبت فيه، بدليل أنه لو تخلخل في مكانهَ نضع له ما نسميه «تخشيبة» لتلصقه وتربطه بما يثبت فيه، وهنا يقول الحق: ﴿ وإذ نتقنا الجبل ﴾ «نتقنا» أي قلعنا، وهناك قول آخر:

﴿ وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا۟ فِى ٱلسَّبْتِ ﴾

(من الآية ١٥٤ سورة النساء)

وقال الحق أيضا:

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ ﴾

(من الآية ٦٣ سورة البقرة)

وهنا اختلاف بين «نتق» و «رفع»؛ لأن الجبل راس في الأرض، وممسوك كالوتد؛ لذلك يحتاج قبل أن يرفع إلى عملية نزع واقتلاع من الأرض، ثم يأتي من بعد ذلك الرفع، و «نتقنا» تعني نزعنا الجبل من مكان إرسائه حتى نرفعه، وقد رفعه الله ليجعل منه ظلة عليهم، أي أن هناكَ ثلاث عمليات: نتق أي نزع وخلع، ثم رفع، ثم جعله سبحانه ظلة لهم، وهذا يحتاج إلى اتجاه في المرفوع إلى جهة ما. والحق يقول: «وإذ» أي اذكر إذ نتقنا الجبل، أي نزعناه وخلعناه من الأرض، ولا ننزعه ونخلعه من الأرض إلا لمهمة أخرى أي لنجعله ظلة، وكان تظليل لغمام رحمة لهم من قبل، وصار الجبل ظلة «عذاب»؛ لأن الحق أنزل لهم التوراة على موسى فقالوا له: إن أحكام هذه التوراة شديدة. وللإنسان أن يتساءل: لماذا كل هذا التلكؤ مع التشريعات التي جاءت لمصلحة البشر؟ وجاء لهم العقاب من الحق بأن رفع فوقهم الجبل كظلة تحمل التهديد كأنه قد يقع فوقهم ﴿ كأنه ظلة وظنوا أنه واقع بهم ﴾.

لذلك نجد أن كل يهودي يسجد على حاجبه الأيسر، على الرغم من أن السجود

يقتضي تساوي وضع الجبهة على الأرض، ولكنهم يسجدون بميل إلى الحاجب الأيسر لأن السابقين لهم رأو الجبل فوقهم وملكهم الخوف من سقوط الجبل، وكانوا يسجدون وفي الوقت نفسه يرقبون الجبل، وبقيت هذه المسألة لازمة فيهم، وصاروا لا يسجدون إلا على حاجبهم الأيسر، بسبب حكاية الجبل الذي نتقه الله وقلعه ورفعه فصار فوقهم. ﴿ وظنوا أنه واقع بهم ﴾

والظن هو رجحان قضية، وقد يأتي ويراد به أنه رجحان قوي قد يصل إلى درجة اليقين، مثل قوله الحق: ﴿ الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم ﴾

وحين بقيت الحالة هذه، وخافوا من الجبل أن يقع عليهم، ولأن هناك كتابا قد أنزل إليهم وهو التوراة وهم يعصون ويتمردون على ما فيه؛ لذلك قال لهم الحق.

﴿ خُذُوا مَآ ءَاتَيْنَـٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾

(من الآية ١٧١ سورة الأعراف)

و« خذوا » فعل أمر، والأمر يقتضي آمرا، ولابد له من شيء يأمر به. وكلمة «القوة» هذه هي الطاقة الفاعلة، والأصل في الكون كله أن تقبل على كل شيء بقوة؛ لأن الكون الذي تراه مسخراً ليس له رأي في أن يفعل أو لا يفعل، بل هو فاعل دائما إذا أمر، وكما قلنا من قبل: لم تعصب الشمس على الناس وقالت: لن أطلع هذا اليوم، وكذلك لم يمتنع الهواء، وأيضا لا يرفض الحمار مثلاً أن يحمل الروث، أو أن يقطعه صاحبه ويأتي له بـ« الموذعة » ليجعله ركوبة متميزة، الحمار إذن لا يعصى هنا ولا يعصى هناك، والكون كله مسخر بقوانين مادية ثابتة.

﴿ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾

(سورة يس)

وقد وضع الحق هذا النظام للكون نظراً لأنه مقهور وليس له تكليف، والمحكوم بالقهرية الكونية صالح للحياة عن المحكوم بالاختيار الفعلي، ومع هذا الاختيار

فالإنسان له أشياء تفعل فعلها فيه ولا يَدْرِى عنها شيئا مع أن بها قوام حياته، فلا أحد يمسك قلبه ويضبطه ويقول له : دق، والرئة كذلك وحركة التنفس، والحركة الدودية في الأمعاء، والحالب، ويرغب الإنسان في دخول دورة المياه عندما تمتلىء المثانة بالبول، كل هذه مسائل رتيبة لا اختيار للإنسان فيها أبدا، والأمور المحكومة بالغرائز ليس لنا فيها اختيار، كأن يأكل الإنسان ويتكلم في أثناء تناول الطعام فتنزل حبة أرز في القصبة الهوائية فيحاول الإنسان أن يطردها بالسعال، هذا اسمه « عريزة » أي أمر غير محكوم بالفعل الاختياري.

وكذلك الحيوان إذا أحضرت له طعاما فهو لا يأكل أكثر من طاقته حتى لو ضربه صاحبه. أما الإنسان فقد يأكل بعد أن يشبع، وحين يقول له مُضيفه – على سبيل المثال – : أنت لم تذق هذا اللون من اللحم، فيأكل. ولهذا نجد أن الأمراض في الانسان أكثر من الأمراض في الحيوان؛ لأن اختيار الإنسان يمتد إلى مجالات متعددة متفرقة قد تضر به وتؤذيه.

ونعرف جميعاً هذا المثال للفارق بين الإنسان والحيوان، نجد الإنسان يغلى النعناع ويشربه، ويطبخ الملوخية ليأكلها، وقد فعل ذلك لأنه اختبر الاثنين، فلم يأكل النعناع وأكل الملوخية، رغم تشابه أوراقهما. لكن هات شجرة النعناع أمام الجاموسة أو الحمار، وهات النجيل الناشف وضع الاثنين أمام الجاموسة أو الحمار، ستجد الجاموسة والحمار يتجهان إلى النجيل الناشف ويتركان نبات النعناع الأخضر الرطب، وهما يفعلان ذلك بالغريزة، فالمحكوم بالغريزة له نظام، ولو كان الحيوان مختارا لارتبكت حركة الحياة كلها واختلطت واشتد على الناس شأنها

وهكذا نعرف أن مقومات الحياة تقوم على قوانين الغريزة، وهذه القوانين موجودة في الكون لتخدمنا نحن بنى البشر. فالكهرباء مثلاً كانت موجودة قبل أن ننتفع بها، لكن بعد ذلك انتفعنا بها، وكذلك الجاذبية، كانت موجودة في الكون منذ الأزل، لكننا لم ننتبه لها، وحين اكتشفناها زادت قدراتنا على الاستفادة منها، وهكذا نرى أن الإنسان واحد من هذا الكون، إلا أنه يتميز بأن له جهة اختيار في

بعض الأمور، وله جهة قهر في البعض الآخر، فهو يشارك الكون في القهر، ويتميز عن بقية المخلوقات - عدا الجن - بالاختيار في أمور أخرى. ونجد على سبيل المثال أن الإنسان الذي يعاني قلبه من ضعف ما، عندما يصعد هذا الإنسان سلماً يبهج ويتابع نَفَسه من الإعياء وكثرة الحركة، لأنّ غريزته للمحكوم بها تُنبه الجسد إلى ضرورة أن تعمل الرئة أكثر لتعطي الأوكسجين الذي يساعد على الصعود.

ومثال آخر، نجد الذكر من الحيوانات يقترب من أنثاه ليشمها، فإن وجدها حاملاً لا يقربها، والحيوان في هذا الأمر مختلف عن الإنسان؛ لأن الحيوان تحركه الغريزة التي تبين له أن العملية الجنسية بين الذكر والأنثى لحفظ النوع، وما دامت الأنثى قد حملت، فالذكر لا يقربها، فاختلف الإنسان عن الحيوان في هذا الأمر؛ فلذة الإنسان في الجنس أعلى من لذة الحيوان؛ لأنها في الحيوان ترضخ للغريزة فحسب، أما في الإنسان فإنها مع الغريزة ترضخ أيضا للاختيار الذي منحه الله للإنسان

ومن رحمة الله - إذن - أن يكون الإنسان مقهوراً في بعض الأشياء ومختاراً في أشياء أخرى، بـ« افعل » و« لا تفعل » حتى يختار بين البديلات.

وهنا يقول الحق: ﴿ خذوا ما آتيناكم بقوة ﴾

أي خذوا ما آتاكم في الكتاب بجد واجتهاد. وكان هذا القول مقدمة لما جاء به العلم في شرح معنى القوة. وقد وصل إلينا خبر العلم قبل أن يصل لنا واقعه المادي، فصرنا نرى الطاقة التي تعطي القوة. وجاء نيوتن ليكشف لنا قانون الجاذبية، القانون الأول والثاني والثالث، واكتشف أن كل جسم يظل على ما هو عليه، فإن كان ساكناً يبقى على سكونه إلى أن يأتي محرك يحركه وإن كان الجسم متحركاً فهو لا يتوقف إلى أن يصدمه صادم أو يمسكه ماسك. وسمّى العلماء هذا التأثير بالقصور الذاتي. أو التعطل، أي أن الساكن يُعَطِّلُ عن الحركة إلا أن يحركه محرك، والمتحرك يُعطِّلُ عن السكون إلا أن يوقفه موقف، فأنت إذا ركبت سيارة وأنت قاعد وساكن والسيارة تسير، فإنك تظل ساكناً، إلى أن يوقفها السائق فجأة فتتحرك من مكانك ما لم تمسك بشيء.

وفى الأسواق نرى الحواة وهم يؤدون بعض الألعاب ليسحروا أعين الناس فيأتى بمنضدة وعليها مفرش لامع وأملس، ثم يضع عليها أطباقاً وأكواباً، ثم يحرك المفرش بحدة لينزعه بهدوء من تحت الأكواب حتى لا تتحرك بحركة المفرش.

وحين جاء نيوتن عقد مقارنة وموازنة بين القوة والحركة والعطالة، وقال: إنّ العطالة تعنى أن الساكن يتعطل عن الحركة، والمتحرك يتعطل عن السكون، وهذه هى القضية المادية فى الكون التى خدمت العلم الفضائى الخاص بسفن الفضاء والصواريخ. ونحن نرى السفن الفضائية ونعتقد أنها تدور فى الفضاء بالوقود، رغم أن حجمها لا يسع الوقود الذى يسيرها لمستويات، والحقيقة أنها تسير بقانون القصور الذاتى أو العطالة إنّها بدون وقود، وهى تندفع إلى الفضاء بقوة الصاروخ إلى أن تخرج إلى الفضاء الكونى، وتظل متحركة ما لم يوقفها موقف. ويرى ذلك فى التجربة اليسيرة حين يطلق إنسان رصاصة من مسدس فتنطلق الرصاصة بقوة الطلقة مسافة ثم تقع إن لم يوجد حاجز يصدها، وهى تقع بعد مسافة معينة؛ لأن الهواء يقابلها فيصادم الحركة إلى أن تتوقف، أما فى الفضاء الخارجى فليس هناك هواء؛ لذلك لا تتوقف سفينة الفضاء، لأنها تسير بقانون القصور الذاتى أو لعطالة.

وهذه السفن الفضائية تعتمد فى صعودها إلى الفضاء على الصواريخ لتصل إلى المدار الخارجى. والصواريخ تسير بالغاز المتفلت الذى أخذ القانون الثالث من قوانين نيوتن، وهو القانون القائل. إن كل فعل له رد فعل يساويه ومضاد له فى الاتجاه، وحين يسخن هذا الغاز المتفلت يخرج من خلف الصاروخ بقوة فيدفع الصاروخ للأمام.

وهكذا نرى قول الحق: ﴿ خذوا ما آتيناكم بقوة ﴾ فى الواقع المادى والواقع القيمى. وانظر إلى غير المتدينين تجدهم ساكنين فى بعض الأمور ولا يتحركون عنها ولا يجاوزونها، فالواحد منهم لا يصلى، ولا يزكى، ولا يقول كلمة معروف، وهو فى ذلك يحتاج إلى قوة تحرك سكونه عن طاعة الله ونجد أيضاً من غير المتدينين من يشرب خمرة. أو يزنى أو يسرق أو يرتشى. وهو هنا يحتاج إلى قوة لتصده

عن مثل هذه الحركة . ولذلك نقول . إن الإنسان في أفعاله الاختيارية يحتاج إلى أمرين : الأول إن كان ساكناً عن فعل الخير نأت له بقوة تحركه إلى هذا الخير ، وإن كان متحركا إلى الشر نأت له بقوة توقفه عنه . وهذا هو ما يقدمه المنهج الإيماني في « افعل » ، و « لا تفعل » . فمن يتراخى عن الصلاة وسكن عنها نقول له صلِّ ومن يذهب للقمار ويتحرك إليه لا يمكن أن يقف إلا إذا جاءت له قوة توقفه عن ذلك وتمنعه ، إذن فالقوة الشرعية تكون في المنهج بـ «افعل » ليحرك الساكن ، و « لا تفعل » ليقف المتحرك شريطة أن يكون كل من السكون والحركة في ضوء المنهج .

ولنعرف أن الله سبحانه وتعالى يسخر لنا الكافرين ليبينوا لنا المستغلق علينا في قوانين الكون ، فقد اكتشفوا قوانين القوة المادية وفهمناها نحن في إطار الماديات والمعنويات ، وليس اكتشاف الكافرين للقوانين في الكون مدعاة للكسل والاعتماد عليهم ، بل علينا أن نشحذ الهمم لنتقدم في العلم الذي يُسير أمور الحياة ، ولنعلم أنه لا شيء يشيء فينا فطرة جديدة ؛ لأن البشر من قديم مفطورون على الفطرة السليمة التي تلفتهم إلى أن لهذا العالم صانعاً ، فكل ذراتنا وكل اتجاهاتنا تؤكد لنا وجود إله واحد . بل إن الفلاسفة حينما بحثوا وراء المادة تأكد لهم ذلك ، وأغلب الفلاسفة كانوا غير مؤمنين ، وهم ببحثهم وراء المادة إنما يبحثون عن الخالق الأعظم ؛ لأن الإنسان لا يبحث عن شيء لا يظن وجوده . ولأنهم جميعا يعلمون أن الإنسان طرأ على كون ، وهذا الكون مقام بهندسة حكيمة ، ومخلوق بقوة لا تستطيع قوى البشر جميعا أن تأتي بمثلها ، إذن لابد لهذا الكون من خالق .

لقد بيّنا أن القوانين التي تظهر لنا في المادة تتماثل مع قوانين القيم ، إلا أن الناس يتهافتون على قانون المادة لأنها تحقق لهم خيراً أو تدفع عنهم شراً ، فيأخذون ما ينفعهم ويدعون ويتركون ما يضرهم ، ولذلك احتاج الإنسان إلى منهج من السماء ليوضح ويبين له قوانين القيم التي تحقق له السعادة العاجلة في الدنيا والآجلة في الآخرة ، أما قوانين المادة في الأرض فتركها الله لنشاط العقل ، حتى الذين لا يؤمنون بالله يذهبون إلى قوانين المادة ويصنعونها ، وينهربون من قوانين القيم لأنها تحد من شهوات النفس ، وتتعب بمشقة التكليف ، فشاء الحق

سبحانه وتعالى أن يقول فيها :

﴿ خُذُوا مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾

(من الآية ١٧١ سورة الأعراف)

وأراد الحق سبحانه وتعالى أن يعطى من قانون المادة ما يقرب لنا قوانين القيم فى الفعل ورد الفعل، لنفهم أن كل حركة للشر قد تحبها النفس لأنها تحقق لها شهوة من شهواتها، لكن يجب ألا يغيب عن ذهنك أيها الإنسان أن لكل فعل رد فعل مساوياً له فى الحركة ومضاداً له فى الاتجاه، فإن كنت ترتاح فى هذا العمل وتحبه وتشتهيه فتذكر جيداً رد الفعل الذى يأتيك بالعقاب عليه، وكذلك مشقات التكليف، حين تفعل الطاعة تكون صعبة عليك ولكن يجب أن تذكر رد الفعل فيها وهو الراحة وحسن الثواب، ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ كُلُوا وَٱشْرَبُوا هَنِيٓـًٔا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾ ﴾

(سورة الحاقة)

وفى هذا القول فعل ورد فعل، الفعل هو العمل الصالح فى الأيام التى مضت، ورد الفعل هو الطعام والشراب الهنيء فى الآخرة. ولمن اغتر واعتز بنفسه وجبروته وقوته يقول له الحق :

﴿ فَلْيَضْحَكُوا۟ قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا۟ كَثِيرًا ﴾

(من الآية ٨٢ سورة التوبة)

وهكذا نجد البكاء الكثيف الشديد الكثير نتيجة للضحك القليل. ويأتى الإنسان من هؤلاء يوم القيامة ليقال له :

﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ ﴾

(سورة الدخان)

إن كنت قد فهمت أنك عزيز كريم فأسأت إلى الناس فلسوف تلقى العقاب.

ولذلك يقول لنا الحق عن المنهج : ﴿ واذكروا ما فيه لعلكم تتقون ﴾ . وإياكم أن تطرأ عليكم العملة من هذه الناحية، فالذى يتعب الناس فى مناهج الله أنهم يغفلون عنه ؛ لأن الطاعة تكلفهم مشقة وبعض عناء، والمعاصى تكسبهم لذة وشهوة، فأوضح الحق : اذكروا جيدا الفعل ورد الفعل فى هذه القيم

ونعلم أن للذكر يحتاج إلى أشياء كثيرة جدا، فالواعظ مثلاً يذكرهم دائماً، وقلنا إن « الوعظ » هو نوع من إعادة التذكير بالإعلام بالحكم، فأنا أعظ من عَلِمَ الحكم ؛ لأنى أريد أن يفعله. فبعد أن علمه الموعوظ علماً فقط يريد منه الواعظ أن ينفذه عملياً. فكلنا نعلم أن الصلاة ركن، وأن الحج ركن، والزكاة ركن من أركان الإسلام، وكلنا جاءنا العلم بذلك، لكن منا من يكسل فى تطبيق هذا العلم. ونظل ندق على دماغه بالتذكير والوعظ، وهذا من خيرية أمته صلى الله عليه وسلم :

﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾

(من الآية ١١٠ سورة آل عمران)

ولماذا هذا التذكير ؟ . يجيب الحق .

﴿ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ﴾

(من الآية ١١٠ سورة آل عمران)

الأمر بالمعروف عظة قولية، والنهى عن المنكر عظة قولية، ويمددها الرسول صلى الله عليه وسلم لبقاء التذكير، وليأخذ كل مسلم منهج الله بقوة، فيقول فى الحديث :

« من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، وإن لم يستطع فبقلبه وهذا أضعف الإيمان »[1]

إذن فقد نقل الرسول المسألة من الأمر وهو القول والنهى وهو قول أيضاً إلى أمر ونهى فعلاً، فإن لم يستطع الإنسان منا تغيير المنكر بلسانه أو بيده فليكره بقلبه، ولنجد القرآن قد جاء بها أمراً ونهياً، والرسول جاء بها فعلاً، لأن هناك فرقاً بين

(١) رواه مسلم

المعلومة التي تدخل الذهن، وحمل النفس على مطلوب المعلومة. ولذلك نحن ندرس الدين في مدارسنا، وندرس فيها أيضا الجبر والهندسة، والكيمياء، والطبيعة، والمتعب ليس تدريس الدين، بل الذي يتعب الناس هو حمل النفس على مطلوب الدين. لكن التلميذ حين يتعلم الجبر والهندسة أو الكيمياء، فهذه علوم تعطي الإنسان خير الدنيا فيذهب لها، لكن مسألة الدين مسألة قيم؛ لذلك لا يكفي أن نعلم الدين بل لابد أن تنفذ ذلك العلم، وتنفيذ هذه المسألة يكون بالتطبيق في سلوك من أسوة حسنة وقدوة طيبة.

وعجب أن الذي يُعلم الدين يدرسه معلومة ويدخلها في نفوس التلاميذ، ثم لا يجدون من أثر هذه المعلومة نصحاً على سلوك مَن علَّمها، ماذا يكون الموقف؟. هنا تضعف ثقة التلميذ في أستاذه، وتضعف ثقته في الدين؛ لأنه لم ير من الدين إلا كلاماً يقال، بدليل أن من يقولونه لا ينفذونه، وفي هذا فشل في تعليم منهج الدين. والخطأ إذن في أن الناس يظنون أن منهج الدين يقف عند تعليم المعلومات الدينية، لا. إن تعليم الدين يقتضي تنفيذ ما فيه من معلومات، عكس العلوم الأخرى التي تعطي المعلومة فقط. وإن أراد الإنسان أن ينتفع بها في حياته انتفع، وإن لم يرد فهو حر في ذلك.

إذن فالتذكير مرة يكون بالأمر بالمعروف وبالنهي عن المنكر، ومرة يكون بالفعل، «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه»، وماذا يعني التغيير باللسان؟. يعني أن الإنسان إن كان عنده حسن تأدٍ واستعداد للعظة ومعرفة أدب النصح فله أن يقبل على تناول العظة. وليس كل إنسان صالحا لأن ينصح؛ لأن المنصوح يخالف المنهج، والناصح يقف أمامه حتى لا يخالف المنهج، إنه يخرجه عما ألف وأحب. لذلك يجب أن يتلطف الناصح في النصح.

ومثال ذلك نجد الطبيب حين يذهب إليه المريض يصف له الدواء، والدواء قديماً كان كله مراً. وكانت الناس تأخذ الدواء بصعوبة، ويمسك الكبار الأطفال ليعطوهم الدواء. وحين ارتقت صناعة الدواء، قام الصيادلة بتغليف جرعة الدواء بغلاف يحجب المرارة. ليلتطفوا مع مريض الجسم، فما بالنا بمريض القيم؟. إنه يحتاج إلى المسألة نفسها. لذلك لابد أن نجعل النصح خفيفاً، ولا نجمع على المنصوح سيء

أن نخرجه عما ألف وما يكره من الأساليب، ولذلك قلنا : إن النصح ثقيل، لأنك حين تنصح إنسانا فمعنى ذلك أنك افترضت أنك أفضل سلوكاً منه، وهو أقل منك في ذلك، وهذا هو أول مطب، ويخطر لك المنصوح على أنك تتهم أحسن منه. ولهذا قالوا في الأثر : النصح ثقيل فلا ترسله حبلا، ولا تجعله جدلاً. وقيل أيضا: الحقائق مرة فاستعيروا لها خفة البيان. هكذا يكون التذكير، وإن لم تستطع أن تمنع بالفعل فامنع بالقول؛ لأن التغيير باليد يحتاج إلى سلطة المغيِّر على المغيَّر، وهذا لا يأتي إلا بأن يكون للمغير مقدمة وسابقة مع المغيَّر يثبت فيها المغيِّر أنه يحب مصلحة المغيَّر. وقد يكون ذلك وارداً من غير أن تقول كأن تكون أبه أو أمه، والأب والأم يقومان برعاية الابن، وتلبية احتياجاته طعاماً ومشرباً ومسكناً ومصروفاً. وكل منهما هو المتولي لمصالح الابن. وإذا كان الناصح ليس له هذه الصلة بالمنصوح، فعليه أن يتلطف له أولاً بما يحب فحين يطلب منك أمراً تقوم بإجابته إلى طلبه، وتنبهه بعد ذلك إلى ما تريد أن تنصحه إنك قد قدمت له شيئا من المعروف فيتحمل منك النصح.

ومثال آخر : افرض أن ابنك قد طلب منك أن تحضر له ساعة، وبعد ذلك قالت لك أمه : إنه لم يستذكر دروسه حتى الآن. ثم تأتي له بالساعة وتقول له يا ولد أنت أردت مني ساعة وأحضرتها لك، وتناولها له وتقول : إن أمك قالت لي إنك غير مهتم بدروسك، ولو تذكرت قولها لما أحضرت لك الساعة. وقد توجه له توبيخاً فيضحك لأنك قد حننت قلبه، وبينت له أنك تحبه فيقبل النصح، حتى ولو صنعته قد يقبل لأنه يعلم أنك تحب مصلحته. إذن لتذكير ألوان متعددة : عظة بالقول، وتغيير بالفعل وإنكار بالقلب.

﴿ واذكروا ما فيه لعلكم تتقون ﴾ والأصل في التقوى أن تتقي شيئاً شيء ؛ تتقي مؤلماً بجعل وقاية بينك وبينه، وهي تأتي كما علمنا في المتقابلات ؛ فالحق سبحانه يقول :

﴿ وَٱتَّقُوا ٱلنَّارَ ٱلَّتِيٓ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿١٣١﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

وهو سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾

(من الآية ١٨٩ سورة البقرة)

(ومن الآية ١٣٠ سورة آل عمران)

ونجد من يتساءل : كيف يقول : «اتقوا الله»، و«اتقوا النار»؟

نقول : نعم؛ لأن اتقوا الله تعني اتقوا غضب الله عليكم، واتقوا عذاب الله لكم بأن تجعلوا بينكم وبين عقابه وقاية، ولابد أن تجعل بينك وبين النار وقاية؛ لأن الحق سبحانه وتعالى كما علمت له صفات جلال وصفات جمال، وصفات الجمال هي التي تسعد الإنسان بكونه - سبحانه - "غفوراً"، و"رحيماً"، "باسطاً"، وكما أن لله صفات جمال تعطيك الرغبة والإقبال عليه - سبحانه - فله صفات جلال تعطيك الرهبة، فهو - جل شأنه - جبار ومنتقم فاتق الله حتى تحجب عن نفسك متعلقات صفات الجلال التي منها جبار ومنتقم.

ويقول الحق بعد ذلك:

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴾

١٧٢

وإذ تنصرف إلى الزمن، أي اذكر وقت أن أخذ الله من بني آدم، والآخذ هو الله، والمأخوذ منه بنو آدم، والشيء المأخوذ هو ذريتهم، هذه هي العناصر. ولنتأمل

ذلك بدقة، إن الرب هنا هو الآخذ، وبنو آدم مأخوذ منهم، والمأخوذ هو الذرية. وبنو آدم هم أولاد آدم من لدنه إلى أن تقوم الساعة، وهنا نجد المأخوذ والمأخوذ منه، ولابد أن نرى تصريفاً في هذا النص؛ لأنه يشترط أن يكون المأخوذ منه كلاً، والمأخوذ بعضه

والمثال : إن أنا أخذتُ منك شيئاً، فالمأخوذ منه هو الكل، والمأخوذ بنفسه هو البعض. لكننا هنا نجد المأخوذ هو عين المأخوذ منه، وأزال سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا الإشكال في هذه الآية فقال صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عنه أبو هريرة رضي الله عنه :

(لما خلق الله آدم مسح ظهره، فسقط من ظهره كل نسمة هو خالقها إلى يوم القيامة. وجعل بين عيني كل إنسان منهم وميضاً من نور ثم عرضهم على آدم، فقال : أي رَبِّ. من هؤلاء ؟ قال : هؤلاء ذريتك. فرأى رجلاً منهم. فأعجبه وميض ما بين عينيه. فقال : أي رب . من هذا ؟ قال : هذا رجل من آخر الأمم من ذريتك، يقال له داود، فقال : رب كم جعلت عمره؟ قال : ستين سنة . قال : أي رب رده من عمري أربعين سنة، فلما قُضي عُمُر آدم جاءه ملك الموت. فقال : أو لم يبْقَ من عُمُري أربعون سنة؟ قال : أولم تعطها ابنك داود؟ قال : فجحد آدمُ فجحدتْ ذُريته، ونسي فسيت ذريته. وخطئ آدم فخطئت ذريته)[1] .

إذن ذرية آدم أخذت من ظهر آدم. وعرفنا من قبل أنّ كُلاً منا قبلَ أن تحملَ به أمّه كان ذَرّةً في ظهر أبيه ، وأبوه كان ذرّة في ظهر أبيه حتى آدم. وهكذا نجد أنَّ كل واحد مأخوذ من ظهره ذرية، هناك أناس يؤخذون- كذرية- ولا يؤخذ منهم ، مثل من فرض عليهم الله أن يكون الواحد منهم عقيماً، وكذلك آخرُ جيل تقومُ عليه الساعة، ولن ينجبوا. وآدم مأخوذ منه لأنه أول الخلق، وهو غير مأخوذ من أحد. وما بين الأب آدم وآخر ولد؛ مأخوذ ومأخوذ منه. وبذلك يكون كل واحد مأخوذ ومأخوذ منه، وهكذا يستقيم المعنى.

(١) رواه الترمذي في سننه وقال حديث حسن صحيح.

والمأخوذ منه آدم ثم كل ولد من أول أولاد آدم إلى الجيل الأخير الذى سينقطع عن النسل.

وأوضح النبى صلى الله عليه وسلم : أن ربنا سبحانه وتعالى مسح بيده على ظهر آدم وأخرج منه الذرية، وقال لهم ألست بربكم؟ قالوا . بلى. وبهذا علمنا أن كل ذرة من الذرات قد أخذت مما قبلها، وأخذ منها ما بعدها؛ وكلها مأخوذ ومأخوذ منه. اللهم إلا القوسين؛ القوس الأول : آدم لأنه مأخوذ منه وليس مأخوذاً من شيء، والقوس الثانى : آخر ولد من أولاده مأخوذ وليس مأخوذاً منه؛ لأن الإنسان منا وُجد من حيوان أبيه المنوى. ولو أن الحيوان المَنوىّ أصابه موت لما أنجب الأب. ومن ولد من حيوان مَنوىّ لأب، هذا الأب مأخوذ من حيوان مَنوىّ حىّ من الخلد أيضاً، وسلسلها إلى آدم، ستجد أن كل واحد مما فيه جرىء حىّ من لدن آدم لن يدركه موت أبداً.

لذلك يقول ربنا :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ﴾

(من الآية ١٧٢ سورة الأعراف)

ولا تقل إن الكل سيكون فى ظهره؛ لأن المأخوذ منه هو الأساس الموجود فى ظهره، ومادام كل شيء يتكاثر فهو قد وجد من أقل شيء ونعلم أن الأقل يوجد فيه الأكثر مطموراً. وقد أخذ ربنا من ظهور بنى آدم الذرية وخاطب الذرية بقوله تعالى : ﴿ ألست بربكم ﴾ ؟.

وهنا قد يقول قائل : أكان لهذه الذرية القدرة على النطق؛ إنها ذرية تنتظر التكوين الآخر؛ لتتحد مثلاً "البويضة" فى رحم الأم ؟ فنرد عليه ونقول : لماذا تظن أن محاطبة ربنا لهم أمرٌ صعب ؟ إن الواحد من البشر يستطيع أن يتعلم عَشْرَ لغات، ويتزوج من أربع سيدات، وكل سيدة ينجب منها ذرية، ويقعد يوماً عند سيدة وفريتها ويعلمها اللغة الإنجليزية مثلا، ويجلس مع الأخرى ويعلمها اللغة الألمانية، ويعلم الثالثة وأولادها اللغة العربية ومكذا، بل يستطيع أن يتفاهم حتى

بالإشارة مع من لا يعرف لغته. وإذا كان الإنسانُ يستطيع أن يعدد وسائل الأداء، ألا يقدر أن يعدد ربنا وسائل الأداء لمخلوقاته ؟ إنه قادر على أن يعدد ويخاطب، ألم يقل الحق تبارك وتعالى للجبال :

﴿ يا جبال أوبي معه ﴾

(من الآية ١٠ من سورة سبأ)

كيف إذن لا يتسع أفق الإنسان لأن يدرك أن الله قادر على أن يخاطب أياً من مخلوقاته؟. إنه قادر على أن يخاطب كل مخلوق له بلغة لا يفهمها الآخر. وهو القائل سبحانه :

﴿ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ ﴾

(من الآية ٧٩ من سورة الأنبياء)

ونعلم من القرآن الكريم كذلك أن الجبال تسبح أيضاً من غير داود، شأنها شأن المخلوقات جميعها مصداقاً لقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾

(من الآية ٤٤ من سورة الإسراء)

وحتى ذرات يد الكافر تسبح، وإن كان تسبيحها لا يوافق إرادته.

وقول الحق سبحانه : ﴿ وسخرنا مع داوود الجبال يسبحن ﴾

يبين لنا أن الجبال كانت ترد تسبيح داوود وتلاوته للزبور، ولا يقتصر أمر الحق إلى الجبال بل إلى كل مخلوق، فنحن - على سبيل المثال - نقرأ في القرآن الكريم أن ربنا أوحى إلى النحل أن اتخذي من الجبال بيوتاً ومن الشجر ومما يعرشون. إذن فالله مع خلقه أدوات خطاب ؛ لأنه هو الذي خلق الكون والمخلوقات، وله سبحانه خطاب بألفاظ، وخطاب إشارات، وخطاب إلهام، وخطاب بوحي، فإذا قرأنا أن الحق تبارك وتعالى قال لذرية آدم : ألست بربكم ؟ فهذا يعني أنه قالها

لهم باللغة التى يفهمونها، لأنه هو سبحانه الذى قال للسماء و لأرض:

﴿ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴾

(من الآية ١١ من سورة فصلت)

ولقد تكلمت النملة وفهم سليمان كلامها، ولو لَمْ يُعْلِم اللهُ سليمانَ كيف يفهم كلامها لما عرفنا أنها تكلمت.

﴿ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ ﴾

(من الآية ١٨ من سورة النمل)

إنها تفهم ما يفعله البشر حين يدوسون على كائنات صغيرة دون أن يروها، ولكن سليمان نبى من أنبياء الله، ولن يعتدى على خلق الله، والنملة التى تكلمت كانت تحرس بقية النمل. وكذلك تكلم الهدهد ليخبر سيدنا سليمان عن مملكة سبأ وحالة بلقيس وقومها.

إذن فالله عز وجل يخاطب جميعَ خلقه، ويجيبُه جميعُ خلقه، فلا تقل: كيف خاطب المولى سبحانه الذر، والذر لم يكن مكلماً بعد؟ ولم يحاول العلماء أن يدخلوا فى هذه المسألة؛ لأنها فى ظاهرها بعيدة عن العقل، ويكفى أن ربنا الخالق القادر قد أبلغنا أنه قد خاطب الذرات قائلا: ألست بربكم؟. قالوا: بلىَ. ويبدو من هذا القول أن المسألة تمثيل للفطرة المودعة فى النفس البشرية. وكأنه سبحانه قد أودع فى النفس البشرية والذات الإنسانية فطرةً تؤكد له أنَّ وراءَ هذا الكون إلهاً خالقاً قادرا مدبرا.

وقديماً قلنا: هب أنَّ طائرةً وقعت بك فى صحراء، وحين أفقت من إغماءة الخوف؛ فكّرت فى حالك وكيف أنك لا تجد طعاماً أو شراباً أو أنيساً، وأصابك غمٌّ من هذه الحالة فنمت، ثم استيقظت فوجدت مائدة عليها أطايب الطعام والشراب، ألا تلتفت لتسأل من الذى أقام لك هذه المأدبة قبل أن تمد يدك إلى أطايب الطعام؟. كذلك الإنسان الذى طرأ على هذا الكون الحكيم الصنع؛ البديع

التكوين؛ ألا يجدر به أن يسأل نفسه من خلق هذا الكون ؟.

إننا نعلم أن المصباح الكهربي احتاج لصناعته إلى علماء وصناع مهرة كثيرين وإلى إمكانات لا حصر لها لينير هذا المصباح حجرة محدودة ، وحين نرى الشمس تنير الكون كله، ولا يصيبها كلل أو تعب ولا تحتاج منا إلى صيانة ، ألا نسأل من صنعها ؟. وخصوصاً أنْ أحداً لم يدَّع أنه قد صنعها، وقد أبنا لمولى سبحانه وتعالى بأنه هو الذي خلق الأرض وخلق الشمس وخلق القمر ، فإما أن يكون هذ الكلام صحيحاً ؛ فنعبده ، وإما لا يكون الكلام صحيحاً فنبحث عمن صنع وخلق الكون لنعبده .

وبما أن أحداً لم يَدَّع لنفسه صناعة هذه الكائنات ، فهي تسلم لصاحبها وأنه لا إله إلا الله. إذن فالفطرة تهديك أن وراء هذا الكون العظيم قدرةً تناسب هذه العظمة؛ قدرة تناسب الدقة؛ هذه الدقة التي أخذنا منها موازين لوقتنا؛ فقد أخذنا من الأفلاك مقياساً للزمن؛ ولولا حركة الأفلاك التي تنظم الليل والنهار؛ لما قسمنا اليوم إلى ساعات، ولولا أن حركة الأفلاك مصنوعة بدقة متناهية؛ لما استطعت أن تَعُدَّها مقياساً للزمن، وحينما نستعرض قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ۝٥ ﴾

(سورة الرحمن)

نجد أن كلمة "بحسبان" وردت مرتين ، فقد أبلغنا الحق سبحانه وتعالى : أنه جعل الشمس والقمر بحسبان، أو حسبان، وهما من الآيات الدالة على كمال قدرته وعظيم سلطانه ولم يخلقهما عبثا بل لحكمة عظيمة.

﴿ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ﴾

(من الآية ٥ سورة يونس)

فقد أخذنا من دوره الشمس والقمر مقياساً، ولم نكن لنفعل ذلك إلا إن كانت مخلوقة بحساب؛ لأن الكون مصنوع ومخلوق على هذه الدرجة من الدقة

والإحكام، لهذا يجب أن نلتفت إلى أن هناك قدرة وراء هذا العالم تناسب عظمته. لكن أنعرف ماذا تريد هذه القوة بالعقل ؟ إن أقصى ما يهدينا العقل هو أن نعرف أنَّ هناك قوةً ولا يعرف العقل اسم هذه القوة، وكذلك لم يعرف العقل مطلوبات هذه القوة، وكان لابد أن يأتي لنا رسولٌ من طرف تلك القوة ليقول لنا مرادَها ، وجاء الموكب الرسالي فجاءت الرسل ليبلغ كلُّ رسول مرادَ الحق من الخلق، فقال كلُّ رسول " إن اسم القوة التي خلقتكم هو اللهَ، وله مطلق التصرف في هذا الكون ، ومراد الحق من الخلق تعمير هذا الكون في ضوء منهج عبادة الحق الذي خلق الإنسان والكون. وكل هذه أمور ما كانت لتدرك بالعقل.

وهكذا نعلم أن منتهى حدود العقل هو إيمانٌ بقوة خالقة وراءَ هذا الكون ، وتستوي العقول المطرية في هذه المسألة. أما اسم القوة والمنهج المطلوب لهذا الاله فلابد له من رسول .

وأرهق الفلاسفة أنفسهم في البحث عن هذه القوة ومرادها. وسموا مجال البحث "الميتافيزيقا" أي "ماوراء الطبيعة" وعادة ما يقابل الفلاسفة من يسألهم من أهل الإيمان . ومن الذي قال لكم إن وراء المادة قوة يجب أن تبحثوا عنها؟.

وغالباً ما يقول الفيلسوف منهم : إنها الفطرة التي هدتني إلى ذلك. وتشعبت الفلسفة إلى مدارس كثيرة. وحاول أهل الفلسفة أن يتصوروا هذه القوة، وهذا هو الخلل؛ لأن الإنسان يمكنه أن يعقل وجود القوة الخالقة، ولا يمكن له أن يتصورها وغرق الكثيرون من الفلاسفة في القلق النفسي المدمِّر. وأنقذ بعضهم نفسه بالإيمان. وكان يجب على كل فيلسوف أن يرهف أذنه ويسمع ما قاله الرسل ليحلّوا لنا هذا اللغز، بدلاً من إرهاق النفس بالخلط بين تعقل وجود قوة وراء المادة، وبين تصور هذه القوة.

وإنني في هذا الصدد أضرب هذا المثل وأرجو ألا تنسوه أبداً : إننا إذا كنا قاعدين في حجرة، والحجرة مغلقة الأبواب. ودق الجرس وكلنا يجمع على أن طارقاً بالباب؛ وهذا الشيء المجمع عليه من الكل يَعدُّ تعقلاً، لكن أنستطيع

أن نتصور من الصدق ؟ رجل ؟ امرأة؟ شاب ؟ شيخ ؟. المؤكد أننا سنختلف في التصور وإن اتحدنا في التعقل

ونقول للفلاسفة : أنتم أولى الناس بأن ترهفوا آذانكم لمجيء رسول يحل لكم لغز هذا الكون ، واسم القوة التي وراء هذا الكون، ومطلوب منه لقمة عيش.

والحق سبحانه وتعالى يهدينا إلى هذا عبر الرسل، ويقول هنا :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا ﴾

(من الآية ١٧٢ سورة الأعراف)

وهذه شهادة الفطرة، ونحن نرى أن الفطرة تكون موجودة في الطفل المولود الذي يبحث بفمه عن ثدي أمه حتى ولو كانت نائمة ويمسك الثدي ليرضع بالفطرة وبالغريزة، وهذه الفطرة هي التي تصون الإنسان مما في حياته كثيرة، وفي رد الفعل الانعكاسي ؛ مثال ذلك حين تقرب أصبعك من عين طفل، فيغمض عينيه دون أن يعلمه أحد ذلك

وقد أشهدنا الحق على وحدانيته ونحن في عالم الذر

﴿ وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا ﴾

ويقال " أشهدته " أي جعلته شاهداً ، والشهادة على النفس لونٌ من الإقرار، والإقرار سيد الأدلة ؛ لأنك حين تُشهد إنساناً على غيره ، فقد يغيّر الشاهد شهادته ، ولكن الأمر هنا أن الخلق شهدوا على أنفسهم وأخذ الله عليهم عهد الفطرة خشية أن يقولوا يوم القيامة

﴿ إنا كنا عن هذا غافلين ﴾

فحين يأتي يوم الحساب، لا ندعي أن يقول أحد بأني كنت غافلاً.

ويتابع المولى سبحانه : وتعالى قوله :

﴿ أَوْ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ ﴾

كأن الحق يريد أن يقطع عليهم حجة مخالفتهم لمنهج الله ، فينبه إلى عهد الفطرة والطبيعة والسجية المطمورة فى كل إنسان ، حيث شهد كل كائن بأنه إلهٌ واحدٌ أحَدٌ ، ويذكرنا سبحانه بهذا العهد الفطرى قبل أن توجد أغيار الشهوات فينا.

﴿ ألست بربكم قالوا بلى ﴾ وهل كان أحد من الذر وهو فى علم الله وإرادته وقدرته يجرؤ على أن يقول : لا لست ربى ؟. طبعاً هذا مستحيل ، وأجاب كل الذر بالفطرة " بلى " . وهى تحمل نفى النفى ، و نفى النفى إثبات مثل قوله الحق .

﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨﴾ ﴾

(الآية ٨ سورة التين)

و" أليس " للاستفهام عن النفى ، ولذلك يقال لنا - حين تسمع " أليس " عليك أن تقول " بلى " وبذلك تنفى النفى أى أثبتّ أنه لا يوجد أحكم الحاكمين غير، سبحانه ، وهنا يقول الحق : " ألست بربكم " ؟ وجاءت الإجابة : بلى شهدنا . ولماذا كل ذلك ؟ قال الحق ذلك ليؤكد لكل الخلق أنهم بالفطرة مؤمنون بأن الله هو الرب ، والذى جعلهم يغفلون عن هذه الفطرة تحرك شهواتهم فى نطاق الاختيار ، ومع وجود الشهوات فى نطاق الاختيار إن سألتهم من خلقهم؟ يقولون : الله . ومادام الله هو الذى خلقهم فهو ربهم.

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾

(من الآية ٦١ سورة العنكبوت)

وجاء الحق بقصة هذه الشهادة حتى لا يقولن أحدٌ : ﴿ إنى أشرك آباؤنا من قبل ﴾

وبذلك نعلم أن أعذار العاصين وأعذار الكافرين التى يتعللون ويعتذرون بها تنحصر فى أمرين اثنين : الغفلة عن عهد الذر، وتقليد الآباء.

وما الغفلة؟ وما التقييد؟. الغفلة قد لا يسبقها كفر أو معصية، ويقلدها الناس الذين يأتون من بعد ذلك. و لمثال الواضح أن سيدنا آدم عليه السلام قد أبلغ أولاده المنهج السوى المستقيم لكنهم غفلوا عنه ولم يعد من اللائق أن يقول واحد منهم إن أباه قد أشرك. ولكن جاء هذا الأمر من الغفلة ، ثم جاء إشراك الآباء فى المرحلة الثانية ؛ لأن كل واحد يو قلد أبه فى الإشراك ؛ لانتهى الشرك إلى آدم، وآدم لم يكن مشركاً ، لكن الغفلة عن منهج الله المستقيم حدثت من بعض بنى آدم ، وكانت هذه الغفلة نتيجة توهم أن هناك تكاليف شاقة يتطلبها المنهج، فذهب بعض من أبناء آدم إلى ما يحبون وتناسوا هذا المنهج ولم يعد فى بؤرة شعورهم ؛ لأن الإنسان إنما ينفذ دائماً الموجود فى بؤرة شعوره . أما الشىء الذى سيكلفه مَشقَّة فهو يحاول أن يتناساه ويغفل عنه ، هكذا كانت أول مرحلة من مراحل الانفصال عن منهج الله وهى الغفلة فى آبائهم. وهنا يضاف عاملان اثنان : عامل الغفلة ، وعامل الأسوة فى أهله وآبائه. ولم تكن القضايا الإيمانية فى بؤرة الشعور، ولذلك يقال : الغالب ألا ينسى أحد ما له ولكنه ينسى ما عليه؛ لأن الإنسان يحفظ ما له عند غيره فى بؤرة الشعور، ويُخرج الإنسان ما عليه بعيداً عن بؤرة الشعور. ولأن البعض قد يتصور أن فى التكليف الإيمانى مشقة ، لذلك فهو يحاول أن يبعد عنه ويتناساه، وكذلك يحاول هذا البعض أن ينأى بنفسه عن هذه التكاليف.

وتأخذ المثل من حياتنا : قد نجد إنساناً مَديناً لمحل بقالة أو بتجار وليس عنده مال يعطيه له، لذلك يحاول أن يبتعد عن محَل هذا البقال، أو أن يسِّير بعيدا عن

أعين النجار. وهكذا يكون افتعال الغفلة فى ظاهره هو أمراً منجياً من مشقات التكاليف، لكن البشر فى ميثاق الذر قالوا: ﴿بلى شهدنا﴾

وقد أخذ ذلك العهدُ عليهم، وأقرُّوا به واستشهد الحقُّ بهم، على أنفسهم حتى لا يقولوا يوم القيامه ﴿إنا كنا عن هذا غافلين﴾ لأنه لا يصح أن نغفل عن هذا العهد أبداً، ولكنَّ الحقَّ تبارك وتعالى عرَفَ أنَّا بشرٌ، وقال فى أبينا آدم،

﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ﴾

(من الآية ١١٥ من سورة طه)

ومادام آدم قد نسى، فسيأتى يقع عليه حيث بيّن وأوضح لنا الإسلام أن الأمم السابقة على الإسلام تؤخذ بالنسيان، وجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم بخبر واضح: فقال عليه الصلاة والسلام:

(رفع عن أمتى الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه) (١).

والخطأ معلوم، كأن يقصدَ الإنسانُ شيئاً ويحدث غيرُه، والنسيانُ ألاَّ يجيءَ الحكمُ على بال الإنسان. والمُكْرَهُ هو من يقهره من هُو أقوى منه بفقدان حياته أو بتهديد حريته وتقييدها مالم يفعل ما يؤمر به، وفى الحالات الثلاث يرفع التكليف عن المسلم. وذكر الرسول صلى الله عليه وسلم أن الله أكرم الأمة المحمدية بصفة خاصة برفع ما ينساه المسلم وهذا دليل على أن من عاشوا قبل بعثة رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا يؤاخذون به. وإذا سلسلنا ما قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم نصل إلى سيدنا آدم الذى خُلق بيد الله المباشرة، بينما نحن أبناء آدم مخلوقون بالقانون؛ أن يوجد رجل وتوجد امرأة وتوجد علاقة زوجية فيأتى النسل.

وقد كلف الله آدم فى الجنة التى أعدها له ليتلقى التدريب على عمارة الأرض بأمر ونهى؛ فقال له سبحانه وتعالى:

(١) أخرجه ابن ماجه وابن حبان، والدار قطنى والطبرانى والحاكم فى المستدرك من حديث ابن عباس رضى الله عنهما

﴿وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ﴾

(من الآية ٣٥ سورة البقرة)

إذن فقصارى كل تكليف هو أمر فى "افعل" ، ونهى فى "لاتفعل" ، وقد سمى آدم التكليف فى الأمر الواحد البسيط وهو المخلوق بيد الله والمكلف منه بأمر واحد أن يأكل حيث يشاء ويمتنع عن الأكل من الشجرة، وإن لم يتذكر آدم ذلك ، فما الذى يتذكره ؟ ومن كان يصح أن ينسى لأنه مخلوق بيد الله المباشرة ،ومكلف من الله مباشرة، والتكليف وإن كان بأمرين ؛لكن ظاهر العهد فيه على أمر واحد؛ الأكل من حيث شاء هو أمر لمصلحة ادم، و«الاتقرب» هو تكليف واحد.

- ولذلك قال الحق فى آية أخرى . ﴿وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ﴾

(من الآية ١٢١ سورة طه)

وهو عصيان لأنه نسيان لأمر واحد، ما كان يصح أن ينساه . لعدم تعدده ويقول الحق تبارك وتعالى :

﴿أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾﴾

(سورة الأعراف)

جاء هذا القول لينبهنا إلى أن الغفلة لا يجب أن تكون أسوة لأن التكاليف شاقة، والإنسان قد يسهو عنه فيورث هذا السهو إلى الأجيال اللاحقة فيقول الأبناء : ﴿أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم أفتهلكنا بما فعل المبطلون﴾

وهذا يعنى أن إيمانهم هو إيمان المقلد، رغم أن الحق قد أرسل لهم البلاغ، وإذا كان الآباء مبطلين للبلاغ بالمنهج فلا يصح للأبناء أن يغفلوا عن صحيح الإيمان.

ويقول الحق بعد ذلك

﴿ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾ ﴾

والآيات التي فصلها الحق هنا هي العهود الخاصة، ورفع الجبل ليأخذوا التوراة بقوة، وكذلك العهد العام الذي اشترك فيه كل الخلق من لدن آدم إلى أن تقوم الساعة، وجاء سبحانه بكل ذلك ليؤكد لهم أن قضية الإيمان عقيدةً يجب أن تكون في بؤرة الشعور، فمن غفل فليتذكر، ومن قلد آباءه في شيء مخالف للمنهج القويم، فليرجع عن هذا التقليد؛ لأن التكاليف الإيمانية تكاليف ذاتية، وسبحانه لا يكلفك وأنت في حاجة إلى أبيك، أو إلى أمك. لكنه يكلفك من بعد البلوغ؛ لأنك بعد البلوغ تستقل بذاتيتك استقلالا كاملا مثل والدك، ومادمت مكتمل الرجولة كوالدك وصالحا للإنجاب فلا ولاية إيمانية لأبيك عليك أبداً، فلا تقل إنني أقلد أبي ولو كان على غير المنهج السليم؛ لأن مثل هذا القول يمكن أن يكون مقبولاً لو كان التكليف للإنسان وهو في دور الطفولة، حيث الأب يسعى لإطعام أبنائه ورعايتهم، لكن التكليف لا يأتي للإنسان إلا بعد البلوغ، ومعنى بعد البلوغ : أنك صالح لإنجاب مثلك ورعاية نفسك.

ولذلك يطلب الحق سبحانه وتعالى من الآباء أن يدربوا أبناءهم ويعودوهم على مطلوبات التكليف قبل مجيء أوان تكليف الله، ويقول النبي عليه الصلاة والسلام :

(مروا أولادكم بالصلاة وهم أبناء سبع سنين، واضربوهم على تركها وهم أبناء عشر سنين وفرقوا بينهم في المضاجع .. إلخ)(١)

الأب إذن يأمُرُ ويُعاقبُ قبل أوان التكليف ليتدرب الأبناء عليه ويصير دربة سهلة لا يتعب منها الإنسان بعد البلوغ

﴿ وكذلك نفصل الآيات ولعلهم يرجعون ﴾.

أي أن على العاقل أن يرجع عن غفلته فيتذكر، وأن يرجع المقلد لآبائه

(١) رواه أبو داود بإسناد حسن (رياض الصالحين صـ١٨١)

عن التقليد، ويقتنع اقتناعاً، مصداقاً لقوله الحق :

﴿ لا يجزى والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً ﴾

(من الآية ٣٣ من سورة لقمان)

ويقول الحق تبارك وتعالى بعد ذلك :

﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ ﴾

ولأنهم قالوا : ﴿ إنا كنا عن هذا غافلين ﴾، فالله سبحانه وتعالى يريد أن يعطينا خبر هؤلاء فيقول . ﴿ واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها ﴾.

والنبأ هو الخبر المهم وله جدوى اعتبارية ويمكن أن ننتفع به وليس مطلق خبر ولذلك يقول سبحانه وتعالى عن اليوم الآخر :

﴿ عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ﴿١﴾ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢﴾ ﴾

(سورة النبأ)

كما يقول ﴿ واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا ﴾، كأن هذا النبأ كان مشهوراً جداً، ويقال : إنه قد قيل فى « ابن بعوراء » أو أمية بن أبى الصلت، أو عامر الراهب، أو هو واحد من هؤلاء، والمهم ليس اسمه، المهم أن إنساناً آتاه الله آياته ثم انسلخ من الآيات، بدلاً من أن ينتفع بها صيانة لنفسه، وتقرباً إلى ربه ﴿ فانسلخ منها ﴾ واتبع هواه ومال إلى الشيطان.

وكلمة « انسلخ » دليل على أن الآيات محيطة بالإنسان إحاطة قوية لدرجة أنها تحتاج حبوت معصية لينسلخ الإنسان منها؛ لأن الأصل فى لسلخ إزاحة جلد

الشاة عنها، فكأن ربنا يوضح أنه سبحانه وتعالى أعطى الإنسان الآيات فانسلخ منها، وهذا يعني أن الآيات تحيط بالإنسان كما يحيط الجلد بالجسم ليحفظ الكيان العام للإنسان؛ لأن هذا الكيان العام فيه شرايين، وأوردة، ولحم، وشحم، وعظام. وجعل الله التكاليف الإيمانية صيانة للإنسان، ولذلك سمى الخارج عن منهج الله «فاسقاً» مثله مثل الرطبة من البلح، فبعد أن تضرب الشمس البلحة يتبخر منها بعض من الماء، فتتكمش ثمرة البلحة داخل قشرتها وتظهر الرطبة من القشرة، ولذلك سمى الخارج عن المنهج «فاسقاً» من فسوق الرطبة عن قشرتها، والله عز وجل يقول هنا: ﴿آتيناه آياتنا﴾. وكان يجب ألا يغفل عنها، لأن الإيمان نعمة جاءت لتحافظ الإنسان عليها، لكن الإنسان انسلخ من الآيات.

ونعرف جميعاً ثوب الثعبان وهو على شكل الثعبان تماماً، ويغير الثعبان جلده كل فترة، ولا يتخلع من الجلد القديم إلا بعد أن يكون الجلد الذي تحته قد نضج، وصلح لتحمل الطقس والجو، وكذلك حين يتدلى سائل ساخن على جلد الإنسان، تنتفخ تورم المنطقة المصابة وتكون بعض المياه فيها، ولو أفرغ الإنسان هذه المياه تصاب هذه المنطقة بالتهاب، أما إذا تركها فهي تحمي المنطقة المصابة إلى أن يتربى الجلد تحتها وتجف وتنفصل عن الجسم، وكذلك نعلم أن الشاة - مثلاً - لا تسلخ نفسها. بل نحن نسلخها، والحق سبحانه وتعالى يقول:

﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ﴾

(من الآية ٣٧ سورة يس)

فكأن الليل كان محلداً ومغمساً بالنهار، والليل أسود، والنهار فيه الضوء، ونعلم أن اللون الأسود ليس من ألوان الطيف، وكذلك اللون الأبيض ليس من ألوان الطيف؛ لأن ألوان الطيف: الأحمر، البرتقالي، الأصفر، الأخضر، الأزرق، النيلي، البنفسجي، واللون الأسود يأخذ ألوان الطيف ويجعلها غير مرئية، لأنك لا ترى الأشياء إلا إذا جاءت لك منها أشعة لعينيك، واللون الأسود يمتص كل الأشعة التي تأتي عليه فلا يرتد إلى العين شعاع منها فتراه مظلماً. والأبيض هو مزيج من

ألوان متعددة إن مزجتها مع بعضها يمكنك أن تصنع منها اللون الأبيض، وهكذا نعلم أن الأبيض مثله مثل الأسود تماماً، فالأسود يمتص الأشعة فلا يخرج منه شعاع لعينيك، والأبيض يرد الأشعة ولا يخرج منه شعاع لعينيك. وقوله الحق . ﴿ نسلخ منه النهار ﴾ كأن سواد الليل جاء يغلف بياض النهار.

وإذا انسلخ من آتاه خير الإيمان عن المنهج يقول الشيطان : إنه يصلح لأن يتبعني، وكأن الشيطان حين يجد واحداً فيه أمل، فهو يجري وراءه محاولاً أن يرجع إلى ما آتاه الله من الكتاب الحامل للمنهج، ويزكي الشيطان في نفس هذا الإنسان مسألة الخروج عن منهج ربنا.

وقلنا من قبل : إن المعاصي تأتي مرة من شهوة النفس، ومرة من تزيين الشيطان وأوضحنا الفارق، وقلنا : إن الشيطان لا يجرؤ عليك إلا إن أوضحت للشيطان سلوكك أن له أملاً فيك، لكن إن اهتديت وأصلحت من حالك فالشيطان يوسوس للإنسان في الطاعة ويحاول أن يكرهه فيها، والشيطان لا يذهب - مثلاً - إلى الخمارة، بل يقعد عند الصراط المستقيم ليرى جماعة الناس التي تتجه إلى الخير، أما الآخرون فنفوسهم جاهزة له. إذن فالشيطان ساعة يرى واحداً بدأ في الغفلة عن الآيات فهو يلاحقه محاولة أن تستهويه الآيات ثانية، ولذلك لابد لنا أن نفرق بين الدافع إلى المعصية هل هو من النفس أم من نزغ الشيطان، فإن جاءت المعصية وحدثتك نفسك بأن تفعلها ثم عرت عليك تلك المعصية لأي ظرف طارئ، ثم ألححت عليها ذاتها مرة ثانية، فاعلم أنها شهوة نفسك. لكن إن عزت عنك ثم فكرت في معصية ثانية فهذا من نزغ الشيطان؛ لأن الشيطان لا يريدك عاصياً بمعصية مخصوصة، بل يريدك بعيداً عن المنهج فقط، لكن النفس تريد معصية بعينها وتقف عندها، فإن رأيت معصية وقفت عندها نفسك، فاعلم أنها من نفسك، وإن امتنعت عليك معصية وتركتها، ثم فكرت في معصية ثانية. فهذا نزغ من الشيطان - ويقول الحق :

﴿ فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴾

(من الآية ١٧٥ سورة الأعراف)

الغاوى و لغَوىّ هو من يضل عن الطريق وهو الممعن فى الضلال، ونعلم أن الهدى هو الطريق الموصل للغاية، ومن يشذ عن الطريق الموصل للغاية يضل أو يتوه فى الصحراء. وهو الذى يُسمى « الغاوى »، ومادام من الغاوين عن منهج الله فالفساد ينشأ منه لأنه فسد فى نفسه ويفسد غيره.

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ ۖ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَث أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾

وهنا أمران اثنان، الرفعة وهى العلو والتسامى، ويأتى بعدها الأمر الثانى وهو الإخلاد إلى الأرض أى إلى التسفل، والفعلان منسوبان لفاعلين مختلفين

﴿ ولو شئنا لرفعناه ﴾، والفعل رفع هنا مسند لله. ولكنه اختار أن يخلد فى الأرض. وجاء الأمر كذلك لأن الرفعة من المعقول أن تنسب لله. لكن التسفل لا يصح أن يُنسب لله، وكان كل فعل هو بأمر صاحب الكون. وربنا هنا يرفع من يسير على المنهج، وحين يقول الحق تبارك وتعالى ﴿ ولو شئنا ﴾ أى أنها مشيئتنا ولو أردنا أن نرفعه كانت المشيئة صالحة، لكن هذا الأمر يقتضى الاختيار، والحق يريد أن يُبقى للإنسان الاختيار، فإن اختار الصواب فأهلا به وجزاؤه الجنة، وإن أراد الضلال فلسوف يَلْقى العذاب الحق، ولمزيد من الاعتبار بقصص القرآن اقرأ معى قصة العبد الصالح مع موسى عليه السلام :

﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ ﴾

(سورة الكهف)

ورغم أن موسى رسول من عند الله إلا أنه لم يتأبّ على أن عبداً من عباد الله تقرب إلى الله فاتبعه موسى ليقول له: ﴿ هل أتبعك على أن تعلمني مما علمت رشدا ﴾.

وفي هذا تأكيد على رغبة موسى أن يستزيد بالعلم ممن أعطاه الله العلم. وجاء القرآن بهذه القصة ليعلمنا أدب التعلم.

وماذا قال العبد الصالح ؟ لقد عذر موسى وقال:

﴿ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ ﴾

(سورة الكهف)

أي أنك يا موسى لن تصبر لا لنقص فيك، بل لأنك سترى أمورا لا تعرف أخبارها. لكن سيدنا موسى قال له لا: ﴿ ستجدني إن شاء الله صابرا ﴾ وأصرّ موسى أن يتبع العبد الصالح وأنه لن يعصي له أمرا، واشترط العبد الصالح ألا يسأله سيدنا موسى عن شيء إلا أن يحدثه العبد الصالح. وكان كل ذلك مجرد كلام نظري، فيه أخذ ورد، وحين جاء الواقع تغير الموقف تماما. بعد أن ركبوا في السفينة وخرقها العبد الصالح، لم يصبر سيدنا موسى بل قال:

﴿ لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴾

(من الآية ٧١ من سورة الكهف)

وهكذا أثبتت التجربة العملية أن موسى لم يصبر على أفعال العبد الصالح،

وحين ذكره العبد الصالح بما وعد به من ألا يسأل، تراجع موسى، وتكرر السؤال، وتكرر التذكير، إلى أن أوضح العبد الصالح لموسى كل أسرار ما لم يحط به علما وهنا يقول الحق: ﴿ ولو شئنا لرفعناه بها ﴾ لماذا؟. لأن مشيئة الله مشيئة مطلقة، يفعل ما يريده، ولكنه سبحانه قد سبق منه أن جعل للاختيار جزاءً، لهذا لم يرفعه مع أنه مخالف، لأنها سنة الله، ولن تجد لسنة الله تبديلاً. وسنة الله أن من عمل عملاً طيباً يثيبه الله عليه. ومن عمل سوءاً يعاقبه، ومشيئته سبحانه مطلقة، ولا راد لمشيئته ولا معقب لحكمه.

و بمقتضى مشيئة الله فهو يعذب المذنب بعدله ويثيب الطائع بفضله، وله سبحانه مطلق الإرادة فهو عزيز، وحكيم في كل فعل.

﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ﴾

(من الآية ١٧٦ سورة الأعراف)

و ﴿ أخلد إلى الأرض ﴾، أي أنه اختار أن ينزل إلى الهاوية، رغم أن الحق هدى الإنسان وبين له طريق الخير ليسلكه فيصعد إلى العلو، والحق يقول:

﴿ قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ﴾

(من الآية ١٥١ سورة الأنعام)

ونحطىء حين نفهم أن « تعالوا » بمعنى « أقبلوا » فقط وهذا فهم ناقص، إنها دعوة للقبول وإلى العلو، لأنه سبحانه وتعالى يشرع لنا حتى لا نلزم منهج الأرض السفلى. بل نرتقي ونأخذ منهج الله الذي يضمن لنا العلو. وكأنه سبحانه يقول: تعالوا وتساموا في أخذ منهجكم من الله العلي الأعلى وإياكم أن تأخذوا منهجكم مما وضعه البشر ويناقض ما جاء في شرع الله، لأن في هذا تسفلا ونزولا إلى الحضيض.

﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ
إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَث أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ﴾

(من الآية ١٧٦ سورة الأعراف)

ويقال: «حملت على الكلب»، فأنت حين تجلس ويقبل الكلب عليك وتزجره وتطرده وتنهره، فهذا تفسير لقوله: «تحمل عليه»، أي أنك تحمل عليه طردا أو زجراً؛ لذلك يلهث، وأن تركت الكلب بدون حمل عليه طرداً أو زجراً فهو أيضا يلهث، لأن طبيعته أنه لاهث دائماً، وهذه الخاصية في الكلب وحده، حيث يتنفس دائماً بسرعة مع إخراج لسانه.

ونعلم أن الحيوانات لا تلهث إلا إذ فزعت فتجري، لتفوت من الألم أو من العذاب الذي يترصدها من كائن آخر، وحين يجري الحيوان فهو يحتاج لطاقة، فيدق القلب بشدة ليدفع الدم بما فيه من غذاء إلى كل الجسم، ولابد للقلب أن يتعاون مع الرئة التي تمد الدم بالهواء. ونلحظ أن الكائن الحي حين يجلس برتابة فهو لا يلحظ تنفسه، لكن إذا جرى يلحظ أن تجويف الصدر أو سعة الصدر تنقبض وتنبسط لتسحب «الأوكسجين» من الهواء لتصل به للدم بكمية تناسب الحركة الجديدة، فيحاول أن يتنفس أكثر. ولا تفعل الحيوانات مثل هذه المسألة إلا إذا كانت جائعة أو متعبة أو مهاجة. لكن الكلب وحده هو الذي يفعلها، جائعا أو شبعان، عطشان أو غير عطشان، مزجوراً أو غير مزجور، إنه يلهث دائماً. ولماذا يشبهه سبحانه بالكلب اللاهث؟؛ لأن الذي يظهر بهذه الصورة تجده مكروهاً دائماً؛ لأنه متبع لهواه، وتتحكم فيه شهواته. وحين تتحقق له شهوة الآن، يتساءل هل سيفعل مثلها غداً؟ وتتملك الشهوة كل وقته، لذلك يعيش في كرب مستمر، لأنه يخاف أن يفوته النعيم أو أن يفوت هو النعيم، ويصير حاله كحال الكلب يلهث أمسا أو غير أمس، جائعاً أو غير جائع، عطشان أو غير عطشان.

﴿ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾

(من الآية ١٧٦ سورة الأعراف)

هكذا يكون مصير من كذَّب بالآيات.

وقول الحق: ﴿فاقصص القصص﴾ يوضح لنا أن الله لا يريد أن يعلمنا تاريخاً، لكنه يعلمنا كيف نأخذ العبرة من التاريخ، بدليل أنه يكرر القصة أكثر من مرة وكل مرة يأتي سبحانه بلقطة جديدة، لتعدد ما في القصة الواحدة من العبر، ولو أنه أراد أن يقص علينا التاريخ لقال لنا روايته مرة واحدة ونجد في القرآن الكثير من قصص الحق مع الباطل، ومن قصص المبطلين مع المحقين، ومن قصص المعاندين مع الرسل؛ لأن لقصة أمر واقعي، والتقنين للمناهج أمر لفظي، فيريد سبحانه وتعالى أن يوضح لنا المنهج المناسب للواقع؛ لأن واقع الحياة يعطي القصة القولية حرارة وسخونة فلا يظل المنهج مجرد كلام نظري معزول عن الواقع.

وهكذا بيَّن الحقّ سبحانه وتعالى في هذه الآية، أنه سبحانه قد أنزل علم منهجه بواسطة الرسل إلى بعض خلقه، فمنهم من يأخذ منهج الله بالاستيعاب أولاً، وتوظيف ما علم ثانياً، وبذلك يرتفع من منطق الأرض إلى منطق السماء ومن يعطيه الله ذلك المنهج، ما كان يصح له أن يترك ارتفاعه إلى السماء، ليهبط إلى مستوى الأرض. وهذا ما يفعله البشر حين يقننون لأنفسهم، ويضعون نظم الحياة على وفق مواهبهم، وعلى وفق نظمهم، ويتركون منهج الله الذي خلقهم وصنعهم ووضع لهم قانون صيانتهم.

وهذا كلام نظري له واقع في ابن «باعوراء»، هذا الذي آتاه الله العلم، ولكنه أخلد إلى الأرض ولم يتبع ما علم، فانسلخ من المنهج كما تنسلخ الشاة من جلدها وقال فيه الحق:

﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث﴾

(من الآية ١٧٦ سورة الأعراف)

ومن يريد أن يرفعه الله إلى السماء بالوحي بالمنهج ثم يهبط إلى الأرض نجد

الحق سبحانه وتعالى يمثل حاله بحال الكلب، مع الفارق بين الاثنين ؛ لأن الكلب يلهث غريزة. فهو غير مذموم حين يلهث وهو مطرود، ويلهث غير مطرود فهذه غريزة فيه، ولا يذم على هذه ولا على تلك، لكن الإنسان الذى فطره الله على حب الخير وميز غرائزه بمنهج عقلى يصون حركته ما كان يصح له أن يفعل ذلك ولا ينبغى أن تقولوا: وما ذنب الكلب فى أنه يلهث، ويضرب به المثل فى الكفر ؟ لأن الكلب يفعلها غريزة، وهو بغير تكليف فيفعل ما يشاء، أما الإنسان الذى ارتفع بفكره وميزه الله بأن يختار بين البدبلات ما كان يصح له أن يصل إلى هذا المستوى، ومثل هذا السلوك فى الكلب محمود فيه لأن طبيعته هكذا، وإياك أن تقول: لماذا ربنا يضرب المثل بأشياء وما ذنبها هى ؟

والحق - سبحانه - هو القائل عن اليهود :

﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا ﴾

(من الآية ٥ سورة الجمعة)

هل الحمار حين يحمل أسفاراً يستحق الذم لأنه لم يفقه ما فى الأسفار؟ الجواب لا؛ لأن مهمته ليس منها فقه وفهم ما فى الأسفار، بل مهمته أن يحمل ما عليه فقط، وكأن الحق يقول : لا تكونوا مثل الحمار الذى يكتفى من الخير بأن يحمله، ولكن أريد منكم أن تحملوا المنهج وأن تنتفعوا بما يحويه من التشريع إذن فهذه الأمثلة ليست ذماً للكلب، ولا هى ذما للحمار. إنما ذم لمن يتشبه بهما؛ لأنه نزل إلى مرتبة لم يردها الله لها، وأراد الله المثل فيها بشىء لاتذم منه، ولكنه مذموم من الإنسان.

والإنسان الذى لا يتبع منهج الله يكون مضطرب الحركة فى الحياة، حتى وإن كان فى نعمة. لأنه معزول عن الله، ومادام معزولاً عن الله تجده دائم التساؤل. أيدوم لى هذا النعيم أو لا يدوم ؟ ويعيش دائما فى قلق ورعب مخافه أن يفوت النعيم أو ألا يدوم له النعيم، ومثله كالكلب يلهث حال راحته ويلهث حال تعبه.

﴿ ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا فاقصص القصص لعلهم يتفكرون ﴾

إذن حين يضرب الله لنا مثلاً من الأمثال الواقعية في هذا الرجل المسمى "ابن بعوراء" ، فسبحانه يعطينا واقعاً لما حدث بالفعل.

أي أن الذي يريد الله أن يرفعه بما علمه من منهج فانسلخ من دينه فهو مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله ، وستم بدعاً في هذا ، فالله يريد أن يرفعكم بمنهج السماء وأنتم تخلدون إلى الأرض ، وقد حدث هذا مع ابن بعوراء ، وكلمة "مثل" إذا سمعتها هي من مادة الـ"م" والـ"ث" والـ"لام" ، وتنطق كما يأتي : إما أن تنطقها مِثْل (بكسر الميم وسكون الثاء) ، وإما أن تنطقها مَثَل (بفتح الميم والثاء) ، والمَثَلَ هو المشابه والنظير ، فتقول : فلان مثل فلان في الكرم ، في العلم ، في الطول ، في العرض ، وبذلك أعطيت تشبيه ما هو مجهول للمخاطب بما هو معلوم له.

والحق سبحانه يقول :

﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾

(من الآية ١١ سورة الشورى)

أي لا أحد يشبهه في شيء ؛ لأنه مُنَزَّه في الذات والصفات والأفعال.

وأيضاً نقول : هذا مَثَل هذا ، أي أن فلاناً المشبه به يكون أعلى منه فيما يشبهه به ، لكن الناس لا تعرف ذلك ، وإن كان المشبه به ذائع الصيت ؛ بحيث يجري اسمه على كل لسان ؛ فنحن نقول : إنه مَثَلٌ ؛ كقولنا عن الكريم : "هو حاتم" لأن شهرة حاتم في الكرم جعلته مَثَلاً. والفرق أنك إذا قلت في فلان إنه يشبه حاتماً في الكرم ، فقد تكون أول من يخبر عنه ، ولك أن تأتي بواحد له شهرة ذائعة الصيت على كل لسان ؛ فهذا مَثَل ، كأن تقول : مَثَل حاتم في الكرم ، أو مَثَل عنترة في الشجاعة. والمَثَل في الذكاء إياس ، لأن كل واحد منهم مشهور بصفة ، ولذلك لما مدح الشاعر (١) الخليفة (٢) قال فيه :

(١) أبو تمام (٢) أحمد بن المعتصم

إقدام عمرو [١] (في شجاعته) في سماحة حاتم (أي الطائي) في حلم أحنف (الأحنف [٢] بن قيس وكان مشهوراً بالحلم عند العرب) وفي ذكاء إياس [٣].
وقال رجل من القوم: كيف تُشَبِّهُ الأميرَ بصعاليك العرب؟ إن الأمير فوق من ذكرت جميعاً.

ما عمرو بالنسبة للأمير؟!

وما حاتم بالنسبة للأمير؟!

فقال الشاعر:

وشبهه المدّاح في الباس والندى
بمن لو رآه كان أصغر خادم
ففي جيشه خمسون ألفاً كعنتر
وفي خُزنه ألف ألف كحاتم

أي أن عنده أمثالَ حاتمٍ وأمثال عنترة. فما كان منه إلا أن أسعفته ذاكرته وبديهته؛ فقال:

"لا تنكروا ضربي له من دونه
مثلاً شروداً في الندى والباس
فالله قد ضرب الأقل لنوره
مثلاً من المشكاة والنبراس

وكأن الشاعر يقول: أنا ضربت بهم المثَل لأنهم أصبحوا المثل المشهور والأمثال لا تتغير

(١) عمرو بن معدي كرب الزبيدي فارس اليمن (٢) من سادات التابعين كان شهما حليما (٣) كان قاضي البصرة ويضرب به المثل في الفطنة والذكاء.

وأنت تقدر في المثل، فقد تقول " فلان حاتم، وحاتم انقضى عمره، لكنه قد صار مثلاً مشهوراً في التاريخ، أو تقول : "فلان عنتر" ، أو "فلان إياس" ، وفي ذلك يرتقي التشبيه، بأن صار المشبَّه به مشهوراً معلوماً متواردا على الألسنة وكل واحد يشبه به .

ويُعَرفون المَثَل بأنه : قول شبِّه مورده بمضربه ، أي أنك تشبه الحالة التي قيل فيها المثل أولاً، ومثال ذلك : حينما أرسلَ عظيمٌ من عظماء العرب خاطبةً اسمها "عصام" لتخطب له أمَّ إياس ؛ فقد بلغه أنها جميلة وأنها وأنها ، فقال. اذهبي حتى تعلمي لي علم ابنة عوف، فذهبت الخاطبة وخلَت أم الفتاة بينها وبينها، وقالت لها : يا هذه ، هذه خاتنك جاءت لتنظر إلى بعض أمرك فلا تستري عنها شيئاً أرادت النظر إليه ، من وجه وخلق ، وناطقيها فيما استنطقتك به. ثم أرسلت إلى خبء ، ونظرتها كلها وفحصتها فحصاً شاملاً. فلما عادت إلى من أرسلها، وكان ينتظرها في شوق وكأنه على أجر من جمر ، قال لها : "ما وراءك يا عصامُ ؟" قالت : "أبدى المخض عن الزُّبد" أي أن الرحلة جاءت بفائدة.

وأصبح العرب بعد ذلك كلما أرسلوا رسولاً ذكرا أو أنثى أو مثنى أو جمعاً؛ وبعد أن يعود إليهم ويستعلموا منه عن نتيجة رحلته ، فهم يقولون له : "ما ورائك يا عصام ؟ " ، ولو كان رجلاً ، لأن الأمثال لا تغير . وكل شيء يجدي الجهد فيه يقال عنه: "أبدى المخض عن الزبد" . فحين ينجح الولد ويأتي بالمجموع المناسب يقال : "أبدى المخض عن الزبد" .

والحق تبارك وتعالى يقول :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ﴾

(من الآية ٢٦ سورة البقرة)

وكانوا قد قالوا " كيف يضرب الله المثل ببعوضة ؛ وقال سبحانه :

﴿ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ ﴾

(من الآية ٧٣ سورة الحج)

لقد فهموا قوله : "فما فوقها" أنها أكبر منها، والمراد غير ذلك؛ لأنه سبحانه ضرب المثل بالأقل؛ لذلك قال : "فما فوقها" من باب فما فوقها في لاحتقار منكم والقلة في الحجم مما تنكرونه ، وهو الصآلة. وحتى تفهم ذلك نسمع أحياناً : فلان مريض . ويرد السامع وفلان فوقه في المرض . ونجد "فوقه" هنا لا تعني المرض الأقل ، بل المرض الأكثر شدة :

﴿ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾

(من الآية ١٧٦ سورة الأعراف)

والكلام موجه لليهود : أي أنتم يابني إسرائيل مثلكم مثل الرجل الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها ، ولقد جاءت لكم في التوراة بشارة بمحمد ، ووصفته بسمات وعلامات ، بحيث إذا رآه الإنسان يعرف أنه الرسول الذي جاء ذكره في التوراة، ويعرفه الواحد منكم كما يعرف ابناً له ، لأنه مذكور لكم بنصه ونعته وشكله وطوله، وعرضه . وكنتم تستفتحون به على العرب . لكنكم امتنعتم عن التصديق بالآيات ، وعندما جاءكم بما عرفتم عنه كفرتم به. وصار مثلكم كمثل الرجل الذي آتاه الله الآيات فانسلخ منها. ﴿ ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا﴾

وهم بعنادهم وبغيهم وكفرهم قد كذبوا بالآيات الكونية التي يراها البصر ؛ السماء والأرض والشمس ، والآيات المعجزات التي يثبت بها الرسول صدق بلاغه عن الله. وكذلك آيات القرآن التي تحمل منهج الله.

﴿ فاقصص القصص لعلهم يتفكرون﴾ وعليك يا محمد أن تقصص القصص وأن تقول ما حدث وما كان ، وأنت لن تحكي الأمر التافه ، بل ستحكي ما يقال له قصص ويكون فيه عبرة ؛ تنتفع بها حركة المجتمع.

ويذيل الحق الآية بقوله تعالى: ﴿ لعلهم يتفكرون ﴾ ، ونعلم أن القرآن قد جاء فيه الأمر بالتفكر والتذكر والتدبر.

والتفكر - كما نعرف - هو عمل العقل في المقارنات بين البديلات المتنوعة ليُرَجِّح بديلاً على بديل تُعقَلَ به القضايا.

والتذكر بمعنى إن غفلت عن هذا فتذكره ، حتى يزيح عنك الغفلة عن القضية المعلومة.

أما التدبر فهو أيضاً بحث عقلي. فلا تنظر إلى واجهة الأشياء ، بل إلى كلية الأشياء من جميع جهاتها بواجهة وجوانب وخلف ، وما ينتج عنها . وعلى سبيل المثال يقال : انظر خلف العبارة ، لتجد المعنى الخفي فيه. يقال. والمثال في قول الحق :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ﴾

(من الآية ٢٦ سورة البقرة)

وحين تفكرنا وتدبرنا وجدنا أن معنى "فما فوقها" لا يعني الأعلى منها في القوة، بل الأعلى منها في الضعف الذي أنكروه . لذلك لا يجب أن تنظر إلى معنى ومدلول اللفظ حسب ظاهره فقط ، بل لما خلف اللفظ ، ومعطياته.

﴿فاقصص القصص لعلهم يتفكرون﴾ أي يتفكرون في أسلوب توجيه المنهج ؛ لعلهم يؤمنون. وهذه فائدة القصص.

ويقول الحق تبارك وتعالى بعد ذلك :

﴿ سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴿١٧٧﴾ ﴾

والحق قال فيهم من قبل : إنهم كذبوا بآياتنا ، وضرب لهم المثل بابن باعوراء وكان مشهوراً في أيامهم. لكنهم فاقوا ابن باعوراء لأنه كان فرداً وهم جماعة ؛ لذلك لا نقل إن في المسألة تكراراً ؛ لأن المثل من قبل كان على فرد واحد ، أوتى آيات الله فانسلخ منها ، ولكنهم كانوا جماعة . لذلك فانسلاخهم عن المنهج يجعل موقفهم أشد سوءاً.

﴿ ساء مثلاً القوم الذين كذبوا بآياتنا ﴾

و " ساء " أي قَبُح ، وحين نقول : ساء فلان ؛ أي قبح أمره ، ولكن أي أمر من أموره هو القبيح ؟ فنقول : ساء صحةً أي صار مريضاً أو ساء حالاً أي صار فقيراً ، أو ساء خلقاً أي صار شرساً ، وأنت حين تقول " ساء " فهذا السوء عام له جوانب متعددة ، ويقتضي الأمر التمييز.

و " ساء مثلاً " أي ساء من جهة المثل ، والمثل في ذاته لا يسوء ؛ لأن الله تعالى يضرب المثل لنا . والمثل إنما يجيء ليبين ويشرح ويوضح. والمعنى هنا : ساء مثلاً حال القوم أو القوم أنفسهم هم الذين ساءوا. لأنهم حين كذبوا بالآيات ظلموا أنفسهم ، فالتكذيب منهم لم يعرقل منهج الله في الأرض ، ولم يعرقلوا بالتكذيب شيئاً في كون الله تعالى ، فالكون بنظامه ونسقه يسير بإرادته سبحانه وآيات الكون سائرة. إذن تكذيبهم بآيات الله لن يضير أبداً في أي شيء. والخيبة إنما تقع عليهم. وإن كان التكذيب في الآيات المعجزات فقد بقي ذكر المعجزات إلى الآن. وهم الذين خابوا ، وإن كانوا قد كذبوا بآيات المنهج فهم أيضاً الذين خسروا ولم يصب الآيات الإعجازية أو القرآنية أي شيء . وهم قد ظلموا أنفسهم ومثلهم في ذلك مثل المريض الذي لم يسمع كلام الطبيب فإنه يسيء إلى نفسه ولن يضر الطبيب شيء ، والله سبحانه قد أعطانا المنهج لنستقيم به حركة الحياة ، فمن يأخذه ينفع نفسه ، ومن لا يأخذه لن يضر الله شيئاً.

هم إذن ظلموا أنفسهم ، ومن يظلم نفسه كان هو أول عدو لها ولن يضر الله شيئاً ، ولا الرسول ، ولا المجتمع.

﴿ وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴾

(من الآية ١٧٧ سورة الأعراف)

وحين نجد معمولاً تقدم على عامله - قاعدة نحوية - فاعلم أن هناك مايسمى بالقصر في علم البلاغة، وقد نقول: "يظلمون أنفسهم" ويصح أن تعطف قائلاً: ويظلمون الناس. ولكن حين نقول: أنفسهم يظلمون، فمعنى ذلك أنه لا يتعدى ظلمهم أنفسهم، ويكون الكلام فيه قصر وتخصيص، مثلما نقول: ﴿ لله الأمر من قبل ومن بعد ﴾، أي أن الأمر لا يتعدى إلى غيره أبداً.

ويقول المولى سبحانه وتعالى بعد ذلك:

﴿ مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٧٨﴾ ﴾

وهذه الآية هي الوحيدة التي جاء فيها قوله سبحانه وتعالى: "المهتدي" - بالياء - بينما جاء المولى سبحانه وتعالى بكلمة "المهتد" - من غير ياء - في آيات متعددة عدا هذه الآية:

واقرأ قوله تعالى: ﴿ وَمَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ ﴾

(من الآية ٩٧ سورة الإسراء)

ويقول الحق: ﴿ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾

(من الآية ٢٦ سورة الحديد)

وكذلك نأتي الكلمة بدون "ياء" في قوله سبحانه:

﴿ من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً ﴾.

(من الآية ١٧ سورة الكهف)

والمعركة الخاصة بقضية الهداية والإضلال قائمة من قديم ، ولا تزال أيضاً ذيول هذه المعركة موجودة إلى الآن ، وأوضحنا هذه القضية من قبل ولكننا نكررها للتأكيد ولتستقر في الأذهان ، لأن هناك دائماً من يقول : إذا كان الله هو الهادي والمضل ، فلماذا يعذبني إن ضللت ؟ . وشاع هذا السؤال وأخذه المستشرقون والفلاسفة ويراد منه إيجاد مرر للنفس العاصية غير الملتزمة. ونقول لكل مجادل : لماذا قصرت الاعتراض على مسألة الضر والعذاب إن ضللت ؟ ولماذا لا تذكر الثواب إن أحسنت وآمنت ؟ . إن اقتصارك على الأولى دون الثانية دليل على أن الهداية التي جاءت لك هي مكسب تركته وأخذت المسألة التي فيها ضرر . ولا يقول ذلك إلا المسرفون على أنفسهم.

وضربنا من قبلُ أمثلةً كثيرة. لنفرق في هذه المسائل بين المختلفين ؛ لأن الجهة عندهم منفكة. وهم قد ناقشوا مسألة " خلق أفعال العباد " وتساءلوا : مَنْ خلق هذه الأفعال ؟ هل خلقها الله أم أن العبد يخلق أفعاله ؟.

ونسأل : ما هو الفعل ؟. إنه توجيه طاقة لإحداث حدث ؛ فطاقة اليد أنها تعمل أيَّ عمل تريده منها ؛ قد تضرب بها إنساناً أو تحمل به إنساناً واقعاً على الأرض ، أو تربت بها على اليتيم .

إذن ففي اليد طاقة تصلح لأن تفعل الخير وتفعل الشر ، وأنت لحظة أن تضرب إنساناً ؛ فأي عضلة تحركها حين ترتفع ليد لتضرب ؟. إنك بمجرد رغبتك في أن تضرب ، تضرب ؛ عكس الإنسان الآلي حين يرفع شيئاً ، فله أجزاء وأزرار تعمل . وكلها آلات.

وأنت حين تربت على كتف يتيم ، ما هي الأعضاء والأجهزة التي تحركها لتعمل هذا العمل ؟. إذن فالله هو الذي خلق فيك الانفعال للعمل. فإن نظرت إلى ذلك ، فكل فعل من الله ، ولكن توجيه الجارحة إلى الفعل هو محل التكليف.

إذن فأنت تحاسب لأنك فعلت ، لا لأنك خلقت ؛ لأن خالق الأفعال هو الله سبحانه وتعالى ، وأنت تفعل بمجرد الإرادة والاختيار ، مثل اللسان فيه طاقة

مخلوقة لبيان ما في النفس ؛ إن أردت أن تقول بها " لا إله إلا الله " صلحت، وصلحت كذلك عند الملحد أن يقول والعياذ بالله لا يوجد إله . واللسان لم يعص في هذه ولا في تلك .

إذن فالذي خلق قدرة الجارحة على الفعل هو الله. وأنت توجه الجارحة، إذن فكل الأفعال مخلوقة لله، لكن توجيه الطاقة للفعل بالميل والاختيار إنما يكون من العبد . والحق سبحانه وتعالى يهدي الجميع بالمنهج ، ومن يقبل عليه بنيَّة الإيمان ، يعينه على ذلك ، وبذلك لا يصح أن نختلف في مسألة مثل هذه، وأن نسأل من خلق الأفعال، بل علينا أن نحدد الأفعال وكيف توجد، وما دور الإنسان فيها ؛ لأننا نعلم أن الله قد يسلب طاقة الفعل على الأحداث، مثل من يريد أن يؤذي إنساناً بيده لكنه يصاب بشلل فلا يقدر أن يرفع يده . ولو كان هو الذي يخلق رفع يده وآذى بها من أراد ، لكنه لا يخلق الطاقة الصانعة للفعل.

وعلى ذلك تكون الهدايةُ نوعين : هداية دلالة ، وهي للجميع ؛ للمؤمن والكافر ؛ لأن الحق لم يدل المؤمن فقط ، بل يدل المؤمن والكافر على الإيمان به، فمن يُقْبل على الإيمان به ؛ فإن الحق تبارك وتعالى يجد فيه أهلاً للمعونة . فيأخذ بيده ، ويعينه ، ويجعل الإيمان خفيفاً على قلبه، ويعطي له طاقة لفعل الخير، ويشرح له صدره ويسر له أمره : وسبحانه القائل :

﴿ وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ﴾

(من الآية ٢٨٢ سورة البقرة)

ويقول سبحانه وتعالى :

﴿ وَمَن يُضْلِلْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾

(من الآية ١٧٨ سورة الأعراف)

فإذا كان لله قد عمّم حكماً ثم خصّصه ، فالتخصيص هو الذي يحكم التعميم.

ويقول ربنا عز وجل : إن من شاء هدايته فهو سبحانه وتعالى يعطيه الهداية ،

ومن شاء له الضلال زاده ضلالاً، وقد بيّن أن من شاء هدايته يهتدى وهذه معونة من الله، والكافر لا يهتدى وكذلك الظالم، والفاسق؛ لأنه سبحانه قد ترك كل واحد منهم لاختياره، وهكذا يمنع سبحانه وتعالى عنهم هداية المعونة.

ونقرأ فى القرآن الكريم ما يوضح هذه المسألة، فهو سبحانه يقول:

﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ﴾

(من الآية ١٧ سورة فصلت)

والهداية التى كانت لقوم ثمود إنما هى هداية الدلالة، وليست هداية المعونة

ويقول سبحانه:

﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴿١٧﴾﴾

(سورة محمد)

أى أنه سبحانه قد زاد من اختاروا الهداية، بالمعونة وجعل بينهم وبين النار وقاية، والحق سبحانه وتعالى يقول لرسوله:

﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾

(من الآية ٥٦ سورة القصص)

أى أنك يا محمد لن تعين أحداً على الطاعة لأن هذا أمر يملكه ربك.

ويقول سبحانه لرسوله:

﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾

(من الآية ٥٢ سورة الشورى)

أى أنك يا محمد تهدى هداية الدلالة بالمنهج الذى أنزله الله إليك.

إذن إذا رأيت فعلاً أو حدث مُثبتاً لواحد ومنفياً عنه.. فاعلم أن الجهة منفكة، والكلام هنا لحكيم عليم. ولماذا يقول الحق سبحانه:

﴿ مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَن يُضْلِلْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٧٨﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

لأن الحق سبحانه وتعالى حين ينصرف عن معونة عبده، فعلى العبد أن يواجه حركة الحياة وحده بدون مدد من خالقه. ويعيش وحالته كرب، سواء كان في يسر مادي أو في عسر. هذا إن اعتبر أن الدنيا هي كل شيء، فإذا أضيف إلى ذلك غفلته عن أن الدنيا معبر للآخرة، فالخسارة تكون كبيرة حقاً.

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا ۚ أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٧٩﴾ ﴾

وذرأ، بمعنى بث ونشر، وقد قال الحق سبحانه وتعالى في أول سورة النساء :

﴿ وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء ﴾

كما يقول الحق أيضا : ﴿ يذرؤكم فيه ﴾

وهنا يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ﴾

(من الآية ١٧٩ سورة الأعراف)

ونعرف أن في الكون أشياء عابدة بطبيعتها وهي كل ما عدا الإنس والجن؛ لأن كلا منهما في سلك الاختيار، وهم من يقول عنهم ربنا في سورة الرحمن :

﴿ سنفرغ لكم أيه الثقلان ﴾

ودرأنا معناها بثثنا ونثرنا وكثّرنا، وكلمة كثير لا تعني أن المقابل قليل، فقد يكون الشيء كثيراً ومقابله أيضاً كثير، والحق سبحانه وتعالى يقول في كتابه الكريم:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ﴾

(من الآية ١٨ سورة الحج)

إذن كل الكائنات من جمادات ونباتات وحيوانات تسجد لله سبحانه وتسبحه، ولكن الأمر انقسم عند الإنسان فقط، حيث يقول الحق في ذات الآية:

﴿وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ﴾

(من الآية ١٨ سورة الحج)

أي هناك كثير يسجدون ويخضعون لله. ومقابل ذلك كثير كفروا ولم يسجدوا وحق عليهم العذاب. وإذا كان المولى تبارك وتعالى يقول:

﴿ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والإنس﴾

فقد يثور في الأذهان سؤال هو:

هل أنت خالقهم يارب لجهنم. ماذا يستطيعون إذن؟ ولا شيء في قدرتهم مادمت قد خلقتهم لذلك؟

ونقول: لا. ولنلفت الأنظار إلى أن في اللغة ما يسمى «لام العاقبة»، وهو ما يؤول إليه الأمر بصورة تختلف عما كنت تقصده وتريده؛ لأن القصد في الخلق هو العبادة مصداقاً لقوله الحق تبارك وتعالى:

﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾

(سورة الذاريات)

ومعنى العبادة طاعة الأمر، والكف عن المنهي عنه، والمأمور صالح أن يفعل وألا يفعل، فالعبادة - إذن - تستدعي وجود طائع ووجود عاص، واضرب هذا المثل ولله المثل الأعلى ومنزه سبحانه وتعالى: يأتي لك من يروي لمحة من سيرة إنسان ويقول لك: لماذا يقف منك هذا الموقف العدائي، أليس هو الذي أخذته معك لتوظفه؟ فترد عليه: «زرعته ليقلعني». هل كان وقت مجيئك به كنت تريده أن يقلعك؟ لا. ولكن النتيجة والنهاية صارت هكذا.

والحق سبحانه لم يخلق البشر من أجل الجنة أو النار. لكنه عز وجل خلقهم ليعبدوه، فمنهم من آمن وأصلح فدخل الجنة، ومنهم من عصى فدخل النار وهذا اسمه «لام العاقبة»، أي ما صار إليه الأمر غير مرادك منه، ومثال ذلك حينما قال الله سبحانه لأم موسى.

﴿فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي ۖ إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ۝ فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا﴾

(من الآية ٧ ومن الآية ٨ سورة القصص)

هل التقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً؟ لا، لأن زوجة فرعون قالت:

﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا﴾

(من الآية ٩ سورة القصص)

فقد كانت علة الالتقاط - إذن - هي أن يكون قرة عين، لكنه صار عدواً في النهاية، وهذا اسمه - كما قلت - لام العاقبة

وهكذا لا تكون علة الخلق أن يدخل كثير من الجن والإنس النار، في قوله الحق:

﴿ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن و لإنس﴾

لأن علة الخلق في الأصل هي العبادة، والعبادة تقتضي طائعاً وعاصياً، فالذي يطيع يدخل الجنة، والذي يعصى يدخل النار، ولله المثل الأعلى، أذكركم بالمثل الذي

ضربته من قبل حين يسأل وزير التعليم مدير إحدى المدارس أو عميد كلية ما عن حال الدراسة والطلبة فيقول العميد أو المدير : إننا نعلم جيداً من هم أهل للرسوب ومن هم أهل للنجاح وإن شئت أقول لك عليهم وأحدهم . لم يقل العميد أو المدير ذلك لأنه يتحكم في إجابات الطلبة، ولكنه علم من تصرفاتهم ما يؤولون إليه، والعلم صفة انكشاف لا صفة تأثير . وعلى ذلك فإن قوله تعالى :

﴿ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والإنس﴾

يعني أننا نشرنا وبثثنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس، وهم من يعرضون عن منهجنا، ثم يأتي الحق بالحيثيات لذلك وهي أولا :

﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا ﴾ (من الآية ١٧٩ سورة الأعراف)

وثانياً :

﴿ وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا ﴾ (من الآية ١٧٩ سورة الأعراف)

وثالثاً :

﴿ وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا ﴾ (من الآية ١٧٩ سورة الأعراف)

ولقائل أن يقول إن كانت قلوبهم مخلوقة بحيث لا تفقه فما ذنبهم هم ؟ . ومادامت عيونهم مخلوقة بحيث لا ترى فما ذنبهم ؟ وكذلك مادامت الآذان مخلوقة بحيث لا تسمع فلماذا يعاقبون ؟ . ونقول : لا، لم يخلقهم الله للعذاب، لكنهم انشغلوا بما استحوذ عليهم من شهواتهم، وصارت عقولهم لا تفكر في شيء غيره وتخطط فقط للحصول على الشهوة، وكذلك العيون لا ترى إلا ما يستهويها، وكذلك الآذان . وكل منهم يرى غير مراد الرؤية، ويسمع غير مراد السمع .

والفرق بين فقه القلب ورؤية العين وسماع الأذن . . أن فقه القلب هو فهم القضايا التي تنتهي إليها الإدراكات، ونعلم أن الإدراكات تأتي بواسطة الحواس

الخمس، فنحن نعرف أن الحرير ناعم باللمس، ونعرف أن المسك رائحته طيبة بالشم، ونعلم أن العسل حلو الطعم بالذوق.

إذن لكل وسيلة إدراك، وهي من المحسَّات. وبعد أن تتكون المحسَّات يمتلك الإنسان خميرة علمية في قلبه وتنضج لتصير قضية عقلية منتهية ومسلماً بها.

وكلنا يعرف أن النار محرقة؛ لأن الإنسان أول ما يلمس النار تلسعه، فيعرف أن النار محرقة، ويتحول الإدراك إلى إحساس ثم إلى معنى. إذن فالمعلومات وسائلها إلى النفس الإنسانية وملكاتها الحواس الظاهرة، وهناك حواس أخرى غير ظاهرة مثل قياس وزن الأشياء بالحمل. وقد انتبه العلماء لذلك واكتشفوا حاسة اسمها حاسة العضل؛ لأنك حين تحمل شيئا قد تجهد العضلة أكثر إن كان الحمل ثقيلاً.

وحينما ترى واحداً من قريب وواحداً من بعيد، فهذه اسمها حاسة البعد، وكذلك حاسة السير وهي التي تميز بها سمك القماش مثلاً.

كل الحواس - إذن - تربي المعاني عند الإنسان وحين تربي المعاني في النفس الإنسانية تتكون القضايا التي تستقر في القلب.

ولذلك يمتن الحق سبحانه وتعالى على خلقه بأنه علمهم فقال تعالى:

﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾﴾

(سورة النحل)

ونعود إلى قول الحق تبارك وتعالى:

﴿لهم قلوب لا يفقهون بها﴾

والفقه هو الفهم، ويصير الفهم قضية مرجحة تنتهي إليها الاقناع من المرائي والمحسّات، لكنّ هؤلاء الكافرين لا يرون بأعينهم إلا هواهم، وكذلك لا تسمع

آذانهم إلا ما يروق لهم، فلا يستمعون إلى هدى، ولا يلتفتون إلى الآيات التى يستدلون بها على الخالق فتعيش قلوبهم بلا فقه، فهم إذن لهم قلوب وأعين وآذان بدليل أنهم فقهوا بها وسمعوا بها ورأوا بها الأشياء التى تروق لانحرافهم.

ويصف الحق تبارك وتعالى هؤلاء فيقول:

﴿أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾

وهنا وقفة لإثارة سؤال هو: ما ذنب الأنعام التى يُشبه بها الكفار؟ إن الأنعام غير مكلفة وليس لأى منها قلب يفقه أو عين تبصر آيات الله أو آذان تسمع بها آيات الله. هى فقط ترى المرعَى فتذهب إليه، وترى الذئب فتفر منه، وتتعود على أصوات تحركها بها، وكافة الحيوانات تحيا بآلية الغريزة، ويهتدى الحيوان إلى أموره النافعة له ولى أموره الضارة به بغريزته التى أودعها الله فيه، لا بعقله.

والإنسان منا لا يبتعد عن الضر إلا حين يجربه ويجد فيه ضرراً. لكن الحيوان يبتعد عن الضر من غير تجربة بل بالغريزة، لأن الحيوان ليس له عقل وكذلك ليس له قدرة اختيار بين البديلات، وفطره الله على غريزة تُسَيِّرُهُ إلى مقومات صالحة، ومثال ذلك: أنه قد يوجد الحيوان فى بيئة ما، ويعطى الله له لوناً يماثل لون هذه البيئة ليحمى نفسه من حيوانات أقوى منه.

ومثال آخر: نحن نعلم أن الحيوان مخلوق لينفع الإنسان، ولابد أن يتناسل ليؤدى ما يحتاج إليه الإنسان من ذرية هذا الحيوان ويمارس الحيوان العملية الجنسية كوسيلة للتناسل وليست كما هى فى الإنسان، حيث تصير فى بعض الأحيان غاية فى ذاتها، بجانب أنها وسيلة للنسل. ولذلك نجد كثيراً من ظواهر الحياة المتعلقة بالإنسان قد تعلمها من الحيوان مثلما قال الحق تبارك وتعالى:

﴿فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْأَةَ أَخِيهِ﴾

(من الآية ٣١ سورة المائدة)

إذن فالغراب مَهْدِيّ بغريزته إلى كل متطلباته، ولذلك نجد من يقول : كيف نشبه الضال بالأنعام ؟ نقول : إن الضال يختلف عن الأنعام في أنه يملك الاختيار وقد رفع فوق الأنعام، لكنه وضع نفسه موضع الأنعام حيث لم يستخدم العقل كي يختار به بين البدائل. وبذلك صار أضل من الأنعام، وكلمة « أضل » تبين لنا أن الأنعام ليست ضالة، لأنها محكومة بالغريزة لا اختيار لها في شيء. لكن الكفار الذين ذرأهم ربنا لجهنم من الجن والإنس، لا يعرفون ربهم، بينما الأنعام، والجمادات والنباتات تعرف ربها لأن الحق يقول :

﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾

(من الآية ٤٤ سورة الإسراء)

إذن فالأنعام تعرف ربنا وتسبحه وتحمده. وفي آية أخرى يقول المولى تبارك وتعالى :

﴿ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ ﴾

(من الآية ٤١ سورة النور)

وعلى ذلك فكل الجماد - إذن - يعلم صلاته وتسبيحه.

ولذلك قصصنا قصة من قصص العارفين بالله حين يجلسون مع بعضهم البعض كوسيلة تنشيط إلى غايات وأهداف سامية. والعارف بالله من هؤلاء الصالحين يستقبل الأحسن منه في العبادة بالضحك. أما الأحسن منه في أمور الدنيا فيستقبله « بالتكشير »، وقال واحد منهم لآخر : أتشتاق إلى ربك ؟ فرد عليه: لا.

تساءل الآخر : كيف تقول ذلك؟.

قال له : نعم. إنما يُشتاقُ إلى غائب.

﴿ أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾

(من الآية ١٧٩ سورة الأعراف)

ولا نظن أن الضلال لعدم وجود منهج، أو لعدم مُذكِّر، أو لعدم وجود مُنْذِر أو مُبَشِّر بل هي غفلة منهم، فالأمور واضحة أمامهم، لكنهم يهملونها ويغفلون عنها.

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾ ﴾

وحين يقول المولى سبحانه وتعالى ﴿ ولله الأسماء الحسنى ﴾ نقول : إنه لا يوجد لغير الله اسم يوصف بأنه من الحسنى، إن قلت عن إنسان إنه « كريم »، فهذا وصف، وكذلك إن قلت إنه « حليم »، وكلها صفات عارضة في حادث، ولا تصير أسماء حسنى إلا إذا وصف الله بها. فأنت - مثلا - لك قدرة تفعل أفعالاً متعددة، ولله قدرة، لكن قدرتك حادثة من لأغيار، بدليل أنها تسلب منك لتصير عاجزاً، أما قدرة الله تعالى فلها طلاقة لا يحدها شيء. فهي قدرة مطلقة. وأنت قد تكون غنياً، لك غنى، ولله غنى، لكن ثراءك محدود، وأما غنى الله فإنه غير محدود

إذن الأسماء الحسنى على إطلاقها هي لله، وإن وجدت في غيره صارت صفات محدودة مهما اتسعت.

﴿ ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها ﴾

والحسنى.. تأنيث لكلمة « الأحسن » اسم تفضيل، وهي الأسماء الحسنى في صلاحية الألوهية لها، وصلاحيتها للألوهية وحين تقول عنه سبحانه : إنه « رحيم »، فهذا أمر حسن عندي وعندك لأني أنظر إلى رحمته لي، وأنت تنظر إلى رحمته لك. وحين تقول : « غفار »، فأنت وأنا وكل من يسمعها تعود عليه.

وحين تقول : « قهار » وأنت مذنب ستخاف، وهي صفة حسنى بالنسبة للإله؛ لأن الإله لابد أن تكون له صفات جمال وصفات جلال، فصفات الجمال لمن أطاع، وصفات الجلال لمن عصى ولذلك لا تأخذ النعم بمدلولها عندك، بل خذ النعم بمرادات الله تعالى فيها.

وساعة يتكلم الحق سبحانه وتعالى قائلا :

﴿ سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلَانِ ﴿٣١﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٢﴾ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانفُذُوا لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ ﴿٣٣﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٤﴾ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٦﴾ ﴾

(سورة الرحمن)

فهل إرسال الشواظ من النار والنحاس نعمة يقول بعدها . « فبأي آلاء ربكما تكذبان » ؟

نقول : نعم، هي نعمة كبيرة، لأنه سبحانه وتعالى ينبهنا قبل أن توجد النار، أن النار قوية، ويعطي لك نعمة العظة والاعتبار. وعظته وتنبيهه - إذن - قبل أن توجد النار نعمة كبرى، وأيضاً هي نعمة بالنسبة للمقابل، فحين يطيعه المؤمنون في الدنيا ويلزمون أنفسهم بمنهج الله، فلهم ثواب حق الالتزام، والمقابل لهم الذين لم يلتزموا وأخذوا الخروج عن المنهج غاية، يتوعدهم سبحانه بالعقاب، وهذه نعمة كبرى

﴿ ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها ﴾

والحق سبحانه وتعالى عرفنا اسمه بالبلاغ منه، لأننا قد نعرف مسماه من

القوى القادرة وهى التى تعرف بالعقل، لكن العقل لا يقدر أن يعرف الاسم. وسبق أن قلت: لنفترض أن أناساً يجلسون فى حجرة ثم طرق الباب. هنا يجمع الكل على أن طارقاً بالباب، لكن حين دخلوا فى التصور اختلفوا، فواحد يقول: إن لطارق رجل، فيرد الآخر: لا إنها امرأة لأن نقرتها خفيفة، ويقول ثالث: هذه النقرة على الباب تأتى من أعلاه وهى دليل على أن الطارق ضخم، وهو نذير لأنه يطرق بشدة، ويختلف تصور كل الحضور عن الطارق، ولا أحد يعرف اسمه. إذن حين تريد أن تعرف من الطارق، فأنت تسأله من أنت؟ فيقول لك «اسمه».

إذن فإن الاسم لا يدرك بالعقل. ومن خلق الخلق كله قوى، قادر، حكيم، عليم، لأن عملية الخلق تقتضى كل هذا. أما اسم الله. فهذه مسألة لا يعرفها العقل وتحتاج إلى توقيف. إذن فأسماء الله تبارك وتعالى توقيفية، فحين يقول لنا: هذه أسمائى فإننا ندعوه بها، وما لم يقل لنا عليه لا دعوة لنا به، ولذلك يقول تعالى: ﴿فادعوه بها﴾

فإذا أنت نقلت هذا إلى غيره. فأنت تدعو بالأسماء الحسنى سواه، مثلاً كذاب اليمامة مسيلمة سمى نفسه الرحمن، وبذلك ألحد فى اسم الله حيث نقل أحد أسماء ربنا إلى ذاته، ومثله فعل غيره، ألم يسموا «اللات» من الله؟. ألم يسموا «العزّى» من العزيز؟. ألم يسموا «مناة» من المنان؟. كل هؤلاء ألحدوا فى أسماء الله التى لا ندعو غيره بها. ولذلك ورد عنه صلى الله عليه وسلم قوله فى دعائه: اللهم إنى عبدك وابن عبدك وابن أمتك ناصيتى بيدك ماض فىّ حكمك، عدل فىّ قضاؤك أسالك بكل اسم هو لك، سميت به نفسك، أو أنزلته فى كتابك، أو علمته أحداً من خلقك، أو استأثرت به فى علم الغيب عندك أن تجعل القرآن ربيع قلبى ونور صدرى وجلاء همى وذهاب حزنى وغمى»(١)

إذن فهذه الأسماء وضعها ربنا لنفسه، لأنها لا تعرف بالعقل. أما إذا نظرت إلى الأوصاف المبدعة للخلق فأنت تتعرف على هذه الأوصاف؛ لأنه تعالى

(١) رواه الإمام أحمد فى مسنده وابن حبان والحاكم فى المستدرك.

خلق الكون بحكمة وتدبير وقدرة. وأضرب هذا المثل - ولله المثل الأعلى - نحن نؤسس مصانع كثيرة وكبيرة لتصنع المصابيح، فنصنع زجاجاً ونفرغه من الهواء، ونضع داخله أسلاكا تتحمل ذبذبة الكهرباء، وبعد استخدام هذه المصابيح لفترة تفسد، بينما الشمس تضيء الكون كل هذا العمر، من بدء الخلق، ولا تحتاج منا إلى قطعة غيار

وحين نقول هو: «حكيم»، نقولها ونرى أثر ذلك في حركة الكواكب التي تسير منسجمة، وكل كوكب يدور في فلكه ولا يصطدم بآخر، وهذا دليل على أن الكواكب قد خلقت بحكمة.

وينبهنا الحق سبحانه وتعالى أن ندعوه بالأسماء الحسنى في قوله: ﴿ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها﴾ لأنه يريد من خلقه دائماً أن يذكروه؛ لأنه هو الرب الذي خلق من عَدَم، وأمد من عُدْم وصان الخلق بقيومية، وحين تأتي لك حاجة وجب عليك أن تذكر أسماء الله الحسنى وتنادي الله بها، وحين تريد أن تتقرب إلى الله لا تناديه إلا بالاسم الذي وضعه لنفسه وهو «الله»، لأن هذا هو اسم علم على واجب الوجود، وأسماء الله الحسنى كلها صفات وصلت إلى مرتبة الأسماء، وهناك أسماء تدل على مجموع الصفات.

ولله المثل الأعلى أنت تقول: «زيد» فيعرف السامع أن هذا اسم علم على شخص اسمه زيد، ثم له صفات أخرى، كأن يكون تاجراً، أو عالماً متفقها في العلم، أو مهندساً. لكن الاسم العلم هو زيد وهو الذي لا يشترك معه أحد من معارفك فيه وهو زيد، لكن الصفات الأخرى قد يشرك معه فيها غيره.

والأسماء لله نوعان، اسم يدل على ذات الله، الذات المجردة عن أي شيء وهو الله، ولكن هناك صفات لله مثل الرحمن والرحيم والملك والقدوس والسلام والمؤمن والمهيمن، وهذه صفات ارتقت في السمو والعلو لأنه لا أعلى منها، حتى أصبحت إذا أطلقت إطلاق الكمال الأعلى لا تنصرف إلا لله. فصارت أسماء

قد نقول فلان غني، وفلان كريم، وفلان حكيم، لكن الغني على إطلاقه هو لله تعالى.

والأسماء الحسنى ناشئة من صفات مبالغة في العلو فيها، لأنه سبحانه الأكمل فيها وهي في الأصل صفات لها متعلقات فعلية، وهذه نوعان اثنان : نوع يطلق على الله منها اسم ومقابله، ونوع يطلق عليه الاسم ولا يطلق عليه المقابل، ونأتي بصفة شبيهة بالاشتقاق، فنقول : « غني »، ونقول : « مغني » فهو غني في صفة ذاته قبل أن يوجد من يُغنيه. ومغني وجدت بعد وجود من يُغنيه من عباده، وسبحانه حي في ذاته، ومحيي لغيره، والإحياء صفة فعل في الغير. ولابد لها من مقابل، فنقول : محيي ومميت. ولم نقل حي ومقابله، إذن فالاسم الذي ترى له مقابلاً هو صفات الفعل، أما صفات الذات فهي التي لا يوجد لها المقابل ويلحدون في أسماء الله أي يُميلونها إلى غير الله وينقلها الواحد منهم لغير الله أو يأتي باسم للغير ويطلقه على الله، أو يطلق اسماً ليس له معنى أو لا يُفهَم منه أي معنىً على الله. إذن "الإلحاد" يأتي في ثلاثة أشياء : إما أن ينقل أحد أسماء الله إلى غير الله، أو يأتي باسم للغير ويطلقه على الله، أو يطلق اسماً لله من غير أن يكون قد أنزله الله توقيفياً.

﴿ وذروا الذين يلحدون في أسمائه سيجزون ما كانوا يعملون ﴾

ونعلم أن " العمل " هو اسم للحدث من أي جارحة ؛ فنطق اللسان عمل، وشم الأنف عمل، ونعلم أن هناك مايسمى بـ[قول وفعل]، والفعل عمل الجوارح ما عدا اللسان ؛ والقول عمل اللسان، والاثنان يطلق عليهما عمل، ولذلك يقول الحق " تبارك وتعالى في سورة الصف "

﴿ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾

إذن فالقول مقابله الفعل، والجزاء هنا على الفعل والقول لأن كليهما عمل.

وإذا كان لله أسماءٌ كثيرةٌ، فهل يجوز لنا أن نأخذ من فعل الله في شيء اسماً له ؟ وخصوصاً انه القائل :

﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ﴾

(من الآية ٣١ سورة البقرة)

وهو القائل أيضاً :

﴿ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ﴾

(من الآية ١١٣ سورة النساء)

هل يمكن أن نقول : إن الله معلم ؟ وهل يصح أن نأخذ من قوله :

﴿ وأكيد كيداً ﴾

(سورة الطارق)

اسماً هو كائد ؟

لا يجوز ذلك لأن أسماء الله توقيفية ، وإن رأيت فعلاً منسوباً لله فقف عند الفعل فقط ولا تأخذ منه اسماً لله تعالى .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾ ﴾

وبعد أن قال سبحانه : "ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس" أراد أن يطمئن أهل منهج الله ، فلم يقل : "كل الناس" ، بل كثير من الجن والإنس " ، وعرفنا المقابل يكون كثيراً أيضاً بدليل قوله تعالى في سورة الحج : ﴿ وكثير من الناس وكثير حق عليه العذاب ﴾ أي كثير من الناس يسجدون لله وكثير حق عليهم العذاب .

ويعني قول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

أن كون الله لايخلو من هداة مهديين ، لتستمر الأسوة لسلوكية في المجتمع

والأسوة السلوكية في المجتمع هي التي تربي عقائد المواجيد عند الصغار ، فالصغير لا يعرف كيف يصلي ، ولا كيف يصوم ، ولا يميز بين الكذب والصدق ولكنه يتعلم بالتقليد لوالديه ، فالطفل حين يرى والده وأمه ساعة يؤذن للصلاة يقوم كل منهما إلى الوضوء وأداء الصلاة ، هنا يتعلم الطفل كيفية الصلاة ، وحين يتكلم إنسان في سيرة آخر ، يقول الأب أو الأم : لا داعي للخوض في سيرة الآخرين حتى لا نحبط حسناتنا ؛ بذلك يتعلم الطفل كيف يصون لسانه عن الخوض في سيرة الغير ، لأن الأسوة السلوكية تنفع عليه ، بدليل أن الصغير الذي لم يبلغ مبلغ الفهم إذا سمع المؤذن بعد ذلك يقوم من نفسه ليُحضر سجادة الصلاة ويقلد والده ووالدته.

ونفهم من قوله تعالى : ﴿ وبه يعدلون ﴾

إنهم في حكمهم على الأشياء يقيمون العدل بالحق ، أو أن يكون العدل هو نفي الشرك ، وقد يكون العدل في مسألة الكبائر ، أو يقيمون العدل في مسألة الحقوق بين الناس.

﴿ وممن خلقنا أمة ﴾

وقوله في الآية الكريمة : "أمة" يعني أن صفات الكمال المنهجية أكثر من أن يحيط بها واحد لينفذها كلها ، فكل واحد له جزء يقوم به ، فهناك من يتميز بالصدق ، وآخر في الشجاعة ، وثالث في الكرم ، وهكذا تبقى الأسوة في مجموع الصفات الحسنة ، وقد ميز الله سيدنا إبراهيم - على نبينا وعليه السلام - فقال :

﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ ﴾

(سورة النحل)

أي أنه جامع لخصال الخير التي لا توجد إلا في مجتمع واسع ،

﴿ وممن خلقنا أمة يهدون بالحق وبه يعدلون ﴾

رأى أمة من أم الأرض - إذن - هي التي تهدى بالحق ؟ لقد قال سبحانه في قوم موسى!

﴿ وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ ﴾

(من الآية ١٥٩ سورة الأعراف)

ثم جاءت أمة محمد صلى الله عليه وسلم ولا رسول بعده، لذلك تظل هذه الأمة المسلمة مأمونة على صيانة منهج الله إلى قيام الساعة.

فإذا رأيت إلحاداً انتشر فاعلم أن لله مدداً، وكلما زاد الناس في الإلحاد، زاد الله في المدد، وحتى إن صارت بلد مسلمة غارقة في الفسق فقد يكون فيها واحد يجمع كل هذه الصفات الكريمة الهادية إلى الحق لتبقى شريعة الله مصونة بالسلوكيين المتابعين لمنهج الله.

إذن فالحق سبحانه وتعالى ترك للفساد أن يصنع الشر، ولسائل أن يسأل: ما لزوم هذا الشر في كون خلقه الله على هيئة محكمة ؟ نقول! لولا أن الناس يضارون بالشر؛ لما تنبهوا إلى حلاوة الخير، ولو أن الإنسان لم يصب من أصحاب الباطل بسوء؛ ما تحمس للحق أحدٌ، ولا عرف الناسُ ضرورة أن يتأصل الحق في الوجود، فللشر - إذن - رسالته في الوجود. وهو أن يهيج إلى الخير، فكما درأ الله لجهنم كثيراً من الجن والإنس؛ أوضح سبحانه وتعالى في قوله: «وَمِمَّنْ خلقنا أمة يهدون بالحق، وبه يعدلون» في الحكم، عدلاً في القمة؛ وهو ألا يشركوا بالله شيئاً، لأن أول مخالفة لقضية العدل هي مخالفة الشرك وهو ظلم عظيم. فالشرك والعياذ بالله ينقل الأمر من مستحقه إلى غير مستحقه، وكذلك تحريم ما أحل الله، أو حل ما حرم الله، وكل ذلك ظلم، وكذلك عدم حفظ التوازن في الحقوق بين الناس، فإن لم يحصن العدل بحفظ الحقوق بين الناس من حاكم وولي ومسلط؛ سنجد كل إنسان وهو يضن بجهده في الحياة يكتفي بأن يصنع على قدر حاجته بحيث لا يترك للظالم أن يأخذ منه شيئاً، فلا يتحرك في الحياة إلا حركة محدودة، ولا يعمل إلا بقدر ما يكفيه فقط، فإذا ما حدث ذلك؛ فلن يجد الضعاف الذين لا يقدرون على الحركة الإنتاجية أي فائض ليعيشوا به.

إذن أراد الله أن يضمن بالعدل عَرَق وتعب كل واحد. فأوضح له أن ما تكسبه من حل هو ملك لك. لكنّ لله حق فيه، وأنت لك الباقي، حتى يجد الضعيف الذي لا يقدر على حركة الحياة من يقيته. ولذلك يحذرك المنهج الإيماني مقوله إياك أن تستكثر أن تدفع للضعيف، لأن قوتك التي استعملتها في تحصيل هذا المال إنما هي عرض لا يدوم لك، فإن أخذنا منك وأنت قوي قادر على الحركة، سنأخذ لك حينما تكون عاجزاً لا تقدر على الحركة، وذلك هو التأمين والعدالة.

وبالنسبة للأمة في تلك الآية ﴿ ومن خلقنا أمة يهدون بالحق وبه يعدلون﴾

فقد جاء في الآثار أن المراد بالأمة في هذه الآية الأمة المحمدية، قال قتادة: بلغني أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول: إذا قرأ هذه الآية: هذه لكم وقد أعطى القوم بين أيديكم مثلها«ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون»[1]

ويخاطب النبي صلى الله عليه وسلم صحابته بقوله: هذه لكم، أي في أمتكم ويؤكد ذلك قول الله سبحانه وتعالى:

﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ﴾

(من الآية ١١٠ سورة آل عمران)

وكلمة "للناس" هنا تفيد أن الله لم يجعل خيرية الأمة المحمدية وهي أمة الإجابة للمؤمنين فقط، بل جعل خيريتها للناس جميعاً؛ مؤمنهم وكافرهم.

﴿ ومن خلقنا أمة يهدون بالحق وبه يعدلون ﴾

وذكر "أمة" لأن خصال الخير لا يمكن أن تجتمع في إنسان واحد، بل كل واحد يأخذ لمسة من خير، هذا فيه ذكاء، وذاك فيه شجاعة، وذاك عنده مال، وذلك له خلق. فكأن الأمة المحمدية قد وجد في أفرادها ما يجمع المواهب

(١) تفسير ابن كثير المجلد الثاني، والطبري المجلد السادس.

الصالحة للخلافة في الأرض.

ويأتي الحق بعد ذلك بمقابلهم، لأن مجيء الشيء بمقابله أدعى إلى أن يتمكن من النفس فيقول سبحانه

﴿ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

وهؤلاء هم المقابلون للذين خلقهم الله أمة يهدون بالحق وبه يعدلون، و لآيات جمع آية، وقلنا : إن لآيات التي في الكون ثلاث ؛ آيات تنظرها لتهتدي بها إلى من صنع ذلك الكون المترامي الأطراف بتلك الدقة العظيمة، وذلك الإحكام المتقن، آيات تلفتك مثل الليل والنهار والشمس والقمر، وكذلك آيات تخرق ناموس الكون لتثبت صدق الرسول بالبلاغ عن الله، وآيات قرآنية تحمل منهج الله. والذين كذبوا بآيات الله الكونية ولم يعبروا بها، ولم يستنبطوا منها وجود إله قوي قادر حكيم، وكذبوا لآيات المعجزات لصدق النبوة. وكذلك كذبوا آيات القرآن فلم يعملوا بها، ولم يتمسكوا بها ؛ هؤلاء يلقون الحكم من الله فلن يدخلهم الحق النار فقط، بل لهم عذاب أقرب من ذلك في الدنيا، لأن المسألة لو أجلت كلها للآخرة لاستشرى بغي الظالم الذي لا يؤمن بالحياة الآخرة، لكن من يؤمن بالآخرة هو من سيحيا بأدب الإيمان في الكون، وتكون حركته جميلة متوافقة مع المنهج. عكس من يعربد في الكون؛ لذلك لابد أن يأتي العقاب لمن يعربد في الكون أثناء الحياة الدنيا، وسبحانه وتعالى القائل

﴿ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ ﴾

(من الآية ٤٧ سورة الطور)

أي أن لهم عذاباً قبل الآخرة.

ويقول الحق بعد ذلك عن العذاب في الدنيا :

﴿ والذين كذبوا بآياتنا سنستدرجهم من حيث لا يعلمون ﴾

وحين تقول : أنا استدرجت فلانا، فأنت تعني أنك أخذت تحتال عليه حتى يقر بما فعل ، مثل وكيل النيابة حين يحقق مع المجرم، ويحاصره بالأسئلة من هنا، ومن هناك ، إلى أن يقر ويعترف، وهذا هو الاستدراج. و"الاستدراج" من الدرج ونسميه في لغتنا اليومية "السلّم" وهو وسيلة للانتقال من أسفل إلى أعلى ومن أعلى إلى أسفل فمن المستحيل على الإنسان أن يقفز بخطوة واحدة إلى الدور الخامس مثلا في عمارة ما ، ولذلك صمموا الصعود على درجات إلى مستويات متعددة على وفق الحركة العادية للنفس، وهناك من يجعل علو الدرجة مثلاً اثنى عشر سنتيمتراً بحيث يستطيع كل إنسان أن يرفع قدمه ويضعها على الدرج دون إرهاق النفس، وهذا يعني أننا نستدرج لنعلو لنصل إليه أو ننزل منه.

وقد خصوا في الآخرة الجنة بالدرجات العليا، والنار بالدركات السفلى.

وهنا يقول الحق :

﴿ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

أي نأخذهم درجة درجة ، ونعطي لهم نعمة ثم نرهقهم بما وصلوا إليه، كما قال سبحانه من قبل :

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَـٰهُم بَغْتَةً ﴾

(من الآية ٤٤ سورة الأنعام)

لأن الله حين يريد أن يعاقب واحداً على قدر جرمه في حق أخيه الإنسان في الدنيا يأخذه من أول جرم؛ لأن الأخذة في هذه الحالة ستكون لينة ، لكنه يملي له ويعليه ثم يلقيه من عَلٍ.

﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً ﴾

(من الآية ٤٤ سورة الأنعام)

وهكذا يكونُ الأخذُ أخذ عزيز مقتدر.

وحين يَستدرجُ البشرُ، فإن الطرف المستدرج له أيضاً ذكاء، ويعرف أن هذا نوع من الكيد وقمع منصوب له، لكنّ حين يكون ربنا القوى العزيز هو الذى يستدرج فلن يعرف أحد كيف يفلتَ. والعلة فى قوله: "سنستدرجهم" هى قوله: ﴿من حيث لا يعلمون﴾؛ لأن البشر يعلمون طرق استدراج بعضهم لبعض.

ويقول الحق بعد ذلك:

﴿ وَأُمْلِي لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾ ﴾

والإملاء هو الإمهال وهو التأخير، أى أنه لا يأخذهم مرة واحدة، فساعة يقوم الفاسد بالكثير من الشر فى المجتمع، نجد أهل الخير وهم يزيدون من فعل الخيرات، ونسمع دائماً من يقول: لو لم يكن هناك إيمان لأكل الناسُ بعضهم بعضاً، فالإيمان يُعطى الأسوة واليقين. والإملاء للظالم الكافر ليس إهمالاً له من المولى تعالى، بلْ هو إمهال فقط، ثم يأخذه الله أخذ عزيز مقتدر، وهذا يوضح الحق. إذا كنت سأستدرج وسأملى فاعلم أن كيدى متين والكيد هو المكر، والمكر أخذهم من حيث لا يشعرون وهو عملية خفية تسوء المكور به.

وهو تدبير خفى حتى لا يملك المكور به ميكانات الدفع. وإذا كان البشر يمكرون ويدبرون تدبيراً يخفى على بعضهم، فماذا حين يدبر الله للكافرين مكيدة أو مكراً؛ أيستطيع واحد أن يكشف من ذلك شيئاً؟. طبعاً لن يستطيع أحد ذلك. هذا هو معنى ﴿إن كيدى متين﴾؛ ومتين أى قوى، والمتانة مأخوذة من المتن وهو الظهر، ونعرف أن الظهر مكوّنٌ من عمود فقرى وفقراته عظمية، تحيط بها عضلات. فلو كان العمود الفقرى من عظم فقط لكان

أي حمل عليه يكسره، فشاءت حكمة رب عز وجل واقتضت رحمته وقدرته أن يحاط هذا العظام بعضلتين كبيرتين، وهما ما نسميه في عرف الحرارين "الفلتر" لحمية الظهر وتقويته ورقابته.

وإذا نظرنا إلى كلمة "متين"، نجد "متن" هو الشيء المعمودي في الأشياء، وفي العلم مثلاً ندرس المتنة وندرس المحو، ويقال هذا هو المتن في الفقه، أي الكلام الموجز الذي يحتوي العلم في كلمات محددة، والذكي هو من يستوعبه وغالباً نجد مع المتن الموجز شرحاً للمتن، ثم حاشية للمتن.

ويقول الحق بعد ذلك

﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٨٤﴾ ﴾

وهنا يُنبِّه الحق سبحانه وتعالى كل الخلق أن يتفكروا في أمر الرسول المبلغ الذي يقرأ عن القوة الغيبية مرادها من الخلق. وأول ما يستحق التفكير فيه أن نعرف هل هذا الإنسان الذي يقول إنه رسول صادق أو غير صادق؟ ولقد ثبت صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم من قبل نزول الرسالة عليه، وجاءت الرسالة لتأخذ بيد الخلق إلى الإيمان بالله. لكنهم لا يريدون أن يسمعوا، ليوجدوا لأنفسهم مبررات بالكفر عن المنهج، فقال بعضهم اتهاماً للرسول. إنه مجنون، مثلما قال بعضهم من قبل إنه ساحر، وكاهن، وقالوا: شاعر ويرد ربنا على كل تلك الأقاويل.

وتتساءل: من هو المجنون؟

نعلم أن المجنون هو من فقد التوازن الفكري في الاختيار بين البدائل، وحين يأخذ الله منه هذه القدرة على التوازن الفكري، يصبح غير أهل للتكليف، لأن التكليف فيه اختيار أن تفعل كذا أو لا تفعل كذا، والمجنون لا يملك القدرة على هذا الترجيح.

والحق سبحانه وتعالى لم يكلف الإنسان إلا حين يبلغ ويعقل؛ لأنه حين يبلغ تصير له ذاتية مستقلة عن أهله وعن أبيه وأمه؛ لذلك نلاحظ الصغير وهو صغير يختار له والدُه أو والدتُه الملابس والطعام، وبعد أن يكبر نجد العمل قد صار مراهقاً يتمرد ويقرر أن يختار لنفسه مايريده لأنه قد صارت له ذاتية، والذاتية - كما نعلم - توجد في النبات وفي الحيوان والإنسان وذلك بمجرد أن يصير الفرد منه قادراً على إنجاب مثله، سواء كان هذا الفرد من النبات أو الحيوان أو الإنسان أما إن كان الإنسان قد صارت له ذاتية في الإنجاب والنسل، وليست له ذاتية ناجحة عاقلة في التفكير؛ فهذا يسقط عنه التكليف؛ لأنه مكره بفقدان العقل.

وهكذا نعرف أن التكليف يسقط عن الذي لم يَبْلُغ، والمجنون والمكره ممن هو أقوى منه، وهذه عدالة الجزاء من الحق، وهكذا نجد أن التكليف لا يلزم إلا من بلغ جسمه ونضج عقله، وبهذا يحرس ربنا الكون بقيُّوميته.

وإذا كان المجنون هو فاقد الميزان العقلي الذي يختار بين البديلات، فكيف يقولون ذلك على سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام وهو قد عاش بينهم، ولم يكن قط فاقداً لميزان الاختيار بين البديلات، بل كانوا يعتبرونه الصادق الأمين، وكانوا يحفظون عنده كل غالٍ نفيس لهم حتى وهم كافرون به. وخلقه الفاضل ذاتي مستمر ودائم.

لقد فاتهم ذلك على محمد ظلماً له، وبغَرْغَائيَّة، وكل واحد يلقي اتهاماً ليس له من الواقع نصيب؛ لذلك قال الحقّ تبارك وتعالى لأصحاب هذه الاتهامات:

﴿ قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ﴾

(من الآية ٤٦ سورة سبأ)

أي أن يجلس كل اثنين ويتدارسا: هل محمد عاقل أم مجنون؟ وسيجد كل منهما من واقع تجربته أنَّ محمداً هو أكثر الناس أمانة، وكان الجميع يسمونه

الأمين ، حتى قبل أن يتصل به الوحى ، وليس من المعقول أن يضره الوحى ، أو أن يفقد بالوحى توازنه الخلقى ، لذلك قال الحق سبحانه وتعالى :

﴿ نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝١ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ۝٢ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ۝٣ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤ ﴾

(سورة القلم)

كان خُلُق رسول الله صلى الله عليه وسلم خُلُقاً عظيماً؛ لأن الخُلُق هو الصفات التى تؤهل الإنسان لأن يعيش فى مجتمع سليم وهو سالم ومادام خُلُقه سليماً ، فمعيار الحكم عنده سليم .

وبعد ذلك قالوا عنه : إنه "ساحر" ، ونقول لهؤلاء : لماذا إذن لم يسحر كبار رجال قريش ليؤمنوا برسالته ؟ إن كل ذلك جدل خائب ، والمسألة ليس فيها سحر على الإطلاق

﴿ أو لم يتفكروا ما بصاحبهم من جنة إن هو إلا نذير مبين ﴾

الجنة التى تقولون عليها وتفترون بها على رسول الله صلى الله عليه وسلم - هى منتهى العقل ومنتهى الخلق ، فمحمد صلى الله عليه وسلم نذير واضح ، جاءكم أولاً بالبشارة ، لكنكم فى غيكم لا تستحقون البشارة ، بل تستحقون الإنذار .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ ۖ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ۝١٨٥ ﴾

وبذلك ينتقل الجدل من الرسول المباشر لهم الذى يأخذ بيدهم إلى الإيمان الأعلى ، ينتقل الجدل إلى التفكر ومسئوليته :

﴿ أو لم ينظروا في ملكوت السموات والأرض ﴾

والتفكر هو إعمال لعقل حتى لا يقولنّ أحد : إن رسول الله مجنون، لأن مجرد النظر في الكون يجعل الإنسان رائيا للسماء مرفوعة بلا عمد، والأرض مبسوطة والهواء يتحرك في انتظام دقيق.

﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾

إذن فوقنا سماء، وهناك ما فوق السماء، وتحتنا الأرض، وفيها ما تحت الأرض، وهناك ما بين السموات والأرض. وما نراه في الظاهر هو ما يسمونه « مُلْك » أما الخفي عنك الذي لا تقدر أن تصل إليه بمعادلات تستخرج منها النتائج فاسمه « ملكوت ».

ويقول سبحانه في سيدنا إبراهيم :

﴿ وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾

(من الآية ٧٥ سورة الأنعام)

فكلمة « ملكوت » معناها مبالغة في الملك، مثل رهبوت أي الرهبة الشديدة، ورحموت أي الرحمة الشديدة، وكلها صيغة « فعلوت » وهي صيغة المبالغة.

﴿ أو لم ينظروا في ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شيء ﴾

ونحن نرى السماء والأرض بوضوح، ولكن لعظمة والسر ليسا في السماء والأرض فقط. بل هناك أشياء دقيقة جداً، بلغت من اللطف أنها لا تدرك بالنظر، ومع ذلك فإن فيها الحكمة العليا للخلق. وأنت قد ترى ساعة « بيج بن » الشهيرة في لندن وتكاد أن تكون أضخم ساعة في العالم، لكن الصانع المحترف من البشر صنع ساعة يد صغيرة في حجم الخاتم، ونتبهر ونعجب بدقة عمله وصنعته. فما بالنا بالخالق الأعظم الذي يعظم خلقه من السموات والأرض لأنها فوق إدراكات البشر، وخلق أيضاً مخلوقات دقيقة لطيفة

لا تستطيع أن تدركها أنت بمجرد النظر، كالميكروب، أو تدركها بصعوبة كالبندية والبعوضة ولكن هذه الكائنات كل مقومات حياتها، حتى الكائن الذي لا معدة له يحضره خالقه بقدرة على امتصاص غذائه مباشرة بعمله أو غريزته ويسعى ليأكل ويملأ معدته وله أجهزة تحول غذاءه ليكون دماً.

إذن فليست العظمة مقصورة على خلق السموات والأرض فقط، لذلك يقول الحق

﴿ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ ۖ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴾

أي من أول شيء يقال له شيء، صار محكوماً عليه وجودياً، بأنك إن نظرت إليه ستجد الأجهزة التي تعطي له حياته، وتغيبه، حتى وإن كانت حواس الاستشعارية في ذات هذا الكائن، ولا يقوى عليها صاحب العقل مثل ذلك تجد أن ما يضر قبل حدوث الزلازل هو الحمير التي تنهمها بالغباء.

وحين يتأمل العقل ما وصل إليه العلم في البحث في عالم الحيوان وعالم البحار، سيجد الإيمان بصورة وجود خالق حكيم. وإن كان الكافرون مصروفين عن النظر في ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من كائنات قد لا تراها العين المجردة، كان عليهم أن يراعوا مصلحتهم فعسى أن يكون قد اقترب أجلهم

إننا نعلم أن الإنسان جنس، وأن له نوعين نوع ذكورة، ونوع أنوثة، ويسمى جنس مثنيه بسميه خنثى، والأجناس لها أفراد متعددة وكل واحد له حق، وكل واحد له موهبة، وكل واحد له مهمة وساعة يطلب ما تحق إياك أن تستصغر شيئاً منك ضد غيرك، وإياك أن تستكثر شيئاً منك لغيرك، ويجب عليك أن تجعل كلمة «شيء» هذه هي القياس، وبذلك يقول لك الشرع إنك حين تقدم حسنة إياك أن تستكثرها، بل قل هي ليست بشيء دي بال. وإن هم واحد بعمل سيئة فلا يقل ومن ستعمل لي سيئة واحدة ؟

مستصغراً شأن هذه السيئة. وهذا نقول له: لا، لأن كلمة «شيء» يجب أن تحكم الكون. إنك إن نظرت لهذه المسألة قد تجد واحداً مثلاً صئيل التكوين، ولا بسطة له في جسمه، لكن من الجائز أن له موهبة كبيرة، وقد تجد إنساناً آخر متين التكوين وليست عنده أية موهبة؛ لأن الله قد يعطي الضئيل فكراً عميقاً، أو حيلة كبيرة، أو موهبة خاصة في أي شيء. فلا تنظر إلى شيء قليل في أي إنسان، بل انظر إلى الشيء الجميل الذي فيه وهو المخفي عنك في نفسك.

﴿وأن عسى أن يكون قد اقترب أجلهم فبأي حديث بعده يؤمنون﴾

ولماذا تأتي هنا حكاية اقتراب الأجل؟ وللإجابة عن التساؤل أقول: إنها هامة جداً؛ لأننا مادمنا أفراداً أي جنسين أو ثلاثة أجناس، وقال عنا ربنا إننا خلفاء في الأرض، فعلينا أن نعلم أن الخليفة في الأرض جاء ليخلف من سبقوه، وقد يُميت ربنا أي إنسان في سن شهر أو سنة، أو سنتين أو خمسين عاماً؛ لأن العمر بالنسبة لكل إنسان هو أمر قد اختص به الحق - تبارك وتعالى- نفسه ولا يعلمه أحد؛ لأن غاية المتساوي لابد أن تكون متساوية، وعلى سبيل المثال: إن سألنا طلبة كلية الحقوق عن غايتهم من دراسة الحقوق قالوا: لنيل إجازة الليسانس، وستجد منهم الطويل، والقصير، والأبيض، والأسود، والذكي والغبي، والقوي والضعيف، وهم لا يتفقون إلا على دراسة الحقوق، وكذلك لا نتساوى جميعاً كبشر إلا أمام الموت، فهناك من يموت وهو في بطن أمه، ومن يموت وهو طفل، ومن يموت وهو فتي. وإن كنا نختلف فيما بقي بعد ذلك، والمؤمن أو الكافر يرى هذه الأحداث أمامه ولا يستطيع أن يقول: لا لن أموت.

ومادمت ستموت فانظر إلى مصلحتك أنت، لتثاب على ما فعلت في الدنيا بدلاً من أن تعاقب، فعسى أن يكون قد اقترب أجلك وأنت لا تعرف متى يجيء الأجل، وإبهام الأجل من الله لنا إشاعة للأجل، والإبهام هو أوضح أنواع البيان، فحين يريد ربنا أن يوضح أمراً توضيحاً كاملاً فهو يبهمه.

ومثال ذلك: لو جعل الله للموت سناً، لصار الأمر محدداً بلا أمل، لكنه

سبحانه لم يجعل للموت سناً أو سبباً، وأشاعة فى كل زمن، والإنسان عرضة لأن يستقبل الموت فى أى لحظة، ونزول الموت لا يتوقف على سبب، فقد يأتى بسبب وقد يأتى بغير سبب، ومادام الإنسان يستقبل الموت فى أى وقت، فعلى العاصى ألا يستقبل الموت وهو على عصيان لله.

وإياك أن تقول: كيف مات فلان وهو غير مريض ؟؛ لأن هناك العديد من الأسباب للموت، واعلم أن الموت بدون أسباب هو السبب، فالإنسان الذى نفقده بالموت، مات لأن أجله قد انتهى، والحق هنا يوضح: أيها الكافرون ألا تعلمون أن منكم من مات وعمره سنة ومن مات وعمره سنتان، ومن مات وعمره ثلاث سنوات، ومن مات وهو ظالم، ومن مات وهو مظلوم، ولو لم تكن هناك حياة ثانية فماذا تساوى هذه الحياة ؟. وما ذنب الذى لم يعش فى الدنيا إلا شهرا ؟ لابد إذن أن تعرفوا أن هناك غاية ثانية تنتظركم، غايات فردية هى آجال الناس بذواتهم، وآجال إجماعية تتمثل فى يوم القيامة.

وفى قوله تعالى ﴿ فبأى حديث بعده يؤمنون ﴾

يوضح الحق تبارك وتعالى: أنه إذ كان هذا الحديث الذى أنزلته إليهم وفيه ما فيه من الإعجاز ومن الإبداع، ويجمع كل أنواع الكمالات، فماذا يريدون أكثر من ذلك ؟

وهل فى انتباههم للأهواء والتفتينات بعضهم لبعض سعادة لهم ؟ بالعكس إنهم يشقون بذلك. وكان يجب عليهم أن يتأدبوا مع الله ومع الرسول.

ولذلك يقول سبحانه وتعالى:

﴿ مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ وَيَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٨٦﴾ ﴾

وقد كرر الحق هذا التحذير كثيراً؛ لأن الأشياء التي قد يقف العقل فيها، أو تأخذه مذاهب الحيرة منها، ويكررها الله، ليجعلها في بؤرة الاهتمام دائماً، لعل هذا التكرار يصادف وعياً من لسامع. وانظر إلى الحق وهو يعدد نعمه في سورة الرحمن فيقول بعد كل نعمة:

﴿ فبأي آلاء ربكما تكذبان ﴾

إنه يكرر ذكر النعم ليستقر الأمر في ذهن السامع

﴿ من يضلل الله فلا هادي له ﴾

وسبحانه لا يرغم واحداً على أن يهتدي، فإن اهتدى فلنفسه، وإن لم يهتد فليشرب مرارة الضلال.

وكلنا يعرف أن الطبيب يكتب أسلوب العلاج للمريض، يتم الشفاء بإذن من الله، الدواء إذن وسيلة إلى العافية، فإن رفض المريض تناول الدواء فهل في ذلك إساءة للطبيب؟ لا. وكذلك منهج الله.

﴿ من يضلل الله فلا هادي له ﴾

لكن هل يريد الله الضلال لأحد، لا، بل سبحانه دعا الناس جميعاً بهداية الدلالة، فمن اهتدى زاده بهداية المعونة، ومن ضل فليذهب إلى الكفر كما شاء. ولذلك يقول لنا الشرع: إياك أن تشرك بالله شيئاً في أي عمل؛ لأن ربنا يقول لنا في الحديث القدسي الذي يرويه لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ربه فيقول: قال الله تبارك وتعالى: ﴿ أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملاً أشرك فيه غيري تركته وشركه ﴾ (١)

ومعنى الشركة في عرف البشر، أن مجموعة من الناس عرفوا أن عمل كل منهم ومال كل منهم، وموهبة كل منهم، لا تكفي لإقامة مشروع ما، لذلك يكونون شركة لإنتاج معين، فهل هناك ما ينقص ربنا ليستكمله من آخر؟ حاشا

(١) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه في باب تحريم الرياء.

لله. بل إن مجرد توهم العبد بأن هناك شريكا يجعل الله رفضاً لعبادة العبد المشرك. لذلك نقول في الحديث القدسي: «أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملاً أشرك فيه غيري تركته وشركه». ومادام ربنا قد تنازل عن رعايته له فليتلق التعب من حيث لا يدري.

ومن قوله تعالى:

﴿من يضلل الله فلا هادي له﴾

نتبين أنه حين يحكم الله بضلال إنسان أو بهداية آخر فلن يستطيع البشر أن يعدّل على الله، بجعل شيئاً من ضلال هو هدى، أو شيئاً من هدى هو ضلال.

كما يتضح من تلك الآية الكريمة أن من في قلوبهم مرض يزيدهم الله مرضاً ويتركهم في طغيانهم يعمهون، والعمه هو فقدان القلب للبصيرة، والعمى هو فقدان العين للبصر.

ويقول الحق - تبارك وتعالى - بعد ذلك:

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾

﴿١٨٧﴾

والمسئول هو رسول الله صلى الله عليه وسلم، والسائل إما هم اليهود الذين سألوه عن الساعة، وعن الروح، وعن ذي القرنين، فكان الجواب منه مطابقاً لما عندهم في التوراة لأنهم ظنوا أن الكلام الذي يقوله محمد إنما يأتي منه جزافاً

بدون ضابط وليس من رب يتنزل فلما أجاب بما عندهم في التوراة، علموا أنه لا يقول الكلام من عنده، ولذلك سألوه أيضاً عن أهل الكهف وما حدث لهم، وكانوا جماعة في الزمن الماضي، واتفقوا معه على كل شيء حدث لأهل الكهف إلا على الزمن فنزل القرآن يحدد هذا الزمن بقوله سبحانه:

﴿ وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا ﴿٢٥﴾ ﴾

(سورة الكهف)

فقال اليهود: الثلاثمائة سنة نعرفها، أما التسعة فلا نعرفها، وما علموا أن الحق سبحانه وتعالى يؤرخ لتاريخ الكون بأدق حسابات الكون لأن ربنا هو القائل:

﴿ إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ ﴾

(من الآية ٣٦ سورة التوبة)

إذن التوقيتات كلها حسب التوقيت العربي، ونعلم أن الذين يريدون أن يحكموا التاريخ حكماً دقيقاً فهم يؤرخون له بالهلال، والمثل أن كل عالم البحار تكون الحسابات المائية فيها كلها بالهلال، لأنه أدق، وأيضاً فالهلال آية تعلمنا متى يبدأ الشهر، ولا نعرف من الشمس متى يبدأ الشهر؛ لأن الشمس دلالة يومية تدل على النهار والليل، بينما القمر دلالة شهرية، ومجموع الاثنى عشر هو الدلالة السنوية. لكنهم لم يفطنوا إلى هذه، وأخذوها على الثلاثمائة سنة بالحساب الشمسي، وأضاف الحق: ﴿ وازدادوا تسعا ﴾ لأنك إن حسبت الثلاثمائة سنة الشمسية بحساب السنة القمرية تزداد تسع سنين.

ومادة السؤال في القرآن ظاهرة صحية في الإيمان؛ لأن الإيمان إنما جاء ليحكم حركة الحياة بـ« افعل » و « لا تفعل »، وساعة يقول الشرع: افعل، ففي ظاهر هذا الفعل مشقة، وساعة يقول: لا تفعل ففي ظاهر هذا الطلب أنه سهل ومرغوب، والمنع عنه ينافض شهوات النفس. وللتأكد من أن الأسئلة ظاهرة صحية من المؤمنين نجد أسئلة كثيرة موجهة لرسول الله من أمته، حكاها القرآن بصور متعددة، ورد السؤال مرة بفعل مضارع مثل قوله: « ويسألونك»؛ ومرة

ورد بصورة فعل ماض « وإذا سألك ». وكثيراً ما جاء السؤال بهيئة المضارع « يسألونك »، لأن المضارع يكون للحال وللاستقبال.

وجاءت الأسئلة بالقرآن فى صيغة المضارع خمس عشرة مرة، وجاءت بصيغة الماضى مرة واحدة. وإن نظرت إلى الخمس عشرة مرة تجد كل مرة منها جاءت لتبين حكماً. وإذا نظرنا إلى مادة الفعل « يسأل » فى القرآن وبترتيب المصحف، نجد القرآن يقول:

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ ﴾

(من الآية ١٨٩ سورة البقرة)

ويقول سبحانه:

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ﴾

(من الآية ٢١٥ سورة البقرة)

ويقول الحق تبارك وتعالى:

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ﴾

(من الآية ٢١٧ سورة البقرة)

ويقول سبحانه وتعالى:

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ ﴾

(من الآية ٢١٩ سورة البقرة)

ومرة أخرى يقول فى ذات الآية السابقة:

﴿ ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو ﴾

ويقول سبحانه وتعالى :

﴿ ويسألونك عن اليتامى قل إصلاح لهم خير ﴾

(من الآية ٢٢٠ سورة البقرة)

ويقول عز وجل .

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ﴾

(من الآية ٢٢٢ سورة البقرة)

ويقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ ۖ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ﴾

وبعد ذلك فى سورة الأعراف يقول :

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ﴾

(من الآية ١٨٧ سورة الأعراف)

وأيضاً يقول سبحانه :

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ﴾ (من الآية ١٨٧ سورة الأعراف)

ثم يقول الحق.

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ﴾ (من الآية ١ سورة الأنفال)

ويقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى ﴾ (من الآية ٨٥ سورة الإسراء)

ويقول المولى سبحانه :

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ ﴾

(سورة الكهف)

ويقول الحق :

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ ﴾

(سورة طه)

و يختم هذه الأسئلة بقوله .

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ ﴾

(سورة النازعات)

تلك هى خمس عشرة آية جاء فيها الحق بقوله « يسألونك »، وآية واحدة يقول فيها الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾

(من الآية ١٨٦ سورة البقرة)

والآيات الخمس عشرة التى جاء فيها الحق بصيغة المضارع « يسألونك » نجد كل جواب فيها مُصدرا بـ « قل » وهو أمر للرسول : قل كذا ، قل كذا ، ولكن فى الآية الواحدة التى جاء فيها بصيغة الفعل الماضى و « إذا سألك »، لم يقل : فقل إنى قريب، بل قال : « فإنى قريب أجيب دعوة الداع »، لأن الله يعلم حب محمد لأمته ، وحرصه عليهم ولذلك يقول :

﴿ لَعَلَّكَ بَـٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ ﴾

(سورة الشعراء)

ويقول سبحانه :

﴿ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾ ﴾

(سورة الكهف)

ولذلك حين علم الحق عدم وقوع : أن رسول الله مهتم بأمر أمته ومشغول بها وحريص على أن يشملها الله بمغفرته ورحمته وألا يسوؤه فيها ، أخبره المولى عز وجل بأنه سوف يرضيه في أمته . وقد ورد في الحديث ما يؤيد ذلك ، فقد روى عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم تلا قول الله عز وجل في إبراهيم صلى الله عليه وسلم ﴿ رب إنهن أضللن كثيرا من الناس فمن تبعني فإنه مني ومن عصاني فإنك غفور رحيم ﴾

وقول عيسى صلى الله عليه وسلم : ﴿ إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم ﴾ (فرفع يديه فقال . أمتي أمتي وبكى فقال الله عز وجل : ياجبريل اذهب إلى محمد وربك أعلم فَسَلْهُ ما يبكيه ؟ فأتاه جبريل فأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم بما قال وهو أعلم ، فقال الله تعالى : ياجبريل اذهب إلى محمد فقل إنا سنرضيك في أمتك ولا نسوؤك) (١)

وتأكيداً لعلم الحق تبارك وتعالى من حرص رسوله على أمته ، أراد أن يكرم هذه الأمة من نوع ما كرّم به الرسول ، فجاء الخطاب في آية الدعاء بدون « قل » .

﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ﴾

(من الآية ١٨٦ سورة البقرة)

وأراد الله أن يبين لمحمد ولأمته أن الله يعلم لا بما تسألونه فقط ، بل يعلم ما سوف تسألونه عنه . لذلك نجد أربع عشرة آية تأتي فيها « يسألونك » وتكون الإجابة « قل » ، والآية الخامسة عشرة جاء فيها « يسألونك » وكانت الإجابة « فقل » لنبدل « الفاء » على أن السؤال لم يقع بعد ، فكأن الفاء دلت على شرط

(١) رواه مسلم

مثلما هو : إن سألوك فقل ينسفها ربي نسفاً، وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

و« يجليها » أي يُظهرها، وهناك ما يسمى « الجلوة » وما يسمى « الخلوة »، و« الجلوة» أن يظهر الإنسان للناس، و« الخلوة » أن يختلي عن الناس ، و« لايجليها» أي لا يظهرها، و« لوقتها » ترى أنها مسبوقة باللام، ويسمونها في اللغة العربية « لام التوقيت »، مثلما يقول الحق سبحانه :

﴿ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ ﴾

(من الآية ٧٨ سورة الإسراء)

وهي بمعنى « عند »، ومعنى دلوك الشمس، أنها تتجاوز نصف السماء، وتميل إلى المغرب قليلاً وقوله : « لا يجليها لوقتها إلا هو » أي لا يُبيِّنها عند وقتها إلا هو سبحانه وتعالى .

﴿ ثقلت في السموات والأرض لا تأتيكم إلا بغتة ﴾

والثقل يعني أن تكون كتلة الشيء أكبر من الطاقة التي تحمله ؛ لأن الكتلة إن تساوت مع الطاقة فهي لا تثقل على الحمل .

أو أن الطاقة التي تحمل لم تقدر على جاذبية الأرض؛ فيكون الشيء ثقيلاً، وقد يكون هذا الثقل أمراً ماديا، كما يحمل الإنسان - مثلاً - على ظهره أردباً من القمح فيقدر على حمله، لكنه إن زاده إلى أردب ونصف ، فالحمل يكون ثقيلاً على ظهره لأن طاقته لا تتحمل مثل هذا الوزن « فيبخ » به .

﴿ ثقلت في السموات والأرض ﴾

والثقل لا يكون مادياً فقط، بل هو ثقل فكرى وعقلى أيضاً، مثال ذلك حين يقوم الطالب بحل تمرين هندسى أو تمرين فى مادة الجبر، فالطالب يشعر أحياناً أن مثل هذا التمرين ثقيل على فكره، وصعب الحل فى بعض الأحيان.

وقد يكون الأمر ثقيلاً على النفس فى ملكاتها، مثل الهم جاثم على الصدر وثقيل عليه، وهو أقسى أنواع الثقل، ولذلك فالشاعر القديم يقول:

ليس بحمل ما أطاق الظهر

ما الحمل إلا ما وعاه الصدر

إذن هناك ثلاثة أثقال: ثقل مادى، وثقل فكرى، وثقل نفسى.

و﴿ ثقلت في السموات ﴾، ونحن نعلم أن السموات فيها الملائكة. ونعلم أن الملائكة أيضاً لا نعرف ميعاد الساعة، ولا يحاول معرفتها إلا الإنسان بشهوة الفكر، أما الملائكة فهى ليست مكلفة لأنها لا اختيار لها، وبعضها يخدم البشر، وهم الملائكة الذين سجدوا لآدم وهم الموكلون بمصالحه، وبحياته، وقد رضخوا لأمر الحق بأن هناك سيداً جديداً للكون. فكونوا جميعاً مسخرين فى خدمته، وهم الملائكة الحفظة الكرام الكاتبون، ولهم إلف بالخلق، إلف كاره للعاصى، وإلف محب للطائع. ومن يسير على منهج الله من البشر يفرحون به. وإن وقع من الطائع زلة، يأسون له ويتمنون ألا تقع منه زلة أخرى. ومن يسير ضد منهج الله يغضبون منه، والنبى صلى الله عليه وسلم يقول فيما يرويه عنه أبو هريرة رضى الله عنه: «ما من يوم يصبح العباد فيه إلا ملكان ينزلان فيقول أحدهما: اللهم أعط منفقا خلفا، ويقول الآخر اللهم أعط ممسكا تلفاً»(١)

ونعلم أن المنفق سيأخذ ثواب إنفاقه، أما الممسك فإن تلف ماله وصبر عليه فهو أيضاً ينال ثواباً عليه. وهكذا تدعو لنا الملائكة.

(١) رواه الدار قطنى فى سننه.

و« ثقلت » هنا تعنى أن ميعاد الساعة لا يعرفه إلا ربنا، فلا يعرف ذلك الميعاد من هم فى السموات وكذلك من هم فى الأرض، وكل من على الأرض خائف مما سوف يحدث لحظة قيام الساعة، وخصوصاً أن المصطفى صلى الله عليه وسلم، يعطى لها صورة توضح قوله الحق:

﴿ لا تأتيكم إلا بغتة ﴾

ويخبرنا الرسول صلى الله عليه وسلم بالحالة التى تأتى عليها فيقول: « إن الساعة تهيج بالناس والرجل يصلح حوضه والرجل يسقى ماشيته والرجل يقيم سلعته فى السوق والرجل يخفض ميزانه ويرفعه »(١)

ومثل هذه التوقعات تخيف.

وقوله الحق:

﴿ ثقلت فى السموات والأرض لا تأتيكم إلا بغتة ﴾

أى أن الواقع فى هذا اليوم يكون فوق احتمال البشر وهو يأتى بغتة، أى يجىء من غير استعداد نفسى لاستقباله. ويتابع سبحانه:

﴿ يسألونك كأنك حفى عنها ﴾

وحفىَ من الحفاوة، والحفىّ هو المُلِحّ فى طلب الأشياء، مثل التلميذ الذى يتوقف عند درس لا يفهمه، فيسأل هذا، وذاك إلى أن يجد إجابة.

والحفى بالسؤال عن أمر يحاول أن يصل إليه، والحفى أيضا عالم بما يسأل عنه، وسبب العلم أنه ألحّ فى السؤال عليها.

والأمور التى يعالجها الإنسان إما أن يعالجها وهو مستقر فى مكانه كالأمور الفكرية أو العضلية الموقوتة بمكان، وقد يكون أمراً بعيداً عن مكانه ويريد أن

(١) رواه سعيد عن قتادة.

يعالجه، فيقطع المسافة إلى المكان الثانى لتحقيق هذه المهمة، إنما يمشى ويسعى على رجليه، و« يدوب » النعل الذى يضعه فى قدميه من المشى فيقال عنه إنه: «حافى». ولذلك يقال: حفى فلان إلى أن وصل للشىء الفلانى، أى سار مرات كثيرة وقطع عدة مسافات، مزقت نعله حتى جعلته يمشى حافياً. وهنا يقول الحق على ألسنة القوم: ﴿ كأنك حفى عنها ﴾ أى أنك مُعْنى بها، ودائب السؤال عنها، وعارف لها.

وتأتى الإجابة من الحق:

﴿ قل إنما علمها عند الله ﴾

وفى ذات الآية سبق أن قال: ﴿ علمها عند ربى ﴾

والربوبية متعلقها الخلق، والرعاية بالقيومية لمصالح البشر، والألوهية متعلقها العبادة وتطبيق المنهج، وجاء الحق فى هذه الآية، مرة بالربوبية، ومرة بالألوهية. والأولى هى علة الثانية، فأنت أخذت الله معبوداً، وأطعته لأنه خلقك ووضع لك المنهج، ولا يدخر وسعاً بربوبيته أن يقدم للعبد الصالح كل شىء ويمنحه البركة، وكذلك يعطى الكافر إن أخذ بالأسباب ولكن دون بركة وبغير ثواب فى الدنيا أو الآخرة، لذلك هو الإله الحق الذى نتبع منهجه.

﴿ قل إنما علمها عند الله ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾

وأكثر الناس الذين يسألون عن موعد الساعة لا يعلمون أن ربنا قد أخفاها، وسبحانه هو القائل:

﴿ إِنَّ السَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ ﴾

(سورة طه)

هم إذن لا يعلمون أن علمها عند الله.

ويقول سبحانه وتعالى:

﴿ قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿١٨٨﴾ ﴾

ويقول الحق تبارك وتعالى على لسان رسوله: أنتم تسألونني عن الساعة، وأنا بشر، ومتلقّ فقط، والإرسال بالمنهج يأتي من الله وأنا أبلغه، ولا علم لي بموعد قيام الساعة، ولا أملك لنفسي لا ضراً ولا نفعاً، أي لا أملك أن أدفع الضر عني أو أجلب النفع لنفسي، ولكن حين يسوق الله النفع أو يمنع الضر، فالإنسان يملك ما يعطيه الله، والعاقل حين يملك، يقول: إن هذا ملك عَرَضي، لا آمن أن ينتزع مني. ولذلك قال لنا الحق تبارك وتعالى:

﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُۖ بِيَدِكَ ٱلۡخَيۡرُۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٢٦﴾ ﴾ (سورة آل عمران)

وهنا يقول الحق تبارك وتعالى:

﴿ قل لا أملك لنفسي نفعاً ولا ضراً إلا ما شاء الله ﴾

أي أنّ أحداً لا يملك شيئاً إلا ما شاء الله أن يملكه، ورسول الله من البشر. ويضيف:

﴿ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُ ﴾

(من الآية ١٨٨ سورة الأعراف)